المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن
عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي.
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها.

مظاهر الحضارة الأندلسية في شعر لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ – ٧٧٦هـ)

دراسة موضوعية وفنية

رسالة مقدمة كمتطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها في تخصص الأدب العربي القديم

مقدمة من

شقحاء بنت فالح البجيدي العنزي

المعيدة بكلية التربية – جامعة الحدود الشمالية

إشراف

الدكتورة/ ليلى بنت محمد بن عبد الرحمن الدخيل

أستاذة الأدب العربي المساعدة بكلية الآداب – جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن – الرياض

العام الجامعي

١٤٢٩ – ١٤٣٠هـ

Kingdom of Saudi Arabia
The Ministry of Higher Studies
Princess Nora Bint Abdurrahman University
The Chairman Quarter of Higher studies
College of Arts
Department of Arabic Language

The main features of the Andalusia's civilization concerning the poetry of (Lessan Al-Dean Bin Al-Kateeb) (713-776H).

An objective Technical study

A dissertation submitted to the Department of the required for the Degree of master of philosophy in literature-old Literature.

Prepared by/
Shaqhaa Bint Faleh Albajedi Al-Enazi

Supervised by/
Doctor: Layla Bent Mohammed Aldakheel

1429-1430 A*H*

شكر وتقدير

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، والشكر والثناء الحسن على توفيقه ومنِّه وعطائه وإحسانه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله، محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد:

فإن الحمد لله -عز وجل- من قبل ومن بعد، أن سهل لي طريقاً ألتمس فيه علماً نافعاً، ووفقني في بحثي هذا ويسر لي كتابته، وذلل عقبات الطريق بواسع فضله وإحسانه، فلك الحمد ربي حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

ولمن كانا شمساً أضاءت لي طريقي، وقدوة علمتني الصبر **لوالدي الكريمين** أجزل الشكر وأسمى عبارات الامتنان، فلقد غرسا في نفسي حب العلم، وما زالا يهونان علي صعابه، ويحفاني بدعواتهما الصادقة، فلهما كل الحب، وأوفر الثناء، وأخلص الدعاء.

ولزوجي العزيز الذي كان نِعم المعين في أصعب المواقف. **ولصغاري الأحباء**، الورد الناضر، لمن أرى في أعينهم أملاً بغدٍ أفضل، أسأل الله لهم علماً وعملاً صالحاً في الدنيا والآخرة، **ولإخوتي وأخواتي** وأخص منهم أخوي أبوعثمان ومحمد من لا أنسى فضلهما بعد الله علي ، لهم جميعاً وافر الشكر وخالص الدعاء.

واعترافاً بالفضل لذوي الفضل أتقدم بالشكر لأستاذي الفاضل، المشرف السابق الدكتور/ **حمدي بن أحمد حسانين**. الذي ساعدني في اختيار الموضوع ووضع الخطط اللازمة له. فله أعظم التقدير والامتنان.

ولمشرفتي القديرة الدكتورة/ **ليلى بنت محمد الدخيل**، التي أمدتني بالتشجيع والمثابرة والإرشاد، ولم يقتصر فضلها على ذلك بل تعداه إلى حسن استقبالها وطيب كرمها كلما قدمت إلى منطقة الرياض، فلم تبخل علي بوقت أو علم أو جهد، يعجز اللسان عن وصفه، فلها أسمى شكر يسطره بناني، وأسأل الله أن يجعل جهدها وتعبها في ميزان حسناتها، وأن يثيبها عليه خير الجزاء.

كما أتقدم بشكري الجزيل إلى عضوي المناقشة الكريمين على قبولهما مناقشة هذه الرسالة وتعهدها بالتوجيه السديد ، والتقويم البناء. فالله أسأل أن ينفعنا بعلمهم ويجزل لهم الأجر والمثوبة إنه سميع مجيب.

وأتوجه -أيضاً –بوافر شكري إلى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية التربية للبنات بالرياض، أساتذة واستاذات، وأخص منهم رئيسة القسم السابقة الدكتورة/**هدى بنت عبد العزيز السراء**، ورئيسته الحالية الدكتورة/ **نوال بنت إبراهيم الحلوة.** ووكيلة الدراسات العليا الدكتورة/ **نوال العرادي**. وعميد الكلية الدكتورة/ **ست الحسن بنت حامد الجهني**.

وأزجي عظيم شكري وامتناني إلى كلية التربية للبنات **بجامعة الحدود الشمالية** التي رشحتني لإكمال دراستي العليا متمثلة في عميدتها الفاضلة الدكتورة/ **هناء حسنين مرسي**.

وختاماً أوجه شكري وامتناني إلى جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، وعمادة الدراسات العليا والبحث العلمي. لإتاحتهم لي فرصة الانضمام إلى حقل الدراسات العليا ، وعلى ما تبذله دائماً من جهود جبارة من أجل النهوض بالعملية التعليمية في بلادنا الحبيبة المملكة العربية السعودية.

ولا يفوتني أن أوجه الشكر والتقدير لكل من شد عضدي وأخذ بيدي في هذا البحث قلّ ذلك أو كثر، نصحاً وإرشاداً أو دعاءً.

والحمد لله رب العالمين، ، ،

الباحثة

شقحاء فالح البجيدي.

ملخص الرسالة باللغة العربية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

هذه رسالة بعنوان (مظاهر الحضارة الأندلسية في شعر لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ -٧٧٦هـ). دراسة موضوعية وفنية)، وقد احتوت مقدمة وتمهيداً وفصولاً ثلاثة تتلوها خاتمة.

ولقد تناولت في الفصل الأول العوامل التي أثرت في شعر لسان الدين بن الخطيب فحصرتها في ثلاثة عوامل هي: العوامل البيئية، والعوامل الذاتية، والعوامل الحضارية.

وأفردت الفصل الثاني بالدراسة الموضوعية للمظاهر الحضارية في شعر ابن الخطيب حيث بدأت أولاً بمظاهر الحضارة الإنسانية، تليها مظاهر الحضارة الفكرية، ثم مظاهر الحضارة الاجتماعية، فالسياسية ثم ختمت بمظاهر الحضارة العمرانية والطبيعية.

وقد قمت في الفصل الثالث بالدراسة الفنية لشعر ابن الخطيب للتعرف على مدى تأثره بالحضارة وذلك من ناحية: البناء الفني للقصيدة، والألفاظ والتراكيب والصورة والإيقاع.

وتأتي بعد ذلك الخاتمة التي ذكرت فيها النتائج التي تم التوصل إليها وأذكر منها:

١ - إن ارتقاء الفكر يؤدي إلى ازدهار كافة نواحي الحضارة المادية الأخرى، لذلك كان العلم مرادفاً للحضارة الإسلامية، ونشاطه يعني رقيها الفكري والإنساني وهو ما تحقق في مملكة غرناطة، ووجدنا أصداءه في شعر بن الخطيب.

٢ - أصبح التفوق العلمي والتأخر فيه محوراً للمدح والذم في هذا العصر. كما كانت الكتب أفضل الهدايا التي يمكن إهداءها لمقام العظماء. وهذا يؤكد على قيمة العلم العظيمة وتقديره في هذا المجتمع.

٣ - لاحظنا في شعر ابن الخطيب الكثير من الإشارات الحضارية لأنواع الملابس، والعطور، والأقمشة وأدوات الزينة وأنواع الموائد .... وغيرها مما يدل على درجة كبيرة من التحضر والثراء والبذخ.

٤ - كانت سياسة حكام غرناطة من أهم العوامل التي نهضت بها حضارياً.

٥ - كان من تأثير الحضارة أن الاهتمام بالنقش والتزيين ظهر حتى على الأسلحة والملابس الحربية.

٦ - كان الخط العربي من أبرز وسائل الزخرفة في العمران الغرناطي.

٧ - كانت الرقة في الألفاظ وسهولتها والتجاوز في استعمال بعض الألفاظ والتراكيب العامية، واللجوء إلى المعرب والدخيل من الألفاظ من أوضح مظاهر التأثير الحضاري في لغة الشعر.

٨ - لوحظ شيوع الأوزان القصار السهلة الخفيفة ومجزوءاتها لسبب ازدهار الغناء. كما شاع النظم بالروي المقيد للسبب نفسه لأنه أيسر في التلحين.

٩ - كان بحرا الكامل والطويل من أكثر البحور التي نظم فيها ابن الخطيب أوصافاً حضارية لأنها بكثرة تفاعيلها تمكن الشاعر من استيفاء جزيئات الموصوف.

١٠ - الملاحظ خروج ابن الخطيب عن الأوزان الخليلية المعروفة. ومن الجديد في القافية نظم الشعر المشطر ومنه المخمسات والمثمنات كذلك الموشحات التي تعد نتاجاً للحضارة بتعدد أوزانها وقوافيها.

وأخيراً آمل أن أكون قد وفقت في إنجاز هذه الرسالة على الوجه الذي يليق بالشعر الأندلسي جمالاً ومنزلةً، كما أرجو أن تكون هذه الرسالة قد أضافت شيئاً يسيراً إلى المكتبة العربية الثرية بكل ما هو رائع ومفيد.

وآخر دعواناً أن الحمد لله رب العالمين، ،

❖ ❖ ❖

المـــقدمة

الحمد لله الذي ملكه الثابت لا يدول، وعزه الدائم لا يزول، وأحوال ما سواه تحول، الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك، تطلعها من المشارق نيّره، ثم تذهب بها غابرة أو متغيرة. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام، الذي جعله في روض هذا الوجود زهرة الكمام، وختم ديوان الأنبياء من دعوته الحنيفية السمحة بمسكه الختام، والرضا عن آله البررة الأعلام، ما قذفت بشهد الحكمةِ نحل الأقلام، وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

ذهبت الأندلس، ولم يبرح مني حبها، وتعلقي بأدبها، الذي يشغل حيزاً من اهتمامي وتفكيري، إلى أن أتيحت لي فرصة مواصلة دراستي العليا. وفي نطاق الأدب الأندلسي فتشت عن موضوع حيوي لم تطوه يد الزمان بمرور عصره ويكون – في الوقت نفسه – أحد محاور الحياة الرئيسة في البيئة الأندلسية، حتى وجدت ضالتي في موضوع الحضارة، التي كانت توسم بها جميع مناحي الحياة الأندلسية وقد استأثرت بحيز كبير من مرآة الشعر التي هي انعكاس صادق لما يميز المجتمع ويجري فيه. فرأيت أن أتناول مظاهر هذه الحضارة وتأثيرها في الأدب من خلال شعر أحد الأعلام الذين أنجبتهم الأندلس، فوقع اختياري بعد اقتراح أستاذي الدكتور: حمدي أحمد حسانين على الشاعر لسان الدين بن الخطيب. حيث كان لمكانته العلمية، وتوليه الوزارة في بلاط "بني نصر" أثراً كبيراً في اجتلاء معالم ذلك المجتمع ومستواه الحضاري في كافة مجالات الحياة، لقربه من السلاطين، مما يجعل الحضارة تتجلى في أفخم وأرقى مظاهرها. فكان الأنموذج الأمثل الذي ساعد إنتاجه الشعري على هذه الدراسة. فكان عنوان رسالتي للماجستير (مظاهر الحضارة الأندلسية في شعر لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ – ٧٧٦ هـ) دراسة موضوعية وفنية). وقد بارك الأستاذ المشرف – السابق – وأعضاء قسم اللغة العربية وآدابها في كلية التربية هذا الموضوع، فكانت الانطلاقة.

ولقد حفزتني إلى اختيار هذا الموضوع عوامل عدة، منها:

١ - جدة الموضوع، وعدم وجود دراسات أكاديمية فيه، بالرغم من تأثيره الكبير في الحياة الأدبية، ومع ذلك لم أظفر بدراسة مستقلة في الأدب الأندلسي تناولت تأثير هذا الموضوع في الشعر.

٢ - إن هذا القرن الذي أخصه بالحديث – وهو القرن الثامن الهجري – يعد من عهود الخصب والسعة في تاريخ الأندلس العريق، خاصة بين ميادين العلم ومجالات التفكير وفي دنيا الأدب وفوق أغصان الفنون، فقد نبغ فيه من العلماء الجهابذة، والأدباء الأفذاذ

كثير من أعلامهم في مختلف مجالات النشاط الفكري والفني. كما تدل على ذلك العديد من مؤلفات ابن الخطيب التي ترجم فيها لطائفة كبيرة من هؤلاء العلماء والأدباء.

٣ - الكشف عن الأثر الحضاري في الشعر الأندلسي بعامة، وشعر لسان الدين بن الخطيب بصفة خاصة.

٤ - الوفاء لأحد رموز الفكر العربي في الأندلس بدراسة جانب مهم في إبداعه الشعري لم يتعرض إليه أحد من الدارسين.

٥ - رغبتي في التخصص في مجال الأدب الأندلسي الذي ما يزال بحاجة إلى دراسات عديدة تسبر أغواره وتكشف جوانب الجمال والبهاء والأصالة فيه.

ولهذه الدراسة أهداف شتى، منها:

١ - التعرف على مظاهر الحضارة المادية والمعنوية في الشعر الأندلسي ممثلاً في شعر لسان الدين بن الخطيب.

٢ - البحث في تأثير مثل هذه المظاهر الحضارية المادية والمعنوية في صياغة ألفاظ الشاعر، وتركيب عباراته، وتوظيفه للصورة في خدمة موضوعاته وأفكاره. في دراسة فنية جادة وشاملة للوقوف على أفكار نقدية تتحرر من المسلمات الأدبية التي تفرض نفسها على الأدب القديم.

٣ - الإسهام في خدمة الأدب العربي في الأندلس، كي يأخذ الأدب الأندلسي مكانته التي يستحقها في المحافل والجامعات والمنتديات بعد أن انصرف عنه الدارسون، ومالت الدراسات في معظمها لدراسة الأدب المشرقي.

٤ - الإسهام في دفع الجور والظلم الذي تعرض له الأدب الأندلسي بسبب اتهامه بأنه فقير من الناحية الفنية والفكرية، وذلك من خلال تجلية جوانب الإبداع والأصالة والتميز في هذا الأدب.

وبالنسبة **للمنهج** الذي اعتمدته في هذه الرسالة فهو المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث أستقريء النصوص ثم أحللها تحليلاً موضوعياً يبحث في جزئياتها، ويتقصى دخائلها، ويلي ذلك التحليل النقدي الذي يقف على مواطن الإبداع أو الإخفاق لدى ابن الخطيب فى وصف مظاهر الحضارة ، كما استعنت – في بعض الأحيان – بالمنهج الإحصائي وذلك حسب ما تقتضيه حاجة البحث.

وقد تمثلت **مادة هذا البحث** فيما صدر عن ابن الخطيب من أشعار ضمنها في ديوانه، وقد اعتمدت في هذا السبيل على الديوان الذي حققه محمد مفتاح.

وقد رفدت هذا البحث طائفة من المصادر والمراجع حيث اعتمدت على عدد كبير من كتب الأدب المختلفة والدواوين الشعرية. كما استعنت بكتب البلاغة والنقد قديمة

وحديثة، فكانت بوابة ولجت من خلالها إلى أسرار النصوص البلاغية وكوامنها الإبداعية. كما استضأت بقبس من كتب التراجم للوقوف على أنساب الأعلام الواردين في هذا البحث وتراجمهم. كما اعتمدت على بعض كتب التاريخ التي ألفها ابن الخطيب وابن خلدون، والمقري.... وغيرهم للوقوف، على الأوضاع السياسية والاجتماعية في الغرب الإسلامي في القرنين السابع والثامن الهجريين كما استعنت بالمعاجم الجغرافية لاسيما الأندلسية في تحديد الأماكن والمواضع.

وقد استعنت بلسان العرب لابن منظور في شرح المفردات الصعبة وذلك لكونه معجماً ضخماً وافياً ولم أشر إلى ذلك في الهوامش بقصد الاختصار. وربما استعنت بغيره، فأشرت إلى ذلك في موضعه.

وقد ترجمت للأعلام، وعرفت بهم قدر المستطاع، كما أطلقت على الأعداء المحيطين بمملكة غرناطة صفة النصارى المسيحيين.

وقد سار هذا البحث وفق **خطة** تشمل مقدمة وتمهيداً وثلاثة فصولٍ، ثم خاتمة. وذلك على النحو التالي:

المقدمة وتحوي سبب اختيار الموضوع، والهدف من دراسته، والمصادر والمراجع التي اعتمد عليها هذا البحث، بالإضافة إلى المنهج المتبع فيه، وخطته التي سار على ضوئها.

أما **التمهيد** فقد تحدث عن ترجمة الشاعر لسان الدين ابن الخطيب، وتناول مصطلح الحضارة بالتعريف حيث كان مفهوم الحضارة الإسلامية التي يتكامل فيها الجانبان المادي والروحي هو المفهوم الذي اعتمده البحث وسار على ضوئه. كما عرض للحضارة الأندلسية وأهم العوامل التي أدت إلى ازدهارها في القرن الثامن الهجري.

وقد تحدث **الفصل الأول** عن أهم العوامل التي أثرت في شعر لسان الدين بن الخطيب وهي محصورة في ثلاثة عوامل رئيسة موزعة على ثلاثة مباحث هي: العوامل البيئية، والعوامل الذاتية، والعوامل الحضارية.

في حين تناول **الفصل الثاني** الدراسة الموضوعية لمظاهر الحضارة الأندلسية في شعر لسان الدين بن الخطيب وقد اقتضت تلك الدارسة أن يأتي هذا الفصل في خمسة مباحث، أولها: مظاهر الحضارة الإنسانية، وثانيها: مظاهر الحضارة الفكرية، وثالثها: مظاهر الحضارة الاجتماعية، ورابعها مظاهر الحضارة السياسية، وخامسها مظاهر الحضارة العمرانية والطبيعية.

ويأتي **الفصل الثالث** ليتناول الشعر المتأثر بالحضارة بدراسة نقدية، وهو يقع في أربعة مباحث، هي: الأثر الحضاري في بناء القصيدة، والأثر الحضاري في الألفاظ والتراكيب، والأثر الحضاري في الصورة، وأخيراً الأثر الحضاري والإيقاع.

وتأتي بعد ذلك – **خاتمة** البحث، وفيها خلاصة ما توصل له البحث من نتائج وتوصيات ويلي ذلك ثبت المصادر والمراجع.

وفي الختام أحمد الله -تعالى -على ما هيأ لي من أسباب المضي في الموضوع وإتمامه. ولا أزعم أن هذا العمل قد بلغ الغاية في الإتقان، وإنما هو جهد المقل، بذلت فيه ما في وسعي، فإن أصبت فمنه وحده سبحانه، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وحسبي بعد ذلك شرف المحاولة ونبل المقصد.

وأخيراً أدعو الله -عز وجل -أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحثة.

التمهيد :

أولاً : ترجمة الشاعر.

ثانيا : الحضارة " المفهوم والمصطلح ".

ثالثا : الحضارة الأندلسية وعوامل نهضتها في القرن الثامن الهجري.

أولا : ترجمة الشاعر:

توطئة:

بعد اضمحلال شأن الموحدين (٥٤١ – ٦٢٠ هـ) وضعف أمرهم في بلاد المغرب والأندلس في أوائل القرن السابع الهجري، اجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية. وانتهى هذا الصراع بين أسبانيا المسلمة وأسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن، بسقوط معظم القواعد الأندلسية في يد النصارى.[١] فتضاءلت رقعة الأندلس، وانحصرت في الركن الجنوبي الشرقي للمملكة الإسلامية القديمة، في مملكة غرناطة.

تأسست مملكة غرناطة على يد " الغالب بالله " " محمد بن يوسف بن الأحمر" زعيم أسرة بني نصر سنة (٦٣٥هـ - ١٢٣٨م)[٢]. واستطاعت أن تصمد رغم الكروب التي كانت تحدق بها، والمخاطر التي تكتنفها – قرنين ونصف – كانت فيها (مستودع تراث الأندلس القومي والسياسي ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي).[٣] كان ملوك غرناطة مثل ملوك الأندلس السابقين، من حُماة الآداب والعلوم لهذا أخذت الحركة الفكرية في عهدهم في الاستقرار، وازدهر الأدب والشعر وحفل بلاطهم بجمهرة من أعلام المفكرين والأدباء والشعراء مثل: أبي الحسن القيجاطي ت(٧٣٠هـ)[٤]. وأبي الحسن علي بن الجياب (٧٤٩ هـ)[٥] وأبي سعيد بن لُبّ ت(٧٨٣ هـ)[٦] وابن الخطيب ..... وغيرهم كثير.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن سقوط دولة الموحدين بالأندلس انظر: عبد الملك بن "صاحب الصلاة": تاريخ المن بالإمامة. تحقيق: د. عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، مواضع متفرقة حيث أرخ بدقة لتاريخ الأندلس في عهد الموحدين حتى سنة ٥٦٨هـ. ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين ، تحقيق د. محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، الطبعة الأولى ، دار العرب الإسلامي ، بيروت – دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥م – ص : ٢٦٣ ، وما بعدها .

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. تحقيق د. محمد زينهم، الطبعة الأولى ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص: ٤٤ وما بعدها.

(٣) د. جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، طبعة دار المعارف، القاهرة (د. ت)، ص: ٥٨.

(٤) علي بن عمر القيجاطي ولد سنة (٦٥٠هـ) استوطن غرناطة وتوفى فيها ذكره ابن الخطيب في مشيخته فقال (هو أول أستاذ قرأت عليه القرآن، والعربية، والأدب...) انظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: د. محمد عبد الله عنان الطبعة الرابعة مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م : ١٠٤/٤ - ١٠٧. أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م: ٥٠٧/٥ - ٥٠٩.

(٥) أبو الحسن ابن الجياب، ولد بغرناطة سنة ٦٧٣هـ. كان وزيراً للسلطان يوسف أبي الحجاج النصري إلى جانب رئاسته لديوان الإنشاء، وصفه ابن خلدون بأنه (شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ...) توفي في الوباء الكبير – الطاعون – الذي عم بلاد الأندلس. انظر: لسان الدين بن الخطيب: أوصاف الناس في التواريخ والصِّلات. تحقيق د. محمد كمال شبانة، طبعة اللجنة المشتركة لطبع التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، المغرب، (د. ت)، ص: ٥٧ – ٥٨. المقري: نفح الطيب: ٤٣٤/٥ – ٤٦٤.

(٦) أبو سعيد فرج بن لب التغلبي، من أهل غرناطة ولد سنة ٧٠١هـ تولى الخطابة في المسجد الأعظم والتدريس بالمدرسة النصرية، وهو مرجع الفتوى ببلده وصفه ابن الخطيب بأنه (من أهل الخير والطهارة والزكا والديانة وحسن الخلق ...). انظرابن الخطيب: الإحاطة: ٢٥٣/٤ – ٢٥٥.

وقد أشار "جنثالث بالنثيا" إلى هذا النبوغ الفكري في مملكة غرناطة فقال " ظل مستوى الثقافة رفيعاً في مملكة غرناطة حتى القرن الخامس عشر الميلادي، فعاش في بلادها شعراء من طراز ابن سعيد المغربي[١].... ولسان الدين بن الخطيب، يسترجعون ذكريات الأزمن الزاهرة الخوالي ويعيدون إلى نفوسنا ذكراها ".[٢] وهذا يدل بوضوح على الجو الفكري النشط الذي شهدته مملكة غرناطة في عصر ابن الخطيب.

لسان الدين بن الخطيب :

هو: محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن علي بن أحمد السلماني[٣]. نسبه إلى سلمان، وهو حي من مراد من عرب اليمن القحطانية. ويكنى "بأبي عبد الله" و يلقب "بلسان الدين" وهو من الألقاب الشائعة في بلاد المشرق الإسلامي.

دخل الأندلس عقب الفتح جماعة من أهل الشام ومنهم سلف لسان الدين، ونزلوا في قرطبة، ثم انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية، كـ"يحيى بن يحيى الليثي" وأمثاله عند "وقعة الرَّبضِ"[٤] الشهيرة إلى طليطلة واستقرت بها لمدة قرن ونصف.

وعندما أصبحت طُليطلة مطمعاً للنصارى، غادرت الأسرة إلى مدينة " لوْشَه " وفي هذه المدينة ولد لسان الدين في الخامس والعشرين من رجب سنة ٧١٣هـ، ونشأ في بيت علمٍ وفضلٍ وجاه، وقد ذكر ابن الخطيب أن بيتهم كان يسمى قديماً **"ببني وزير"**، ثم سُمُوا "**بني الخطيب**" نسبةً إلى جدهِ الأعلى سعيد، وقد كان من أهل العلم والخير

---

[١] أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربي ولد بين(٦٠٥ – ٦١٠هـ) درس اللغة والشعر على أعلام إشبيلية ورحل إلى المشرق وادى فريضة الحج ورجع سنة ٦٨٥هـ. أشهر مؤلفاته " المُغرب في حلى المغرب ". انظر: محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، طبعة دار صادر، بيروت، (د.ت): ١٠٣/٣. المقري: نفح الطيب: ٢/ ٢٦٢، وما بعدها.

[٢] جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: د. حسين مؤنس، طبعة : مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت)، ص: ٢٤-٢٥.

[٣] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة: ٤٣٨/٤.

[٤] وقعة الرّبض: تطلق على الثورة التي قام بها أهل قرطبة بتحريض من الفقهاء ضد الحكم بن هشام – الخليفة الأموي – بقصد خلعه سنة ٢٠٢هـ. وكان الربض محلة متصلة بقصره، فقتلهم وهدّم كل مباني هذه المنطقة وتركها خلاء. انظر: ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: د. محمود علي مكي، طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤م، تعليق رقم: ٥٧، ص: ٢٥٣ – ٢٥٤، أبا عبد الله الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: د. صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤م، ص: ٢٤.

والصلاح، وكان يلقي خطبه ويقرأ القرآن عند برج بأحد أملاك أسرته يقع على الطريق الممتدة من غرناطة إلى إشبيلية. ومن ثم غلب عليه اسم " الخطيب"، وتوارث بنوه هذا اللقب منذ ذلك الحين.

ويحدثنا ابن الخطيب عن والده عبد الله – وقد أفرد له ترجمة في بعض كتبه[١] وكان من أكابر العلماء والخاصة وذكر أنه ولد سنة (٦٧٢هـ)، ونشأ بغرناطة مترفاً منعماً ، ثم عادة إلى لوشه مقر سلفه حيناً ، ثم عاد إلى غرناطة لخدمة السلطان " أبي الوليد إسماعيل " الذي جلس على عرش غرناطة في سنة (٧١٣ هـ)[٢]. واستعمل على مخازن الطعام.[٣] ثم في ديوان الإنشاء مع الكاتب "أبي الحسن بن الجيّاب"، وأسبغ عليه لقب الوزارة، حتى وافته المنية مع ولده الأكبر في موقعة طَرِيف[٤] سنة ٧٤١هـ.

ونشأ لسان الدين في غرناطة، التي كانت في ذلك الوقت تحفل بجمهرة من أعظم العلماء والأدباء، فدرس اللغة والشريعة والأدب على أقطاب العصر، منهم ما ذكره صاحب " النفح " نقلاً عن الأمير " أبي الوليد ابن الأحمر" معاصر ابن الخطيب:

(قرأ القرآن على المكتِّب الصالح أبي عبد الله بن عبد الولى العوَّاد تكتُّباً ثم حفظاً ثم تجويداً ثم ..... على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي وقرأ عليه العربية وهو أول من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جُزَي، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخَّار البيريّ شيخ النحويين لعهده .....

---

[١] أفرد له ترجمة في: الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣٨٦/٣ – ٣٩٢، وفي ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق: د. محمد عبد الله عنان، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٩٨١م، ٣٩٢/٢ – ٣٩٣، وفي التاج المحلى في مساجلة القِدْح المُعلىَّ، ونقلها في أوصاف الناس في التواريخ والصلات، ص: ٨٢- ٨٤.

[٢] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ١١.

[٣] انظر: عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة الثانية دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م : ٧/ ٣٩٢.

[٤] حدثت هذه المعركة بين النصارى الاسبان والمسلمين بقيادة السلطان أبي الحسن المريني سلطان المغرب، وأبى الحجاج يوسف سلطان غرناطة، هزم فيها المسلمون هزيمة منكرة، وفقدوا فيها مدينة طريف همزة الوصل بين الأندلس والمغرب. انظر: ابن الخطيب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: د. محمد كمال شبانة، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص: ٣٥ – ٤٢.

وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجيّاب، وروى عن كثير من الأعيان .....).[١] كذلك درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه "أبي زكريا يحي بن هذيل" ت (٧٥٣هـ)، فكان الطب والأدب أبرز ما تفوق فيه ابن الخطيب، فلما توفي والده دُعي للخدمة مكان أبيه، فتولى كتابة السر لأستاذه "أبي الحسن بن الجيّاب" وزير السلطان "أبي الحجاج بن نصر" (٧٣٣ – ٧٥٥ هـ) الذي تمرس عنده على أرفع أساليب النظم والنثر فظهرت مواهبه الفذة في كتابة الرسائل السلطانية. وفي ذلك يقول: (فقلدّني السلطان كتابة سِرّه، ولما يجتمع الشباب ويستكمل السن معززةً بالقيادة ورسوم الوزارة ...)[٢]. فلما توفي رئيسه في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩هـ خلفه ابن الخطيب في رئاسة ديوان الإنشاء ومنحه السلطان رتبة الوزارة وألقابها، وكان كبير الوزراء في ذلك الوقت الحاجب "أبا النعيم رضوان".

ولما توفي السلطان " يوسف أبو الحجاج " قتيلاً يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥هـ، خلفهُ في ملكهِ ابنه " أبو عبد اللّه محمد الخامس " (الغني باللّه) واستمر " الحاجب رضوان" في منصبه وكذلك ابن الخطيب. فكانت أولى مهامه هي السفارة إلى سلطان المغرب "أبي عنان المريني" على رأس وفد من رجالات الأندلس لتجديد أواصر المحبة التي كانت بين أبيه والسلطان "أبي عنان"، ويطلب عونه في مقاومة ملك قشتالهْ. فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدّم وفدهُ واستأذنهُ في إنشاد شيءٍ من الشعر فأذن له، وأنشد وهو قائم القصيدة التي كان مطلعها :[٣]

خَلِيفَةُ اللّهِ سَاعَدَ القَدَرُ عُلاكَ ما لاَحَ في الدُّجىَ قَمَرُ

---

[١] المقري: نفح الطيب : ٧٥/٥، وقد عقد المقري باباً كاملاً في ذكر مشايخ ابن الخطيب، ١٨٩/٥ – ٦٠٥، كذلك ترجم لهم لسان الدين في الإحاطة.
[٢] ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٧٧/٤، وقد جمع ابن الخطيب الكثير من رسائله السلطانية فيما بعد في كتابه " ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب".
[٣] ديوان ابن الخطيب، تحقيق:د. محمد مفتاح، الطبعة الأولى دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص: ٤٠٣ – ٤٠٤.

فتأثر السلطان كثيراً بهذه القصيدة ووعدهُ قبل أن يجلس بإجابة كل مطالبهم.[١] فاستأثر ابن الخطيب بثقة الغني بالله، وأسبغ عليه لقب " ذي الوزارتين " لجمعه بين الكتابة والوزارة.

وفي سنة (٧٦٠هـ) حدث انقلاب في غرناطة عندما كان "الغني بالله" مع أهله في قصر "جنة العريف"[٢]، فانتهز المتآمرون فرصة ابتعاده وهاجموا القلعة في الثامن والعشرين من شهر رمضان، وهم: أخوه الأمير إسماعيل ومعه جماعة من الزعماء الناقمين على "الغني بالله"، وفي مقدمتهم صهره الرئيس " محمد بن إسماعيل ابن فرج "محمد السادس".[٣] فدخلوا إلى دار الحاجب "رضوان" وقتلوه بين أهله ونادوا بإسماعيل أخي السلطان ملكاً. فلما أحس "الغني بالله" بما يحدث في الحمراء فرَّ إلى "وادي آش".[٤]

وجد ابن الخطيب نفسه في هذا الوضع الحرج، فسعى إلى مصانعة السلطان الجديد الذي أمنه لمدة قصيرة ثم ارتاب منه بتحريض من خصومه فقبض عليه، وصادر سائر أملاكه وضياعه وقد قال ابن الخطيب في هذا الأمر: (فاستؤصلت نعمة لم تكن من ذوات النظائر ولا ربّات الأمثال في تبحر الغلة و غبطة العقار، ونظافة الآلات ...)[٥].

وظل مسجوناً إلى أن وردت شفاعة السلطان " أبي سالم المريني " وجعلت خلاص ابن الخطيب وسلطانه " الغني بالله " شرطاً في مسالمة الدولة، فقبل الثوار بذلك وانتقل "الغني بالله" مع وزيره إلى السلطان "أبي سالم" الذي ركب في موكبٍ لتلقيه في يومٍ مشهود، وأكرم مثواهم في مدينة "فاس"، ووفر لهم الأرزاق، وأرغد عيش ابن الخطيب بالجراية والإقطاع، ثم شفع له مرة أخرى فردّت عليه ضياعه بغرناطة.

---

(١) انظر: ابن خلدون: العبر: ٣٩٥/٧.

(٢) يقع هذا القصر شمال شرقي قصر الحمراء. انظر: د. محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦١م، ص: ٢١١ – ٢١٣.

(٣) انظر ترجمته في:ابن الخطيب: الإحاطة : ٥٢٣/١، وما بعدها.

(٤) وادي آش: مدينة منيعة قريبة من غرناطة، كثيرة الفواكه والمزارع، انظر: أبا عبد الله محمد بن عبد الله الحميري: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية ، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص: ١٩٢.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٤٣/٤.

ثم ذهب إلى مدينة "مُراكُش" وبعدها طاف بالبلاد المغربية لمشاهدة آثارها والاتصال بعلمائها، ثم انتهى به المطاف في ثغر "سلا " بجوار الرباط، حيث استقر بضاحيتها "شالّه" مرابطاً بجوار أضرحة ملوك "بني مرين".

ولم يخلد ابن الخطيب طوال مدة نفيه بالمغرب – وهي ثلاث سنوات – إلى الراحة بل عكف على القراءة والتأليف[١] وقرض الشعر. وعاش حياةً مستقرة لم يكدر صفوها إلا ما أصابه سنة (٧٦٢هـ)، في زوجته وأم أولاده التي توفيت أثناء إقامتها معه "بسلا"، وعند ذلك اشتدت آلامه وغمرته موجة من الحزن والأسى ظهرت آثارها بوضوح في نظمه ونثره، وقد رثاها بقصيدة مؤثرة جاء فيها:

رَوّعَ بَالِي وهَـــاجَ بَلْـبَالي[٢] وسَامَني الثُّكْلَ بعْدَ إقْبَالِ
ذَخِيرَتي حِينَ خَانَني زمني وعُـدَّتي في اشْتِدَاد أَهْوالِ

إلى أن يقول:

فَانْتظريني فَالشَّوقُ يُقْلِقُني ويَقْتضِي سُرْعَتِي وإعْجالي
ومَهِّدِي لِي لدَيْكِ مُضْطَجَعاً فَعنْ قَرِيبٍ يَكُون تَرْحَالِي[٣]

وفي سنة (٧٦٣هـ) عاد السلطان "محمد الخامس" إلى عرشه في "غرناطة" بمساعدة السلطان "أبي سالم إبراهيم المريني" وملك قشتالة "بدرو الأول" "الملقب بـ" القاسي " وما أن استقر في غرناطة حتى أرسل في طلب وزيره من المغرب للقيام بأعباء وزارته فحضر ابن الخطيب ومعه أسرة السلطان وولده.

وهكذا عاد ابن الخطيب إلى منصبه السابق، ولكن كان هناك من ينافسهُ في السلطة عند الغني باللّه وهو شيخ الغزاة[٤] "عثمان بن أبي يحيى " وكان السلطان يقربه لما قام به من معاونته في استرداد ملكه. فأخذ ابن الخطيب بالتدبير له حتى نكبه

---

[١] ألف في هذه الفترة مجموعة من كتبه مثل: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ونفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، والحلل المرقومة في اللمع المنظومة، ورقم الحلل في نظم الدول، وكناسة الدكان بعد انتقال السكان .... انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق: د. أحمد مختار العبادي، مراجعة: د. عبد العزيز الأهواني، طبعة: دار الكاتب العربي، القاهرة، (د.ت): ١٨٧/٢-١٨٨.

[٢] البلبال والبلبالة: شدة الهم والوسواس.

[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٠٥ – ٥٠٦.

[٤] شيخ الغزاة هو قائد الجيش، وهذه الوظيفة كانت لها مكانة مرموقة في مملكة غرناطة ولا يشغلها إلا أمراء الأسرة الحاكمة من بني عبد الحق ملوك فاس، والقيادة العامة لهذه القوة المغربية كان مقرها العاصمة غرناطة. وقد استمر منصب شيخ الغزاة هذا قائما في غرناطة حتى عام ٧٧٥هـ حينما ألغاه السلطان محمد الخامس وتولى قيادة الجنود المغاربة بنفسه. انظر: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب:١٧/٢.

وإخوته في رمضان سنة (٧٦٤هـ). وبذلك يكون ابن الخطيب قد استأثر بالسلطة دون منافس. وفي ذلك يقول صديقه ابن خلدون (وخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير الدولة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد بالحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال ... وغصّت به بطانة السلطان وحاشيته فتفننوا في السعايات فيه...).[١] إلا أن السلطان لم يلتفت إليها لكن مع مرور الوقت شعر لسان الدين أن سلطانه بدأ يتغير عليه، فعزم على السفر إلى المغرب دون عودة. فاستأذن السلطان في تفقّد الثغور الغربية للمملكة، وكان قد خاطب قبل ذلك السلطان "عبد العزيز المريني" حاكم المغرب في ذلك الوقت – وأخبره برغبته تلك. فخرج مع جماعة من الفرسان فلما حاذى جبل الفتح – جبل طارق – وكان في ذلك الوقت من أملاك "بني مرين" مال إليه فاستقبله قائد الجبل وكان قد جهز له الأسطول بأمر من السلطان فأجازه إلى سبته ومن ثم إلى تلمسان وكان ذلك سنة (٧٧٣هـ). فاستقبله خاصة السلطان أجمل استقبال وعامله السلطان بكل الاحترام والتقدير، وأرسل إلى ابن الأحمر سفيراً يطلب أسرة الوزير فجاء بها معززة مكرمة.

عندها شعر ابن الخطيب بالأمن والاستقرار. وكان قد أرسل إلى سلطانه " الغني بالله" رسالة عندما وصل إلى جبل طارق يذكر فيها ما قدّمه من خدمة لهذه الدولة ويوضح أسباب تصرفه هذا ويؤكد له بقاءه على الود، ويودعه وهو يغادر موطنه إلى غير رجعة.[٢]

هذا العمل الذي قام به ابن الخطيب لم يهدّئ من ثورة خصومه، بل جعلوا من فراره حجةً ودليلاً لإدانته بما رموه به من تهم، وكان في مقدمة خصومه تلميذه أبو "عبد الله بن زَمْرك"[٣] الذي وصفه بأحسن الصفات عندما ترجم له في الإحاطة. كذلك

---

[١] ابن خلدون: العبر: ٣٩٧/٧.

[٢] انظر هذه الرسالة في التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: تحقيق: د. محمد بن تاويت الطنجي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م، ص: ١٤٧ – ١٥٢.

[٣] محمد بن يوسف بن محمد الصريحي، يكنى أبو عبد الله ويعرف بابن زّمْرك، ولد بغرناطة سنة ٧٣٣هـ، نعته ابن الخطيب في إحاطته بأفضل الأوصاف حيث قال: هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها.... شعلة من شعل الذكاء ... بعيد مدى الإدراك جيد الفهم ...) تولى الوزارة وكتابة السر للسلطان الغني بالله، خلفاً لأستاذه ابن الخطيب وكان هو السبب في نكبته كما هو واضح أعلاه وكما جاء عن ابنه أبي الحسن علي بن لسان الدين: (كان السبب في قتل أبي الذي ربَّاه وأدبه ...) وقد كان موت ابن زمرك فاجعة عظيمة إذ قتل في بيته مع ابنيه وخُدَّامه على مرأى من أهله وبناته، كان ذلك عام ٧٩٥هـ. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٠٠/٢ – ٣١٤. المقري: نفح الطيب: ١٦٥/٧ وما بعدها.

القاضي "أبو الحسن النباهي"[١] الذي كان لابن الخطيب الفضل في توليه القضاء. فأوغروا صدر السلطان عليه بما نسبوا إليه من تهم وصفة صاحب النفح بأنه منها براء. حيث اتهموه بالزندقة والخروج عن الشريعة وأيّدوا ذلك ببعض ما كتبه في مؤلفاته أوّلوه وفق أهوائهم. كذلك زعموا أنه طعن في جانب النبي عليه الصلاة والسلام، ونسبوا إليه القول بالحلول على مذهب الفلاسفة وأهل الإلحاد. وأن كتبه التاريخية وما فيها من تراجم هي من قبيل " الغيبة المحرمة!! ... وغير ذلك[٢]. فسجلت عليه تهمة الزندقة وأُفتي بحرق كتبه، وفعلاً أُحرقت في ساحة غرناطة كل مؤلفاته المتعلقة بالعقائد والأخلاق.

ثم بعث القاضي " أبو الحسن " إلى السلطان "عبد العزيز" لتنفيذ حكم الله في ابن الخطيب، ولكن ردّ السلطان عليهم كان حازماً إذ قال: (هلاّ انتقمتم منهُ وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟! أما أنا فلا يخلص إليه أحدٌ ما كان في جواري)[٣]. فرده خائباً. ومما زاد من غضب "الغني بالله" ما نمى إلى علمه من إغراء ابن الخطيب للسلطان "عبد العزيز" بملك الأندلس.

ولما توفي السلطان "عبد العزيز المريني" سنة ٧٧٤هـ، سار ابن الخطيب في ركاب الوزير "أبي بكر بن غازي " القائم بأمر الدولة إلى مدينة فاس عندما أخذ البيعة لابن السلطان الطفل " محمد السعيد ". فنزل معه واستكثر كعادته من شراء الدور والضياع فخاطب خصوم ابن الخطيب " ابن غازي " الوزير لتسليمه ولكنه رفض ذلك فساءت العلاقة بين غرناطة وفاس وقام ابن الأحمر بدفع بعض الخوارج من بني مرين إلى محاربة الحكومة هناك – في المغرب – وأمدّهم بعونه، فحدث انقلاب جديد تولى على إثره

---

(١) هو علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي النباهي المالقي، يكنى أبو الحسن، تولى منصب قاضي الجماعة في غرناطة، والخطابة في جامع السلطان. وصفه ابن الخطيب بأوصاف حميدة في الإحاطة، ولكن بعد تحول العلاقة بينهما إلى العداء كان النباهي هو من صاغ وثيقة اتهام ابن الخطيب، الذي كان له الفضل في وصوله إلى هذا المنصب. فكتب له ترجمة أخرى جديدة في كتابه الذي ألفه في منفاه الأخير (الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة) يفيض بالطعن المر والهجاء المقذع، كذلك وجه له رسالة مقذعة سماها (خلع الرسن في وصف القاضي أبي الحسن). انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٨٨/٤ - ١٠٠. المقري: نفح الطيب: ١١٩/٦ – ١٢٣.

(٢) انظر: المقري: نفح الطيب: ١٢٢/٥ وما بعدها.

(٣) ابن خلدون : العبر : ٣٩٨/٧ .

الأمير "أحمد ابن السلطان أبي سالم المريني " السلطة بعد خلع الملك "الطفل السعيد" وذلك أوائل المحرّم سنة ٧٧٦هـ.

فبادر السلطان الجديد فور تسلمه عرشه بتنفيذ العهد الذي قطعهُ "لابن الأحمر" وأمر باعتقال ابن الخطيب، وأرسل له يخبره بذلك، فبعث وزيره "ابن زمرك" تلميذ لسان الدين ليشهد هلاك أستاذه بالتعاون مع الحكومة المغربية الجديدة.

وقد تم توجيه التهم لابن الخطيب من وثيقة الاتهام التي صاغها القاضي " النُّباهي" في مجلس خاصٍ من رجال الدولة وأهل الشورى. وتمت مناقشتهُ فيها وأخصها تهمة (**الإلحاد والزندقة**) وذلك استناداً إلى ما ورد في بعض كتاباته ولا سيما في كتابه "روضة التعريف بالحب الشريف".[١] فأُمْتُحن وعُذب وأُهين على مرأىً من الجميع، وأفتى بعض الفقهاء بقتله. وأُرجع إلى سجنه فدَّس عليه الوزير "سليمان بن يحيى"[٢] بعض الأوغاد من حاشيته فطرقوا سجنه ليلاً وقتلوه خنقاً. وأخرجوا جثته من الغد ودفنت بالمقبرة تجاه باب المحروق – أحد أبواب مدينة فاس القديمة – ثم أخرجت جثته في اليوم التالي بجانب القبر وأضرمت حولها النار فاحترق شعر رأسه واسودّت بشرته ثم أعيدت الجثة للقبر مرةً أخرى. ولهذا سُميّ " بذي الميتتين " " وذي القبرين." كما يلقب في حياته "بذي العمرين" لانشغاله بتدبير أمور المملكة في النهار، والتأليف والتصنيف العلمي بالليل، لأنه لم يكن ينم إلا الوقت اليسير لابتلائه بداء الأرق.[٣]

وقد وقعت هذه الحادثة الأليمة في ربيع الأول سنة (٧٧٦هـ) وعندما كان بالسجن وأحس بقرب أجله نظم قصيدة يرثي بها نفسه، ومنها قوله:[٤]

---

(١) هذا الكتاب هو من أهم مؤلفات ابن الخطيب. وهو مؤلف من نوع خاص ويعتبر بفكرته وأسلوبه من أحفل كتبه بالأفكار الفلسفية والتشبيهات المبتكرة في موضوع المحبة الروحية والإلهية ويدل على دراسته مختلف المدارس الصوفية . وقد وضعه بناء على طلبٍ من سلطانه الغني بالله رداً على ما جاء في كتاب (ديوان الصبابة) للأديب المغربي " أبو العباس بن حجلة " نزيل القاهرة. وكان هذا الكتاب – الصبابة – قد ذاع واشتهر أمره إذ كان يعني بذكر أخبار العشق والعشاق نثراً وشعراً. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٦٢/١، ٦٣.

(٢) كان " سليمان بن يُحيى " شديد العداوة لابن الخطيب، ذلك لأن السلطان محمد الخامس كان قد وعده بمشيخة الغزاة متى رجع إلى ملكه الذي خلع منه سنة ٧٦٠هـ، فلما رجع السلطان ليحقق له ما وعده ، صدّ ابن الخطيب السلطان عن ذلك فرجع سليمان خائباً، فحقد على ابن الخطيب ولم ينس له ما فعله. انظر ابن خلدون : العبر: ٤٠٤،٤٠٥/٧.

(٣) انظر : المقري : نفح الطيب : ٨٠/٥ .

(٤) ديوان ابن الخطيب، ص:١٨٥.

بَعُدْنا وإنْ جَـــاوَرتْنَا البُيوُتْ وجِئْنَا بِوَعْـظٍ ونَحْنُ صُمُوتْ
وأَنَفاسُنَا سَكَـــــنتْ دَفْعةً كَجَهرْ الصَّـلاَة تَلاَهُ القُنُوتْ
فَقُلْ لِلعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الخَطِيبِ وفَاتَ ومَـنْ ذا الذَّي لاَ يَفـوتْ
فَمَنْ كَانَ يَفْرحُ منُكُـــمْ لَه فُقلّ يَفْرح اليَوْمَ مَنْ لاَ يَمـوُتْ

آثاره:

قال "ابن خلدون" في حقه: " كان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، ولا يُساجل مداه، ولا يُهتدى فيها بمثل هداه .... "[1]. وقال عنه معاصره الأمير "إسماعيل بن الأحمر": "شاعر الدنيا وعلم المفرد والثُّنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ... "[2].

لقد تعددت مواهب لسان الدين ابن الخطيب وكان من أبرزها الشعر والكتابة، وقد ترك تراثاً ضخماً من المؤلفات في الأدب والسياسة والتاريخ. .. وغيرها، مما بلغ زهاء الستين مؤلفاً ومنها على سبيل المثال :

١ - ريحانة الكُتَّاب ونجعة المنتاب:

يعد هذا الكتاب بعد كتاب الإحاطة من أهم كتب ابن الخطيب التاريخية والأدبية حيث يضم العديد من الرسائل في شؤون وموضوعات شتى، سياسية وعسكرية وملكية، ورسائل مودة ومجاملات ومخاطبات مختلفة، تعكس بوضوح أساليب المراسيم الدستورية والإدارية في الغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري.

٢ - كناسة الدكان بعد انتقال السكان:

هو عبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية كتبها ابن الخطيب في بداية حياته الوزارية عن السلطان "أبي الحجاج يوسف" إلى السلطان "أبي عنان" المريني ملك المغرب في أغراض سياسية وعسكرية مختلفة، وقد وضعه أثناء إقامته بسلا منفياً بالمغرب سنة (٧٦٠هـ).

---

(١) ابن خلدون: العبر (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) : ٥٢٧/٧.
(٢) الأمير ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. تحقيق: محمد رضوان الداية، طبعة دار الثقافة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص: ٢٤٣.

٣ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار:

هذا الكتاب عبارة عن وصف لأهم المدن الأندلسية والمغربية وصفاً جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً كما رآها وعاصرها في منتصف القرن الثامن الهجري، وقد صاغه على هيئة مقامة أدبية.

٤ - الحلل المرقومة في اللمع المنظومة:

وهي ألف بيت من الشعر في أصول الفقه .

٥ - ديوان الصيّب والجَهام والماضي والكَهام:

جمع ابن الخطيب فيه شعره، وقد أعطاه هذا العنوان الذي يشتمل على المعاني المتقابلة فالصيب يعني السحاب الممطر، والجهام أي السحاب الذي لا ماء فيه، والماضي أي النافذ السريع والكهام أي البطيء.

٦ - السحر والشعر:

هذا المصنف مجموعة اختارها من شعر المشارقة والمغاربة فيما يتعلق منها بالوصايا والمواعظ لولده عبد الله حيث أهداها إليه.

٧ - جيش التوشيح:

عبارة عن مجموعة من الموشحات الأندلسية جمعها ونسبها لأصحابها من أئمة التوشيح في الأندلس.

٨ - الإحاطة في أخبار غرناطة:

عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة من الأخبار والأوصاف والمعالم وتاريخها منذ أن نزل بها العرب الأوائل، وأخبار من كان بها ومن نزلها أو مرَّ بها

من الكتاب والشعراء والأدباء في مختلف عصور التاريخ الأندلسي، كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرية حتى عصر المؤلف.

ويعني عناية خاصة بترجمة كبار العلماء والكتاب والشعراء من معاصريه سواءً في الأندلس أو المغرب ويورد لنا كثيراً من شعرهم ونثرهم ويتناول ابن الخطيب من خلال هذه التراجم تاريخ وملوك عصره في العدوتين بدقةٍ وإحاطة ويصف الأحداث وصف الخبير المطلّع بحكم أنه كان رجل دولة وهو يلتزم في كتابه الترتيب الهجائي لأصحاب التراجم.

٩ - نفاضة الجراب في علالة الاغتراب:

يعد هذا الكتاب نوعاً من المذكرات الشخصية لمؤلفه عن مرحلة من أهم مراحل حياته، وهي تلك التي قضاها في عزلته في "سلا"من سنة (٧٦١ – ٧٦٣هـ) وعودته لتولي الوزارة مرةً أخرى عام ٧٦٤هـ. ولم يصلنا من هذا الكتاب إلا سفراه الثاني والثالث، والكتاب مكون من ثلاثة أسفار كما ذكر المؤلف.

١٠ - اللمحة البدرية في الدولة النصرية:

وهو مختصر لتاريخ "بني نصر" ملوك غرناطة حتى سنة (٧٦٥هـ)، وهو تاريخ الانتهاء من تأليفه.

هذه مجموعة من مؤلفاته وغيرها كثير يضيق المقام عن ذكرها.[1]

❖ ❖ ❖

[1] للاستزادة من أخباره وآثاره أنظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة : ٨٨/٤ ، إنباء الغمر بأنباء العمر :١٢٦/١ ابن القاضي : درة الحجال في أسماء الرجال : ٢٧١:٢. أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج : ٤٤٥/٢ . ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ٤٤٩/٦ الشوكاني : البدر الطالع :١٩١/٢ ، ابن مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص : ٢٣٠ ، إسماعيل البغدادي : هدية العارفين : ١٦٧ – ١٦٨.

ثانياً: الحضارة (المفهوم والمصطلح)

❖ المفهوم اللغوي :

جاء في لسان العرب: " الحاضر المقيم في المدن والقرى والبادي المقيم في البادية. والحاضرة خلاف البادية، والحاضر خلاف البادي. وفي الحديث: (لا يبعْ حاضرٌ لبادٍ)، ويقال: فلان حضريّ وفلان بدويّ. قال الشاعر القطامي[١]:

فَمَنْ تَكُنِ الحَضَارَةُ أَعْجَبَتهُ فَأَي رِجَالَ بَادِيةٍ تَرَانا

ورجلٌ حَضِرٌ: لا يصلح للسّفر، وهم حضور أي: حاضرون "[٢].

وذكر " الفيروز أبادي" أن: "الحضارة: الإقامة في الحَضَر"[٣].

يتضح مما سبق الربط بين الحضارة والاستقرار، لأن ذلك شرط لقيامها وتطورها. في حين يتعذر نشأة حضارة عند أناسٍ لا يتخذون لهم مكاناً دائماً للسكنى، وإنما ينتقلون من مكانٍ لآخر طلباً للماء والكلأ. وهؤلاء يسميهم العرب: البدو و" البادية يمكن أن يكون اشتقاق اسمها من بدا يبدو أي برز وظهر ولكنه اسم لزم ذلك الموضع خاصة دون ما سواه "[٤].

ويرى "صاحب اللسان": أن المكان الذي يجتمع فيه القوم يسمى حاضرة و(الحاضرة والحاضر، الحيّ العظيم أو القوم، وقال "ابن سِيده": الحيّ إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم. قال:

في حَاضرٍ لجب باللّيل سَامرُهُ فيه الصَّواهلُ والرَّايَاتُ والعَكَرُ

---

(١) القُطّامي ت (١٣٠هـ): عمير بن شييم، أبو سعيد التغلبي الملقب بالقطامي شاعر غزل فحل، جعله ابن سلاّم في الطبقة الثانية من الإسلاميين، وقيل أنه أول من لقب صريع الغواني بقوله:
صَرِيعُ غَوانٍ راقهُنَّ ورُقْنَهُ لَدُنْ شبَّ حَتى شابَ سُود الذوائبُ
أنظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني، شرح: علي مهنا، الطبعة الرابعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ١٤١/٣.
(٢) محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م : ٤/ ٢٣٠ – ٢٣١. مادة (حَضَرَ).
(٣) محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٧٦. مادة (حَضَرَ).
(٤) ابن منظور: لسان العرب: ٤/ ٢٣١. مادة (حَضَر).

فصار الحاضر اسماً جامعاً كالحاج والسامر والجامل ونحو ذلك. قال الجوهري: هو كما يقال: حاضر طيءً، وهو جمع كما يقال سامر للسُّمار، وحاجٌّ للحجاج.

قال حسَّان:

لنا حاضرٌ فعمٌ وبادٍ كأنَّهُ قَطِينُ إلالهِ عِزَّةً وتَكرُّما[١]

وبما أن انتقال البدو وترحالهم كان بسبب تتبع مساقط المياه، لهذا فإن بقاءهم مرتهن بتوفرها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ سورة الأنبياء-آية(٣٠) ومن هنا تنشأ الحضارات في الغالب بجوار الماء.

والعرب تسمي القوم النازلين على الماء حيٌّ حاضر – بدون هاء – (يقال: حاضر بني فلان على ماء كذا وكذا، ويقال للمقيم على الماء حاضر، وجمعهُ حضور، وهو ضد المسافر وفلان حاضرٌ بموضع كذا أي مقيم فيه. ويقال على الماء حاضرٌ وهؤلاء قومٌ حُضَّارٌ إذا حضروا المياه ومحاضر، قال لبيد:

فَالوادِيانِ وكُلُّ مَغْنىً مِنْهُمُ وَعَلَى المِياهِ مَحَاضِرٌ وخِيَامُ[٢]

وثمة كلمات في معنى البداوة والحضر، مثل الوبر والمدر، يقول ابن منظور في مادة **(مَدَر)**: " المدر: قطع الطين اليابس، وبنو مدْراء: أهل المدن أو الحَضَر لأن مبانيها إنما هي بالمدر"[٣].

يتبين لنا أن أهل المدر هم أهل المدن والقرى. ومنه تسمية العرب (مصر بـ " المدَرَة السوداء " كناية عن أنها تتكون من قرى ومدن)[٤].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: ٤/ ٢٣١، مادة (حَضَر).
(٢) ابن منظور : لسان العرب : ٤/٢٣١ ، مادة (حضر).
(٣) ابن منظور: لسان العرب: ٥/ ١٩٠، مادة (مَدَر).
(٤) د. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، الطبعة السابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م، ص: ١٠.

أما **الوبر** فهو صوف أو شعر الإبل والأرانب ونحوها من الحيوان الذي يصنع منه البدوي خيامهُ وملابسهُ. وأهل الوبر هم أهل البادية. يقول صاحب اللسان: (وفي الحديث: أحب إلي من أهل الوبر والمدر، أي أهل البوادي والمدن والقُرى. وهو من وبر الإبل لأن بيوتهم يتخذونها منه، والمَدَر جمع مَدَره وهي البِنْيةُ)[١].

ويقول في موضع آخر: (وكل من نزل على ماءٍ ولم يتحول عنه شتاءً ولا صيفاً فهو حاضر، سواء نزلوا في القرى والأرياف والدور المدرية أو بنوا الأخبية على المياه فقرَّوا بها ورعوا ما حواليها من الكلأ)[٢].

وفي **المعجم الوسيط** تعني الحضارة الإقامة في الحضر و(... تحضّر: حضر وتخلّق بأخلاق أهل الحضر وعاداتهم)[٣].

مما سبق يتجلى المفهوم اللغوي للحضارة فهي تعني الحضور والتواجد في جماعات تسكن في مدن تتكون مبانيها من الأحجار، هذا الاجتماع والاستقرار يقتضيه تواجد الماء وتوفر الكلأ فيرتبط الإنسان بهذا المكان ومن ثم تتطور حياته.

أما البادية فهي تعني الوضوح والظهور. وتتميز حياة البادية بالتنقّل والترحال تتبّعاً لأماكن توفر المياه، وبالتالي يكون همهم في توفير أسباب العيش الأساسية الأمر الذي لا يمكنهم من الانشغال بأكثر من هذا. وعليه فإن أهل البادية يفتقدون للعلم والثقافة وهما أساسيان لبناء مجتمع متحضّر.

أما الحضارة فهي العلم والثقافة إلى جانب توفر كل أسباب العيش الكريم المترف.

---

[١] ابن منظور: لسان العرب: ٥/ ٣١٧ – ٣١٨. مادة (وَبَرَ).
[٢] ابن منظور: لسان العرب: ٤/ ٢٣٢. مادة (حَضَر).
[٣] إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، الطبعة الثانية، دار الدعوة،استانبول (د. ت) ص: ١٨٠ – ١٨١. مادة (حضر).

❖ **المفهوم الاصطلاحي:**

أشار "ابن خلدون" (ت ٨٠٨ هـ) في مقدمة تاريخه إلى معنى الحضارة فقال: (إن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرّفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر)[١]، فهو يرى أن الإنسان إذا تمكن من تحصيل الضروريات واتسعت أحواله فإنه يتطلع إلى ما فوق ذلك من تحصيل الكماليات في المأكل والمسكن والملبس ... وغير ذلك ". أي أن الحضارة درجة أو حالة من أحوال تطور العمران البشري – بحسب تعبيره – تعقب حالة البداوة، وحالات التطور هذه ليست اختيارية – في رأيه – قد يمر بها المجتمع وقد لا يمر وإنما هي كالقضاء الذي لا مردّ له[٢].

ويضيف "ابن خلدون" في موضع آخر: (إذا حصل ما فوق الحاجة من الغنى والرَّفهْ ... تعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضّر. ثم تزيد أحوال الرّفه والدّعة فتجئ عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ... وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان)،[٣] لهذا كان التمدن هو غاية البدوي التي يسعى إليها ومتى حصل لهُ ذلك فإنه لا يفكر بالرجوع إلى حياته البدوية.

وينبغي التنبه إلى أن مجرد قيام العمران فقط في بناء المجتمع لا يعني أكثر من الوجود ، ذلك أن الحضور يستلزم فوق العمران – أو سكن المدن والقرى – تقديم نموذج

---

(١) ابن خلدون: المقدمة: ١/ ٣٩٣.
(٢) انظر: صلاح الفوال: دراسة علم الاجتماع البدوي، طبعة : مكتبة غريب، القاهرة، (د. ت)، ص ٢٢٩ – ٢٣١ حيث قام بتفصيل هذه الحالات.
(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص: ١٢٩ – ١٣٠.

من العلاقات الإنسانية مع أفراد المجتمع من ناحية ومع الكون ومسخرات الله في الكون من ناحية أخرى[١].

وهذا يؤكد على أهمية تكامل الجانبين المادي والمعنوي[٢] لقيام أي حضارة وتقدّمها، وتعذر استمرارها بأحد الجانبين دون الآخر. وهذا ما يؤكده "حسين مؤنس" عندما عرّف **الحضارة** بأنها: " ثمرة كل مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواءً أكانت الثمرة مادية أم معنوية .... "[٣]، ولقياس مستوى الحضارة يضيف قائلاً: " وإذن فمقياس الحضارة هو مدى ذلك التحسن مادياً ومعنوياً ومن الواضح أن التحسن المعنوي مقدّم على التحسن المادّي، لأنه الغاية القصوى للتحسين هي شعور الإنسان بالأمان والإطمئنان والكفاية وقيام مجتمعه على التفاهم والتعاون والمحبّة بدلاً من قيامه على التحايل والأنانية والقانون الذي تنفذه قوة غالبة "[٤].

ويذكر صاحب الحضارة الإسلامية في المغرب أن **الحضارة** هي: " تعبير عن كل منجزات أعمال الإنسان فكرياً ووجدانياً وعمرانياً ليحقق ذاته ويطور مجتمعه ، ويسهم في المسيرة الإنسانية ... "[٥]، وهو يجعلها نتيجة تفاعل الإنسان مع المجتمع والبيئة من حوله في قوله: (الحضارة نتاج عدة عوامل: منها العامل الثقافي وما يعطيه الفكر والوجدان من عاطفة وفلسفة وعلم وفن، ومنها عامل المدنية، وما يعطيه من تفاعل الإنسان مع البيئة وتحديه للمحيط والزمان والمكان وحركة التاريخ، فهي كالواجهة الأمامية للحركة الثقافية المتأجّجة وراء كل عمل إنساني وإنتاج بشري)[٦].

---

(١) انظر: نصر محمد عارف: الحضارة. الثقافة. المدنيّة. دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم. الطبعة الثانية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض، ١٩٩٥م، ص: ٦٠.

(٢) يتمثل الجانب المعنوي في المعتقد الديني، وبناء فكري سلوكي في المجتمع يشكل نمط القيم والأخلاقيات العامة والأعراف، أما الجانب المادي، فيشمل المبتكرات والآلات والمؤسسات والنظم والعمارة والفنون وجميع الأبعاد المادية في الحياة. انظر د.نصر عارف: الحضارة. الثقافة. المدينة.، ص: ٦١.

(٣) د. حسين مؤنس: الحضارة، طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م، ص: ١٣.

(٤) د. مؤنس: الحضارة، ص: ٥٣ – ٥٤.

(٥) د. الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، الطبعة الثانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص: ٥.

(٦) د. الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، ص: ٢٩.

فإذن **المجتمع** هو مجال الحضارة وعليه يمكننا الحكم على مستوى تقدّم أي حضارة من خلال المجتمع الذي تظهر فيه فإذا كان المجتمع نشيطاً كانت حضارته نشيطة وإن كان غير ذلك كان حضارته مثله.

مما سبق يتضح أن الحضارة هي آثار الإنسان في كل ما يتعلق بنظام حياته العامة في مأكله وملبسه وعاداته وعمرانه وفكره وثقافته وهي أساليب تلقينه وتعليمه وبيعه وشرائه .... الخ ، أو بعبارة أشمل هي مجموعة أفكاره ومفاهيمه عن الحياة والكون.

"الحضارة والثقافة والمدنية":

يربط بعض الدارسين بين الحضارة والثقافة ، وإذا عرفنا معنى الحضارة فلا بد من تحديد معنى الثقافة حتى لا تتداخل المعاني وتتشابك.

فالثقافة لغةً: من ثقف الشيء ثقفاً: حَذّقّهُ، ورجل ثَقِفْ: حاذق فهم. ويقال ثَقِف الشيء وهو سرعة التعلم.[١]

وفي المعجم الوسيط هي: " العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها "[٢].

وهناك من يرى بأنها هي: " ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع عن البيئة ومعبر عنها"[٣].

أي أنها بمعناها العام: مجرد المعرفة أي: " معرفة الآداب والفلسفة والتاريخ والفنون والمعارف النظرية ، وهي بمعناها الخاص: النتائج التي تستخلص من مجموعة الآداب والفلسفة والتاريخ والمعارف النظرية من وجهة نظر خاصة عن الحياة ..."[٤]. ولهذا فإن **الثقافة** تعد خاصة لأن لكل أمة أو شعب ثقافته التي تميزه ويعتز بها لأنها متصلة بوجهة نظره في الحياة.

---

[١] ابن منظور :لسان العرب، ٩/ ٢٢، مادة (ثَقَف).
[٢] د. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ص: ٩٨، مادة (ثقف).
[٣] د. حسين مؤنس: الحضارة، ص: ٣٦٢.
[٤] د. عبد العزيز الخياط: الحضارة والثقافة الإسلامية في: رسالة التقريب (رسالة المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية) العدد ٣٧، ص:٣.

وقد تكون الثقافة ركناً من أركان التحضر إذ لا توجد حضارة لمجتمع أميّ بل أن التقدم المعرفي والعلمي والثقافي من أهم أركان الحضارة.

ولكن المصطلح القريب إلى الحضارة وقد يستخدم أحياناً مساوياً لها هو **المدنية** أو التمدين. والمدنية في اللغة تعني الاستقرار في المدينة، فيقال: (مَدَن بالمكان أقام به)[١]، وفي المعجم الوسيط:" مَدُن فلان: أتى المدينة، وتمدَّن: عاش عيشة أهل المدن وأخذ بأسباب الحضارة، وتَمْدِيَنَ: عاش عيشة أهل المدن وتنعم وأخذ بأسباب الحضارة "[٢].

ومن هنا يتضح لنا التقارب الكبير بين اشتقاق المصطلحين فكلاهما مرتبط بالمدينة والاستقرار بها.

وغالباً ما يطلق لفظ التمدن على الجانب المادي من الحضارة المتعلق بالتكنولوجيا والآلات[٣] والعلوم التجريبية كالطب والهندسة والكيمياء والزراعة والصناعة وغيرها[٤]. وهناك من يرى العكس فيربط المدنية بالجانب الفكري والثقافي والروحي والعقلي، والحضارة بالجانب المادي.

يتضح مما سبق أن الحضارة من المفاهيم غير المحددة ولكنها واضحة، أي أنها لا تخضع لتعريف معيّن أو عصر دون غيره من العصور أو بيئة دون غيرها من البيئات، بل هي نمط من السلوك يتأثر بالبيئة المحيطة وبظروف الإنسان الخاصة التي تتقبل هذا التأثر وهذا التكيّف" فقد تكون البيئة متحضّرة والإنسان لا يحس بما حوله بل تملأ قلبه وفكره مناظر البادية بما فيها "[٥].

ويجدر بنا أن نفرق بين مظاهر البذخ والترف والإسراف والاستهتار الأخلاقي، وبين التقدم الحضاري الذي يدفع المجتمع للرّقي والازدهار لأن الحضارة قبل أن تكون

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: ١٣/ ٤٩٥، مادة (مَدَن).
(٢) المعجم الوسيط: ص: ٨٥٩، مادة (مَدَن).
(٣) انظر: د. الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، ص: ٣٥.
(٤) انظر: د. أحمد شلبي: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية. طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م، ٧/١.
(٥) د. علي إبراهيم أبو زيد: الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع العاملي، الطبعة الأولى، دار المعارف ، القاهرة، (د. ت)، ص:٢١.

مظاهر مادية تتسم بالتقدم والتحضّر فهي أيضاً نمط سلوك وأسلوب حياة، تظهر في تعامل الإنسان مع غيره ومع ما حوله بطريقة راقية يحكمها قانون المجتمع.

كذلك يدخل في هذا النمط المعتقد الديني والثقافة والعادات والتقاليد الاجتماعية في الملبس والمسكن والمأكل والمشرب والتخاطب وغيرها من مظاهر الحياة المتنوعة لذلك فإن لكل عصر من العصور حضارته الخاصة التي تحمل روح البيئة وروح الإنسان الذي يعيش في هذا المجتمع.

هكذا يكون قد تم الوقوف على بعض الآراء حول تعريف **مصطلح الحضارة** وهي كما يُلحظ مما تقدّم متعددة إلا أنها تصب في قالبٍ واحد يجعل الحضارة ذات جانبين متكاملين لا وجود لأحدهما دون الآخر وهما الجانب المادي والجانب المعنوي أو الفكري.

وهي بهذا المعنى تنطبق على **الحضارة الإسلامية**، التي كان الدين الإسلامي سبباً في كونها مختلفة عن باقي الحضارات. وقد عرفها بعض الباحثين فقال: (الحضارة الإسلامية هي ما وضعهُ الإسلام من أسس للعقيدة والأخلاق، ونظم الحياة الفردية والجماعية، وما أنتجته البيئات الإسلامية من أدب وفن وفلسفة، وما وصل إليه علماء تلك البيئات من نظريات وما أبدعوه من مخترعات)[1]. وبينما تركز كثير من الحضارات على الجانب المادي وإظهار ما تم إنجازه في مجال العمارة والنحت أو ما تم تسطيره في مجال العلوم[2] وغيرها، نجد أن الحضارة الإسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما:

١ - الجانب الروحي: المستمد من الكتاب والسنة المتمثل في العقائد والقوانين والمبادئ التي جاء بها الإسلام والتي غيرت وجه الحياة في الجزيرة العربية وفي البلدان التي دخلها الإسلام.

---

[1] د. جميل الجبوري: دراسات في الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، جامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنورة، ١٩٩١م، ص: ١٨.

[2] بما أن هذه الحضارات قامت على أساس مادي فقط لعله يكون من الأنسب أن تسمى مدنية لأنها حضارة بدون روح أو أخلاق، وهي مثل مدينة الغرب في عصرنا الحاضر القائمة على التقدم التكنولوجي في حين أنها تفتقر لأبسط معاني الإنسانية.

٢ - الجانب المادي: المتمثل في كل أنشطة الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وبناء وغير ذلك[١].

والحضارة الإسلامية في مسيرتها الطويلة لم تهتم بجانب دون الآخر بل كان الجانب الروحي هو القاعدة والأساس للجانب المادي وسارا معاً لتشرق على العالم أجمع أعظم حضارة عرفها التاريخ.

وهذا البحث يتناول مظاهر الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس في القرن الثامن الهجري والتي كان لها انعكاس في الإنتاج الأدبي لذلك العصر، وسنتناول هذا الأثر بالتحديد في شعر لسان الدين بن الخطيب من خلال المفهوم الإسلامي للحضارة الذي سبق توضيحه.

[١] انظر: د. حسن علي حسن، ود. التوم طالب محمد: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٦م، ص: ٥.

ثالثا : الحضارة الأندلسية وعوامل نهضتها في القرن الثامن الهجري:

تم فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة (٩٢هـ -٧١١م)[١]، ولا يعنينا الوقوف طويلاً عند الفتح فهو من الذيوع الانتشار بحيث لا يخفى على أحد حتى قال عنه ابن الخطيب: "وحديث الفتح وما منَّ الله به على الإسلام من المنح... مملول قصاص وأوراق، وحديث أفول وإشراق، وإرعاد وإبراق، وعظم امتشاش وآلةٌ معلقةٌ في دكان قشاش ... "[٢].

وجد العرب في الأندلس مكاناً مختلفاً، فقد حباها الله من جمال الطبيعة ووفرة الأرزاق وكثرة المعادن الشيء الكثير، وقد أشار إلى ذلك "أبو عبيد البكري" في الروض المعطار حيث قال: "الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، وفيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسلفة"[٣]. كما عبر الشعراء كذلك عن افتتانهم بهذه الأرض، ومنهم "ابن خفاجة" حيث قال:[٤]

إنَّ للْجَنَّةِ في الأَنْدَلسِ مُجْتَلى حُسْنٍ وريَّا نَفَسِ
فَسَنا صُبحَتِها من شَنَبٍ ودُجَى ظُلْمَتِها مِنْ لعَسِ[٥]
فإذا ما هبَّت الرِّيحُ صَبَاً صِحْتُ: واشوقي إلى الأندلسِ

---

[١] لتفاصيل الفتح انظر: محمد بن عمر "ابن القوطية": تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: د. إبراهيم الإبياري، طبعة دار الكتاب المصري . ١٩٨٢م، عز الدين علي بن محمد بن "الأثير" : الكامل في التاريخ، طبعة : دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ص: ٥٥٦-٥٦٩ أحمد بن علي "القلقشندي": صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (د.ت) :٥/٢٤١-٢٤٤.

[٢] ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق: د. سيد حسن، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م :٦/٢.

[٣] الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص: ٣. وفي إطراء الأندلس كتب الكثيرون، انظر مثلاً: علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، طبعة: الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٥م، ق١/مج١/١٤-١٥.

[٤] ديوان أبي اسحق إبراهيم "بن خفاجة": تحقيق: السيد مصطفى غازي، الطبعة الثانية، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٩م، ص: ١٣٦. المقّري: نفح الطيب: ٢٠٩/١.

[٥] الشنب: البياض والبريق، واللعس: سواد اللثة والشفة.

ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قول "ابن سفر المريني":[١]

في أَرضِ أَنْدلـــــسٍ تلتذُّ نعْماءُ ولا يُفارقُ فيها القلب ســـــــرَّاءُ

وكَيفَ لاَ يَبُهجُ الأَبصْارَ رُؤْيتَها وكُلُ رَوْضٍ بها في الوَشْي صَنْعاءُ

أنَهْارُها فِضةٌ والمِسْـــكُ تُربَتُها والخُزَّ رَوْضَتُهَا والدُّرَّ حَصـــــبْاءُ [٢]

وقد استمر الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية ثمانية قرون، ومرّت الأندلس في هذه القرون بعدة عهود تقلبت خلالها بين الضعف والقوة وبين النصر والهزيمة. ويمكن إجمال هذه العهود التي كان لكلٍ منها طابع مميز على النحو التالي:[٣]

أولاً: عهد الفتح، استمر حوالي أربع سنوات: ٩٢ – ٩٥ هـ.

ثانياً: عهد الولاة، ٩٥ – ١٣٨هـ.

ثالثاً: عهد الإمارة، ١٣٨ – ٣١٦هـ.

رابعاً: عهد الخلافة: ٣١٦ – ٤٠٠هـ.

خامساً: عهد الطوائف: ٤٠٠ – ٤٨٤هـ.

سادساً: عهد المرابطين، ٤٨٤ – ٥٤١هـ.

سابعاً: عهد الموحدين: ٥٤١ – ٦٢٠هـ.

ثامناً: عهد بني الأحمر، ٦٣٥ – ٨٩٧هـ.

وكانت أسبانيا عندما فتحها المسلمون لا تختلف عن بقية بلاد غرب أوروبا في ذلك الوقت من حيث انتشار الجهل والتأخر والفوضى، بسبب النزاع الاجتماعي والإنحلال الداخلي والفتن الطائفية.

---

[١] ابن سفر المريني ، من أهل المرية ، انظر ترجمة في : أبي عبد الله محمد ابن "الأبّار" : تحفة القادم ، تحقيق " د. إحسان عباس ، الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ١٩٨٦م ، ص : ١٤٧ . المقري : نفح الطيب : ١٥٧/١ .

[٢] المقري : نفح الطيب : ٢٠٩/١.

[٣] انظر: عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، الطبعة الخامسة، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م، ص: ٣٩-٤٠.

وما لبث الإسبانيون أن أحسوا بالفرق بين حكم العرب وحكم القوط، ورأوا من تسامح الفاتحين وتفانيهم في نشر العدل بين الناس ما ألفَّ قلوبهم لهذا الدين فدخلوا فيه طائعين، وحتى من بقى منهم على دينه فقد عاش في حكم المسلمين ينعم بحريةٍ لم يحس بها من قبل. الأمر الذي أكدَّه مؤرخو الإسبان أنفسهم منهم على سبيل المثال المؤرخ ألتاميرا " Altamera " عندما قال: " إن العرب لم يحترموا فقط بصورة مؤكدة العقائد الدينية وإنما احترموا أيضاً الحياة الخاصة للشعوب التي خضعت لهم"،[١] وقول "بالنثيا": " ولا بد أن أولئك الإسبان الذين دخلوا الإسلام لم يندموا على فراقهم دينهم الأول، فقد تحسنت ظروف حياتهم من الناحيتين القانونية والاجتماعية إذ انتقلوا من الرق إلى الحرية ".[٢]

❖ مملكة غرناطة:

لم تكن غرناطة زمن الفتح الإسلامي سنة (٧١١م) سوى قرية صغيرة افتتحها المسلمون وضموا اليهود إلى قصبتها ولعل ذلك كان سبباً في تسميتها **(بإغرناطة اليهود)**. ومنذ الفتح لم يعرها المسلمون اهتماماً إذ استقر فيها جند دمشق في "إلبيرة" التي ظلت حاضرة كورة إلبيرة زمن الأمويين، فلما سقطت الخلافة بقرطبة وهاجت الفتنة البربرية – وكان عميد صنهاجة بها "زاوي بن زيري" – اتجه زاوي إلى "إلبيرة" ونزل بها حيناً ثم اختار الرحيل بقومه إلى غرناطة وجعلها قاعدة له فخربت عند ذلك "إلبيرة"[٣] ونزل غرناطة واتخذها داراً لملكه حوالي سنة (٤٠٠هـ)[٤] فكان أول من مدَّن غرناطة وبناها وزادها تشييداً ومنعة[٥]. وهكذا بدأت غرناطة تكبر شيئاً فشيئاً.

---

[١] د. محمد عبد الحميد عيسى: الحضارة الأندلسية، مرحلة التكوين، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد: ٢، ١٩٨٣م، ص: ٢٧٥.
[٢] آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٢٠١.
[٣] انظر: الأمير عبد الله بن بلكّين: كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، تحقيق: د. علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص: ٣٦.
[٤] انظر: ابن خلدون: العبر، ٤/ ١٩٢.
[٥] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥١٤.

وعندما ضعفت سيطرة الموحدين على ممتلكاتهم في المغرب والأندلس، استولى النصارى على بعض القواعد الأندلسية، وبرز **" ابن هود"** في الميدان، ظهر في هذا الوقت منافس له هو جنديُ من حصن "أرْجُونة" يدعى: "ابن الأحمر"[١] محمد بن يوسف بن نصر، يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] دعا للمّ الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته أميراً لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦من رمضان سنة ٦٣٥هـ بعد أن توفي منافسه ابن هود، فأصبحت مدينة غرناطة حاضرة المملكة.[٣]

وهكذا قامت مملكة غرناطة التي برزت من غمر الفوضى، واستقرت في رقعتها المتواضعة بين نهر الوادي الكبير والبحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق. وكان تقسيم المملكة الإداري في ذلك الوقت يشتمل على ثلاث ولايات كبرى هي :

١ - ولاية المرَيّة:

وهي تمتد من ولاية مرسية حتى البحر، وأهم مدنها ثغر المرية، وبيرة، والمنصورة، وبرشانة، وبرجة، ودلاية، وأندرش.[٤]

٢ - ولاية مالقة:

وهي تقع على البحر غربي غرناطة، وأهم مدنها ثغر مالقة، وبلِّيش مالقة، وطرُّش، وقمارش وأرشدونه، وانتقيرة، ورُندة، ومربلة، ويلحق بها منطقة جبل طارق.[٥] والجزيرة الخضراء وطريف.

---

[١] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٤٤.

[٢] سعد بن عبادة الأنصاري (رضي الله عنه). انظر ترجمته في: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق: د. عادل أحمد عبد الموجود و د. علي محمد معوض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م: ٥٥/٣.

[٣] حول تأسيس مملكة غرناطة، انظر ابن خلدون: العبر: ٤/ ٢٠٤، ٢١٤/ ابن الخطيب: اللمحة البدرية: ص ٥٢ وما بعدها / د. محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص: ٣٨ وما بعدها.

[٤] انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس: ١٨٣ – ١٨٤ / القلقشندي: صبح الأعشى: ٢١٧ – ٢١٨ / المقري: نفح الطيب: ١٦٢/١ – ١٦٣.

[٥] انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص: ١٧٧-١٧٩ / ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. تحقيق: د. محمد كمال شبانة، طبعة المكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص: ٨٧ – ٩١.

٣ - ولاية غرناطة:

تقع في الوسط، وتمتد جنوباً حتى البحر، وأهم مدنها العاصمة غرناطة، ووادي آش وبسطة، وأشكر وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرحبة، والمنكّب وشلوبانية.

وغرناطة أو (إغرناطة) اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط ويعني **الرمانة** وقد سميت بذلك لجمالها ولكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها وكان يطلق على غرناطة أيضاً اسم: **دمشق الأندلس**[١].وذلك لأن أهل دمشق قد نزلوا بها وسموها باسمها " لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار وكثرة الأشجار "[٢].

ويخترق المملكة من الوسط جبل شلير أو جبل الثلج[٣]، ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادي الكبير، ويخترقها من الوسط فرعه المسمى " نهر حَدرُه" ، وتشرف غرناطة من الجنوب الغربي على بسيط شاسع خصب جداً هو الفُحْص أو – المرج الشهير " Lavega " وهو يتمد غرباً حتى مدينة " لوشة ". وبهذا يتضح لنا الجمال الفائق والحصانة – الطبيعية – الذي تتميز به غرناطة وموقعها.

وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية، جنة من جنان الدنيا، تغصُّ بالبساتين اليانعة التي كانت لخصوبتها ونضرتها تعرف بالجنات، فكانوا يسمون المزرعة أو البستان " جنّة " قال ابن الخطيب: " ويحف بسور هذه المدينة البساتين العريضة المستخلصة والأدواح الملتفّة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة تلوح نجوم الشرفات أثناء خضراية فليس تعرى عن جنباته من الكروم والجنات جهة....."[٤].

---

(١) انظر اختلاف الآراء في تسميتها في : ابن الخطيب: الإحاطة: ٩١/١. الحاشية. د. إسماعيل العربي: عواصم بني زيري ملوك: أشير – القلعة – بجاية – غرناطة – طبعة: دار الرائد العربي، بيروت، (د. ت) ص:١٥.

(٢) المقري: نفح الطيب: ١٤٨/١.

(٣) يطلق الأندلسيون اسم شلير على جبال (سييرا نيفادا) وشلير محرف عن اللاتينية Solarius ومعناها جبل الشمس، وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على تلك الجبال فينعكس ضوءها على الثلوج الناصعة التي تغطيها، وأما تسميتها بجبل الثلج فهي ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالي Sierra Nevada. انظر: د. عنان: نهاية الأندلس: ٣، ص: ٢٣.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ١١٥/١.

ويصف المؤرخون غرناطة بأنها شاميّة في أكثر أحوالها، وجوّها يميل إلى الاعتدال، إلا أن جبل شلير الذي تكسوه الثلوج صيفاً وشتاءً والذي يبعد عنها عشرة أميال فقط – قد أثر في شتائها إذ أنّه شديد البرودة، وفيه يقول ابن الخطيب: " وبردها في المنقلب الشتوي شديد وتجمد بسببه الأدهان والمائعات ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين ... "[1].

كانت هذه الخواص الطبيعية بما فيها من تنوع يشمل المروج والوديان الخصبة والجبال والهضاب الوعرة قد أمدتها بثروات زراعية ومعدنية عظيمة، وقد أحسن الشعب الغرناطي استغلالها وتنميتها، فأصبحت بفضل براعتهم وذكائهم من أسباب القوة والرخاء الذي نعموا به. وقد تمكن "بنو الأحمر" من الاحتفاظ بهذا الجزء المتبقي من الأندلس الإسلامية مدة قرنين ونصف كانت تتمتع فيها هذه المملكة حتى عصورها الأخيرة بحضارة زاهية.

وقد كان استمرار تلك المملكة كل هذه المدة برغم صغرها وقلة عدد سكانها وإحاطة العدو بها من كل الجهات – محافظة على ما بقى للمسلمين من سلطان سياسي ووجود حضاري معطاء – من الأمور المثيرة للدهشة والاستغراب !! وتستحق الوقوف أمامها للتعرف على مقومات ثباتها كل هذه المدة.

ولم يكن من السهل أن تبقى مملكة غرناطة ثابتة كل تلك المدة – قرنين ونصف – في تلك الظروف الصعبة لأن معظم القواعد الأندلسية قد سقطت أثناء حروب الاسترداد في أيدي النصارى، فانحصرت الدولة الإسلامية في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيرية.ومن هنا يتضح صعوبة الوضع الذي وجدت فيه هذه المملكة. إذ

---

[1] ابن الخطيب: الإحاطة: ٩٦/١.

أن الحجم اليسير سواء في المساحة أو الأعداد البشرية، كان أمام أعداد كبيرة جداً وإمكانيات لا تقارن بإمكانات هذه المملكة الصغيرة. وكل هذه الدول[١] المحيطة بها جعلتها الهدف الأول لها، تعد العدة وتضع الخطط، ومع ذلك استمرت هذه المملكة مدة ليست باليسيرة، بالتأكيد تخللت هذه المدة الكثير من الصراعات إلا أنها استمرت حتى واجهت قضاءها المحتوم على يد الملكين الكاثوليكين " فرناندو الرابع" ملك أراجون "وإيزابيلا" ملكة قشتالة الذي كان اتحادهما بداية النهاية لهذه المملكة الصامدة التي سقطت بتسليم غرناطة في ثاني ربيع الأول من سنة (٨٩٧هـ) الموافق الثاني من يناير من عام ١٤٩٢م[٢]. عندما سلم " أبو عبد الله " آخر ملوك بني نصر مفاتيح الحمراء للملكين، وغادرها لينتهي بذلك الحكم الإسلامي للأندلس الذي استمر ثمانية قرون أنشأ فيها المسلمون حضارتهم العظيمة التي حفلت بأرقى نظم للحياة المادية والأدبية وأرفع ضروب العلوم والفنون التي عرفت في العصور الوسطى. ويرى أحد المستشرقين الإسبان وهو " دي لاس كاخيجاس ": " إن قيام مملكة غرناطة في ظل بني نصر يبدو لغزاً حقيقياً ... "، [٣] ثم يبدي دهشته من أن مملكة غرناطة برغم ما واجهته إلا أنها تقدّمت وازدهرت، فيقول: " حقاً إن ذلك كله لغريب بل إنه لينبو عن الإيضاح "[٤]. فلا بد أن لهذا الثبات والازدهار من أسباب، سنحاول التعرف على بعضها من النواحي الجغرافية والتاريخية والبشرية وهي :

١ - قيام هذه المملكة في ذلك الموقع كان له أسبابه الجغرافية والتاريخية :وذلك لأن هذه القواعد تقع وراء نهر الوادي الكبير آخر الحواجز الطبيعية بين

---

(١) كانت الممالك النصرانية المعاصرة لمملكة غرناطة: قشتالة وأراجون والبرتغال.

(٢) انظر مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة: آخر أيام غرناطة :نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر. تحقيق: د. محمد رضوان الداية، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م، ص: ١٠٣ – ١٠٦.

(٣) د. عنان: نهاية الأندلس، ص: ٤٠.

(٤) د. عنان: نهاية الأندلس، ص: ٤١.

المسلمين والنصارى. لهذا فهي أبعد المناطق عن متناول العدو وأمَنعها. فقد كانت مناعة موقعها مما ساعد في دفع أجلها.

٢ - قربها من العدوة المغربية حيث لا يوجد أي حائل بين المملكة وإخوانها في المغرب وشمال أفريقيا حيث كانت جميعها دول إسلامية، بحيث تستعين فيها غرناطة في وقت الأخطار الداهمة. وكان الأخوة في المغرب لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين فطالما جاهدوا صفاً واحداً لدرء الخطر، وذلك رغبة الجهاد في سبيل الله.. يؤكد ذلك الفرق العسكرية الدائمة التي تركها "بنو مرين" – ملوك العدوة المغربية – للمرابطة على تلك الثغور الأندلسية.وقد سبق "ملوك بني مرين" في هذه السنة الحسنة "المرابطون والموحدون" الذين لم يبخلوا بأي جهد لنصرة الأندلس. إلا أنهم ضموها تحت جناحهم. أما مع "بني مرين" فاقتصر الأمر على المساعدة فقط. وقد لعب ذلك دوراً كبيراً في الحفاظ على الأندلس[١] لكن عندما ضعفت هذه الدولة – مع وجود بعض العوامل الأخرى – عجزت الأندلس عن المقاومة، فانهارت في النهاية.

٣ - استيلاء "ابن الأحمر" على ميناءي "مالقة والمرية" ساعد على حل مشكلة نقص الأموال وتدعيم هذه الدولة الناشئة التي تحتاج لكثير من المال لدعم الدولة وبنائها وتجهيز الجيوش كذلك دفع الجزية لملك قشتالة – في بداية الدولة – لما لهما من أهمية عظمى في المجالين التجاري والبحري[٢].

٤ - عدم ظهور أي زعيم منافس لابن الأحمر في بداية تأسيس المملكة. لذا " لم نشهد في الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى "[٣]. وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخلُ من ثورات وانقلابات محلية عديدة.

---

[١] انظر: د. الحجي: التاريخ الأندلسي، ص: ٥١٩ – ٥٢٣.
[٢] انظر: د. أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٧م، ص: ٢٩-٣٠ .
[٣] د. عنان: نهاية الأندلس، ص: ٥٤.

٥ - انشغال الممالك النصرانية المحيطة بمملكة غرناطة بمنازعاتها وحروبها الداخلية فلم توفق إلى تحقيق غايتها الكبرى وهي القضاء على دولة الإسلام في الأندلس[١] بصورة نهائية إلا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والأسباب، عندما توحدت مملكتا قشتالة وأراجون[٢]، ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاماً، عاشتها مملكة غرناطة أبية ترفع لواء الإسلام عالياً في ربوعها. ولعل هذا العامل هو من أقوى الأسباب التي مكنت من دفع أجل المسلمين في أسبانيا.

ومع كل ما تقدم من عوامل يبقى **الالتزام بالإسلام** هو الذي وهب هذه العوامل قوة حقيقية، ودفع جميع الأندلسيين للوقوف مجتمعين لصدَّ العدو والاستعداد لبذل الروح في سبيل الدفاع عن الدين أولاً ثم الأرض. وهو نفسه ما دفع "بني مرين" للوقوف بجانب أهل غرناطة.فاستطاعت بهذه الروح أن تبقى صامدة ما تمسكوا بها، فلما ضعف تمسكهم بدينهم تفرقوا وعادوا بعضهم فكان طبيعياً أن ينتصر عليهم عدوهم. وأن تسقط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في إسبانيا.

❖ المستوى الحضاري لمملكة غرناطة:

لما اشتدت حرب الاسترداد من قبل نصارى أسبانيا، أخذت قواعد الأندلس الوسطى والشرقية تسقط تباعاً في أيديهم، فكان يذهب إلى القواعد والثغور الجنوبية الكثير من الأسر المسلمة الكريمة التي آثرت الهجرة إلى أرض الإسلام على التدجُّن[٣] والبقاء تحت سلطان النصارى.

---

[١] كان هدف النصارى منذ دخول المسلمين إلى أرض أسبانيا، استرجاع ما أخذ منهم، فكانوا يتحيّنون الفرص لتحقيق هدفهم، وقد واتتهم الفرصة أثناء ملك الطوائف ومن ثم المرابطين. إلا أنها في ذلك الوقت كانت تحمل إلى جانب نزعتها القومية نزعة صليبية واضحة. إذ أنها كانت متزامنة مع قيام الحملات الصليبية على المسلمين في المشرق.

[٢] انظر: الطوخي: مظاهر الحضارة، ص: ٦، د. الحجي: التاريخ الأندلسي: ٥٢٣ – ٥٣٠.

[٣] دجن بالمكان يدجن دجوناً: أقام به وألِفهُ.

على أنه بقيت في المدن التي استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين الذين دفعتهم مصالحهم وأسرهم على البقاء في الوطن القديم تحت حكم الإسبان. أولئك الذين عرفوا **بالمدجنين** " Mudejares ". وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ أوائل القرن السابع عندما استولى العدو على أكثر المدن والمعاقل الإسلامية. على أن الكثرة الغالبة من المسلمين سكان الممالك الذاهبة قد فضلوا الهجرة إلى أرض الإسلام، وهكذا أخذت مملكة غرناطة تموج بسيول الوافدين عليها، وقد أشار لذلك المقّري فقال: "ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها – يعني غرناطة – فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوي إليه العساكر والجنود"[١].

وقد وصلت مملكة غرناطة إلى مستوى حضاريٍّ رفيعٍ جداً، وتمكنت خلال هذين القرنين "أن تعيد لمحةً من مجد الأندلس الذاهب كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجَلَد أن تسهر على تراث الإسلام في الأندلس ... "[٢].

كانت الحضارة التي ارتقت في هذه المملكة من الظواهر التي تثير التساؤل؟ كيف يمكن لهذه المملكة الصغيرة القلقة التي تعيش في تأهب دائم لمهاجمة الأعداء المحيطين بها أن تنهض حضارياً؟.

وللإجابة على هذا السؤال، سنحاول أن نوضح **العوامل التي أدّت إلى النهضة الحضارية** في الأندلس في مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري وهي :

١ - كانت الهجرة الغامرة من مختلف القواعد الأندلسية في الشرق والغرب على غرناطة، تضفي على تكوين السكان فيها طابعاً خاصاً. فقد كان السكان في الأندلس عامةً يتكونون من: العرب والبربر والمولدين[٣] – لم يحدث أي

---

[١] المقري: نفح الطيب: ١/ ١٤٨.
[٢] د. عنان: نهاية الأندلس: ٥٤.
[٣] هم أعقاب الإسبان الذين دخلوا الإسلام منذ الفتح.

تغيير – إلا أن هذه الجموع الوافدة على هذه المملكة الجديدة كانت تضم كثيراً من العناصر التي عاشت في مدن أرقى منها حضارةً ومن ثم فقد صقلتها هذه الحضارة، وعليه فإنه قد اجتمعت فئة كانت تمثل أطيب وأثمن ما بقى من القيم العنصرية والحضارية للأندلس القديمة. فكثر في المملكة أهل المهارات من الرجال والنساء أيضاً وعلى مستويات عالية، برعوا في كل ميدان حربياً كان أو مدنياً، مما جعل غرناطة تزدهر في مختلف الميادين التي استمرت في النمو، برغم القلق الذي تعيشه إلا أنه قد تهيأ لها من الرجال من يحميها من الأخطار ما كتب الله لها البقاء.[١]

٢ - الخواص الطبيعية لمملكة غرناطة أمدّتها بثروة زراعية ومعدنية هائلة، حيث كانت أرضها تجمع بين المروج والوديان الخصبة، وبين الجبال الوعرة التي تشتمل على الكثير من المعادن، فقد اشتهرت منذ القديم بخصوبتها، كما ذكر ابن الخطيب: (وأرضها سِقْى غزيرة الأنهار كثيرة الثمار ملتفة الأشجار)[٢] وقد زاد ثروتها إقبال المواطنين على زراعتها يعينهم في ذلك منهج علمي في فن الزراعة[٣]، وترشدهم خبراتهم الواسعة، إضافة لذلك جهود الدولة لتحسين وسائل الري وتنظيم الصرف – التي نظمت منذ عصر الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨ -٤٢٢هـ) -وكذلك تحتوي أراضيها على ثروة معدنية كبيرة حيث اشتملت على (ذهب وفضة ورصاص وحديد)[٤]. وقد أحسن الغرناطيون استغلال ثروات بلادهم الأمر الذي أدى إلى ازدهار النشاط الاقتصادي في كافة المجالات – الزراعة والصناعة والتجارة – حيث يتم تصدير المحاصيل

---

[١] انظر: د. عنان: نهاية الأندلس ص : ٥٦-٧٢ / د. الحجي: التاريخ الأندلسي ص : ٥١٩-٥٢١.
[٢] ابن الخطيب: الإحاطة: ٩٨/١.
[٣] لا سيما وقد سبقهم من الأندلسيين من كتب في هذا المجال مثل: ابن بصال الطليطلي في كتابه (الفلاحة) وكذلك أبو زكريا ابن العوام الإشبيلي وكتابه (الفلاحة) أيضاً. انظر: المقري: نفح الطيب: ١٩٩/١-٢٠٠.
[٤] ابن الخطيب: الإحاطة: ٩٨/١.

الزراعية والصناعات عن طريق موانئ المملكة. وتأتي إليها كافة احتياجاتها من دول المشرق والشمال الإفريقي.

ومن الناحية الفكرية نجد أن الحركة الفكرية والأدبية قد ارتقت في عصر "بني الأحمر" في غرناطة حيث كمنت فيها روح الأعصر الأندلسية ثم ظهرت في تراث أولئك الذين قدر لهم أن يشهدوا الغروب الأخير من أعلام غرناطة [1] وتألقت في سمائها أسماء لامعة في شتى مجالات العلم والمعرفة.

وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة تستمد من مواردها الطبيعية وثرواتها الغنية وعناصرها البشرية – التي تمكنت من التعامل مع المعطيات بذكاء ونشاط ومهارة فائقة مع توفر قدر من الأمن – أسباب القوة والمنعة والرخاء، والوصول إلى درجة عالية من الحضارة .

بذلك يكون قد تم توضيح **المستوى الحضاري لمملكة غرناطة** وأسباب ازدهارها في القرن الثامن الهجري، تلك الحضارة التي نشأت في بيئة وظروف خاصة، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والاجتماعية، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة، واستمرت -برغم الاضطرابات وفترات الضعف والتفكك التي مرت بها -ثمانية قرون كانت فيها مشعل الحضارة في غرب أوروبا المظلمة، وما أجمل ما كتبه " جوستاف لوبون " صاحب " حضارة العرب " – وما أنصفه – " لا جرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم في عهد " شارل مارتيل"[2] وفي الحروب الصليبية وبعد استيلائهم على الآستانة، يُذُّلوننا

---

[1] انظر: د. عصام قصبجي : لسان الدين بن الخطيب، طبعة مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية في جامعة حلب، ١٩٩٤م، ص: ٧.

[2] هو قائد الجيش المسيحي الذي التقى مع القائد المسلم عبد الرحمن الغافقي (١١٤هـ) في معركة بلاط الشهداء – بواتيه – بعد أن أخضع – الغافقي – جنوب فرنسا ووسطها ولم يبق أمامه إلا مدينة " بواتيه " فاصلة على طريق باريس. انظر المقري: نفح الطيب: ١/ ٢٣٥ – ٢٣٦.

بمدنيتهم السامية الساحقة ... وإلى أمس الدابر لم ننجُ من تأثيراتهم "[١]. وهو يشيد بمستواهم الفكري ويعترف بأنهم كانوا المتقدمين حين قال: " وبتأثيرهم العقلي فتحوا لأوروبا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، وهذا ما كانت تجهله، ومع ذلك كان العرب ممدنينا وأساتِذتنا مُدّة ستمائة سنة "[٢].

وكل ما سبق قَدّم صورة موجزة عن الوضع الحضاري في الأندلس في القرن الثامن الهجري. وسيأتي تفصيل كل المظاهر الحضارية في مملكة غرناطة لاحقاً إن شاء الله تعالى.

❖ ❖ ❖

[١] د. محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، طبعة دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٣٤م : ٩/١.
[٢] د. محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية: ٩/١.

الفصل الأول

"العوامل المؤثرة في شعر لسان الدين بن الخطيب"

- المبحث الأول:

  العوامل البيئية.

- المبحث الثاني:

  العوامل الذاتية.

- المبحث الثالث:

  العوامل الحضارية.

المبحث الأول

العوامل البيئية

العوامل البيئية:

لا شك أن الأدب صورة للحياة الإنسانية، وسجل لتاريخها المطّرد، ومعرض لبيئاتها المختلفة. يتحول بتحولها، وتنطبع فيه آثار عقائدها الدينية، ومظاهر حضارتها السياسية والعلمية والفنية، حتى يعود حكايةً لأطوارها، ومرجعاً لماضيها. لهذا كان الأديب ثمرة بيئته، "يحكي عصره ولا يمكن فهمة وإنصافه إلا بدراسة هذا العصر في أغلب نواحيه".[١]

وإذا كان المجال الزمني لهذه الدراسة هو القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فان المجال المكاني لها هو مملكة غرناطة التي عاش فيها ابن الخطيب مؤثّراً فيها ومتأثر بها. لذا كان من الضروري إلقاء نظرة على أهم ملامح الحياة العامة بأشكالها المختلفة **الاجتماعية والسياسية والفكرية** لانعكاسها المباشر على سيرة لسان الدين، وتأثيرها الواضح على آثاره الأدبية بعامة، وشعرهُ منها بخاصة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لتأثر هذه الحياة العامة نفسها بشخصية ابن الخطيب ومواقفه الفاعلة فيها.

أ - البيئة السياسية :

تزامن ميلاد هذا الأديب على صعيد الحياة السياسية في غرناطة مع فترة نشوب الصراع بين الإسلام والنصرانية، وعلى الأخص في عهد سلطان غرناطة "أبي الوليد إسماعيل" (٧١٣ -٧٢٥هـ) خامس ملوك بني الأحمر. الذي نهض بعبء الجهاد ضد القشاليين حيث تمكن من رد جيشهم الضخم عن العاصمة غرناطة سنة (٧١٨هـ).[٢]

ولم يقتصر الجهاد على هذا السلطان فقط وإنما نهض به جميع سلاطين "بني نصر" باستثناء بعض الفترات التي عقدت فيها معاهدات الصلح بين الطرفين حيث كثرت هجماتهم على غرناطة ضمن حملاتهم المسماة **"حروب الاسترداد"** لديار الإسلام تحت قيادة (الفونسو الحادي عشر) ملك قشتالة[٣] التي تزامنت مع مدة حكم السلطان "أبي الحجاج يوسف النصري"، فكانت معظم سنوات حكمه (٧٣٣ – ٧٥٥هـ) حافلةً

---

(١) أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي الطبعة العاشرة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص:٩٧.

(٢) انظر: ابن الخطيب؛ الإحاطة: ٣٨٩/١. ابن خلدون: العبر:٢٩٦/٧.

(٣) أنظر: د. عنان: نهاية الأندلس، ص ١٢٦ وما بعدها. د. يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢م ص:٤٢وما بعدها.

بجهود كبيرة في تسيير معارك الجهاد ضد القشتاليين دفاعاً وغزواً[١] لا سيما عندما ضاعفوا هذه الحملات وعملوا على مقاومة الوحدة الإسلامية القائمة بين العدوتين الأندلسية والمغربية، وعلى تفتيت أواصر القربى والتلاحم بين مملكتي غرناطة وفاس المرينية[٢] ذات المواقف الجهادية[٣] المساندة لحمراء غرناطة في جهادها والتي لم تتأخر عن نصرة أهل الإسلام بالأندلس كما يقرر ابن الخطيب في كثير من رسائله،[٤] وقصائده التي كان يوجهها لسلاطين "بني مرين" بالمغرب لطلب المساعدة لمواجهة أعداء الإسلام. ومن ذلك قوله في قصيدةٍ وجهها للسلطان "أبي عنان فارس" سنة (٧٥٥هـ):[٥]

يَانَاصِرَ الثَّغر الغـريبِ وأهْلَهُ أنْضَاءُ مَسْغَبة وفَـلُّ خطُوبِ
نَادتْكَ أندلُسٌ ومجْدُكَ ضَامِنٌ أَنْ لا تخيبَ لدْيكَ في مَطْلُوبِ

وقد استدعى هذا التكالب الصليبي من المملكتين النصرية والمرينية التعاضد والتساند من أجل توحيد الصفوف والتلاحم - على المستوى العسكري والجهادي - وأيضاً على المستوى السياسي والدبلوماسي في مجابهة ذلك المعسكر "الصليبي"[٦] وقد استمر هذا الجهاد المشترك حيناً بالرغم مما كان يخالج الفريقين المتحالفين أحياناً من الظنون والريب. ويحملهما على تبادل أسباب الجفاء والخصومة، ذلك أن ملوك "بني الأحمر" كانوا يتوجسون من سلاطين المغرب لأنهم كانوا يخشون تكرار موقف المرابطين والموحدين من قبل عندما استغلوا ضعف حكامهم واستولوا على الأندلس وفي مواجهة تلك الأطماع الصليبية اضطر المسلمون في غرناطة إلى خوض معارك متعددة – بمساعدة بني مرين في بعضها – للجهاد انتصروا في بعضها[٧] وانكسروا في بعضها الآخر[٨] كما لجأوا في أحيان أخرى إلى عقد الاتفاقيات وإبرام الهدن والمصالحات[٩].

---

(١) انظر تفصيل هذه المعارك في ابن الخطيب الإحاطة: ٣٣٢/٤ ومابعدها. د.عنان: نهاية الأندلس ص:١٢٥، وما بعدها.

(٢) كان من أعظم سلاطين هذه الدولة السلطان أبو الحسن المريني، الذي كان شغوفاً بالجهاد ولعب دوراً كبيراً في استرجاع جبل طارق بعد احتلال النصارى له سنة (٧٠٩هـ) بعد أن لبث في أيديهم أربع وعشرين عاماً (٧٣٣هـ). وساعد مملكة غرناطة مراراً كان آخرها موقعة طريف سنة (٧٤١هـ). انظر ابن خلدون: العبر: ٣٠٩/٧، وما بعدها.

(٣) إلى جانب هذه الروح المضطرمة بحب الجهاد في سبيل الله، كان حكام المغرب يرون أن خطر أسبانيا لا يهدد الأندلس وحدها بل والمغرب أيضاً لأن الأندلس تعد الخط الدفاعي الأول للشمال المغربي. انظر: د. عنان: نهاية الأندلس، ص: ١٢٣ – ١٢٤.

(٤) كشفت هذه الرسائل عن أوضاع مملكة غرناطة والتعاون مع الدولة المرينية في صد العدوان النصراني، راجع: ابن الخطيب: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج: ١ ص: ١٤٣-٢٠٧ – ٢٢٣ – ٢٣٧ – ٢٩٩. ج:٢، ص: ٣٩ ، ٥٨. وبعض هذه الرسائل أثبتها أيضاً في كتاب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

(٥) ديوان ابن الخطيب ص ١٣١.

(٦) لأن هذه الحملات العسكرية كانت تجيش إلى جانب نزعتها القومية بنزعةٍ صليبيةٍ واضحة، حيث تزامنت مع الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي.

(٧) مثل انتصار محمد الخامس (الغني بالله) في وقائع: برغة، وحصن أشر وجيّان، وأطريرة، وأُبَّده. انظر: ابن الخطيب الإحاطة : ٧٨/٢٠ وما بعدها، ريحانة الكتاب: ٢١٠/١ – ٢١١.

(٨) مثل معركة (طريف) أو (سلادو) التي كانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب (٦٠٩هـ). أنظر: ابن الخطيب الإحاطة: ٣٢٢/٤، اللمحة البدرية: ١٠٦ ابن خلدون: العبر: ٣١٠/٧.

(٩) مثل الهدنة التي عقدها السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف، مع حاكم الروم، أنظر: ابن الخطيب اللمحة البدرية، ص: ٥٢-٥٣.

ولم يكن الشعر في هذه المملكة بمعزل عما يجري من أحداث وإنما كان مواكباً لها داعياً للجهاد ومشيداً بالانتصارات. وقد بين ابن الخطيب من خلال شعره الوضع الحرج الذي عاشته هذه المملكة التي أحاط بها الأعداء من كل جانب ودعا في كثير منها إلى الجهاد ومدح السلاطين الذين حملوا لواءه، حتى تمكنوا من إعادة القوة لهذه الدولة الإسلامية كما كانت في سابق عهدها. فهدأت نفوس ساكنيها بعد تمتعهم بالأمن الذي طالما افتقدوه لا سيما في العهد الذي عاش فيه الشاعر وهو عهد السلطان "أبي الحجاج يوسف" الذي بدد شمل الكفار، وجاهد في سبيل الله. وقد صور ابن الخطيب ذلك بقوله:[1]

وبَدَّدْتَ شَمْلَ الكُفْرِ بَعْدَ ائْتِلاَفِهِ فأَضحَى عَمِيداً[2] في الرُّغام عِميدُهُ

وجَاهَدْتهُ في الله حَقُّ جِهَادِهِ فأذْعَنَ عَاصِيهُ وذَلَّ عَنِيدُهُ

كما صور ابن الخطيب في شعره جميع الأحداث السياسية من انتصارات وفتوحات ومعاهدات سواءً في غرناطة أو في دول المغرب.

وقد دام هذا الصراع السجالي فترة طويلة ولم ينتهِ بالنهاية الفاجعة لحياة السلطان "أبي الحجاج" (٧٥٥هـ) بل امتد أوراه إلى عهد ابنه السلطان "محمد الخامس" (الغني بالله) الذي نهض هو الآخر بدور مماثل ساهم فيه ابن الخطيب بدور كبير.

إلا أن "الغني بالله" قد جوبه منذُ وفاة أبيه المغدور به، بصراع داخلي تأجج لهيبهُ في داخل أسرته النصرية تجلى في عملية انقلاب على السلطان في الثامن والعشرين من رمضان من سنة (٧٦٠هـ).[3] كان لها تأثيرها في حياة غرناطة السياسية، وفي حياة "الغني بالله" ووزيره ابن الخطيب أيضاً.

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٧٠.

[2] يشير في هذا البيت إلى المعمودية عند النصارى وهي تعني غمس الطالب بالماء باسم الأب والابن والروح القدس. ليبين أن هؤلاء النصارى قد غطاهم التراب، وليس الماء الطاهر.

[3] انظر تفصيل هذه الكائنة كما يسميها ابن الخطيب في ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: ٢/ ١٠٣-١١٩ كذلك في: د. محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب – حياته وتراثه الفكري، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨م ص: ٥٠ ومابعدها.

فقد "الغني بالله" بعد هذا الانقلاب ملكه، واتجه إلى فاس في جوار السلطان "أبي سالم إبراهيم المريني"[١] بصحبه أهله ووزيره ابن الخطيب. وأصبح "إسماعيل بن يوسف" سلطاناً لغرناطة. الذي لم يلبث أن قتله صهره المغتصب – والمدبر للانقلاب – "أبو عبد الله محمد السادس"[٣]، وعاث فساداً في الملك بعد أن نهب ثروة البلاد وأرهق الأهالي بالفروض[٤]. مما هيأ النفوس في غرناطه لبغضه، والمطالبة بعودة سلطانها المنفي من جديد لحكم غرناطة.

فتأهب "الغني بالله" للرجوع مستعيناً بالدولة المرينية وأيضاً بملك قشتالة (بيدرو القاسي). وانتهى هذا الصراع النصري بنهاية "محمد السادس" وقادة الثورة معه على يد ملك قشتالة الذي لجأوا إليه، وعاد "الغني بالله" إلى الحكم سنة (٧٦٣هـ).

وعند وصول الغني بالله إلى غرناطة، شرع في إرساء دعائم الدولة مستعيناً بحنكة وزيره لسان الدين الذي نهض – بعد امتناع – بدور فعال في هيكلة الدولة، وتأطير مؤسساتها المدنية والعسكرية بعد الخراب الذي ألحقه الثوار بها، مع ما نهض به من رفع رايات الجهاد في وجه النصارى، وبما أبرمهُ من اتفاقيات سياسية مع دولهم في بعض الأوقات[٥]. كما عمل على توثيق أواصر المودة والإخاء مع الدولة المرينية، وتبادل الرسائل الديوانية مع دول المغرب الأدنى والأوسط ودولة المماليك ومكة والمدينة[٦]. وكانت هذه الرسائل التي دبجها ابن الخطيب تهدف إلى تقرير المودة وتقوية علاقة غرناطة بديار الإسلام.

وبذلك يكون ابن الخطيب هو الشخصية الأهم في بلاط الحمراء، لا سيما في مدة حكم "الغني بالله" الثانية، حيث ضاعف من مسؤولياته، وأطلق عليه لقب "**ذا الوزارتين**"، وجعله مطلق السلطة.

---

(١) انظر ترجمته: في ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٠٣/١ وما بعدها، الأمير "ابن الأحمر" إسماعيل بن يوسف : النفحة النسرينية واللمحة المرينية ، تحقيق د.عدنان محمد آل طعمة ، طبعة دار سعد الدين ، دمشق ، ١٩٩٢ ، ص : ٥٦ .

(٣) يلقب في المصادر الأسبانية بـ (البرميخو) (Bermejo) ومعناها اللون البرتقالي الضارب إلى الحمرة وهو لون شعره ولحيته. انظر: د. أحمد العبادي: لسان الدين بن الخطيب، مجلة عالم الفكر العدد الثاني، المجلد السادس عشر، ١٩٨٥م: ص٣٢.

(٤) انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب: ١٨٣/٢ – ١٨٥. حيث وضح جميع الأوضاع في غرناطة على عهد الثوار .

(٥) انظر: د.محمد كمال شبانة: (السياسة الخارجية لمملكة غرناطة النصرية في منتصف القرن الثامن) مجلة: دعوة الحق، سنة ١٩٦٧م.

(٦) انظر: د. محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤م، ٣٣/١-٣٤.

إلا أن أمراً كان يقلق ابن الخطيب عند رجوعه من فاس، وهو المكانة التي كان يتبوأها شيخ الغزاة " عثمان بن يحيى " لدى السلطان محمد الخامس. مما حملهُ على إغراء سلطانه به حتى نكبه في رمضان سنة (٧٦٤هـ). فخلا له الجو حتى استبد بالسياسة والسلطة حسب رأي صديقه ابن خلدون[١]. فحقدت عليه بطانة السلطان وبخاصة صنائعه وتلاميذه الذين تفننوا في السعايات فيه، ولكن السلطان لم يعرها أي اهتمام، إلا أنه مع الوقت بدأ يتأثر بها، حتى ضاق ابن الخطيب بهذا الجو، واضطر للفرار من الأندلس سنة (٧٧٤هـ)، ولجأ لحمى السلطان "عبد العزيز المريني"[٢] إلا أنهم استمروا بملاحقته بمكائدهم حتى قتل في مدينة فاس.

ولعله من الضروري أن نذكر لمحة عن **أحوال المغرب** في ذلك العصر الذي عاش فيه ابن الخطيب خاصة أن المدة التي قضاها من حياته في المغرب (٧٦٠ -٧٦٣هـ) (٧٧٤ – ٧٧٦هـ) لم تكن عابرة وإنما كانت أصيلة سواء بالنسبة لتطورات حياته أو لنتاجه الفكري[٣] الذي تأثر بظروفه التي عاشها والتي غالباً ما كانت مضطربة.

لم تكن الأحوال السياسية في العدوة المغربية على عهد الدولة المرينية التي عاصرها ابن الخطيب وتفاعل مع سلاطينها ووزرائها، ومع حياتها العامة السياسية والفكرية والاجتماعية، أكثر أمناً واستقراراً من الحياة السياسية في الأندلس، فقد شهدت هذه الدولة في عهد السلطان "أبي الحسن علي بن عثمان المريني" (٧٣٢ – ٧٥٢هـ) شيئاً من الازدهار والاستقرار، كما شهدت توسعاً في النفوذ المريني الذي امتد شرقاً فشمل المغرب الأوسط والأدنى. كان السلطان أبو الحسن "من أعظم سلاطين بني مرين"[٤] وكان محباً للجهاد وله مواقف مشهودة في نصرة الأندلس. وبعد وفاته تولى الحكم بعده ابنه السلطان "أبو عنان" فارس (٧٤٩ – ٧٥٩هـ). وكان هو الآخر من أقوى

---

[١] انظر ابن خلدون: العبر: ٣٩٧/٧. كذلك: ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ٩٠/٤.
[٢] انظر ترجمته في: ابن الأحمر: النفحة النسرينية، ص:٦١.
[٣] للتعرف على مؤلفاته في المغرب انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب: ١٨٧/٢-١٨٨. د. عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص: ٨٢-٨٣.
[٤] د. عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص ٢٤٠.

سلاطين هذه الدولة، ومن أبعدهم أثراً في إثراء حياتها العامة بما أشاعه من ازدهار على مستوى الآداب، والعلوم، والعمران، والفتوحات، وأيضاً على مستوى العلاقات السياسية مع الدول المجاورة. وكان هو نفسه (فقيهاً يناظر العلماء، وكان عارفاً بالمنطق وأصول الدين).[١]

وقد انتفعت العدوة الأندلسية بمساعدات السلطان "أبي عنان" كما كان الحال في عهد والده، وكان من ذلك ما عاد به الوزير لسان الدين إلى غرناطة من من سفارته التي وفد فيها على المغرب من قبل سلطانه "الغني بالله" لتعزية السلطان في وفاة أبيه، وتهنئته بتولي الملك.[٢]

وقد ثار "الحسن بن عمر الفودودي" على السلطان أبي عنان في مرض موته وقتله في سنة (٧٥٩هـ)[٣]. وعين مكانه قصد الاستبداد بالحكم ابنه الطفل "أبا بكر السعيد بن أبي عنان " وحمل الناس على مبايعته، فاضطربت الأحوال في عهده ونقم الناس عليه فتولى الحكم السلطان "أبو سالم إبراهيم المريني".

استطاع هذا السلطان الذي لم يدم حكمه طويلاً الحفاظ على الأمن والاستقرار وتقديم المساعدات الكبيرة لسلطان غرناطة ووزيره عندما لجأ إليه حينما قامت الثورة بغرناطة.

إلا أن المؤرخين ذكروا أن هذا السلطان قد اعتمد اعتماداً كاملاً على وزيره "أبي عبد الله بن مرزوق التلمساني" في تسيير شؤون الحكم. مما أذكى جذوة الثورة عليه من قبل بعض المعارضين وعلى رأسهم صهره ووزيره "عمر بن عبد الله بن علي اليابانى"[٤] فقتله وقتل وزيره وبايع "أبا عمر بن أبي الحسن" الملقب "بالموسوس" أخي السلطان.

---

(١) د. عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص ٤٩.
(٢) كان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ٧٥٢هـ. وهي فيما يبدو أول زيارة لابن الخطيب إلى المغرب، انظر: ابن خلدون: العبر: ٣٩٤/٧.
(٣) انظر: ابن خلدون: العبر: ٣٥٥/٧.
(٤) لتفاصيل هذه الثورة انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص ٢١٥ – ٢٢٨. ابن خلدون: العبر: ٣٧٠/٧.

ثم عاجله ونصب مكانه "أبا زيان محمد بن أبي عبد الرحمن المريني" ثم قتله واستبد بحكم المغرب.[١] إلى أن تغلب عليه السلطان "أبو فارس عبد العزيز " وقتله[٢] وأنصاره. فوفر الأمن واتسع طموحه، فاستولى سنة (٧٧٢هـ) على مدينة "تلمسان".

وهو الذي آوى ابن الخطيب عندما قلبت له الأيام ظهر مِجنّها، ونصره ودافع عنه. لكن المنية عاجلته سنة (٧٧٤هـ). فتولى الأمر بعده ابنه الطفل "السعيد" برعاية الوزير أبي بكر بن غازي. فأخذت الأوضاع السياسية للدولة المرينية في الانهيار، كما أخذت شمس لسان الدين نفسه بالأفول.

وبذلك: يتضح أن أحوال المغرب هي الأخرى شهدت ألواناً من الثورات والفتن وعدم الاستقرار.

هذا هو الجو السياسي العام الذي عاش فيه ابن الخطيب، وقام فيه بدورٍ واضحٍ وهام لكونه أحد كبار رجال البلاط السلطاني في غرناطة. حيث تولى العمل بدايةً في ديوان الإنشاء بعد وفاة والده، ثم قلده السلطان " أبو الحجاج يوسف " الوزارة إلى جانب الكتابة السلطانية التي أبدع فيها العديد من الرسائل الديوانية عن سلطانه إلى كافة الدول الإسلامية والنصرانية كذلك والتي نعتها صديقه ابن خلدون بـ "الغرائب في الترسّل"[٣]. ثم تضاعفت مكانته بعد ذلك لدى السلطان "محمد الخامس" وأطلق عليه لقب "ذا الوزارتين" - في فترة حكمه الثانية - وأصبح هو المستبد بالسلطة والموجّه لسياسة الحمراء، بكل حنكة وذكاء.

أما عن **تأثيره**: على هذه الحياة السياسية فقد رسم سياسة الحمراء ووجهها طيلة توليه الوزارة والنيابة عن السلطان أحياناً، بنجاح. وقد وضح منهجه الذي اتبعه وخدمته للدولة النصرية في بعض مؤلفاته.[٤]

---

[١] لتفاصيل هذه الأحوال المضطربة بعد استيلاء الوزير عمر بن عبد الله انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص: ٣٠٣ وما بعدها.
[٢] انظر: ابن خلدون: العبر: ٣٨٣/٧.
[٣] ابن خلدون: العبر: ٣٩٤/٧.
[٤] انظر مثلاً ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٤٥/٤ – ٤٤٦. وكذلك: رسالته التي وجهها للسلطان الغني بالله عندما هاجر إلى المغرب. وقد أوردها ابن خلدون كاملة في التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. ص: ١٤٧ – ١٥٢.

وقد أدرك "بنو الأحمر" أن المرحلة التي تولو فيها قيادة غرناطة كانت مرحلة حاسمة وحرجة جداً، لأن وجود المسلمين فيها كان مهدداً من النصارى لذلك انتهجوا لأنفسهم طوال فترة حكمهم سياسة دائمة التقلب والتلون[١] في علاقاتهم "بالقشتاليين والأراجونيين" من جهة، وبين "بني مرين" من جهة أخرى، فلم تلتزم في سياستها الخارجية جانباً واحداً من هذه القوى المحيطة، فكانت تتبدل بحذر حسب الظروف المحيطة بها، فتارة يقترب من قشتالة ضد المغرب، وتارةً يتقرب من المغرب ضد قشتالة وأراجوان وهكذا.

إلا أن ابن الخطيب عندما أحس بتغير سلطانه عمل على رسم سياسة موحدة للأندلس والمغرب، وحاول إرضاء سلاطين بني مرين في كل ما يطلبونه من مملكة غرناطة لأن عينه كانت (ممتدة إلى المغرب وسكناه، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه).[٢] إلا أن هذه السياسة المغربية التي اتبعها قد اصطدمت بنزعات الأندلسيين الاستقلالية وأثارت في نفوسهم مخاوف الماضي ومن ثم كان هذا الخلاف الذي انتهى بنهاية ابن الخطيب الفاجعة.

وهكذا تم التعرف على أهم الأحداث على مستوى الساحة السياسية في القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه ابن الخطيب، ولعب فيه دوراً هاماً إذ وجه هذه السياسة في أحيانٍ كثيرة نحو ما يريد، حتى مع أعدائهم النصارى.

فقد برز لسان الدين بتمثيله الدبلوماسي الناجح لمملكته لدى ملوك الإسلام وملوك النصارى. وليس أدل على ذلك من قول "غومس" أنه (لم يكن أعظم أديب ومؤرخ في عصره فحسب، وإنما أيضاً أشهر شخصية سياسية، فقد ظل يتولى منصب الوزير الأعظم أو الأول منذ عام ٧٤٩هـ)[٣] كما أكد وجود علاقة صداقة بين البلاطين الغرناطي والقشتالي[٤] أسهم هذا الوزير في تدعيم أواصرها حيث عمل على تبادل عدة رسائل مع الملك القشتالي تدل على طيب العلاقات بين الدولتين.

---

(١) انظر: د.عنان: نهاية الأندلس، ص:١٣٨، وما بعدها.
(٢) ابن خلدون: العبر: ٤٠٠/٧.
(٣) اميليو غرسية غومس: مع شعراء الأندلس والمتنبي – سير ودراسات. تعريب: د. الطاهر أحمد مكي "الطبعة السادسة"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦م، ص: ١٧٤ – ١٧٥.
(٤) يظهر ذلك في موقف ملك قشتالة بيدرو القاسي مع محمد الخامس "الغني بالله" عندما قتل الملك "محمد السادس" بيده، وساعده على استرداد ملكه.

وقد أكد مؤرخوا الإسبان وجود عدد من الرسائل مع الملك القشتالي وبين (مسلم من غرناطة كان الملك القشتالي يثق فيه، ويتخذه صديقاً، واسع المعرفة، فيلسوفاً عظيماً ومستشاراً لملك غرناطة يدعى Benahatin – إنه ابن الخطيب اللوشي)[١].

وقد كان لهذه الأحداث تأثير على ابن الخطيب في سياسته وتفكيره وانتاجه ونظرته أحياناً للحياة. كما سنوضح في موضعه إن شاء الله تعالى.[٢]

(ب) - البيئة الاجتماعية:

تقدم القول في أبرز السمات المميزة للظروف السياسية التي سادت مملكة غرناطة. وفي ضوء تلك الظروف تحددت شخصية المجتمع الأندلسي في القرن الثامن الهجري حيث تألف المجتمع الأندلسي من أجناس متنوعة أهمها: العرب والبربر والمسالمة والمولدون والمستعربون واليهود والصقالبة[٣]. ومع تعاقب السنين أصبح من الصّعب التمييز بين هذه العناصر بشكل واضح. لأن الاختلاط إذا طال وقوى (يكاد يمحو هذه الفوارق الظاهرة بينهم)[٤]. وعندما نصل إلى العصر الغرناطي نجد أن هذه التركيبة الاجتماعية لم يطرأ عليها تغيير كبير فهي استمرار للعنصر الأندلسي في العصور الإسلامية السابقة.

ففيها من الأجناس العربي والبربري والإفريقي والإسباني والصقلبي. واجتمعت على ساحاتها من الناحية العقدية والأديان: الإسلام والنصرانية واليهودية.

ونشأت فيها طبقات اجتماعية متمايزة فيها الطبقة الارستقراطية الغنية التي تمثلها الأسر النافذة[٥] على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وفيها الطبقة الوسطى وهي الغالبة وفيها الطبقات الفقيرة.

وقد ظلت ظاهرة التسامح في هذه التركيبة الأندلسية هي السائدة بين أفراد المجتمع على مختلف مله ونحله.

---

[١] غومس: مع شعراء الأندلس والمتنبي، ص: ١٦٨.
[٢] سنوضح هذا الأثر في مبحث العوامل الذاتية.
[٣] – انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص: ٤٢ وما بعدها.
[٤] أحمد الشائب: أصول النقد الأدبي، ص: ٨٦.
[٥] للتعرف على بعض هذه الأسر انظر: د. عبد السلام شقور البيوتات الأندلسية بحث في المكونات والضوابط والنتائج، ندوة الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات، الطبعة الأولى مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض ١٩٩٦م، القسم الأول: التاريخ وفلسفته، ص: ٢٦١، وما بعدها.

كما شاعت فيه مظاهر الترف، والبذخ، والبطالة، وفشت مجالس الأنس[١]، حيث الشراب والرقص والغناء، وغيرها من المظاهر السلبية التي كانت نتاجاً للحضارة.

كما تعرض هذا المجتمع الأندلسي إلى الوباء العام (الطاعون) الذي اكتسح الشرق والغرب في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وانتشر في المدن ذات الكثافة السكانية وفي الأحياء الشعبية بنوع خاص. وأودى بحياة طائفة من الأعلام البارزين فيه على المستويين العلمي والاجتماعي. وقد أَلّفَ فيه ابن الخطيب كتابة في الطبّ: (مقنعة السائل عن المرض الهائل) وهو المرض الذي توفى به شيخه أبو "الحسن علّي بن الجيّاب".[٢]

وقد كان أبناء الشعب -عامة - يعيشون في رخاءٍ وسعة بالرغم من عدم الاستقرار السياسي. ويمكننا القول إن المجتمع الغرناطي وصل إلى مرتبةٍ عالية من التطور في ميادين الحضارة.[٣]

هذا هو المجتمع الذي عاش فيه ابن الخطيب وتأثر به، وكان ينتمي إلى طبقة أرستقراطية وعاش ببذخ وترف بفضل هذه المكانة.

وقد صوّر المجتمع الغرناطي في نثره[٤] وشعره حيث صور بعض العادات والتقاليد والاحتفالات والمواسم الدينية وغيرها[٥]. ولا عجب في ذلك فالإنسان بطبعه كائن اجتماعي يتبادل التأثير والتأثر مع مجتمعه، فهو يستمد أدبهُ من هذا المجتمع الذي يعيش فيه وبذلك يكون إبداعهُ (تعبيراً عن المجتمع) كما يرى "دي بونا".[٦]

(جـ) البيئة الثقافية "الفكرية":

بعد أن تعرفنا على الوضع الذي طبع الحياة في غرناطة والذي اتسم بظهور الفتن والانقلابات على المستوى السياسي، والانقسامات العرقية والعقدية على المستوى الاجتماعي، يلفت انتباهنا الحياة الفكرية والأدبية حيث أن هذه الأوضاع لم تكن عائقاً لها.

---

[١] –انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١٣٨/١.
[٢] - انظر: ابن الخطيب: مقنعة السائل عن المرض الهائل. ابن خلدون: العبر: ٣١٥/٧.
[٣] - انظر: د. يوسف فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص: ١٣٨.
[٤] – للتعرف على المظاهر الاجتماعية في نثره، انظر: د. رابح عبد الله المغراوي: (تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية الكويت ، الرسالة: ١٤٠، الحولية: العشرون، ١٩٩٩م – ٢٠٠٠م، ص ٢٤ وما بعدها.
[٥] – سنتعرض لهذه المظاهر بالتفصيل في موضعها من هذه الدراسة (الفصل الثاني).
[٦] انظر: د. عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، الطبعة السابعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص:٤٣.

فقد ازدهر الفكر والأدب في مملكة غرناطة ازدهاراً كبيراً، ويكفي أن نطلع على كتب التراجم الأندلسية مثل: المغرب، والإحاطة، والكتيبة الكامنة، ونفح الطيب، وأزهار الرياض، فقد احتوت على أعداد لا تكاد تحصى من الشعراء والعلماء وغيرهم ... وهذا يدل على بيئةٍ فكريةٍ مزدهرة. أعانها على ذلك الإقبال المتزايد من الناس على العلم من جهة، وبفضل التشجيع الذي عرف به كثير من السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة من جهةٍ أخرى.

وكان بعض أمراء "بني الأحمر" أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء، فقد اشتهر مؤسس دولتهم "محمد بن الأحمر" بحمايته للأدب والعلم، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم[١] وسار أبناؤه من بعده على هذا النهج في حماية العلم والأدب.

وقد بلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروتها في مملكة غرناطة في عهد السلطان أبي الحجاج يوسف (٧٣٣ -٧٥٥هـ) وولده السلطان محمد "الغني بالله" (٧٥٥ – ٧٩٣هـ).

وقد أشرنا من قبل إلى بعض النابهين في الدولة النصرية[٢] الذين أعادوا بروعة إنتاجهم الفكري والأدبي روعة الأدب الأندلسي في أعظم عصوره. ومن الملاحظ أن معارف أعلام القرن الثامن الهجري لم تقتصر على علوم وفنون معينة بل اتسعت فشملت علوم الأوائل وغيرها. فقد ازدهر علم الفلك، وعلم الطب، وعلم الحساب، والموسيقى.[٣]

كذلك تأكدت العناية بعلوم اللغة والشريعة والتاريخ، حتى أن بعض هؤلاء العلماء، والأدباء، والفقهاء، يعد مشاركاً في عدد من العلوم والفنون ومسهماً بالتأليف فيها كما تدل آثارهم وكتابات من ترجم لهم. على نحو ما نلحظه في ابن الخطيب نفسه.

وقد بلغ **الشعر** في هذه المدة شأواً بعيداً من الازدهار الفني حيث تألقت في سماء غرناطة الكثير من الأسماء اللامعة "وليس أدل على ذلك من الإشارة إلى وجود ما يزيد على أربعة عشر ديواناً في مصادر مختلفة فضلاً عن أشعار من ليس لهم ديوان معروف من المكثرين والمقلين".[٤]

---

[١] – انظر: ابن الخطيب اللمحة البدرية، ص: ٤٥.
[٢] – انظر: تمهيد هذه الدراسة.
[٣] – انظر: د. رابح المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية للمملكة غرناطة، ص ٧٩-٩٣.
[٤] – د. عبد الحميد الهرّامة: دواوين القرن الثامن الهجري: تعريف واستدراك، (ندوة الأندلس قرون التقلبات والعطاءات)، الطبعة الأولى، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٩٩٦م، القسم الرابع: اللغة والأدب، ص: ٥١١. كذلك للمؤلف نفسه: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري: الظواهر والقضايا والأبنية. الطبعة الأولى ، كلية الدعوة الإسلامية، ١٩٦٦م، ص:٣٢.

وهذا مما يؤكد تميز هذه المدة الشعرية وانتعاشها لا سيما إذا نظرنا إلى المشرق في ذلك الوقت الذي وصل فيه الشعر إلى مستوى الجمود والانحطاط. ولم تظفر ساحته آنذاك إلا بعدد قليل من الشعراءالنابهين من أمثال: "صفيّ الدين الحلّي" ت (٧٥٠هـ) وابن نباتةْ المصري ت (٧٦٨هـ).[١] في حين ظل الشعر الأندلسي في ذلك القرن يعيش أفضل حالاته مشكلاً بذلك (انبعاثاً قوياً للأدب أشبه ما يكون بالانتباه الأخير واليقظة الصافية التي تنتاب المحتضر قبل إسلام الروح)[٢]. وقد كانت المجالس العلمية والندوات الأدبية والمحافل الجدلية التي شهدت ازدهاراً في قصور السلاطين وكبراء دولة "بني الأحمر" بغرناطة وكذلك "بني مرين" بفاس، من الدعائم التي أدت إلى انتعاش حركة العلوم والآداب، واتساع دائرة التأليف والتصنيف في ذلك الوقت.

وقد كان ابن الخطيب خير ممثل لعصره ولأجوائه السياسية والاجتماعية والفكرية مجتمعة بزخمها وتراكماتها، كما كان المثقف الموسوعي الذي تشرب – في صورة نادرة - أمواه العلوم والفنون والآداب، فضلاً عما عرف به في مجريات السياسة، ليس في الأندلس كما لاحظنا بل في العدوة المغربية أيضاً.

❖ ❖ ❖

[١] – انظر: د. جودت الركابي: الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠١م، ص: ١٥٣.
[٢] – د. الحسين رحمون: (هل كان عصر غرناطة عصر انبعاث أدبي في الأندلس والمغرب؟) ندوة البحث في التراث الغرناطي حصيلة وآفاق، منشورات كلية الآداب – وجدة – المغرب، ١٩٩٨م ص:٢٢٠.

المبحث الثاني

العوامل الذاتية

-العوامل الذاتية:

يتناول هذا المبحث أهم العوامل الذاتية المؤثرة في حياة ابن الخطيب وفنه الشعري وهي: -

١ - عراقة النسب:

ذُكر في موضع سابق نسب ابن الخطيب،[١] ويتضح من خلال سلسلة بنسبه أنهُ سليل أسرة عريقة تنتمي إلى قبيلة "سلمان اليمنية" التي هاجرت إلى الشام ومن ثم انتقلت إلى الأندلس وسكنت قرطبة، وكانوا يعرفون ببني الوزير وكان (بيتهم بيت فقه وخيرية وماليّة ونجارهم نجار فرسانٍ يمانية).[٢] وكان جده الأعلى سعيد الذي استوطن لوشة خطيباً وقاضياً ومشاوراً[٣]. ثم عرف سلفه "ببني الخطيب". وصاهر أشراف البيوتات الغرناطية. فنشأ والد ابن الخطيب في هذا الترف والنعمة في غرناطة، وقرأ على العديد من أعلام الفكر والأدب في وقته، يقول ابنه لسان الدين أنه: (حافظاً للمثل واللغة، إخبارياً، مضطلعاً بالتاريخ، ناظماً، ناثراً، جميل البزّة، فاره المركب، مليح الشيبة).[٤] ثم تولى الوزارة للسلطان "أبي الوليد اسماعيل" وظل بها حتى وفاته سنة (٧٤١هـ) في يوم طريف مع ابنه الأكبر.

وقد نعم ابن الخطيب في مرحلة طفولته وصباه وشبابه بالتقلب في هذه المهاد المفعمة بالنعمة. وتفتح وجدانه في هذا البيت الموصول بالعرفان والتقاليد المعتبرة. كما تقلب في هذه المدينة الجميلة "لوشة" الحافلة بمظاهر الجمال الطبيعي المتجلي في الحقول والبساتين الرائقة والسهول الخصيبة والنسيم العليل والماء المتدفق.

هذا الوضع الاجتماعي الرفيع كان له تأثيره الواضح على فكره السياسي وعلى فنونه الأدبية وتصوراته. وقد كان حب الانتماء إلى القبائل العربية الأرستقراطية قد

---

[١] – انظر التمهيد.
[٢] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٣/ ٣٨٦.
[٣] - كانت الشورى من الخطط الفرعية الملحقة بالقضاء في العصور الأخيرة بالأندلس، ويطلق على من يتقلدها "المشاور" واختصاصها يدور حول الإفتاء وإبداء الرأي في المسائل الشرعية، انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٧٨/٣، هامش (١).
[٤] – ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٨٨/٣.

تغلغل بين الأندلسيين وورثه الأبناء عن الآباء. وقد كان ابن الخطيب يتفاخر بانتسابه إلى الأصل العربي وأجداده الذين ينحدرون من العرب القحطانية اليمنية. وقد ذكرهم أحد الباحثين في عداد البيوتات الأندلسية التي استمر الجاه فيها وتوارثه بنوها لعدة قرون. [١]

وقد كان ابن الخطيب معتداً بهذا المجد الأثيل وهذا البيت العريق الذي تمتع منذ زمن بعيد بالجاه والثراء والفضل مثل قوله:[٢]

لنّا في الفَخْرِ أسْـــــنِمَةٌ مُطِلَّةٌ تَقُومُ عَلَى دَعَـــــاويهَا الأَدلَّهْ
بَنِي سَلْمان سَلْ عَنهُم سَتدْري على الأَجْيَال مْنهُم كُـلَّ جِلَّهْ
يَمانَيةُ المــناسِبِ والمَــواضي مَفَاخِرُها رُسُـــــومٌ مُسْتَقِلَّهْ

(٢) رعاية بني الأحمر:

كان للرعاية التامة التي أولاها "بنو الأحمر" لأسرة ابن الخطيب إسهامها البارز في تكوينه العلمي والعملي، وفي توجهه النفسي والسلوكي، وطموحه المتنوع المشبوب.

ومن مظاهر الرعاية والاهتمام به من قبل والده في صغره ما أتيح له من الحصول على أرقى وأغزر الروافد في تكوين ملكاته وثقافته في مسقط رأسه "لوشة" ومن ثم غرناطة التي كانت تتمتع آنذاك بمستوى رفيع من الثقافة[٣] حيث برز فيها طائفة من أعظم أعلام الفكر والأدب في القرن الثامن الهجري.

وظل يتمتع بهذه المكانة والعناية حتى شب وظهرت مواهبه وأثبت تفوقه عندما التحق بديوان الإنشاء مرؤوساً بالشيخ " أبي الحسن ابن الجيّاب " والذي تقلد منصبه بعد وفاته سنة (٧٤٩هـ) فغمره السلطان "أبو الحجاج يوسف" بكل الثقة والتقدير والاحترام، وقلدهُ الوزارة. وكذلك فعل ابنه من بعده السلطان "محمد الخامس" "الغني بالله" الذي ضاعف حظوته وأطلق عليه لقب "ذي الوزارتين" وجعل له السلطة المطلقة – لاسيما في ولايته الثانية – في تدبير شؤون المملكة، ليس ضعفاً منه، بل ثقة بحنكة وحسن تصرف وزيره القوي. هذا قبل أن يتغير الجو ويتلبّد بين الوزير وسلطانه. وقد قابل ابن الخطيب هذه العناية بالإخلاص والتفاني في خدمة المملكة، والسهر على تنظيم أحوالها وتحسين

---

[١] – انظر: د. عبد السلام شقور: البيوتات الأندلسية. بحث في المكونات والضوابط والنتائج، ص: ٢٦١.
[٢] – ديوان ابن الخطيب، ص٥٢٣.
[٣] – انظر: بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص:٢٤-٢٥.

علاقاتها مع دول الجوار الإسلامية والنصرانية، حتى اكتسبت غرناطة بفضل جهوده الإصلاحية والحضارية - بالرغم مما كان يحيط بها – هيبة الدولة. وخلد مآثر سلاطينها نظماً ونثراً، وخلد تاريخ بني نصر، وحاضرتهم غرناطة بمؤلفاته[١] التي لم تمنعه مهامه السياسية من تصنيفها ونسخها – لا سيما وقد كان مصاباً بداء الأرق حتى لقب بذي العمرين – مضيفاً إلى عمره عمراً آخر بسبب سهره الليالي في البحث والتأليف. في صورة نادرة!

إلا أن جنوحه للاستبداد بالسلطة مع تعدد مواهبه أدى إلى الكثير من السعايات فيه لدى سلطانه، والتي لقيت بعد حين أثراً في نفسه فتغير عليه، ومن ثم خرج إلى المغرب، لترك غرناطة للأبد كما تدل أبياتهُ التي صدر بها رسالته التي وجهها لسلطانه "الغني باللّه":[٢]

بانُوا فَمنْ كَانَ بَاكِياً يَبْكي هَذي رِكَابُ السُّرَى بلا شَكّ

تَصدّع الشَّملُ مثلما انْحــــدرتْ إلى صُبُوب جَــوَاهِــــرُ السِّلْكِ

من النَّوى قَبلُ لمْ أزلْ حَـــــذِراً هَذي النوى جَـــلّ مَالِكُ المُلْكِ

(٣) تنوع روافده الثقافية:

ذَكر من قبل أن المكانة التي تبوأتها أسرة ابن الخطيب في دولة "بني الأحمر" كان لها إسهامها البارز في تكوينه العلمي والعملي. فقد وفر له أبوه أمهات الكتب والمبرزين من الشيوخ والعلماء وفي بداية التحصيل حفظ القرآن الكريم وتمثله بالقدر الذي كان له أثره البعيد في فكره وإبداعه الأدبي.

ثم كلف والده للرقي بمداركه جُلّة الشيوخ لإثرائها بمبادئ العلوم والتدرج في إغنائها بشتى أنواع المعارف. فكان من أوائل المربين والأساتذة الناهضين بملكاته الشيخ "أبو عبد اللّه بن عبد الولي العواد"[٣] الذي كتب عنه القرآن وحفظه[٤]. ثم الشيخ "أبو الحسن القيجاطي" الذي حلاه ابن الخطيب باستاذ الجماعة ومطية الفنون ومفيد الطلبة. حيث قرأ عليه القرآن والعربية وكان أول من انتفع به.[٥]

---

[١] من مؤلفاته في التاريخ لهذه الدولة: اللمحة البدرية في الدولة النصرية. والإحاطة في أخبار غرناطة. ويعد ابن الخطيب مؤرخاً ثبتاً ليس فقط لهذه الدولة وإنما للمغرب الإسلامي بعامة في عصره. انظر: د. عنان: لسان الدين الخطيب، ص: ٢٢٩ وما بعدها. كذلك: د. أمين الطيبي: (لسان الدين بن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف بالأندلس) مجلة الثقافة العدد: ١٠٠ – السنة الثامنة عشرة، الجزائر، ١٩٨٨م.

[٢] انظر: ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص: ١٤٧ – ١٥٢. حيث ذكر هذه الرسالة كاملة.

[٣] محمد بن عبد الولي الرعيني، وصفه ابن الخطيب بأنه (نسيج وحدة في تحمل المنزل حق حمله تقوى وصلاحاً...) توفى سنة (٧٥٠هـ) انظر ترجمته في ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٣/٣-٣٥. المقري نفح الطيب: ٥/ ٣٨٣.

[٤] ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٥٧/٤.

[٥] انظر: ابن الخطيب الإحاطة : الإحاطة: ٤٥٨/٤.

ومنهم أيضاً "أبو عبد الله الفخار البيري"[١] الإمام في فن العربية وشيخ النحاة بالأندلس، "أبو القاسم محمد بن أحمد الحسني" المشهور "بالشريف السبتي"[٢] والقاضي "أبو عبد الله بن بكر الأشعري" [٣]، والمحدث "أبو عبد الله بن جابر"[٤].

ومن شيوخه الأعلام الذين كان لهم تأثيرهم البعيد في صقل قدراته الفنية - حسب تنويهاته - "أبو الحسن علي بن الجيّاب" صاحب القلم الأعلى الذي تشرب منه طرائقه الأدبية في المنظوم والمنثور. كما أخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن شيخه "أبي زكريا بن هذيل" وقد ذكر أنه لازمه وانتفع به.

وقد ذكر ابن الخطيب في جملة شيوخه الذين أخذ عنهم أسماء كثيرة من أعلام عصره في الأندلس والمغرب الإسلامي[٥] عرفوا بالتفوق العلمي. وبعد سرد هذه الأسماء الكثيرة أثناء ترجمته الذاتية، يذكر أنه لم يعدهم جميعاً لأنه تقيد بالإيجاز. وهذا يدل على تنوع المصادر التي أخذ عنها علمه والعلماء الذين قرأ عليهم إذ فيهم المقرئ والعالم والمحدث والمؤرخ والأديب والفيلسوف.

ولا شك أن ابن الخطيب وقد ظهرت عليه علائم النجابة منذ نعومة أظفاره. قد تأصل علمه وأدبه، واشتدت رؤيته الفكرية بهذه النخبة من شيوخه المبرزين، وكان كثيراً ما يثني عليهم ويشيد بعلمهم الزاخر، بل بلغ به الوفاء لأساتذته إلى مراتب البر النادر[٦].

---

(١) قرأ عليه عدد من طلاب العلم ونجبائهم بالأندلس كالشاطبي صاحب شرح الألفية. وابن زمرك. وغيرهم ممن ورد ذكرهم في الإحاطة. انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الإغتراب :٢/ ٦٦-٦٧. المقري: نفح الطيب: ٣٥٥/٥.

(٢) الشريف السبتي (٦٩٧ – ٧٦٠هـ): أحد القضاة واللغويين. ولد ونشأ ببلدة سبته بالمغرب وتولى ديوان الإنشاء في غرناطة حينما رحل إليها. كما تولى الخطابة والقضاء وتوفى فيها ومن أشهر مؤلفاته: (شرح الخزرجية) في العروض وسماه "رياضة الأبي في شرح قصيدة الخزرجي" وشرح مقصورة حازم القرطاجني وسماه (رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة). انظر: ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان ص: ٢٣٩ المقري نفح الطيب: ١٨٩/٥ – ١٩٨.

(٣) – محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن بكر بن سعيد الأشعري المالقي. من ذرية أبي موسى الأشعري. كان (من صدور العلماء، وأعلام الفضلاء ... مبرزاً في الحديث، حافظاً للأنساب قائماً على العربية) ولي القضاء بمالقة توفى (٧٤١هـ) انظر المقري: نفح الطيب: ٣٨٥/٥ – ٣٨٧.

(٤) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي، رحالة وعالم بالحديث وهو من شعراء الأندلس أصله من وادي آش وتوفى بتونس. انظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة: ٤١٣/٣. ابن خلدون: التعريف بابن خلدون: ١٨ المقري نفح الطيب: ٢٠٠/٥.

(٥) ذكرهم دون ترجمة في سيرته الذاتية في: الإحاطة: ٤/ ٤٥٧/٤٥٩. وقد ترجم لهم جميعاً في بعض مؤلفاته منها: الإحاطة والكتيبة الكامنة، وأوصاف الناس في التواريخ والصلات، والتاج المحلي في مساجلة القدح المعلّى.

(٦) كان موقفه مع شيخه يحيى بن هذيل خير برهان على ذلك عندما أصابه في كبره الفالج، أنزله في بيته. وعندما توفى سنة (٧٥٣هـ) دفنه بجانب زوجته حسب وصيته التي جاء فيها:

إذا مت فادفني حذاء حليلتي ... يخالط عظمي في التراب عظامها
ولا تدفنني في البقيع فإنني ... أريد إلى يوم الحســـاب التزامها

انظر: ابن الخطيب:الإحاطة ٤٠٠/٤ – ٤٠١.

كل ذلك صنع لدى ابن الخطيب ثقافة موسوعية حتى ضُربَ (به المثل كتابةً، وشعراً، وأدباً، ومعرفة بسائر العلوم) [١] وإذا كانت الثقافة آلية من آليات قراءة النص فهي تمثل عنصراً من (عناصر تشكيل الإبداع وتكوينه ولذلك كان البحث في ثقافة الشاعر بحثاً عن أصول الإبداع في شعره)[٢].

والمتأمل في شعر ابن الخطيب يجد أن ملامح التكوين الثقافي لابن الخطيب بدت واضحة، تدل على ما تلقاه من معارف وعلوم متعددة لأن هذه الثقافة لابد أن تجد سبيلها إلى أدبه رضي ذلك أم أبى . إذ يوشك أثرها أن يكون تلقائياً لا يستطيع له رداً.[٣]

(٤) بعض الأحداث والتقلبات التي مر بها في حياته:

من خلال استقراء سيرة ابن الخطيب نلحظ أنه عاش طفولة هادئة ، نعم فيها بعطف أسرته ونال اهتمام أبيه ورعايته ، فانتقى له أحسن أساتذة عصره لتدريسه. ووفر له كل الظروف المساعدة لنبوغه. واستمر مستمتعاً بحياته متقلباً فيما كان يتقلب فيه أبناء المترفين في المجتمع الغرناطي. ينهل في النهار من أمواه العلم وأفاويق المعرفة. ثم ينصرف بعد الجد إلى اللعب والمتعة وما يلذ له من التمتع بروعة الطبيعة الغرناطية أو اللوشية، ويغشى فيها مجالس الأنس التي يعمرها أمثاله من أبناء الأسرة النصرية والوزراء والأعيان.

إلا أن لسان الدين قد أغفل الحديث عن هذا الطور من حياته ولم يحدثنا عنه حتى مترجميه أغفلوا الحديث عنه[٤] لكن تتبعنا لرفيف أشعاره في ديوانه يوحي لنا بشيء من مظاهر ترفه وترفهه، وولعه بالحياة الناعمة، ولذاتها، والاستمتاع بالموسيقى، وتبادل الأشعار مع أصحابه.

وقد ظل ينعم بهذه الحياة الناعمة زهاء ثمانية وعشرين عاماً. حتى كشفت له الأقدار ما كان خافياً فتحولت حياته من طور إلى طور آخر، تعرض فيها لبعض الحوادث والمواقف التي أثرت فيه أعمق التأثير، مما نفس به في شعره. فكان شعره مرآة لنفسيته التي كانت مضطربة – غالباً – لاضطراب المواقف التي مرّ بها. وأهم هذه الحوادث:

---

(١) العباس بن إبراهيم المراكشي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. طبعة المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٦م: ٤٤٤/٤.

(٢) د. عبد السلام المختار شقور: الشعر المغربي في العصر المريني: قضاياه وظواهره الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٦م، ص:٤٢.

(٣) انظر : د. سعد إسماعيل شلبي ، : البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر . عصر ملوك الطوائف ، طبعة دار نهضة مصر ، القاهرة ، (د.ت) ، ص : ١٥.

(٤) انظر: د. محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب؛ ص: ٤٧.

أ - فقدان أبيه وأخيه الأكبر:

كان ذلك الحادث في معركة **طريف** المشهورة المسماة في المصادر الإسبانية معركة "سلادو". ولم يكن ذلك حادثاً عابراً في وجدانه، وحياته الناعمة الغافية. بل كان – كما توحي أشعاره وبعض آثاره – حادثاً مؤثراً هز كيانه وأحدث في أعماقه جرحاً غائراً ظل يحمل به حقداً لاهباً. ظل ينفثه ضد النصارى. ومن شعره الذي صور به هذه الفاجعة التي ألمت به قوله:[١]

والدَّهر قد كشَف القناع فَلَمْ يَدَعْ ... لي عُدَّة للرَّوْع إلاَّ أَذْهبا

خطبٌ تأوبني يَضِيقُ لِهَوْلِهِ ... رَحْبُ الفَضَا وتَهِي لمَوْقِعِهِ الرُّبَا

لا كَانَ يَوْمُكَ يا "طَرِيفُ" فَطَالَمَا ... أَطْلَعْتَ لِلآمالِ بَرْقاً خُلَّبَا[٢]

لاَ حُسْنَ للدُّنْيَا لَدَيَّ ولاَ أَرَى ... في العَيْشِ بَعْدَ أَبِي وَصِنْوِي مَأْرَبا[٣]

إلا أن هذا الخطب قد حوله إلى شخص آخر. هجر حياة اللهو ومرابع الأنْس والبطالة التي يغشاها، حيث التحق في نفس السنة التي استشهد فيها والده الوزير وأخوه بالخدمة في أمانة السر لأستاذه "أبي الحسن بن الجيّاب" ، الذي تمرس على يديه على أرفع الخصائص الفنية للكتابة الديوانية لمدة ثمان سنوات. وبعد وفاته، تقلد ابن الخطيب رئاسة الديوان والوزارة للسلطان " أبي الحجاج يوسف "، وناب عنه في الحكم عندما خاض بعض معاركه، فكان ذلك نقطة بارزة في التحول في حياته.[٤]

ب - الإنقلاب على السلطان محمد الخامس "الغني بالله":

بعد خمس سنوات قضاها ابن الخطيب في رئاسة ديوان الإنشاء والوزارة حدث الانقلاب على السلطان محمد الخامس (٧٦٠هـ) الذي فقد فيه حكمه وتم تنصيب السلطان إسماعيل أخيه على عرش غرناطة. وقتل الحاجب "أبو النعيم رضوان".

---

[١] ديوان ابن الخطيب: ص: ١٠٧.
[٢] البرق الخلب: الذي لا غيث فيه، كأنه خادع يومض حتى تطمع بمطره ثم يخلفك.
[٣] الصِّنْو: الأخ الشقيق والعم والابن.
[٤] انظر ترجمة الذاتية في الإحاطة: ٤٤٣/٤، واللمحة البدرية ص: ١٠٣ وما بعدها.

وجد ابن الخطيب نفسه في هذا الموقف الحرج، مسلوب المنصب والحظوة. ولم يلبث أن حسم أمره وعمل على مصانعة السلطان الجديد الذي أبقاه بدوره في منصبه لبعض الوقت ثم أمر بسجنه إلا أن هذه المحنة لم تدم طويلاً. إذ سرعان ما سعى له السلطان "أبو سالم المريني"، عند سلطان غرناطة فأفرج عنهُ، ولحق بسلطانه المخلوع في المغرب.

إلا أن هذه التجربة التي مرت عليه لم تكن سهلة، بل كانت أقسى من أن تتحملها نفس شاعر وأديب. السجن ... ومصادرة الأموال ... وكبس الدور والقصور، ولولا تدخل سلطان المغرب لقضى حياته في السجن! ومن يدري؟ فليس مصير الحاجب رضوان ببعيد عنه.!

ومع أن ابن الخطيب قد استرجع أمواله إلا أنه بدأ ينظر إلى الأمور بطريقة مختلفة عن ذي قبل - لا سيما وقت ابتعاده عن السلطة في مدينة "سلا"[1] وبعد وفاة زوجته سنة (٧٦٢هـ) - فتقرر له بطلان التشبث بالدنيا المتقلبة ومظاهرها البراقة، ومن شعره الذي يعكس شعوره بالندم على التفريط في حق الله، ونظرته الزاهدة في هذه الدنيا قوله في تلك الفترة:[2]

أَيا أَهْلَ هَذا القُطْرِ سَاعَدَهُ القَطْرُ دُهِـــيتُ فَدُلُّونِي لمنْ يُرفعُ الأمرُ
تَشَـــــاغَلْتُ بِالدُّنْيَا ونِمْتُ مُفْرِّطاً وفِي شُغْلَي أَوْ نَوْمَتِي سُرِقَ العُمْرُ!

تلك هي أهم العوامل الذاتية التي أثرت في شعر ابن الخطيب ولا شك أن شعره خير ممثل للأحداث التي مر بها في حياته وانعكاساتها النفسية.

❖ ❖ ❖

(١) - "سلا": تقع على ساحل المحيط الأطلسي بأقصى المغرب، ويفصلها عن مدينة الرباط نهر "الرقراق" وفي ضواحي سلا توجد قرية "شالة challa" حيث الجبانة الملكية لبني مرين. انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب: ١١/٢.
(٢) – ابن الخطيب: نفاضة الجراب: ١٦٥/٢.

المبحث الثالث

العوامل الحضارية

-العوامل الحضارية:

ليس بخافٍ أن الفن عامةً ومنه الشعر، ليس إلا استجابة في مجمله – لدوافع خارجية وداخلية تقتضيها البيئة التي يعيش فيها الشاعر . وابن الخطيب لم ينجُ من هذا القانون الحتمي . وقد تعرفنا – سابقاً – على الظروف البيئية المحيطة به (سياسياً واجتماعياً، وفكرياً) ورأينا كيف أثرت به. إلا أننا في هذا الجزء من الدراسة، نود أن ننظر إلى البيئة التي عاش فيها ولكن من زاوية أخرى هي: الناحية الحضارية لنتعرف على مدى تأثيرها في شخصيته وإبداعه كشاعر.

❖ الأندلس والتاريخ الحضاري:

كان الأندلس العربي مهداً لحياة ثقافية راقية، وبلداً للعلم، والفن، والأدب منذ عصر الخلافة الأموية[1] التي بلغت مستوى من الحضارة رفيعاً جداً في كافة مناحي الحياة لا سيما في عهد الخليفة "عبد الرحمن الناصر" وابنه "الحكم المستنصر"، حيث وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسي، وذروة القوة والبهاء. وأمست قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية مدة ثلاثة قرون أكثر مدن العالم القديم نوراً وحضارة.

وبعد ذهاب ملك الأمويين عمت الأندلس حالة من الفوضى والاضطراب السياسي، فاستقل كل قائد بحصنه، أو مدينته، محاولاً إنشاء دولة، ومطلقاً على نفسه ألقاب الملك والخلافة، كما صور ذلك أبو علي الحسن بن رشيق: [2]

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدلُـــسٍ سَمَاعُ مُقْتَدرٍ فِيهَا ومُعْـتَضِـــــــدِ
أَلْقابُ مَمْلَكةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالهِّر يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسدِ

وهذا هو العهد الذي عرف **بعصر الطوائف** [3] وبرغم صغر هذه الدول وتنافسها وتطاحنها في ميدان الحروب ، فإنها استطاعت أن تعيد لمحة من بهاء

---

[1] لا تكاد توجد آثار لأي لون من الحياة الفكرية ، أو الحضارية أثناء عهد الولاة السابق لحكم الامويين ، فقد شغلوا بتثبيت الوجود الإسلامي على تلك الأرض، وقد كانوا أجمعهم من المحاربين ، ولعل هذا يعلل سبب انصرافهم عن أمور البناء والفكر والترف .

[2] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق: د. محمد سعيد العريان ، طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة ، (د.ت)، ص : ١٢٣ .

[3] انظر مثلاً : ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق ١ /ج٩٥/١ وما بعدها . الأمير عبد الله بن بلكين : كتاب التبيان، ص : ٣٢.

الدولة الإسلامية. فسطعت الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها، وفي مجتمعاتها . وأينعت في ظلها الآداب والعلوم . وعرفت الأندلس في هذه الفترة طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها، وشعرائها.[١]

وإذا كان الأمر (لا يصح بين نفسين فكيف سلاطين كثيرة ، وأهواء مختلفة !) [٢] لذلك كان لابد لهذا التفرق من نهاية، وكان ذلك باستيلاء أمير المرابطين المغربي "يوسف بن تاشفين" على هذه الممالك. وصارت الأندلس تابعة لحكمهم في المغرب ، ومن بعدهم الموحدين. فعاد بهاء الحضارة الأندلسية حيناً عندما كان يتمتع حكام الدولتين بالقوة، ولكن عندما ضعفوا في أوائل القرن السابع الهجري، خبا نور هذه الحضارة، وساد جو من الفوضى، واشتدت حملات النصارى فيما يسمى "بحروب الاسترداد" ولم يمض نحو ثلث قرن حتى كانت معظم القواعد الأندلسية قد سقطت في يد النصارى ، فتضاءلت رقعة الأندلس وانحصرت في مملكة غرناطة (٦٣٥ – ٨٩٧هـ).

وصلت مملكة غرناطة إلى مستوى حضاري رفيع جداً[٣] وتمكنت خلال قرنين ونصف " أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب" [٤]. وقد ذكر ذلك ابن الخطيب فقال : " وخصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الريع، وغدق السقيا، وتبحّر العمران ، وإحكام التمدن ، والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها".[٥]

كما أكد ذلك "ابن خلدون" بقوله : " فإنا نجد فيها – أي الأندلس – رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والمطابخ وأصناف الغناء واللهو ... وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم أقوم عليها، وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصةٍ موفورةٍ من ذلك، وحظ متميز بين جميع الأمصار".[٦]

---

(١) انظر : الفتح بن محمد الإشبيلي ، "ابن خاقان" : قلائد العقيان ومحاسن الأعيان . تحقيق : د. حسين خريوش الطبعة الأولى ، مكتبة المنار ، الزرقاء، الأردن ، ١٩٨٩م . أيضاً بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص : ٨٠ – ١٢٢ / ٢٠٨ – ٢٤٠ .

(٢) الأمير عبد الله : كتاب التبيان ، ص : ٣٢ .

(٣) تم عرض عوامل هذه النهضة في تمهيد هذه الدراسة .

(٤) د. محمد عنان : نهاية الأندلس ، ص : ٥٤ .

(٥) ابن الخطيب أعمال الأعلام ٥/٢٠. المقري : نفح الطيب : ١٢٦/١ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٤٠٢ .

نلحظ مما سبق أن ابن الخطيب عاش في بلدٍ متحضر، بلغ الذروة في كل النواحي، سواءً الفكرية، أو الأدبية، أو العمرانية، أو الاجتماعية فلا عجب إذن أن يكون شعره صدى لهذه البيئة الحضرية ، وأن تتجلى فيه كثيراً من المظاهر الحضارية التي عايشها وأهم هذه العوامل الحضارية التي أثرت به:

(١) الأمن والاستقرار:

بعد مدة من الفتن والاضطرابات التي شهدتها الأندلس عند سقوط حكم الموحدين فيها، قامت مملكة غرناطة . فتوجه إليها عدد كبير من المسلمين الذين سقطت مدنهم في أيدي النصارى. وتمكن "ابن الأحمر" من إرساء دعائم دولته الناشئة . فاستقر الوضع عن ذي قبل، وعمل هو وأبنائه من بعده على توفير الأمن والطمأنينة للسكان، وحاولوا ما استطاعوا القضاء على الفتن التي ظهرت. وتصدوا للجيوش النصرانية التي كانت تهاجمهم بين حينٍ وآخر، بمساعدة إخوانهم "المرينيين" بالمغرب.[١]

وبفضل الأمن والاستقرار الذي أشاعه "بنو الأحمر "، تمكن السكان من ممارسة جميع أوجه النشاط الاقتصادي من زراعةٍ، وصناعةٍ، وتجارةٍ، وغيرها، لأنها أكثر أوجه الحياة تأثراً بالحروب.

وفي القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه ابن الخطيب، نعمت غرناطة بقدر كبير من الأمن بفضل جهود حكامها الذي سهروا على حماية الطرق، وتأمين المسالك، وضبط الثغور، وبناء القلاع والحصون ، والأسوار حول المدن[٢] مثل غرناطة والمرية، وتشييد الرباطات والمحارس الساحلية في غرناطة وغيرها من المدن الساحلية، لحمايتها من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الأعداء. كما تمكنوا

---

(١) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ابن خلدون : العبر : ٢٣٣/٧ ، وما بعدها . د. عنان : نهاية الأندلس ، ص : ٢٧ – ١٣٨ .
(٢) انظر: ابن الخطيب : الإحاطة : ٥١/٢ – ٥٣ .

من عقد هدنة مع أعدائهم لفترة طويلة خالية من الرسوم الضريبية، وهي كما يقول ابن الخطيب: (من نادر الواقعات).[١]

فكان لهذا الأمن والسكينة التي نعمت بها المملكة أكبر الأثر في توجه الحكام إلى الإصلاحات الداخلية، وتأسيس المنشآت المعمارية العظيمة التي استمر بعضها شاهداً على هذه الحضارة حتى هذا الزمن. وتطوير الصناعات وأساليب الزراعة والري، ونشاط المعاملات التجارية ، والاهتمام بالحركة العلمية ودعمها. فكان ثمرة ذلك نشاط وازدهار حضاري شمل أوجه الحياة السياسية والعمرانية والعلمية والاجتماعية.

(٢) الرخاء الاقتصادي:

لقد تمتعت الأندلس بجهاتها المختلفة برخاء اقتصادي نادر المثال، وهو أمر متعلق بالخيرات التي وهبها الله تعالى إياها، بما حوته من مصادر الحياة المتنوعة الكثيرة فهي : (بقعة كريمة طيبة كثيرة الفواكه والخيرات فيها دائمة، وبها المدن الكثيرة ، والقواعد العظيمة)[٢] ومن يتطلع إلى ما تحويه كل مدينة من مدنها وقرية من قراها من خيرات ومصادر اقتصادية ، يأخذه العجب ، وتدركه الدهشة.[٣] فبلد مثل غرناطة (ليس تعرى جنباته من الكروم والجنَّات جهه)[٤] وقد كانت الزراعة في الأندلس مصدراً للرخاء، حيث كانت في أغلب عهودها بيئة غنية بالزراعة النامية التي أدخل المسلمون كثيراً من طرقها وأدواتها ونباتاتها والتي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم . وكذلك كانت الصناعة والتجارة التي بلغت شأناً عظيماً بفضل كثرة المنتجات الزراعية والصناعات.

وجملة القول أن مملكة غرناطة حظيت برخاء اقتصادي[٥] جعل أهلها يرفلون بأثواب النعم الوافرة، ويقطفون ثمار الحياة الغضة الناعمة (وليس من شك في أن الرخاء الاقتصادي يسهم في تكوين الشخصية ، لهذا كان الأندلسيون بهذا الرخاء

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص : ١٠٩ .
(٢) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص : ١ .
(٣) انظر : الحميري : صفة جزيرة الأندلس . ود. شكيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٧م ٣٠/١، وما بعدها .
(٤) ابن الخطيب : الإحاطة : ١١٥/١ .
(٥) انظر : د. جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص : ٣٢ .

الذي غلب على حياتهم، قادرين على مواجهة الحياة في ابتسام وتفاؤل، وتفتح إلى حدٍ كبير. كذلك كان هذا الرخاء من عوامل إقبالهم على الثقافة وتعلقهم بالأدب، واقتنائهم للكتب ..).[١]

وهذا الوضع انعكس بدوره على ابن الخطيب الذي تنعم بكل هذه الخيرات، حيث كان ينتمي إلى طبقة الأعيان، التي كانت تتمتع بثراء واسع ، فكان شعره يعكس حياة راقية مترفة عاشها الوزير الشاعر.

ويظهر هذا التأثر في نظرته للطبيعة والوقوف على جزئياتها ووصفها بكل دقة كذلك تصوير ما حوله من نهضة عمرانية ، بما كان ينظمه من شعر نقش كثير منه على جدران قلعة الحمراء.[٢] يقابل ذلك ما صوره في شعره من ازدراء لبعض المدن المغربية ونظرته المتعالية لها . مما يدل على اختلافها عن بيئته المتحضرة الراقية .

(٣): طبيعة المجتمع الغرناطي:

إن لطبيعة المجتمع أي مجتمع أثراً في اتجاهاته وميوله العامة في الأدب والفن والسياسة ، ومجالات الحياة كافة.

وقد التقت في المجتمع الغرناطي عناصر بشرية متعددة[٣] يدين أغلبهم بالإسلام وفيهم كذلك اليهود والنصارى . إلا أن هذه العناصر تمازجت مع بعضها وأعطتنا الشخصية الأندلسية التي شكلتها بيئة الأندلس ، وأعطتها طابعها الخاص[٤] الذي يتميز بخفة الروح وحيوية العقل ، والميل إلى البساطة والسهولة في كل شيء[٥].

وقد كانت غرناطة مكتظة بالسكان الذين كانوا يفدون إليها من البلاد الأندلسية الأخرى التي كانت تسقط في يد القوى المسيحية ، ومع ذلك فقد كان الشعب ينعم بمستوى معيشي جيد ، وذلك لازدهار كافة ألوان النشاط الاقتصادي في المملكة . فظهر أثر هذا الرخاء في حياتهم المتحضرة . فقد كانوا يميلون إلى الأناقة في

---

[١] د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ص : ٥٥ .
[٢] سنلم بهذه المظاهر الحضارية العمرانية والطبيعية في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى .
[٣] هي العرب ، والبربر ، والمسالمة ، والمولدون ، والمستعربون ، والصقالبة .
[٤] انظر : د. يوسف شكري فرحان : غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص : ١٠٧ .
[٥] هذه السمات تنطبق على الشعب الأندلسي بعامة وليس فقط أهل غرناطة .

الملابس والمساكن، وتنويع الموائد بشتى ألوان الأطعمة. كذلك الميل الشديد إلى وسائل اللهو ، يدفعهم لذلك دون شك الرخاء الاقتصادي والجمال الطبيعي . ومن جهةٍ أخرى القلق الذي يعيشونه بسبب تربص العدو الدائم بهم . لذلك كانوا في حاجةٍ إلى طرائق تشغلهم وأسباب تسليهم.

وكان ابن الخطيب أحد أفراد هذا المجتمع، لذلك كان طبيعياً أن يصطبغ أدبه بفنونه المختلفة بصبغة هذا المجتمع، ويعبر عن روحه ، وعاداته ، وتقاليده، في أفراحه وأحزانه، وسائر أحواله. بحيث أصبح شعره مرآة لهذا المجتمع المتحضر.

(٤): مساهمة الحكام في دعم التقدم:

كان الحكام النصريون حريصون على الأخذ بأسباب التطور في سبيل تقدم بلادهم. وعندما تولى الحكم السلطان "أبو الحجاج" في سنة (٧٣٣هـ) كان ذلك إيذاناً بتطور وازدهار هذه المملكة ووصولها إلى أوج رقيها الحضاري . لما هيأه الله تعالى من أسباب كان أهمها الأمن الذي عم البلاد في عهده، إلى جانب تنوع ثروات البلاد ورخاؤها الاقتصادي برغم الظروف الصعبة التي كانت تحيط بها.

وقد كان هو بنفسه (عذب اللسان، وافر العقل، عظيم الهيبة، إلى ثقوب الذهن، وبعد الغور، والتفطن للمعاريض، والتبريز في كثير من الصنائع العملية، مائلاً إلى الهدنة، مزجياً للأمور، كلفاً بالمباني والأثواب، جمّاعةً للحلي والذخيرة..).[1]

فكان ثمرة ذلك أن أينعت ثمار العلوم والآداب في عهده ، وبلغت الحركة الثقافية والعلمية ذروتها، وزخر بلاطه بأعلام هذا القرن من شعراء، وأدباء، وكتاب، وفقهاء وغيرهم. كما قام بتشييد العديد من المنشآت المعمارية في سائر بلاده، كما عني بشكل خاص بقلعة الحمراء، فأضاف إليها أروع وأفخم قصورها وأجنحتها، وأبراجها.

---

[1] ابن الخطيب : الإحاطة : ٣١٨/٤.

وبعد وفاته سنة (٧٥٥هـ) أكمل مسيرة النهضة ابنه "الغني بالله" فسار على نهج أبيه برعاية العلم وأهله، والاهتمام بالعمران، إذ أكمل ما بدأه والده في الحمراء، وأضاف إليها منشآت أخرى. كما شملت عنايته جميع أمور الدولة.

وقد كانت تلك العناية من قبل أبي الحجاج وولده من أهم مقومات التقدم الحضاري في عهديهما، إذ لم يقتصر اهتمامهما على الجانب المادي المتمثل في العمران والبناء فقط، بل حتى الجانب الروحي والمعنوي، المتمثل في الارتقاء الثقافي والتقدم الفكري.

لذلك لا عجب أن تكون الرفاهية والتنعم والثراء هي شعار حياة الرعية في ذلك العهد، ولا شك أن الثراء والمال من أهم العوامل التي تجلب الحضارة وتساعدها على البقاء والنماء.

وإذا كانت تلك الرفاهية هي عنواناً للشعب عامة، فكيف بابن الخطيب الذي عاش في كنف أولئك الحكام، وتولى الوزارة في بلاطهم، وتمتع بكل مظاهر الحياة الباذخة الراقية. مما كان له أبلغ الأثر في إنتاجه الأدبي.

(٥) النشاط العلمي والثقافي:

بلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها في أواسط القرن الثامن وأواخره في عصر السلطان "أبي الحجاج يوسف" وابنه السلطان "محمد الغني بالله". ولا شك أن الرقي العلمي سبب جوهري من أسباب الرقي، وفي نفس الوقت مظهراً من مظاهر ذلك الرقي.[1]

وقد كانت عناية هذين الحاكمين بالعلم كبيرة، كما اتخذا الوزراء والكتاب، من أكبر أعلام الشعر والأدب، كما هو الحال مع ابن الخطيب. وقد زخر البلاط الغرناطي بجمهرة كبيرة من العلماء والأدباء والمفكرين، مثل ابن الحكيم الرندي، وابن الجياب، وابن زمرك .. وغيرهم كثير سنعود إلى التحدث عنهم فيما بعد.

---

[1] انظر: د. السيد تقي الدين: الأدب والحضارة، طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، (د. ت)، ص: ٦.

وقد تم في هذا العهد لأول مرة في الأندلس بناء **المدرسة** – الجامعة – النصرية على يد "أبي الحجاج يوسف". وقد كان التعليم قبل إنشائها يتم في الكتاتيب والمساجد . فكان دورها كبيراً في خدمة العلماء والطلبة.

وقد زادا الاهتمام **بالمكتبات**، حيث ألحقت بهذه المدرسة مكتبة، وكان بعض الأساتذة يضعون نسخاً من مؤلفاتهم فيها. كما كان يوجد بالدار السلطانية مكتبة ضخمة، وقد تنافس الغرناطيون في امتلاك المكتبات الخاصة[١] ولا شك أن هذه المكتبات وانتشارها كانت عاملاً كبيراً في الرقي الفكري والعلمي لدى هذا الشعب.[٢]

لقد نشأ ابن الخطيب وسط هذا الجو العلمي النشط ، وأخذ العلم عن أقطاب العصر في العلم والأدب، حتى ظهر أثر هذه العلوم في إنتاجه الذي ينم عن فكر موسوعي، كان نتاجاً لهذا الوسط العلمي المزدهر إلى جانب ما وهبه الله تعالى له من موهبة وعبقرية ، جعلته أعظم مفكري الأندلس وأعظم كتابها وشعرائها.[٣]

(٦) البيئة الطبيعية والعمران:

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة، فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً، وأوفرها جمالاً ترتفع فيها الجبال الخضراء، وتمتد في بطاحها السهول الواسعة، وتجري فيها الجداول والأنهار، ويعطر النسيم جوها المعتدل وبساتينها المشرقة.

ومما لا شك فيه أن لجو الإقليم أثراً طبيعياً في حياة أهله ، فهو الذي ينهج لهم سنن معاشهم، ونظام اجتماعهم، ويكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم.[٤] وقد فُتن أهل الأندلس بهذه الطبيعة الوارفة الظلال، فكانوا من أشد الناس إعجاباً ببلادهم. وراحوا ينظمون كلمهم درراً في وصفها وصفاً تفوقوا به على غيرهم، وهو ما جعل شخصية الشاعر الأندلسي تقترن بالبيئة والطبيعة[٥].

وقد ملكت معاني هذا الجمال نفوس سكانيها ، واستحثت قرائحهم، فكل ما حولهم ينطق بالجمال، ويدعو للتغزل بهذه الطبيعة الفينانة، ومن ذلك قول الشاعر:

---

(١) انظر : د. أحمد الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر ، ص ٣٢٠.

(٢) عن دور المكتبات في الحضارة ، انظر : د. سميرة عبد المنعم : دعائم الحضارة الإسلامية " المكتبات " مجلة الأزهر السنة : ٣٩ ، مجلد ١ ، العدد :٢ يونيو ١٩٦٧م .

(٣) انظر د. عنان : نهاية الأندلس ، ص : ٤٦٩.

(٤) انظر : د. السيد تقي الدين : الأدب والحضارة ، ص : ٩.

(٥) انظر : د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة العاشرة، دار المعارف ، القاهرة ، ص : ٤١١ .

يَا حُسْنَ أَنْدَلُسٍ وَمَا جُمِعَتْ لَنا فِيهَا مِنْ الأَوْطَارِ والأَوْطانِ
تَلْكَ الجَزِيرَةُ لَسْتُ أَنْسَى حُسْنَها بِتَعاقُبِ الأَحْيانِ والأَزْمَانِ
نَسَجَ الرَّبِيعُ بَنَانَها مِنْ سُنْدُسٍ مَوْشِيَّةٍ بِبَدائِعِ الأَلْوان
مِنْ بَعْدِها مَا أَعْجَبَتْنِي بَلْدَةٌ مَعَ مَا حَلَلْتُ بِهِ مِنَ البُلْدانِ[1]

وعندما دخل القرن الثامن الهجري كانت الأندلس الإسلامية قد ضاقت مساحتها حتى كادت تنحصر في غرناطة وما حولها . وبذلك احتل اسم هذه المدينة كل الموروث العاطفي الذي يكنه الأندلسيون لبلادهم . وقد تمكن الأندلسيون من دمج هذا الجمال الطبيعي الخلاب بالجمال الصناعي الذي أبدعوه في المنتزهات التي تنتشر على ضفاف نهر شنيل، وفي القصور وما بها من برك وفوارات وحدائق رائعة التنسيق، حتى بيوت العامة لا تخلو من أحواض النباتات والفوارات، مما جعل الأندلسي ينعم بالجمال في كل ما حوله، ويزداد شغفه به.

ولا شك أن هذا الجمال الذي عاش فيه الأندلسيون كان له أكبر الأثر في نفوسهم فمنحهم ذوقاً رفيعاً ، وإحساساً عميقاً بالجمال ، لم يبلغه غيرهم ذلك لأنهم (أحسوا بجمال بلادهم وآتتهم الطبيعة خير أكلها، وأحسن زينتها، فكان لذلك أثره في نفوسهم، وكان لتأثرهم بهذه الخيرات وذلك الجمال نتائجه في خلاصة فكرهم من شعر ونثر وتأليف).[2]

هذه هي **غرناطة** الفاتنة التي عاش فيها ابن الخطيب، ولا شك بأنها قد أثرت فيه، كغيره من أهل هذه البلاد، وانعكس شعوره بالجمال الراقي من حوله في أدبه إذ أن الجمال الطبيعي له أثر بالغ في حث القدرة على الإبداع.

ولأن الأديب صاحب موهبة فنية ، يذكيها طبعٌ مرهف ، وذكاء نافذ ، فإن هذه الموهبة لا يمكن أن تقف جامدة أمام الطبيعة – لا سيما طبيعة الأندلس – بل لابد أن تستجيب إلى مؤثراتها.[3]

وقد نعم ابن الخطيب بهذه الطبيعة ، طبيعية كانت أم صناعية ، بحكم وضع أسرته الاجتماعي ، وتسلمه الوزارة في البلاط النصري، فقد تمتع بشتى أنواع الحضارة

---

[1] المقري : نفخ الطيب : ٢٢٨/١ .
[2] د. محمد رضوان الداية : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص : ١٨-١٩ .
[3] انظر : د. سعد إسماعيل شلبي ، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : ص :١١ .

المادية في عصره، وابتنى عدداً من القصور في غرناطة كان أحدها في بقعة الحدائق المسماة "**عين الدمع**" الذي كان كثيراً ما يحن لعهده، حيث كان يتمتع فيه بالجمال العمراني في نطاق طبيعي نادر المثال، ومن قوله في وصف هذا المكان:[١]

إِذَا كَانَ عَيْنُ الدَّمْعُ عَيْناً حَقِيقةً فَإِنْسَانُها مَا نَحْنُ فِيهِ ولاَ دَعْوَى
فَدَامَ لِخَيْرِ الأُنْسِ واللَّهْوِ مَلْعبــاَ ولاَ زَالَ مَثْواهُ المنَعَّمُ لِي مَثْــوَى

وهكذا نلحظ تأثير الجمال الطبيعي الذي تمكن الفنان الغرناطي من توظيفه في ما شيده من منشآت، في كل ما يحيط به، ودمجه معه بحيث أصبحت طبيعة بلادهم من أهم أسباب رقيهم وذوقهم الحضاري، وهو يؤكد أن (الأسباب الطبيعية لها نصيب في النهضات المدهشة للآداب والفنون)[٢] فأصبح شعره من الرقة بحيث أصبح أرق وأنعم من النسيم كما يقول:[٣]

رَقَّتْ مَعَانِيهِ لَدَيَّ فَلَوْ جَرَى سَحَراً نَسِيمُ الرَّوْضِ لاَسْتَجْفَيْتُهُ

تلك هي العوامل **الحضارية** التي أثرت في فكر ابن الخطيب ، ومن ثم في شخصيته وشعره .

إن علماء الطبيعة قد أجمعوا على أن (الإنسان ابن بيئته والبيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من طبيعة، واجتماع، ودين وتقاليد..) [٤] لذا فإن لسان الدين بن الخطيب قد عبر أصدق تعبير عن طبيعة بلاده الساحرة، وظهر في شعره تأثير كل ما حوله من سياسة وفكر واجتماع وحضارة في مملكة غرناطة.

❖ ❖ ❖

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٦١ .
[٢] د. عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، عرض وتفسير ومقارنة ، طبعة دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص : ٢٢٢ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٨٥ .
[٤] بولس مسعد : تأثير الطبيعة في الخلق الفني ، مجلة الكتاب المصرية ، الجزء : ٧ ، المجلد : ١١ ، ١٩٥٢ ، ص : ٨٠٥ .

الفصل الثاني

الدراسة الموضوعية

المبحث الأول: مظاهر الحضارة الإنسانية.

المبحث الثاني: مظاهر الحضارة الفكرية.

المبحث الثالث: مظاهر الحضارة الاجتماعية.

المبحث الرابع: مظاهر الحضارة السياسية.

المبحث الخامس: مظاهر الحضارة العمرانية والطبيعية

المبحث الأول

مظاهر الحضارة الإنسانية

-مظاهر الحضارة الإنسانية:

توطئة:

الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية عالمية أتت للناس كافة، لا تحدها حدود، ولا تقيدها قيود تثقلها وتعيق حركتها؛ ولهذا فقد نمت واتسع نطاق حدودها، ووصلت إلى أعلى المراتب في سلم الحضارات الإنسانية، مرتكزة على جوهرها وهو الإسلام، مستمدة مبادئها وأصولها من الشريعة الإسلامية، فأعطت المثل الأعلى، وسعدت بها البشرية في جميع المجالات المادية والمعنوية.

وفي هذا الفصل سنتعرض لبعض مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس ، تلك الحضارة التي أعطت العقل البشري ببذخ وثراء في كل نطاق عقلي وفكري وأدبي وعلمي وفني. وسندرس **الشعر** كأحد فنون الأدب العربي التي تأثرت بتلك الحضارة، مشاركاً في خضمها، منفعلاً بها، ومهتدياً بهديها، متمثلاً في شعر ابن الخطيب. الذي عاش في مجتمع بلغ مستوىً رفيعاً من الرقي والتقدم الحضاري برغم ظروفه الصعبة. فكان طبيعياً أن نلمس آثار ذلك الرقي في شعره . الذي صور المجتمع الغرناطي المتحضر في القرن الثامن الهجري .. لذلك فإن البحث في هذا الجزء يحاول عرض المظاهر الحضارية التي ظهرت في شعره إذ (لابد أن تكون المظاهر الحضارية لكل أمة نتائج ملائمة لمجموعة الأفكار والعقائد والتقاليد والعوامل الفنية المهيمنة عليها).[1]

مظاهر الحضارة الإنسانية:

خلق الله الإنسان في أحسن صورة، ومنحه فطرة صافية، وسخر له ما في السماوات والأرض وآتاه بالوحي والهداية المنهج الرباني الذي يتطابق مع خصائصه الإنسانية وكيانه، ولهذه الصفات اصطفاه الله لمنزلة عالية اختصه بها، وهي الاستخلاف عنه في الأرض. وبذلك كرمّه وفضّله على مخلوقات الأرض جميعاً، فجعل إرادته نافذة فيها، فكان سيدها ورائدها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء آية (٧٠).

---

[1] د. عبد الغني عبود : " الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة ، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م ، ص ٥٣ .

وبذلك يكون موضوع الإسلام هو **الإنسان** ومجاله هو الأرض لإقامة مملكة الله فيها[١]. والمسلم يتحرك في اتجاه هذه الغاية على سنن الإسلام، التي عندما تمسك بها المسلمون أنشأوا حضارة إسلامية راقية مزدهرة كرقي أخلاقهم، ونشرت راية التوحيد فكانت نوراً لهذا الكون بتسامحها وعدلها، ومساواتها، وتعاملها مع بني الإنسان جميعاً ، فكان ذلك نصراً للإنسان في كل زمان ومكان ، ونقلته من طور العبودية إلى طور الحرية والكرامة الإنسانية. فالحضارة في جوهرها هي (الإنسان ومدى سيطرته على البيئة التي يعيش فيها، ومدى استجابتها له ومعايشته لها . وهذا يتمثل في سلوك الإنسان نفسه)[٢]. لذلك كان أهم ما تتصف به الحضارة هو الإنسانية، وأخطر ما يهددها ويتوعدها هو اللاإنسانية.[٣]

فحقيقة الحضارة إذن هي ما ينتج عنها من الخير أو الشر ، والسعادة أو الشقاء لبني الإنسان.[٤] **والإنسانية** تنطلق من مبادئ الإسلام التي كفلت للإنسان التمتع بالحرية والإخاء والمساواة والعدالة، بعيداً عن وطن الإنسان أو مذهبه أو دينه، كما أنها تفتح له آفاق **المعرفة** والتفكير ليرتقي بواسطة علمه، وبذلك يكون (المذهب الإنساني لا ينفصل عن المدينة والثقافة لأن هاتين الكلمتين نفس معناه)[٥].

وفي هذا المبحث سيتم تناول **مظاهر الحضارة الإنسانية** في الأندلس من خلال شعر ابن الخطيب.

لقد حظيت مملكة غرناطة – إلى حد ما – بالأمن والاستقرار في القرن الثامن الهجري ، فعادت بذلك بوارق الأمل في نفوس الأندلسيين ، وازدهرت كافة نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية أيضاً. و(البناء الحضاري لا يستكمل شروطه الإنسانية إلا بالعناية بالروح، ومن أعظم تجليات تلك العناية الروحية العناية بالأدب والفن)[٦]. وهذا ولا شك يؤكد دور الأدب في البناء الحضاري.

---

(١) انظر : د. محمد عادل الهاشمي ، الإنسان في الأدب الإسلامي ، طبعة مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة (د. ت) ، ص : ٤١٦ ، وما بعدها .
(٢) د. جميل الجبوري : دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص : ١٨٤ .
(٣) انظر ، د. محمود عكّام : الحضارة في المفهوم الإسلامي ، مجلة الفيصل ، العدد : ٢٧٩ ، ديسمبر – يناير ١٩٩٩ – ٢٠٠٠م . ص : ٢٨ .
(٤) انظر : جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، طبعة دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د . ت) : ١ / ٢٦٢ .
(٥) د. مفيد قميحة : الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر ، الطبعة الأولى ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص : ٣٣ ، نقلاً عن " جاك مارتيان " .
(٦) د. حسن الأمراني : من حضارة الأدب إلى أدب الحضارة ، منشورات كلية الآداب ، وجدة ، المغرب ، " ندوة الأدب والبناء الحضاري " ، ٢٠٠٠م ، ص: ٩ .

وإذا ذهبنا نلتمس مظاهر التحّضر الإنساني في الأندلس من خلال شعر ابن الخطيب – كأنموذج لهذا العصر – نجده متمثلاً في الآتي :

١ - التغني والإشادة بالقيم الإنسانية الخلقية:

أ: شعر الآداب والأخلاق الإسلامية :

كان شعر الآداب والأخلاق من أبرز الموضوعات التي تناولها شعراء الأندلس ، فقد تمثلوا القيم والأخلاق الإسلامية ، ودعوا إليها . وفاضت قرائحهم بقصائد شعرية فيها ودعوا إلى مكارم الأخلاق . وهذه الدعوة جاءت صريحة في القرآن الكريم . وكان النبي عليه الصلاة والسلام خير من تحلى بمكارم الأخلاق ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾القلم آية(٤). وقد تمثل ابن الخطيب هذا المعنى بقوله:[١]

مَدَحْتكَ آيَاتُ الكِتَاب فَما عَسَى يُثْنِي عَلى عُلْيَاكَ نَظْمُ مَدِيحِي
وَإِذَا كَتِابُ اللّهِ أَثْنَى مُفْصِحَاً كَانَ القُصُورُ قُصَارَ كُلِّ فَصِيحِ

وقوله كذلك:[٢]

بِمَاذَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْكَ مُقَصِّرٌ ولَمْ يَأْلُ فِيكَ اللّهُ مَدْحاً ولاَ حَمْدَا

إن ابن الخطيب يعترف بعجزه عن مدح الرسول صلى اللّه عليه وسلم لأنه مهما أثنى عليه ومدحه إلا أنه يشعر بالتقصير في حقه، فاللّه سبحانه وتعالى – لم يألُ في مدحه.

وقد كان مدح الشعراء للرسول عليه الصلاة والسلام – بما امتدحه به المولى عز وجل - من خلال سامية وصفات حميدة وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[٣]

لَكَ الخُلُقُ الأَرْضَى الَّذِي بَانَ فَضْلُهُ وَمَجْدُكَ فِي الذِّكرِ العَظِيمِ عَظِيمُهُ

ومن هذه الصفات العظيمة التي كانت مدار مدائح الرسول صلى اللّه عليه وسلم **الصدق**، وفيها يقول ابن الخطيب:[٤]

رَسُولُ البَرايا جَاءَ بالصِّدْقِ فَامَّحَتْ بِنُورِ هُدَاهُ التُّرَّهَاتُ الصَّحَاصِحُ[٥]

فالصدق من أعظم الصفات التي تحلى بها الرسول عليه الصلاة والسلام – وكانت من أعظم الأسباب التي حملت الناس على تصديق دعوته والإيمان به. لذلك فقد

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٤٤ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٤٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٥٠ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٢٥ .
[٥] الترهات الصحاصح : الخرافات الباطلة .

أكثر الشعراء من مدحه عليه السلام بهذه الصفة النبيلة ومنه – أيضاً – قول ابن الخطيب.[١]

رَسَولٌ أَتَى حُكْمُ الكِتَابِ بِمَدْحِهِ وأَثْنَى عَلَيْهِ اللّهُ بالصِّدْقِ والحِلْمِ

ونلحظ في هذا البيت اقتران الحلم مع الصدق وكلاهما من أرقى الصفات الإنسانية .. ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قوبل بالتكذيب والاعتداء عليه فقد تجلى في هذه المواقف حلمه فلم يغضب ولم يدعُ على قومه بل على العكس دعا لهم وأشفق عليهم، مما يبرز عظمة هذا الخلق الإنساني الذي لا يقدر عليه إلا من عظم إيمانه وسمت أخلاقه. لذلك فإن اقتران هاتين الصفتين جاء متناسباً ومعبراً عن التحضر الإنساني في معاملة الأمة.

ومن أخلاق الرسول التي أشاد بها الشعراء **الأمانة**، كما في قول ابن الخطيب:[٢]

وَبِالأُفُقُ الأَعْلَى مِنَ العَرْشِ قَدْ سَمَتْ سَجَايَاه يَاللّهِ تِلْكَ السَّجَائِحُ[٣]

مُبَلِّغُهُمْ أَهْدَى رِسَالاَتِ ربِّهِ أَمِينٌ عَلَى الإِسْلاَمِ فِي اللّهِ نَاصِحُ

فهو يؤكد على أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم – الإنسانية، التي تميزت بالرفق واللين في معاملة أمته، والأمانة في أداء الرسالة وتبليغها. وإخلاص النية لله تعالى في التبليغ والنصح.

وقال -أيضاً -مثنياً على هذا الخلق:[٤]

يَا صَفْوَةَ اللّهِ المكِينِ مَكَانُهُ يَا خَيْرَ مُؤْتَمنٍ وَخَيرُ نَصِيحِ

لكن الصّفة التي لا تكاد تخلو منها مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – هي مدحه ونعته **بالرحمة** المهداة إلى العالمين. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الخطيب:[٥]

أَتَى رَحْمةً والنَّاسُ في مُدْلَهِمَّةٍ[٦] يَرُوحُونَ فِي غَيٍّ وَيَغْدُونَ فِي إِثْمِ

وقوله:[٧]

وَقَدْ بَثَّ مِنْكَ اللّهُ فِي الخَلْقِ رَحْمَةً فَأَنْقَذَ عَانِيهِ وأُثْرِي عَدِيمُهُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٣٠ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٢٥ .
[٣] السجائح : من أسجح : سهل ورفق .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٤٣ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٣٠ .
[٦] المدلهمة : المصيبة العظمى .
[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٥٠ .

فقد كان مبعثه عليه الصلاة والسلام – رحمة من الله تعالى في وقت سيطر فيه الجهل والظلم والضلال. فملك قلوب الناس بأخلاقه الإنسانية الرفيعة وتعامله المتحضر الرائع مع كل فئات الناس وفي ذلك قال ابن الخطيب :[١]

عَلَيْكَ صَلاَةُ اللّهِ يَا خَيْرَ رَاحِمٍ وَأَشْفَقَ مَنْ يَثْنِي عَلَى رَأْفَةٍ كَبْدَا

وقال أيضاً:[٢]

وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ البَارِي وَأَرْسَلَهُ بَرَّاً رَؤُوفاً رَحِيماً بِالمسَاكِينِ

لقد جمع النبي -صلى الله عليه وسلم -جميع معاني البر والشفقة والرحمة في معاملة أتباعه وخاصة المساكين منهم، مما يؤكد عظمة هذا الدين الذي يتساوى فيه الجميع حتى الضعفاء منهم، والذين – غالباً – لم يكونوا محط اهتمام لأي أحد.

وقد كان مدح الشعراء للنبي – صلى الله عليه وسلم – في جوهره تمجيد وإشادة بالجانب الخلقي الذي اتصف به؛ لأنه هو القدوة ، فكان الثناء على هذا الجانب من قبل الشعراء دعوة لتحلي جميع الناس بهذه الأخلاق الفاضلة النبيلة، لأن الارتقاء بالجانب الخلقي هو جوهر الحضارة بكافة أشكالها. فصلاح المجتمع بكل ما فيه مرتهن بصلاح الإنسان أولاً.

ب - مدح فضائل الأخلاق :

إن في الإسلام قيماً ومثلاً ذات مبادئ وأهدافٍ تكوّن عالماً خيراً متميزاً يهدي البشر إلى طريق السلامة والأمان، فالخير في الفطرة البشرية أصيل، وهذه القيم تنميه.

ومن هذه القيم التي دعا إليها الشعراء قيمة **الصدق**، ومن الأمثلة على هذه الدعوة قول ابن الخطيب:[٣]

أَخِي لاَ تَقُلْ كَذِباً إِنْ نَطَقْتَ فَلِلنّاسِ فِي الصِّدْقِ فَضْلٌ وَضَحْ

وَخَفْ إِنْ كَذَبْتَ طُرُوَّ افْتِضَاحٍ فَمَا كَذَبَ الفَجْرُ إِلاَّ افْتَضَحْ

فهو يؤكد على أهمية الصدق وسوء عاقبة الكذب الذي لابد من افتضاحه في النهاية.

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٤٩ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦١٢ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٤٨-٢٤٩ .

وقيمة الصدق تعكس صفاء نفس الإنسان وتوجهه إلى الله تعالى ومراقبته وإخلاصه في كل قول أو عمل، كما وجه إلى ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام – بقوله : (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة ... ،إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ...) [١] لذلك فإن أرقى ما يمكن أن يوصف به الإنسان هو الصدق، وهي صفة تستحق الذكر والثناء فخير الحديث والعمل ما كان صادقاً، وبهذه الصفة امتدح ابن الخطيب أحد الفضلاء قائلاً:[٢]

حدِيثٌ عَلَى رَغْمِ العُلاَ غَيْرُ كَاذِبِ يَغُصُّ النَّوادِي عِنْدَهُ بِالنَّوَادِبِ

وتتأكد هذه القيمة أكثر إذا كان المرء يمارس الكتابة والتأليف أو الخطابة – أو غيرها. يقول ابن الخطيب:[٣]

وَبَعْدَ هَذا الَّذِي قَدَّمتُ مِنْ كَلِمٍ صِدْقٍ يُقَدِّمُهُ مَنْ خَطَّ أَوْ خَطَبَا

فَإِنَّنِي جُزْتُ مِنْ سَامِي الخِلاَلِ مَدَىً أَجَلْتُ فِيهِ جِيَادَ الفِكْرِ مُنْتَسِبَا

إنه يفخر –على لسان الأمير "قيس" ابن السلطان "يوسف أبي الحجاج" بأخلاقه الراقية المتحضرة التي تحلى بها بفضل تربية والده السلطان ، ويفخر أكثر كونه سعى في سبيل تحصيل العلم النافع، ويلفت القارئ في هذا الشاهد براعة الشاعر في نقل الأفكار بواسطة الصور الجميلة التي مكنته من التعبير عن ما يريد حيث صور الحياة بميدان السباق الذي يُحدد بمسافة معينة – وذلك هو عمر الإنسان – وقد قطع فيه هذا الأمير شأواً بعيداً حيث تمكن من الفوز بالأخلاق السامية، كما أنه أطلق جياده في هذا الميدان لتبلغ مراده من العلم فكانت سبّاقة لذلك. ولا شك أنها صورة حضارية جميلة أعمل فيها الشاعر فكرة ليحلق مع سامعيه إلى آفاقٍ إنسانية رحبة ترتقي بالإنسان وفكره.

ومن القيم الحضارية التي تغنى بها ابن الخطيب، **العفاف** وهي قيمة تعكس المروءة الإنسانية ورقيها، حيث يكبح المرء جماح الهوى ويبتعد عن الحرام. ومن الأمثلة على هذه القيمة العظيمة قول ابن الخطيب في المدح : [٤]

---

[١] انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تعليق : عبد الرحمن ناصر البراك ، الطبعة الأولى ، دار طيبة ، الرياض ، ٢٠٠٥م : ٦٦٧/١٣ . (كتاب الأدب)

[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٥ .

[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١١٩ .

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢١ .

وتَضْفُو عَلَى أَعْطافِهِ حُلَلُ الحُلَـىَ مُطَهَّرَةً مَا دَنَّسَتْها المعَـــــايبُ
وَتَخْتَرِقُ الأَرْجَاءَ مِنْ طِيبِ ذِكْـرِهِ جَنَائِبُ تَحْدُوهَا الصَّبَا والجَنَائِبُ
هَلْ المِسْكُ مَفْتُوتُ بِمَدْرَجَةِ الصَّبَا أَمِ أدُّكِرَتْ مِنْكَ العُلَى والمنَاقِبُ

لقد تميز هذا الممدوح بالنقاء والعفاف لذلك فإن سيرته بين الناس عطرة ، وتبدو هذه السمة أجمل مع تصوير ابن الخطيب الذي جعل أخلاق هذا الرجل الفاضل مثل الحلة الفاخرة التي تلبس، وسيرته مثل العطر الفواح الذي تنشره الرياح بل كأنه المسك المفتوت، ولا شك أنه اسلتهم هذه الصورة المتحضرة من بيئته الراقية التي عاش فيها.

وقال في مدح[١] السلطان "أبي حمّو":[٢]

أعَارَ جَنَابَ اللَّهْوِ صَفْحَةَ مُعْـــرِضٍ وَعَافَ الهَوى وَرْدَاً وإِنْ عَذُبَ الطَّعْمُ
حَمَى سَاحَةَ الطَّبْعِ العَفِيف كَمِثْلِ مَا حَمَى سَاحَةَ المُلْكِ المنِيفِ " أَبو حَمُّو"
وَمَاهُنَّ فِي التَّحْقِيقِ إلاَّ صِفَاتُـــــهُ بِهِنَّ إِلَىَ إِطْرَائِهِ اسْتَطْرَدَ النَّظْـــمُ
يَغُضُّ عَنِ الطَّيْفِ ألمُلِمِّ لِعِفَّـــــــةٍ وَفَضْلُ حَيَاءٍ لاَ يَكِيدُ هُما الحِلْمُ

إن ابن الخطيب يشيد بهذا الخلق الإنساني الرفيع الذي تحلى به هذا السلطان ولم يكتفِ بمجرد بيت واحدٍ وإنما بأربعة أبيات صور فيها عفافه العظيم الذي جعله يغض حتى عن الطيف الذي يمر في الخيال.

ومثله قوله:[٣]

وَعَفَفْتَ حَتَّى عَنْ خَيَالٍ طَارِقٍ وَوَهَـبْتَ حَتَّى أعْذَرَ اسْتِجْـدَاءُ

ويلفت القارئ في قصائد ابن الخطيب الغزلية التأكيد على العفاف والطهر وصون المحبوبة والارتقاء بالعواطف الإنسانية عن درك الشهوات وعدم الانقياد لها. كقوله:[٤]

وَهِيَ البَدْرُ غَيْرَ أَنَّ عَفَافِي طَابَ خُبْراً وطَالَ فَضْلاً وَرُدْنَا

فهو ينأى بنفسه عن الانقياد وراء هوى النفس، وهو يفخر بذلك لأنه في موقف يستطيع فيه عمل ما يشاء عند انعدام الرقيب ، ورغم ذلك فهو يعرض عن هذا لأن له خلقاً رفيعاً يمنعه من ذلك بعد خوف الله تعالى . بل إن هذا الخلق ظهر في بيت ابن الخطيب مثل الثوب الطويل الذي يستر لابسه .

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٤٣ .
[٢] هو السلطان موسى الثاني بن يوسف أبي يعقوب بن عبد الرحمن (٧٢٣ – ٧٩١هـ)، انظر ترجمته في: ابن الخطيب: الإحاطة: ٢٨٦/٣.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٩٦ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨١ .

وقال – أيضاً – في وصف لقائه بمحبوبته:[١]

تَوَسَّد أَضْغَاثَ الرَّيَاحِينِ وانْثَنَـى يَغُطُّ غَطِيطَ الطِّفلِ مِنْ فَوْقِ مَهْدِهِ
فَبَايَعْتُ سُلْطَانَ العَفَافِ وَلَمْ أُجِزْ عَلَى فِكْرَتِي إِلاّ الوَفَاءَ بِعَهْـدِهِ

ونلحظ في البيتين التصوير الجميل الذي أبرز عظمة هذه القيمة الحضارية حيث جعل العفاف سلطاناً له هيبة عظيمة وقد بايعه الشاعر على السمع والطاعة والوفاء بالعهد. وقد وفى بذلك حقاً مع محبوبته.

ومثله قوله:[٢]

وَلِئْنَ تَحَامَانَا الرَّقِيبُ فَلَمْ يَرُمْ عَنَّا رَقِـيبٌ لِلْعَفَافِ عَـتِيدُ

إن غياب الرقيب لم يجعل الشاعر يتساهل في اتباع هواه، لأن عفافه كان أشد رقيب عليه، ومما يوحي بقوة هذا الرادع هو تشبيه العفاف برقيب وعتيد وهما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان.

كما أن **تعفف المرء عما بأيدي الناس** وترفعه عن عطائهم، هو من القيم الرفيعة التي تعكس رقي الإنسان، ومن الشواهد على هذه الصفة النبيلة قول ابن الخطيب في التعفف عن عطاء السلطان "الغني بالله":[٣]

يَا مَنْ دَعَانِي إِلَى رِفْدٍ يَجُودُ بِهِ "الْـ ـغَـنِيُّ" بِاللّهِ مُؤْتَمّاً بِمَذْهَبِـهِ
حَاشا وَكَلاّ لِمِثْلَيَ يَا صَدِيقِي أَنْ يَنْسَى الغَنِيَّ وَيَسْتَجْدِي الغَنِيَّ بِهِ

وقال – أيضاً – وقد زهدت نفسه السياسية وخططها المتعبة :[٤]

قَالَ لِي صَاحِبِي وَقَدْ بَانَ زُهْدِي عِنْدَمَا أَمَّلَ الهُمامُ العَمِـيدُ
لِمَ أَعْرَضْتَ واسْتَهَنْتَ بِهَـذا ؟ قُلْتُ: أَغْنَانِي الغَنِيُّ الحَمِيدُ

إنه يترفع عما بأيدي الناس حتى وإن كان السلطان، ولا يرغب إلا في عطاء الخالق – عز شأنه – فهو الرازق لعباده ، لذلك فهو لا يفكر في استجداء أحد ويلخص تجربته وتأمله في الحياة بقوله :[٥]

تَمَلأْتُ بِالدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ خِبْرَةً فَأَعْظَمُ مَا بِالنَّاسِ أَيْسَرُ مَا بِي

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٧ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٩ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٢٦ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥٦ .

وَأَيْقَنْتُ أَنَّ اللّهَ يَمْنَحُ جَاهِـداً وَيرْزُقُ أَقْوَاماً بِغَيْرِ حِسَـــابِ
فَيَادُلَّ أُدْنٍ هَمُّها إِذْنُ حَاجِـبٍ وَيا هَوْنَ وَجْهٍ خَلْفَ سُدَّةِ بَابِ

إنها دعوة للارتقاء بالنفس وصون كرامة الإنسان من الذل والامتهان بسبب سؤال الناس، يقول النبي – عليه الصلاة والسلام – (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغني غني النفس) [١].

ومن القيم الحضارية التي أشاد بها ابن الخطيب . وأكد عليها في صفات ممدوحيه **الوفاء** وهي قيمة عربية عريقة ، أعلى من شأنها الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ -الإسراء (٣٤)- وهذا يدل على عظم شأنها ، ومن الأمثلة على هذه القيمة الإنسانية العظيمة قول ابن الخطيب في حاكم النصارى الذي عزم على نقض الهدنة : [٢]

نَكَثَ العُهُودَ وَغَرَّهُ شَيْطَانُهُ وَرَأَى لَوفَاءَ بِمَا وَفَيْتَ حَرَاما
وإِذَا تَنَكَّبْتَ الوَفَاءَ سِيَاسَـةٌ فَأَضَلَّتِ الآَرَاءَ والأَحْلاَمَـــا
فَالغَدْرَ مَرْتَعُهُ وَخِيمٌ كُـلَّمَا لاَذَ امْرُءٌ بِحِمَاهُ خَابَ وَخَامَا[٣]

وفي الأبيات ما يعكس رقي أخلاق المسلمين وتحضرهم والتزامهم بعهودهم في حين أن الغدر كان من سمات هؤلاء النصارى الذين لا يحترمون عهداً ولا ذمة .

ومثله قوله:[٤]

لَقَدْ طَوَّقَ "الأُذْفُنْشَ" سَعْدُكَ خِزْيَةً تَجِدُّ عَلَى مَرِّ العُصُور الذَّوَاهِـبِ
وَفَيْتَ وخَانَ العَهْدَ فِي غَيْرِ طَائِلٍ وَصدَّقَ أَطْمَاعَ الظُّنُونِ الكَوَاذِبِ

وقال – أيضاً -:[٥]

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الوَفَاءَ سَجْيَّتِي إِذَا شَحَطَتْ دَارِي وَشَـطَّ رِكَابِي

فهو خلق عظيم ويحق لمن يتسم به أن يفخر بذلك لأن البعد وانقطاع الصلات تنسي الكثيرين إلا من كان الوفاء خلقاً له.

---

[١] انظر : ابن حجر : فتح الباري : ١٤/ ٥٥٧ ، (كتاب الرقاق) .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٣٦ .
[٣] خاما : وخم ووبئ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١١٣ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥٦ .

ومن القيم الحضارية الإنسانية – كذلك – **الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه** والنظر إلى الحياة نظرة تفاؤل، فهذه النظرة تبعث في النفس الآمال، والإشراق.

ولا شك أن القدرة على عتاب النفس ولومها وزجرها، سمة إنسانية حضارية عندما يعترف الإنسان بخطئه وتقصيره في جنب الله. يقول ابن الخطيب:[١]

وَالنَّفْسُ لاَ تَنْفَكُّ تَكْلَفُ بِالهَوَى والشَّيْبُ يَلْحَظُهَا بِعَيْنِ رَقِيبِ

إن النفس أمارة بالسوء ، فالصحة والشباب والفراغ قد تغري الإنسان باتباع الملذات وقد تهوي به في مزالق الشر، لذلك لابد من جهاد النفس خاصة إذا تقدم العمر بالإنسان ، وتولى الشباب فعند ذلك لابد من الوقوف وتأمل ما مضى ، يقول ابن الخطيب:[٢]

وَرَكَضْتُ طِرْف اللَّهْوِ فِي شَأْوِ الصِّبَا مَرَحاً فَجُزْتُ مَدَى النَّعِيمِ بَعِيداً

ونلحظ من البيت تمتع الشاعر بشبابه وانغماسه في الترف والنعيم ولكن هناك ما نبهه مما هو فيه وجعله ينظر إلى الحياة بمنظار آخر:[٣]

مَالِي وَتَذْكَارَ الصَّبَابَةِ والصِّبَا وَمَوَاثِقاً عِنْدَ الهَوَى وَعُهُودَا؟
وصَبَاحُ شَيْبِ الفَوْدِ لاَحَ بِمَفْرِقِي فَغَدَوْتُ مِنْ فَقْدِ الصِّبَا مَفْؤُودَا
إِنَّا إِلَى الرَّحْمنِ مِنْهَا أَنْفُساً بُوِّئْنَ مِنْ ظُلْمِ الجُسُوْدِ لُحُودَا
نَسِيَتْ عَوَالِمِهَا الكِرَامُ فَنُورُهَا تَسْتَامُهُ[٤] أَيْدِي الهَوى تَبْدِيدَا

إنه الشيب الذي بدأ يغزوه سواد شعره ، فهذا هو الزمن في تقلبه وتعاقبه يبلي كل جديد ، ويحول كل شيء إلى نقيضه ، ويلفت الانتباه في هذا الشاهد جمال التصوير في البيتين الثالث والرابع حيث صور الجسد بصورة القبر المظلم وقد ألحدت فيه النفس الطاهرة النقية التي أهلكتها الذنوب . وقد أقر بذلك بقوله:[٥]

ذَنْبِي عَدَانِي عَنْ لَحَاقِ ذَوِي الهُدَى فَغَدَوْتُ عَنْ دَرْكِ الرَّشَادِ طَرِيدَا

فاتباع الهوى، والغفلة هما سبب البلاء، كما قال:[٦]

فَلْيَحْذَرِ المَرْءُ دَوَامَ الأَذَى وَأَصْلُهُ الغَفْلَةُ عَنْ رَبِّهِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٨ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٥١ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٥١ .
[٤] تستامه: السوم عرض السلعة على البيع وذكر ثمنها.
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٥١ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٨ .

لذلك لابد للإنسان من مجاهدة النفس حتى يرتقي بها ويرفعها إلى المستوى الإنساني الذي يخلصها من عبودية الهوى والملذات، ويؤكد ذلك بقوله:[١]

إِذَا أَنَا لَمْ أُوثِرْ هَوَايَ عَلَى عَزْمِي فَنَفْسِيَ فِي طَوْعِي وأَمْرِيَ فِي حُكْمِي
وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاللَّوْمِ لاَمْـــرُؤٌ يَضلُّ طَرِيقَ الرُّشْدِ وَهُـوَ عَلَى عِلْـــمِ

وهو يجاهد هواه وعواطفه مظهراً ندمه على العمر الذي تولى في التسويف بالتوبة فقد مضى العمر في العبث واللاجدوى، يقول:[٢]

جِهَادُ هَوىً لَكِنْ بِغَيْرِ ثَوابِـــي وَشَكْوَى جَوىً لَكِنْ بِغَيْرِ جَوَابِي
وَعُمْرٌ تَوَلَّى فِي لَعَلَّ وفِي عَسَى ودَهْرٌ تَقَضَّى فِي نَوىً وَعِتَـــابِ
أَمَا آنَ لِلْمُنْبَتِّ فِي سُبُلِ الهَوَى بِأَنْ يَهْتَدِي يَوْماً سَبِيل صَـــوَابِ

ونلحظ في الأبيات الصور الحضارية الجميلة ، التي استقاها من معين الحضارة الإسلامية ، حيث استعار فكرة الجهاد وثوابه العظيم لتوضيح مدى ندمه وتحسره على ذلك الجهاد – اللا مجدي – في إتباع الهوى مما يجعله بغير ثواب ! كما بينت الصورة تعدد السبل أمام الإنسان في حياته. ويطرح سؤالاً استنكارياً يتعجب فيه من حال الغارقين في بحار الشهوات ! أما أن لهم أن يهتدوا ؟ وهو تساؤل يجعل الإنسان يقف مع نفسه ويسأل السؤال ذاته.

وتزداد حسرة ابن الخطيب عندما يتأمل السنين التي مرت فيعتصر الألم قلبه، فيقول:[٣]

تَأَمّلْتُها خَلْفِي مَرَاحِلَ جُبْتَهَـــا يُنَاهِزُ فِيهَا الأَرْبَعِينَ حِسَـــابي
وَمَا حَصلَتْ نَفْسِي عَلَيْهَا بِطَائِـــلٍ ولاَ ظَفِرَتْ كَفِّي بِبَعْضِ طِلاَبِ
نَصِيبِيَ مِنْها حَسْرَةٌ كَوْنُهَا مَضَتْ بِغَيْرِ زَكَاةٍ، وَهْـيَ مِثْلُ نِصَابِ

ونلحظ في هذه الأبيات لمحة حضاريةٍ تتمثل في حساب العمر وتحديده حيث تجاوز الأربعين وهو السن الذي يتجاوز فيه المرء مرحلة الشباب واللهو والملذات، إلى مرحلةٍ أخرى تتميز بالتعقل ومحاسبة النفس، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ سورة الأحقاف، آية (١٥) كما نلمح الحضارة أيضاً في هذا التشبيه المستمد من الثقافة الإسلامية والذي يبرز مدى

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٢٩ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥٥ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥٥ .

تحسره على تلك الذنوب التي تراكمت بدون أن يكفر عنها بتوبة حيث شبهها بالزكاة التي تجب على المسلم إذا اكتمل نصابها.

وبعد هذا العمر عزم الشاعر على التوبة الصادقة، وتطهير قلبه ونفسه من آثام ذنوبه التي ما يفتأ يذكرها ليستشعر فداحة تفريطه، مثل قوله:[١]

يَقُولُونَ لِي حَتَّامَ تَنْدُبُ فَائِتـــــاً ... فَقُلْتُ وَحُسْنُ العَهْدِ لَيْسَ بِعَابِ

إِذَا أَنَا لَمْ آسَفْ عَلَى زَمَنٍ مَضَى ... وَعَهْدٍ تَقَضَّى فِي صِباً وَتَصابِي

فَلاَ نَظَمَتْ دُرّ القَرِيضِ قَرِيحَتِي ... وَلاَ كَانَتِ الآدابُ أَكْبَرَ دَابِي

ومما سبق نلحظ سمو هذه القيمة ورفعتها لأن محاسبة الإنسان لنفسه من أهم الأسباب التي تعينه على الابتعاد عما يشينها ويدنسها، فلا يستمر في الخطأ ولا يتحرج من الاعتراف بخطأه لأن الاستمرار فيه من أسباب هلاكه . ولا شك أن من يمتلك القدرة على ذلك يكون على جانب كبير من التحضر والإنسانية .

أيضاً ثمة ما يلحظه القارئ في الشواهد السابقة وهو الأفكار والصور الرائعة التي تسري فيها روح الحضارة. كما تدل على تأمل عميق في المعاني والحياة .

ومن القيم الإنسانية النبيلة – أيضاً – **الصبر** ولعله هو المعين على التمسك بجميع القيم السابقة، إذ أن التزام الفضائل وكبح جماح الهوى يحتاج إلى الصبر في مجاهدة النفس، ليرتقي الإنسان بنفسه وإنسانيته فلا ينساق وراء الموبقات.

والصبر يكون عن المعصية كما يكون عند المصيبة ، وكلاهما موقف صعب على النفس ، ومن الأمثلة التي تحث على هذه القيمة العظيمة قول ابن الخطيب : [٢]

وَالصَّبْرُ أَوْلَى مَا اسْتَكَانَ لَهُ الفَتَى ... رَغْماً وَحَقُّ العَبْدِ أَنْ يَتَأَدَّبَـــا

وَإِذَا اعْتَمَدْتَ اللّهَ يَوْماً مَفْزَعـــاً ... لَمْ تُلْفِ مِنْهُ سِوَى إِلَيهِ المهْرَبَا

فنفس المؤمن صابرة لا تجزع من المصيبة لذلك كان أجر الصابرين عظيم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة الزمر آية(١٠). فكل ما يصيب المؤمن مأجور عليه ، وهذا الأجر والجزاء هو ما يهون المصيبة في قلبه، فلا يعرف اليأس والقنوط ، وإنما يستمر في حياته ، ويقوم بمهامه فلا يثنيه شيء مع إيمانه بأن الله تعالى هو المثيب على الصبر[٣] ومآل جميع البشر إليه لذلك كان الحزن والأسى لا جدوى منهما:[٤]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥٦ .

[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٠٨ .

[٣] لا شي يمكن أن يقنع الإنسان بالصبر إلا إيمانه الجازم بأن ما يتركه وما يعمله في الدنيا من أجل طاعة الله يلقاه في الآخرة مضاعفاً ليس فقط في الدرجة بل وفي النوع كذلك ، انظر : محمد قطب : دراسات قرآنية ، الطبعة السادسة ، دار الشروق ، القاهرة – بيروت ، ١٩٩١ ، ص : ٦٦-٦٧ .

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣١١ .

أَسَى النَّفْسِ لاَ يَقْوَى عَلَى رَدِّ فَائِتٍ فَإِنْ شِئْتَ فَلْتُقْلِلِ وإِنْ شِئْتَ فَازدَدِ

ولقد كان المسلمون في الأندلس في أمس الحاجة للتمسك بهذه القيمة نظراً للظروف العصيبة التي كانوا يعيشون فيها.

والملاحظ على جميع ما سبق من شواهد أن الحديث عن القيم والآداب الخلقية الحضارية غالباً ما كانت مقترنة بشخصية الممدوح ولا تتضمن تفصيلات لها . وسواءً كان الممدوح هو النبي عليه الصلاة والسلام أو أي من الشخصيات الأخرى في المجتمع على اختلاف منازلهم ، فإن المدح بهذه القيم الإنسانية هو إعلان لمكارم الأخلاق والفضائل التي تمثل قدوة للآخرين . لأنه لا سبيل للرقي الإنساني والحضاري للفرد والمجتمع إلا بالتمسك بالأخلاق التي دعا إليها الدين الإسلامي.

٢ - التعامل الإنساني مع الشعب، وانتفاء الطبقية: -

كان سلاطين "بني نصر" يستشعرون عظم المسئولية التي حملوها في هذا الوقت العصيب الذي أصبحت فيه مملكة غرناطة الصغيرة، هي كل ما تبقى من ملك المسلمين في الأندلس . وقد كان الشعر هو المرآة التي تعكس حقيقة الأوضاع في المملكة ، لذلك سيتم تسليط الضوء -من خلال الشعر –على الطريقة التي تعامل بها الحاكم الغرناطي مع شعبه على المستوى الإنساني وما الذي قدمه له وأدى بدوره إلى رقي هذه المملكة .

واستقراء شعر ابن الخطيب يطلعنا على بعض الصفات التي تميز بها الحاكم الغرناطي في تعامله مع شعبه ومنها **الرحمة** وهي من قيم الإسلام التي تميز بها إنسانية المرء بعطفه وحنوه قال عليه الصلاة والسلام : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[١].

يقول ابن الخطيب متمثلاً هذه القيمة التي تستميل قلوب الناس بالخير والعطف:[٢]

مَهْلاً فَمَواطِرُ كَفِّكَ مَا أَبْقَتْ مُحْتَاجاً مُرْتَزِقاً

---

[١] انظر : محمد بن عيسى " الترمذي ": الجامع الصحيح (سنن الترمذي) تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٠م : ٢١٧/٣ (باب البرّ) .

[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٨٨ .

لقد كان من رحمة اللّه بهذا الشعب أن ولاّهم سلاطين رحماء يتلمسون حاجات المحتاجين مثل السلطان "أبي الحجاج " يوسف " وابنه " الغني باللّه " الذين خدمهما ابن الخطيب.

وقال – أيضاً – مثنياً على هذا الجانب الإنساني في شخصية " أبي الحجاج " : [١]

فَيا مَنْ يُؤَمِّل هَذَا الجَنَابَــا أَنَخْتَ بِعَقْوَةِ[٢] رَعْــيِ العُهُــودْ
ثِمَالُ الفَقِير، وَيُسْرِ العَسِيرِ وكَهْفِ الغَرِيبِ وَمَأوَى الطَّرِيدْ

وقال أيضاً : [٣]

فَمَا كُنْتَ إلاَ رَحْمَــةَ أُرْسِلَــــــتْ فَأُعْطِيَ مُعْتَرٌّ وأَخْصَبَ مُعْجِفُ [٤]
وَكَمْ عَائِلٍ أَغْنَوا وَكَم خَائِفٍ حَمَوْا وَكَمْ مُعْدِمٍ أَثْرَوْهُ جُودَاً وأَتْرَفُوا

وقال:[٥]

تَوَالَى مِنِ اسْتَرْعَيْتَ أَمْناً وَرَأْفَةً وَرِفْقاً كَمَا تَحْنُو عَلَى المرْضِعِ الأُمُّ

ونلحظ مما سبق ربط الرحمة بالعطاء، مما يدل على التواصل المستمر بين الحاكم ورعيته حيث يستقبل أصحاب الحاجات والظلامات ويغدق عليهم عطاياه، وتلك صفة إنسانية عظيمة تدل على رقة القلب وعدم التكبر والترفع عن مقابلة مثل تلك الفئات من الناس . مما يستوجب له المحبة والولاء من شعبه .

ومن السمات الإنسانية الراقية – أيضاً – **التواضع** وخفض الجناح للناس والرأفة بهم . وهي بهذا المعنى تحرر النفوس من الكبر والشعور بالاستعلاء على الآخرين لجاهٍ أو مالٍ أو علمٍ أو غيره . وهو خلق جعل المجتمع المسلم خالٍ من **الطبقية** التي عرفتها المجتمعات الأخرى وعانى منها الكثيرون .

وقد كان للسلطان "أبي الحجاج" وابنه "الغني باللّه" من السماحة ولين الجانب والتواضع ما أوجب لهما الحب والتقدير من الشعب، حيث كانا قريبين منهم يتلمسان حاجاتهم . وقد كان "الغني باللّه" متواضعاً يسير في حاشية صغيرة في شوارع العاصمة غرناطة مرتدياً ملابس غير مبالغ في زخرفتها (فأنست العامة بقربة ، وسكنت الخاصة إلى طيب نفسه ،وحمد الناس فضل عفافه).[٦]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٦٤ .
[٢] العقوة والعقاة هي الساحة وما حول الدار .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٧٠-٦٧١ .
[٤] المعتز: الفقير الذي يتعرض لك ويلم بك أن تطعمه من اللحم ولا يسأل، أما المعجف فهو الهزيل.
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٤٦
[٦] ديوان ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص : ١١٣ .

وقد نوه ابن الخطيب بهذه السمة في قوله:[١]

تَسْتَعْبِدُ الأَحْرَارَ بَيْنَ تَحِيَّةٍ مُبْرُورَةٍ وَتَوَاضُعٍ وَثَوابِ

وقوله:[٢]

وَخَفَضْتَ الجَنَاحَ فِي الأَرْضِ حَتَّى لَمْ تَدَعْ فَوْقَ ظَهْرِهَا مِنْ جُنَاحِ[٣]

ومما يلفت النظر في مدائح ابن الخطيب سياسة **العفو والتسامح** التي انتهجها حكام غرناطة مع جيرانهم ورعاياهم النصارى. فقد أشاد ابن الخطيب بهذه السمة الإنسانية في سلطانه عندما عفى – وهو القادر – عن (الأذفونش)[٤] بعد تعرضه لمكيدة في البحر كانت تهدف لاغتياله، حيث قال:[٥]

لَقَدْ لَبِسَ "الأُذْفُونْشُ" مِنْهَا مُلاَءَةً مِنَ اللَّوْمِ تَأْبَاهَا المُلُوكُ الأَكَابِرُ

وَأَسْرَعَ يَنْضُو ثَوْبَهَا مُتَنَصِّلاً وَرَبُّكَ يَدْرِي مَا تُكِنُّ الضَّمَائِرُ

فَقَابَلْتَ بِالصَّفْحِ الجَمِيلِ اعْتِذَارَهُ وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْهُ إليكَ الجَرَائِرُ

فإنَّك أَوْلَى مَنْ يَقُودُ إِلَى الرِّضَا وَأَحْلَمُ مَنْ تُلقَى إِليهِ المَعَاذِرُ

وتبدو نبرة النصر والقوة واضحةً من خلال أبياته، وتصور "الفونس" في حالة من الاضطراب يحاول معها نفي علاقتهم بهذا الأمر. ولكن السلطان "أبا الحجاج" يعفو وهو العالم بكذب مزاعم النصراني – وذلك موقف لا يتخذه سوى عظيم.

كما سجل الشعر بعض **علاقات الصداقة** بين حكام غرناطة وجيرانهم النصارى التي تجلت في مساعدة "الغني بالله" على استرداد عرشه. وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[٦]

وَالرُّومُ لاسْتِرْجَاعِ حَقِّكَ شَمَّرَتْ هَذَا هُوَ النَّصْرُ المُعِمُّ المُخْوِلُ

وقال أيضاً:[٧]

فَيَا نَاصِرَ الإِسْلاَمِ دُمْ فِي حُلَى العُلَى وَجَارُكَ فِي أَمْنٍ وَقُطْرُكَ فِي سِلْمِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٦٥.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٥٦.
[٣] "الجناح" يقصد بها الشاعر لين الجانب، أما "جُنَاح" الثانية بضم الجيم فتعني الإثم والجناية.
[٤] هو " الفونس الحادي عشر ملك قشتاله، وقد حدث هذا الأمر أثناء حصاره لجبل طارق الذي قام به بعد انتصاره في معركة " طريف " سنة (٧٤١).
انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص: ٢٨٨ – ٢٨٩. ابن خلدون: العبر: ٣١١/٧ – ٣١٢.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٩١.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٠٠.
[٧] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٣١.

وهذا ولاشك يعكس سياسة التسامح التي جاء بها الدين الإسلامي. وتمثلها حكام غرناطة سياسة مع شعبهم ورعاياهم من أهل الذمة الذين عاشوا في كنفهم دون أن يتعرض أحد منهم إلى إجبار على ترك عقيدته أو تقاليده. وكان لهم الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية. وتلك صورة من التسامح الذي لم ينعم به أهل الذمة إلا في ظل الحكم الإسلامي.

كما تميز الحاكم الغرناطي **باحترام حرية شعبه وكرامته**، حرصاً منه على رضا الشعب **واستقراره** في هذا الوقت الحرج الذي حكموا فيه. فقد كانت المسؤولية جسيمة، وقد أكد ابن الخطيب بشعره على عظم هذه المسؤولية، وقدّم لهم وهو – الوزير العالم – الكثير من النصائح التي تعينهم على صلاح أمرهم كقوله:[1]

لاَ تَحْسَبِ النَّاسَ فِي نَوْمٍ فَأَعْيُنُهُمْ ... تَرْنُو إِلَيْكَ فَعَامِلْهُمْ بِإِجْمَالِ
وَكُلْ طَعَامَهُمُ، والْبَسْ لِبَاسَهُمُ ... وانْصُبْ لِصِيدِهُمُ أَشْرَاكَ مُحْتَالِ
وَخُذْ مِنَ الأَمْر بَعْضاً واقْتَصِدْ وَأَفِقْ ... وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ فِي جَيْشٍ وَفِي مَالِ
وَأَنْتَ جَرَّبكَ الرَّحْمنُ مُخْتَبِراً ... لِكَيْ يَرَى مِنْك فِعْل الحَافِظِ الكَالي
لَمْ يَبْقَ بَعْدَكَ لِلإِسْلاَمِ مِنْ أَملٍ ... فَحُطْ جَمَاعَتَهُمُ فِي دَارِ إِقْلاَلِ
قَدَّرْتَ أَمْرَكَ سَهْلاً تَسْتَقِل بِهِ ... قِلاَدَةُ اللّهِ فَاعْلَمْ ذَاتُ أَثْقَالِ

فهو ينصح السلطان بحسن السياسية في معاملة الرعية، بالتواضع لهم مع توخي الحذر ودفع ما يؤذيهم ويهمهم من أمور حياتهم، وحسن تدبير الأموال وضرورة إعداد الجيوش، ثم يوصيه بالحرص عليهم والدفاع عن أرضهم. ويختم بما يدل على عظم حق الرعية والمسؤولية عنهم أمام الله تعالى.

كما أكد ابن الخطيب على ضرورة احترام الإنسان وعدم إهانته أو إذلاله:[2]

واجْزِ المسِيءِ إِذا أَسَاءَ بِفِعْلِهِ ... والمحْسِنَ الحُسْنَى جَزَاءً يَعْدِلُ
وإِذَا جَرَحْتَ فُؤادَ حُرٍّ لَمْ تُطِقْ ... إِدْمَالَهُ وبِأَيِّ شَيءٍ يَدْمُلُ[3]

إن الإنسان هو أعز من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض، ومن أجل ذلك لا يجوز في الإسلام أن يُعتَدى على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥١٥.
[2] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٠٤.
[3] يدمل: اندمل الجرح إذا تماثل وصلح.

أن تهدر كرامته وقيمته مهما كان السبب. وهذه ولاشك قيمة حضارية إنسانية أضافها الإسلام على المجتمع العربي[١]، واعتنقها بنوه وهو هنا لا ينشد الاحترام والحرية والعدل لنفسه وإنما للآخرين أيضاً. وبذلك يكون احترام الحاكم لهذا المبدأ موجباً لمحبة شعبه له وإخلاصهم في بناء دولتهم ونصرتهم له، يقول:[٢]

وَبَنُو الزَّمانِ عَلَى سَبِيلِ أَبِيهُـــــمُ إِنْ عَزَّ عَـــــزُّوا أَوْ يذَلُّ تَذَلَّلُوا
فَالعَفْوَ خُذْ مِنْهُمْ وَلاَ تَكْشِفْ لَهُمْ سَتْراً فَلَسْتَ عَلَى كَبِيرٍ تَحْصُلُ

ونلحظ هنا حسن تعامل الحاكم مع الرعية حتى هذا الشاعر، بدليل تقبله النصيحة منه.

كما أكد الشعر على حرص الحاكم الغرناطي على شعبه و**تحريره من الظلم والعدوان**. ولاشك أن الحكم بالعدل بين الناس كما شرع الله تعالى هو وسيلة للقضاء على الظلم في المجتمع.

ومن خلال شعر ابن الخطيب نلمس بوضوح تأكيده على **انتشار الأمن والعدل** في عصره، ولا تكاد تخلو أي من مدائحه من الإشادة بهذا الجانب الإنساني الرفيع من حضارتهم، ومن ذلك مدحه لجهود السلطان " أبي الحجاج " التي تمكن بها من إشاعة الأمن وكف الجور بعد أن كانت البلاد ترزح تحت وطأة الظلم والخوف:[٣]

لَرَفَـــــعْتَ ظِلِّ الأَمْنِ خَفَّاقاً فَقَدْ كَادَتْ تَسِيرُ مَعَ الذِّئَابِ الشَّاءُ
وَكَفَفْتَ كَفَّ الجَوْرِ فِي أَرْجَائِها وَعَمَرْتَ رَبْعَ العَدْلَ وَهْوَ خَـلاءُ

ونلحظ في البيتين جمال التصوير حيث صور انتشار العدل واستتباب الأمن بصورة جميلة حيث جعل الأمن رايةً تخفق في أعلى البلاد جعلت الذئاب تسير مع الشّاء، كما ظهر الجور مثل اليد القاسية التي تعتدي على الناس، فانتشر العدل بعد أن كانت دياره خلاءً.

إن العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتطبيق حكم الله في الأرض هو سبيل سعادة البشرية وعزتها. وقد أكد ابن الخطيب بشعره على حرص الحكام النصريين على تطبيق الشرع الإسلامي كقوله:[٤]

بِكَ ارْتَاحَ دِينُ اللّهِ فِي عُنْفُوانِهِ وَشُيِّدَ رُكْنٌ مِنْهُ واعْـتَزَّ جَانِبُ
وَأَصْبَحَتِ الأَيَّامُ رَائِقَةَ الحُلَـى وَقَدْ حُلِّيْتْ مِنْهَا الطلا والتَّرائِبُ[٥]

---

[١] نظر: د. السيد تقي الدين، الأدب والحضارة، ص: ١٣١.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٠٤.
[٣] ديوان بن الخطيب، ص: ٩٦.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٩٦.
[٥] – الطلاء جمع (طلاة) وهي العنق أو صفحته. والترائب: عظم الصدر مما يلي الترقوتين وموضع القلادة.

وقوله:[١]

أَفَاضَ عَلَيْهَا اللّهُ مُلْكَكَ دِيمَةً وَرَوّى ثَرَاها مِنْكَ مُنْسَكِباً عَهْداً
صَدَعْتَ بِأَمْرِ اللّهِ فِي جَنَبَاتِها فَأَلْبَسَكَ التَّقْوَى وَقَلَّدَكَ العَهْدَا

وفي سبيل صد العدوان عن الشعب الذي يعيش في ترقب دائم من مهاجمة العدو الذي أحاط به من كل جانب، وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سورة الأنفال، آية (٦٠) فكان الاهتمام الكبير بالأسلحة وصناعتها، ومواصلة التدريب على أساليب القتال. كما أن تنمية الروح الجهادية والدعوة للجهاد في سبيل الله كانت وسيلة رد العدوان عن الدولة حتى أن شعار عملتهم[٢] كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة آل عمران آية (٢٠٠).

وقد حرص الشعراء على إذكاء هذه الروح الجهادية والحث على الجهاد كما امتدحوا " آل نصر " لقيامهم بواجبهم، فهم قد أحيوا الدين بعد أن أوشك أن يلفظ أنفاسه، وهكذا نصروا الجزيرة. وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[٣]

نَصَرُوا الجَزِيرَةَ أَوَّلاً وَنَصِيرُهَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ بِرَحْبِها الأَنْحَاءُ
وَأَتَوا وَدِينُ اللّهِ لَيْسَ بِأَهْلِهِ إِلاَّ أَلِيلٌ خَافِتٌ وَذِمَاءُ[٤]

وجاهدوهم حق الجهاد حتى أذعروا الأعداء وأصبحوا يرغبون بالسلم فيمنحونه – أي سلاطين غرناطة – إياهم وهم في مركز القوة، وأعداؤهم قد أرهقهم الخوف. ومن ذلك قول ابن الخطيب:[٥]

وَمَا رَاعَ مَلْكَ الرُّوم إِلاَّ طُلُوعُهَا بَوَارِقَ تُدْعَى بِالمطَهَّمَةِ الجُرْدِ
وَغَاباً مِنَ الخِطِّيِّ تَحْتَ ظِلاَلِهِ أُسُودٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَفْتِكُ بِالأُسْدِ
فَلَمَّا اسْتَفَزَّ الذُّعْرُ مِنْكَ فُؤَادَهُ وَحقَّقَ مَعْنَى الفَضْلَ فِي ذَلِكَ الحَدِّ
رَمَى بِيَدِ الإِذْعَانِ لِلسِّلْم رِهْبَةً وَخَاطَبَ يَسْتَدْعِي رِضَاكَ وَيسْتَجْدِي

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٥٧.
[٢] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١٣٨/١.
[٣] ديوان الخطيب، ص: ٩٥.
[٤] الأليل: الأنين، الذماء: بقية الروح في المذبوح.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٠٤ – ٣٠٥.

ولاشك أن الشعر في هذا الجانب وإن كان يتسم بشيء من المبالغة إلا أن ابن الخطيب صور حركة الجهاد في هذا العصر كشاهد عيان، وإن كان يصفها كشاعر إلا أن ذلك لا ينفي أهميتها التاريخية، كما يؤكد على أمر مهم وهو أن الجهاد في سبيل الله في هذا العصر كان من أسباب تأييد واحترام الشعب للسلطان.

نخلص مما سبق أن حكام غرناطة خاصة السلطان "أبو الحجاج" وابنه "الغني بالله" كانوا على جانب كبير من الإنسانية والتحضر، يدل على ذلك تعاملهم الرفيع مع كافة أفراد الشعب حتى الضعفاء منهم وأهل الذمة، ورأفتهم بهم وتواضعهم لهم وتسامحهم معهم الذي شمل الرعية والدفاع عنهم وحماية أوطانهم وممتلكاتهم.

٣. الارتقاء بالإنسانية عن طريق العلم:

كانت دعوة القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى العلم والأخذ بأسبابه صريحة، وهي تهدف إلى غرس مفاهيم العلم في نفوس المسلمين، وقد كانت الأندلس مناط الفخر والاعتزاز بطلب العلم، وبثه وإشاعته. وقد كان أهلها (أحرص الناس على التميز فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم، يجتهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغاً عالة على الناس).[١]

إن المعرفة المهتدية بهدى الله سبيل إلى قيام الإنسان بمهمة استخلافه في الأرض لإعمارها، وبناء الحياة. لذلك وجه الإسلام المسلم إلى هذه المعرفة على اختلاف مجالاتها وميادينها لتكون عوناً له على القيام بدوره في الأرض. لهذا حث القرآن الكريم على استخدام العقل والحواس على مستوى المسئولية[٢] قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ -سورة الإسراء، آية: (٣٦)- لذلك بين الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة طالب العلم وآفاقه وثوابه، لما يمنحه علمه من ارتقاء في مهمته، ويكشف عن قدرة الله تعالى في الخلق والكون.

ومن هذا المنطلق يؤكد ابن الخطيب على **قيمة العقل**، وأهميته في تمييز الخير من الشر والوصول إلى حقيقة هذا الكون، فقال:[٣]

وَلَوْ لاَ النُّهَى لَمْ تَسْتَبِنْ سُبُلُ الهُدَى وَكَانَ وِزَانُ الحَقِّ يُدْرِكُهُ الغَمْطُ[٤]

---

[١] المقري: نفح الطيب: ٢٢٠/١.
[٢] انظر: محمد الهاشمي: الإنسان في الأدب الإسلامي، ص: ٤٣٧.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٥٨.
[٤] الغمط: غمط الحق، جحده.

وقال أيضاً:[١]

والعَقْلُ كَالْبَحْرِ إِنْ هَالَتْكَ هَيْبَتُهُ فَالشِّعْرُ يَسْبُرُ مِنْهُ مُنْتَهَى العُمُقِ

فهو يرى أن العقل مثل البحر المليء بالأسرار لذلك لابد من سبر أغواره عن طريق التفكير الجيد الإيجابي، والشعر من الموضوعات التي تستخدم هذا العقل وبذلك يكون - في رأيه - صالحاً لهذه المهمة حيث أن الشاعر يبحث عن أفضل المعاني والأفكار للتعبير عنها.

إلا أن ما أنار العقل البشري حقاً هو **كتاب الله تعالى** لمن قرأه وتأمله فهو الموصل إلى حقيقة الكون وإعجاز خالقه، يقول ابن الخطيب:[٢]

حَتَّى إِذَا أَنْزَلَ اللّٰهُ الكِتَابَ بِمَا أَنَارَ أَبْصَارَ أَرْبَابِ النُهَى وَجَلاَ

فالقرآن الكريم يجلو كل حقيقة، وهو كله دعوة لخير البشرية وصلاح حياتها. ومن هنا كان فضل المتعلمون على غيرهم، خاصة من يتعلمون ليفيدوا غيرهم فهم من يستحقون الثناء، وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[٣]

وَهَلْ يَسْتَوِي مُسْتَبْصِرٌ فِي يَقِينِهِ وَمُسْتَبْصِرُ فِي غَيِّهِ وَضَلاَلِه؟

ولذلك كان العلم مرادفاً للحضارة الإسلامية، ونشاطه يعنى رقيها الفكري والإنساني، فإذا ارتقى الفكر ازدهرت كافة نواحي الحضارة المادية الأخرى. لذا كان الاهتمام بالعلم ونشره وسيلة لبناء دولة قوية، وهذا ما حرص عليه حكام "بني نصر". بل إن بعضهم كان هو نفسه من عداد العلماء،[٤] وقد حرص ابن الخطيب على إبراز هذه العناية في شعره، وكانت أحد المحاور التي أدار عليها مدائحه، ومن ذلك قوله يمدح السلطان أبا الحجاج:[٥]

الحِلْمُ لَحْـــظٌ أَنْتُمُ أَجْفَانُهُ والعِلْمُ قَـــلْبٌ أَنْتُمُ أَنْوَارُهُ

وقال أيضاً:[٦]

وَشَهَدْتُ نُورَ اللّٰهِ لَيْسَ بِآفِـــلٍ والدِّينُ والدُنْيَا عَلَـــى تَرْتِيبِ

وَوَرَدْتُ بَحْرَ العِلَمِ يَقْـــذِفُ مَوْجُهُ لِلنَّاسِ مِنْ دُرَرِ الهُدَى بِضُرُوبِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٦٥.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٨٥.
[٤] مثل السلطان " محمد الثاني " الملقب بالفقيه، وكذلك "أبو الحجاج" كان من أهل العلم والأدب، انظر: ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص: ٧٥.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٧٣.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٣٠.

وبذلك يكون العلم النافع وسيلة الإنسان للارتقاء بفكره وإنسانيته وتحقيق معنى وجوده في هذه الأرض وقيامه بمهمة عمارتها بوعي وبصيرة. فقد أوجده الله للقيام بهذه المهمة، وبذلك يكون في قمة الكائنات الحية التي تعيش على وجه البسيطة.

وقد حفلت غرناطة في القرن الثامن الهجري بطائفة من أكبر العلماء وكان بعضهم من صناع القرار فيها كما هو شأن ابن الخطيب، وبذلك تمكنوا من دفعها إلى الأمام والارتقاء بها حضارياً.

وبهذا يكون ابن الخطيب قد سجل بشعره بعض مظاهر الحضارة الإنسانية في عصره، مثل التغني بالقيم الإسلامية الخلقية الرفيعة، والتعرف على دور العلم في دفع الإنسان إلى الارتقاء بإنسانيته وإدراك الهدف من وجوده في الأرض، فهو لم يخلق عبثاً ولم يترك سُدىً، وإنما خُلق مهيئاً للاستخلاف عن الله في عمارة الأرض. كما عرض ابن الخطيب لبعض صور التعامل الإنساني بين الحاكم وشعبه في مملكة غرناطة.

يتبين من ذلك أن مملكة غرناطة قد ارتقت إنسانياً عندما أحيا حكامها رسوم الشريعة الإسلامية، ورفعوا الظلم وأقاموا حق الجهاد في سبيل الله. فنتج عن ذلك مجتمع تميز برقي الأخلاق وحرية الفكر والعدالة، وتسوده روح التعاون والمحبة، فأثمر ذلك الرقي الإنساني الازدهار في كافة النواحي الأخرى المادية والعمرانية، ... وغيرها.

❖ ❖ ❖

المبحث الثاني

مظاهر الحضارة الفكرية

- مظاهر الحضارة الفكرية:

ما إن ظهرت رسالة الإسلام الخالدة حتى حضت على الأخذ بأسباب الحضارة والرقي الحضاري يتضح ذلك لمن يتفهم الآيات القرآنية ويتدبرها هي والأحاديث النبوية الشريفة.

ولما كان العلم هو الوسيلة الأولى لبناء صرح الحضارة الإسلامية بناءً واقعياً في كل مجال من مجالاتها، وجدنا الإسلام يهيئ لكل ما يلزم لدفع المسلمين صغارهم وكبارهم إلى طلب العلم.

لقد اهتم أهل الأندلس منذ وقت مبكر بالعلم، وقد أكد ذلك "ابن خلدون" وهو معاصر لابن الخطيب – حيث امتدح أهل الأندلس وذكر (أن لهم من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم).[١] حتى أصبحت من أعظم مفاخر قرطبة قاعدة الأمويين شهرتها بالعلم، كما ذكر "ابن سعيد"[٢] فكانت عاصمة العلم في أوربا والغرب الإسلامي يؤمها العلماء والطلاب من المشرق والمغرب، وتتنوع فيها الدروس والمحاضرات في جو من الحرية والتسامح.[٣]

وهذا المبحث يهدف إلى التعرف على **مظاهر الحضارة الفكرية** في مملكة غرناطة إبان القرن الثامن الهجري كما تجلت في شعر ابن الخطيب للتعرف على مدى تقدمها. لأن التقدم العلمي هو من مظاهر الحضارة وآثارها اللازمة، وذلك لحاجة أهل الحضر إليه، ولأنه أحياناً من عوائد الترف وحب الاطلاع والثقافة، وعلى قدر استحكام الحضارة وازدهارها تزدهر العلوم لأنها – في رأي ابن خلدون – من جملة الصنائع، التي إنما تكثر في الأمصار بحسب نسبتها من الحضارة والترف.[٤]

واستناداً إلى رأي "ابن خلدون" تكون مملكة غرناطة قد بلغت في القرن الثامن الهجري قمة الازدهار الفكري، لاستحكام الحضارة فيها.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار الفكر، بيروت، (د. ت)، ص: ٨٨.
(٢) انظر: ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م : ٧٥/١. وقد نقله عنه المقري في نفح الطيب: ٤٦٢/١.
(٣) انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء: ٢٠٠/١ – ٢٠٣.
(٤) انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٣٤.

١. المؤسسات التعليمية:

إن بداية التحصيل العلمي كانت في **الكُتَّاب** حيث يجتمع الصبية حول المعلم ويبدأ بتعليمهم القراءة والكتابة. وقد ذكر ابن الخطيب الكُتَّاب في شعره عندما قال:[١]

تَذَكَّرْتُ عَهْداً لِلشَّبَابِ الَّذِي وَلَّى فَصَابَ لَهُ تَسْكَابُ دَمْعِيَ وانْهَلاَّ
وَمِمَا شَجَانِي أَنْ مَرَرْتُ بِمَكْتَبٍ فَهَيَّجَ وَجْدِي لِلزَّمَانِ الَّذِي وَلَّى
بَعِيدٌ عَنْ الأَبْصَارِ سَامٍ مَكَانُهُ فَلِلَّهِ مَا أَبْهَى وللّهِ مَا أَعْلَى
خَمِيلَةُ ذِكْرٍ جَادَهَا وَاكِفُ الهُدَى فَمِنْ حِكْمةٍ تُرْوَى وَمِن آيةٍ تُتْلَى

فهذه الأبيات تفيض بمشاعر الحنين إلى أيام الصِّبا وذلك عند مروره بأحد المكاتب، وهذا يدل على أن ابن الخطيب قد تلقى تعليمه الأولي – شأنه شأن جميع المتعلمين في ذلك الوقت – في الكُتّاب. ونلحظ في الأبيات الدلالة على سمو منزلة هذا الكتاب فهو مكان لنشر العلم والمعرفة، حيث يعلم الأستاذ الأطفال القراءة والكتابة، مع الاهتمام بتجويد الخط، والعناية برواية الشعر والترسل وحفظ قوانين العربية، مما يساعدهم على مواجهة العلوم المتقدمة.[٢]

والملحوظ أن البيت الأخير يؤيد ما ذكره "ابن خلدون" عن طريقة تعليم الأطفال في الأندلس، حيث أن الدراسة لا تركز على تعليم القرآن فقط بل شملت أيضاً الشعر، ولا شك أن هذا الحرص والاهتمام بإنشاء الكتاتيب، هو من آثار الحضارة التي جعلت الاهتمام بالتعليم يشمل جميع المستويات العمرية لأفراد المجتمع حتى الصغار منهم.

وإلى جانب الكتاتيب كانت **مساجد** غرناطة مراكز علمية لتحفيظ القرآن الكريم ودراسة العلم بمختلف تخصصاته المعروفة آنذاك، وبرغم هذا الدور الكبير الذي تؤديه تلك المساجد، لم نلحظ في شعر ابن الخطيب إشارة إلى هذا الدور التعليمي لها، وقد يكون ذلك بسبب بناء **المدرسة** في غرناطة،[٣] فقد أشاد ابن الخطيب بهذه المنشأة في قصيدة نقشت على جدرانها ومنها:[٤]

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٦٧.
[٢] انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص: ٥٣٨.
[٣] عرفت بالمدرسة اليوسفية نسبة إلى بانيها السلطان " أبو الحجاج يوسف"، وقد تم بناؤها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري سنة (٧٥٠ هـ) كما عرفت بالمدرسة " العلمية " أو " مدرسة غرناطة ". انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٥٠٨/١ – ٥٠٩.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٠.

أَلاَ هَكَذَا تُبْنَى المدَارِسُ لِلْعِلْمِ وَتَبْقَى عُهُودُ المجْدِ ثَابِتَةُ الرَّسْمِ
فَيَا ظَاعِناً لِلعِلْمِ يَطْلُبُ رِحْلَةً كُفِيتَ اعْتِرَاضَ البِيدِ أَوْ لُجَجَ اليَمِّ
بِبَابِي حُطَّ الرَّحْلَ لاَ تَنْوِ وِجْهَةً فَقَدْ فُزْتَ فِي حَالِ الإِقَامةِ بالغُنْمِ

ونلمح في الأبيات مظهراً من مظاهر الحضارة الفكرية، والعمرانية أيضاً – فبناء هذه المدرسة يعد إنجازاً خدم العلم وأهله، إذ كفاهم عناء الرحلة في سبيل طلب العلم ونلحظ في البيت الثاني الواقعية في شعر ابن الخطيب حيث دل على حرص الأندلسيين على طلب العلم من مصادره رغم أنه لا سبيل للاتصال بالمشرق إلا عن طريق ركوب البحر.[1]

وهذه المدرسة تدل على الرقي الحضاري الذي وصلت إليه مملكة غرناطة في ذلك الوقت لأنها أول مدرسة بمعناها التقليدي أنشئت في الأندلس. وقد ذاع صيتها بفضل ما تهيأ لها من عناية حكام المملكة النصرية، وبفضل من عمل بها من أعلام الفكر والأدب. وبذلك تمكن طلاب العلم من تحصيل العلم داخل المملكة، ولم يعودوا بحاجة إلى تحمل مشاق الرحلة عن طريق البحر، أو الصحاري من أجل العلم والمعرفة.

كما أشاد ابن الخطيب **بالأساتذة** الذين تولوا التدريس في هذه المدرسة التي كانت بمثابة الجامعة، ونوه بمكانتهم المرموقة حيث قال:[2]

فَكَمْ مِنْ شِهَابٍ فِي سَمَائِيَ ثَاقِبٍ وَمِنْ هَالَةٍ دَارَتْ عَلَى قَمَرٍ تِمِّ
يَفِيضُونَ مِنْ نُورٍ مُبِينٍ إِلَى هُدَىً وَمِنْ حِكْمَةٍ تَجْلُو القُلُوبَ إِلَى حُكْمُ

فهو يشيد بفضلهم وعلمهم، ويشير في البيت الثاني إلى مختلف العلوم الدينية والأدبية التي كانت تدرس في هذه المدرسة. ويلفت القارئ في البيت الأول جمال التصوير الذي أعلى من شأن هؤلاء العلماء وجعلهم كالشهب الثاقبة التي تلمع في السماء. كما صورهم في حلقاتهم العلمية ومن حولهم طلابهم بالقمر الذي أحاطت به هالة الضوء، وهو يلمح بذلك إلى أن العلم مثل النور الذي يبدد ظلمة الجهل.

---

(1) انظر: المقري: نفح الطيب: ٥/٢، وما بعدها، حيث عقد الباب الخامس كاملاً في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق.
(2) ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٠ – ٥٧١.

وقد حازت هذه القصيدة التي نظمها ابن الخطيب على إعجاب السلطان، فأمر بكتابتها على جدران المدرسة تقديراً للقصيدة وتخليداً لها بنقشها على هذا البناء وهذا ولاشك **مظهر حضاري** يدل على تقدير الشعر الحسن. مثل المعلقات التي علقت على أستار الكعبة لحسنها. ومن جهة أخرى يدل على التقدم المعماري والتفنن في زخرفة المباني وتجميلها بإبداعات الشعراء المميزين لتبقى شاهدة على الفن المعماري والتقدم العلمي، ما بقى هذا البناء.

٢. أدوات التعلم:

مما يلفت النظر في الحضارة الأندلسية – في جميع مراحلها التاريخية – الاهتمام المتميز **بالكتاب**. ومما يؤكد هذا الأمر التفات ابن الخطيب للكتاب الذي هو آلة العلم اللازمة، واهتمامه بوصفه، ووصف كل ما يتعلق به في عدة مقطوعات، ومنها قوله:[١]

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي فُصُولِ العَامِ حَاضِرَةٌ بِهِنَّ تُتْحَفُ أَبْصَارٌ وأَسْمَاعُ
لَقُلْتُ وَرْدٌ مِنَ الأَيْدِي لَهَا شَجَرٌ وَمِنْ أَنَامِلِهُنَّ الخَمْسُ أَقْمَاعُ

ففي البيتين وصف ابن الخطيب كتاباً لونه أحمر. ويستوقف الباحث هنا وصفه للكتاب بكلمة (ورد) مما يدل على لونه الأحمر. وهذا في الواقع هو لون الكتب أو الرسائل السلطانية التي كانت تخرج من ديوان الإنشاء بقلعة الحمراء، لأن سلاطين هذه المملكة اتخذوا من اللون الأحمر شعاراً لهم حتى في لون الورق الذي يكتبون عليه رسائلهم الديوانية[٢]. وهذا اللون كان موحياً لابن الخطيب بهذه الصورة الجميلة صورة الورد عندما تمسكه الأيدي، فيبدو وكأنه الورد على أغصانه.

وقال – أيضاً – مداعباً أحد أصحابه:[٣]

وَمُولَعٌ بالْكُتْبِ يَبْتَاعُهَا بِأَرْخَصِ السَّوْمِ وَأَغْلاهُ
فِي نِصْفِ "الاسْتِذْكَارِ" أَعْطَيْتُهُ مُخْتَصَرَ "العَيْنِ" فَأَرْضَاهُ[٤]

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٦٦.
[٢] انظر: ابن خلدون: المقدمة: ٢٦٤.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٤٦.
[٤] كتاب (الاستذكار) هو اختصار لكتاب (التمهيد) لأبي عمر يوسف بن عبد البر، وهو مصنف في الحديث ذكره ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس. انظر: المقري: نفح الطيب: ١٦٩/٣ – ١٧٠.

فهذين البيتين وإن كان طابعهما هو الفكاهة، والمداعبة، إلا أنهما يبرزان سمة في المجتمع الغرناطي وهي الاهتمام بالقراءة وحب الإطلاع واقتناء الكتب حتى أنهم كانوا يتبارون في هذا العصر بامتلاك المكتبات الخاصة[١].

والملاحظ أن ابن الخطيب لم يغفل أمراً من الأمور التي تتعلق بالكتب إلا ذكرها. مثل **ملزم الكتب** الذي كان يحفظ الكتب وكراسات الكتابة من التلف، حيث قال:[٢]

يَا حُسْنَهُ مِنْ مِلْـــــــــزَم آثَارُهُ بِذَوِي الوِرَاقَـــةِ أَحْسَنُ الآثَارِ
وَكَأَنَّما الكُرَّاسُ طِرْف أَشْهَبٌ شَدُّوا عَلَى شَفَتَيهِ عُودَ الزِّيارِ[٣]

فهذا الملزم عبارة عن أداة (مركبة من خشبتين مشدودة أوساطها بحديدة تجعل في طرفها قنّاحة[٤] فتلزم الأداة فيها لزوماً)[٥]. وقد شبه الكتاب داخل هذا الملزم عند قفله بالجواد الأصيل الذي شُد على شفتيه بالحبل، وهي صورة مستوحاة من البيئة المحيطة به. وتدل على الإحساس بأهمية الكتاب وقيمته العالية، فكان هذا من الحرص عليه والرغبة في حفظه من التلف.

ولم يقف الأمر عند حد المحافظة على سلامة الكتاب من التلف بل امتد هذا الاهتمام إلى المحتوى أيضاً. وذلك بواسطة **الختم** عليه، كقول ابن الخطيب:[٦]

الخَتْمُ يُحْفَظُ مَضْمُونُ الكِتَابِ بِهِ وَهْوَ الدَلِيلُ عَلَى مَضْمُونِ عِزَّتِهِ
قُفْلٌ مِنْ الشَّمْعِ يَثْنِـــي العَيْنَ هَيْبَتُهُ فَضْلاً عَنْ اليَدِ أَنْ تَدْنُو لِحَوْزَتِهِ

يتضح من البيتين فائدة الختم فهو يحفظ الكتاب من الإطلاع عليه، وذلك لا يكون لكل كتاب أو رسالة وإنما يدل البيتان على أنها كتب أو رسائل سلطانية. وقد بيّن ابن الخطيب نوع هذا الختم وذكر أنه من الشمع مما يوحي بهيبة هذا المكتوب حتى أن العين لا تنظر عليه من هيبة هذا الختم.

---

(١) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٢٧٩/٢.
(٢) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٣٦.
(٣) الزيار: حبل تشد به شفتا البهيمة إذا استصعبت، لتذل وتنقاد، وكل شيء كان صلاحاً لشيء وعصمة فهو " زيار ". انظر: ابن منظور: لسان العرب ٣٩١/٤. مادة (زير).
(٤) القناحة: مفتاح معوج طويل.
(٥) ابن منظور: لسان العرب: ٦٤٢/١٢. مادة (لزم).
(٦) ديوان ابن الخطيب، ص: ١٧٣.

وقد بلغ ابن الخطيب حداً من الدقة بحيث أنه وصف **خاتم الشمع** نفسه عندما قال:[١]

قُلْتُ لماَّ أَتَى الكِتَابُ بِعُنْوا ... نٍ رَأَيتُ العُيونَ تَقْصِدُ قَصْدَهْ
طَبَقٌ مِنْ أَزَاهِـــرٍ رَائِقاتٍ ... سَقَطتْ فَوْقَهُ مِنْ الخَتْمِ وَرْدَهْ

فقد شبه هذا الكتاب المتميز بطبق مليء بالزهور وقد سقطت فوقه وردة، وما هذه الوردة إلا قفل الشمع الذي ختم به عليها.

ولم يغفل ابن الخطيب **الأقلام** فهي الأداة الأساسية المعبرة عن التعليم ومن الأمثلة على ذلك قوله:[٢]

أَقْلاَمُنَا الوَاسِطِيَّهْ ... ذَوَابِلٌ خَـــطِّيَهْ
مَصْـــرُوفَةٍ لِجِهَادٍ ... وَحِكْمَةٍ وَعَطِيَّهْ

وابن الخطيب يؤكد على أهمية الأقلام وما تؤديه من دور في يد الكاتب حتى أنه شبهها بالرماح القوية. لأن لها دوراً هاماً في الحث على الجهاد في حالة الحرب، أو النصح وتوجيه الحِكم، أو منح الأعطيات في حالة السلم. وغير ذلك من أمور يكلف الكاتب بالتعبير عنها في مختلف الأوقات والظروف.

ليس هذا فحسب بل إن القلم هو وسيلة تدوين السير والآثار والمنجزات لتبقى على مدار الأيام، كما قال ابن الخطيب:[٣]

هَلْ كَانَ لِلسَّفَّاحِ والمنْصُورِ ... والمهْدِيِّ مِنْ ذِكْرٍ عَلَى الإِطْلاَقِ
أو لِلرَّشِيدِ ولِلأَمِينِ وَصِنْوِهِ ... لَوْلاَ شَبَاةُ[٤] يَرَاعِـــــةِ الوَرَّاقِ

وهنا تبرز قيمة الأدباء والكتاب الذين يخلدون حضارة الدول (فيد الدولة التي لا تكون لها هذه الأقلام يد شلاّء يبترُها التاريخ، ولا يصفها إلا بالعجز وسوء التعلق، والمغالبة على الوجود بغير حق)[٥].

وكان وضع القلم في المحبرة قد أوحى لابن الخطيب بصورة طريفة حيث قال[٦]:

مَا رَأَتْ عَيْنِي عَـجِيباً ... كَيَراعِي في الدَّوَاةِ
غَائِصاً يَسْتَخْرِجُ الدُّرَّ ... بِبَحْـــرِ الظُلماتِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٢٤.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٨٢.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٠٢.
[٤] الشباة (بفتح الشين) حد السنان ونحوه، واليراعة أو اليراع هو القلم.
[٥] مصطفي صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، الطبعة الثانية، دار العربي، بيروت، ١٩٧٤م : ١٧٩/٣.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٧٩.

وبالرغم مما توحى به الصورة من فخر ابن الخطيب واعتزازه بذاته وبإنتاجه الأدبي إلا أنها – حقا – صورة جميلة. فهذا المداد الذي تمتلئ به المحبرة أشبه ما يكون ببحر الظلمات الذي يحوي كنوزاً من الدُّر تكمن في أعماقه حتى يستخرجها الغواص، وهو القلم. وما تلك الدُّرر إلا ما يدونه القلم من علم نافع ومعرفة كان هذا البحر بخضمه الواسع – وهو فكر الكاتب – مداداً له. ونلحظ في البيتين إشارة طريفة في هذا التصوير، وهي البراعة في التقاط وجه الشبه بين لون الحبر الداكن وبين اسم بحر الظلمات، وبذلك يلعب عنصر اللون دوراً هاماً في سبيل إخراج هذه الصورة الحضارية.

ولاشك أن الالتفات إلى مثل هذه الأشياء، والاهتمام بوصفها يعكس بوضوح ذوق مجتمع متعلم، قارئ. كما أن اهتمام ابن الخطيب بوصف هذه الأشياء بدقة لا يدعوا إلى التعجب – فتلك بضاعته – فهو كاتب الدولة وقد استخدم جميع هذه الأدوات التي عنى بوصفها، إلى جانب أنه مؤلف له الكثير من المصنفات في شتى العلوم والفنون، مما يعكس ازدهار سوق مهنة الوراقة وتجارة الكتب. وذلك من أعظم الدلائل على التحضر الفكري الذي وصل إليه المجتمع الغرناطي.

٣. الازدهار العلمي:

من اللافت للنظر في شعر ابن الخطيب القصائد التي وجهها إلى العديد من الشخصيات البارزة في ذلك العصر في مجال الشعر والنثر والتاريخ والعلوم... وغيرها. فكان يمدحهم بما تفوقوا فيه من العلوم، ويشيد بمؤلفاتهم.

ومن العلماء المبرزين في مجال العلوم الشرعية الفقيه **"أبو الفضل عياض اليحصبي"**[١] مؤلف كتاب (الشفا في التعريف بحقوق المصطفى). وقد أشاد ابن الخطيب بهذا الكتاب بقوله[٢]:

"شِفَاءُ عِيَاض" للنُّفُوسِ شِفَاء ... فَلَيْس بفضل قد حَوَاهُ خَفَاءُ
وَفِي لِنَبِيِّ اللّهِ حَقَّ وَفَائِهِ ... وَأكْرَمُ أَوْصَافُ الكِرَامِ وَفَاءُ
هُوَ الأَثَرُ المحْمُودُ لَيْسَ يَنَالُهُ ... دُثُورُ ولاَ يُخْشَى عَلَيْهِ عَفَاءُ
حَرِصْتُ عَلَى الإِطنَابِ في نَشْرِ فَضْلِهِ ... وَتَمْجِيدِهِ لَوْ سَاعَدتْنِيَ فَاءُ

---

[١] هو عياض بن موسى اليحصبي السبتي ولد بسبتة سنة (٤٧٦ هـ) وتوفى بمراكش (٥٤٤) انظر: أحمد بن يحى الضَّبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: تحقيق: د. روحية السويفي الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م ، ص: ٣٨٣ – ٣٨٤. أيضاً: محمد بن عبد الله القضاعي ابن الأبار ": المعجم في أصحاب الإمام القاضي أبي علي الصدفي، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص: ٢٩٤ – ٢٩٨.

[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٩٩ – ١٠٠.

فهو ينوه بفضل هذا الكتاب وقيمته العلمية لاسيما وأن موضوعه هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ويؤكد على أن خير ما يمكن أن يتركه الإنسان بعد حياته هو العلم النافع، فهو الأثر الذي لا يمكن أن يفنى مهما طال به الزمن. ولاشك أن هذه الرؤية تدل على الفكر المستنير بفضل الحضارة التي جعلت العلم والثقافة سمة لهذا المجتمع.

وقد كانت مكانة هذا المؤلف "القاضي عياض" وموضوع الكتاب سبباً لذيوع شهرته بين أوساط المثقفين في العدوتين. ومن هنا كان حرص ابن الخطيب على الإشادة بقيمته شعراً.

وقال - أيضاً -: [١]

يَا نَاقِلَ الآثَارِ يُعْنَـــــــى بِهَا ... وَوَاصِلاً فِـــي العِلْمِ سَيْرَ الجَـمُوحْ
كَفَاكَ إِعْجَازاً كِتَاب "الشِّفَا" ... وَالصُّبْحُ لاَ يُنْكَرُ عِنْدَ الوُضُـــوحْ
رَوْضٌ مِنْ العِلْم هَمَى فَـــــوقَهُ ... مِنْ صَيِّبِ الفِكْرِ الغَمَامُ السَّفُوحْ

إنها الحضارة التي تجعل التميز بالعلم والتأليف محوراً للمدح في هذه الأبيات التي امتزج فيها الفكر الواعي بالطبيعة الخلابة فالعلم روض يانع تتعدد فيه أنواع النباتات المزهرة بعد أن سقاه الغمام، وما ذلك الروض إلا كتاب " الشفا " بكل ما يحويه من علم مفيد كان جنى هذا الفكر الخصب.

كما نوه ابن الخطيب – أيضاً – بقيمة شرح " أبي عبد الله بن مرزوق "[٢] لكتاب "الشفا" فقال[٣]:

يَا مَنْ لَهُ الفَخْرُ عَلَى غَـــــيْرِهِ ... وَالشُّهْبُ تَخْفَى عِنْد إِشْرَاقِ يُـوحْ[٤]
يَا خَيْرَ مَشْرُوحٍ وَفَى وَاكْتَفَى ... مِنْهُ "ابنَ مَرْزُوقٍ" بِخَـــيْرِ الشُّرُوحْ
فَتُـــــــــحٌ مِنْ اللّهِ حَـــبَاهُ بِهِ ... وَمِنْ جَـنَابِ اللّهِ تَأْتِي الفُـــــتُوحْ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٣٨.
[٢] هو محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني، ولد بتلمسان سنة (٧١١ هـ) وتوفى بالقاهرة سنة (٧٨١هـ) انظر: المقري: نفح الطيب: ٣٩٠/٥، وما بعدها، إسماعيل البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين طبعة مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥٥م: ١٧٠/٢.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٣٩.
[٤] يوح: الشمس.

ويتضح من البيت الثاني كثرة العلماء الذين تعرضوا لشرح كتاب (الشفا)[١]. إلا أن " ابن مرزوق " قد فاق غيره. وفي ذلك ما يدل على نشاط الحركة العلمية في هذا العصر.

وقال أيضاً:[٢]

سَدَّدَ اللّهُ "ابْنَ مَـــرْزُو ... قٍ" إِلَى تِلْكَ المرَاضِـــــي
زُبْدَةُ العِرْفَانِ مَعْنَـــى ... كُـــــلُّ نُسْكٍ وارْتِيَاضِ
فَتَوَلَّى بَسْطَ مَا أَجْمَلْتَ ... مِنْ غَـــــــيْرِ انْقِـــبَاضِ
سَاهِراً لَمْ يَدْرِ فِـــــي ... اسْتِخْلاَصِهِ طَعْمَ اغْتِمَاضِ

ونلحظ في البيتين الثالث والرابع توضيحاً للجهود التي بذلها " ابن مرزوق " في شرحه لكتاب (الشفا) حيث وضَّح وفصّل كل ما جاء مجملاً في الكتاب حتى كان أفضل الشروح التي تناولته.

وقد بلغ من إعجاب ابن الخطيب بهذا الشرح أن أفرد له ثلاث قصائد في ديوانه نوه فيها بالكتاب وشرحه. وهو لم يحفل بكتاب آخر احتفاله بهذا الشرح. وقد يكون لذلك إلى جانب قيمة الكتاب وموضوعه سبب آخر، هو العلاقة بين ابن الخطيب وابن مرزوق، فهو أستاذه وصديقه.

وقد مدح ابن الخطيب الإمام **" مالك بن أنس "** ومن ذلك قوله:[٣]

كَفَاهُ فَضْلاً أَنِ امْتَاحَتْ مَعَارِفُـــهُ ... مِنْ هَائِلِ اليَمِّ لاَ يُدْرَى بِمِقْـــــيَاسِ
بَحْرُ العُلومِ الَّذِي مِنْ دُونِهِ وَكَفَتْ ... خُلْجَانُ عِلْمٍ، وَمَا فِي الحَقِّ مِنْ بَاسِ
وَإِنْ تُنُوزِعَـــتِ العَـــلْيَاءُ وَادُّعِيَتْ ... "لِمَالِكُ" مِلْكُـــــــهَا مِنْ غَيْرِ إِلْبَاسِ

فهو لم يكتفِ بمدح أهل بلاده ومعاصريه بل مدح من يستحق المدح لعلمه كالإمام "مالك"، ومما هو معروف أن أهل الأندلس كانوا في الفقه على مذهب الإمام مالك[٤].

---

[١] مثل شرح عبد الباقي اليماني المخزومي المسمى (الاكتفاء في شرح غريب الشفا للقاضي عياض). وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض) تحقيق سمير القاضي، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨م. أيضاً: محمد بن عبد الرحمن السخاوي (الانتهاض في ختم الشفا لعياض) تحقيق: عبد اللطيف بن محمد الجيلاني، طبعة دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠١م.

[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٤٤.

[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٣٦.

[٤] انظر: المقري: نفح الطيب: ٢٢١/١.

ومما سبق نلحظ من مدح ابن الخطيب لهؤلاء العلماء مدى الاهتمام بالعلوم الشرعية في ذلك العصر، وإن لم تكن جميعها بنفس النسبة من الاهتمام، باستثناء (الفقه) وذلك بسبب الحاجة إليه في ميادين الحياة المختلفة التي لا تفتأ تستجد بالكثير من الأمور والأوضاع التي تحتاج إلى أحكام تضبطها من مصادر الشرع.

وقد شهد عصر ابن الخطيب موجة قوية من **الزهد والتصوف**[١] في أوساط العامة والخاصة، فكثر الزهاد والنساك والمتصوفون. وقد ظهر في هذا العصر عدة مؤلفات في هذا العلم[٢]، كما نظم ابن الخطيب على طريقتهم بعض قصائده[٣]، كقوله:[٤]

لِلَّهِ إِخْـــوَانُ الصَّفَـاءِ[٥] فَإِنَّهُـــمْ سَلَكُوا الطَّرِيقَ الوَاضِحَ المِنْهَاجِ
حَتَّى إِذَا كَادَتْ سِمَاتُ طَرِيقِهِمْ تَخْفَى بِكُـلِّ مُمَوِّهٍ وَمدَاجِـــي
نَادَتْ هَلُمُّوا جَدِّدُوا عَهْدَ الرِّضَى أَيَّامَ مَـوْلاَنَا " أَبِـــي الحَجَّاجِ "

ومن خلال الأبيات نلحظ تأييد السلطان " أبو الحجاج " لهؤلاء المتصوفة وعطفه عليهم. وقد ذكر ابن الخطيب في هذه القصيدة أشهر أعلام الصوفية بطريقة نلحظ فيها الإعجاب بهم. كما أنها تحتوي على بعض الأبيات التي أسرف فيها وبعد عن جادة الدين الإسلامي لا مجال لذكرها في البحث.

وقد شهد هذا العصر ازدهاراً في **علم التاريخ**، كما نلحظ عند ابن الخطيب الذي كان مؤرخاً لهذا العصر وما سبقه من أحداث تاريخية في الأندلس – وغيرها – ومن مصنفاته في هذا العلم (الإحاطة في أخبار غرناطة) وكتاب (طرفة العصر في دولة بني نصر)، الذي أهداه إلى سلطان غرناطة، وجعل هذا الإهداء شعراً، ومنه قوله:[٦]

رَأَيْتُ هَدَايَا الأَرْضِ دُونَكَ قَـــدْرُها فَأَهْدَيْتُكَ العِلْمَ الَّذِي جَلَّ قَـــدْرُهُ
عُيُوناً مِنْ الأَخْـــبَارِ والأَدَبِ الَّذِي تَضَـــوَّعَ مَسْـــرَاهُ وَأَيْنَعَ زَهْـــرُهُ
فَدُونَكَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ كُـــلَّ رَائِقٍ يَطِيبُ عَلَى التَّرْدَادِ والعَوْدِ ذِكْرُهُ
وَسَمَّيْتُها مِنْ بَعْدِ مَا أَسْأَلُ الرِّضَى لَهَا "طُرْفَةُ العَصْرِ" الَّذِي بِكَ فَخْرُهُ

---

(١) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٥٩/١، وما بعدها.
(٢) مثل كتاب: (المقاليد الوجودية في أسرار إشارات الصوفية) لأبي الحسن الششتري، وكتاب (بغية السالك في أشرف المسالك) لأبي عبد الله محمد الأنصاري الساحلي، وكتاب (روضة التعريف بالحب الشريف) لابن الخطيب، انظر ابن الخطيب، الإحاطة: ١٩٣/٣ – ٤/ ٢٠٧ – ٤٥٩.
(٣) انظر: ديوان ابن الخطيب، ص: ١٩٨ – ٢٠٣ – ٥٤٩ – ٥٥٢.
(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٠١.
(٥) إخوان الصفاء، يقصد المتصوفة.
(٦) ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٨٨.

ويلفت القارئ طرافة المعنى في البيت الأول حيث جعل جميع الهدايا التي يقدمها الناس – مهما بلغت قيمتها – أقل قدراً مما أهداه لسلطانه، فقد أهداه العلم، وهذا يدل على الاهتمام العظيم بالعلم عند الأندلسيين ورفعة قدره عندهم. وقد ذكر ابن الخطيب في هذا الإهداء مضمون الكتاب، حيث جمع فيه أخباراً ومواقف مرت على سلاطين هذه المملكة، صيغت بأسلوب أدبي يصلح للمسامرة في مجالس السلطان. كما نص في إهدائه على اسم هذا المؤلَّف، وهو من كتبه المفقودة الآن. وفي ذلك ما يبرز القيمة التوثيقية للنص الشعري في بعض الأحيان. كما يدل على حرص ابن الخطيب على التعريف بنتاجه الفكري، وهو ما جعل أغلب مؤلفاته معروفة.

وقال بعد تأليفه لكتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) وقد قلبت له الأيام ظهر مجنها، وتعرض للمحن: [١]

جَزَتْنِي "غَـرْنَاطَةٌ" بَعْـدَمَا جَلَوْتُ مَحَـاسِنَهَا بِالجَـلاَ
وَلَمْ أَجْنِ ذَنْباً سَوَى أَنَّنِـي صَدَعْتُ بِأَمْدَاحِهَا فِي المَـلاَ
وَأَنِّيَ صَنَّفْتُ فِيهَا الغَرِيبَ فَصِرْتُ الغَرِيبَ أَجُوبُ الفَلاَ

فقد صرح من خلال الأبيات أنه ألف في غرناطة الكتب، ونظم الشعر في مدحها.

وكانت **علوم اللغة والأدب** قد حظيت بعناية وإقبال الكثيرون من علماء وأدباء، وقد أشاد ابن الخطيب بفضل الشعر في مواضع متعددة من ديوانه، ومنها قوله:[٢]

أَمَوْلاَيَ إِنَّ الشِّعْرَ دِيوَانَ حِكْـمَةٍ يُفِيدُ الغِنَى والعِزَّ والجَاهَ مُذْ كَانَا
وقد وُجِدَ المخْتَارُ فِي الحَفْلِ مُنْصِتاً لَهُ وَحَـبَا "كَعْباً" عَلَيْه و "حَسَّانَا"[٣]
وإِنْ قِـيلَ "قَدْرُ المرْءِ مَا هُوَ مُحْسِنٌ" فَصَـنْعَةُ نَظْمِ القَوْلِ أَرْفَعُهُ شَانَا

فهو يؤكد على قيمة الشعر الرفيعة وجعله خير وأشرف ما يمكن أن يتحلى به المرء ويتقنه. وفي البيت الأخير لمحة حضارية تجلت في الإشارة إلى الأمثال العربية[٤]. وفي ذلك دلالة على العلم والثقافة.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٧٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٩ – ٥٨٠.
[٣] يقصد كعب بن زهير رضي الله عنه صحابي جليل وشاعر من أهل نجد اشتهر في الجاهلية، وقد هجا الرسول صلى الله عليه وسلم فأهدر دمه فجاءه كعب مستأمناً وأنشد لاميته المشهورة توفى سنة (٢٦هـ)، أما حسان فهو أبو الوليد حسان بن ثابت، شاعر النبي وأحد المخضرمين توفى سنة (٥٤هـ). انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام. الطبعة الثانية عشرة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧م: ١٤٤/٨، ١٨٨/٢.
[٤] إشارة إلى المثل القائل (قيمة كل امرئ ما يحسنه) وهو مما ينسب لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – انظر: أبا الفضل أحمد بن محمد الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٧م: ٥٣/٤.

وقال – أيضاً :[١]

وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ بِالشِّعْرِ يَعْتَنِي وَكَمْ حُجَّةٍ فِي شِعْرِ "كَعبٍ" "وحَسَّانِ"

ونلحظ في هذا البيت – وفي المثال السابق أيضاً – ذكره لشاعر مهيمن للرسول صلى الله عليه وسلم، أحدهما شاعر الرسول الأول "حسان بن ثابت"، والآخر شاعر لا يقل عنه وهو "كعب بن زهير"، مما يدل على معرفته بالشخصيات الإسلامية التي اشتهرت بنتاجها الأدبي على مر العصور. كما أن التركيز على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استمع إليه يدل على جواز الشعر ورفعة قدره وأن منه ما يكون له دور فعال في النصح والتوجيه، أو الدعوة لبعض الأمور أو التنفير والتحذير منها.

وقال – أيضاً – مفتخراً :[٢]

وَلَسْتُ كَمَنْ يَعْتَدُّ بِالشِّعْرِ مَكْسَباً هُبِلْتُ رَضِيعَ المجْدِ إِنْ كَانَ مِنْ كَسْبِي

فهو يفخر باحترام فنه الشعري، والبعد عن نظمه طلباً للمنح والعطايا. وهذا مما يدل على تقدير الشعر، واستشعار مكانته الرفيعة. وقد ترفع كثير من شعراء هذا العصر عن التكسب بشعرهم إذ إن كثيراً منهم كانوا من الوزراء والكتاب.

ومما يلفت النظر في ديوان ابن الخطيب مدح البعض بالإجادة والتميز في هذا الباب سواءً في الشعر أو البيان والفصاحة. ومن ذلك قوله[٣] في مدح (ابن الحكيم):[٤]

نَطَقْتَ فَحُزْتَ الحُكْمَ فَصْلاً خَطَابُهُ يُقَلَّبُ مِنْ وَشْيِ البَلاَغَةِ فِـــي عَصْبِ[٥]

وَمَنْ كَـ"أَبِي بَكْرٍ" عَمِيدَاً مُـــؤَمَّلاً خُلاَصَةُ شِعْبِ العِلْمِ نَاهِيكَ مِنْ شِعْبِ

سُلاَلَةُ أَعْلاَمٍ، وَفَـــــرْعُ مَكَـارِمٍ بِهِمْ فَلَكُ العَلْيَاءَ دَارَ عَلَـــى قُطْـبِ

وَهَزُّوا فُـــرُوعَ العِلْمِ وَهْـــيَ بَوَاسِقٌ فَلِلَّهِ مَا حَـــازُوهُ مِنْ رُطَبٍ رَطْـــبِ

فهو يمدحه بالإجادة في فنه، وقد تكون هذه الأبيات من **النوادر**، حيث قل أن يمدح الشخص منافساً له في المهنة. وفي البيت الثالث مدحه بأنه سليل أسرة اشتهرت بالفضل والعلم والطب وهذا دليل على كثرة العلماء وازدهار العلم في هذا العصر.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٩٤.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١١٨.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ١١٦.
[٤] هو الوزير أبو بكر ابن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، ولد سنة (٦٦٥هـ) وتوفى سنة (٧٥٠هـ) انظر: ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة. تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م، ص: ١٧٥.
[٥] العصب ضرب من برود اليمن، سمي عصباً لأن غزله يعصب أي يدرج ثم يصبغ ويحاك فيأتي موشياً لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ. انظر: ابن منظور: لسان العرب: ٧٠٦/١.

ولاشك أن هذه الأبيات قد اشتملت على العديد من اللمحات الحضارية تجلت أولاً في الموضوع ذاته وهو مدح أحد الأدباء، وفي تشبيه بلاغته التي ميزت أسلوبه بأرقى وأجمل المنتجات الحضارية وهي الثياب الموشاة، كذلك الاقتباس من القرآن الكريم الذي نلحظه في البيت الأخير.[١]

إلا أن مدح ابن الخطيب لكل أديب بليغ يقصر عن مدحه لأستاذه "ابن الجيّاب" رئيس ديوان الإنشاء في مملكة غرناطة، وشيخ العدوتين في النظم والنثر كما وصفه "ابن خلدون"[٢] فكان يمدحه غالباً بالتقدم في ميدان الأدب، فضلاً عن ما تحلى به من كريم السجايا. ومن ذلك قوله:[٣]

وَأَزْهَرَ فَضْفَاضُ الـــرِّدَاءِ إِذَا احْتَبَى بِسُـــدَّةٍ نَادٍ أَوْ قَـــــــرَارَةِ مَجْلِسِ
يُرِيكَ حِجَى "لُقْمَانَ" فِي حِلْمِ "أَحْنَفٍ" وَمَنْطِقُ قُسٍّ تَحْتَ حِكْمَةِ هُرْمُسِ[٤]

فهو يقرر له الصدارة أنى حل من المجالس أو النوادي، فليس له منازع. ومما يلفت النظر هنا تعداد ابن الخطيب لحكماء العرب وغيرهم من "لقمان والأحنف بن قيس، وقس بن ساعدة وهرمس" وذلك يعكس بوضوح حضارة فكرية متقدمة.

والملاحظ على شعر ابن الخطيب في هذا الباب **الأدب الجم الذي يتعامل فيه الطالب مع أستاذه،** فثمار الحضارة تؤتي أكلها حلواً في تهذيب سلوك الطالب، الذي مهما علا شأنه فإنه يبقى لمعلمه حق عليه.

ومن الأمثلة التي تعكس هذا **التعامل الحضاري** بين الطالب وأستاذه قول ابن الخطيب مخاطباً "ابن الجياب":[٥]

وَتَوخَّنِي بِالعُذْرِ إِنَّ قَرِيحَتِي كَالضَّرْعِ جَفَّ وَشَحَّ مِمَّا يُحْلَبُ

فابن الخطيب على علو كعبه في هذا المجال إلا انه يصف نفسه بالعجز أمام مقام أستاذه ، وعلمه وفنه العظيم .

ومثله قوله:[٦]

أَبَا حَسَنٍ خُذْهَا مُجَاجَةَ شَاعِرٍ فَصِيحٍ مَتَى رَامَ امْتَدَاحَكَ يَخْرَسِ

وهذا التعامل المتحضر هو من التقدير للعلم وحملته في هذه المدة التي ازدهرت فكريا ، حتى أن التفوق العلمي أو التأخر فيه أصبح محورا للمدح والذم.

---

(١) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ سورة مريم، آية: ٢٥.
(٢) انظر: ابن خلدون: كتاب العبر: ٣٩٤/٧.
(٣) ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٣٦ – ٧٣٧.
(٤) هرمس هو أبو الحكماء.
(٥) ديوان ابن الخطيب، ص: ١١٠.
(٦) ديوان بن الخطيب، ص: ٧٣٧.

ويتضح من ذلك أكثر في وصفه لقصيدة بعثها أستاذه "أبو الحسن بن الجياب" حيث قال:[١]

وَبِكْـــرٍ تَثَنَّى مِنْكَ تَلْعَبُ بِالنُّهَى ... وَتَرْفُلُ تِيهاً فِـــي غُـــــلاَلَةِ سُنْدُسِ
كَمَا ابْتَسَمَ الزَّهْرُ الجَنِيُّ بِرَوْضَةٍ ... وَرَفَّ الحيَا مِنَ فَـــوْقِ وَرْدٍ وَنَرْجِـــسِ
أَلَذُّ عَلَى الأَسْمَاعِ مِنْ صَوْتِ مِزْهَرٍ ... وَأَعْـــــذَبُ فِي الأَفْوَاهِ مِنْ رِيقِ أَلْعَسِ

فهو يصفها بأجمل ما أتاحته له الحضارة الأندلسية، حيث شبهها بالبكر التي تختال في ثياب الحرير النفيسة، فبدت مثل الزهر في روضة مطيرة. والقصيدة في الأسماع ألذ من النغم، وأعذب من الشفاه الجميلة.

وقال – أيضاً – رداً على قصيدة بعث بها إليه "أبو القاسم الحسني":[٢]

أَتَتْنِـــي مِنْكَ زَائِـــرَةٌ ... يَقُـــودُ هَـــدِيَّهَا الأَدَبُ
زَرَتْ "بِابْنِ الحُسَيْنِ" فَمَا ... لَهُ فِي الحُسْنِ مُنْتَسَبُ
تَعَالَى اللّهُ مَنْ يَهَـــــبُ ... الكَمَالَ وَنِعْمَ مَا يَهَبُ
تُغَازِلُنِـــــي مَعَـــانِيهَا ... فَتُسْـــــفِرُ ثُمَّ تَنْتَقِبُ

وفي الأبيات السابقة نلحظ تميز هذا "الحسنى" بعلو الشأن في مجال الأدب حتى أن قصيدته تزري بقصائد "ابن الحسين" (المتنبي) وتنفي أي حسن لها. ويلفت النظر في البيت الأخير هذه الصورة الجميلة التي شخصت معاني هذه القصيدة بالفتاة الجميلة التي تنتقب بعد سفورها وفي ذلك ما يعكس جانباً من حضارة هذا المجتمع – ليبين أن قصيدة "الحسنى" لم تسلمه معانيها مباشرة وإنما احتاج إلى إعمال عقلة للكشف عن معانيها. ولاشك أن هذا المرسل يدرك تماماً أن ابن الخطيب عالم مثله، لذلك أرسل له ما يناسبه. لاسيما أن سفينة الأدب تجمعهما سوياً. وفي هذا الباب نذكر قول ابن الخطيب:[٣]

قَالُوا وَقَدْ عَظُمَتْ مَبَرَّةُ "خَالِدٍ"[٤] ... قَارِي الضُّيُوفَ بِطَارِفٍ وَبِتَالِدِ
مَاذَا تَمُتُّ بِهِ؟ فَجِئْتُ بِحُـجَّةٍ ... قَطَعَتْ بِكُـلِّ مُجَادِلٍ ومُجَالِدِ
إِنْ يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّـفُ بَيْنَنَا ... أَدَبٌ أَقَـــــمْنَاهُ مَقَامَ الوَالِدِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٣٧.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٤. والمقصود هو أبو القاسم محمد بن أحمد الحسني الشهير بالشريف الغرناطي.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٦١.
[٤] هو خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي، من أهل قنتورية، تولى منصب القضاء فيها انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١/٥٠٠ – ٥٠٣.

ما أجمل وما أرقى هذه الرابطة، إنها رابطة العلم والأدب، فالعلم رحمٌ بين أهله. فخالد هذا وإن أبعده النسب، فقد اقترب من ابن الخطيب بقربة وعلاقة عظيمة، وهي العلم.

ولم يقتصر الخطاب على هؤلاء، وإنما غيرهم كثير. وتبادل هذه القصائد وغيرها، بين الأدباء يدفعهم إلى التنافس والإجادة، وذلك يدل على سوق نشطة للأدب والفنون. ومن الشواهد التي تدل على ذلك قصيدة ابن الخطيب التي وجهها إلى اثنين من أصدقائه وصفهما بالفاضلين **للتحكيم** بينهما في مكاتبة مفتتحة ببعض الأبيات ومما جاء فيها قوله:[١]

بَارَكْ عَلَيْهَا بِذِكْـــرِ اللّهِ مِنْ قِصَصِ ... وَاذْكُرْ بِهَا مَا أَتَى فِي سُـــورَةِ "القَصَصِ"
حَيْثُ اغْتَدَى السِّحْرِ يَلْهُو بِالعُقُولِ وَقَدْ ... أَجَالَ بَيْنَ حِـــــبَالِ كَـــــيْدِهِ وَعِصِي
عَقَائِل[٢] العَقْلِ والسِّحْرُ الحَـلاَلَ ثَوَتْ ... مِنْ كَافِلِ الصَّوْنِ بَعْدَ الكَوْنِ حِجْرَ وَصِي
إِنْ قَالَ حُكْـــمِيَ فِيهَا بِالسَّوَاءِ فَقَدْ ... أَمِنْتُ مَا يَحْذَرُ القَاضِـــــي مِنْ الغُصَصِ

فهذه الأبيات تعكس مدى التحضر الفكري في هذا العصر، حيث نلحظ فيها لمحات حضارية متعددة منها الإشارة إلى سورة القصص في القرآن الكريم، ليلمح بذلك إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه عندما انتصر الحق على الباطل وبطل كيد الساحر الذي يخيل للناظرين الأوهام. ليبين أن هذه المكاتبات ساحرة، ولكنه – السحر – الحلال – (وإن من البيان لسحراً)[٣]. كما أن قيام ابن الخطيب بنقد هذا النتاج الأدبي، واختيار الأفضل منهما يدل على حراك ثقافي نشط وذلك وجه مشرق للحضارة. كما أن تشبيه هذه المكاتبات بالعقائل يدل على قيمتها الأدبية الرفيعة. ومع ذلك فقد التزم ابن الخطيب الحياد، وكان حكمه مرضياً لكلا الطرفين، فلم يرجح أحدهما فكلاهما قد أحسن وأجاد.

وقال أيضاً مثنياً على أحد المؤلفين:[٤]

وَحَـــــــــيّ يَراعُكَ مِنْ آيةٍ ... فَقَدْ حَرَكَ القَوْمَ بَعْدَ السُّكُونْ
دَعَوْتَ لِخِـدْمَةِ (مُوسَى) عَصَاهُ ... فَجَـــــاءَتْ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونْ
فَأَذْعَنَ مِنْ يَدَّعِي السِّحْرَ رَغْماً ... وَأَسْلَمَ مِنْ أَجْلِهَا المُشْرِكُـــونَ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٣٤ – ٦٣٥.
[٢] العقائل، جمع عقيلة وهي المرأة الكريمة النفيسة.
[٣] انظر: الإمام الترمذي: سنن الترمذي: ٢١٤/٣.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٠١. وهذا المؤلف هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن خلدون الحضرمي، مؤرخ ولد بتونس، وسكن فاس، واستكتبه السلطان أبو زيان، قتل بتلمسان. ومن آثاره (بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشامخة الأطواد). انظر: الزركلي: الأعلام: ٢١١/٩. (وقد ورّى ابن الخطيب باسم السلطان "موسى أبي حمّو" في الأبيات السابقة).

ونلحظ من خلال الأبيات سوقاً نشطة للتأليف والتواصل بين العلماء، وذلك يدل على حضارة فكرية مزدهرة، كما أن ذكر اليراع الذي حرك الناس يدل على قيمة هذا الكاتب الذي كان له دور فعال في تنشيط الجو الفكري في المجتمع الذي عاش فيه. كذلك كانت التورية في البيت الثاني بالنبي موسى وعصاه حيث ورى بهما عن السلطان "أبي حمو موسى "وعن قلم الكاتب وذلك لاشتراك الاسمين ولا شك أن هذه التورية تدل على مدى بلاغة هذا الكاتب الساحرة، وتلك لمحة حضارية واضحة.

وتتضح الحضارة في شعر ابن الخطيب بوضوح في مدحه من أجاد وأبدع وأعجبه من العلماء أو الأدباء، بل إنه تطرق إلى موضوع آخر حضاري مهم جداً. يشغل الناس اليوم، في حين أن ابن الخطيب قد تطرق إليه منذ زمن بعيد وهو موضوع **السرقة الأدبية**، **وحقوق المؤلف**. حيث قال:[١]

خَلِيلَـــيَّ إِنْ يُلْفَ اجْتِمَاع بِخَالدٍ فَقُولاَ لَهُ قَـــوْلاً وَلَنْ تَعْدُوا الحَقّا
سَرَقْتَ "العِمَادَ الأَصْبَهَانِيَّ" بَرْقَهُ[٢] وَمَاذَا تَرَى فِي شَـاعِرٍ سَرَقَ البَرْقَا

فهو يقرر أن "خالداً البلوي" قد تعدى على حقوق أحد المؤلفين بالسرقة الأدبية. وهو لم يلمح بالأمر وإنما ذكره صراحة وذكر اسم المؤلِّف الذي سرق منه كتابه. وفي ذلك ما يدل على أهمية هذا الأمر وأنه تجاوز غير مقبول. ويؤكد في الوقت نفسه أن حقوق التأليف كانت محترمة عندهم، بدليل التعريض بمن اعتدى على نتاج غيره. وذلك **مظهر حضاري عظيم.**

وإذا كان **التفوق في العلم وإجادته سبباً لرفع مقام صاحبه** ومدحه . فكذلك كان التقصير فيه من أسباب التعريض بهذا الشخص . ومن الشواهد على ذلك قول ابن الخطيب[٣] في رجل اسمه " يحيى "[٤]:

لاَ اتِّبَاعاً وَلاَ اخْـــتِرَاعاً أَرَتْنَا إِذْ نَظَرْنَا عَرُوسُـــك المجْلُوَّهْ
كُـــلُّ مَا قُلْتَهُ فَقَدْ قَالَهُ النَّا سُ مَقَـــــــالاً آياتُهُ مَتْلُوّهْ
لَمْ تَزِدْ غَيْرَ أَنْ أَبَحْتَ حِمَـــى الإِعْرَابِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ مَقْرُوّهْ
وَعَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ كُنْتَ "يَحْيَى" ثُمَّ لَمْ تَأْخُذِ الكِـــتَابَ بِقُوّةْ[٥]

---

[١] ديوان ابن الخطيب. ص: ٧١٥.
[٢] هو محمد الأصبهاني، العماد أبو عبد الله (٥١٩ – ٥٩٧ هـ) انظر ترجمته في: عمر رضا كحاله: معجم المؤلفين، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م – ٢٤٩/٨.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٥٦.
[٤] هو يحيي بن إبراهيم ين يحيي البرغواطي، من أهل أنفا (الدار البيضاء) من بيت عمال يعرفون ببني الترجمان. توفى سنة (٧٦٨ هـ) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٢٧/٤ وما بعدها.
[٥] فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ سورة مريم، آية (١٢).

فهو ينتقد الكتاب الذي ألفه " يحيى " ويسمه بعدم الجدّه، حيث لم يأتِ بجديد وإنما هو تكرار لما ذُكر قبله، إلى جانب وقوعه في الكثير من الأخطاء النحوية، ثم يبدي أسفه بتعبير جميل اقتبسه من القران الكريم ووظف فيه اسم هذا المؤلف لأنه لم يتمكن من إتقان صنعته .

ولا شك أن النقد في المثالين السابقين – لخالدٍ ويحيى – يعكس **روح النقد الموضوعي** الصحيحة التي تميز بها ابن الخطيب، كما يدل على الحضارة الفكرية، التي كانت سمة لهذا المجتمع حيث يُمدح الرجل ويذم لتفوقه أو لقصوره في العلم .

وقد كانت الحضارة التي نعم بها المجتمع الغرناطي عاملاً هاماً في ازدهار **فن الموشحات**، وقد كان ابن الخطيب أشهر من نظم الموشحات في ذلك العصر حيث انتهت إليه رئاسة هذا الفن[١]. ومن الأمثلة على هذا الفن الموشحة التي نظمها ابن الخطيب للسلطان "محمد الخامس"، ومطلعها[٢]:

جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمَى يَا زَمانَ الوَصْـــــلِ بِالأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُـــــنْ وَصْلُكَ إِلاَّ حُلُمَا فِي الكَرَى أَوْ خِلْسَةَ المخْتَلِسِ

فهذا الموشح مكون من قسمين، وقد يتكون من ثلاثة أقسام كما نلحظ في قوله:[٣]

بَدَائِعُ البَهْجَةْ وَنُزْهَةُ الخَاطِرْ وَجَـنَّةُ الخُلدِ
وَرَاحَةُ القَلْبِ وَبُغْيَةُ النَّاظِـرْ فِي ذَلِكَ الخَدِّ

وقد ذكر "ابن خلدون" أن أهل الأندلس بعد أن كثر الشعر عندهم (وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً، يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً)[٤]. وهذا يؤكد أنه فن استدعاه الترف والحضارة في الأندلس بحيث تساعد أوزانه المختلفة وقوافيه المتعددة على التلحين والغناء.

---

[١] انظر: المقري: نفح الطيب: ٥/٧.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٩٢.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٨٦.
[٤] ابن خلدون: المقدمة، ص: ٥٨٣.

وما يلفت الانتباه في شعر ابن الخطيب أن هذه العلوم اللغوية والفنون الأدبية، قد بلغت من الرواج والازدهار إلى حد استعمال ألفاظها ومصطلحاتها في مختلف الأغراض الشعرية. ومن الشواهد التي تمثل ذلك قول ابن الخطيب في الغزل:[١]

فَأَنْتَ إِلَى قَلْبِي أَلَذُّ مِنْ الْمُنَى وَأَشْهَى إِلَى نَفْسِي مِنَ النَّهْيِ والأَمْرِ

وقوله – أيضاً – في المدح:[٢]

وَكَمْ صَرَفَ التَّأْمِيل نَحْوَكَ آمِلٌ فَصَيَّرْتَهُ بِالعَدْلِ مُمْتَنِعَ الصَّـــرْفِ

ونلحظ في البيتين استعماله لبعض **المصطلحات النحوية** من النهي والأمر والمنع من الصرف، في أسلوب خلا من تكلف هذه المصطلحات، حيث جاءت متناسبة مع السياق.

وقال في قصيدة أخرى يمدح فيها أحد السلاطين بالشجاعة والإقدام، ويصف جواده قائلاً:[٣]

وَمُلْتَفِتٌ عَنْ حُدْوَتَيْنِ إِذَا هَوَى أَو انْقَضَّ قُلْتَ: الشُّهْبُ يَقْدُمُهَا الرَّجْمُ

إِذَا ضَـمَّ أَبْطَالَ الهِيَاجِ مُعَانِقاً فَكَمْ مُفْرَدٍ أَوْدَى عَلاَمَتُهُ الضَـــمُّ

وفي البيت الثاني استخدم بعض المصطلحات النحوية وهي الإفراد، والضم.

ولم يقتصر تأثير الحضارة في شعر ابن الخطيب على علم النحو بل تطرق لعلوم العربية الأخرى. مثل **البلاغة** كما في قوله:[٤]

مَجَازُ المعَانِي الغُرِّ فِيكَ حَقِيقَةٌ وَحُبُّكَ فَرْضٌ فِي العَقَائِدِ وَاجِبُ

ونلحظ في هذا البيت توظيف ابن الخطيب للمصطلحات البلاغية – والشرعية أيضاً – في مدحه، في قوله (مجاز وحقيقة وفرض وواجب) حيث جعل ممدوحه من نبل الأخلاق والسجايا في مرتبة رفيعة قل أن تجتمع في شخص واحد. ومثله قوله:[٥]

شَكَرْتُ مَخِيلَةً كَانَتْ مَجَازاً لَكُمْ وَحَصَلْتُ بَعْدُ عَلَى الحَقِيقَهْ

وكذلك تطرق ابن الخطيب **لعلم العروض**، كما يظهر في قوله:[٦]

وَرَاءَكُـــمُ عَمَّا أَرَدْتُمْ فَإِنَّها لَدَائِرَةٌ فِي الرَّأْيِ دَاخَلَها الخَـرْمُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٩٢.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٧٦.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٤٥.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٠.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٦.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٤٥.

ونلحظ في هذا البيت استخدام مصطلحات العروض ليدل على أن النصر حليف ممدوحه، ومن رأى غير ذلك فرأيه غير صحيح. وقد ذكر **الدائرة العروضية** وهي اصطلاح أطلقه "الخليل بن أحمد" على عدد معين من البحور يجمع بينها التشابه في المقاطع – أي الأسباب والأوتاد[١] – كما ذكر الخرْم وهو (حذف أول متحرك من الوتد المجموع في أول البيت)[٢].

ويلي علوم اللغة والأدب في هذا العصر **العلوم العقلية** حيث نشطت نشاطاً ملحوظاً، ولاسيما علم الطب، ونلحظ في شعر ابن الخطيب ما يدل على ذلك. مثل الإهداء الذي قدم فيه مؤلفه الطبي (**عمل من طب لمن حب**) للسلطان "أبي عنان المريني" وهو كتاب ضخم يتكون من قسمين، الأول: يصف فيه الأمراض العضوية والثاني يصف فيه الأمراض التي لا تخص عضواً معيناً مثل الحميات وغيرها[٣]، ومما جاء في إهداء الكتاب قول ابن الخطيب:[٤]

لَمَّا رَأَيْتُ الأَرْضَ دُونَكَ قَدْرُهَا ... وَرَأَيْتُ حَقَّكَ آخذًا بِعِنَانِي

أَهْدَيْتُكَ العِلْمَ الَّذِي بِقَبُولِهِ ... كَتَبَ الإِلَهُ مَزِيَّةَ الإِنْسَانِ

وَاخْتَرْتُ فَنَّ الطِبِّ مِنْهُ لِقَوْلِهِ ... "العِلْمُ – فِيمَا خَرَّجُوا – عِلْمَانِ"

فَالعِلْمُ بِالأَدْيَانِ عَلْمٌ أَوَّلٌ ... وَالعِلْمُ بِالأَبْدَانِ عِلْمٌ ثَانِي

وَخَصَصْتُهُ لَكَ بِالعِلاَجِ لِكَوْنِهِ ... يُحْتَاجُ دُونَ سِوَاهُ كُلَّ زَمَانِ

وفي هذه الأبيات يؤكد ابن الخطيب – مرة أخرى – قيمة العلم العظيمة، التي تجعله أنسب ما يمكن إهداءه إلى مقام العظماء. وفي البيت الثالث نلحظ تعليل الشاعر لاختياره علم الطب دون غيره ليكون مجال الإهداء لهذا السلطان. مستنداً بذلك إلى نص شرعي من السنة النبوية.[٥] ضمنه أبياته يجعل علم الطب من أهم فروع العلوم بعد العلم الشرعي، كما أنه العلم المفيد للإنسان في كل وقت وهو أهم ما يمكن أن يحتاجه

---

(١) انظر: ابن الخطيب التبريزي: الكافي في العروض والقوافي. تحقيق: محمد أحمد قاسم، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص: ١٦.

(٢) التبريزي: الكافي في العروض والقوافي. ص: ١١٠. علي بن محمد الجرجاني: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الإبياري، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٢م، ص: ٨٤.

(٣) من مؤلفات ابن الخطيب – أيضاً – في الطب، (مقنعة السائل في المرض الهائل) وقد وصف فيه أعراض الطاعون. كذلك كتاب (الوصول إلى حفظ الصحة في الفصول). و (اليوسفي في الطب) و (رجز الطب) و (رسالة تكوين الجنين)، نظر: ترجمة ابن الخطيب الذاتية: الإحاطة: ٤٥٩/٤. د. محمد العربي الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م: ٣٤/١ و. د. أحمد عبد الرازق: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (العلوم العقلية)، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: ١٤٠ – ١٤١.

(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٩٥.

(٥) انظر: أ. ي. وينيسنك: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، طبعة مكتبة بريل، ليدن، ١٩٣٦م: ٣٣٠/٤.

المرء في حياته. وفي هذا البيت تصنيف واضح للعلوم فهناك علم الأديان وعلم الأبدان، ومثل هذه التصنيفات لا تتضح إلا مع تطور الحضارة واستقرارها.

كما وردت الإشارة في شعر ابن الخطيب إلى **بعض الطرق التي يستخدمها الأطباء في العلاج** وذلك مثل **التداوي بالرقية الشرعية**، كقوله في الوعظ: [١]

أَعُشَّاقَ غَيْرِ الوَاحِدِ الأَحَدِ البَاقِي جُنُونُكُمُ واللّهِ أَعْيَا عَلَى الرَّاقِي

ويتضح من هذا البيت استعمال الرقية في علاج بعض الأمراض النفسية. وفي علاج حالات أخرى منها ما يدل عليه قوله:[٢]

يَا نَسِيمَ الصَّبَا عَلَى الأَوْرَاقِ لُدِغَتْ مُهْجَتِي فَهَلْ مِنْ رَاقِي؟!

حيث يدل البيت على أن اللديغ كان يعالج بالرقية الشرعية، والراقي هو مستعمل هذه الرقية.

وقال – أيضاً – في وصف أحد الرياض الحضارية:[٣]

كَأَنَّ عَلِيلَ النَّرْجِسِ اهْتَاجَ دَاؤُهُ وَقَدْ قَعَدَتْ تَبْكِيهِ سَاجِعَةُ الوُرْقِ

وَقَدْ أَشْفَقَ الغَيْمُ الظَّلِيلُ لِمَا بِهِ فَتَنْفُثُ فِيهِ سُحْبُهُ والصَّبَا تَرْقِي

وفي هذين البيتين نلحظ إشارة لطريقة الرقية على المريض – وهي الطريقة الصحيحة – حيث يقوم الراقي بالنفث مع القراءة. ويستوقف القارئ هذه الصورة الحضارية الجميلة القائمة على تشخيص جميع عناصرها، فالنرجس قد اشتد به المرض والحمام تبكيه، حتى الغيوم تبدي تعاطفها وتنفث عليه قطرات المطر. والصبا ترقيه. وهو مشهد يعج بالحركة. وفيه نوع من الطرافة في التعبير.

كما وردت الإشارة في شعر ابن الخطيب إلى طريقة أخرى يتمكن فيها الطبيب من التشخيص وتقديم العلاج المناسب، حيث قال:[٤]

إِذَا لَمِسْتُه بِالبَنَانِ تَخَـــــالُها طَبِيباً مِنْ الحُذَّاقِ جَسَّ عَلَى نَبْضِ

وَتُدْنِي إِلَيْهِ السَّمْعَ تُصْغِي كَأَنَّهُ يُحَقِّقُ قَدْرَ البَسْطِ فِيهِ مِنَ القَبْضِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٠٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧١٤.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٤.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٣٩.

وفي هذين البيتين رسم ابن الخطيب صورة حضارية تمثلت في وصف قينة كانت تغني على العود وقد شبهها بمهارتها العالية في التعامل مع الأوتار بصورة الطبيب الحاذق الذي يجس نبض المريض ولا يكتفي بذلك بل يمعن أكثر في الدقة ويحاول أن يدني سمعه ليسمع النبض جيداً. ولا شك أن التداوي بهذه الطريقة هو نتاج حضارة متقدمة.[١]

كما وردت الإشارة في شعر ابن الخطيب إلى بعض **أسماء الأدوية والأعشاب الطبية** التي كانت تستعمل في التداوي، ومن الأمثلة على ذلك قوله[٢]:

هُوَ اللّهُ يَبْلُوا النَّاسَ بِالخَيْرِ فِتْنَةً وَبِالشَّرِّ، والأَيَّامُ سُمٌّ وَتَرْيَاقُ

حيث ذكر **الترياق** وهو دواء السموم. ليدل على أن حال الإنسان لا تدوم فكل يوم له شأن.

وقال – أيضاً – في رثاء أحد الكتاب:[٣]

مَنْ لِلْيَرَاعُ يُجِيلُ مِنْ خَطِّيِّها سُمَّ العِدَى ومَفَاتِحُ الأَرْزَاقِ
قُضْبٌ ذَوَابِلُ مُثْمِرَاتٌ بِالمنَى وَأَرَاقِـــمٌ يَنْفُثْنَ بِالتَّرْيَاقِ

يتضح من خلال البيتين الشأن العظيم الذي كان لهذا الفقيد، يدل على ذلك تشبيه يراعه بالسهام المسددة التي لا تخطئ أهدافها، كما تدل على صدور كتاباته في حالتي السلم والحرب. فكانت للأعداء مثل السم القاتل، وللشعب مثل البلسم الشافي، ومن عجب أن يكون الكتاب محتوياً على السم وترياقه في آن واحد، وهذا يدل على اختلاف الموضوعات. كما يدل على مهارة فكرية في التقاط وجه الشبه بين الأرقم وهي الحيات التي فيها سواد وبياض وبين كتبه التي يكتب فيها بسواد المداد على طروسها البيضاء. ولاشك أنه تشبيه صادر عن بيئة الحضارة والفكر.

وقد أشار ابن الخطيب في شعره إلى نوع من **الأعشاب التي يتداوى بها** في قوله:[٤]

إِنِّي وَإِنْ كُـــنْتُ ذَا اعْتِلاَلٍ رَثَّ القُـــــوَى بَيِّنَ الهُزَالِ
فِي "عَارِضِ التَّيْسِ" لِي شِفَاءٌ فَكَيْفَ فِي عَارِضِ الغَزَالِ؟!

فهو يذكر عشبه طبية تسمى " **لحية التيس** " والملاحظ أنها تستعمل لعلاج بعض الأعراض كالضعف العام والإحساس بوهن القوى. ويلفت النظر في البيت الثاني هذه التورية الطبية حيث يشير فيها إلى أن رؤيته للمحبوبة – الغزال – هو شفاء كل سقم يعانيه.

---

[١] ذكر ابن خلدون أن علم الطب من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف. انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٩٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٨.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٠٩.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٠٩.

كما ذكر ابن الخطيب هذه العشبة الطبية في شعر آخر له حيث قال:[١]

أَلَمْ تَدْرِ أَنِّي عِلَّةَ البَطْنِ أَشْتَكِي وَيَنْفَعُ مِنْ يَشْكُو بِهَا "لِحْيَةُ التَّيْسِ"

فهو يصرح في هذا البيت بالمرض الذي تعالجه وهو آلام البطن.

وقال في شعر آخر، وقد ذكر فيه دواء يسمى " دم الأخوين":[٢]

بِإِسْمَاعِيل ثُمَّ أَخِيهِ قَيْسٍ تَأَذَّنَ لَيْلُ هَمِّيَ بِانْبِلاَجِ

"دَمُ الأَخَوَيْنِ" دَوَى جُرْحَ قَلْبِي وَعَالَجَنِي وَحَسْبُكَ مِنْ عِلاَجِ

ونلحظ من البيت أن هذه العشبة الطبية تستعمل في علاج الجروح، وقد ذكرها على سبيل التورية عندما خلصه الله ممن ثاروا على سلطانه "الغني بالله" الذين كان منهم أخوة "الأمير إسماعيل".

ومن خلال المثالين السابقين نلحظ أن ابن الخطيب أشار إلى بعض أنواع الأدوية على سبيل التورية. مستغلاً بعض خصائصها العلاجية لتوضيح أحواله أو بعض التجارب التي مر بها.

كما أشار ابن الخطيب إلى نوع من أنواع العلاج الذي يعتمد على بعض **الأشياء الطبيعية** التي تمتلك بعض الخواص الطبية، مثل **مياه العيون،**[٢] كقول ابن الخطيب:[٣]

انْظُرْ إِلَيْهِ شَبِيهَ مُعْجِزَةِ العَصَا مَاءٌ بِتَنْقِيَةِ المَثَانَةِ خُصِّصَا

فَإِذَا الطَّبِيبُ سَقَاهُ أَسْرَعَ نَجْحَهُ وَتَحَدَّثَ المَاءُ الزُّلاَلُ مَعَ الحَصَا

فهو يشير إلى خاصية هذا الماء النافع لحصى المثانة، وتأثيره العجيب عليها حتى أنه وصفه بالمعجزة. ومما يلفت النظر في هذين البيتين هو معرفة ابن الخطيب للأجزاء الداخلية لجسم الإنسان، مثل المثانة ودورها في تنقية الدم من الشوائب، ومعرفته بالحصوات التي قد تتكون بها. ولاشك أن هذه المعرفة الدقيقة لا تتأتي إلا بعد مرحلة طويلة من الحضارة.

ومما يتوقف عنده الباحث قول ابن الخطيب الذي داعب به أحد الأصحاب:[٤]

وَكَلِفْتَ بِالمَلُوكِ[٥] تُؤْثِرُ أَكْلَهُ أَبَداً وَتَرْفُضُ صِحَّةً ومِزَاجَا

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٣٤.

[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢١٣.

[٢] بعض العيون يكون لمياهها بعض الخواص الطبيعية، مثل عيون مدينة (بِجَّانة) في الأندلس، وعيون مدينة (المرَيَّة)، ومدينة (الحِمَّة) التي سميت بذلك نسبة إلى العين الحارة الموجودة فيها، ولعلها هي المقصودة بهذين البيتين: انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص: ٣٨، ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص: ١٠٣، ١٢٤.

[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٣٣.

[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢١٧- ٢١٨.

[٥] المملوك هو الخبز الذي ينضج تحت الملة، انظر: ديوان ابن الخطيب، ص: ٢١٧. ولم أعثر على هذا النوع من الطعام في كتاب (الطبيخ في المغرب والأندلس).

خَفَ مِنْ غِذَاءٍ غَيْر مُعْتَدِل القُوَى وَاحْذَرْ طَعَاماً يُفْسِدُ الأَمْشَاجَا[١]
والمرءُ مِنْ فَمِهِ يُصَـــابُ وَفَرْجِهِ فَيَعُودُ مَوْرِدُهُ الشَّـــرُوبُ أُجَاجَا

إن الحضارة في شعر ابن الخطيب لم تقتصر على الإشارة إلى العلاجات المختلفة بل تعدتها إلى مبدأ **الوقاية** وهو من المبادئ التي يركز عليها علم الطب في الوقت الحالي "فالوقاية خير من العلاج" ويتجلى ذلك في هذه النصيحة التي وجهها الشاعر إلى صاحبه يحذره من مغبة الخلط في الأكل وضرورة تناول الطعام الصحي المعتدل.

ومما سبق نلحظ حضارة فكرية رفيعة في مجال العلوم الطبية سواء في مجال التأليف أو التداوي والعلاج، وهذه الإشارات المتعددة التي سبقت الإشارة إليها في شعر ابن الخطيب، لا تدعو للاستغراب لأنه كان من أشهر الأطباء في عصر "بني الأحمر". وليس أدل على ذلك من مؤلفاته التي سبقت الإشارة إليها.

ويلفت النظر في شعر ابن الخطيب كثرة **المصطلحات والألفاظ العلمية الحسابية**، والفلكية والكيميائية ... وغيرها. ومن ذلك قوله:[٢]

لاَ عَدْلَ فِي المُلْكِ إلاَ وَهْوَ قَدْ نَصَبَهْ وَصَيَّرَ الخَلْقَ فِي مِيرَاثِهِ عَصَـبَهْ
وَالكَفَّتَانِ تُرَى مِنْ كَـــفِّه طُلِبَا أَنْ تُخْرِجَا العَدَدَ المجْهُول لِلطَّلَبَهْ

ونلحظ في هذين البيتين التورية العلمية بالألفاظ الحسابية حيث ورى بالكفتين اللتين يستخرج بهما العدد المجهول في مسائل الإرث، ليدل على نتائج **سياسة** السلطان التي كان العدل أعظم مظاهرها.

وقال – أيضاً – في مقدمة غزلية:[٣]

تَزْدَادُ أَشْوَاقِي إِذَا يَوْمٌ خَلاَ كَتَضاعُفِ الأَعْدَادِ بِالأَصْفَارِ

ومن خلال هذا البيت نلحظُ الطرافة في التعبير عن الشوق الذي يتضاعف في قلبه كما تتضاعف قيمة الأعداد وتزداد بتعدد الأصفار أمامها، وهو تعبير يعكس مدى **ازدهار** الحضارة ورواج الحركة العلمية آنذاك.

ومن الإشارات **الفلكية** قول ابن الخطيب في المدح:[٤]

فَأَيْمِنْ بِمَشْحُونٍ مِنْ الفُلْكِ سَابِحٍ لَهُ باختيار اللّه حـــــطٌّ وإيساقُ
فَخُطَّتْ لِتَقْوِيمِ القَوامِ جَـــدَاوِلٌ وَصَحَّتْ مِنْ التَّوْفِيقِ واليُمْنِ أَوْفَاقُ

---

[١] الأمشاج : الأخلاط، ومن البدن طبيعته التي يتركب منها مزاجه.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٤٢. انظر كذلك ص: ٣٣٧.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٦٨.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٨.

فهو يقرر أن هذا السلطان ميمون الطالع، وأن الله تعالى قد أرسله رحمة لشعبه الذي أثقلته الفتن والظلم، كما كان يظهر له في الجداول الفلكية والاوفاق وهي المربعات التي تقسم إلى خانات ترتب فيها الأرقام (وقد كذب المنجمون ولو صدقوا)[١].

وقال في قصيدة مدح بها السلطان " أبا حمّو "[٢]:

أَعْلَى "بَنِـــي زَيَّانَ" وَالفَذُّ الَّذِي لَبِسَ الكَـــمَالَ فَزَيَّنَ الملْبُوسَا
وَالسَّعْدُ يُغْنِي حُكْمُهُ عَنْ نَصْبَةٍ[٣] تَسْتَخْـــبِرُ التَّرْبِيـعَ والتَّسْدِيسَا[٤]

فهو يمدحه بأنه أفضل أبناء هذه الأسرة المالكة، وهو الأجدر بهذا المكان من غيره لأنه كامل الصفات ولاشك بفضله ويمنه على هذا الحكم، فكل ما هو فاعله ينبئ عن سلطان تحلى بأفضل الخصال التي يتطلع إليها شعبه. فلا حاجة إذن – حسب رأيه – لاستشراف الكواكب أو النجوم لمعرفته. ولاشك أن استعمال مثل هذه المصطلحات الفلكية في شعره يدل على رواج هذا العلم، مما يدل على حضارة علمية مزدهرة.

وقال ابن الخطيب – في القصيدة السابقة – مبيناً يمن هذا الحاكم وجوده الذي شمل رعيته، وأهل الأندلس أيضاً:[٥]

وَأَعْنَتَ أَنْدُلُساً بِكُلِّ سَبِيكَةٍ مَوْسُومَةٍ لاَ تَعْـــــرِفُ التَّدْلِيسَا
صَدَّقْتَ لِلآمَالِ صَنْعَةَ جَابِرٍ[٦] وَكَـفَيْتَها التَشْمِيعَ والتَّشْمِيسَا[٧]
وَالحَلَّ والتَّقْطِيرَ والتَّصْعِيدَ وَالتَّخْمِيرَ والتَّصْوِيلَ والتَّكْلِيسَا[٨]

ففي الأبيات السابقة يشير ابن الخطيب إلى أثر المساعدات التي قدمها السلطان "أبو حموّ" حاكم تلمسان للأندلس وأهلها، وكيف أنها بدلت الأحوال فيها. وكما يؤدي مزج بعض المواد ومعالجتها بطرق خاصة إلى تحولها لمواد أخرى، فكذلك أثر هذه

---

(١) انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٨٨ – ٤٨٩.
(٢) ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٢٤.
(٣) النصبة الفلكية: هي نظام شكل الفلك حينما يراد وضعه في وقت معين للدلالة على الحوادث، انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: ١٣٣/٢.
(٤) التربيع : أن يصير القمر على ربع الفلك. والتسديس أن يصير منه على سدس الفلك، انظر: محمد بن يوسف الخوارزمي: مفاتيح العلوم، الطبعة الثانية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص: ١٣٤.
(٥) ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٢٦.
(٦) هو أبو موسى جابر بن حيان الكوفي، فيلسوف كيميائي، من أهل الكوفة أصله من خراسان توفى في (طوس) سنة (٢٠٠هـ). من مؤلفاته: أسرار الكيمياء، وعلم الهيئة، وأصول الكيمياء، انظر: الزركلي: الأعلام: ٤/ ٢٣ - ٢٤.
(٧) التشميع: هو تليين الشيء وتصييره كالشمع، انظر: الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص: ١٥٠.
(٨) الحلّ: هو جعل المعقدات مثل الماء. والتقطير: هو مثل صنعة ما ء الورد وهو أن يوضع الشيء في الفرع ويوقد تحته فيصعد ماءه. والتصعيد: شبيه بالتقطير إلا أنه أكثر ما يستعمل في الأشياء اليابسة: **والتصويل**: أن يجعل الشيء الذي يرسب في الرطوبات طافياً، والتكليس: أن يجعل جسد في كيزان مطينة ويجعل في النار حتى يصير مثل الدقيق. انظر: الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص: ١٤٩ – ١٥٠. حيث ذكر كل هذه العمليات وفصلها.

المساعدات بدّل الأمر في الأندلس من حالٍ إلى حال بفضل اللّه ثم هذا السلطان الذي شبهه بأبي الكيمياء "جابر بن حيان". أيضاً ثمة إشارة تاريخية مهمة في هذه الأبيات وهي بيان طبيعة المساعدات التي قدمها السلطان " أبو حموّ " وأنها كانت مساعدات مادية فقط، ولم يشارك معهم في أية عمليات عسكرية كما هو شأن **" بني مرين "** . كما أن تعداد بعض العلميات الكيميائية في البيتين الثاني والثالث يدل على معرفتهم، وتقدمهم في هذا المجال، ولعل في معرفة الغرناطيين **لمدفع البارود**، ما يؤكد ذلك، حيث أشار له بقوله:[١]

وَأَرْسَلْتَ يَوْمَ السَّبْقِ كُلَّ طِمِرَّةٍ كَمَا تُرْسَلُ الْمُلْمُومَةُ النَّارُ والنِّفْطُ[٢]

لقد شبه **اندفاع الخيل** وقت السباق باندفاع شعلة النفط من المدفع ولاشك أنه تصوير حضاري حيث اعتمد في رسم صورته على إحدى المخترعات المتقدمة في ذلك الوقت.

ولم يقتصر ابن الخطيب في شعره على الإشارة لهذه العلوم فقط بل وصف بعض **الأجهزة أو الأدوات العلمية**،مثل ساعة **المنكان** التي أولاها اهتماماً كبيراً وأفراد لها في ديوانه عدة قصائد.[٣]

وقد أعطى ابن الخطيب وصفاً وافياً لهذه الساعة في كتابه (نفاضة الجراب)[٤] بين فيه أن هذا المنكان – أو ساعة الشمعة – مصنوع من الخشب، اسطواني الشكل مجوف من الداخل بطول قامة الإنسان، وفيه شمعة مقسمة بعدد ساعات الليل لأن هذا الاحتفال بالمولد النبوي كانت تقام مراسمه ليلاً، وتستمر حتى صلاة الفجر، وفي أسفله صحون نحاسية تسقط فيها كرة نحاسية، فتبرز رقعة فيها قصيدة بهذه الساعة التي انقضت، كقول ابن الخطيب:[٤]

مَوْلاَيَ لاَزِلْتَ فِي أَمَـانٍ سِتٌّ تَقَضَّتْ مِنْ الزَّمَانِ
كَأَنَّهَا العِقْدُ رَابَ مِنْهُ سُقُوطُ سِتّ مِنْ الجُمَانِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٠.
[٢] طمرة: الفرس الكريمة. ملمومة: كتيبة مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض.
[٣] انظر: ديوان ابن الخطيب، الصفحات التالية: ١٩٢ – ٢٠٣ – ٢٠٨ – ٣٨٣ – ٥٤٥ – ٥٥٩ – ٥٦٠ – ٦١٨ – ٦٤٥.
[٤] انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، الجزء الثالث، تحقيق د. السعدية فاغية، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م، ص: ٢٧٨ – ٢٧٩. أيضاً: ابا الحسن محمد بن جبير: الرحلة، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص: ٢١٨ – ٢١٩.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦١٨.

يتضح من خلال البيتين أن هذه القصيدة كتبت في الساعة السادسة أي بعد مرور ست ساعات من بدء الحفل، ويشيد فيها الشاعر بسلطانه الذي حرص على إقامة هذا الحفل. ويشبه ساعات الليل بعقد الجمان الذي انفرط سلكه وذهبت جواهره الستة تباعاً وبشكل سريع.

وقد كان السبب في اهتمام ابن الخطيب بوصف هذه الساعة، انتشار ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي في العدوتين منذ سنة (٦٩١ هـ)[١]. فكان هذا المنكان ينصب للإعلام بمضي ساعات الليل. وأصبح عادة متبعة عندهم.

كما نلحظ في شعر ابن الخطيب الإشارة إلى نوع آخر من **الساعات** أو المنكان وهو منكان **الرمل**[٢]، كقوله:[٣]

مِنْكَانَةُ الرَّمْلِ فِيهَا عِبْرَةٌ وَنُهى وَشَاهِدٌ أَنَّ كُلاًّ مُنْقَضٍ كَمَدى
لُبَابُ عُمْرِ الفَتَى يَجْرِي بِجَرْيَتِهَا كَأَنَّمَا العُمْرُ لَمَّا أَطْلِقَتْ قُصِداً

فهو يقرر أن العمر يجري وينقضي بانقضاء الساعات التي تمر ليلاً ونهاراً، ويقول في قصيدة أخرى:[٤]

تَأَمَّلِ الرَمْلَ فِي المنْكَان مُنْطَلِقاً يَجْرِي وَقَدَّرْهُ عُمْرَاً مِنْكَ مُنْتَهَباً
واللّهِ لَوْ كَانَ "وَادِي الرَّمْلِ"[٥] ينجده مَا طَالَ طَائِلُهُ إِلاَّ وَقَدْ ذَهَبَا

ومن الآلات التي أشار لها ابن الخطيب في شعره **البركار** أي **الفرجار**، وهو آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر[٦]. يحتاجها الرياضي والمهندس في عمله. وقد ذكره في قوله:[٧]

رَجَعْنَا بِحَوْلِ اللّهِ بَعْدَ اسْتِدَارَةٍ وَكِلْنَا بِهَا لِلأُنْسِ كَيْلَ اخْتِيارِهِ
كَمَا رَاجَعَ البِرْكَارُ مَفْرُوضَ نُقْطَةٍ مِنْ السَّطْحِ مِنْهَا كَانَ بَدْءُ مَدَارِهِ

لقد شبه رجوعه من جولة تفقديه للثغور إلى العاصمة غرناطة باستدارة البركار وعودته إلى النقطة التي بدأ منها. ولاشك أن هذا التصوير ناتج عن حضارة فكرية راقية.

---

(١) انظر: د. عبد الهادي التازي: لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي؟ مجلة دعوة الحق، العدد: ٢٧٧، ديسمبر ١٩٨٩م، ص: ٤٨.
(٢) قد تكون هي ذاتها الساعة الرملية، وهي عبارة عن (إناء زجاجي صغير يوضع على حامل من الخشب، والإناء على شكل كأسيين يتسرب الرمل الناعم من الكأس العلوي إلى السفلي أو بالعكس من خلال ثقب رفيع بينهما كل ٢٤ ساعة) انظر: د. شذى عدره: تاريخ الساعة، مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان: ١١٣ – ١١٤. السنة العاشرة، مارس – أبريل، ١٩٨٨م، ص: ٦٠.
(٣) ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٤٥.
(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ١٤٨.
(٥) (وادي الرمل) يطلق على الجبال الواقعة في شمال (مجريط) (مدريد) وكذلك على النهر الذي تقع عليه المدينة من فروع وادي (التاجة) انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص: ١٧٩ – ١٨٠.
(٦) انظر: د. لطف الله قاري: المؤلفات الهندسية التراثية في زخرفة المباني، مجلة الفيصل العدد، ٣٢٢، يونيو ٢٠٠٣، ص: ٧.
(٧) ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٧٧.

كما ذكر ابن الخطيب **"البوط"** وهي البوتقة فقال:[١]

وَمُدَرَّع يَنْسَابُ فِي مَنْبِتِ الخُوطِ تَفَيّأ مَثْوَى ظِلِّهِ كُلُّ مَغْـــبُوطِ
أَقَامَ شُعَاعُ الشَّمْسِ يَشْعَل فَوْقَهُ فَسَالَ لَهُ ذَوْبُ اللُّجَيْنِ مِنَ البُوطِ

وفي البيتين يصف ابن الخطيب أحد الأودية الخلابة، حيث تجري المياه الرقراقة بين البساتين التي أحاطت به، وقد صور انعكاس ضوء الشمس فوقه بتصوير حضاري لا يخلو من طرافة وابتكار بحيث صور المياه مثل الفضة التي أذابها شعاع الشمس فسالت من البوتقة لتصب في هذا الوادي.

ولاشك ن هذا الازدهار العلمي الذي لاحظناه من خلال شعر ابن الخطيب لابد وأن يكون له دافع قوي، وهو **تشجيع الحكام**، وميلهم إلى العلم، ومجالسة أهله، ودعم العلماء، مما رفع من قيمة العلماء، فكان العلم والثقافة هما سمة المجتمع الغرناطي – كما لاحظنا – يُمدح الرجل البسيط النسب بسببه، كما يمدح السلطان به، فالمدح – كما هو معروف – غالباً ما يكون بخصال حميدة يتحلى بها الممدوح من شجاعة، وكرم، ووفاء ... وغيرها. ولكن في هذا العصر ارتفع شأن العلم فكان أبرز الصفات التي يتناولها الشعراء بالمدح. ولا عجب فالمجتمع متعلم متحضر. ومن ذلك قول ابن الخطيب يمدح أحد الحكام الذين كانوا يجلون العلماء ويقدرون قيمتهم:[٢]

كُلُّ مَلْكٍ يُرَى بِصُحْبَةِ أَهْلِ العِلْمِ قَدْ بَاءَ بِالمحَلِّ العَزِيزْ
فَإِذَا ظَفِرْتَ مِنْهُمِ بِإِكْسِيرٍ[٣] مَلأْتَ الـــبِلاَدَ مِـنْ إِبْرِيزْ

إنهم خير رفقاء وجلساء، فهم بين الناس مثل الذهب الغالي الثمن، وهذا تقدير لمكانة العلماء الجليلة، فهم ورثة الأنبياء. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ سورة فاطر، آية: ٢٨ – وهذا ولاشك نابع من الحضارة التي ميزت هذا المجتمع.

نخلص مما سبق أن شعر ابن الخطيب قد عكس حركة أدبية وعلمية نشطة في مملكة غرناطة في ذلك العصر، وإن كانت حركة الآداب والفنون أكثر رواجاً مقارنة بالحركة العلمية. كما أن العلم والفكر كان سمة للمجتمع الغرناطي حيث كان مداراً للمدح والذم أيضاً، والملاحظ نشاط سوق الكتب وازدهار حركة التأليف وإهداء

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٤.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٥٥.
[٣] الإكسير: مادة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب. انظر: الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص: ١٥٠.

هذه المؤلفات لأصحاب المقامات الرفيعة إيماناً من مؤلفيها بأن العلم أثمن ما يمكن إهداءه.

كما لاحظنا رواج الكثير من المصطلحات العلمية والفنية في الشعر، واستخدامها كمواد تشبيهية جديدة مستمدة من بيئة الحضارة، في كافة الأغراض الشعرية من مدح ورثاء وغزل وغيره، وبعامة فقد كان القرن الثامن الهجري كما صوره ابن الخطيب في شعره في أوج ازدهاره الفكري. وذلك مظهر من أوضح المظاهر الحضارية في أي مجتمع.

❖ ❖ ❖

المبحث الثالث

مظاهر الحضارة الاجتماعية

مظاهر الحضارة الاجتماعية:

نعني بالحضارة الاجتماعية أبرز مظاهر الأنشطة الإنسانية الجماعية الفاعلة والمتفاعلة التي ترسم في نهاية المطاف خصائص المجتمع الغرناطي ومميزاته كوحدة متجانسة لها مقومات شخصيتها المتفردة. مثل الإشارة إلى العناصر المكونة للمجتمع الغرناطي، وأنواع الزي الذي كان رائجاً، وأسلوب المعاش، وبعض العادات والتقاليد في كافة المواسم.... وغير ذلك من سمات دفعت به إلى مدارج التقدم والازدهار.

وفي هذا الجزء من البحث سيتم تسليط الضوء على المجتمع الغرناطي في القرن الثامن الهجري للتعرف على المستوى الحضاري الذي وصل إليه، من خلال شعر ابن الخطيب.

وأول ما يستوقف الباحث هو **عناصر الشعب الغرناطي،** الذي كان يضم الكثير من القبائل العربية، والبربر، والمهاجرين، كما أشار ابن الخطيب إلى ذلك في كتابه الموسوم بـ (الإحاطة في أخبار غرناطة)[١] وقد أشار ابن الخطيب إلى بعض هذه العناصر التي كان أهمها **العرب**، ومن ذلك قوله في مدح السلطان "أبي الحجاج":[٢]

وَسَمَا انْتِمَاءً فِي ذُؤَابَةِ خَزْرَجٍ فَزَكَتْ أَرُومَتُهُ وَقُدِّسْ بَيْتُهُ

ففي هذا البيت يشيد ابن الخطيب بعراقة نسب السلطان "أبي الحجاج"، الذي يرجع نسبه إلى "سعد بن عبادة" سيد الخزرج وأحد كبار الصحابة رضوان الله عليهم. فكانت هذه الأصالة في النسب –لأسرة بني نصر – محور امتداح الشعراء لهم. وفي ذلك ما يعكس اهتمام هذا الشعب بأصالة النسب واعتزازهم بعراقته.

وقال –أيضاً -مؤكداً على عراقة نسب سلطانه:[٣]

سَمَا بِكَ فِي الأَنْصَارِ بَيْتٌ سَمَا بِهِ إِلَى ذُرْوَةِ البَيْتِ الرَّفِيعِ المَنَاسِبُ

وَمَنْ ذَا لَهُ فَخْرٌ "كَسَعْدٍ" عَلَى الوَرَى فَسَعْدٌ وَزِيرٌ لِلنَّبِيِّ وَصَاحِبُ

ونلحظ من خلال الأبيات سمات الحضارة التي تنبع من هذه المعرفة الدقيقة بالأنساب، وبالتاريخ وأهم أعلامه، ومنهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم – رضي الله عنهم أجمعين.

---

[١] انظر: ابن الخطيب الإحاطة: ١/١٣٥-١٣٦.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص:١٨٤.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٠.

ومعروف أن الخزرج ينتمون للقبائل القحطانية[١]، مما حمل ابن الخطيب على الافتخار بهذه النسبة، لقربه من السلطان كقوله:[٢]

كَفَانَا افْتِخَاراً وَانْتِصَاراً وَنِسْبَةً تَبَابِعَةٌ مِنْ يَعْـــرُبٍ وَقُيُولُ
ذُؤَابَةُ "سَلْمانٍ" و"سَلْمَانُ كِـنْدَةٍ" و"كِندَةُ ظِلٌ مَا أَرَدْتَ ظَلِيلُ

وفي هذين البيتين نلمح سمات الحضارة التي تجلت في ذكر ألقاب الملوك في اليمن حيث كانوا يسمون بالتبابعة. والقيول وفي ذلك ما يدل على معرفة تاريخية دقيقة.

وكانت غرناطة تضم إلى جانب العرب الكثير من **البربر**، وقد وردت إشارة ابن الخطيب إليهم في خطابه لصاحب الإنشاء بغرض الشفاعة عنده في حاجات لبعض الناس، فقال:[٣]

سَيِّدِي أَنْتَ عُمْدَتِي فَاحْتَمِلْنِي وَتَغَمَّدْ بِالفَضْلِ مِنْكَ جَفَائِي
مُبْتَلىً أَنْتَ "بِالْبَرَابِرِ والغُـــزِّ" وَأَهْـــلِ الجِبَالِ والصَّحْرَاءِ

ومن خلال البيت الثاني نلحظ في قول ابن الخطيب ما يدل على أنهم من فئات غير متحضرة. كما ذكر ابن الخطيب **"الغز"** وهم جنس من الترك، حيث جمعهم مع البربر مما يدل على اتفاقهم في تلك السمة. كما ذكر "أهل الجبال " و"أهل الصحراء"، ومما يلفت في البيت الأول هذا التواضع الجم من مقام ابن الخطيب والأسلوب الراقي في التخاطب، ولا شك أن ذلك أثر من آثار الحضارة التي تهذب السلوك وترتقي به، كما يدل على التعامل الحضاري الإنساني مع فئات الشعب المختلفة خاصة المحتاجين منهم.

ولم يغفل ابن الخطيب الإشارة إلى **اليهود**، ويبدو أن طائفةً ليست بالقليلة منهم كانت تقطن غرناطة[٤] ومما يدل على ذلك قوله:[٥]

وَعُصْبَةُ شَرٍّ مِنْ يَهُـــــودٍ لَقِيتُها يُجَـــانِبُهَا دَاعِي الهُدَى وَيُحَاشِيهَا
إِذَا أَمِنُوا وَاسْتَوْثَقُوا البَابَ أَعْلَنُوا خَبَائِثَ مَا كَانَ اللِّسَانُ لِيُفْشِيهَا

فهو يشير إلى ما عرف به اليهود -دائماً – من الجبن والغدر، والنفاق، وسوء الطوية، بالرغم مما كانوا ينعمون به من الحرية التامة في ظل الحكم الإسلامي في هذه المملكة هم والنصارى أيضاً.

---

[١] انظر: ابن خلدون: العبر: ٣٣٣/٢، وما بعدها.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٨٢.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٩٧.
[٤] انظر: د. رابح المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة، ص: ٦٣ – ٣٨.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٣٩.

وقد وردت الإشارة في شعر ابن الخطيب إلى بعض مصطلحاتهم، كقوله:[١]

لَقَدْ رَسَخَتْ آيُ الجَوَى فِي جَوَانِحِي كَمَا رَسَخَ الإِنْجِيلُ فِي قَلْبِ قِسِّيسِ

فقد ذكر بعض الألفاظ المتعلقة ببيئة النصارى وهي (الإنجيل -القسيس) مما يدل على التعايش مع أصحاب هذه الأديان في المجتمع الغرناطي، والتسامح الإسلامي في معاملة أهل الذمة وعدم نبذهم أو احتقارهم.[٢]

كما أشار ابن الخطيب في شعره إلى بعض العناصر من **السود**، ومن ذلك قوله:[٣]

كَأَنَّمَا اللَّيْلُ زِنْجِيٌّ مَلاَبِسُهُ قَدْ زُيِّنَتْ بِلآلِئ أَنْجُمِ الأُفُقِ

فقد استوحى سواد أديمهم لظلام الليل. ونلحظ وصفه لملابس الزنج بالزينة بكل ما هو لامع، حيث زينتها اللآليء، والطريف أن هذا الوصف حقيقي نلحظه على ملابسهم إلى اليوم.

وقال -أيضاً -:[٤]

تَخَطَّتْ وَفَوْدُ اللَّيْلِ بَانَ بِهِ الوَخْطُ[٥] وَعَسْكَرُهُ الزِّنْجِيُّ هَمَّ بِهِ القِبْطُ.

ونلحظ في هذا البيت ذكر القبط "وهم من أهل مصر الأصليين" وقد ذكر هذه الأجناس ليوظف الألوان في إخراج صورته المعبرة عن بياض النهار وسواد الليل.

تلك هي **الأجناس** التي كانت تعيش في غرناطة كما دل على ذلك ابن الخطيب في شعره وهو لم يأتِ على ذكرها بغرض التعداد وإنما جاءت للتعبير عن بعض الأفكار والمعاني التي أرادها الشاعر، إلا أن هذه الإشارات أعطت تصوراً عن التركيبة السكانية لهذا المجتمع مما يساعد على فهم حضارته وفكره، وعاداته، وتقاليده وتلك إشارة حضارية هامة.

ومما يلفت الباحث في شعر ابن الخطيب ذكر بعض أنواع **الملابس** التي كانت شائعة في غرناطة آنذاك[٦]. حيث أشار إلى أنواع كثيرة من الأقمشة والثياب، وبعض أنواعها. التي كان يرتديها الرجال والنساء.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٢٩.

[٢] انظر: عبد العزيز شهبر: التعايش بين الأديان في الأندلس من خلال نصوص شعرية أندلسية، مجلة دراسات أندلسية، االعدد: ١٤، يناير ١٩٩٥م، ص:٢٩ وما بعدها.

[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧١٧.

[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٥٧.

[٥] الوخط: هو ظهور الشيب في الرأس.

[٦] ذكر ابن الخطيب صفة اللباس العام الذي كان يرتديه الأندلسيون فقال: (ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاءً، وتتفاضل أجناس البزّ. بتفاضل الجدة والمقدار، والكتان والحرير والقطن والمرعزي، والأردية الأفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة صيفاً، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة، في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة) ابن الخطيب الإحاطة: ١/١٣٤-١٣٥.

ومن الإشارات التي وردت في شعره لبعض أنواع اللباس التي يستخدمها الرجال الإشارة إلى **لباس الرأس**، مثل **العمامة**[١] كقوله:[٢]

قَوْمٌ إِذَا لاَثُوا العَمَائِمَ واحْتَبَوْا ذَلَّتْ لِعِـــزِهِمُ ذَوُوُ التِّيجَانِ

فهو يمدح السلطان "أبا الحجاج" وآله بني نصر، ويشير إلى عظم هيبته التي أذلت ذوي العز من الملوك، وفيه إشارة حضارية تدل على أن سلاطين البيت النصري كانوا يلبسون العمائم. ولذلك فقد فضلها على لبس التيجان، لأنها شعار حكامه.

وقال -أيضاً -:[٣]

جَحَاجِحَةٌ[٤] غُرُّ الوُجُوهِ كَأَنَّما عَمَائِمُهُمْ فِيهَا مَعَاقِدُ تِيجَانِ

كما ذكر ابن الخطيب العمامة في مواضع أخرى كثيرة،[٥] ولم ترد في مقام المدح فقط، وإنما في الهجاء أيضاً حيث كانت مجالاً للتندر أحياناً على لابسها، كقوله في هجاء "أبي الحسن النباهي":[٦]

لَمَّا أَتَى نَحْونا شبهت عمتهُ بِعَنْكَبُوتٍ عَلَى يَافُوخِ خَشْخَاشَةْ[٧]

فقد شبه العمامة على رأسه بتشبيه طريف استوحاه من بيئته المحيطة، حيث جعلها مثل العنكبوت على نبات الخشخاش. وربما يوحي هذا الوصف بأن شكل هذه العمامة غير منتظم. وفي ذلك ما يدل على الحضارة والاهتمام بأناقة المظهر، وترتيبه.

كما ذكر ابن الخطيب أنواع أخرى من أغطية الرأس غير العمامة مثل **الغفارة** أو **المغفر**، وهو لباس يغطي الرأس[٨] وهذه الغفائر مصنوعة من الصوف[٩]، ومن الأمثلة عليها قول ابن الخطيب: [١٠]

لَمْ تَدَعْ لِي مِنَ السِّلاحِ سِوَى مِغْـ ـفَرِ شَيْبٍ أَهْوِنْ بِهِ مِنْ سِـــلاَحِ
عَـــاجَلَتْنَي بِهِ وَفِي الوَقْتِ فَضْلٌ لاَهْتِزَازِي إِلَى الهَوى وَارْتِيَاحِي

---

[١] العمامة هي ما يلبس على الرأس تكويراً. أنظر: علي بن اسماعيل الأندلسي (ابن سيده): المخصص: السفر الرابع، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت): ٨٢/١-٨٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٦.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٨٨.
[٤] الجحاجحة: السادة الكرام.
[٥] انظر ديوان ابن الخطيب، الصفحات التالية: ٥٨٨ – ٧٤١ – ٧٥١ – ٧٦١.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٤١.
[٧] الخشخاش نوع من النبات واحدته خشخاشة.
[٨] هو لباس يغطي العنق والقفا، ويطلق أيضاً على لباس على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ويتدلى شيء منه على القفا. أنظر: د.الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص: ٨٠.
[٩] انظر ابن الخطيب: الإحاطة: ١٣٦/١.
[١٠] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٥١.

فهو يبدي ألمه وحسرته من هذا الشيب الذي غزاه سريعاً، ولم يزل في قلبه حنين للشباب والهوى. ونلحظ في البيت الأول مظهراً حضارياً تجلى في الإشارة إلى أحد أنواع اللباس في ذلك الوقت وهو المغفر، كما أنه يؤكد أن هذا اللباس مختص بالرأس، لأنه شبه به الشيب الذي علا رأسه وغطاه حتى كانه لبس مغفراً أبيضاً.

كما ذكر ابن الخطيب نوع آخر من الغفائر يسمى **"الشاشية"** ومن ذلك قوله في جماعة من اليهود:[١]

وَعُصْبَةُ شَرٍّ مِنْ يَهُـــــودٍ لَـقِيتُها يُجَانِبُهَا دَاعِـــــي الهُدَى وَيُحَاشِيهَا
كَأَنَّ رُؤوسَ القَوْمِ عِنْدَ صَلاَتِهِمْ وَقَدْ أَوْمَأَتْ لِلأَرْضِ صُفْرَ شَوَاشِيهَا
أَقَاحٍ أَمَالَتْهَا الرِّيَاحُ عَلَـــى الثَّرَى وَقَدْ أَسْقَطَتْ عَنْهَـا بَيَاضَ حَوَاشِيهَا

وقد كان الرجال يلبسون الشواشي باختلاف ألوانها، ماعدا اللون الأصفر[٢] كما يظهر من خلال الأبيات، حيث اختص بها اليهود الذين منعوا من استخدام العمائم.[٣]

وقال -أيضاً -في هجاء "النباهي"، ووصف **طاشورة**:[٤]

فَصَلَ الخُصُومَ وَقَامَ يَرْكَبُ نَائِماً عَنْهَا وَمَـــــــدَّ جَنَاحُهُ الطَّاشُورُ

والطاشور هو شاشية زرقاء تلبس بدل العمامة.[٥]

وقد ذكر ابن الخطيب نوع من الملابس الرجالية يعرف **بالبُرْنُسْ** وهو من ملابس السّفر[٦] وهو عبارة عن معطف من الصوف مزود بغطاء للرأس ملتزق به[٧] وهذا يعني أنه من الملابس الشتوية، كما أكد ذلك ابن الخطيب عند وصفه جبل (شلير) الذي لا تفارقه الثلوج طوال العام:[٨]

هُوَ الشَّيْخُ أَبْرَدُ شَيْءٍ يُرَى إِذَا لَبِسَ البُرْنُسَ الأَبْيَضَا

وقد جعله الشاعر برنساً أبيضاً لأن الثلوج التي تغطي الجبل بيضاء.

---

(١) ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٣٩.
(٢) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٨٨/١. حيث ذكر من مناقب السلطان اسماعيل بن فرج النصري أنه (أخذ يهود الذمة بالتزام سمة تشهرهم، وشارة تميزهم وليوفي حقهم في المعاملة التي أمر بها الشارع في الخطاب والطرق، وهي شواشي صفر).
(٣) انظر المقري: نفح الطيب: ٢٢٣/١.
(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٤٦.
(٥) انظر بن سيده الأندلسي : المخصص: ٨١/١.
(٦) انظر: د.محمد أحمد أبو الفضل: ملاحظات حول ألبسة المدجنين في اسبانيا. ضمن كتاب/ دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس: طبعة دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٦، ص: ٣٨٤.
(٧) انظر: ابن سيده الأندلسي: المخصص: ٨١/١.
(٨) ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٤٣.

ومما سبق نلحظ أن الحضارة الأندلسية قد ظهرت في هذا التعدد والتنوع في نوع واحد من أنواع اللباس وهو **غطاء الرأس**، حيث وجدت عندهم الغفيره، والشاشيه، والطاشور، والعمامه، والملاحظ هو قلة استعمال الشعب الأندلسي للعمائم إلا ما كان من حكامهم أو شيوخهم[١] بدليل أنه ذكرها في مدحه للحكام، وهجائه لأحد القضاة، فقط. كما ذكر البرنس وهو من ملابس السفر، وفي ذلك دلالة واضحة على الحضارة والترف بحيث تتغير الملابس في كل مناسبة ولا يقتصر الرجل على لباس واحد فقط.

أما **الملابس النسائية** فقد وردت في شعر ابن الخطيب إشارات كثيرة لها ومنها: **المرط**، وهو كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفع به المرأة.[٢] وقد ذكره ابن الخطيب بقوله:[٣]

وَأَلْحَفَ مِنْكَ اللّٰهُ أُمّةَ أَحْمَـــدٍ أَمَاناً كَمَا يَضْفُو عَلَى الغَادَةِ المرْطُ

فقد ذكر هذا النوع في مدحه للسلطان الذي أنعم اللّٰه تعالى على هذه الأمة الأندلسية في عهده بنعمة الأمن والأمان في كافة أرجائها كأنها اكتست -وتغطت –به كما تكتسي الغادة الحسناء بالمرط، ولا شك أن وصف هذه الحسناء بلفظ (الغادة) هو من تأثير الحضارة فهي لم تكن حسناء فقط بل فتاة نعمت بالحضارة والترف فهي ناعمة لينة.

والوشاح -أيضاً – من الملابس النسائية التي أشار لها ابن الخطيب بشعره كقوله في التعبير عن حال غرناطة التي أحاط بها الأعداء من كل جهة:[٤]

وَحَفَّتْ بِهِ الأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَمَا حَفَّ بِالخَصْرِ الهَضِيمِ وِشَاحُهُ

ونلحظ في هذا البيت تصوير مدى قرب الأعداء من أهل غرناطة بصورة الوشاح الذي تضعه المرأة على خصرها، ولا شك أنه تصوير حضاري لأنه استخدم في التشبيه أحد أنواع الملابس – أو الكماليات – التي تتزين بها المرأة.

ومثله في قوله:[٥]

ضَايَقَتْنِي فِيكُمُ صُرُوفُ اللَّيَالِي وَاسْتَدَارَتْ عَلَيَّ دَوْرَ الوِشَاحِ

---

[١] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١٣٦/١.
[٢] انظر: ابن سيده الأندلسي: المخصص: ٧٧/١.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٥٩.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٢٠.،
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٥١.

ومن خلال المثالين نلحظ أن معنى الوشاح عند الأندلسيين هو الحزام.

وقد ذكر ابن الخطيب **الوشاح والبرد** في بيت واحد، حيث قال:[١]

يَلُوحُ عَلَى أَزْرَارِهِ قَمَرُ الدُّجَى وَيَمْرَحُ غُصْنُ البَانِ فِي طَيِّ بُرْدِهِ

لَئِنْ قَلِقَتْ أَعْطَافُهُ فِي وِشَاحِهِ فَكَمْ أَقْلَقَتْ قَلْبَ المشُوقِ بِوَجْدِهِ

وما أكثر ما كان الوشاح والبرد مجالاً لأحاديث الشعراء والعشاق، كما في هذين البيتين، إلا أن ابن الخطيب قد صور **بالوشاح** صورة أبعد ما تكون عن الغزل كما في المثالين السابقين اللذين عبر بهما عن حال غرناطة المحاصرة بالأعداء، وحاله هو وقد أحاطت به الهموم من كل ناحية.

وقد ترتدي الحسان **الصِّدار**، وهو ثوب يغطى به الصدر، كما يظهر ذلك من اسمه. وقد ذكره ابن الخطيب فقال:[٢]

فَجَوارِحُ الإِسْلاَمِ أَنْتَ حَيَاتُهَا حَقّاً وَصَدْرُ الدِّينِ أَنْتَ صِدَارُهُ

كما أشار ابن الخطيب إلى **اللثام**، وهو موضع فتنة في المرأة، وكثيراً ما استلهمه الشعراء كقول ابن الخطيب وقد تشوق لمعشوقته الملثمة الفاتنة:[٣]

أَمَاطَتْ عَنِ الخَدِّ اللِّثَامَ فَأَطْلَعَتْ هِلاَلاً عَلَى غُصْنٍ وَغُصْناً عَلَى حِقْفِ[٤]

كما حرصت النساء الغرناطيات على لبس أجود وأفخر أنواع **الأقمشة** التي تصنّع محلياً بأعلى مستوى من الجودة والفخامة والإتقان، مثل الحلل الموشية والكلل والأستار، والعصب السابري، وبعض أنواع المقاطع.

وقد وردت جميع هذه المسميات في شعر ابن الخطيب ومن الأمثلة عليها قوله في مدح أحد الأصدقاء:[٥]

لِي ثَنَاءٌ كَمَا عَلِمْتَ هُوَ الوَشْيُ وَصَنْعَاءُ فِي فَمِي وَفُؤَادِي

فَلِذَا مَا أَحُوكُ عَصْبَ امْتِدَاحِي سَابِرِيًّا مُسَهَّمَ الأَبْرَادِ[٦]

فهو يشبه نظمه في مدح صديقه بأجمل ما أتاحته له الحضارة من منتجات فخمة تعد من أفخر أنواع الأقمشة، حيث ازدانت بأوصاف صديقه كما يزين الوشي **العصب والسابري** من الثياب.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٨٥.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٧٤.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٧٣.
[٤] الحقف: هو ما أعوج من الرمل واستطال.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٩٦.
[٦] السابري من الثياب الرقاق. وهو من أجود أنواع الثياب، والمسهّم: هو البرد المخطط.

وقال -أيضاً – يصف عهد الشباب الماضي ولحظات الأنس التي استمتع بها في أحضان الطبيعة الغرناطية الساحرة:[١]

فَجَادَ حَيَّكَ مِنْهَا غَيْـــرَ مُفْسِدِهَا مُجَلْجَلٌ يَطَأُ الأَوْهَادَ وَالقُلَلاَ
يُغَادِرُ الدَّوْحَ مِنْ بَعْدِ الذَّوَى خَضِلاً يَخْتَالُ فِي حُلَلٍ مَوْشِيَّةٍ وَحُـلاَ

ونلحظ في هذه الأبيات الإشارة إلى بعض الأنواع الراقية من الثياب، وهي الحلل[٢] الموشاة بأجمل النقوش، في وصفه لهذا الدوح الذي جلله الحيا فبدا بأجمل منظر، ونلمح رقة الحضارة في هذا الوصف إذ صور الدسوح بصورة الفتاة المترفة التي تختال بحلل الحرير الموشاة، وتتزين بأجمل الحلي.

وقال أيضاً في وصف أحد الرياض: [٣]

وَالرَّوْضُ يَجْلُو عِذَارَيْهِ وَقَدْ لَبِسَتْ عَقَائِلُ الوُرْقِ دِيبَاجاً مِنْ الوَرَقِ

ونلحظ في هذا البيت ذكر نوع فاخر من الأقمشة وهو الديباج[٤]وقد شبه به لون الورق الأخضر النضر بعد هطول المطر، ولاشك أن هذا التشبيه مستوحى من بيئةٍ متحضرة، كما نلحظ الحضارة أيضاً في تشبيه الحمام بالعقائل وهن النساء الكريمات.

كما أشار ابن الخطيب إلى **الوعاء الذي تحفظ فيه الثياب** في ذلك العصر وكان يسمى **التخت**، وحيث ذكره في قصيدةٍ وجهها لأحد الأشخاص يذمه فيها لبروده، فقال:[٥]

وَإِنْ تَشَوَّفْتَ إِلَي زَوْجَـــــةٍ ثَانِيَةٍ حَسْـــبُكَ مِـــنْ زَوْجِ
وَاحْمِلْ لَهَا البَيْنَ وَبرْدَ الكُلاَ نَوْعَيْنِ فِي تَخْـتٍ وَفِي خُرْجِ
وَبِتْ بِهَا فِي مَسْقِطٍ لِلنَّـــدَى فِي بُرْدَةٍ أَوْ مَقْـطَعٍ بَرْجِـي

وإلى جانب وعاء الملابس، ذكر ابن الخطيب **الخرج** وهو وعاء من شعر أو جلد ذو عدلين يوضع على ظهر الدابة لوضع الأمتعة فيه، كما نلحظ إشارة حضارية في ذكر بعض أنواع الأقمشة الجيدة، وهي البرود، والمقاطع التي تنسب إلي مدينة (برجة) التي كان لها شهرة بالمنسوجات خاصة الحريرية.[٦]

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص:٧٦٣.
[٢] الحلل جمع الحلة، وهو برود اليمن ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين، انظر: سيده الأندلسي: المخصص: ٧٨/١.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص:٦٩٠.
[٤] الديباج: فارسي معرب، وهو من الدبج – وهو النقش والتزيين، وهو نوع من الثياب رونق حسن الصنعة. انظر ابن سيده الأندلسي: المخصص: ٧٧/١.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص:٢١٠.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٨٥.

وقال أيضاً في رثاء نفسه:[١]

وَكَمْ سِيقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ فَتَىً مُلِئَتْ مِنْ كُسَاهُ التُّخُوتْ

فقد ذكر وعاء الملابس وهو التخت، بصورة توحي بالغنى والترف.

نلحظ مما سبق أن شعر ابن الخطيب قد كشف عن جانب هام في المجتمع الغرناطي وهو اللباس الخاص بالنساء – والرجال أيضاً – والذي يدل على مبلغ الحضارة التي وصلوا إليها.

ونلحظ هذه الكثرة في الأنواع في الوقت الذي لا نجد في المصادر العربية الكثير من التفصيلات عن ملابس السيدات في مملكة غرناطة[٢]. إلا أن شعر ابن الخطيب قد وضح لنا الكثير مما كانت ترتديه النساء من الملابس والأقمشة الفاخرة التي تناسبت مع المستوى الحضاري الرفيع الذي بلغته غرناطة آنذاك. لتوفر مقومات هذه الصناعة.

ولا يمكن الإشارة إلى النساء ولباسهن دون ذكر أدوات الزينة[٣] التي كن يتزين بها. ويمكننا تصور شئ من هذه الزينة التي ذكرها ابن الخطيب في شعره وكانت تتزين بها المرأة الغرناطية. ومن الأمثلة التي تصور هذا الجانب قوله في الغزل[٤]

حَسْنَاءُ قَدْ غَنِيَتْ بِحُسْنِ صِفَاتِهَا عَنْ دُمْلُجٍ وَقِلاَدَةٍ وَوِشَاحِ

ونلحظ في هذا البيت ذكر بعض أنواع الحلي التي أنتجتها الحضارة وهي الدملوج وهو المعضد من الحلي، والقلادة، كما أشار أيضاً إلى الوشاح، ليبين جمال هذه المرأة الذي أغناها عن كل زينة.

وقال في قصيدة أخرى يذكر فتح السلطان لأحد المدن المنيعة:[٥]

خَوْدٌ تَجَلَّتْ فِي مِنَصَّةِ شَاهِقٍ مُخْتَالَةً إِكْلِيلُها الإِكْلِيلُ

لقد شبه هذه المدينة بالمرأة المتزينة بأجمل أنواع الزينة وأغلاها، وهو الإكليل أو التاج الذي يشبه العصابة التي تزين بالجواهر. ولاشك أنه تشبيه حضاري.

---

(١) انظر ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص: ٩٩. وللمزيد من أنواع الثياب التي ذكرها، انظر: ديوان ابن الخطيب الصفحات التالية: ٢١١- ٢٣٣ – ٢٨٥ – ٥٤٣ – ٥٧٣ – ٥٨٠ – ٦١١ – ٦١٧ – ٦٢٩ – ٦٧١.

(٢) انظر: د. الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص: ٨١.

(٣) أجمل ابن الخطيب زينة نساء غرناطة وحليهن بقوله (وحليهم في القلائد والدمالج والشنوف، وخلاخل الذهب الخالص، إلى هذا العهد في أولي الجدة. واللجين في كثير من آلات الرجلين فيمن عداهم. والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد، والزمرد، ونفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة، إلى ظل دولة أو أصالة معروفة موقر). ابن الخطيب: الإحاطة: ١٣٨/١ – ١٣٩. اللمحة البدرية، ص: ٤٣. ولا شك أن ما ذكره يدل على الحضارة المتقدمة التي وصلوا إليها.

(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٣٣.

(٥) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٨٨.

وكانت المرأة تتزين **بالأقراط والأساور** المصنوعة من الذهب وغيره، ومن شواهد ذلك قول ابن الخطيب في الغزل:[١]

بِنَفْسِي غَزَالٌ قَدْ غَزَتْنِي لِحَاظُـه وَتَيَّمَ قَلْبِي حُسْنُهُ وَجَمالُـهُ
هُوَ البَدْرُ وَالجَوْزَاءُ قُرْطٌ مُعَسْجَدٌ[٢] وَجُنْحُ اللَّيَالِي فَرْعُهُ وَدَلالُهُ

ونلحظ في البيت الثاني الحضارة في الحلي التي تزينت بها هذه المحبوبة الجميلة المترفة وهي **الأقراط** المصنوعة من الذهب الخالص، حيث شبه وجهها بالبدر، وقرطيها بالجوزاء.

وقال:[٣]

وَبي مِنْ ظِبَاءِ الأنْسِ رَائِقَةُ الحلَى وَهَبْتُ لَهَا نَفْسِي وَمَلَّكْتُهَا لُبِّي
صَبَوْتُ وَمَا قَلْبِي بِأَوّلِ مَنْ صَـبَا لِنَاطِقَةِ القُرْطَيْنِ صَامِتَةِ القَلْبِ

لقد ذكر الأقراط في البيت الثاني في صورة حضارية جميلة صور فيها القرطين بالناطقين مما يدل على أنهما قد تدليا بحيث تؤدي حركتها إلى إصدار الصوت منهما.

وقال أيضاً:[٤]

أَيَا قَاتَلَ اللّهُ الغَوَانِي فَإِنَّما طِلاَبُ الرَّدَى وَقْفٌ عَلَى رَبَّةِ الوَقْفِ

فقد ذكر هنا **الوقف** وهو سوار مصنوع من العاج.

أما العيون فكانت ولازالت من أشد محاسن المرأة جاذبية، ومصدر إلهامٍ لكثير من الشعراء، وزينة العين **الكحل** وقد أشار إليه ابن الخطيب، في قوله:[٥]

وَإِنْ كَحَلَ السِّحْرُ المبِينُ جُفُونَهُ فَكَمْ كَحِلَتْ طَرْفَ المعَنَّى بِسُهْدِهِ

وعندما تذكر الشاعر نجداً، وأطلال نجد وحبه فيها – في رحلة في خيال الشاعر ذكر **الإثمد**، فقال:[٦]

وَتُهْدِي إِلَى الأَجْفَانِ إِثْمِدَ تُرْبِهَا فَمَا اكْتَحَلَتْ مِنْ بَعْدِهِ بِسَوَى السُّهْدِ

والإثمد هو عنصر يكتحل به. وقد ذكر ابن الخطيب **المرود** وهو الأداة التي تكحل بها المرأة عينيها، حيث قال:[٧]

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٩٤.
[٢] معسجد: مصنوع من الذهب.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٢.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٧٤.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٨٥.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٠١.
[٧] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٨٠.

كَأَنَّ لِطَافَ القُضْبِ مِنْ فَوْقِ وَرْدِهَا مَرَاوِدُ تَسْتَشْفِي بِهَا أَعْيُنٍ رُمْدِ

لقد صور في هذا البيت أحد الرياض النضرة فشبه الورود وقد تدلت فوقها بعض الأغصان بالعيون الرمد[١] وهذه الأغصان مراود تكحلها بالإثمد لتعالجها. وتلك إشارة حضارية من حيث التشبيه، والتداوي أيضاً.

وقد عرفت المرأة الغرناطية أنواع متعددة وفاخرة من **العطور** التي لا تكتمل زينتها إلا بها. حيث أشار ابن الخطيب إلى كثير من أنواعها. ومن الأمثلة على ذلك قوله:[٢]

إِذَا نُشِرَتْ فِيهَا صَحَائِفَ مَدْحِهِ وَذَاعَتْ بِنَشْرِ الحَمْدِ فِيهَا المَمَادِحُ

تَلَقَّتْكَ مِنْ أَرْضِ الهُنودِ لَطَائِمٌ يَنُمُّ بِهَا مِنْ مِسْكِ دَارِينَ فَائِحُ

ففي هذين البيتين ذكر الشاعر **المسك** وهو أشهر أنواع العطور. كما ذكر **اللطيمة** وهي وعاء المسك ومكانه وهو الهند، "وداريـن" هي مدينة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند.[٣]

وقال – أيضاً في امتداح سلطاني:[٤]

وَدُونَ الَّذِي يُهْدِي ثَنَاؤُكَ فِي الوَرَى مِنَ الطِّيبِ مَا تُهْدِي الأَلُوَّةُ وَالقُسْطُ

فالألوة هي نوع من الطيب، **والقسط** نوع من العود الهندي يدخل في البخور.

وقال في الرد على قصيدة بعث بها أحد الأصحاب:[٥]

وَأَهْدَى إِلَى الآنَافِ مِنْ نَفَحاتِهِ لَطَائِمَ فِيهَا إِذْخَرٌ وَجَلِيلُ

ففي هذا البيت ذكر نوعين من الأعشاب العطرية وهما **الإذخر** وهو حشيش طيب الرائحة يدخل في الطيب، وكذلك **الجليل** أيضاً.

وقد ذكر ابن الخطيب أنواعاً كثيرة من العطور[٦] والحلي[٧]. مما يلفت النظر إلى المستوى الحضاري الرفيع الذي بلغه المجتمع الغرناطي آنذاك برغم ظروفه السياسية الحرجة. فالكثير من سيدات هذا المجتمع كن يقتنين الحلي والأحجار الكريمة.. وغيرها من منتجات الحضارة الباذخة.

---

(١) نلحظ في هذا البيت – أيضاً لمحة حضارية تدل على طريقة من طرق علاج أمراض العيون مثل الرمد، حيث كانت تكحل حتى تشفى.
(٢) ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٢٨ – ٢٢٩.
(٣) انظر: ياقوت الرومي: معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م : ٤٣٢/٢.
(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦١.
(٥) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٨٠.
(٦) انظر: ديوان ابن الخطيب، الصفحات التالية: ١٢١ – ١٢٢ – ١٧٣ – ٢٢٩ – ٤٨٠ – ٥٤٨ – ٦٠٧ – ٦٦٥ – ٦٩١.
(٧) انظر: ديوان ابن الخطيب، الصفحات التالية: ٥٤٤ – ٥٧٥ – ٦٢٤ – ٦٧١ – ٦٩٣ – ٧٠١ – ٧٢٣ – ٧٣٧.

إلا أن جميع ما ذُكر من ملابس وأقمشة فخمة، وزينة، وحلي، وعطور، .. وغيرها التي أشار لها ابن الخطيب، لا يمكن تعميمه على كل فئات المجتمع، وإنما تمتعت به غالباً الطبقة العليا من السلاطين، والخاصة، والتجار، وقد ظهرت في شعر ابن الخطيب لأن حياته كانت مرتبطة بوسط الأغنياء.

ومن الجوانب الهامة التي تعكس الحضارة في المجتمع **الغذاء**، فليس هناك من شك في أن الحديث عن الطعام، وصفته وألوانه، وكيفية تقديمه، له أهميته القصوى للتعرف على وجه أساسي من وجوه الحضارة الاجتماعية في المجتمع الأندلسي.

وقد كان الطعام الغرناطي مستمداً من التقاليد الخاصة **بالطعام الأندلسي** في العصور السابقة له. وفي شعر ابن الخطيب نلحظ العديد من الإشارات إلى بعض أنواع الطعام ومن ذلك قوله مخاطباً أحد أصدقائه:[١]

وَرُبَّ صَلاَةٍ قُدِّمَ النَّفْلُ قَبْلَهَا وَتُشْرَبُ مِنْ قَبْلِ الثَّرِيدِ حَرِيرَهْ

ونلحظ في هذا البيت مظهراً حضارياً تجلى في ذكر نوعين من أنواع الطعام الأول: هو **الثريد**، وهو طبق عربي قديم عبارة عن خبز مفتت ومغموس في حساء اللحم والخضروات[٢]، والثاني هو: **الحريره**[٣] نوع من أنواع الحساء لا يزال حتى يومنا هذا من الأطباق المغربية الشهيرة، كما تضمن البيت إشارة لطيفة تدل على التقدم الحضاري في طريقة تقديم الطعام وهي تقديم أطباق الحساء ثم الطبق الرئيسي، وهو **ثريد** اللحم، وهذا الأمر هو من آثار زرياب[٤] التي نقلها إلي المجتمع الأندلسي. ولا نغفل – أيضاً – اللمحة الحضارية التي تجلت في الإشارة إلى الصلوات المفروضة والنوافل والقياس عليها.

وقال – أيضاً – مخاطباً أحد الأشخاص يخضب لحيته بعد أن كان يلغيها:[٥]

وَكَرِيمَةٍ شَهِدَ الخِضَابُ شِهَادَةً بِفُتُوِّهَا عِنْدَ الأَدَاءِ مُـزَوّرَهْ

مَرِضَ الفُؤَادُ لَهَا وَحُمَّ لأَجْـلِهَا فَجَعَلْتُ مِنْهَا لِلْعِلاَجِ مُزَوّرَهْ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٨٠.

[٢] انظر: مؤلف مجهول: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين. نشره/ أمبروزيو أو يثي ميراندا، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلدان التاسع والعاشر ١٩٦١ – ١٩٦٢، ص: ١٨١ – ١٨٣.

[٣] انظر: مؤلف مجهول: كتاب الطبيخ ص: ٢٤٠.

[٤] هو أبو الحسن علي بن نافع، كان مولى للمهدي العباسي، وتلميذاً للمغني إسحاق الموصلي ببغداد. لقب بزرياب ،، لسواد لونه، مع فصاحة لسانه فشبه بطائر غرد. انظر: المقري: نفخ الطيب: ١٢٢/٣ – ١٢٧.

[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٧٩.

وفي هذين البيتين نلحظ بعض الإشارات الحضارية مثل استعمال **الخضاب** –الحناء لصبغ الشعر بغرض التجمل، وذكر نوع من أنواع الأطعمة يسمى " **المزوره** " عبارة عن حساء قليل الدسم يقدم لمرضى الحمى[١]. كما أن البيت الثاني تضمن إشارة طبية تدل على نوع من أنواع العلاج والتداوي بالأغذية المناسبة لكل مرض.

وقال في مدح أحد الفضلاء بعد عودته من زيارته:[٢]

وَقَابَلَنَا بِالبِشْرِ وَاحْتَفَلَ القِرَى فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ لَمْ نَنَلْهُ وَلاَ زُبْـــدُ
يَحِقُّ عَلَيْنَا أَنْ نَقُــوَم بِحَقِّــهِ وَيَلْقَاهُ مِنَا البِرَّ وَالشُّكْرُ وَالحَمْدُ

وفي البيت الأول نلحظ أن قرى الضيوف يكون بتقديم اللحم والزبد، كما ذكر طريقة الاستقبال الحافل الذي قابلهم به. مما استوجب منه القيام بحق شكره والثناء عليه ويلفت **الباحث** في شعر ابن الخطيب الإشارة إلى بعض المناسبات الاجتماعية التي توجه فيها الدعوة لتناول الطعام، مثل **الوليمة**، كقوله:[٣]

وَبِالمخْتَارِ لِلنَّاسِ اقْتِـــدَاءٌ وَقَدْ حَضَرَ الوَلِيمَةَ وَالعَقِيقَهْ

وفي هذا البيت يشير ابن الخطيب إلى أن من سنن الإسلام إجابة المسلم لدعوة أخيه، وتلك إشارة حضارية استمدها من الثقافة الإسلامية، وهو يعاتب صديقاً له لم يحضر **وليمة** دعاه إليها. وقال في مناسبة أخرى:[٤]

وَلِلَّهِ إِعْذَارٌ دَعَوْتَ لَهُ الـــــوَرَى فَهَبُّوا لِدَاعِيهِ المُهِيبِ وإِنْ شَطُّـــوا
تَقُودُهمُ الزُّلْفَى،وَيَدْعُوهُمُ الرِّضَى وَيَحْدُوهُمُ الخَصْبُ المضَاعَفُ وَالغِبْطُ

وفي هذين البيتين يشير ابن الخطيب إلى الدعوة **للإعذار**[٥] وهي وليمة الختان ونلحظ في حديثه طابع الفخامة والترف وذلك لأن الداعي هو السلطان نفسه، ونلحظ التحضر والبذخ أكثر في وصفه لأحد ولائم السلطان حيث قال:[٦]

قَالُوا: وَلاَئِمُ مَوْلاَنَا مَجَالِسُهَـا عِشْرُونَ مِنْ ضَحْوَةٍ للَّيلِ مَعْـدُودَهْ
فَقُلْتُ: أَلْوَانُهَا فِي النَّفْعِ أَدْوِيَةٌ والبَعْضُ مِنْها بَلِ الْمجمُوعُ مَحْمُودَهْ

---

[١] انظر: مؤلف مجهول: كتاب الطبيخ، ص: ١٧١.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٦٢.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٦.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٠.
[٥] للدعوة إلى الطعام عند العرب أسماء شتى تعكس ارتباطها بحياتهم الاجتماعية، فالمأدبة للوليمة عند الإملاك، والعرس عند البناء بالأهل، والخرس للولادة، والإعذار للختان...والعقيقة لأول مولود يؤخذ شعره...) انظر: أبا القاسم حسين بن محمد " الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت): ٦٤١/٢.
[٦] ديوان ابن الخطيب ص، ٣٢٢.

ولاشك أن هذا الوصف يدل على تعدد هذه الولائم، وتنوع أصناف الطعام وألوانه عليها، كما يدل على أنه أكل صحي ومفيد، وتلك إشارة تدل على التحضر والعناية بالنظام الغذائي المناسب للصحة. ولاشك أن هذا الرأي الذي أبداه ابن الخطيب حول هذه المائده نابع من معرفته العلمية كطبيب. وهذا الشاهد بعامة يدل على التحضر والترف والبذخ الكبير الذي تنعم به أولئك السلاطين في المجتمع الغرناطي.

والأسلوب المتحضر يقتضي آداباً معينة في التقديم، وتناول الطعام، تنم عن رقي، وذوق عالي، لذلك لا نعجب من ذم ابن الخطيب للمتطفلين على الولائم، وحضورها من غير دعوة، بل عدهم من قبيل البهائم، حيث قال:[١]

أَدْمُمْ ذَوِي التَّطْفِيلِ مَهْمَا أَتَى وَإِنْ تَكُنْ أَجْمَلْتَهُمْ فَاعْنِهِ

يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ

فهنا علاقة لطيفة بين هذا الطفيلي والدابة التي تمشي على بطنها لا على أربع كمعظم الدواب.

كما ورد في شعر ابن الخطيب إشارة لبعض أنواع **الأواني** تستخدم لنوع خاص من الطعام، مثل قول ابن الخطيب في وصف سفرة طعام:[٢]

تَرَى فَوْقَهَا الطَّيْفُورَ أُسْتَاذَ حَلْقَةٍ مَعَانِي حُرُوفِ الحَلْقِ مِنْ بَعْضِ مَا يُبْدِي

وقد ذكر في هذا البيت **الطيفور** وهو إناء مجوف عميق يقدم فيه الطعام ولا سيما اللحم،[٣] ومما يلفت النظر في هذا البيت التصوير الحضاري لهذا الإناء حيث شبهه بأستاذ الحلقة الذي يجتمع حوله الطلاب. وفي ذلك دلالة على أنه إناء لتقديم الأطباق الرئيسية على المائدة. وهو تصوير مستمد من بيئة العلم والفكر المتحضرة.

وقال – أيضاً – في رثاء أحد السلاطين:[٤]

وَسَمْحُكَ لِلْجِهَادِ بِكُلِّ سَامٍ مِنْ السَّامِ النُّضَارِ وَكُلُّ جَامِ

فقد ذكر في هذا البيت أواني الذهب والفضة، فالجام هو إناء للطعام والشراب مصنوع من الفضة ونحوها، أما **السام** فهو الذهب، وفي هذا إشارة حضارية تتعلق بالسلاطين وتدل على النعيم.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٠٤.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٣٤.
[٣] انظر: لويس سيكودي لوثينا: وثائق عربية غرناطية لم تنشر، صحيفة المعهد المصري في مدريد، ١٩٥٦م، ص: ١٧٧.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٦٤.

وقد كان الطعام يقدم على مائدة تسمى **الخوان**،وقد أشار إليها ابن الخطيب عندما ذكر صنائعه الذين سعوا في نكبته فقال:[١]

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ أَنْ يَتَنَكَّرُوا بِأَنَّ خِوَانِي كَانَ مَجْمَعَ خَوَّانِي

فكل ما تقدم من إشارات ابن الخطيب الشعرية تعطي صورة عن المجتمع الغرناطي الذي وصل إلى درجة رفيعة من الحضارة في طريقة إعداد الأطعمة، وتنويعها، والحرص على الغذاء الصحي، كذلك الاهتمام بطريقة التقديم، والأواني المستخدمة للطعام.

وابن الخطيب في شعره – فضلاً عن نثره – يكشف عن بعض **العادات والتقاليد** المنتشرة في المجتمع الغرناطي في عصره، ومن هذه العادات على سبيل المثال **الانتقال إلى البساتين – حلال العصير – في وقت جني المحاصيل**، وقد ألمح ابن الخطيب إلى هذه العادة في قوله معارضاً أبياتاً لبعض معاصريه:[٢]

بَعَثْتُ لَهُ إِذا ابْتَعْنَا عَصِيراً هَجَرْنَا فِي تَفَقُّدِهِ البُيُوتَا
لَعَلَّكَ يَا حَبِيبَ القَلْبِ تَأْتِي فَتَأْكُلَ عِنْدَنَا عِنَباً وَتُوتَا

ونلحظ من خلال البيت الأول أن أهل غرناطة في وقت جني محصول العنب يتركون بيوتهم وينتقلون إلى بساتينهم بأهلهم وأولادهم ويقيمون أياماً حتى ينتهي عملهم. وفي ذلك ما يدل على اهتمامهم بهذا المحصول ودقة عملهم وجودة إنتاجهم منه. وذلك مظهر حضاري يكشف عن عادات الناس في هذا المجتمع. وقد أكد ذلك ابن الخطيب بقوله: (وعادة أهل هذه المدينة، الانتقال إلى حلل العصير أوان إدراكه، بما تشتمل عليه دورهم، والبروز إلى الفحوص[٣] بأولادهم، معولين في ذلك على شهامتهم، وأسلحتهم).[٤]

وكذلك كان من عادة الرجال عندهم **إطلاق اللحى وتعهدها بالحناء والكتم**، وهو نبات يخضب به أيضاً. وفي ذلك يقول ابن الخطيب:[٥]

عَهْدِي بِهَاتِيكَ الكَرِيمَةِ مُهْرَقٌ يَقَقٌ[٦] تُسَرُّ بِهِ العُيُونُ وَتُغْبَطُ
أَغْرَيْتُ أَجْزَاءَ المِدَادِ بِظِلِّهَا وَكَذا المِدَادُ عَلَى الطُّرُوسِ مُسَلَّطُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٩٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٨٧.
[٣] الفحوص: جمع فحص وهو المرج.
[٤] ابن الخطيب، الإحاطة: ١٣٨/١. اللمحة البدرية: ص: ٤٢ – ٤٣.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٤. انظر كذلك ص: ٣٧٩ – ٧٤١.
[٦] يقق: شديد البياض ناصعة.

ونلحظ في هذين البيتين مظهراً حضارياً وهو التجمل والعناية وصبغ الشيب بألوان داكنة تخفيه، كما نلحظ هذا التصوير الحضاري الجميل حيث صور بياض اللحية ببياض الطرس المتخذ للكتابة، وسواد الحناء بسواد المداد، ولاشك أن هذا التصوير مستلهم من بيئة متحضرة بيئة علم وكتابة.

وقال – أيضاً:[١]

إِنَّ شَمْسَ الدِّينِ فَخْرَ المُلُوكْ دُرَّةَ العِقْدِ وَوُسْطَى السُّــلُوكْ

دَلَكَ الكَفَّ بِحِنَّاءٍ فَقُــلْنَا أَنْتَ شَمْسُ الدِّينِ عِنْدَ الدُّلُوكْ[٢]

وهذا البيت يصور عادة – غريبة – عند أهل غرناطة وهي **وضع الرجال للحناء** واستعمالهم لها على اليدين، لأنه – كما هو معروف – أن الحناء من أدوات الزينة التي تبرز جمال المرأة في يديها. أما الرجال فلم نألف وضع الحناء عندهم إلا في صبغ اللحى. ونلحظ في البيت الأول صورة حضارية حيث شبه هذا السلطان بالدرة الثمينة التي تتوسط العقد.

وكان من عادات الرجال في المجتمع الغرناطي **حمل السكين**، والدليل على ذلك أن ابن الخطيب قد نظم شعراً ليكتب على هذه السكين، مثل قوله:[٣]

إِنَّ شَهَرتْ نَصْلِي يَدَا "يُوسُفٍ" رِيعَتْ لِفَتْكِي مُهْجَةُ اللَّيْثِ

وَلُحْتُ مِثْلَ البَرْقِ فِي كَــفِّهِ لاَ يُنْكَرُ البَرْقُ عَلَى الغَيْثِ

ففي هذين البيتين يشبه ابن الخطيب لمعان هذه السكين في يد السلطان بالبرق الذي يسبق الغيث، الذي يشبه سلطانه في جوده وكرمه.

وقد نص ابن الخطيب في تقديم هذين البيتين أنه نظمهما في **سكين الكم**، ولا شك أن الكتابة على هذه السكين يدل على أنها للزينة، كما يدل على حضارة هذا المجتمع حيث العناية بتحسين وتجميل كل شيء يرتديه الشخص أو يحيط به في مسكن أو غيره.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن ابن الخطيب قد أشار في ديوانه إلى هذه العادة في أربعة مواضع ليكتب نظمه على هذه السكين. ولكنه أشار إليها بأكثر من اسم

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٧٥.
[٢] دلوك الشمس: ميلها للغروب.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٩٢.

وهي: سكين الكم[١]. وسكين البشر[٢]، وسكين الأضاحي[٣]. ومما قاله فيها – أي سكين الأضاحي – وكُتب عليها:[٤].

لِيَ الفَخْرُ إِنْ أَبْصَرْتَنِي أَوْ سَمِعْتَ بِي عَلَى كُل مَصْقُولِ الغِرَارَيْنِ[٥] مُرْهَفِ
كَفَانِيَ فَخْراً أَنْ تَرَانِي قَائِمـــــاً بِسنةِ" إِبْرَاهِيمَ" فِي كَـفِّ" يُوسُفِ"

ونلحظ في هذين البيتين أشارة حضارية غير تلك العادة، وهي الإشارة إلى اسم النبيَّيْن " إبراهيم ويوسف" -عليهما السلام –والمراد بيوسف هنا هو السلطان "يوسف أبو الحجاج". وكذلك الإشارة إلى سنة الأضحية في الدين الإسلامي، ولا شك أن ذلك مستمد من معين الثقافة الإسلامية.

وتتضح في شعر ابن الخطيب عادةً حضارية اجتماعية أخرى وهي **الهدية** مثل إهداء ابن الخطيب الذي بعث به مع زجاجة ماء ورد إلى أحد القضاة، وقال فيه:[٦]

خُذْهَا مُجَاجَةَ مَاءَ زَهْرٍ بِاسِمٍ مِنْ فَوْقِ غُصْنٍ لِلرِّياضِ رَطِيبِ
أَهْدَيْتُها طِيباً إِلَيْكَ وإِنْ يَكُنْ عِلْمِي بِأَنَّكَ طَيِّبُ الطِّـــــيبِ
أَرَأَيْتَ بِنْتَ زُجَاجَةٍ وَمُجَاجَـةٍ[٧] تُهْدَى إِلَى قَاضٍ مِن ابْنِ خَطِيبِ

ويتضح من خلال الأبيات مزج ابن الخطيب أوصاف هديته بأوصاف المهدى إليه. كما نلحظ القدرة على التلاعب بالألفاظ وطرافة التعبير في البيت الأخير. بحيث استغل اتفاق الألفاظ على مدلولات متناقضة فبنت الزجاجة هي" الخمر" ولكن هديته هي عصارة ماء الزهر، ثم يبدي هذا التساؤل الاستنكاري من هذه الهدية" بنت الزجاجة" التي يتبادلها من يظن بهما التقوى.

وأحياناً أخرى نجد الشعراء يقتصرون على **وصف الهدية** دون التعرض لوصف أو ذكر المهدى إليه، ومن هذا القبيل أبيات بعثها ابن الخطيب مع هدية لأحد الأصدقاء واسمه "أبي العلاء" قال فيها:[٨]

"أَبَا العَلاَءِ" تَلَقَّاكَ الزَّمَانُ بِمَـــا تَهْوَى وَأَجْنَتَ لَكَ الدُّنْيَا مَجَانِيهَـا

---

[١] انظر: ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٣٣.
[٢] انظر: ديوان ابن الخطيب، ص: ١٤٦.
[٣] انظر: ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٨١، ص: ١٩٢.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٨١.
[٥] الغرارين: غُرّة السيف حدّه وكل شيء له حدٌّ، فحده غراره.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٤٥.
[٧] مجاجة: مجاجة الشيء عصارته، ومجاج العنب ما سال من عصيره.
[٨] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٤٤.

هَدِيّتِي لَكَ وُدٌّ لَوْ بَعَثْتُ بِـــــــــــهِ لَمْ يَسْتَطِعْ حَمْلُهُ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا
وَقَدْ بَعَثْتُ بِنَزَرِ القَدْرِ مُحْتَقَـــــــــرٍ إِنَّ الهَدَايَا عَلَى مِقْدَارِ مُهْدِيَـــها
فَانْظُرْ بِعَيْنِ الرِّضَا والسَّمْحِ لاَ نَظَرَتْ عَيْنُ العَدُوِّ لمرْأَىً فِيكَ يُرْضِيَـــها

لقد أهداه الشاعر هدية تعجز عن حملها الدنيا وهي هدية معنوية ألا وهي المودة التي تملأ قلبه، كما أهداه هدية مادية قليلة الشأن. ونلحظ في البيت الثالث اعتذار الشاعر الجميل عن الهدية التي لا تبلغ قدره العظيم (الهدايا على مقدار مهديها) .

ولم يقف ابن الخطيب بشعره عند وصف الهدايا بل تعداه إلى **الاستهداء** وطلب الهدية مثل طلب ابن الخطيب نيابةً سلطانه "أبي الحجاج" جارية اسمها " زيتونة" كانت عند السلطان " أبي الحسن المريني"، قال فيه: [١]

يَا دُرَّةً لِلْمَجْدِ مَكْنُونَـــهْ حَاجَةُ مِثْلِي مِنْكَ مَضْمُونَهْ
وَمَنْ يَجُدْ بِالخُبْزِ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُودِمَ الخُبْزَ بِزَيْتُـــونَهْ

ونلحظ في البيت الأول ذكاء الشاعر في عرض طلبه حيث قال "مضمونة" مما يستوجب قضاء حاجته لاسيما من شخص كريم كالسلطان " أبي الحسن " .

ومثله قوله في طلب جارية روميه:[٢]

وَإِنِّي لَرَاضٍ بِالَّذِي يَرْتَضِيهِ لِي وَلَوْ عَبَدَتْ آبَاؤُهَا "شَنْتَمَـارِيهْ"
وَإِنَّ ظُنُونِي فِي الإِمَامِ وَفَضْلِهِ مُحَقَّقَةٌ وَاللّهِ لاَ مُتَمَـــــارِيَهْ
فَفَازَ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ فَضْلِ رَبِّـــهِ وَأُمُّ الَّذِي يَهْوَى لَهُ الشَّرُ هَاوِيَهْ

وفي هذه الأبيات أيضاً يبدي حسن ظنه بمن يطلبه حيث قال (محققه والله) مما يجعل قضاء حاجته مضموناً ونلحظ سمة الحضارة في البيت الأخير حيث أشار إلى القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ سورة القارعة الآيات: ٩ – ١١.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦١٤.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٨١.

والهدية – ولاشك – **تقتضي الشكر**، ففي ذلك إظهاراً لتقدير المهدي واعترافاً بجميله. ومن شواهد ذلك قول ابن الخطيب في شكر أحد أصدقائه في المغرب وقد بعث له بجواد:[١]

وَإِنِّي بِمَا أَوْلَيْتَ بَدْءاً وَعَوْدَةً وَلاَ مِثْلَ إِهْدَاء الجَوَادِ المطَهَّمِ
بَعَثْتَ بِهِ بَحْراً لَهُ مِنْ مَرَاحِهِ عُبَابٌ بِمَوْجِ الزَّهْوِ وَالْبَأْوِيَرْتَمِي
فَبَوَّأْتُهُ مِنْ مُهْجَتِي مُـــتَبَوَّأً عَزِيزاً عَلَى سِرِّ الفُؤَادِ المكَتَّمِ

وقال – أيضاً – وقد أهدى إليه أحد الأصحاب " قباقب خشب كتب معها قصيدة:[٢]

قَدْ قَبِلْنَا جِيَادَكَ الدُّهْمَ لَمَّـــا أَنْ بَلَوْنَا مِنْهَا العِتَاقَ الحِسَانَا
وَأَرَدْنَا امْتِطَاءَهَا فَاتَّخَـــذْنَـا مِنْ شِرَاكِ الأَدِيمِ فِيهَا عِنَانَا
قَدِمَتْ قَبْلَهَا كَتِيبَةُ سِـــحْرٍ مِنْ كِتَابٍ سَبَتْ بِهِ الأَذْهَانَا
لَمْ يَرُقْ مُقْلَتِي وَلاَ رَاقَ قَلْبِـــي كَعُـلاَهَا بِرَاعَـــــةً وَبَيَانا
مَنْ يَكُنْ مُهْدِياً فَمِثْلُكَ يُهْدِي لَمْ أَجِـــدْ لِلثَّنَا عَلَيْكَ لِسَانَا

ونلحظ من خلال الأبيات الأسلوب المتحضر في قبول الهدية والشكر عليها والثناء على صاحبها، ومما يلفت النظر أن إعجاب ابن الخطيب وثناءه لم يكن بسبب هذه الهدية البسيطة – القبقاب – بل إلى جانبها نلحظ الإعجاب بالقصيدة الرائعة البيان التي بعث بها حتى أنه فضلها على كل هدية مادية أخرى وقال أن من كان مهدياً فليهدي الهدية الرفيعة القدر، ولاشك أن في ذلك ما يلمح إلى حضارة فكرية نشطة تمثلت في التهادي **بالأدب الرفيع** في مجتمع كان العلم والثقافة من أبرز سماته، كما لاحظنا سابقاً.

وقال – أيضاً:[٣]

الشُّكْرُ يَصْغُرُ وَالهِبَاتُ تَزِيدُ فَمَتَى يُجِيدُ القَوْلَ فِيكَ مُجِيدُ؟

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٦٨ – ٥٦٩.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٩٦.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣١٨.

وقد وقف الشعراء من **تقصير أصدقائهم في الهدية** – أحياناً – موقفاً فكاهياً، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن الخطيب في شأن فرس أهديت لسلطان غرناطة من نظيره المغربي، وكان بعرقوبه(**جراداً**) وهو ورم في عرقوب الدابة يعظم حتى يمنعها من السعي والمشي[١]، فأراد أن يشعرهم بذلك فقال على لسان الفرس:[٢]

أَشْكُو إِلَى الصَيْدِ مِنْ "أَبْنَاءِ يَعْقُوبِ" وَالنُّجْحُ مَا بَيْنَ مَضْمُونٍ وَمرْقُوبِ

زَرَعْتُ "عُرْقُوبَ" أَرْضِي مِنْ شَعِيرِكُمْ جَاءَ "الجَرَادُ" فَأَفْنَى زَرْعَ "عُرْقُوبِي"

ويتضح من البيت الثاني التعريض بهذه الفرس المصابة بالجراد في عرقوبها. والعرقوب من الدابة هو ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يديها. أما من الأرض فهو ما انحنى والتوى من الوادي.

ولاشك أن **شعر المهاداة** ظهر نتيجة للتقدم الحضاري الكبير الذي أحرزه المجتمع العربي في الأندلس. كما أن استقراء المادة الموجودة في ديوان ابن الخطيب – والتي تم الإشارة إليها – يدل على تنوع الشعر المتصل بالهدية حيث تمثل في: الإهداء، والاستهداء والشكر والمداعبة. بحيث كشف عن كثير من سمات المجتمع الغرناطي المتحضر. إلا أن الترف والتطور الذي عم المجتمع في ذلك الوقت قاده إلى **عادات اجتماعية مخالفة للشرع** وردت أصداء منها في شعر ابن الخطيب مثل ظاهرة **هوى الغلمان والتغزل بهم**، كقول ابن الخطيب في رجل ولع بغلامه:[٣]

بِنَفْسِي حَالكٌ شِبْهُ السُّوَيْدَا لِذَلِكَ مَا يَحِنُّ لَهُ الفُؤَادُ

أَطِيلُ لَهُ التِفَاتِيَ وَالتِمَاحِي لأَنَّ العَيْنَ يَنْفَعُهَا السَّوَادَ

واللافت للنظر في هذين البيتين أنه يتغزل بغلام أسمر. إنه الإسراف في الترف، الذي يقود إلى التحلل وتلمس الملذات من كل وجه، كما يدعو إلى الملل من المألوف المتكرر.

---

[١] انظر: ديوان ابن الخطيب، ص: ١٤٢.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٤٣.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٢٨.

كما نلحظ آفة – أخرى – بدأ انتشارها في غرناطة في القرن الثامن وهي آفة **تعاطي الحشيش**، ونجد إشارة إلى هذه الآفة في شعر ابن الخطيب حيث يقول: (وقلت أعرض بمن تناول نبات القنب[١]، وكنيت عنه بالربيع موافقه لكنية أبي المخاطب:

أَتَى "ابْنُ سُلَيْمَانٍ" وَفِي الفِكْرِ فَتْرَةً يُخَبِّرُ أَنَّ العَـــقْلَ جِدُّ مُغَـــيَّبِ

فَقُلْتُ: أَظُنُّ السَّـــيِّدَ اعْتَمَّ عِمَّـــةً وَلِكِنَّهَا فِي الأَصْلِ مِنْ كُنْيَةِ الأَبِ[٢]

ونلحظ من البيت الأول شدة تأثير هذه المادة المخدرة حيث تغيب العقل تماماً. وهذا يدل على انتشار مثل هذه المواد المخدرة وتعاطيها من قبل بعض الأفراد في المجتمع.[٣]

نخلص مما سبق إلى أن شعر ابن الخطيب قد عرض لبعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الغرناطي في عصره مما يكشف عن جانب مهم من حضارة هذا المجتمع.

ومما يستوقف الباحث في شعر ابن الخطيب هو الإشارة إلى كثير من المناسبات الاجتماعية **كالأعياد والاحتفالات المتنوعة**. ولا شك أن أهم المناسبات عل الإنسان هي المناسبات الدينية كالأعياد وقد كان من **العادات الحضارية** التقدم بالتهنئة في مثل هذه المناسبات. ومن الأمثلة على ذلك تهنئة ابن الخطيب للسلطان بمناسبة عيد الفطر، كقوله:[٤]

هُنِّيتَ عِيدَ الفِطْرِ أَسْعَدَ قَادِمٍ حَثَّ السُّرَى شَوْقاً إِلَى لُقْيَاكَا

وَالشَّهْـرُ وَدَّ بِأَنْ يَطُولَ مَقَامُه كَلَفاً بِودِّك مِنْهُ وَاسْتِمْسَاكَا

وَفَّيْتَ حَـــقَّ صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ بِمَقَامِ صِدْقٍ لَمْ يَقُمْهُ سِوَاكَا

ونلحظ في الأبيات الأسلوب المتحضر حيث بدأ الشاعر بالتهنئة بهذه المناسبة الدينية العظيمة التي تعقب شهر رمضان المبارك الذي انقضى وقد عمر السلطان أيامه ولياليه بالصيام والقيام والعمل الصالح، حتى أنه لم يكن يود الرحيل كلفاً بمثل هذا

---

[١] هو القنب الهندي، وهو نوع يستخرج منه المخدر الضار المعروف بالحشيش، انظر: المعجم الوسيط: ٧٦١/٢. مادة (قنب)

[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٥٣.

[٣] انظر: ابن الخطيب، نفاضة الجراب: ٣٤٨/٢ – ٣٤٩.

[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٧١.

السلطان لولا أن هذه هي سنة الأيام ليأتي العيد بشوق إليه. ونلحظ جمال الأسلوب في هذا التشخيص الذي أبرز ذلك الشهر والعيد بعدهُ بأشخاص يحسون ويحبون ويتشوقون ليبين مدى تقوى وإخلاص سلطانه.

والملاحظ أن التهنئة بعيد الفطر لابد أن تقترن بذكر شهر رمضان الذي سبقه، كما في المثال السابق، وكما في قوله:[1]

تَلَقَّيْتَ شَهْرَ الصَّوْمِ بِالبِرِّ وَالتُّقَى ... تَوَدُّ بِأَنْ لاَ يَنْقَضِـــي ذَلِكَ الشَّهْرُ
وَوَدَّعَ يَثْنِي بِالَّـــــذِي أَنْتَ أَهْلَهُ ... وَقَدْ جَلَّتَ الزُّلْفَى وَقَدْ عَظُمَ الأَجْرُ
وَوَافَاكَ شَهْـرُ الصَوْمِ يَزْهَى بِغُرَّةٍ ... تَرِفُّ بِهَا البُشْرَى وَيَبْدُو بِهَا اليِشْرُ
أَتَيْتَ مُصَـلاَّهُ عَلَى قَدَمِ الرِّضَى ... وَقَدْ عَظُمَ التَّمْجِيدُ لِلَّهِ وَالذِّكْـرُ

ونلحظ في هذه الأبيات مدح الشاعر لسلطانه بالقيام بحق الله تعالى في هذا الشهر الكريم، حتى أنه رحل مثنياً عليه، ثم يشير في البيت الأخير إلى مراسم استقبال عيد الفطر حيث يتوجه السلطان إلى مصلى العيد، ونلحظ في قوله (عظم التمجيد لله والذكر) اجتماع الناس وكثرتهم في صلاة العيد.

ثم يسترسل ابن الخطيب في وصف قدوم **موكب السلطان** إلى مصلى العيد الذي احتشدت فيه الجموع الغفيرة من الناس، فيقول:[2]

وَقَدْ غَصَّ مِنْ وُسْعِ السَّبِيكَةِ وُسْعُهَا ... وَجَرَّ بِهَـــا أَذْيَالَهُ العَسْكَرُ المجْرُ
وَمَا رِيَء مِـــــــنْ مِثْل لَهُ يَوْمَ زِينَةٍ ... كَأَنَّ نَضِيَر الزَّهْر رَاقَ بِهِ الزَّهْرُ
فَهُنِّيتَهُ عِيداً سَعِـــــيداً إِذَا انْقَضَى ... أَتَتْكَ ضُـــرُوبٌ مِنْهُ لَيْسَ لَهَا حَصْرُ

ونلحظ وصف هذا الموكب المهيب، وإحاطة الجند بالسلطان وتوزعهم في كافة أرجاء ساحة السبيكة – قلعة الحمراء – التي ضاقت على وسعها بهم. وهو يهيب بهذا الموكب وفخامته الذي لم يُر مثله في أي مناسبة مماثلة. وتلك إشارة حضارية تعكس

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٠٢.
[2] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٠٢.

مدى الفخامة والاستعداد والترتيب المسبق والمنظم لمثل هذه المناسابات. كما نلمح مظهراً حضارياً في إشارته إلى يوم الزينة. مما يدل على عناية كبيرة بالمظهر وأناقة الهندام وفخامته. وفي نهاية الأبيات يتقدم الشاعر بتهنئة السلطان بهذه المناسبة.

كما أشار ابن الخطيب – أيضاً – إلى **عيد الأضحى**، ومن خلال إشارته يمكن تصور ما كان يدور في يوم العيد، كقوله:[1]

لَقَدْ أَبْصَرَتْ مِنْكَ النَّوَاظِرُ مِلأَهَا غَدَاةَ بَدَا مَنْ عُــزَّةِ العِيدِ طَالِعُ
وَأَحْــيَيْت لِلدِّينِ الحَنِيفِ شَرَائِعاً بِأَنْصَارِ دِينِ اللّهِ تُحْيَا الشَّــرَائِعُ
وَقَدْ زَحَفَتْ يُعْشِي العُيُونَ رُوَاؤُهَا صُفُوفٌ مِنَ الفُرْسَانِ وَهْيَ دَوَارِعُ

وفي هذه الأبيات نلحظ الموكب الملكي الفخم الذي وصل به السلطان إلى مصلى العيد حيث يحيط به الجند من كل جانب، كما نلحظ إشارة حضارية تتمثل في وصف منظر الجند وهم مصطفون بأبهى منظر وقد ارتدوا زيهم وأسلحتهم ووقفوا في صفوف منتظمة. وبعد أداء الصلاة، فصّل ابن الخطيب ما حدث بعد ذلك فقال:[2]

فَلَمَّا قَضَيْتَ العِيدَ سُنَّةَ نَحْــرِهِ وَأُطْعِمَ مُعْتَرٌّ هُنَاكَ وَقَانِــــعُ[3]
رَجَعْتَ إِلَى دَارِ الخِلاَفَةِ والعُلَــى فَضَاءَتْ بِنُورِ الهَدْيِ تِلْكَ المَرَابِـعُ
وَعَرَّضَتْ لِلتَّقْبِيلِ كَفّاً كَرِيمَةً تَفِيضُ عَلَى الطُّلاَّبِ مِنْهَا يَنَابِـعُ
وَذَاعَتْ بِرَوْضِ المَدْحِ فِيكَ مَدَائِحٌ كَمَا ذَاعَ مِنْ أَنْفَاسِ"دَارِينَ" ذَائِعُ
فَيَهْنِيكَ فِي الأَعْيَادِ أَسْعَدُ قَـادِمٍ يُخَبِّرُ أَنَّ الفَتْحَ مِنْ بَعْدُ تَابِــعُ

وفي الأبيات تفصيل لمراسم ذلك العيد فبعد الصلاة، وقضاء سنة النحر وإطعام المحتاجين، يتم الرجوع إلى دار الخلافة، فيبدأ الناس بالسلام على السلطان ويلفت النظر في هذا البيت صدق عرض ابن الخطيب حيث ألمح إلى عادة متبعة في السلام على السلطان وهي **تقبيل الكف**. وبعد السلام يستمع الجميع إلى الشعراء الذين نظموا المدائح في السلطان، ثم يختم القصيدة – كما في النموذج السابق أيضاً – بتهنئة السلطان بهذا العيد.

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٥٠.
[2] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٥٠.
[3] القانع: هو السائل.

كما أكد ابن الخطيب بشعره على احتفال الأندلسيين بعيد **النيروز أو النوروز**، من الأعياد الفارسية، وهو لفظ فارسي معرب[١]، يعني اليوم الجديد، وقد اقترن الاحتفال بهذا العيد بالطبيعة، ويأتي في بداية السنة في أوائل شهر يناير من كل عام[٢] ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الخطيب في تهنئة السلطان بهذا العيد:[٣]

زَمَانُكَ أَفْرَاحٌ لَدَيْنَا وَأَعْيَادُ فَعِيدٌ وَنَيْرُوزٌ سَعِيدٌ وَمِيلاَدُ
تَزُورُكَ أَثْنَاءَ الزَّمَانِ كَأَنَّها عُفَاةٌ تُرَجِّي رَاحَتَيْكَ وَقُصَّادُ
لَقَدْ عَمَّ مِنْكَ الرِّفْدُ مَنْ جَاءَ قَاصِداً نَوَالَكَ حَتَّى لِلمَوَاسِمِ إِرفَادُ

ففي هذه الأبيات نلمح مظهراً حضارياً تجلى في التخلي عن المقدمات التقليدية في قصائد المديح واستهلال القصيدة مباشرة بالتهنئة بعيد من أعياد الفرس، وفي ذلك ما يعكس وجهاً للمجتمع الغرناطي ويدل على التعايش بين مختلف الأجناس والأديان فيه ومشاركة هذه الأجناس في احفالاتهم على الأقل في الجانب المسلي منها[٤]. كما نلحظ من هذه الأبيات الوضع الاجتماعي المستقر في عهد هذا السلطان حيث كان عهداً حافلاً بالسرور والبهجة.

وكما بدأ هذه القصيدة بالتهنئة بالنيروز فكذلك ختم القصيدة بتكرار التهنئة له بعد ذكر السلم والهدنة مع الأعداء، فقال:[٥]

وَيَهْنِيكَ نَيْرُوزٌ سَعِيدٌ قَدْ انْقَضَى أَتَتْكَ عَلَى آثَارِهِ مِنْهُ أَعْدَادُ
أَتَاكَ عَلَى عِلْمٍ بِجُودِكَ فِي الوَرَى فَأَمَّلَ مِنْ جَدْوَاكَ مَا هُوَ يَعْتَادُ
وَمَا هُوَ إِلاَ رَائِدٌ لِبَشَائِرٍ فَلاَ زَالَ يَحْدُوهَا إِلَيْكَ وَيَقْتَادُ

ونلحظ في البيت الأخير التفاؤل بهذا العيد الذي مضى، حيث عم السلم البلاد، وأمّل أن يكون بداية لكل خير على هذه المملكة، لا سيما وأن موقعه في أول العام وفي ذلك ما يشير إلى التأمل بأن كل عام يكون مفتتح خير بإذن الله.

---

[١] انظر: موهوب بن أحمد " أبا منصور الجواليقي: " المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم. تحقيق: (د . ف) عبد الرحيم، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠، ص: ٦١٧ – ٦١٨. ولفظ " النيروز شبيه بأبنية العرب لأنه على مثال (فيعول). انظر: أحمد بن فارس: رسالة النيروز نشر: عبد السلام هارون، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص: ١٨ – ١٩.

[٢] انظر: أبا العباس العزفي: (الدر المنظم في مولد النبي المعظم) صفحة من هذا الكتاب المخطوط نشرها د. عبد الهادي التازي، مجلة دعوة الحق، العدد ٢٧٧، ديسمبر ١٩٨٩م ، ص: ٥٠ – ٥٤. وقد بين العزفي مقدار اهتمام الأندلسيين بأعياد النصارى وغير المسلمين.

[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٧١.

[٤] انظر: خالد زيادة: اللهو والمدينة، مجلة الاجتهاد، العدد: ٧، السنة: ٢، ١٩٩٠م ، ص: ١٣٩ – ١٤٢.

[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٧٤.

كما أشار ابن الخطيب بشعره إلى احتفال أهل غرناطة بمناسبة دينية أخرى وهي **عيد المولد النبوي**[١]، حيث كان من المناسبات الرسمية في غرناطة التي يحتفل بها في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول كل عام. ويتم فيها إحياء الليالي بالذكر في المساجد، والزوايا، والمباني السلطانية، وتقرأ المدائح النبوية "المولديات" حيث يسهم أغلب الشعراء في نظمها.[٢]

وقد أقيم هذا الاحتفال في غرناطة في عهد "محمد الخامس" عندما رجع من المغرب إلى الأندلس. وكان أول احتفال أقامه الغني بالله على طريقة المغاربة احتفال سنة (٧٦٤هـ)، وفي هذه الليلة نصبت لأول مرة (ساعة المنكانة)[٣] التي اختص ابن الخطيب بوصف انقضاء ساعاتها وما فيه من عبرة، كقوله:[٤]

سَاعَةٌ أُولَى مِنَ اللَّيْلِ انْقَضَتْ شَرَعَتْ شَرْعَ الرِّضَى وَافْتَرَضَتْ
نَفَضَتْ مِنْ سُبْحَةِ اللَّيلِ يَـدٌ نَظَمَتْ مِنْ سَبَحٍ مَا نَقَضَـتْ
وَمَضَتْ مِنْ بَعْدِ أُنْسٍ وَكَذا سَاعَةُ الأُنْسِ إِذَا سَرَّتْ مَضَـتْ

كما نظم ابن الخطيب العديد من القصائد الميلادية، ومن الأمثلة عليها قوله[٥]:

فَيَالَيْلَةً قَدْ عَظَّـمَ اللّهُ قَدْرَهَا وَأَنْجَزَ لِلنُّورِ المبِينِ بِهَا وَعْـدَا
حَقِيقٌ عَلَيْنَا أَنْ نَحُـلَّ لَكِ الحُبَى ونَقْرِيكِ مِنَّا البِرَّ وَالشُّكْرَ وَالحَمْدَا
وَنَجْعَلُ مِنْكَ اليَوْمَ عِيداً وَمشْهَداً نُشِيعُ مِنْ الذِّكْرِ الحَكِيمِ بِهِ شُهْداً
نَخْلَعُ مِنْ أَمْدَاحِ "أَحْمَـدَ" حُلةً عَلَيْكَ وَمِنْ مَنْظُومِ آيَاتِهِ عِقْـدَاً

ونلحظ من خلال هذه الأبيات الإشارة إلى بعض جوانب هذا الاحتفال حيث يتم إحياء هذه الليلة بقراءة الذكر الحكيم، وإنشاء المدائح التي تتناول سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وصفاته وآيات نبوته. كما أن في البيت الثالث ما يؤكد أنهم اتخذوا

---

(١) إن الاحتفال بهذا اليوم واتخاذه عيداً بدعة منكرة، لم يدل على جوازها كتاب ولا سنة ولا إجماع سلف الأمة. قال عليه الصلاة والسلام: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) (صحيح البخاري الحديث رقم ١٦٩٧). ولمعرفة رأي فقهاء الأمة في هذه البدعة انظر: الإمام أحمد بن عبد الحليم "ابن تيمية": اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم. تحقيق: محمد حامد الفقي، طبعة دار المعرفة، بيروت، (د . ت) ص: ٢٩٤ – ٢٩٥. أيضاً مجموعة من العلماء: رسائل في حكم الاحتفال بالمولد النبوي، الطبعة الأولى، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ١٩٩٨م: ٢٣٣/١ – ٢٣٤. وهي فتوى الإمام: تاج الدين عمر بن على " الفاكهاني " من متأخري المالكية في كتابه (المورد في الكلام على عمل المولد).

(٢) انظر: المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، طبعة صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط، ١٩٨٠م : ٢٤٥/١.

(٣) انظر: ابن الخطيب، نفاضة الجراب: ٢٧٨/٣ – ٢٧٩. حيث وصف هذه الساعة بدقة.

(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٤٥.

(٥) ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٥٧.

هذه المناسبة "**عيداً**" رسمياً في المملكة. كما نص على هذا الأمر في موضع آخر حيث قال:[١]

زِدْتَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الدَّهْرِ عِيداً ثَانِياً يَا مُـــؤَمَّلَ المسْلِمِينَا
لَمْ يُنَوِّهِ بِهَا سِـــوَاكَ وَقَدْ مَـرَّ زَمَانٌ وَعَاقَبَ الحِينَ حِـينَا

ولا شك أن في البيت الأول ما يدل على عدم رجوع هذا العيد إلى أصل شرعي بدليل أنه قال (زدت) مما يؤكد أنه بدعة. إلا أن ابن الخطيب لم يذكرها بهذا المعنى بل إنه ذكرها على سبيل المدح وأنها منقبة تفرد بها "الغنى بالله" عمن سبقه من حكام هذه الدولة.

تلك هي **الأعياد**[٢] التي أشار إليها ابن الخطيب بشعره ولا شك أنها تصور جانباً هاماً من حضارة المجتمع الغرناطي آنذاك.

ولم تقتصر الإشارة في شعر ابن الخطيب إلى الأعياد وحسب بل تعدتها إلى الكثير من المناسبات الاجتماعية الأخرى مثل **حفلات الزواج**، ولا شك أن لكل مجتمع عادات وتقاليد معينة في حفلات الزفاف، ففي الأندلس كانت الفكرة الإسلامية القائلة بضرورة تخير الكرائم من النساء لولادة النجباء من الأبناء هي السائدة في المجتمع الأندلسي، وقد وجدت هذه الفكرة تعبيراً عنها لدى ابن الخطيب حيث قال مهنئاً السلطان "أبا الحجاج" بزواجه:[٣]

حَتَّى إِذَا غَدَتِ البِلاَدُ قَرِيرَةً وَالأَمْـــنُ تُسْحَبُ بَيْنَهُنَّ ذُيُولَـهُ
أَرْضَيْتَ دِينَ اللّهِ مُقْتَدِياً بِمَا نَطَقَ الكِـتَابُ بِهِ وَسَنَّ رَسُولُهُ
تَسْـتَوْدِعُ الأَنْسَابَ غُرَّةَ يَعْرُبٍ وَتُشِيدُ فَخْـــراً لاَ يُطَالُ أَثِيلُهُ
وَذَهَبْتَ تَعْتَامُ البُيُوتَ مُيَمِّماً مَا يَمَّمَتْ أَذْوَاؤُهُ وَقُـــيُولُهُ[٤]
فَحَدَاكَ تَوْفِيقُ الإِلاَهِ لمنْصِبٍ مَثْواكَ مَثْوَاهُ وغِيلُكَ غِـــيلُهُ[٥]

ففي هذه الأبيات بيّن الحرص على اختيار الزوجة المناسبة للسلطان من حيث عراقة الأصل والنسب. كما نلحظ فضل هذا السلطان الذي كان همه أولاً صلاح البلاد

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦١٨. .
[٢] للمزيد انظر: أحمد مختار العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة الدراسات الإسلامية مدريد، المجلد: ١٥، السنة ١٩٧٠م ، ص: ١٣٨ وما بعدها، حيث ذكر جميع الأعياد التي كان يحتفل بها الغرناطيون.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٧٨.
[٤] قيول جمع مفرده (قيل) وهو الملك من ملوك حمير باليمن يتقيل من قبله من ملوكهم يشبهه.
[٥] غليك غيله: أي منزلك منزله.

واستقرارها، وبعد مدح ابن الخطيب لآل العروس وإشادته بقدرهم ومكانتهم ذكر لمحة حضارية هامة، حيث قال:[١]

أَعْرَسْتَ فِي مَثْوَى الخِلاَفَةِ بَعْدَمَا عَكَفَتْ عُلاَكَ تُشِيدُهُ وَتَطِيلُهُ
فَبَدَا كَمَا لاَحَ الصَّبَاحُ لِنَاظِرٍ مُتَأَلِّقاً يُعْشِي العُيُونَ صَقِيلُهُ

وفي هذين البيتين وضح ابن الخطيب المكان الذي أُقيم فيه حفل الزواج، وهو القصر الجديد الذي شيده السلطان على أتم وأفخم ما يمكن، ونلحظ في البيت الثاني ما يشير إلى أن لون هذا القصر هو الأبيض الناصع الذي يعشي العيون ببريقه المصقول مما يدل على دقة الصناعة وفخامة البناء. وذلك لا شك مظهر حضاري واضح.

كما أشار ابن الخطيب بشعره إلى بعض التقاليد الاجتماعية الخاصة بالزواج مثل **المشاركة في العرس** إما بالمساعدة أو بالحضور إلى الحفل وتقديم الهدايا.

وربما اكتفى الشخص بإرسال التهنئة فقط على نحو ما فعل ابن الخطيب عندما غاب عن زواج أحد أصحابه ممن يخدمون في قصر السلطان اعتذر فيها عن الحضور فقال:[٢]

إِنْ كُنْتُ فِي العُرْسِ ذَا قُصُورٍ فَلاَ حُضُورَ ولاَ دِخَالَهْ
يَنُوبُ نَظْمِي مَنَابَ كَبْشٍ والنَّثْرُ عَنْ قُفَّةِ النُّخَالَهْ

ونلحظ في هذين البيتين سمة حضارية وهي إرسال رسائل التهاني بهذه المناسبة كنوع من التعبير الراقي والاعتذار عن عدم الحضور، وقد صاغ ابن الخطيب هذه الحجة بأسلوب فكاهي حيث ينوب شعره ونثره مناب الهدية التي يمكن أن يقدمها في حال حضوره، من كبش أو غيره، وذلك يدل على عادة اجتماعية متبعة وهي تقديم الهدايا أو على الأقل المساعدة في هذا الحفل.

كما أشار ابن الخطيب إلى بعض **العادات الحضارية في ليلة الزفاف** كقوله في وصف قصيدته التي مدح بها السلطان:[٣]

أَمَوْلاَيَ زَارَتْكَ القَوافِي كَأَنَّها هَدِيٌّ تَهادَتْهَا القِيَانُ إِلَى الزَّفِّ
عَلَيْهَا عُقُودٌ مِنْ ثَنَائِكَ نَظِّمَتْ مُنَاسِبَةَ التَّأْلِيفِ مُحْكَمَةَ الرَّصْفِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٧٨.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٠٧.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٧٦.

ونلحظ في قوله بعض المظاهر الحضارية التي تجلت في وصف القصيدة بالغادة المختالة في ليلة زفافها بأجمل صورة، وذلك يدل على تحضر فكري أدى إلى الاهتمام بفنون القول المختلفة والحرص على خروجها بشكل أنيق. كأناقة الحضارة التي عاشوا فيها وظهرت في جميع مجالات الحياة. ومن جهة أخرى نلحظ التحضر الاجتماعي في طريقة خروج العروس أثناء الحفل حيث تتهادى في مشيتها تحيط بها القيان وتتجاوب حولها أنغام الموسيقى، وهي تتزين بأجمل أنواع الحلي من العقود، التي أحكمت صناعتها بدقة. حتى تهديها إلى زوجها.

وبعد الزواج والاستقرار لا شك أن الأسرة تتطلع لحدث سعيد يملأ هذه الحياة بالبهجة والسرور وهو **ميلاد الأطفال**، حيث تتقبل الأسرة – وعلى رأسها الأب التهنئة المقرونة بالأماني المتفائلة. وقد أشار ابن الخطيب بشعره إلى هذه المناسبة الاجتماعية السعيدة – **الاحتفالات بالمواليد** – ومن ذلك قوله مهنئاً السلطان "أبي الحجاج" بميلاد ابنه "اسماعيل":[١]

هِيَ أَسْعُـدٌ مَا دُونَهُنَّ حِجَابُ ... لاَ يَنْقَضِي عَدٌ لَهَا وَحِسَـابُ
وَبَشَائِرٌ تَصِلُ النُّفُوسَ كَأَنَّمَا ... بَيْنَ النُّفُوسِ وَبَيْنَهَا أَنْسَـابُ
فَاسْعَدَ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ بِطَالِعٍ ... يُنْمَى إِلَيْهِ الحَرْبُ والمِحْرَابُ
وَاشْدُدْ بِهِ لأَخِيهِ أَزْرَاً وَارْتَقِبْ ... مِنْهُمْ أُسُودَاً، والأَسِنَّةُ غَـابُ

وإذا كان المولود ذكراً فإن السنة الإسلامية المتبعة هي الختان. وكان الشعراء الذين تولوا تسجيل نبض الحياة الاجتماعية الأندلسية. قد صوروا كثيراً من مظاهر احتفالات -**الإعذار**[٢] -أي وليمة الختان، مثل ابن الخطيب، عندما وصف في شعره حفلاً أعده الغني بالله لإعذار ولده[٣] اتسم بالفخامة والأبهة. وكان لهذا الحفل مراسم معينة يتم إعدادها مسبقاً، كما في قول ابن الخطيب:[٤]

وللّهِ إِعْذَارٌ دَعَوْتَ لَهُ الـ ... ـوَرَى فَهَبُّوا لِدَاعِيهِ المُهِيبِ وَإِنْ شَطُّوا
تَقُودُهُمُ الزُّلْفَى، وَيَدْعُوهُمُ الرِّضَى ... وَيَحْدُوهُمُ الخَصْبُ المضَاعَفُ وَالغَبْطُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٠٥.
[٢] للتعرف على أشهر هذه الحفلات التي خلدها التاريخ الأندلسي (انظر: ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق ٤/ مج ١/ ١٢٨ – ١٣٢. حيث ذكر نقلاً عن ابن حيان الحفل الذي أقامه (المأمون بن ذي النون) لاعذار حفيده (يحيى)، كذلك: المقري: نفح الطيب: ٥٩٦/١. وفيه ذكر تفاصيل حفل إعذار أقامه (المنصور بن أبي عامر) لأولاده.
[٣] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٧٩/٤.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٠.

فهذه المناسبة وإن كانت مناسبة أسرية خاصة، إلا أنه فيما يتصل بالأمراء وعليه القوم ظلت محتفظة بمظاهر المناسبات العامة التي تقام لها الولائم الفخمة، وتنفق فيها الأموال الطائلة، كما هو ملاحظ من خلال هذين البيتين حيث وجهت الدعوة لعدد كبير من الناس، والكل مسرور بهذه الدعوة الملكية، فبادر الجميع بإجابتها حتى من ابتعد منهم مكانه.

ثم بدأ ابن الخطيب بوصف جانب من هذا الاحتفال الرسمي بهذه المناسبة مثل: حضور الموكب السلطاني، ورجال الدولة، واستركاب الفرسان على أجود الخيول.. وغيرها[1] ثم وصف نجل الملك عندما تقدم للختان غير متخوف ولا هيّاب، فقال:[2]

وَجِيءَ بِشِبْلِ المُلْكِ يُنْجِدُ عَزْمَهُ عَلَيْهِ الحِفَاظُ الجَعْدُ وَالخُلُق السِّبْطُ
سَمَحْتَ بِهِ لَمْ تَرْعَ فَرْطَ ضَنَانَةٍ وَفِي مِثْلِهَا مِنْ سُنَّةٍ يُتْرَكُ الفَـــرْطُ
فَأَقْدَمَ مُخْتَاراً، وَحَكَّمَ عَاذِراً وَلَمْ يَشْتَمِلْ مِسْكٌ عَلَيْهِ وَلاَ ضَـــبْطُ
وَرُبَّتَ نَقْصٍ لِلْكَمَالِ مَآلُـــهُ وَلاَ غَرْوَ فَالأَقْلاَمُ يُصْلِحُهَا القَـــطُّ
فَهُنِّيتَهُ صُنْعاً وَدُمْتَ مُمَلَّكـــاً عَزِيزاً تُشِيدُ المعْلُوَاتِ وَتَخْتَـــــطُّ

وفي هذه الأبيات فصّل ابن الخطيب كل ما يحدث في هذا الحفل، حيث تقدم نجل السلطان للختان، دون أن يتخوف أو يمسكه أحد، ونلحظ بعض الإشارات الحضارية كالبيت الثاني حيث وضح شرعية هذه العادة وأنها سنة يجب اتباعها، وفي البيت الرابع ألمح إلى الفائدة الطبية لتمثل هذه السنة الإسلامية وقد صورها بأسلوب جميل حيث شبهها بالأقلام التي تصلح بنقصانها، ولاشك أن هذا التشبيه الحضاري مستمد من بيئة العلم والكتابة. كما أنه يدل على شخصية هذا الشاعر الكاتب.

وقد كان من مظاهر اهتمام الأندلسيين بأبنائهم الحرص على تربيتهم وتأديبهم، **ودفعهم للنهل من معين العلم والأدب** في سن مبكرة. وهذا دليل على تقدير العلم وارتباطه بالسمو الإنساني.

وكان الأطفال يتخذون من **الألواح أداة للتعلم** وتحسين الخط، وكانوا يبدأون بحفظ القرآن الكريم، فإذا أتم الطفل حفظ القرآن أو جزء منه، كان الأهل يقيمون

---

(1) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٧٩/٤. حيث وصف الإعذار وجزئياته. كذلك: د. رابح المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة، ص: ٥٥ – ٥٦.

(2) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦١.

احتفال الحذقة و(الحذق، والحذاقة: المهارة في كل عمل. ويقال لليوم الذي يختم فيه الضَّبي القرآن الكريم، هذا يوم حذاقة).[١]

ونلحظ في شعر ابن الخطيب إشارة إلى هذا الاحتفال – العادة – في شعره، عندما نظم قصيدة كتبت في لوح حذق الأمير "قيس" بن السلطان "أبي الحجاج". كما هي العادة المتبعة في مثل هذه الاحتفالات، ومما جاء فيها:[٢]

فَكَانَ أَوَّلُ مَا قَدَّمْتُ فِي صِغَرِي ... مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ جَمَعْتُ الفَضْلَ والأَدَبَا
أَنِّي جَعَلْتُ كِتَابَ اللّهِ مُعْتَمَداً ... لاَ تَعْرِفُ النَّفْسُ فِي تَحْصِيلِهِ تَعَبَا
كَأَنَّنِي كُلَّمَا رَدَّدتُهُ بِفَمِي ... اَسْتَنْشِقُ المِسْكَ أَوْ اَسْتَطْعِمُ الضَّرَبَا[٣]
حَتَّى ظَفِرْتُ بِحَظٍ مِنْهُ أُحْكِمُهُ ... حِفْظاً فَيَسَّر مِنْهُ اللّهُ لِي أَرَبَا
وَعَنْ قَرِيبٍ بحَوْلِ اللّهِ أَخْتِمُهُ ... فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الغَايَاتِ مَنْ طَلَبَا
وَكَافَأَ اللّهُ أَشْيَاخِي بِرَحْمَتِهِ ... وَمَنْ أَعَانَ ومَنْ أَمْلَى وَمَنْ كَتَبَا

ونلحظ في هذه الأبيات العديد من اللمحات الحضارية تمثلت في طلب العلم في سن صغيرة للصبيان، والملاحظ أن أول ما يبدأ الطلاب بتعليمه هو القرآن الكريم، فكان هذا الطالب – الأمير الصغير – حريصاً على المثابرة في حفظه، حتى تمكن من حفظ وإجادة جزء منه. كما نلحظ الحرص على متابعة الحفظ حتى ختم القرآن الكريم. ولاشك أن الاحتفال بختم الصبي لجزء من القرآن الكريم **مظهر حضاري رفيع** يدل على تأكيد دور الثواب في تعزيز ثقة الطالب بنفسه وتشجيعه على إتمام ما بدأه. وفي البيت الأخير يختم الشاعر قصيدته بالدعاء لكل من سعى في وصول الطالب إلى هذه النتيجة من الشيوخ الذين علموه، وكل من كان له دور في الإعانة على مواصلة العلم، والإملاء وفي الكتابة، ونلحظ من ذلك **ثمرة الحضارة التي تهذب سلوك المتعلم** وتجعله يستشعر دائماً فضل أستاذه العظيم، أيضاً ثمة ما نلحظه في الشطر الثاني من هذا البيت حيث عدد بعض المهام التي يضطلع بها البعض داخل المؤسسات التعليمية، إذ كان هناك من يعلم، ومن يملي، ومن يكتب، وذلك ولاشك يدل على تقدم علمي، وازدهار فكري.

---

[١] ابن منظور: لسان العرب: ٤٨/١٠. مادة (حذق).
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١١٩ – ١٢٠.
[٣] الضَّرب: العسل الأبيض الغليظ.

وقد كان من العادة – كما يبدو من شعر ابن الخطيب – **أن يُستدعى الأولاد أيضاً لهذا الحفل**، كما يدل على ذلك قول ابن الخطيب (وكتبت إلى الشريف القاضي[١] رحمة الله عليه – وقد استدعى الأولاد إلى حذقة أولاده:

غِشْيَانُ مَثْوَاكَ مَثْوَى الجُودِ يَوْمَ نَدَى مِمَّا يُنَافِسُ فِيهِ الوَالِدُ الوَلَدَا[٢]

ولاشك أن مشاركة الأولاد، في هذا الحفل مما يزيد من فرحة هذا الصبي بما أنجزه كما أنه يعد حافزاً لمن يحضر منهم حتى يتقدم ويتم حفظه. وبذلك يكون احتفاء الأسرة بطفلها في المجتمع الغرناطي من أهم العوامل التي تشجعه وتدفعه للحفظ واكتساب العلوم والمعارف المتنوعة.

وبذلك يكون ابن الخطيب. قد قدم بشعره وثيقة تعكس حضارة المجتمع الغرناطي وعاداته المتبعة في الاحتفال بالمواسم الدينية مثل عيدي الفطر والأضحى وكذلك عيد المولد النبوي وعيد النيروز، كما دل على احتفال أهل غرناطة بالعديد من المناسبات الاجتماعية من زواج ومواليد، وإعذار، وحذقة. وتضمنت هذه الشواهد بعض مظاهر الاحتفال بهذه المناسبات.

والمتأمل في شعر ابن الخطيب يلحظ العناية بجانب هام من حضارة المجتمع الغرناطي وهو جانب **التسلية والترفيه**، حيث كان الأندلسيون يرفهون عن أنفسهم بألوان من المتع والمسليات مثل " **الموسيقى والغناء** " فقد كان الغناء منتشراً في هذا المجتمع حتى في الشوارع والدكاكين[٣].

وقد كانت الموسيقى والغناء والرقص تمثل عنصراً مهماً في الاحتفال بالأعياد في مملكة غرناطة. وقد أشار ابن الخطيب بشعره إلى بعض هذه **الآلات الموسيقية**، ومن ذلك قوله في مدح أحد السلاطين:[٤]

غَنِيٌّ بِتَصْهَالِ الجِيَادِ عَنِ القَنَا فَلا الزِّيرُ يَسْتَهْوِي نُهَاهُ وَلاَ البَمُّ[٥]

---

[١] يقصد أبا القاسم الشريف الغرناطي.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٣٢.
[٣] انظر: ابن الخطيب، الإحاطة: ١٣٧/١.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٤٣.
[٥] الزير من أوتار العود يقابل البم. والبم هو الوتر الغليظ من أوتار العود. انظر: المقري: نفح الطيب: ١٢٦/٣.

ونلحظ في هذا البيت ذكر أحد الآلات الوترية وهو العود، حيث ذكر أسماء الأوتار وهي **الزير والبم**. كما ذكر – أيضاً – **المثاني والمثالث** وهما من الأوتار أيضاً، في قوله:[١]

وَكَأَنَّنِي عَاطَيْتُ كَأْسَ مُدَامَةٍ صَهْبَاءَ بَيْنَ مَثَالِثٍ وَمَثَانِـــــــي

وقوله:[٢]

وَعُودٌ حَنَى أَضْلاَعَهُ فَوْقَ كَاهِنٍ يَفُوهُ بِمَا يُوْحِي البَنَانُ وَمَا يُلْقِـــــي

وَيُعْرِبُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ كَأَنَّمَـا قَصَدْنَا "سَطِيحاً" أو حُبْسْنَا إِلَى "شِقِّ"

ونلحظ الحضارة في جميع هذه الأمثلة متمثلة في ذكر العود وهو من الآلات الموسيقية التي انتشرت مع تحضر المجتمع والترف الذي عاشوا فيه. كما نلحظ في المثال السابق التصوير الذي عبر به ابن الخطيب عن تأثير أنغام العود على النفس حيث أن هذه الألحان قد أعربت حقاً عما يختلج في ضمائر السامعين، حيث شبهه بالكاهن الذي يعبر عن بعض الأمور المغيبة عن الإنسان – وهي هنا المشاعر والعواطف – وذلك عندما يحرك هذه الأوتار ببنانه. كما أن ذكر هذين الكاهنين الجاهليين " سطيح " " وشق " يدل على معرفة تاريخية، وتلك حضارة فكرية واضحة.

ولم تقتصر الإشارة في شعر ابن الخطيب إلى العود فقط بل ذكر بعض الآلات الأخرى، كما نلحظ في قوله:[٣]

أَلاَ سَقِّنِي مِنْهَا دِرَاكاً وَغَنِّنِي عَلَى نَغَمَاتِ المزْهَرِ المتَرَنِّمِ

فقد ذكر **المزهر** وهو من الآلات الموسيقية.

وقوله:[٤]

شَرِقْتُ بِعَبْرَتِي لَمَّا تَغَـــــنَّتْ عَلَى الأَوْتَارِ رَائِقَةُ الشَـــبَابِ

وَمَا اسْتَعْبَرْتُ مِنْ طَرَبٍ وَلَكِنْ يُذَكِّرُنِي الرَّبَابُ هَوَى "الرَّبَابِ"

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٨٧.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٥.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٦٧.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٥١.

وقد ذكر في هذا البيت الرباب، وهو من الآلات الوترية الشعبية ذات وتر واحد. ومما أضفى على هذا البيت مسحة جمالية فنية هذا **الجناس التام** بين لفظي الرباب، حيث جاءت الأولى بمعنى الآلة الموسيقية، أما الثانية فهي اسم امرأة كان يهواها. ونلحظ في هذا البيت لمحة عن حضارة هذا المجتمع تمثلت في ذكر القيان، والآلات الموسيقية.

وقال – أيضاً – في تأبين السلطان "أبي الحسن المريني":[١]

فَإِذَا غَزَا فَمِنَ الدِّمَاءِ مُدَامُهُ وَمِنَ الصَّهِيلِ إِذَا انْتَشَى مِزْمَارُهُ

وهنا نلحظ الشخصية العظيمة التي كان يتحلى بها هذا السلطان والشغف بالجهاد في سبيل نصرة الدين، حتى أن المدام والموسيقى لا تطربه ولا تهزه وإنما تعجبه الدماء، ويطربه صهيل الخيل في ساحة المعركة، وفي ذلك كناية عن حبه للجهاد. ونلحظ في الشطر الثاني ذكر أحد الآلات الموسيقية وهو **المزمار**.

ومما سبق نلحظ تنوع هذه الآلات مما يدل على سوق نافقة للغناء. الذي يعد من مظاهر الحضارة الاجتماعية، لأنه لا ينتشر إلا (إذا توفر – العمران – وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ثم الكمالي تفننوا فتحدث هذه الصناعة لأنه...لا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملذوذات)[٢].

وقد اقتضى ذوق الأندلسيين المترف أن تكون الموسيقى الملائمة لحسهم الحضاري الناعم مبعثها الآلات الوترية[٣] التي ترسل أرق النغمات وأدقها. ومن هنا لاحظنا أن **العود** كان أكثر الآلات ذكراً في شعر ابن الخطيب. حيث كان سيد آلات الطرب في مجالس أنسهم، ثم يليه **المزهر والمزمار**.

ومن وسائل التسلية والترفيه في المجتمع الغرناطي **مجالس الأنس والشراب** حيث مثلت الخمر ومجالسها الكثيرة سمة بارزة من سمات المجتمع الأندلسي، حين أصبحت، إحدى المتع الجوهرية التي أقبل عليها الكثيرون في ولع حقيقي يشغلون بها أوقاتهم ليلاً أو نهاراً في أسلوب حضري مترف. ومن هنا كثرت القصائد والمقطوعات التي صور فيها الشعراء الخمر ومجالسها.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٤١.
[٢] ابن خلدون: المقدمة: ص: ٤٢٦.
[٣] انظر: السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م ، ص: ١٥٥ – ١٥٦.

وقد أشار ابن الخطيب في عدة مواضع من ديوانه إلى مجالس الأنس العامرة بالغناء والموسيقى والشراب إذ كانت هذه الأشياء غالباً متلازمة. وغالباً ما كانت الطبيعة والرياض من أفضل الأماكن لقضاء تلك الأوقات. والملاحظ أن أغلب قصائده في هذه الموضوعات نظمها بطلب من السلطان نفسه، ومن هذا القبيل قوله في وصف ليلة أنس:[1]

وَلَيْلَة أُنْسٍ بَاح مِنَّا بِهَا الهَـوَى فَهُزَّتْ لِتَرْجِـيعِ التَّقِيلِ المَنَاكِـبُ
بِعُودٍ تَرَى وَقْعَ الأَنَامِلِ فَوْقَـهُ كَمَا اجْتَهَدتْ فِي نَسْجِهِنَّ العَنَاكِبُ
وَدَارَتْ بِنَا الأَقْدَاحُ حَتَّى كَأَنَّنَا بُدُورٌ وَكَاسَـاتُ المدَامِ كَوَاكِـبُ
يُظَلِّلُنَا بِالغَيْمِ نَدٌّ وَعَـنْبَرٌ وَتَنْضَحُنَا بِالطِّـيبِ سُحْبٌ سَوَاكِـبُ

ونلحظ في هذه المقطوعة على قصرها تصويراً دقيقاً لكل ما يحدث في مجالس الأنس في ذلك العصر، من الموسيقى والرقص والخمر والعطور، كما يستوقف الباحث في البيت الأول قيام الرجال بالرقص في المجتمع الأندلسي آنذاك، وهذا الوصف يعكس بوضوح الرفاهية والنعيم الذي كانوا يستمتعون به في هذا المجلس. فالعطور ترش مثل رش السحاب والند والعنبر يملأ أجواء المكان حتى كأنه الغيوم، مما يدل على كثافة الكمية المستخدمة منهما.

وقد كانت **المتنزهات والرياض والبساتين والحدائق، وضفاف الأنهار**، والمواقع المحفوفة بالكروم والمعاصر، أماكن مفضلة للسهر والمتعة. إلى جانب المنازل والقصور ذات المجالس المعدة في فخامة آسرة. ومن الشواهد على ذلك وصف ابن الخطيب لمجلس في أحضان الطبيعة، ومما قال فيه:[2]

وَهَذَا زَمَانُ الزَّهْرِ حَيَّاكَ بَاسِـماً تَلُوحُ سِمَاتُ البَشْرِ فِي وَجْهِهِ الطَّلْـقِ
وَقَدْ قَادَ يَوْمَ الغَيْمِ سُحْباً كَأَنَّهَا رِفَاقٌ أَتَتْ تَمْشِي الهُوَيْنَى عَلَى رِفْـقِ
حَلَتْ بِهَا وَالوَرْدُ هَدْيٌ مُقَـرَّبٌ فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ نَحَرْتُ بِهَا زِقِّـي
وَسِيَّلْتُهَا حَمْرَاءَ والغَيْمَ عَاكِـفٌ فَضَاءَ لَها جَوِّي وَضَاعَ بَهَا أُفْقِـي
وَحَيَّيْتُ أَكْوَاسِي بِهَا فَكَـأَنَّهَا جُسُومٌ تَشِفُّ الرُّوحَ فِي بَدْأَةِ الخَـلْقِ
تَخَالُ بِهَا الإِبْرِيقَ عِنْدَ سُجُـودِهِ إِمَاماً يُطِيلُ المكْثَ فِي أَحْرُفِ الحَلْقِ

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٠٨.
[2] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩٤.

ونلحظ في هذه الأبيات مظاهر حضارية متعددة، مثل الإشارة إلى بعض مناسك الحج، كالهدى والنحر، في البيت الثالث، وتشبيه الإبريق في حالة الصب المتكرر منه بالإمام في الصلاة وقد كرر حروف الحلق، ليصور حركته وصوت انسكاب الشراب بكل دقة، ويسجل هنا لابن الخطيب هذه المهارة في التقاط وجه الشبه، في هذا التشبيه الحضاري المستمد من بيئة العلم. كما نلحظ في البيت الخامس الدقة في صنع الزجاج وصقله بحيث جاء شفافاً لامعاً، وذلك يدل على حضارة اجتماعية متقدمة.

كما تدلنا هذه الأبيات – أيضاً – على بعض الموضوعات التي اشتملت عليها قصائد الخمر ومجالسها، حين بين الشاعر **مكان الشراب** وكان أحد الرياض النضره، وبعض **الأواني** التي دأب الأندلسيون – وغيرهم - على تقديم الشراب فيها، وهي في جملتها أوانٍ حضرية فاخرة، وهي: الزق، والكأس، والإبريق، كما بين الوقت الذي اجتمعوا فيه للشرب وهو الليل كما هو واضح في البيت الرابع.

وكما وصف الشعراء الخمر وأوانيها، وأماكن شربها، وصفوا أيضاً **السقاة** والساقيات في هذه المجالس ونلحظ في شعر ابن الخطيب إشارة لذلك، كقوله:[1]

كَيَف آمَنْتُما على الشَّرْبِ ظَبْياً لَحْظُهُ في القُلُوب غَيْرُ أمينِ

ولا يعني ذلك الإقبال على الخمر في هذا المجتمع عدم وجود رفض أو استنكار لذلك، بل كان هناك مقاومة ورد فعل عنيف للحد من تياره بإقامة الحد على من تثبت عليه البينة[2]. ومع ذلك فإنها كانت شائعة في المجتمع الأندلسي – بعامة – وقد يكون ذلك بسبب تظافر عدة عوامل منها: الرغبة الأكيدة في الهرب من الواقع بسبب الخطر الدائم الذي يعيشون فيه بسبب مجاورتهم للأعداء في **الخارج**، والصراع من أجل السلطة والجاه في **الداخل**[3]، ورخاء اقتصادي يغري – ليس بالضرورة الجميع – بالتمتع والرفاهية، كذلك كثرة إنتاج الكروم في بلادهم، إلى جانب الطبيعة الساحرة التي ساعدتهم على ذلك.

ومن وسائل الترفيه – أيضاً – التي وردت في شعر ابن الخطيب **ألعاب الفروسية ومصارعة الحيوانات** حيث كانت تقام في حلبات أو ساحات متعددة خصصت لذلك،

---

(١) ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٠٦، وانظر، ص:٧٠٥.

(٢) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٣٨٨/١. حيث وضح جهود السلطان إسماعيل بن فرج بن نصر" في محاربة البدع والمنكرات.

(٣) انظر: د. حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ص: ٢٨١.

مثل: ساحة باب الرملة، وساحة باب الطوابين، وكذلك في قلعة الحمراء ذاتها أمام برج "الغُدُر".[١]

وكانت رواية ابن الخطيب[٢] قد دلت على كيفية إقامة مثل هذه المسابقات حيث تقام في هذه الأماكن دائرة خشبية في مكان عالي تسمي " الطبلة " ثم يأخذ الفرسان بقذفها برماحهم أثناء جريهم بخيولهم. وقد وصف هذه الطريقة شعراً في الإشارة إلى جانب من حفل إعذار ابن السلطان "محمد الخامس". فقال:[٣]

وَأَرْسَلْتَ يَوْمَ السَّبْقِ كُلَّ طِمِرَّةٍ كَمَا تُرْسِلُ الْمُوَمَةُ النَّارَ والنِّفْطُ
رَنَتْ عَنْ كَحِيلٍ كَالْغَزَالِ إِذَا رَنَا وَأَوْفَتْ بِهَادٍ كَالظَّلِيمِ إِذَا يَعْطُو
وَطَاعِنَةٍ نَحْرَالسُّكَاكِ أَعَانَهَا[٤] عَلَى الكَوْنِ عِرْقٌ وَاشِجٌ وَلِحىً سُبْطُ
تَلَقَّفُ حَيَّاتِ العِصِيِّ إِذَا هَوَتْ فَثُعْبَانُهَا لاَ يَسْتَتِمُّ لَهُ سَرْطُ[٥]
أَزَرْتَ بِهَا بَحْرَ الهَوَاءِ سَفِينَةً عَلَى الجَوِّ لاَ الجُودِيِّ كَانَ لَهَا حَطُّ

ونلحظ هذا الوصف الذي يدل على الحضارة، ففي البيت الأول نلحظ أن هذه الخيل التي اشتركت في السباق جميعها من الخيول العربية الأصيلة كما يوحي البيت أنها كانت كثيرة العدد، والملاحظ في البيتين الرابع والخامس الإشارة إلى القصص القرآني في قصة موسى وعصاه التي انقلبت إلى ثعبان يسعى، ليدل على المهارة العالية لهؤلاء الفرسان في إصابة الهدف بعصيهم لاسيما أنه هدف غير ثابت كما يبدو، كما أشار إلى سفينة نوح عليه السلام التي حطت على جبل الجودي. ولاشك أن استلهام هذه القصص يدل على حضارة فكرية مستمدة من معين الثقافة الإسلامية.

وقد كان سباق الخيل من وسائل **اللهو والترفيه** المفضلة لدى الطبقات العليا في المجتمع الغرناطي في عهد "بني نصر". إلى جانب **مصارعة الحيوانات**. حيث كانت هذه المصارعة تدور حول الثيران[٦] وكانت تتم بإحدى طريقتين كما ذكر ابن الخطيب والطريقة الأولى: كانت حرباً بين **الثور والأسد**، مثل قوله:[٧]

---

[١] انظر: د. الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص: ١٢٢ – ١٢٣.
[٢] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٤٧٩/٤.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٠.
[٤] السكاك: الهواء بين المساء والأرض، وقيل الذي لا يلاقي أعنان السماء.
[٥] سَرْطُ: سَرِط الطعام والشيئ: بَلِعَه.
[٦] انظر: د. العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، ص: ١٤١.
[٧] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٣٦.

أَنْعَامُ أَرْضِكَ تَقْــهَرُ الآسَادَا طَبْعٌ كَسَا الأَرْوَاحَ والأَجْــسَادَا
كَانَ الهزَبْرُ مُحَارِباً فَجَزَيْتَهُ بِجَزَاءِ مَنْ فِي الأَرْضِ رَامَ فَسَادَا

وقد ارتجل ابن الخطيب هذين البيتين عندما شاهد هذه المصارعة حيث انتصر الثور وجرح الأسد ثم خرج طائفة من الرجال المدربين وأخذوا يناوشون الأسد الجريح حتى قتلوه. ونلحظ في البيت الثاني لمحة حضارية تجلت في الاقتباس من القرآن الكريم[١] والإشارة إلى جزاء المفسدين في الأرض وهو القتل.

أما **الطريقة الثانية:** فقد كانت بين **الثور والإنسان**، وكانت منتشرة بين علية القوم من أهل غرناطة، وقد قدم ابن الخطيب وصفاً لتلك المصارعة[٢]، حيث يطلق الثور أو البقر الوحشي ثم تطلق عليه كلاب " اللان " المتوحشة، فتأخذ في نهش جسمه وأذنيه. ثم يدخل المصارع الذي كان فارساً مغواراً. فيهاجم الثور ثم يقتله برمحه[٣] ومما قاله في ذلك:[٤]

وَطَارَدْتَ مِقْدَامَ الصَّوَارِ بِجَارِحٍ يُصَابُ بِهِ مِنْهُ الصُّمَاخْ أَو الإِبْطُ
مَتِينَ الشَّوَى فِي رَأْسِهِ سَمْهَرِيَّةٌ[٥] مُقَصِّرَةٌ عَنْهُنَّ مَا يُنْبِتُ الخَــطُّ
وَقَدْ كَانَ ذَا تَاجٍ فَلَمَّا تَعَــلَّقَا بِسَامِعَتَيْهِ زَانَهُ مِنْهُمَا قُــــرْطُ

وفي الأبيات يصف هذه المطاردة بين الثور أو البقرة الوحشية والكلاب ويصور تغلب هذه الكلاب ونهشها للثور وتعلقها بأذنيه بصورة حضارية جميلة، صور فيها قرون الثور بالتاج الذي يعلو رأسه وازداد جمالاً بهذين القرطين اللذين تعلقا بأذنيه. وهما الكلاب، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا النوع من المصارعة لا يزال قائماً حتى اليوم في إسبانيا.[٦]

كما أشار ابن الخطيب – أيضاً – إلى وسيلة أخرى من وسائل الترفيه عند أهل غرناطة وهي **الخروج إلى الحدائق والمتنزهات**، حيث اعتاد الغرناطيون الخروج إلى الحدائق والمتنزهات خاصة أيام الأعياد، ساعدهم على ذلك تلك الحدائق الغناء التي

---

(١) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ سورة المائدة آية (٣٣).
(٢) انظر: ابن الخطيب، الإحاطة: ٤٧٩/٤.
(٣) انظر: مانويل أريليو: مساهمة العرب في مصارعة الثيران على الجياد في شبه الجزيرة الإيبيرية وعلاقتها بطعن الثور الحالي/ ندوة الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ، دمشق، ديسمبر، ١٩٩٠م، ص: ١١٤ – ١٢٠.
(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦١.
(٥) السمهرية الرمح الصلب العود. يقال هو منسوب إلي (سمهر)، رجل كان يقوم الرماح.
(٦) لا شك أن مثل هذه الرياضات محرمة لأن فيها تعذيب لهذه الحيوانات.

كانت تعج بها غرناطة،[١] ومن أشهرها ضاحية " **عين الدمع** " التي أصبحت على حد وصف ابن الخطيب نادرة الأرض والمثل في الحسن[٢]، وفيها يقول:[٣]

يَاعَهْدَ "عَيْنِ الدَّمْعِ" كَمْ مِنْ لُؤْلُؤٍ لِلدَّمْعِ جُدْتَ بِهِ عَسَاكَ تَعُودُ

تَسْرِي نَوَاسُمكَ اللِّـدَانُ بَلِيلَـةً فَيَهُزُّنِي شَوْقٌ إِلَيْكَ شَـدِيد

كما أن اعتدال الجو، وتدفق المياه، وما يحف بالمدينة من جبال وقصور – مثل قصر ابن الخطيب بعين الدمع – قد جعل من الخروج والنزهة متعة لا تنسى. وقد أشار ابن الخطيب إلى وسائل أخرى للترفيه، حيث كشف شعره فضلاً عما سبق ذكره – عن ضروب أخرى من الألعاب والرياضات الراقية، مثلت وجهاً آخر مضيئاً من وجوه المسرات الحضارية التي تجري في أوقات الفراغ. مثل **لعبة الشطرنج**، وهي رياضة عقلية شبه عسكرية[٤] يحتاج اللاعب فيها إلى إعمال الفكر والتركيز، وغالباً ما كانت مختصة برجال الطبقة الراقية.[٥]

وقد استعان ابن الخطيب بلعبة الشطرنج لوصف تحركات السلطان "محمد الخامس" عندما خرج من فاس –البيضاء -متوجهاً إلى الأندلس ليستعيد ملكه فقال:[٦]

وَلَمَّا حَثَثْتَ السَّيْرَ واللّهُ حَاكِـمٌ لِمُلْكِكَ فِي الدُّنْيَا بِعِزٍّ وَفِي الأُخْرَى

حَكَى "فَرَسَ" الشَّطْرَنْجِ طِرْفُكَ لاَيُرَى يُنَقَّلُ مِـنْ بَيْضَاءَ إِلاَّ إِلَى حَمْـرا

فقد وصف حركة تنقل السلطان بوصف حضاري شبهه بحركة فرس الشطرنج ليشير إلى حركة التنقل الذكية والمدروسة التي قام بها سلطانه.

وقال -أيضاً -:[٧]

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِسُفْرَةٍ فِرْزَانُها نَابَتْ مَنَابَ الشَّاهِ

ونلحظ في هذا البيت ذكر(**الفرزان**) وهو من قطع الشطرنج، وكذلك (**الشاه**)[٨]

---

[١] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١٢٠/١ – ١٢٦. حيث ذكر الكثير من الحدائق والبساتين التي تحيط بها.
[٢] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١٢٢/١.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص:
[٤] انظر: الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء: ٧٢٥/٢، وما بعدها.
[٥] لقد كان الأندلسيين براعة في هذه اللعبة حتى أنها استخدمت لخداع العدو وإلهائه تجنباً للهزيمة، ومن الأمثلة على ذلك قصة (ابن عمار) مع (الاذفونش) حيث لاعبه بالشطرنج وهزمه فكف الله بأسه عن قرطبة ولشبيلية. انظر: المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: ١٧٨.
[٦] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٠٨.
[٧] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٤٧.
[٨] الفرزان من قطع الشطرنج الملكة، والشاه: الملك.

ليمدح أحد الوزراء بالمكانة الرفيعة التي احتلها حيث كان نائباً عن السلطان. وقد ذكر **السفرة** وهي وعاء من الجلد شاع استعماله فيما يؤكل عليه، فكأن الفرزان على سفرة الشطرنج مثل الشاة على سفرة الطعام. وتلك إشارة حضارية تدل على طريقة تقديم الطعام حيث أشار إلى أن اللحم هو الطبق الرئيسي على سفرة الطعام.

وقال، في وصف السماء:[١]

تَتَعاوَرُ القُطْبَانُ مِنْهَا رُقْعَةً وَكِلاَهُمَا فِيهَا لَعُوبٌ حَاذِقُ

الزَّهْرَةُ الزَّهْرَاءُ فَرْزَانٌ بِهَا وَالبَدْرُ شَاهٌ والنُّجُــومُ بَيَادِقُ

وقد ذكر في هذا الشاهد – أيضاً – بعض قطع الشطرنج وهي الفرزان والشاه **والبيادق**[٢] ونلحظ الحضارة في هذين البيتين حيث وصف ابن الخطيب السماء وصفاً نلحظ فيه أصداء الفكر العلمي، حيث نمَّ عن معرفة فلكية بالقطبان والكواكب والنجوم، ووصف كلاً منها باللعب الحازق، ولا عجب فهذه اللعبة تحتاج إلى الذكاء.

نخلص مما سبق إلى أن ابن الخطيب قد صور بشعره حضارة المجتمع الأندلسي في عصره، حيث لاحظنا مدى التحضر والثراء والبذخ الذي وصل إليه المجتمع الغرناطي، مما انعكس على أسلوب حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم في الأفراح، والأعياد، والأزياء، وأنواع المسليات التي كانوا يرفهون بها عن أنفسهم. فكانت كثرة عوائدهم، ورقة أحوالهم في المطاعم والملابس والفرش والآنية[٣]، من أوضح مظاهر حضارتهم. والملاحظ أن شعر ابن الخطيب كان غالباً ما يعكس حياة الطبقة الراقية من المجتمع، حيث تتجلى الحضارة في أفخم مظاهرها وأوضحها.

كما أن تلك الإشارات لتلك المظاهر الاجتماعية الحضارية جاءت في سياق القصائد حيث قل أن يفرد لها قصائد خاصة. سوى ما تعلق بالتصوير الحضاري لمجالس الأنس فقد عبر عنه – أحياناً في قصائد مستقلة.

❖ ❖ ❖

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧١٣.
[٢] البيادق جمع بيدق لفظ فارسي معرب بمعنى الرجاله، أو الجنود.
[٣] انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص: ١٧٧.

المبحث الرابع

مظاهر الحضارة السياسية

مظاهر الحضارة السياسية:

عبر ابن الخطيب بصدق عن البيئة المتحضرة التي عاش بها ، وصور أنماط التقدم المادي ، والفكري ، الذين وضحا في عهده على يد حكام آمنوا بالبناء الحضاري والارتقاء الفكري .

ومن أبرز الموضوعات الشعرية التي يمكن أن تبدو فيها آثار الحضارة هي السياسة ونظم الدولة . فالتعبير السياسي الأدبي (شكل من أشكال التعابير الحضارية الحديثة والسياسة نظام ، والسياسة منهج ، والنظام والمنهج مظهران من مظاهر التحضر الإنساني ، بعيداً عن عشوائية التصرف وهمجية السلوك وقبلية المذهب وبداوة المنطق...)[١]

وقد كان ابن الخطيب وزيراً في عهد السلطان أبي الحجاج يوسف ، ومن ثم ابنه "محمد الخامس" "الغني بالله". لذلك كانت مؤلفاته وشعره وثيقة هامة تعكس جميع أنظمة الحكم السياسي في غرناطة إبان القرن الثامن الهجري . وهذا هو مدار اهتمام هذا المبحث.

وأول ما يستوقف الباحث من هذه الخطط السياسية في مملكة غرناطه هو **السلطة العليا (السلطان)**، حيث أشار ابن الخطيب بشعره إلى طريقة تولي الحاكم لمهام السلطة، كقوله:[٢]

تَلاَفَيْتَ نَصْرَ الدِّينِ إِذْ كَادَ يَتْلَفُ ... وَأَنْجَزْتَ وَعْدَ الحَقِّ وَهْوَ مُسَوَّفُ
وَجَمَّعْتَ أَسْبَاطَ[٣] المَكَارِمِ والعُلَى ... وَنَادَيْتَ لاَتَثْرِيبَ إِذْ أَنْتَ "يُوسُفُ"
وَقَرَّ سَرِيرُ المُلْكِ لمَّا حَلَلْتَهُ ... وَلَوْ لَمْ تَشِدْ أَرْجَاءَهُ كَادَ يَرْجِفُ
دَعَتْكَ قُلُوبُ النَّاسِ إِذْ عَمَّ جَدْبُها ... وَلَجَّ الأَسَى فِيهَا وَجَلَّ التَّأَسُّفُ
فَلِلّهِ مِنْ يَوْمٍ أَغر مُحَجَّلٍ ... لِحِزْبُ الهُدَى قِدْماً إِليهِ تَشَوُّفُ

وقد نص ابن الخطيب في تقديمه لهذه القصيدة بأنه نظمها في يوم البيعة[٤] وهي أول قصيدة نظمها في السلطان " يوسف " وتلك إشارة حضارية تدل على آن السلطان الغرناطي يتم تنصيبه **بعد عقد البيعة** له فالسلطان " يوسف " تولى حكم غرناطة بعد

---

[١] د. على أبو زيد : الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع العاملي ، ص:٦٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٦٦٩-٦٧٠.
[٣] الأسباط جمع " سبط" وهو ولد الأبن أو الأبنه .
[٤] انظر ديوان ابن الخطيب، ص ٦٦٩.

مقتل أخيه "محمد بن إسماعيل" الملقب بـ "محمد الرابع" على يد بعض المغاربة سنة (٧٣٣هـ)[١] وهذا يدل على أنه لم يكن هناك قواعد وأصول محددة يتم بمقتضاها وراثه العرش النصري .

والملاحظ في هذه الأبيات اشتمالها على بعض المظاهر الحضارية مثل الإشارة في البيت الثالث إلى **"سرير الملك أو العرش"**، وهو من مظاهر الفخامة وأبهة الملك حيث يميز السلطان في مجلسه . كما نلحظ في البيت الثاني جمال الاقتباس من القرآن الكريم والإشارة إلى قصة النبي يوسف عليه السلام عندما اجتمع عنده إخوته و ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ –سورة يوسف آية ٩٢– حيث وظف تشابه الاسمين ليعبر عن مراده في أسلوب جميل ، وذلك ولاشك تحضر فكري مستمد من معين الثقافة الإسلامية .

وقد أشار إلى هذه **البيعة** مرة أخرى في قوله:[٢]

دَعَتْكَ قُلُوبُ المؤْمِنِينَ وَأَخْلَصَتْ ... وَقَدْ طَابَ مِنْها السِّرُّ للّهِ وَالجَهْرُ

وَأَلْبَسَها النُّعْمَى بِبَيْعَتِكَ الَّتِي ... بِهَا أَمِنَ الإِسْلاَمِ وانْسَدَلَ السِّتْرُ

ونلحظ في هذين البيتين – والأبيات السابقة أيضا – التأكيد على المعاني الإسلامية حيث كان تولي هذا السلطان نصراً للدين وأهله ، ولاشك أن ذلك يدل على تحكيم شرع الدين الإسلامي في الحكم في هذا الزمن الصعب الذي يعيشون فيه بسبب إحاطة العدو بهم من جميع الجهات .

كما أشار إليها مرة أخرى فقال:[٣]

نُظِمَ الشَّتَاتُ لِيَوْمِ بَيْعَتِكَ الَّتِي ... كَانَتْ لِجَمْعِ المسْلِمِينَ نِظَامَا

---

[١] انظر ابن الخطيب الإحاطة، ١/٥٤٠-٥٤١.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٠١.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٣٤.

وبعد مقتل السلطان يوسف " أبي الحجاج" سنه (٧٥٥هـ)،[١] عقدت البيعة من بعده لابنه محمد الخامس، وقد أشار ابن الخطيب إلى هذه البيعة التي تولى ترتيبها بنفسه حيث قال:[٢]

هَنِيئاً لِمُلْكٍ فَاتَحَتْكَ سُعُودُهُ وَعِزٍّ عَلَى الأَيَّامِ مُنْتَظِمِ العِقْدِ
وَعُقْدَةِ مُلْكٍ كَانَ رَبُّكَ كَالِئاً لَها وَأَصِيلُ السَّعْدِ يُغْنِي عَنِ النَّقْدِ

ونلحظ في هذين البيتين مظهراً حضارياً تجلى في التقدم بالتهنئه للسلطان بهذه المناسبة والدعاء له بالتوفيق في هذه المهمة الجليلة التي تولاها ، وحيث إنه قد تولى الحكم بعد مقتل والده فإن هذا الموقف يستدعى ذكر هذا المصاب والحث على الرضا بما قدر الله والتعزى بأن من خلفه هو أبنه الذي لايقل عن والده العظيم شأناً ، وفي ذلك يقول مخاطباً "الغني بالله":[٣]

تُقَابِلُ أَمْرَ اللهِ بِالبشْرِ والرِّضَى وَتَلْقَى الَّذِي تَرْضَاهُ بِالشُّكْرِ والْحَمْدِ
وَتَخْلُفُ فِيمَنْ خَلَّفَتْهُ مُلُوكُهَا بِرَعْيِ الذِّمَامِ الحُرِّ والحِفْظِ للعَهْدِ
حَيَاةٌ جَنَاهَا النَّهْرُ مِنْ شَجَرِ الرَّدَى سَرِيعاً وَوِجْدَانٌ تَكَوَّنَ عَنْ فَقْدِ
وَسَيْفانِ: هَذَا سَلَّهُ الدَّهْرُ مَاضِياً صَقِيلاً وَهَذَا رَدَّهُ الدَّهْرُ فِي غِمْدِ

وفي هذه الأبيات يؤكد ابن الخطيب على الرضا بما قدر الله وشكره على كل حال كما يؤكد على ترسّم هذا السلطان لسياسة والده العظيمة التي قامت على رعي حقوق الرعية والحفاظ على العهد وكلاهما من تعاليم الإسلام الإنسانية الرفيعة، ونلحظ في البيت الثالث هذا التشبيه الذي يحمل سمات التفكير والمنطق حيث تأمل الأحداث وما تحمله من عبرة فحياة من موت ، ووجود بعد فقد ، فالسلطان "يوسف" وإن طواه الردى إلا أن له من يخلفه من أولاده تماماً كالشجرة التي تذبل فروعها وأغصانها ولكن تبقى جذورها حيه ضاربة في عمق الأرض، كما أن فقده لا يعنى النهاية بل يعني وجود من يسير على خطاه من بعده وكذلك البيت الأخير يحمل نفس الفكرة ولكن بتشبيه آخر

---

[١] انظر: ابن خلدون: العبر
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٠٨.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٠٩.

صور فيه ابن الخطيب الفقيد السلف والابن الخلف بصورة سيفين في يد الدهر عندما سل أحدهما وأغمد الآخر ولاشك أن هذا التصوير يحمل سمات الفكر المتحضر.

وقد أشار ابن الخطيب بشعره إلى بعض مظاهر الحضارة السياسية مثل **شارات الملك والألقاب** التي تلقب بها سلاطين البيت النصري، إذا لابد أن يكون للسلطان (شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها ويتميز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته).[١] ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الخطيب في تهنئة السلطان:[٢]

هَنِيئاً أَمِيرَ المسْـلِمِينَ بِأَوْبَةٍ أَهَلَّ بِهَا للّهِ بَـادٍ وحَاضِـرُ

وقوله أيضا وقد كتب هذا الشعر على قبر السلطان:[٣]

وَخُصَّ أَمِيرُ المسْـلِمِينَ بِرَحْمَةٍ تُـبَوِّئُهُ دَارَ المقَـــــامَةِ وَالأَجْرِ

فَمَا عِنْدَكَ اللَّهُمَّ، خَـيْرُ ثَوَابُهُ وَأَبْقَى وَدُنْيَـا المرْءِ خُدْعَهُ مُغْتَرِّ

ونلحظ في الأبيات السابقة مظهراً حضارياً تجلى في خطاب السلطان **بلقب أمير المسلمين**، وهذا هو اللقب الرسمي الذي أتخذه سلاطين بنى الأحمر.

وقد حمل بعض سلاطين "بني نصر" ألقاباً لها دلالات خاصة مثل " محمد الخامس " الذي لقب بـ(الغني باللّه) بعد عودته منتصراً من إحدى الحملات الحربية التي قام بها ضد قشتاله سنه (٧٦٨هـ)[٤] ومما يؤكد إطلاق هذا اللقب عليه قول ابن الخطيب:[٥]

يَامَنْ دَعَـانِي إِلَى رِفْدٍ يَجُـــودُ بِهِ "الغَنِيُّ بِاللّهِ" مُؤْتَمَّـــــــاً بِمَذْهَبِـهِ

حَاشَا وَكَلاَّ لِمِثْلِيَ يَاصَـدِيقِيَ أَنْ يَنْسَى الغَنِيُّ وَيَسْـتَجْدِى "الغَنِيَّ بِهِ"

وكثيراً ما كان السلطان يوصف بألقاب مليئة بالمدح والثناء مثل " إمام الهدى أو " ناصر دين اللّه " .. وغيرها ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الخطيب في مدح السلطان "أبى الحجاج يوسف":[٦]

إِمَامُ هُدَىً مِنْ "آلِ سَعْدٍ" نِجَـارُهُ وَنَصْرُ الهُدَى مِيرَاثُهُ "لِبَنِى سَـعْدِ"

---

(١) ابن خلدون المقدمة :ص ٢٥٧-٢٥٨.
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص:٣٩٢.
(٣) ديوان ابن الخطيب ،ص٣٩٩-وانظر كذلك ،ص١٧٠-١٧٢-٣٠٦-٣٩٢-٣٩٦حيث لقبه بأمير المسلمين.
(٤) أنظر : ابن خلدون : التعريف بإبن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، ص: ١٢٠.
(٥) ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٩.
(٦) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٠٢.

فقد لقبه في هذا البيت "بإمام الهدى"، وهو يؤكد على عراقة نسبه الذي ينتمي " لسعد بن عبادة " صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أيضا :[١]

أَنَاصِرَ دِينَ اللّهِ وَابْنَ نَصِـيرِهِ عَلَى حِينِ لاَيُغْنِي نَصِيرٌ وَلاَيُجْدِي

وقد لقبه في هذا البيت بلقب " ناصر دين الله " وفي ذلك ما يعكس مدح هذا السلطان بالتقوى والحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية في حكمه .

كذلك كان يطلق على سلاطين هذه الأسرة لقب (بنى الأحمر) وهذه التسمية ترجع إلى شقرة فيهم وأول من لقب بالأحمر هو جدهم الأكبر " عقيل بن نصر " وذلك لشقرته.[٢]

ومن مظاهر الحضارة السياسية في شعر ابن الخطيب الإشارة إلى **الملابس الملكية (الطراز)** ومن ذلك أبياتاً نظمها ابن الخطيب لتكتب على ثوب السلطان – كما نص على ذلك في تقديمه لها – فقال:[٣]

بُشْرَاكَ لِلْمُلكِ فِي عُلَـيَاكَ تَمْهِـيدُ وَفِي زَمَـانِكَ لِلأَفْـرَاحِ تَجْدِيدُ

وَصَـاحَبَتْكَ عَلَى الأَيَّامِ أَرْبَعَةٌ عِزٌّ ونَصْـرٌ وتَمْكِينٌ وَتَمْهِيدُ

يَا "يُوسَفَ" الْمُلكِ والحُسْنِ ارْتَقِبْ زَمَناً رَايَاتُكَ الحُمْرِ فِي خَدَّيْـهِ تَوْرِيدً

فهذه الأبيات قد زينت ثوب السلطان " يوسف " وهذا يدل على مبلغ الحضارة التي وصلوا إليها ، كما أشار في البيت الأخير إلى مظهر حضاري تمثل في الإشارة إلى الرايات ولونها الأحمر كما سيأتي الحديث عنها لاحقاً .

ولاشك أن **الطراز** أو الكتابات المذهبة مما يميز ملابس السلطان ويزينها وقد ذكر "ابن خلدون" أن هذا الطراز (من أبهه الملك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الأبريسم .. فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه)[٤].

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٩.
[٢] أنظر : أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص:٢٢٧.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٣١.
[٤] ابن خلدون : المقدمه، ص:٢٦٦

ومن نظم ابن الخطيب الذي كتب على ثوب حريري للسلطان قوله:[١]

قَدْ صَحَّ فِي سُـنَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فَضْلِي عَلَى المَوْشِيِّ وَالدِّيبَـاجِ

وَلأَجْلِ هَذَا اخْتَصَّنِي بِلِبَاسِـهِ مَلِكُ العُلَى الأَرْضَى"أَبُو الحَجَّاجِ"

ونلحظ في هذين البيتين الإشارة إلى بعض ما أنتجته الحضارة واستدعاه الترف وهي الأقمشة الحريرية الفاخرة من الثياب الموشاة المزينة المنقوشة ، الملونة بأجمل الألوان، والديباج هو الثوب المتخذ من الإبريسم[٢] وقد فضل السلطان نوعاً من الأقمشة غير هذه الثياب الحريرية، وفي ذلك إشارة حضارية تدل على تعدد وتنوع الأقمشة التي يستخدمها الرجال في ذلك الوقت . كما نلحظ في كلا المثالين تزيين هذه الثياب باسم السلطان.

ولم يكن "بنو نصر" يضعون **التاج** الذي كان استخدامه معروفاً لدى معاصريهم مثل ملوك الحفصين بتونس وغيرهم[٣] بل كانوا يلبسون **العمامة** كما أشار إلى ذلك ابن الخطيب في مدحه للسلطان" ابي الحجاج يوسف "بقوله:[٤]

قَوْمٌ إِذَا لاَثُوا العَمَـائِمَ وَاحْتَبَوا ذَلَّتْ لِعِزِّهِمُ ذَوُو التِّيجَـانِ

وفي هذا البيت إشاره صريحه إلى لبس العمامة عند سلاطين غرناطه .

كما أشار ابن الخطيب بشعره إلى كثير من المظاهر الحضارية السياسية مثل **الخاتم (العلامة)** الذي يختم به على الرسائل والصكوك هو خاص بالسلطان وقد ذكره ابن الخطيب بقوله:[٥]

وَلَمْ يَفْتَقِرْ فِيهِ لِخَتْـمٍ وَطَابِعٍ فَمَبْسِمُهُ أَغْنَاهُ عَنْ طَابِعِ السِّـرِّ

وفي هذا البيت إشارة واضحة إلى الختم وطابع السرّ وهو (من الخطط السلطانيه والوظائف الملوكية)[٦] وقد كان السلطان النصرى يوقع بيده على السجلات والوثائق الصادرة عن الديوان، ويؤكد ذلك قول ابن الخطيب في الغزل:[٧]

---

[١] ديون ابن لخطيب / ص : ٢١٤.
[٢] أنظر: ابن سيده الأندلسي : المخصص : ٧٦/١.
[٣] أنظر: احمد الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس، ص: ١٦٠.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٥٧٦.
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٤٤٠.
[٦] ابن خلدون: المقدمة، ٢٦٤.
[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٧٢٠.

كَأَنَّ احْمِرَارَ الخَدِّ تَحْتَ عِذَارِهِ عَلاَمَةُ مَوَلاَنَا عَلَى أَحْمَرِ الطِّرْسِ

وهذا البيت يؤكد أن السلطان الغرناطي كان يوقع بيده على الوثائق التي تصدر عن الديوان ، وهو امر قد تفرد به "بنو نصر" دون غيرهم ، فلم يتخذوا خطة للعلامة أو كاتباً كما ذكر "ابن خلدون".[١]

أيضا ثمة إشارة حضارية نلحظها في البيت السابق وهي الإشارة إلى توقيع السطان على **طرس أحمر** ، مما يدل على أن "بني نصر" قد التزموا لوناً واحداً للورق الذي يكتبون عليه ظهائرهم[٢] ورسائلهم السلطانية وهو **اللون الأحمر** . وهذا يدل على مظاهر حضاري رفيع .

وقد أكد ذلك ابن الخطيب – أيضا – بقوله في رثاء رئيس ديوان الإنشاء:[٣]

مَنْ لِلرِّقَاعِ الحُمْرُ يَجْمَعُ حُسْنُهَا خَجَلَ الخُدُودِ وَصِبْغَةَ الأَحْدَاقِ

ونلحظ في هذا البيت التشبيه الطريف لحمرة الأوراق حيث شبهها بلون الخدود الخجلى، ولون الأحداق المحمرة . وفي هذا دليل على الالتزام باللون الأحمر في الأوراق السلطانية.

ومن مظاهر الحضارة السياسية الواضحة في هذه المملكة هو التزام اللون الأحمر ليس في الورق وحسب بل حتى **الرايات والأعلام** ، وفي شعر ابن الخطيب إشارات متعددة تؤكد ذلك، ومنها قوله:[٤]

حَفَّتْ بِهِ رَايَاتُكَ الحُمْرُ الَّتِي قَادَتْ إِلَيْهِ قَبَائِلاً وَشُعُوبَا

وفي هذا البيت ذكر ابن الخطيب أن الرايات في الحرب كانت حمراء اللون ، وقال أيضا – في مدح السلطان " محمد الخامس":[٥]

وَلاَزالَ نَصْرِيَّ العُلاَ رَائِقَ الحُلَى يُصَاحِبُ جَيْشَ النَّصْرِ رَايَتَهُ الحَمْرَا

وقال في مدح السلطان " ابي الحجاج ":[٦]

فَكَأَنَّما حُمْرُ البُـــنُودِ خَوَافِقاً مِنْها قُلُوبٌ شَـفَّهُنَّ عَنَـــاءُ

---

[١] انظر: ابن خلدون : المقدمة، ص ٢٤٢.

[٢] الظهائر هي قوانين وتشريفات وامتيازات يخص بها الملك أصحاب الوظائف العليا في الدولة ، ولا يزال هذا المصطلح سائداً في المغرب حتى الآن انظر : د. رابح المغراوي : تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطه ، ص١٢٣.

[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٧٠٩. وانظر كذلك ص : ٦٦٦.

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص: ١٠٤.

[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٤١٠.

[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٩٥.

والبنود هي الأعلام الكبيرة أو أعلام الفرسان، وقد كانت حمراء اللون، وهذه الرايات هي (شعار الحروب من عهد الخليقة ولم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات)[١] وكونها تتميز بلون واحد فإن ذلك ولاشك يدل على تقدم حضاري .

كما أشار ابن الخطيب بشعره إلى أن **القباب أو الخيام** التي كانوا يستعملونها في السفر أو الحروب كانت **أيضا حمراء اللون** : كقوله:[٢]

مقاماتهم بيض وحمر قبابهم يرف بها هدي ويشرق إرشاد

وهذه القباب (من شارات الملك وترفه ... فيباهى بها في الأسفار وتتنوع مابين كبير وصغير على نسبه الدولة في الثروة واليسار)[٣] والملاحظ أن "بني نصر" قد اتخذوا من اللون الأحمر شعاراً لهم في شاراتهم الملكية من الأوراق السلطانية والرايات، والقباب أو الخيام أما القلعه التي كانت مقر الحكم والسلطان فقد سميت بالحمراء، ويرجع هذا الإسم إلى لون تربة الهضاب التي بنيت عليها، وقد سميت بالسبكة - أيضاً - لهذا السبب[٤] وعليه نلحظ خطأ نسبه اللون الأحمر لقصر الحكم في غرناطة، بل إن في شعر ابن الخطيب ما يشير إلى لون القصور في هذه القلعة حيث قال:[٥]

لَئِنْ غَزَّ بَدْرَ الأُفْقِ فَضْلُ انْفِرَادِهِ فَبَيْنَ القُصُورِ البِيضِ ثَانٍ وثَالِثُ

وقال أيضا – في وصف القصر الذي شيده " أبو الحجاج " في قلعة الحمراء[٦]

فَبَدأ كَمَا لاَحَ الصَّبَاحُ لِنَاظِرٍ مُتَأَلقّاً يُعْشِى العُيُونَ صَقِيلُهُ

وفي هذين البيتين ما يؤكد أن هذه القصور كانت بيضاء.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٢٥٨ – ٢٥٩.
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص ٢٧٣.
(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٦٧.
(٤) مما يؤكد هذا الرأي قول ابن مالك الرعيني الغرناطي:
رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته ذهبت به للأنس والليل قد ذهب
ترى الأرض منها فضة فإذا أكتست بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب
أنظر المقري : نفح الطيب : ١٧٧/١.
(٥) ديوان بن الخطيب ، ص ١٩٠.
(٦) ديوان بن الخطيب ، ص ٤٧٨.

ومن مظاهر الحضارة المتعلقه بالسياسة وفخامة الملك العرش أو سرير الملك ، وقد كان العرش الغرناطي موجوداً بقاعة السفراء في قصر الحمراء والتي كانت مخصصة للاستقبالات الملكية[١] وقد وصف ابن الخطيب بشعره قبة العرض المطلة على مجلس السلطان في الدار الكبرى من قلعة الحمراء[٢]، فقال:[٣]

فَتُتْلَى سُطُوُر الكَتْبِ فَوْقِيَ دَائِماَ وَتُعْرَضُ مِنْ تَحْتِي سُطُورُ الكَتَائِبِ

وَفِي سَاحَتِي مَسْعَىً لِطَالِبِ رَحْمَةٍ وَمَأْمَنُ مُرْتَاعٍ وَمَوْقِفُ تَائِبِ

ومن خلال هذين البيتين يمكن تصور بعض الأعمال التي يقوم بها السلطان ، حيث تعقد بحضوره المجالس ، وقد أشار ابن الخطيب إلى نوعية هذه المجالس فقد كانت متعددة ومتنوعة بحسب ما يقتضيه الحال ، ومنها ما ينظر فيه مضامين الرسائل الواردة من الجهات المختلفة سواء داخل المملكة أو خارجها ومن اللافت هنا أن السلطان لايقرأ الكتب -الرسائل - بنفسه دائما وإنما تتلى عليه مع أنه يعرف القراءة والكتابة وفي ذلك إشارة حضاريه تدل على الفخامة والترف كذلك أشار ابن الخطيب إلى عرض الجيش أمام السلطان، الذي اصطف أفراده بشكل منظم وصفوف متساوية تماماً مثل سطور الكتاب وذلك تصوير حضاري جميل مستوحي من بيئة الكتب والعلم . كما نلحظ ناحية حضاريه إنسانيه تمثلت في الإشارة إلى استقبال السلطان لأفراد شعبه المحتاجين وأصحاب الشكاوى والظلامات واستماعه إليهم.

وقد أشار ابن الخطيب إلى **سرير الملك** في أكثر من موضع في ديوانه ، ومن ذلك قوله في يوم بيعه السلطان يوسف: [٣]

وَقَرَ سَرِيرُ المُلْكِ لمَّا حَلَلْتَهُ وَلَوْلَمْ تَشِدْ أَرْجَاءَهُ كَادَ يَرْجُفُ

وفي هذا البيت نلحظ أن سرير الملك هو العرش الذي يعتليه السلطان في مجلسه وهو من مظاهر أبهة الملك وفخامته .

وقال – أيضا – مهنئاً السلطان "أبا الحجاج يوسف" بمولودٍ له:[٤]

وَهَوتْ إِلَيْهِ أَسِنَّةٌ وَأَسِرَّةٌ وَمَواكِبٌ وَكَتَائِبٌ وَكِتَابُ

---

[١] انظر : د. أحمد الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص : ١٦٢- ١٦٣.
[٢] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص ١١٤ -١١٥.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص :١١٥.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص :٦٦٩.
[٤] ديوان ابن الخطكيب ، ص : ١٠٥.

ونلحظ في هذا البيت الإشارة إلى بعض المظاهر الحضارية السياسة وهي الأسرة أو سرير الملك ، والمواكب و الكتائب أو الجيوش، الكتاب أيضاً ، مما يشير إلى اهتمام هؤلاء السلاطين بكل شئون الدولة في السلم والحرب ويؤكد اهتمامهم بالعلم وأهميته العظيمة في بناء الدولة القوية .

ومن المظاهر الحضارية التي ورد ذكرها في شعر ابن الخطيب **الموكب الملكي** وهو يعكس حضارة الدولة، ويدل على الفخامة، وقد أشار ابن الخطيب إلى موكب السلطان "أبي الحجاج": عند قدومه لأداء صلاة عيد الفطر المبارك، فقال:[١]

أَتَيْتَ مُصَلاَّهُ عَلَى قَـــــدَمِ الرِّضَى ... وَقَدْ عَظُمَ التَّمْجِـــيدُ للّهِ والذِّكْرُ
وَقَدْ غَصَّ مِنْ وُسْعِ السَّبِيكَةِ وُسْعُهَا ... وَجَرَّ بِهَا أَذْيَالَهُ العَسْـــكَرُ المجْرُ
وَمَارِيءَ مِنْ مِـــــثْل لَهُ يَوْمَ زِينَـــةٍ ... كَأَنَّ نَضِـيرَ الزَّهْرِ رَاقَ بِهِ الزَّهْـــرُ
وَدَارَتْ مِنَ الأَغْزَازِ[٢] تَحْـــتَ لِوَائِهَا ... رُمَاةٌ عَـــلَى أَوْتَارِها لِلْعِـــــــدَا وَتْرُ
إِذَا اِضْطَبَنُو أَقْوَاسَهُمْ وَتَمنْطَـــقُوا[٣] ... فَتُبْصِرُ جَيْشَ "التُّرْكِ" جَاشَتْ بِهِ "مِصْرُ"

ونلحظ من هذه الأبيات فخامة هذا الموكب، يدل على ذلك هذه الحشود الهائلة التي تنظر إليه وهي تكبر الله في هذه المناسبة الدينية العظيمة ،وقد ضاقت السبيكة -قلعة الحمراء -على وسعها بهذا الجيش العظيم مما يدل على عرضهم أمام السلطان ووقوفهم في صفوف منتظمة . كما يحيط بالسلطان الجنود المماليك من الغز وغيرهم وقد ارتدوا ملابسهم العسكرية وأسلحتهم . وفي ذلك ما يدل على الفخامة والتنظيم ، وتوحيد الزِّي، وهذا من أوضح المظاهر الحضارية السياسية .كما نلحظ إشارة حضارية جميلة في الأبيات تمثلت في تصوير السلطان في هذه المناسبة الرسمية بكامل زينته بالزهر النضير في وسط الحديقة ، والإشارة إلى يوم الزينة في القرآن الكريم، ومما أكّد هذا الرابط ذكر "مصر" في البيت الأخير.

وقال _ أيضا _ مشيرا إلى موكب السلطان[٤]

وَيَصْغُرُ عِنْدَ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى ... سَـنَاهَا إِذَا دَارَتْ عَلَيْكَ المَواكِبُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص ٤٠٢.
[٢] الأغزاز جنس من الترك.
[٣] أضبطنوا : اضبطن السلاح أحتضنه أو جعله في ضبنه : ابطه . وتمنطق بالنطاق هو كل ما شد به وسطه .
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٠.

ورغم أن الشاعر هنا لم يذكر أي تفاصيل عن هذا الموكب إلا أنه يدل بوضوح على فخامة ومهابة هذا الموكب الذي يحيط به .

وقد كانت سياسية بعض الحكام من أهم مقومات التقدم الحضاري، حيث كان النصريون من **حماة العلوم والآداب والفنون**، خاصة السلطان "أبو الحجاج يوسف" ومن ثم ابنه "محمد الخامس" بعده ، وقد ذكر ابن الخطيب ذلك في مدائحه لهم ، مثل قوله في حق السلطان "أبي الحجاج":[١]

إِنْ أَصْبَحَتْ أَرْضُ الخِلاَفَةِ مَعْـدَناً فَالنَّاسُ تُرْبَتُهُ وأَنْتَ نُضَـــــارُهُ

وَلاَ غَرْوَ أَنْ طَلَعَتْ فَعَــالُكَ أَنْجُماً إِنَّ الهُدَى فَــلَكٌ عَلَيْـــكَ مَدَارُهُ

وَالحِلْمُ لَحْظٌ أَنْتُمُ أَجْفَـــــــانُهُ وَالعِـلمُ قَلْـــبٌ أَنْتُمُ أَنْـــوَارُهُ

وفي هذه الأبيات يمدح السلطان بمآثره وأفعاله الجليلة، وليس أدل على ذلك من رعايته للعلم واهتمامه به فهو من أوضح مظاهر الحضارة ، وعناية الحاكم به يعني الإقبال عليه وازدهاره في هذا المجتمع ، الذي يؤدي حتما إلى رقيه وتطوره . كذلك نلحظ في البيت الأول نعت السلطان بلقب الخلافة، وذلك من باب التشريف.

وقد شبه الخلافة بالأرض التي تحوي النفيس والردىء ، وقد كان سلطانه بمثابة الذهب من بين هؤلاء الناس ، فالذهب لا تقل قيمته حتى وإن كان مختلطاً بالتراب وكذلك شأن سلطانه ولاشك أن إضفاء لقب الخلافة على هذا السلطان يعكس مظهراً حضارياً يتعلق بالسياسة وآداب مخاطبة الملوك والسلاطين .

وقال في مدح سلطانه لاهتمامه بالعلوم:[٢]

وَوَرَدْتُ بَحْرَ العِـلْمِ يَقْذِفُ مَوْجُهُ لِلنَّاسِ مِنْ دُرَرِ الهُـــدَى بِضُرُوبِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٧٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص :١٣٠.

ولاشك بأن نعت العلم بالبحر يدل على إزدهار حركة العلم والتأليف في عهد هذا السلطان لأنه كان العامل الرئيس وراء هذا الأزدهار برعايته للعلم والعلماء .

وقال – أيضا :[١]

كَأَنَّكَ بَدْرٌ وَالبِـــــلاَدُ مَنَازِلٌ إِذَا جِئْتَ أُفْقاً رَاقَ نُـــورُ جَمَالِهِ

وَإِنْ فُقْتَهُ بِالْحِلْمِ وَالعِلْمِ وَالنَّـدَى وَشَـــــارَكْتَهُ فِي نُورِهِ وَانْتِقَالِهِ

وقد شبه السلطان بالبدر الذي يضئ الظلام، ولكنه تفوق عليه بالحلم والعلم، والكرم. والملاحظ على السلطان "أبي الحجاج" وابنه "الغني بالله" أنهما لم يهتما فقط بالحضارة المادية ومظاهرها في العمران والبناء، بل اهتما أيضا بمظاهر التحضر **المعنوي والروحي**، والارتقاء الثقافي والتقدم الفكري فقد كانا في مقدمة أهل العلم والأدب.

كما أن الشعب الغرناطي قد تمتع في عهديهما بالرفاهية والترف بالتأكيد ليس جميع الطبقات في المجتمع – والأمن ولاشك أن توفر المال من أهم العوامل التى تجلب الحضارة وتساعدها على البقاء والنماء. وبذلك يتضح الدور الكبير الذي يمثله الحكام في النهوض بالحضارة والعمل على تقدمها وقد كان الحكام "النصر يون" من الفئة التي سعت لتطوير المجتمع وقد نجحت في ذلك.

ومن الخطط السياسية الحضارية التي أشار لها ابن الخطيب بشعره **الوزارة**، فهي من أهم الوظائف السياسية وصاحبها هو ثاني شخصية في الدولة بعد السلطان نظرا لما يحظى به من امتيازات على مستوى ممارسه العمل السياسي فهـــو (وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون في طبعة شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول).[٢] وقد كانت الوزارة في مدة حكم "بني الأحمر" محصورة في شخص واحد[٣] له الريادة والسيادة وغالباً ما كان من أعلام الكتابة يختار من يساعده وينتخب من يعاونه كما هو الحال مع ابن الخطيب الذي تمتع بسلطة مطلقة في قصر الحمراء، وهو ما يعيننا على رسم ملامح هذه الخطة السياسية الحضارية بوضوح، ومهام صاحبها؛ لأن الحديث عن الوزارة في هذا العهد هو في الحقيقة حديث عن ابن الخطيب ذاته.

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٨٤.

[٢] محمد بن على بن طبا طبا "ابن الطقطقي" : الفخري في الآداب السلطانيه والدول الإسلامية تحقيق : د. ممدوح حسن محمد ، طبعة مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، (د . ت)، ص ١٥٠.

[٣] كانت الوزارة في مدة خلافة بني أمية بالأندلس مقسمة على عدة أشخاص حيث كان لكل حطة وزير ، فجعلوا لحسبان المال وزير ، والترسل وزيراً .. وهكذا .. وكانوا يجلسون في مكان واحد واختص للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم أرتفع مجلسة عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب. انظر المقري: نفح الطيب: ٢١٦/١، ٢١٧.

والمتأمل في شعر ابن الخطيب يلحظ بوضوح الإشارة إلى كثير من الأعمال التي قام بها الوزير الغرناطي مثل **عقد البيعة للحاكم** ، حيث قام هو بعقد البيعة للسلطان "محمد الخامس" ، وقد نص على ذلك في تقديمه لقصيدته فقال:(وأنشدت السلطان المولى أمير المسلمين "أبا عبد اللّه" ابن المولى أمير المسلمين "أبى الحجاج" يوم عقدي بيعته:[٤]

هَنِيئاً لِلْمُلْكِ فَاتَحَـــتْكَ سُـــــعُودُهُ وَعِزٍّ عَلَى الأَيْـــامِ مُنْتَظِـــــمِ العِقْدِ
وَعُقْـــدَةُ مُلْكٍ كَـــانَ رَبُّكَ كَالِئاً لَهَا وَأَصِيلُ السَّـعْدِ يُغْنِي عَنِ النَّقْـــدِ
جَمَعْتَ بِهَا الأَهْوَاءَ بَعْد افتِـــرَاقِهَا فَقَدْ كَانَ فِيهَا الضِّـــدُّ يَأْنَسُ بِالضِّدِّ

ولاشك أن هذه المهمة التي قام بها تدل على النفوذ وعلوا المكانة في البلاط الحاكم.. كذلك أشار ابن الخطيب إلى أن من مهام الوزير السلام على السلطان **والوقوف بين يديه ومباشرة أعماله في يوم الإثنين من كل أسبوع** ، وقد ذكر ذلك في قصيدة وجهها لأحد أصدقائه يبدي فيها اعتذاره عن إجابة دعوته ، ومما جاء فيها:[١]

يَا سَيِّدِى الأَوْحَدَ الأَسْمَى وَمُعْتَمَـــدِى وَذَا الوَسِـــيلَةِ مِنْ أَهْـــلٍ وَمِـــنْ بَلَدِ
العُذْرُ أَوْضَحُ مِنْ نُورٍ عَـــــلَى عِـــــلَمٍ فَعَدِّ إِنْ غِبْتُ عَنْ لَهْـــوٍ وَعَنْ فَـــنَدِ
دَعَوْتَ فِي يَومِ الاثْنَيْنِ الصِّحَابَ ضُحَىً وَفِيهِ مَا لَيْـــسَ فِي سَبْتٍ وَلاَ أَحَدِ[٢]
يَوْمَ السَّلاَمِ عَلَى المـــــوْلَى وَخِدْمَتِهِ فَاسْمَحْ وَإِنْ عَثَرَتْ رِجْلِي فَخُذْ بِيَدِي

ونلحظ في هذه الأبيات أن السلطان قد حدد يوماً معيناً في الأسبوع وهو يوم الاثنين لاستقبال رعيته وتشرفهم بالسلام عليه، وقضاء حوائجهم وذلك مظهر حضاري يدل على ترتيب الأعمال والسير على نظام معين في سياسة الدولة الداخلية .

ومن مظاهر الحضارة السياسة – أيضا - **تفقد السلطان لشئون مملكته** وزيارة بعض المناطق والثغور فيها ، وقد ذكر ذلك ابن الخطيب بقوله: [٣]

إِذَا سِرْتَ سَارَ النُّورُ حَيْثُ تَعُوجُ كَأَنَّكَ بَدْرٌ وَالبِـــــلاَدُ بُرُوجُ
تَفَقَّدْتَ أَحْوَالَ الثُّغُـــــورِ بِنِيَّةٍ لَهَا نَحْوَ أَبْوَابِ القُبُـــولِ عُرُوجُ

وتلحظ في البيت الأول هذا التصوير الذي يدل على معرفة فلكية واضحة حيث شبه السلطان بالبدر الذي يدور في الفلك . والبلاد بالبروج الفلكية في السماء وذلك يدل على التحضر الفكري . كما أشار في البيت الثاني إلى تفقد السلطان لثغور المملكة

---

[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٠٨.
[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٦١.
[٢] قد يكون في ذلك إشارة إلى أن الأندلس كانوا يعطلون يومي السبت والأحد.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٠٥ – ٢٠٦.

مؤكداً على أن الباعث على ذلك هو تقوى الله في الرعية واستشعار عظم المسئولية عنهم أمام الله تعالى.[١]

وقد أشار ابن الخطيب بشعره إلى مشاركه الوزير للسلطان في مثل هذه الأعمال كقوله:[٢]

أَأَبْصَرْتَنَا كَالشُّهْبِ وَالشَّمْسِ فَتْيَةً تَهَلَّلَ مِنَّا البَرُّ وَالبَحْـــرُ ذُو الموْجِ [٣]

رَحَلْنَا عَـــــنْ الأَوْجِ الرَّفِيـــعِ مَحَلُّهُ مَرَاحِلَ شَتَّى ثُمَّ عُدْنَا إِلَى الأَوْجِ

وقد نص ابن الخطيب في تقديمه لهذين البيتين على مرافقته للسلطان في رحلته التي تفقد بها البلاد وشبه السلطان بالشمس التي تشرق على جميع الجهات في الأرض ليدل بذلك على جولته التي شملت كافة أنحاء البلاد بدليل أنه ذكر البر والبحر وكان مبدأ الرحلة من غرناطه ، ثم عادوا إليها بعد أن جابوا مناطق كثيرة.

ومن مظاهر الحضارة السياسية أيضا – **إرسال مفتشين** لأنحاء البلاد المختلفة نيابة عن السلطان بقصد تفقد أحوالها، وقد ذكر ابن الخطيب ذلك في قوله:[٤]

رَجَعْنَا بِحَوْلِ اللّهِ بَعْدَ اسْـــــــتِدَارَةٍ وَكِلْنَا بِهَا لِلأُنْسِ كَيْلَ اخْتِيَارِهِ

كَمَا رَاجَعَ البِرْكَارُ مَفْرُوَض نُقْطَةٍ مِنَ السَطْحِ مِنْها كَانَ بَدْءُ مَدَارِهِ

وقد نص بن الخطيب في تقديمه لهذين البيتين أنه نظمها بعد عودته من رحلة باشر بها ثغور الأندلس وذلك يدل على أن ذلك من مهام الوزير حيث ينوب عن السلطان في هذا العمل . ونلحظ في البيت الثاني التصوير الحضاري الجميل لمسيرة هذه الرحلة حيث شبه دورته على هذه البلاد باستدارة البركار – الفرجار – الذي يستعان به في رسم الدوائر حيث يبدأ من نقطة معينه ويكمل دورته عندها مرة أخرى ولاشك أن هذا التصوير كان نتاج بيئة الحضارة والعلم .

ومما يدل على الحضارة السياسية **نيابة أحد الثقات عن السلطان** في بعض الأعمال، كما هو واضح من المثال السابق حيث ناب ابن الخطيب عن سلطان غرناطه

---

[١] دون ابن الخطيب هذه الرحله التفتيشية في مقامة (خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف) وقد قام بنشرها الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي ضمن كتاب (مشاهدات لسان الدين بلن الخطيب في بلاد الأندلس والمغرب).

[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢١٥.

[٣] الأوج : الأرتفاع والسمو.

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٧٧.

في تفقد الثغور، ليس هذا فحسب بل إن ابن الخطيب قد ذكر بشعره ما يفيد النيابة عن السلطان في مهام أكبر، كقوله:[1]

إِنْ تَوَرَّعْتُ أَصْبَحَتْ حَوْزَهُ ... المُلْكِ ضَيَاعاً لِجُرْأَةِ الفُجَّارِ
أَوْ تَقَاعَدْتُ أَصْبَحَ الأَمْرُ فَوْضَى ... تَلْعَبُ الشَّاةُ فِيهِ بِالجَزَّارِ
لاَيَزَالُ المَلاَمُ عَنْهُ بِحَالٍ ... حَالَةَ الشَّيْخِ وابنِهِ وَالحِمَارِ
قَدْتُهُمْ لِلْجِهَادِ فَاشْتَكُوا ... الضَّعْفَ وَضَجُّوا لِكَثْرَةِ الأَسْفَارِ
مِلْتُ لِلصُّلْحِ سَمَّوِ الصُّلْحَ شَرّاً ... عَكْسَ قَوْلِ المُهَيْمِنِ الجَبَّارِ
سُسْتُهُمْ لَسْتُ أَبْتَغِي غَيْرَ حَقِّ ... اللّهِ أَوْ قَوْمَتِي بِحَقِّ الجِوَارِ
فَجَزَوْنِي جَزَاءَ مَنْ يَخْدُمُ ... السُّلْطَانَ فِيمَا مَضَى مِنْ الأَعْصَارِ

وهذه الأبيات تؤكد هذه الناحية الحضارية وهي نيابة الوزير الثقه عن السلطان في كثير من الأعمال بل الملاحظ من هذه الأبيات أن هذا الوزير كان يتولى جميع مهام الحكم السياسي عن سلطانه وإن كان طابعها العام هو التذمر من هذه الأعمال المناطة به، إلا أنه يدل على النفوذ الكبير لهذا الوزير ، ويعطي تصوراً عن طبيعة هذه المهام التي كان يتولاها، وهي كما يذكر ابن الخطيب **الإشراف العام** على جميع مؤسسات الدولة وهذا يتطلب الدقة والحزم في التعامل وكذلك **قيادة الجيوش** في الحروب وإبرام عقود الصلح والمهادنة مع الأعداء ، **وتوجيه السياسة** العامة للدولة الداخلية والخارجية. كما نلحظ في الأبيات إشارات حضاريه متعددة ، مثل الإشارة إلى قصة الشيخ وابنه والحمار وهي قصة طريفة وظفها لبيان معاناته مع شعب لا يرضى عن سياسته مهما فعل ، ولاشك أن هذا التوظيف للتراث يدل على ثقافة، تحضر فكري . كذلك الإشارة إلى معاني القرآن الكريم في حالة الصلح ليعبر عن رفضهم له واعتباره شراً عكس قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ -سورة الأنفال آية ٦١- وهذه الإشارة تدل على ثقافة دينية مستوحاة من معين الحضارة الإسلامية. وكذلك نلحظ في

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٣٢.

نهاية الأبيات الإشارة إلى قصة "سنمار" الذي خدم السلطان وكان جزاءه القتل[١] وذلك أيضا توظيف جميل للتراث والثقافه العربية . وكل هذه الإشارات تدل على تحضر فكري، وهذا النفوذ القوي الذي كان يتمتع به الوزير الغرناطي جعله يلقب غالباً بالقاب تدل على هذه المكانه مثل لقب "الحاجب"، الذي يعني في الأندلس رئيس الوزراء، وليس الذي يقف بباب الحاكم كما كان الحال في المشرق. وقد ذكر ابن الخطيب هذا اللقب الذي يدل على المكانه الرفيعة كقوله في الغزل:[٢]

فُؤادِيَ مَأْمُورٌ وَلَحْظُـــكَ آمِرٌ وَطَاعَةُ رَبِّ الأَمْرِ فِي النَّاسِ وَاجِبُ
وَأُيِّدَ ذَاكَ اللَّحْظُ مِنْكَ بِحَاجِبٍ وَيَقْبُـــحُ أَنْ يُعْصَى أَمِيرٌ وَحَاجِبُ

ونلحظ الحضارة في هذه البيتين بهذا الأسلوب الطريف في الغزل والتورية ببعض الألقاب السياسية في عصر الحضارة، وهما **الأمير والحاجب**، ليدل بذلك على أنه رهن إشارة عيني محبوبته وحاجبيها ، وعلل لهذه الطاعة للعين التي كانت مثل السلطان والحاجب من فوقها ، بتعليل جميل استقاه من معين الحضارة الإسلامية وهو وجوب طاعة ولي الأمر[٣] والملاحظ هنا أن الحاجب يشارك السلطان في إصدار الأوامر ، مما يدل على أنه وزير صاحب نفوذ بدليل كراهية عصيانه في هذا البيت .

ومثله قوله:[٤]

لَكَ المُلْكُ مُلْكُ الحُسْنِ فَاقْضِ بِكُلِّ مَا تَشَاءُ فَمَا يُعْصَـــــى لأَمْرِكَ وَاجِبُهْ
إِذَا مَاكَسَرْتَ اللَّحْظَ مِنْ تَحْتِ حَاجِبٍ تَحَكَّمَ فِي الأَلْبَابِ "كِسْرَى" وحَاجِبُهُ

وقال أيضا:[٥]

تَرَفَّعَ عَنْ سُلْطَانِ لَحْظِكَ حَاجِبُهْ وَمِنْ مِثْلِ هَذَا الأَمْرِ يَعْجَبُ وَاجِبُهْ
وَمَا هُوَ إِلاَّ قَائِمٌ فَـــــوْقَ رَأْسِهِ يُوَفَّى لَهُ مِنْ مَنْصِبِ المُلْكِ عَاجِبُـــه

وكل هذه الأبيات تدل على أن الحاجب يشارك الأمير أو السلطان في القرار وهذا يؤكد أنه عكس حاجب المشرق الذي يقف بباب السلطان ويسمح بدخول من يأذن له السلطان فقط[٦].

---

(١) مأخوذ من المثل القائل: (جزاء سنمار)، أنظر : الميداني : مجمع الأمثال: ١/ ٢٤٥.
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص :١٥٢.
(٣) فيها إشارة إلى الآيه (٥٩) من سورة النساء .
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ص ١٥٢.
(٥) ديوان ابن الخطيب ، ص ١٥٢.
(٦) أنظر ابن خلدون : المقدمه ص ٢٤٠-٢٤١ كذلك د محمد ضيف الله بطانيه : الجهاز الإداري في الحضارة الإسلاميه ، مجلة الداره العدد الثاني ، السنه العاشرة سبتمبر ١٩٨٤م ، ص ١٢١.

ومن الألقاب الحضارية التي أطلقت على الوزير الغرناطي، وتدل على المكانه الأثيرة لدي السلطان لقب **ذي الوزارتين** الذي يعني جمع صاحبه بين سلطتي السيف والقلم، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله:[١]

لَمْ أَعُدَّ الحُسَـــــامَ مِنْ أَدَوَاتِي حَسْبُ نَفْسِي يَرَاعَـــتِي وَدَوَاتِي
فَأَنَا اليَوْمَ تْجمَـــعُ السَّيْفَ كَفِّي وَيَرَاعَ الكُتَّـــابِ بَعْدَ شَـــتَاتِي

وفي هذين البيتين دلالة صريحة على تولي الوزير الكاتب مهام عسكرية إلى جانب الكتابة حيث تولى قيادة الجيش وتنظيمة . وكان ابن الخطيب هو من لُقِّب بلقب "ذى الوزارتين" في هذا العصر[٢] أي وزارة السيف والقلم. ولم يكن هذا اللقب تشريفيا بل كان حقيقياً في معناه ومدلوله، لأن ابن الخطيب فعلا قد جمع هذين السلطتين في عصره وناب عن السلطان في ملكه.[٣]

ومن مظاهر الحضارة السياسية – أيضا – **تبادل السفارات** مع الدول الأخرى . والحرص في سفاراتهم على إرسال أفاضل أدبائهم والجلة من علمائهم ، مثل تكليف ابن الخطيب بمهمة السفارة عن " الغني بالله " إلى السلطان " أبى عنان المريني " سنة (٧٥٥هـ) بعد حادثة اغتيال السلطان " أبي الحجاج" وعندما دخل على السلطان استأذنه وألقى بين يديه قصيدته وهو قائم ومنها قوله:[٤]

خَلِيفَةَ اللّهِ سَـــــاعَدَ القَدَرُ عُلاَكَ مَا لاَحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ
وَدَافَعتْ عَنْكَ كَفُّ قُـــدْرَتِهِ مَا لَيْسَ يَسْـتَطِيعُ دَفْعَهُ البَشَرُ
لَيْسَ لَنَا مَلْجَـــــــأٌ نُؤَمِّلُهُ سِوَاكَ أَنْتَ الثِّمَـــالُ والوَزَرُ[٥]
وَالنَّاسُ طُـــرّاً بِأَرْضِ "أَنْدَلُسٍ" لَوْلاَكَ مَا أَوْطَـــنُوا وَلاَعَمَرُوا
وَمَـنْ بِهِ مُذْ وَصَـــلْتَ حَبْلَهُمُ مَا جَحَـــدُوا نِعْمَةً وَلاَ كَفَرُوا
وَقَدْ أَهَمَّـــتْهُمُ نُفُوسُـــهُمُ فَوَجَّهُـــونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَـــرُوا

وقد كان ابن الخطيب يهدف من هذه السفارة إعلام السلطان المغربي بما استجد من أحداث في غرناطة إلى جانب إشعاره باعتماد مسلمي الأندلس على نصرته. وهذا هو ما أعربت عنه هذه الأبيات وقد اهتز السلطان لهذه الأبيات عند سماعها وأذن له في

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص :١٨١.
[٢] أنظر/ المقري : نفخ الطيب : ٥/٨٠ وكان لقب (ذي الوزارتين) قد عرف قديماً في الأندلس منذ عصر الخلافه الأمويه .
[٣] أنظر ديوان ابن الخطيب ، ص ١٨١ حيث نص في تقديم القصيده أن السلطان قد جعله بدار ملكه نائباً عنه.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص ٤٠٣ -٤٠٤.
[٥] الثمال : المعتمد ، الوزر : الملجأ.

الجلوس، قال له قبل أن يجلس: (ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم)[١] وبذلك نتمكن من حسم المداولات قبل بدايتها ، حتى أن هذا الأمر كان مثار إعجاب الحاضرين ، يدل على ذلك ما علق به أحد أعضاء الوفد الأندلسي، حين قال : (لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا)[٢].

ولاشك أن هذا الموقف يدل على جانب حضاري سياسي، وسياسي ويؤكد سياسة هذه الدولة التي تحترم العلم وتقدر العلماء ومكانتهم الرفيعة، إيماناً منها بدورهم الفعال في الرقي بها وازدهارها . ومن هنا كان حرص الحكام على إرسال الأدباء والعلماء لقضاء مثل هذه المهام الكبيرة . حتى يكونوا أقدر على التأثير وأبلغ في التعبير عن مضمون السفارة .

وكانت **إجابة هذه السفارة ونجاحها مما يستوجب الشكر** ، وهو يدل على مظهر حضاري يعكس طرق التعامل بين الحكام السفراء وهذا ما فعله ابن الخطيب حيث وجه قصيدة أخرى للسلطان " أبي عنان " بمدحه فيها ويؤكد على تحقيق مطلبه افتتحها بقوله:[٣]

أَبْدَى لِدَاعِي الفَـوْزِ وَجْهَ مُنِيبِ وَأَفَاقَ مِنْ عَـذْلٍ وَمِـــنْ تَأْنِيبِ

ومما جاء فيها:[٤]

فَإِذَا جَعَلْتَ الصَّـبْرَ مَفْزَعَ مُعْضِلٍ عَاجَلْتَ عِلَّـــتَهُ بِطِـبٍّ طَبِيبِ

وَإِذَا اسْتَعَنْتَ عَلَى الزَّمَانِ "بِفَارِسٍ"[٥] لَبَّى نَدَاءَكَ مِنْهُ خَـــيْرُ مُجِيبِ

يَا نَاصِرَ الثَّغْـــــرِ الغَرِيبِ وَأَهْلِهِ أَنْضَاءُ مَسْغَبَةٍ وَفلُّ خُطُـــوبِ

نَادَتْكَ "أَنْدَلُـسُ" وَمَجْدُكَ ضَامِنٌ أَنْ لاَ تَخِيبَ لَدَيْكَ فِي مَطْـلُوبِ

ونلحظ في هذه الأبيات مشاعر التقدير والامتنان التي عبر عنها الشاعر بسبب موقف هذا الخليفة العظيم الذي استجاب لأهل الأندلس ولبى ندائهم ، كما نلحظ في البيتين الأخيرين تأكيد ابن الخطيب لمطالبهم التي لازالت تنتظر تنفيذ الوعد من هذا السلطان .

---

[١] ابن خلدون : العبر : ٣٩٥/٧.
[٢] ابن خلدون : العبر : ٣٩٥/٧.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص: ١٢٨.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص: ١٢٩ – ١٣١.
[٥] يقصد السلطان " أباعنان فارس المريني".

وقد أحسن هذا السفير بتأكيد المطالب بعد مدح السلطان فذلك أدعى للتعجيل بأداء مرادهم . وهذا يؤكد أيضا قيمة أهل العلم والحنكة السياسية في مثل هذا المواقف. لقد أحسن "الغني بالله" اختيار سفيرة فكان ابن الخطيب الرجل المناسب لهذه المهمة.

مما سبق نخلص أن الوزير في مملكة غرناطة هو رأس السلطة التنفيذية الحقيقية وهو الذي يشرف سواء بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوى على تصريف شؤون المملكة، وتوجيه سياستها الداخلية، أو الخارجية. كما لاحظنا الكثير من السمات الحضارية في خطة الوزارة السياسية، مثل النيابة عن السلطان في أداء بعض المهام الرئاسية، ووقوف الوزير إلى جانب السلطان لاستقبال أفراد الشعب في يوم الاثنين من كل أسبوع، كذلك إرسال الوزراء للقيام بالتفتيش في مناطق المملكة المختلفة وغيره مما ذكر سابقاً.

ومن الخطط السياسية التي استدعتها الحضارة **خطة الكتابة**، وهي من الوظائف المرموقة في مملكة غرناطة إذ لم تقل أهمية عن الوزارة، بل إنها كثيراً ما تداخلت معها حيث كان أغلب الوزراء في مملكة غرناطة كتاباً .

وقد كان ابن الخطيب من أشهر الكتاب في هذا العصر ، حيث تولى رئاسة ديوان الإنشاء[١] بعد وفاة الرئيس "أبي الحسن بن الجياب" ومما قاله ابتهاجا بهذه المنزلة:[٢]

بَأَوْتُ عَلَى زَمَنِى هِمّةً فَأَعْتَبِنِي الزَّمَنُ العَاتِبْ

وَشَرَّفَنِي اللّهُ فِي مَوْطِنِي وَفِي بَيْتِهِ يَشْرُفُ "الكاتب"

فالكاتب في عرف أهل المغرب هو كوكب "عطارد"، وبيت الكوكب هو محل أمنه وسلامته، أما شرف الكوكب فهو محل علوه وسعادته.[٣] ونلحظ في هذين البيتين اغتباط ابن الخطيب بهذا المحل، وتشريفه به، وهذا يدل على علو مكانه الكاتب في الدولة ورفعة منصبه ، لأنه عنوان الدولة، وما يصدر عنه من إنشاء هو المحك، به تعلو الدولة بين الدول إذا تصف إنشائه بالبراعة وتسفل إذا انحط عن هذه المرتبة.

---

(١) الإنشاء من الألفاظ المستعملة في ديوان الرسائل ، وقد عرف ديوان الرسائل باسم ديوان الإنشاء منذ أخريات دولة بني العباس ، أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى : ٥٤/١-٥٥ د . محمد بطاينة : الجهاز الإداري في الحضارة الإسلاميه ، ص ١٢٦ .

(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٦.

(٣) انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب: ١٣٣/٢.

ونظراً لأهمية الكتابة في جميع شئون الدولة فإن ذلك اقتضى تعدد فئات الكتاب، بحيث اختص كل ديوان بكتابه. وقد وردت إشارات لبعض هؤلاء الكتاب في شعر ابن الخطيب ومن الأمثلة على ذلك قوله في مدح أحد الفضلاء من الكتاب:[١]

لَكِنَّ فَاضِلَ كُتَّابِ الشُّرُوطِ بِهَا "يَحْيَى" أَبَرُّ فَتَىً لِلفَضْلِ مُشْتَرِطِ

وقد نص ابن الخطيب في هذا البيت على تخصص هذا الكتاب بكتابه الشروط وهو اصطلاح فقهي يدل على ما يوضع في العقد بين طرفين ليلتزم في بيع أو نحوه ثم أطلق أسم الشرط على العقد نفسه في البيوع وغيره فأصبح علم الشروط بابا خاصاً من الفقه وهذه الصناعة تابعه لخطة القضاء راجعة إليه.[٢]

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الخطيب قد أشار إلى هذه الوظيفة بأكثر من أسم فأحيانا سمى أصحابها (**كتاب الشروط**) كما في المثال السابق،[٣] كما أطلق عليها أحيانا مصطلح (**صناعة التوثيق**)[٤] أو (**الوثيقه**)[٥] وشاهد ذلك قوله مجيباً عن اعتذار أحد الموثقين عن إجابة دعوته:[٦]

أَبَيْتُمْ دَعْوَتِي إِمَّـــالِبَأْوٍ[٧] وَتَأْبَى لَوْمَهُ مُثْلَى الطَّرِيقَهْ
وَإِمَّا زَاجِرُ الوَرَعِ اقْتَضَاهَا وَيَأْبَى ذَاكَ دُكّانُ الوَثِيقَهْ

وفي البيت الثاني دلاله حضاريه تؤكد تواجد هؤلاء الكتاب الموثقين في مكان معين لأداء مهامهم وهو دكان أو محل.

كما بعث ابن الخطيب بقصيده أخرى نص في تقديمه لها بأنها رد على أحد الموثقين[٨] وقد ذم فيها هذا الرجل فقال:[٩]

إِمَامُ جَمَـــــاعَةٍ وَقَرِيعُ تَقْوَى وَمَبْلَغُ حُجَّةٍ وَحَفِيظُ سِيقَهْ
فَبُؤْتَ بِهَا عَلَـــــى الأَيَّامِ دَاءً عُضَالاً لاَ تُفِيقُ عَلَــيْهِ فِيقَهْ
وَقَدْ عَارَضْتَ عُـذْرَكَ بِاعْتِرَافٍ فَزِدْتَ مَذَمَّةً تَسِــمُ الطَّرِيقَهْ
وَهَلْ بَعْدَ اعْـــتِرَافٍ مِنْ نِزَاعٍ وَهَلْ بَعْدَ افْتِصَالٍ مِنْ وَثِيقَهْ؟

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٦٣.
[٢] أنظر : ابن خلدون : المقدمه ، ص : ٢٢٤- ٢٢٥ وقد سماها ابن خلدون (العداله) .
[٣] ذكر ابن الخطيب هذه التسميه في ترجمته لأحمد بن محمد بن قعنب الأزدي حيث قال : (كان من شيوخ كتاب الشروط معرفه بالمسائل وأضطلاعاً بالأحكام : أنظرا : ابن الخطيب : الإحاطه : ١٦٦/١.
[٤] ورد هذا المصطلح في ترجمة ابن برطال حيث قال : (تحرف بصناعة التوثيق على انقباض) ، أنظر ابن الخطيب : الإحاطه : ١٧٢/١.
[٥] ورد هذا المصطلح في ترجمه أحمد بن عبد الحق بن محمد الجذلي حيث وصفه بقوله : (إمام في الوثيقة) أنظر : ابن الخطيب : الإحاطه :١/. ١٨٠.
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص :٦٩٦.
[٧] البأو : الكبر والفخر .
[٨] انظر : ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٢.
[٩] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٣.

ويتضح من هذه الأبيات أن كاتب الوثيقة هذا من أصحاب الوظائف المهمة فهو إمام جماعه وصاحب تقوى ، ويحفظ للناس حقوقهم وقبل ذلك هو عالم بعلوم العقيدة،[١] ومما يدل على أن هذه الوثائق من وسائل حفظ الحقوق لأصحابها ما ذكره في البيت الأخير من أن الاتفاق لا يجب معه توثيق وهو يلومه أنه رجل بهذا القدر من الفضل والعلم ويصدر منه ما أغضب ابن الخطيب وأثار حفيظته.[٢]

كما وجه ابن الخطيب قصيدة أخرى إلى أحد الكتاب وهو صاحب **خط العلامة** في المغرب فقال:[٣]

بِكَ الخُطَطُ الرَّفِيعَةُ فَلْتُهَنَّا فَإِنَّكَ سَعْدُهَا لَفْظاً وَمَعْنَى
إِذَا ذُكِرَ العَلاَءُ فَأَنْتَ أَعْلَى وَإِنْ ذُكِرَ السَّنَاءُ فَأَنْتَ أَسْنَى

وفي هذين البيتين مظهر حضاري سياسي يدل على أن الكتابه من الخطط الرفيعة في الدولة لذلك كان الكتاب المجيدون لصناعتهم محل الإجلال والتقدير من الجميع وما مدح ابن الخطيب لهذا الكاتب إلا تقديراً له وبياناً لمكانته الرفيعة في الدولة. ولم يقتصر مدح ابن الخطيب على هذا الكاتب فقط، بل ورد في شعره مدائح لبعض المميزين منهم ومن الأمثلة على ذلك قوله في مدح أحد الكتاب:[٤]

وَحَيَّ يَرَاعَكَ مِنْ آيَةٍ فَقَدْ حَرَّكَ القَوْمَ بَعْدَ السُّكُونْ

وفي هذا البيت يبين ابن الخطيب الدور المهم لهذا الكاتب في عمله، يؤكد أنه كان ممن مارسوا الكتابة والتأليف، وأسهموا في إثراء الحركة الثقافية في مجتمعهم وقال أيضا:[٥]

إِنْ كَانَتْ الآدَابُ أَضْحَتْ جَنَّةً فَلَقَدْ غَدَا جَنَّانَهَا "الجَنَّانُ"[٦]
أَقْلاَمُهُ القُضْبُ اللَّدَانُ بِدَوْحِهَا وَالزَّهْرُ مَا رَقَمَتْهُ مِنْهُ بَنَانُ

وهذا مثال آخر يعكس الرقي الفكري والسياسي في هذا العصر، فقد كانت أعلى المناصب في الدولة في يد العلماء والأدباء وكانوا عاملاً من أهم عوامل الازدهار الحضاري فيها. كما نلحظ التصوير الحضاري في هذين البيتين الذي أستوحاه الشاعر من بيئة الرياض والحدائق والمياه الجارية فلهذا الأديب هو الجنّان الذي يتعهد هذه

---

(١) كثيرا ماكان صاحب هذه المهنه مرشحاً لمنصب القضاء ، مثل أحمد بن محمد بن علي المعروف بابن برطال ، حيث تولى القضاء بعد أن كان موثقاً ، أنظر : ابن الخطيب : الإحاطه : ١٧١/١ -١٧٢ .

(٢) بسبب هذا الموقف ألف ابن الخطيب كتيباً أعتمد فيه أسلوب السخرية والأستهزاء سماه (مثلى الطريقه في ذم الوثيقه) شن من خلاله حملة شعواء على منتحلي هذه الصنعة أنظر : المقرى نفح الطيب : ٢٧٣/٦ وما بعدها.

(٣) ديوان ابن الخطيب / ص٦١٣.

(٤) ديوان ابن الخطيب / ص٦٠١.

(٥) ديوان ابن الخطيب / ص: ٥٩٥ – ٥٩٦.

(٦) هو ابو جعفر أحمد بن محمد ابراهيم الأوسي الجنان ، أنظر ترجمته في أحمد بابا التنبكي : تيل الابتهاج بتطريز الديباج .ص :٥٠

الحديقة بالرعاية وأقلامه مثل القضب والأغصان أما ما يدونه فهو الزهر الجميل، ليدل بذلك على تنوع الإنتاج الأدبي والفكري لهذا الرجل، والذي كان في جله هادفاً ومفيداً.

ولاشك أن هذا الاهتمام من قبل ابن الخطيب بخطة الكتابة وكل من يمتهنها يدل على أهميتها بين الخطط السياسية في الدولة لأن الكاتب هو الذي يعبر عن سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وتميزه في هذه المهنة وقدرته على تدبيج الرسائل تعنى بنجاح الدولة في كثير من شئونها وعلاقاتها الخارجية مع دول الجوار وغيرها ولعل في قول ابن الخطيب ما يشير إلى ذلك:[١]

أُجِلَّكَ أَنْ يُلِمَّ بِكَ العِـــــتَابُ ... وَوُدُّكَ لاَ يُدَاخِـــــلُهُ ارْتِيَابُ
وَأَسْتَعْدِي عُلاَكَ عَلَى اخْتِصَارٍ ... إِذَا مَا عَادَ لِي مِــنْكَ الجَوَابُ
أَيُطْنِبُ فِي مَعَانِيهَا المعَـــــالِي ... بِرَبْعِكُمْ وَيُخْتَصَــرُ الكِتَابُ
وَمَنْ يُعْطِي الجَزِيلَ بِلاَ حِسَابٍ ... يَكُونُ لَهُ عَلَى لَفْظٍ حِسَابُ؟!

ونلحظ في هذه الأبيات مظهراً حضارياً تجلى في هذا الأدب الجم والأسلوب الراقي في المخاطبات السلطانية، وطابع هذه الأبيات هو العتاب، حيث عبر ابن الخطيب – وهو كاتب السلطان – عن قلق السلطان بعد أن أصبحت الكتب السلطانية الواردة من المغرب مختصرة عن ذي قبل، وهذا ولاشك يؤكد دور كاتب الرسائل السلطانية في دفع العلاقات الدولية إلى الأفضل بفضل براعته وحنكته وتمكنه من صناعته.

إلى جانب هذه الخطط السياسية التي استدعتها حضارة الدولة نلحظ في شعر ابن الخطيب إشارة إلى بعض الوظائف في القصر الملكي كقوله[٢] في التورية حين أكل **مشرف الدار السلطانية القابض**:[٣]

مُشْرِفُ دَارِ المُلْكِ مَا بَالُهُ؟ ... مُنْتَفِخَ الجَوْفِ شَكَا نَافِضَا[٤]
فَقِيلَ لِـي لَيْـــسَ بِهِ عِلَّةٌ ... لَكِنَّهُ قَدْ أَكَلَ القَابِضَـــا

ونلحظ في البيت الأول ذكر هذه الوظيفة الحضارية و هي الإشراف على القصر الملكي.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص ١٣٨.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص ٦٤٣.
[٣] القابض: المال المأخوذ.
[٤] النافض: الحمى.

كما نص في موضع آخر في ديوانه على مهنه أخرى حيث قال في تقديم المقطوعه (وقلت أخاطب صاحبي) محمد بن نوار (من الخدام) وقد أعرس بنت مزوار الدار السلطانيه[١]

إِنْ كُنْتُ فِي العُرْسِ ذَا قُصُورٍ فَلاَ حُضُورَ ولَا دِخَـالَهْ
يَثُوبُ نَظْمِي مَنَـــــابَ كَبْشٍ وَالنَّشْرُ عَنْ قُفَّة النُّخَالَهْ

والمزوار هو رئيس الشرفاء وكبيرهم في القصر الملكي .. ولاشك أن هاتين الوظيفتين من المظاهر الحضارية الواضحة لأنهما قد وجدا لدواعي الحضارة والترف خاصة وأنهما من المهام داخل القصر.

ومن مظاهر الحضارة التي تتعلق بالسياسة إشارة ابن الخطيب إلى تنظيم الجيوش والاستعانة بكافة عناصر المجتمع الغرناطي في الجيش ومنهم الأغزاز وهم جنس من الترك، ومما قاله فيهم:[٢]

وَدَارَتْ مِنْ "الأَغْزَازِ" تَحْتَ لِوَائِهَا رُمَاةٌ عَلَى أَوْتَارِهَا لِلْعِدَا وَتْرُ

وهو يدل على مهمتهم في صفوف الجيش حيث كانوا من الرماه ، كما صور طريقة وقوفهم هنا – والإشارة في البيت الى موكب السلطان - حيث استقاموا بالوقوف حول السبيكة وتعلوهم الرايه تخفق في أرجائها.[٣]

وكان لسلاطين بني نصر جهود كبيره في تنظيم هذه الجيوش والعناية بها . فقد كانت قوه غرناطه العسكرية هي عماد حياتها في تلك الظروف الحرجة التي كانت تعيش بها ، لذلك فقد تم في عهدهم تنظيم هذه الجيوش حيث قسمت إلى **سرايا وكتائب** وقد أشار ابن الخطيب بشعره إلى ذلك، كقوله في وصف ما كانت تتعرض له الثغور الإسلامية القريبة من الأعداء:

شَرِقَتْ ثُغُورُ الدِّينِ مِنْهُ بِغُصَّةٍ وَلَقِينَ مِنْهُ حَوَادِثاً وَخُطُوبَا
وَمَتَى سَرَتْ لِلْمُسْلِمِـينَ سَرِيَّةً أَبْدَى لَهَا التَّحْذِيرَ وَالتَّأْلِيبَا

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٠٧.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص، ٤٠٢.
[٣] إن الرايات هي أرواح الجند وثباتها يعني ثبات أفئدتهم . أنظر / على بن عبد الرحمن " ابن هذيل " الأندلسي : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ، تحقيق : عبد الإله نبهان ومحمد فاتح زغل ، الطبعة الأولى ، مركز زايد للتراث والتاريخ العين ،٢٠٠٤ / ، ص ١٨٩-١٩٠.

وفي البيت الثاني نلحظ هذا القسم من الجيش وهو السرية وهو فئة صغيره منه كما أشار ابن الخطيب بشعره إلى تنظيم الجيش في الصفوف والكتائب وهذا هو بشان الجند عند كل الأمور المتحضرة[١] ومن ذلك قوله:[٢]

وَكَتَّبْتَ مِنْ أَسْدِ الحِفَاظِ كَتَائِباً إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِـــــــي أَتَتْهُ تُسَارِعُ
إِذَا سَحَبُوا ذَيْلَ الدُّرُوعِ إِلَى الوَغَى كَمَا تَسْحَبُ السُّحْبَ البُدُورُ الطَّوَالِعُ
تَحَرَّكَتْ الأَجْيَالُ وأشْـتَعَلَ الفَلاَ وَزُلْزِلَ مِنْ هَـذِي البَسِـــيطَةِ وَادِعُ

ونلحظ في هذه الأبيات الوصف لهذا الجيش العظيم الجرار الذي قام السلطان بتنظيمه وأختار له الفرسان الذين لا يهابون الموت ولاشك أن ذلك يعكس مظهراً حضارياً سياسياً يدل على أن السلطان هو رأس السلطة التنفيذية الحقيقية في الدولة حيث يتولى الإشراف بنفسه على تنظيم الجيوش وتقسيمها إلى كتائب واختيار الجند الذين يلتحقون بها مما يدل على السير وفق خطط مدروسة ومنظمة حتى تتحقق الغاية المرجوة منه هي مواجهة الأعداء والدفاع عن حمى هذه الدولة حتى لا تستباح. كما نلحظ صورة الجيش المنظم والحرب المعدة المدروسة في قول ابن الخطيب[٣] الذي وصف به فتح حصن" كركبول ":[٤]

لِلَّهِ يَوْمَ الفَتْـــــــحِ مِـنْهُ فَإِنَهُ يَوْمٌ عَلَى الكُفَّارِ كَانَ عَصِـيبَا
حَفَّـــتْ بِهِ رَايَاتُكَ الحُمْـرُ الَّتِي قَـــادَتْ إِلَيْهِ قَبَائِلاً وَشُـــعُوبَا
وَتَعلَّقَـــتْ بُهْمُ الرِجَالِ بسُـورِهِ فَتُخَـــالُ فِي شُرُفَاتِهِ يَعْسُـــوبَا[٥]
فَكَأَنَّمَا قُزَحٌ حَنَتْ أَقْوَاسَـــهُ أَيْدِي الغَـــمَامَ وَأَمْطَرَتْ شُؤْبُوبُا[٦]

ونلحظ في هذه الأبيات الحضارة في هذا الخطط المعدة مسبقاً للهجوم، حيث تم حصار هذا الحصن بجيش ضخم ، تخفق في أعلاه الرايات الحمراء شعار "بني نصر" الذي اتخذوه ، وفي هذا إشارة حضاريه تدل على **لون الأعلام** الرسمي المتخذ في الحروب ثم يكمل ابن الخطيب مشهد الحرب بعد الحصار حيث تعلق الفرسان بأسوار هذا الحصن المنيعة بكل شجاعة وأمطروهم بسهام تقذفهم من كل الجهات حتى كادت

---

[١] أنظر : جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، الطبعة الثانيه ، دار مكتبه الحياة ، بيروت (د زت) : ١٩٥/١.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص، ٤٦٤٩.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص ١٠٤.
[٤] كركبول : من اقاليم قرطبه ، يبعد عن برجة ، في الشمال الغربي بعشر كيلو متر أنظر : ديوان ابن الخطيب ، ص ١٠٣.
[٥] البهم : جمع اليهمة وهو الرجل الشجاع – اليعسوب : ذكر النحل وأميرها.
[٦] الشؤبوب : الدفعه من المطر.

قلوبهم تزيغ من شدة الخوف، وتمكنوا من فتحة كما نلحظ في هذا الأبيات **سمه حضارية** تجلت في هذا التصوير الطريف الذي وظف فيه الشاعر عناصر الطبيعة في مثل هذا الموقف المهيب . فالفرسان كاليعاسيب، وقسى الجنود فوق السور مثل قوس قزح والدفاع هذه السهام مثل اندفاع المطر بكثافه – الشؤبوب –ولاشك أن هذا التصوير مستوحى من بيئة طبيعية خلابه ملكت على هذا الشاعر قلبه فظهرت حتى في أكثر المواقف شدة وبأسا وهي **الحروب** – وقد يكون هذا التعبير عن الطبيعه في مثل هذا الموقف دالا على نفسية الشاعر المبتهجة المزهوة بالنصر فأصبح يرى هذه المشاهد بعين الفرح ونشوة النصر وقد كان تعبير ابن الخطيب عن اليعاسيب بعكس حضارة فكريه لأنه يدل على ثقافة علمية بالأحياء والكائنات المتواجدة في بيئته.

ومن إشارات ابن الخطيب إلى الحروب المنظمة قوله:[1]

وَلَكَ الكَتَائِبُ كَالْخَمَائِلِ أَطْلَعَتْ ... زَهْرَ الأَسِنَّةِ فَوْقَ كُلِّ قَضِيبِ
يَبْدُو سَدَادُ الرَّأْيِ فِي رَايَاتِهَا ... وَأُمُورُهَا تَجْرِي عَلَى تَجْرِيبِ
هَذَّبْتَهَا فَالعَرْضُ يُذْكِرُ يَوْمُهُ ... عَرْضَ الوَرَى لِلمَوْعِدِ المكْتُوبِ
حَتَّى إِذَا فَرَضَ الجِلاَدُ جِدَالَهَا ... وَرَأَيْتَ رِيحَ النَّصْرِ ذَاتُ هُبُوبِ
قَدَّمْتَ سَالِبَةَ العَدُوِّ وَبَعْدَهَا ... أُخْرَى لِعِزِّ النَّصْرِ ذَاتُ وُجُوبِ
وَإِذَا تَوَسَّطَ فَصْلُ سَيْفِكَ عِنْدَهَا ... جُزْأَيْ قِيَاسِكَ فُزْتَ بِالمَطْلُوبِ
وَتَبَرَّأَ الشَّيْطَانُ لَمَّا أَنْ رَأَى ... حِزْبَ الهُدَى مِنْ حِزْبِهِ المغْلُوبِ

وفي هذه الأبيات ذكر ابن الخطيب مظهراً حضارياً وهو تنظيم الجيش وتوزيعه في **الكتائب** وتوزيع الرايات على الجند ، وعرض هذه الكتائب كل فترة لتفقد أحوال الجند وأسلحتهم وهذا العرض كما ظهر في الأبيات بيد ومنظماً ومهيباً في ذلك اليوم حتى إذا اشتعلت نار الحرب لاحظنا الخطة التي أعدت لها مسبقاً حيث تتقدم إحدى الكتائب وتقاتل حتى تسلب العدو قوته وتوهنه وهي التي سماها (سالبه العدو) ثم تنسحب لتتقدم أخرى بكامل قوتها وعتادها لتجني هذا النصر بعد أن بلغ التعب من عدوهم كل مبلغ حيث تشق صفوفهم وتصل الى قلب الجيش لينتصر حزب الهدى على حزب الصليب .

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص ١٣٢.

كما نلحظ في هذه الأبيات مظهراً حضاريا تجلى في هذا الأسلوب الذي عبر به في قوله (سالبه العدو – ذات وجوب - قياسك) حيث استقاها من بيئة الفكر والمنطق كما نلحظ في البيت الأخير **الهدف الحضاري الراقي** لحروبهم فلم تكن لسفك الدماء والاعتداء بغير حق ، وإنما كان هدفها راقيا ينبع من تعاليم الدين الإسلامي الذي يهدف لرفع راية الإسلام .

مما سبق نلحظ في شعر ابن الخطيب السياسي ظهور صورة الجيش المنظم والحرب المعدة المدروسة خططها ، فلم تكن حروباً قبلية في شكل غزوات متفاوتة وإنما امتازت بالنظام والتريث والإعداد ودراسة الخطط وهذا يدل على التحضر في سياسة الدولة .

ومن مظاهر الحضارة السياسية – أيضا – **رصد مظاهر الحركة السياسية** ومتابعتها وتصوير انتصارات الحكام لاسيما السلطان "أبو الحجاج" وابنه "الغني بالله" والأمثلة على ذلك متعددة في ديوان ابن الخطيب ومنعها قوله بعد انتصار السلطان أبي الحجاج على الروم في حصن "شوذر" : [1]

هُوَ النَّصْرُ بَادٍ لِلْعُيُونِ صَبَاحُهُ ... فَمَا عُذْرُ صَدْرٍ لَيْسَ يَبْدُو انْشِرَاحُهُ

تَلاَفَيْتَ بِالعَزْمِ البِلاَدَ وَأَهْلَهَا ... وَقَدْ عَصَفَتْ لِلْكُفْرِ فِيهَا رِيَاحُهُ

وَقُدْتَ إِلَيْهَا الجَيْشَ وَالعَسْكَرَ الَّذِي ... تُرَوَّى عَوَالِيهِ وَتَرْوَى صِحَاحُهُ

وَصَبَّحْتَ جَمْعَ الكُفْرِ فِي مُسْتَقَرِّهِ ... فَخَابَتْ مَسَاعِيهِ وَسَاءَ صَبَاحُهُ

وَأَقْبَلَ مَنْصُورَ اللِّواءِ مُؤَيَّداً ... ذَوابِلُهُ قَدْ ضُرِّجَتْ وَصِفَاحُهُ

إِذَا الخَطْبُ لَمْ يَسْمَحْ بِفَضْلِ قِيَادِهِ ... وَلاَيْنَتَهُ بِالصَّبْرِ لاَنَ جِمَاحُهُ

وفي هذه الأبيات نلحظ افتتاحها بالتهنئة بالنصر، على الكفار وهي فكرة يلح عليها ابن الخطيب في جميع مدائحه، مما يؤكد دائما أن هذه الحروب التي خاضوها جميعها تحمل هذا الهدف النبيل وهو **حماية الدين وأهله**، كما نلحظ تصوير ابن الخطيب لهذه المعركة التي بدأت من قبل المسلمين حيث شنوا الغارة على الكفار فجأة

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص ٢١٩ -٢٢٠ وحصن شوذر كان قلعه حصينه في شرق حيان وجنوبي ابدة . أنظر الحميري : صفه جزيرة الأندلس ، ص ١١٧.

في وقت الصباح ، وعاد منصور اللواء بعدها[١] وهذا الهدف من الحرب، والسير في الحرب على خطة محكمة يدل على حضارة سياسيه. إضافة إلى ما ورد في البيت الأخير الذي يدل على تمتع هذا السلطان بقدر كبير من الحنكة والدهاء فلم يكن متهورا بل كان يحسب كل خطوة قبل الإقدام عليها مما جعل النجاح هو نتاج هذه السياسة الواعية حيث مكنته من الوصول إلى ما يريد وذلك – أيضا – مظهر سياسي متحضر.

وهذه القصيدة -ولاشك -تكتسب قيمته توثيقية حيث أن وصف الشاعر هذا الحدث كان وصف شاهد عيان وبذلك يكون من الممكن أن يكون الشعر أيضا مصدراً من مصادر التاريخ[٢].

وقال – أيضا – في ذكر حادثه انقلاب "اسماعيل بن أبي حجاج" أخي السلطان "محمد الخامس" على الحكم سنة (٧٦٠هـ):[٣]

لَمْ يَدْرِ "اسْمَاعِيلَ" مَا طَوَّقْتَهُ ... مِنْ مِّةٍ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَعْقِلُ
أَعْزَاهُ شَيْطَانُ الغُرُورِ لِغَايَةٍ ... مِنْ دُونِهَا تُنْضَى المطِيُّ الذُّلَّلُ
وَسَقَى بِكَأْسِ الحَيْنِ "قَيْساً" بَعْدَهُ ... وَاللَّهُ يُمْلِي لِلطُّغَاةِ وَيُمْهِلُ
وَلَفِيفُ جَبَّان إِذَا مَا اسْتُوقِفُوا ... نَادَتْ بِهِمْ آجَالُهُمْ فَتَسَلَّلُوا
طَرَقُوا عَلَى الضَّرْغَامِ لَيْلاً غَابَهُ ... وَالبَدْرُ تَاجٌ بِالنُّجُومِ مُكَلَّلُ
وَفَدَاكَ شَيْخُ الأَوْلِيَاءِ بِنَفْسِهِ ... وَالنَّفْسُ آثَرُ كُلِّ شَيءٍ يُبْذَلُ
فَحَلَلْتَ مِنْ "وَادِي الأَشَى" بِقَرَارَةٍ ... عَزَّ الثُّوَاءُ بِهَا وَطَابَ المَنْزِلُ

ففي هذه الأبيات قدم ابن الخطيب وصفا لهذه الحادثة ونص على اسم القائم بالثورة وهو "اسماعيل بن يوسف" الذي أغراه ابن عمه وصهره ليغدر بعد ذلك به وبأخيه الأصغر "قيس". ثم صور الهجوم على قلعه الحمراء ليلاً، وافتداء شيخ الأولياء - الحاجب رضوان -السلطان بروحه وخروج السلطان من القلعة إلى "وادي آش" للنجاه بنفسه .

---

[١] اللواء هو العلم الكبير الذي يرفع في ساحة المعركه – والفرق بين اللواء والرايه هو أن اللواء لايكون إلا واحداً في كل جيش أما الرايه فهي علم لأصحاب القتال وكل قوم يقاتلون عن رايتهم وإذا تفرقوا في حاله القتال يتمكنون من الرجوع إلى رايتهم. انظر: ابن هذيل الأندلسي: تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس ص/١٨٩.

[٢] أنظر : د عبد الله التطاوي: الشاعر مؤرخا ، طبعة دار غريب، القاهرة (د ت) ، ص ٢٦٧.

[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٩٧ – ٤٩٨.

ولم يقف ابن الخطيب عند هذا الحد بل ذكر بشعر ما حدث بعد استقرار السلطان في "وادي آش" فقال:[١]

حَتَّى دَعَـاكَ "المسْـتَعِينُ"[٢] وَإِنَّهُ لأبَرُّ بِالمُلْكِ المُضَـاعِ وَأَكْفَـلُ
فَرَحَلْتَ عَنْهُم وَالقُلُـوبُ بَوَالِغٌ ثُغْرَ الحَنَاجِرِ والمـدَامِعُ تَهْمِـلُ
فَلَقَدْ شَهِدْتُ وَمَا شَهَدْتُ كَمَوْقِفٍ وَالنَّاسُ قَدْ وَصَلُوا الصَّرَاخَ وَأَعْوَلُوا
وَظَعَنْتَ عَنْ أَوْطَانِ مُلْكِكَ رَاكِباً مَتْنَ العُبَـابِ فَأَيُّ صَبْرٍ يَجْمُلُ
حَتَّى حَلَلْتَ بِعُنْصُـرِ المُلْكِ الَّذِي يَرْعَى الدَّخِيلُ بِهِ وَيُكْفَى المعْضِـلُ
وَكَفَى "بِإِبْرَاهِيمَ" بَدْرَ خِلاَفَـةٍ تَعْنُوا لِغُرَّتِهِ البُـدُورُ الكُـمَّلُ
جَمَعَتْ عَلَيْكَ العُدْوَتَـانِ قُلُـوبَهَا وَأَكُفَّهَا وَعَلَى الحَمِـيَّةِ عَوَّلُوا

وفي هذه الأبيات يصور ابن الخطيب هذا الموقف بصدق لأنه قد شهد هذا الموقف لذلك كان عالما بكل ماحدث ونقل ذلك بشعره ، وصور مشهد رحيل السلطان عن دار ملكه بتصوير حزين ويكشف في الوقت ذاته عن مقدار حب الشعب الغرناطي "للغني بالله" وركب متن العباب حيث لبى دعوة السلطان المغربي "أبي سالم ابراهيم المريني" ونزل بجواره وهذا يدل على مكانه "الغني بالله" الرفيعه فأهل العدوتين جميعاً قد هبوا لنصرته ومساعدته في استرجاع حقه بل حتى "الروم" أيضا كان لهم دور في ذلك ويؤكد ذلك قوله: [٢]

و"الرُّومُ" لاسْتِرْجَاعِ حَقِّكَ شَمَّرَتْ هَذَا هُوَ النَّصْرُ المعِمُّ المخْوِلُ

وابن الخطيب بذلك يقدم معلومات تاريخيه غاية في الأهمية حيث ذكر الحدث وسمّى بعض الأماكن والأشخاص فكان هذا الاهتمام بالنظرة الواقعية وتسجيل التاريخ الحي وتصوير أحداثه – وهو السياسي المؤرخ – من أبرز المضامين السياسية الحضارية في شعره .

وقد أسهم السلاطين "النصريون" في **تأصيل الشريعة الإسلامية** بالدعوة إليها وفي رعاية أمور المسلمين في وقت كان فيه التمسك بالدين من أهم أسباب بقائهم في هذه الأرض المحاطة بالأعداء . فكان ابن الخطيب يؤكد على هذه المعاني ويمدح السلاطين

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٩٨ – ٤٩٩.
[٢] "المستعين" : هو: أبو سالم المريني.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٠٠.

بتمسكهم بالإسلام وقيامهم بحق الجهاد في سبيل الله ورعاية أمور المسلمين ولاشك أن هذه المعاني تشكل مظهراً حضاريا يؤكد عليه ابن الخطيب في سياسة الحكام والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن ذلك قوله:[١]

لِلَّهِ يُوسُفُ مِنْ إِمَـــــامِ هِدَايَةٍ ... مَلِكٍ غَدَا لِلْمُتَّقِـــينَ إِمَامَا
سَاسَ البِلاَدَ ورَاضَ مِنْ دَهْمَائِها ... إِبِلاً صِعَاباً لاَ تُطِيقُ خَطَاماً [٢]
أوْ حَاوَرَ الآدَاب مُـــــبْتدِعاً لَهَا ... رَاضَ العُقُولَ وَرَوَّضَ الأَفْهَامَا

فهو يمدحه بالصلاح والتقوى وحسن سياسة الرعيه وتدبر أمرها على اختلاف فئاتها حتى روّض منها الدهماء التي لا تكاد تنقاد لأحد. وكذلك كانت الآداب محور امتداحه في البيت الأخير وهذا يدل على التحضر الفكري حيث يبتعد عن الصفات المألوفه في المدح من الكرم والشجاعة والوفاء .. وغيرها **وبمدحه بالعلم والأدب** لأنهما كانا سمه هذا المجتمع، كما أن مدحه بالحنكة والذكاء وحسن التعامل مع الرعية يعكس الوجه المتحضر لهذه السياسة التي أتبعها هذا الحاكم المحنك الذي اشتهر بالعلم والأدب[٣] ولاشك أن سياسته الناجحة كانت ثمرة من ثمار الحضارة كما أن تأثره بتعاليم الدين الإسلامي كان هو السبب الرئيس لصلاح الأوضاع السياسية في الدولة فقد كان ملتزماً بها إلى الحد الذي جعله إماما للمتقين .

وقال – أيضا – في مدح السلطان: [٤]

مَلِكٌ أَقَامَ الحَقَّ يَخْـفِقُ ظِـــلُّهُ ... فَالحَقُّ خَفَّاقُ الرُّوَاقِ مَدِيـــدُهُ
وَحَمَى الجَزِيرَةَ حَامِـلاً أَعْبَاءَهَا ... بِلُهَامِ جَيْشٍ لاَ يُكَثُّ عَدِيـــدُهُ
مَنْ كَانَ أَنْصَارُ النَّبِـــيِّ جُدُودَهُ ... فَمَلاَئِكُ السَّـــبْعِ الطِّبَاقِ جُنُودُهُ

ونلحظ في هذه الأبيات التركيز على مدح السلطان بالفضائل الإسلامية التي ترسمها في سياسته وهى تقوى الله والحرص على إقامة الحق ولا يستغرب الشاعر شأن هذا السلطان فنسبه يرجع إلى أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو "سعد بن عبادة"، وإذا كان هذا شأنه فإن الله تعالى لا يخيب مساعيه ويؤيده بجند السماء فهو لا يحارب اعتداء دون وجه حق وإنما هو الجهاد في سبيل الله وإحقاق الحق . وبعد هذا **الهدف الحضاري النبيل**، ذكر ابن الخطيب وصفاً لهذا الجيش فقال:[٥]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص ٥٣٤-٥٣٥.
[٢] الخطام هو ماوضع على خطم الجمل ليقاد به .
[٣] أنظر : ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ١٠٣
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص ٢٩١.
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص٢٩١ – ٢٩٢.

مَاسَتْ غُصُونُ رِمَـــاحِهِ وَتَفَتَّحَتْ بِشَقَائِقِ النَّصْـــرِ العَزِيزِ بُنُودُهُ
وَأَعَدَّ أَوْزَارَ الحُـــرُوبِ صَوَافِناً تَمْضِي عَلَى عِقْـــبَانِهِنَّ أُسُودُهُ
وَقَواضِباً بِيضاً سُقِينَ دَمَ العِـدَى فَبَدأ عَلَى صَفَحَـــاتِهَا تَوْرِيدُه
ومَفَاضَةً زَغْفاً تَضَاعَفَ نَسْجُـهَا[1] خَلْقَاءَ قَدَّرَ نَسْجَـــــهَا دَاوُودُهُ
جَاهَدْتَ دِينَ الكُفْرِ حَتَّى سِمْتَهُ خَسْفَاً وَرَامَ السِّـلْمَ مِنْكَ عَنِيدُهُ

ونلحظ في هذه الأبيات مظهراً حضارياً حيث ذكر بعض الأسلحة المستخدمة في الحروب وهي السيوف الماضية التي ارتوت من دماء الأعداء والدروع القوية الواسعة التي شبهها بدروع "داوود عليه السلام" وذلك يدل على توظيف الثقافة الدينية التاريخية في خدمة المعنى، وهو مظهر حضاري فكري ثم يعود ليؤكد في نهاية الأبيات على سمو الهدف والقصد من هذه الحرب وهو الجهاد في سبيل الله ، حتى بدد هؤلاء الكفار في ساحة المعركة ومن نجا منهم جاء يطلب السلم . وهذا ولاشك يعكس جانب القوة العسكرية والسياسية الناجحة لهذا السلطان في مملكة غرناطة .

والملاحظ أن هذه الأسلحة التي ذكرها وإن كانت تقليدية معروفه منذ القديم إلا أنها كانت من أجود الأنواع حيث كانت تصنع محلياً وهذا يدل على **تقدم الصناعة** وبراعة الغرناطيين التى كانت نتاج الحضارة التى عاشوا فيها .

ومما يدل على هذا التقدم في مجال الأسلحة والذخائر في مملكة غرناطه استخدام **المدافع** بعد أن وقفوا على سر البارود[2] وقد اشار إليها ابن لخطيب بقوله[3]

وَأَرْسَلْتَ يَوْمَ السَّبْقِ كُلَّ طِمِرَّةٍ كَمَا تُرْسِلُ المَلْمُومَةُ النَّارَ وَالنِّفْطُ

وهذا يعكس مدى الحضارة التي وصل إليها الأندلسيون في منتصف القرن الثامن الهجري .

ومن مظاهر الحضارة المتعلقة بالسياسة **النقش والزخرفة على الأسلحة** حيث كانت تحلى بكتابة بعض العبارات أو أبيات الشعر . مثال ذلك شعر ابن الخطيب الذي أنشأة ليكتب على بيضه سلاح[4] للسلطان محمد الخامس، حيث قال:[5]

---

(١) المقاضه : الدرع ، والزعف : هى لدروع الواسعه.
(٢) أنظر: د جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي. طبعه مكتبه الخانجي ، القاهرة (د .ت) ، ص ٣٧٦ ومابعدها د. عنان : نهاية الأندلس، ص :٤٤٤. جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، :١٩٤/١.
(٣) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٦٠.
(٤) البيضة من آلات الحرب التى تستخدم لوقاية الرأس من الضرب . أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى : ١٤٢/٢
(٥) ديوان أبن الخطيب ، ص :٤٣٦

إِذَا أَنْتَ لاَحظْتَ السِّــلاَحَ وَجَدْتِني أُطَاوِلُهُ عِزّاً وَأَفْضُـــــــلُهُ قَدْرَاً
وَيَلْبَسُنِي المولَى الأَمِـــــامُ "مُحَمّدٌ" فَتُبْصِرُ مِنْهُ الشَّمْسَ تُوِّجَتِ البَدْرَا

ونلحظ في هذين البيتين تفضيل هذه البيضة على سائر أنواع الأسلحة التي يرتديها المحارب وتتأكد هذه القيمة الرفيعة مع لابسها وهو السلطان حيث صورها بتصوير حضاري جميل بحيث جعل البيضة تاجاً للسلطان وشبهها بالبدر والسلطان بالشمس. ولاشك أن التشبيه بالتاج يدل على التحضر والنعيم وهو من مظاهر الفخامة التي تحيط بالسلطان، كما أن النقش على هذا السلاح يدل على الشيء ذاته .

كما نظم ابن الخطيب – أيضا – بيتين من الشعر لكتابتها على **حمالة سيف** ولد السلطان فقال: [1]

أَنَّا "بَنِي نَصْرٍ" إِذَا مَا أَطْلَعَتْ يَوْماً سَمَاءَ سُعُودِنَا مَوْلُودَا
كَانَتْ حَمَائِلُنَا لَهُ وَسُرُوجُنَا بَيْنَ المُلُوكِ تَمَائِماً وَمُهُودا

وهنا يشير ابن الخطيب إلى حرص السلطان الغرناطي على تنشئة الأولاد منذ الصغر تنشئة تعينهم في الكبر على تولى مهام الحروب الجسام يدل على ذلك ارتدائهم لحمائل السيوف التي شبهها حين ارتدوها بالتمائم التي تعلق في عنق الصبي ، كما شبه سروج الخيل بالمهد الذي يجلس فيه الطفل الصغير وينام – ولاشك أن تلك مبالغة للدلالة على العناية والاهتمام بهذا الجانب الهام لأن أوضاع الدولة حرجه وسكانها متأهبون دائما للقتال والحروب كما أن النقش على هذه الحمالة يدل على الترف والبذخ .

ومما سبق نلحظ أن **الاتجاه الإسلامي** كان عنصراً بارزاً في شعر ابن الخطيب السياسي حيث أكد إسهام ممدوحيه من سلاطين "بني نصر" في تأصيل الشريعة الإسلامية واعتمادها أساسا للحكم، والتأكيد على القيام بفرض الجهاد في سبيل الله الذي كان أساس هذه الحروب والدفاع عن أرض الإسلام وأهله ولاشك أن تأثر ابن الخطيب بالإسلام يعد أثراً من آثار التحضر الفكري . كما أن المدح بالفضائل الإسلامية يعد اتجاها سياسياً متأثراً بالحضارة الإسلامية.[2]

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص:٣٣٠.
[2] أنظر د: على أبو زيد : الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع ، ص:٧٢.

ومن مظاهر الحضارة السياسية – **أيضا تنظيم وإقامة العروض العسكرية** فقد كان سلاطين غرناطة يقومون باستعراض قواتهم حيث يمر الجنود بشكل مهيب وهم يحملون أسلحتهم في مكان مخصص لذلك كما أشار ابن الخطيب بقوله:[١]

فَتُتْلَى سُطُورُ الكَتْبِ فَوْقِيَ دَائِماً وَتُعْرَضُ مِنْ تَحْتِي سُطُورُ الكَتَائِبِ

وهذا البيت من وصف ابن الخطيب لقبه العرض في قصر الحمراء التي كانت تطل على المجلس في الدار الكبرى، والملاحظ أنه يتم قراءة الرسائل -الكتب - السلطانية فوق هذه القبة أي في المجلس الذي يطل عليها وتعرض من تحتها كتائب من الجيش أمام السلطان[٢] ونلحظ في هذا البيت مظهراً حضاريا سياسياَ وهو النظام في العرض والدقة في التصوير حيث شبههم بسطور الكتاب وهذا يدل على النظام التام والتماثل الدقيق بين هذه الصفوف ولاشك أنه تصوير متحضر مستوحي من بيئة العلم والكتابة.

وقد كان للشعب الغرناطي ولع بمشاهده هذه المناظر العسكرية في أيام العرض أو عند خروج السلطان على رأس جيشه في موكب مشهود متوجه الى ساحة القتال أو عندما يعود محملاً بالغنائم والأسرى. وقد ذكر ابن الخطيب وصفاً لعرض الجيش في قصيدته التى ألقاها في عيد الفطر في سنة (٧٣٩هـ) قال فيه:[٣]

وَقَدْ غَصَّ مِنْ وُسْعِ السَّبِيكَةِ وُسْعُهَا وَجَرَّ بِهَا أَذْيَالَهُ العَسْكَرُ المجْرُ

وهذا البيت يدل على كثرة عدد المشاهدين، والجيش الذي تم عرضه والأسلحة التي حملوها كما أن فيه إشارة تدل على المكان الذي تم فيه هذا العرض.

وقد أشار ابن الخطيب في عدة مواضع من ديوانه إلى عرض الجيش كقوله:[٤]

هَذَّبْتَها فَالعَرْضُ يُذْكِرِ يَوْمُهُ عَرْضَ الوَرَى لِلْمَوْعِدِ المكْتُوبِ

فقد جعل عرض الجيش مثل عرض الناس في اليوم الآخر وتلك مبالغه تعكس هذه الأعداد الهائلة من الجند الذين وقفوا في صفوف منتظمة، ثم أضفى لمسه فنيه على البيت بالمجانسة التامة بين العرضين.

وقال – أيضا – مخاطباً رئيس الكتاب في يوم عرض الجند:[٥]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص :١١٥.

[٢] أنظر : مؤلف مجهول : نبذه العصر في أخبار ملوك بني نصر ، تحقيق : الفريد البستاني، الطبعة الأولى ، مكتبه الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص :٤٠٣ حيث ذكر تفاصيل عرض الجند الذي يتم في حمراء غرناطة سنه (٨٨٢هـ).

[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص ٤٠٢.

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٢.

[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص ٦١٤.

سَأَلْتُ عَنِ الجُـــــنْدِ الرِّجَالِ عَمِيدَ الكِتَابَةِ مَا أَفْطَـنَه
فَقَالَ: وَقَدْ صُفِّفُوا يَوْمَ عَرْضٍ بَيَادِقَ فِي سُفْرَةِ السَّلْطَـنَهْ

وفي هذين البيتين نلحظ الحضارة في هذا التنظيم الدقيق لهؤلاء الجند والترتيب وذلك بوقوفهم في صفوف منتظمة. كما نلحظ هذا التشبيه الحضاري حيث شبه وقوف الجند بصفوف منظمة ببيادق الشطرنج المصفوفة .

وقال أيضا -معتذرا لأحد أصدقائه عن انشغاله عنه بيوم العرض:[١]

شُغِلْتُ بِيَوْمِ العَرْضِ عَمَّنْ وَسِيلَتِي إِلَى اللّهِ يَوْمَ العَرْضِ رَحْمَةُ جَدِّهِ

وهذا البيت يدل على أن هذا العرض من الأحداث المهمة التي لا يتخلف عنها أي من موظفي القصر الملكي أو الشخصيات الهامة في الدولة . ويبدو أن هذا الرجل يرجع نسبه إلى أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام. كما جعل ابن الخطيب بين العرضين جناساً.

ومن مظاهر الحضارة السياسية في شعر ابن الخطيب **وصف الأسطول وسلاح البحرية** فقد كان الأسطول الغرناطي[٢] يعمل على تأمين الاتصالات بن مملكه غرناطة، وبين القوى الإسلامية في بلاد المغرب وغيرها من البلاد الإسلامية، كما أنه كان يضطلع بمهمة حماية المملكة من هجمات الأساطيل الأسبانية.

وقد وصف ابن الخطيب بشعره الأسطول الغرناطي، ومن ذلك قوله مهنئاً السلطان بالنصر الذي أحرزه في الواقعة البحرية[٣] سنه (٧٤٠هـ):[٤]

وَلَكَ الجَوَارِي المُنْشَآتُ سَوَابِحاً فِي اليَمِّ أَمْثَالَ الصُّقُورِ الـحُوَّم
فُتْخُ[٥] القَوَادِمِ لِلْفَنَا قَدْ أَبْرَمَتْ أَمْراً بِهَا كَفُّ القَضَـــاءِ المُبْرِمِ
تِلْكَ الجَوَارِي المُنْشَآتُ صَدَاقُهَا مُهَجُ العِدَى وَخَـــلُوقُهُنَّ مِنَ الدَّمِ[٥]
وَحِجَالُهُنَّ مِنَ البُنُودِ فَـــلاتَرُمْ وَصْلاً بِدِينَارٍ لَـــــــهُنَّ وَدِرْهَمِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص :٣٤١.
[٢] كانت سواحل غرناطة تمتد شرقاً الى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوباً وقد كانت المواد اللازمه لصناعه السفن متوفره مثل الحديد الخام قرب المريه ووادي آش كما كانت دار صناعه الأسطول بالمرية في أتم نشاطها حتى منتصف القرن الثامن الهجري وقد ذكر ابن الخطيب ذلك فقال :(المرية ، هنية مريه – معدن المال وعنصر الجبايه ، وحبوة الأسطول غير المعلل بالنصر ولاالممطول .. بحرها مرفأ السفن الكبار) أبن الخطيب : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص : ١٠٠- ١٠٢ وأنظر د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المريه الإسلامية ، ص :٥٢.
[٣] وقعت هذه المعركة ثأر لمقتل أبي مالك بن أبي الحسن المريني وقد وقعت في بحر الزقاق وأنتصر فيها المسلمون : نظر : ابن الخطيب : اللمحة البدرية، ص ١٠٩ . أحمد بن خالد الناصري : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، طبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤م : ١٣٥/٣.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص :٥٣٨.
[٥] الفتخ: جمع فتخاء: العقاب اللينة الجناحين.
[٥] الخلوق والخلاق، ضرب من الطيب أعظم أجزاءه الزعفران.

نَصَرَتْ عِبَادَ اللّهِ جَلَّ جَـــلالُهُ وَسَطَتْ بِعُبَّادِ المسِـــيحِ وَمَرْيَمِ
يَمَّمْتَهَا والماءُ مَوْجُـــــودٌ لَهَا نَحْرَ العَـدُوِّ فَكَانَ خَـيْرَ تَيَمُّمِ
قَصَدَتْ بِهِمْ بَحْرَ "الزُّقَاقِ" عَزِيمَةً قَدْ جَرَّدَتْ أَسْيَافَهَا لَمْ تَكْـهَمِ

ونلحظ في هذه الأبيات الدقة في الوصف والتصوير الحضاري الجميل الذي كان في مجمله نابع من معين الحضارة الإسلامية حيث الاقتباس من القرآن الكريم في البيت الأول من قوله تعالي: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ –سورة الرحمن، آية٢٤ – وكذلك التأكيد على معنى الجهاد في سبيل الله وأن هذه الحرب حرب بين الكفر والإسلام، بين عباد الرحمن وبين عباد المسيح. كما نلحظ وصف هذا الأسطول العظيم الذي تخفق راياته وينقضُّ جنوده كالصقور الجارحة ، وقد شبه هذه السفن العظيمة بتشبيه حضاري جعل فيه السفينة كالعروس ولكن ليست كأي عروس، فصداقها أرواح الأعداء وعطرها دمائهم، فما كان إلا أن وجهها إلى نحر العدو فأصابت المقتل في أسلوب نلحظ فيه جمال التعبير في التورية بالتيمم وهو من المصطلحات الفقهية. كما أنه ذكر في البيت الأخير اسم البحر الذي وقعت فيه هذه المعركة وهو بحر "الزقاق" وتلك لمحه حضارية فكرية تتمثل في التوثيق لمثل هذه الأحداث الهامة .

وبعد وصف هذا الأسطول الضخم ختم ابن الخطيب مشهد المعركة الضارية فقال:[1]

أَقْفَرْتَ رَبْعَ الكُفْرَ مِنْ سُكَّانِهِ بِهَلاكِهِمْ وَعَمرْتَ رَبْعَ جَهَـنَّمِ
وَسَقَيْتَهُمْ كَأْسَ الرَّدَى مَمْزُوجَةً سُمَّ الأَسَـاوِدِ فِي نَقِيعِ العَلْـقَمِ
وَقَدحْتَ فَوْقَ المَاءِ نَاراً تَلْتَظِـي وَسَفَحْتَ فَوْقَ البَحْرِ بَحْراً مِنْ دَمِ
فَكَأَنَّ صَفْحَ البَحْرِ مَدَّتْ فَوْقَهُ أَيْدِي الرِيَاحِ مَطَارِفاً مِنْ عَـنْدَمِ

وفي هذه الأبيات نلحظ التفوق والنصر في جانب المسلمين فبجهود هذا السلطان أقفرت ربوع الكفر من سكانها ليعمروا جهنم. فإنها مآل كل كافر. ونلحظ التصوير الذي يحمل سمات الحضارة حيث صور مشهد النيران التي تلتظى على سطح الماء والدماء التي غطت سطح الماء وكأنها بحر علا هذا البحر وذلك يعطى تصوراً عن عدد القتلى الكبير ويشبه هذا اللون الذي غطى بالبحر بالمطارف الحمراء وهى نوع من أجود أنواع الحرير وذلك تشبيه طريف لهذا المشهد المهيب استوحاه من بيئة المتحضرة.

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص :٥٣٩.

كما قدم ابن الخطيب – أيضا وصفاً للأسطول الغرناطي حيث قال:[١]

زَجَرْتَ بِهَا الأُسْطُولَ يَتْبَدِرُ العِدَى ... وَيَمْضِي إِلَى مَااعْتَادَهُ مِنْ فَعَالِهِ
بِكُلِّ خَفِيفٍ ذِي حَفِيفٍ مُطَاوِعٍ ... مُثَارَ صَبَاهُ أَوْ مَهَبَّ شَمَالِهِ
فَلِلَّهِ عَيْناً مَنْ رَآهَا صَوَافِناً ... أَفَاضَ عَلَيْهَا القَارُ سُحْمَ جِلاَلِهِ
جَوَارٍ غَذَاهَا الغَزْوُ دَرَّ لِبَانِهِ ... وَحَجَّبَهَا الإِسْلاَمُ تَحْتَ حِجَالِهِ
هَوافٍ إِلَى حَرْبِ العَدُوُ وإِنَّما ... وَثِقْنَ بِنَصْرِ اللّهِ يَوْمَ قِتَالِهِ

ونلحظ في الأبيات وصف هذا الأسطول الذي يتميز بالقوة. والشاعر هنا يتيّمن بزجر هذه السفن، ويتأمل النصر حيث شقت عباب الماء وأشرعتها قد طاوعت رياح الشمال وتقدمت نحو الأعداء كأنها الصافنات من الخيل وقد غطاها القار وكأنه يضفى عليها مهابه وجلالا ، وهي متمرسه على القتال والحروب واثقه بنصر الله تعالى لأن هدفها هو رضا الله تعالى. ويلفت القارى هنا التورية بلفظ الجواري وتشبيهها بالجارية المتحجبة ولاشك أن ذلك يدل على المهارة والدقة في التصوير الذي كان مستمداً من الحضارة الإسلامية .

ومن الإشارات السياسية الحضارية في شعر ابن الخطيب **ذكر لقب قائد الأسطول** في تهنئه لقائد الأسطول الغرناطي بنجابة أحد أولاده:[٢]

صَدَرَتْ إِلَيْكَ بِشَارَتِي وَتَفَاؤُلِي ... بِالأَمْرِ قَبْلَ بُرُوزِهِ مِنْ غِمْدِهِ
وَالبَحْرُ يَفْخَرُ مِنْهُ يَوْمَ وِلاَدَةٍ ... بِمَلَنْدِهِ ابْنِ مَلَنْدِهِ ابْنِ مَلَنْدِهِ

فقد نص على لقب قائد البحر و الأسطول حيث كان يسمى **الملند** والملند هو القائد البحري[٣] ويبدو أن هذا المنصب العسكري الرفيع كان متوارثا عند هذه الأسرة فقد كان هذا القائد خلفا لأبيه من قبله ويبدو وأن هذا الولد كما تفاءل له ابن الخطيب سيكون قائداً بعد أبيه.

وكذلك وردت إشارات في شعر ابن الخطيب إلى بعض **أنواع السفن** المستخدمة في الأسطول. مثل قوله:[٤]

يَاسَاكِنِي مَرْفَأَ الشَّوَانِي ... شَوْقِي مِنْ بُعْدِكُمْ شَوَانِي

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص :٤٨٥.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٥٩.
[٣] أنظر : ابن خلدون : المقدمة، ص : ٢٥٢.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٢٨.

وقد ذكر هذا البيت متشوقاً لأولاده بالمنكّب الذي كانت ترسو في مرفئة **سفن الشواني** وهي جمع الشونة أو الشيني وهي أجفان حربية كبيرة تقام فيها الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم وتحمل من المقاتلة مابين المائة والخمسين وبين المائتين.[١]

كما ذكر نوعاً آخر من السفن الحربية في قوله:[٢]

قَدْ صَارَ دَمْعِيَ بَحْراً فِي مَحَاجِرِهِ وَأَصْبَحَتْ وَسْطَهُ الأَجْفَانُ أَجْفَانَا

وقد ذكر في هذا البيت **الأجفان** وهي نوع من السفن الحربية منها أنواع تستخدم لنقل الخيل[٣] ليدل بذلك على دمعه الغزير الذي ملأ عينيه ثم جعل بين اللفظين جناساً تاماً ليضفى على هذا البيت مسحة من الجمال الفني.

وقال – أيضا -:[٤]

وغربان أثباج[٥] زجرت سنيحها ويظهر نجح الأمر في حسن فاله

وفي هذا البيت ذكر ابن الخطيب **الغربان** وهي من السفن الحربية الشديدة البأس. ونلحظ في هذا البيت تعبير ابن الخطيب بزجر السانح لهذه الغربان ، ومعلوم أن العرب كانت تتفاؤل بالسانح وتتشاءم بالبارح، وبرغم ما يوحي به لفظ الغربان من تشاؤم إلا أن زجرها جاء مباركاً ميمونا ، مما يوحي بالتفاؤل ولعله في هذا البيت يشير **إلى بطلان هذه العادة وهي التشاؤم أو التفاؤل** لمن أتى من اليمين أو الشمال من طير وغيره فكل أمر يحدث إنما هو بقضاء الله وتقديره .

ومن مظاهر التحضر السياسي في شعر ابن الخطيب حسن مخاطبة السلاطين والقدرة على إقناعهم وجذب اهتمامهم إلى رأيه. ومن الأمثلة التي يتجلي فيها ذلك قوله في مخاطبة السلطان محمد الخامس في قصيدته الموسومة بـ (المنح الغريب في الفتح القريب) ومنها:[٦]

أُهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ تَبْأَى المُلُوكُ عَلَى المُلُوكِ وَتَفْضُلُ
شَاوِرْ إِذَا الشُّورَى دَعَتْكَ أُولي النُّهَى فَخَطَابُ غَيْرِ أُولِي النُّهَى لاَ يَجْمُلُ
وَإِذَا تَرَحَّلَ عَنْ جِوَارِكَ راحِل فَانْظُرْ بِعَقْلِكَ عَنْكَ مَاذَا يَنْقُلُ

---

(١) أنظر : د. عبد الرحمن اليرقوقي : حضارة العرب في الأندلس ، الطبعة الأولى ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهر ، ٢٠٠١م ص : ١٠٤.
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٢.
(٣) أنظر : د. الطوخي : مظاهر الحضارة في الأندلس ، ص : ٢٥٠.
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ص ٤٨٥.
(٥) الثبج علو وسط البحر إذا تلاقت امواجه.
(٦) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٠٣-٥٠٤.

وَالمَالُ خُذْهُ بِحَـــــــقِّهِ وَاعْلَمْ بِأَنْ المَالَ لِلْغَرَضِ البَعِـــيدِ يُوَصِّـــلُ
وَاِزْن بِهِ مُؤَنَ السِّيَاسَةِ وادَّخِـــــرْ فَضْلاً وَوَازِ بِخَرْجِـــــهِ مَا يَدْخُلُ
هَذَا وَعَقْلُكَ فِي الخِلاَفَـــةِ قَدْرُهُ أَسْنَى وَرَأْيُكَ فِي السِّياسَةِ أَفْضَلُ

وفي هذه الأبيات نلحظ الأسلوب اللبق في الخطاب برغم مكانه هذا الشاعر، وإبداء نصحه بعيداً عن لهجة الأمر أو الإلزام، وفي كل نصيحة يقدمها يبين السبب وذلك أدعى للاقتناع برأيه وهذه النصائح في مجملها تدل على نظر ثاقب وتجربة عميقة وتمرس بأمور السياسة وشئون الحكم فحثه على الشورى وحسن سياسة الرعية والتركيز على تثمير أموال الدولة وتنميتها فهو العامل الرئيس لحصول المرء على أغراضه وذلك بعمل ميزانيه خاصة للمصروفات وتسجيل كل ما يدخل وما يخرج من مال، وادخار الفائض بعد ذلك لتطوير الدولة ولاشك أن هذه النصيحة تدل على معرفة عميقة بالشئون المالية والمهارة العالية في كبقية تدبيرها. وفي النهاية يختم بأبياته بحسن أدب مع مقام السلطان فهو مهما كان عارفاً بالسياسة إلا أنه يظل دون سلطانه ولاشك أن هذا الأسلوب في إسداء النصيحة أقوى تأثيراً في نفس متلقيه وأدعى للأخذ به وقد كان ذلك أثر من آثار الحضارة التي أثرت في طريقة تعبير الشاعر عن آرائه السياسية وأوجه الدفع عنها . كما أنه (أمارة من أمارات الذوق وتلك موهبة لا تتأتي إلا لمن يحسنون التصرف ويجيدون لباقة الحديث متأثرين بروح التحضر والتمدين).[1]

لقد كان **التعبير السياسي** من أوضح المظاهر في شعر ابن الخطيب لكونه الوزير صاحب النفوذ في قصر الحمراء والموجه لدفة الحكم طوال تسلمه لهذا المنصب لذلك كان من أوضح مضامينه الشعرية تأثراً بالحضارة فكان من المؤمنين بمبادئ الدولة فقد نشأ في هذا الوسط الحضاري فامتزج هواه بهوى الدولة وارتبط وجوده بوجود سلاطينها يمدح أحياءهم ويمجد أعمالهم ويرثي أمواتهم ويؤيد سياستهم ويتحمس لها.

وقد طغت المعاني الإسلامية على مدائحه وهي عنده تدور في إطار سياسي حيث مدح سلاطينها بتمسكهم بالإسلام وهي بذلك مدائح سياسية تبتعد عن شكل المدائح التقليدية.[2]

---

[1] د على ابو زيد الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرفاع ، ص :٧٥.
[2] أنظر : د. على ابو زيد الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرفاع ، ص :٧٥.

نستنتج من كل ما سبق وضوح الاتجاه الحضاري في شعر ابن الخطيب السياسي – كما سبق توضيحه – من خلال توضيح بعض الخطط السياسية الرفيعة في الدولة والتي كانت نتاجاً للبيئة المتحضرة مثل الوزارة والكتابة والحجابة..... وغيرها وكذلك رصد الأحداث ونقلها والفتوحات والمعارك ووصف الجيوش والأساطيل البحرية وفي التأثر بالتيار الإسلامي وبالحضارة الإسلامية وفي تأكيد الانتماء للعروبة والإحسان واللباقة في مخاطبة الملوك، وبذلك يكون ما تم رصده من هذه المظاهر الحضارية السياسية في شعر ابن الخطيب قد أعطى تصوراً عن النظام السياسي الغرناطي في القرن الثامن الهجري والذي كان على قدر كبير من التنظيم بفضل الإدارة الناجحة لحكامها ووزرائهم مثل ابن الخطيب نفسه والدليل على ذلك ازدهار مملكة غرناطة الحضاري في ظل الظروف الصعبة التي كانت تعيشها مما يدل على نظام سياسي جيد عمل على تهيئة الجو الملائم لها لكي تتقدم حضارياً مادياً ومعنوياً فقد كان الحكام من **أهم أسباب نهوض هذه المملكة** .

❖ ❖ ❖

المبحث الخامس

مظاهر الحضارة العمرانية والطبيعية

-مظاهر الحضارة العمرانية والطبيعية:

أولاً: مظاهر الحضارة العمرانية:

مرت الأندلس الإسلامية بفترات من الاستقرار وأخرى من الاضطراب، ومن التوحد تحت ظل دولة واحدة، إلى التفرق في دويلات. ومع ذلك نهضت بها حضارة راقية ظلت نموذجاً تتطلع إلى احتذائها الممالك الأوربية. وتجلت مظاهر تلك الحضارة في الصناعة والزراعة والطب والعلوم والفنون، وسائر النشاطات الإنسانية.

وفي هذا الجزء من الدراسة سيتم تناول **العمران** في مملكة غرناطة كما ظهر في شعر ابن الخطيب، وذلك لتوضيح فكرة عامة عن خصائص الفن النصري الذي خلفه أولئك الملوك من منشآت لازالت من أعظم وأروع الآثار الإسلامية الباقية.

ولاشك أن الحديث عن العمران الغرناطي هو حديث عن الحضارة في أفخم مظاهرها وأبهى أشكالها وصورها خاصة في الجانب المادي منها. و"الفن النصري" في العمران يعد امتداداً للفن الإسلامي بالأندلس في العصور السابقة، خاصة العصر الموحدّي لقرب عهد "بني نصر" به.

لقد كان عهد السلطان " أبي الحجاج يوسف الأول " (٧٣٣ – ٧٥٥هـ) هو العهد الذهبي لمملكة غرناطة، فقد كان حامياً للآداب، وصفه ابن الخطيب بأنه كان (كلفاً بالمباني مبرزاً في كثير من الصنائع العملية).[١] مما انعكس على حركة العمران في عصره، فالمنشآت العظيمة تكون دائماً على نسبة قوة الدولة، فإذا كانت الدولة عظيمة الجباية فسيحة الجوانب كثيرة الرعايا ساعد ذلك على إتمام العمل على أكمل صورة.[٢]

وقد كان لابن الخطيب إسهاماته الشعرية[٣] التي رصد فيها المنشآت المعمارية التي شيدها الملوك، حتى أن نصوصه تعد أفضل مصدرٍ لتوثيقها، وقد حظي الشعر بالخلود نقشاً على هذه المعالم الحضارية فكان وثيقة لحركة المعمار ومظهراً من

---

[١] ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ١٠٣.

[٢] انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص: ١٧٧.

[٣] إلى جانب الشعر كان لابن الخطيب الكثير من الكتابات التي تحتفل بهذا الجانب من الحضارة كما في كتابة (الإحاطة في أخبار غرناطة) وكتابه (معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار) الذي تضمن وصفاً مهماً لأمهات المدن الأندلسية والمغربية آنذاك. وكذلك مقامة (مفاخرات مالقه وسلا) الذي ألم بجميع الجوانب الحضارية لهاتين المدينتين الأندلسية والمغربية.

مظاهر الزخرفة الفنية و(دليلاً على الصلة المتينة بين هذا الفن الأدبي والحياة العامة في تلك البيئة الإسلامية).[١]

ومن أهم المنجزات العمرانية التي أشار لها ابن الخطيب بشعره في فترة حكم "أبي الحجاج" ومن بعده ابنه "محمد الخامس"، ما يلي:

١. المنشآت والمباني الملكية:

لقد اهتم ابن الخطيب بوصف العمران باعتباره أثراً من آثار التحضر والتقدم والترف. ومن تلك الإشارات العمرانية **في عهد السلطان أبي الحجاج يوسف**،[٢] **الإشادة بمكانة غرناطة وجمالها** الذي فاق جميع العواصم الإسلامية كقوله:[٣]

أَيَّ البِلاَدِ أَؤُمُّ أَمْ أَيَّ الـــــوَرَى أَبْغِي فَأَصْرِفُ نَحْوَ ذَاكَ عِنَانِي؟

لَكُمُ "بَنِي نَصْرٍ" مَآثِرُ لَمْ تَكُنْ "لِبَنِي الرَّشِيدِ" ولا "بَنِي مَـرْوَانِ"

بَاهَتْ بِلاَدُكُمُ البِلاَدَ فَأَصْبَحَتْ "غَرْنَاطَة" تَزْهُو عَلَـــى "بَغْدَانِ"[٤]

فمآثر "بني نصر" في نظر ابن الخطيب تفوق مآثر "العباسيين" و"الأمويين"، كما أن عاصمتهم "غرناطة" تتفوق على أشهر عواصم الشرق وهي "بغداد" ولاشك أن المستوى الحضاري الذي بلغته غرناطة في ذلك الوقت كان هو سر ذلك التفوق.

إلا أن أكثر ما حرك الشعراء هو ما أدخله السلطان "أبو الحجاج" من إنشاءات وتجديدات على قصبة الحمراء.[٥] التي كانت أشبه ما تكون مدينة متكاملة، حيث كانت تشتمل على قصر الحاكم، والأبراج أو القلاع التي تحميه، ودور الوزراء والحاشية. وقد بلغت حداً من التوسع حتى غدت قاعدة ملوكية محضة.[٦]

ومن المنشآت الجديدة في الحمراء، القصر الذي شيده "أبو الحجاج" وقد سماه ابن الخطيب **القصر الكبير** حيث قال: (إن الأمير شرع في بناء القصر الكبير وجلب إليه

---

[١] د. عبد الحميد عبد الله الهرامة: القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، ص: ٢١٣ – ٢١٤.

[٢] من أهم منشآت السلطان " أبي الحجاج يوسف ": المدرسة اليوسفية، وسور ربض البيازين، وبناء ماينيف على أربعين برجاً، كما بنيت في عهده أكثر عمائر قصور الحمراء مثل: قصر الأساطير بما فيه برج قمارش، والبرج المتصل بقصر متشوكه، والحمام الملكي، وباب الشريعة، وبرج الأسيرة وقصر البرطل... وغيرها، للمزيد انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٥٠٦/١، وما بعدها. كذلك: د. السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٨م ، ص: ١٤٢. وما بعدها.

[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٦ – ٥٧٧.

[٤] بغدان: بغداد، انظر: شهاب الدين "ياقوت الحموي": معجم البلدان، طبعة دار صادر – دار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م: ٤٥٦/١، وما بعدها.

[٥] القصبة هي القلعة وهو مصطلح أندلسي ذائع.

[٦] للتعرف على قصر الحمراء انظر: دائرة المعارف الإسلامية. ترجمة: أحمد الشنتاوي وآخرون، طبعة دار المعرفة، بيروت، (د . ت): ٨٦/٨. وما بعدها.

الرخام، وبرز الناس إلى مشاهدتها تساق على الأعجال)[١]. ثم وصف هذا المشهد شعراً فقال:[٢]

تَخَـــيَّرَ أَعْظَمَـــهُ مَـــرْمَـــراً فَجَاءُوا بِكُلِّ قَوِيٍّ شَـــدِيدْ
لِتُحْكَـــمَ قُـــوَّةَ تَرْكِـــيبِهِ بِطَبْعٍ صَحِيحٍ وَعُمْرٍ مَـــدِيدْ
وَجَاءَتْ تَجُرُّ إِلَيْهِ الصُّـــــخُورَ عَمَالِقَةٌ مِنْ كُفَاةِ الحُشُـــودْ
إِذَا جَـــذَبُوهَا إِلَيْهِـــمْ حَـــنَوُا ظُهُورَاً ، وَمَدُّوا لَهَا كُلَّ جِيدْ
كَـــأَنَّهُمُ عَـــبَدُوا صَـــخْرَةً وَذَلِكَ هَيْمَـــنَةٌ بِالسُّجُـــودْ
كَأَنَّ الأَسَاطِينَ[٣] مَهْمَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا مُوَسَّدَةً فَـوْقَ عُـــــودْ
مُـــــهُودٌ تَوسَّـــــدَهَا تَـوْأَمٌ مُقَمَّطَةٌ[٤] مِنْ بَنَاتِ الصُّلُـــودْ

وفي هذه الأبيات تتضح الحضارة في العناية بالبناء بانتقاء مواد بناء القصر من أجود أنواع الرخام القوية الناصعة البياض، كذلك اختيار أقوى الرجال لحملها، ويلفت النظر في هذه الأبيات هذا التصوير الحضاري الذي جاء فيها فهؤلاء العمال الذين جذبوا الصخور لإنزالها كأنهم عبدوها. وهذا يدل على شكل الانحناء فكأنهم لها ساجدون مما يؤكد على جودة هذه الصخور الرخامية وقوتها. ثم يصور هذه الأعمدة الرخامية بتصوير حضاري آخر بحيث صور العربات التي تجرها بالمهد وهذه الأعمدة بالتوائم التي ترقد فيها. مما يدل على أنهم كانوا يحملونها مربوطة اثنتان اثنتان معاً كالتوأم. كذلك تتضح الحضارة في استخدام أدوات النقل التي تعتمد على العجلات.

ويواصل ابن الخطيب وصفه لهذه الأعمدة حيث كان بياضها الناصع ملهم له حيث قال:[٥]

كَأَنَّ بِأَفْـــــلاَكِ أَعْجَالِهَا سَحَاباً بِهَا قِطَعٌ مِنْ جَلِيدْ
كَأَنَّ الصَّوَارِي عَلَى ظَـهْرِهَا طُرِحْنَ مَخَافَةَ هَوْلٍ شَدِيدْ
وَعُجْمُ مَهاً مَا عَرَفْنَ الكَلاَمَ عَذَارَى بُنَيَّاتُ أُمّ وَلُـــــودْ

---

[١] ابن الخطيب، ديوانه، ص: ٢٦٢.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٦٤ – ٢٦٥.
[٣] الأساطين: جمع (أسطوان) وهو العمود أو السارية المصنوع من الرخام أو الخشب أو الحجر أو الجص. انظر: د. عبد العزيز الأهواني: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة. مجلة معهد المخطوطات العربية، طبعة مطبعة جامعة الدول العربية، المجلد الثالث، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧م، ص: ١٤٢. أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الخامس، العددان الأول والثاني، ١٩٥٧م ، ص: ٢٤٥.
[٤] مقمطة: القمط شد كشد الصبي في المهد. وفي غير المهد إذا ضم أعضاؤه إلى جسده ثم لف عليه القماط وهو الحبل.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٦٥.

كَوَاعِبُ تُخْجِلِ حُورَ الحِجَالِ بَيضُ الجُسُومِ طِوَالُ القُدُودْ

ونلحظ في هذه الأبيات إشارات حضارية تجلت في وصف لون الأعمدة الرخامية التي بدت فوق هذه العجلات الداكنة مثل الجليد، مما يدل على البياض الناصع النقي الذي يبهج الناظر لاسيما إذا تصور القارئ التناقض بين اللونين الأسود والأبيض. ثم يذكر لمحة حضارية أخرى يشير فيها للسفن واللجوء إلى إنزال الصواري في حال هبوب الرياح الشديدة مما يدل على أنها وضعت بشكل أفقي فوق هذه العربات. وفي نهاية الأبيات نلحظ هذا التصوير الحضاري المترف الذي شبه فيه هذه الرخاميات بالعذارى المترفات الكواعب، اللائي يتميزن بطول القامة وبياض البشرة كما تدل الصورة على كثرة هذه الأعمدة التي جلبت للقصر كما يدل على ذلك قوله " بنيات أمٍ ولود ".

وقد وصف ابن الخطيب **قصر السلطان** " أبي الحجاج " عندما أقام فيه السلطان حفل زفافه، ومنه قوله:[١]

أَعْرَسْتَ فِي مَثْوَى الخِلاَفَةِ بَعْدَمَا عَكَفَتْ عُلاَكَ تُشِيدُهُ وَتُطِيلُهُ
فَبَدا كَمَا لاَحَ الصَّبَاحُ لِنَاظِرٍ مُتَأَلِّقاً يَعْشِي العُيُونَ صَقِيلهُ
تَبْلَى اللَّيَالِي وَهْوَ يَنْدَى جِدَّةً وَيَجِفُّ زَهْرُ الزَّهْرِ وَهْو بَلِيلُهُ

ونلحظ في هذه الأبيات لمحة حضارية وهي إقامة حفلات الزواج داخل القصور بالنسبة للسلاطين، كما تدل الأبيات أن هذا القصر لم يكن لإقامة السلطان فحسب بل كان أيضاً مقراً للحكم، وقد ألمح ابن الخطيب إلى جمال مرأى هذا القصر الذي يعشي العيون بريقه مما يدل على لونه الأبيض وإتقان صنعه وتشييده حيث استوت أسطحه وجدرانه كالمرايا المصقولة اللامعة، وذلك ولاشك يدل على التقدم الكبير في مجال الصناعة والعمران. حتى أن هذا القصر كان (أروع ما شيده السلطان يوسف الأول)[٢] وهو القصر الذي كان يسمى **(بقصر الريحان)** نسبة إلى البهو الذي يتوسطه، وفي جهته الشمالية كان يوجد **برج قمارش**[٣] الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء. ومن قمريات هذه القاعة يمكن إمتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الأندلسية الساحرة[٤].

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٧٨.
[٢] د. السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، ص: ١٤٦.
[٣] قمارش: جمع اسباني للفظ قمرية، وهي المنور الصغير المزين بالزجاج الملون. انظر: عبد الرحمن زكي: غرناطة وآثارها الفاتنة، طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١م ص: ٦٧.
[٤] انظر: د. عنان: الآثار الأندلسية الباقية، ص: ١٩٥، وما بعدها.

ولم يكتفِ ابن الخطيب بالإشادة بهذا البناء الفخم الذي تسرح العيون بجماله ويهول الأفئدة جلاله بل أشار بشعره إلى أروع ما أنتجته الحضارة من أثاث أنيق يزين جنبات هذا القصر وزواياه، حيث قال:[١]

حَيْثُ الجَلاَلُ يَهُولُ أَفْئِدَةَ الوَرَى ... وَيَنِدُّ عَنْ إِدْرَاكِـــــهِمْ تَمْثِيلُهُ
وَقَدْ ازْدَهَى الدِّيبَاجُ فِي رَوْضَاتِهِ ... خَضِلاً كَمَا جَلَتِ الرَّبِيَع فُصُولُهُ
مِنْ كُلِّ مُنْسَدِلِ الجَنَاحِ مُـهَدَّلٍ ... تَضْفُو بِمُذْهَبَةِ القِبَابِ سُـــدُولُهُ
وَمُـوَسَّدٌ فَوْقَ الأَرَائِكِ رَائِـــقٍ ... يُزْهَى عَلَى مَوْضُوعِهَا مَحْمُـــولُهُ
نِعْمَ الخُلُودُ بِهَا قُصُورُ مُقَامَـــةٍ ... يَحْـــبُوكَ سَعْدُكَ عِزَّهَا وَيُنِيلُـــهُ

ونلحظ في هذه الأبيات سمات الحضارة وأبهة الملك في هذا القصر الذي اشتمل على كل نفيس وغريب لا يمكن تخيله جمالاً وفخامة من الديباج الذي كسا الأرض، والأقمشة الفخمة التي غطت القباب الزجاجية – الستائر – والأرائك التي زينت بأجمل كساء. وكل ذلك يدل على حضارة راقية عريقة.

كما نوه ابن الخطيب في موضع آخر بقصر بناه السلطان " أبو الحجاج يوسف " ولعله هو ذلك القصر نفسه السابق ذكره، حيث قال:[٢]

وَلاَ مِثْلَ شَفَّافِ الضِّـــــيَاءَ بَنَيْتَهُ ... عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ والطَّالِعِ السَّعْدِ
تَوَشَّحَ مِنْ زُهْرِ النُّجُومِ قِـــــلاَدَةً ... وَمِنْ فَلَقِ الإِصْـــبَاحِ أَصْـبَحَ فِي بُرْدِ
مَقَامُ النَّدَى والبَأْسِ والعَـدْلِ والتُّقَى ... وَمُسْتَوْدَعُ العَلْيَاءِ وَالشَّـــرَفِ العِـــدِّ
دَحَيْتَ مِنَ الزُّلَّيْجِ[٣] صَفْـــحَةَ أَرْضِهِ ... بِلَوْنَيْنِ مُبْيَضَّ الأَدِيـــــمِ وَمُسْـــوَدِّ

وتبدو في هذه الأبيات عدة مظاهر حضارية وهي وصف هذا القصر الرائع الذي أحكم بناءه، فكان مشرقاً بالنور في كل أرجائه الذي ينفذ إليه من خلال هذا الزجاج المصقول الذي وضع فيه، وهذا يدل على تقدم عمراني عظيم. كما نلاحظ في البيت الثاني إشارة حضارية تدل على بناء هذا القصر في مكان مرتفع حتى كأنه توشح من النجوم قلادة أحاطت به، كما أن هذا اللون الأبيض الذي طُلي به كأنه صفحة الصباح المشرق، وقد شبهه بالبرد وهو من أجود أنوا الحرير. ولعل في بناء هذا القصر في مثل

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٧٨.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٩٧.
[٣] الزليج: نوع من الآجر أو البلاط الخزفي مدهون بدهان ملون بالأبيض والأسود والأزرق، والأصفر، والأخضر، وما ركب من هذه الألوان وغالبه الأزرق الكحلي. انظر: لطف الله قاري: المؤلفات الهندسية التراثية في زخرفة المباني، مجلة الفيصل العدد: ٣٢٣، يونيو، ٢٠٠٣م ، ص: ١٦ – ١٧.

ذلك المكان ما يعكس الوعي الثقافي والعلمي لهم لأن هذه الأماكن تكون صحيحة ومفيدة لنقاء الهواء واعتدال الجو، خاصة وأن الخضرة تحيط به من كل اتجاه. كما نلاحظ التصوير الحضاري الواقعي عند ابن الخطيب حيث وصف هذا القصر من الداخل وكيف أن أرضه قد رصفت بالزليج المزدوج اللونين وهما الأبيض والأسود، وهذا يدل على مدى الفن والرقي في البناء والهندسة وتجميل الأماكن وهو لا يتأتى إلا لذوي حضارة متقدمة.

ويواصل ابن الخطيب وصف هذا القصر الذي اشتمل على كل بديع من الأثاث والزخرفة كل ذلك في جو يعبق بأروع أنواع العطور، كقوله:[1]

وَأَرْسَلْتَ فِيهَا جَدْوَلَ المَاءِ سَائِلاً كَمَا سُلَّ مَصْقُولُ الغِرَارَيْنِ مِنْ غِمْدِ

وَمِنْ سُرُرٍ مَرْفُوعَةٍ وَأَرَائِكٍ كَمَا رَقَمَتْ أَيْدِي الغَمَامِ صَبَا نَجْدِ

يُذَكِّرُ مَرْآهَا قُلُوبَ أُولِي النُّهَى بِمَا وُعِدَ الأَبْرَارُ فِي جَنَّةِ الخُلْدِ

وفي هذه الأبيات نلحظ وصف ابن الخطيب للقصر الملكي حيث جلب إليه المياه عبر القنوات، التي كانت كافة أرجاء القلعة كما بين فخامة هذا القصر والأثاث الذي يزينه من سرر وأرائك مزينة بأبدع النقوش، مما يجعلها تذكر الشاعر بالجنة – على حد تعبيره – وهذا الوصف يدل على مظهر من أروع مظاهر الحضارة المادية، التي تمثلت في العمران الفخم الباذخ.

كما يدل على الجمال الذي تميز به ذلك القصر مما يجعل ساكنه يتمتع بحياة الترف في نطاق طبيعي لا مثيل لجماله.

ولم يقتصر ابن الخطيب بشعره على وصف القصور بعامة بل نلحظ في ديوانه إشارات متعددة إلى بعض **مرافق القصور** أو أجزاء منها. ومن الأمثلة على ذلك ذكره **للأبراج الموجودة** في قلعة الحمراء. كما في قوله (لما بني السلطان بدار ملكه البرج

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٩٧ – ٢٩٨.

الضخم، واحتفل فيه، وصرف إليه وجه عنايته أصبح وقد أثبت به سهم)[١] فاهتم السلطان من ذلك، فقال ابن الخطيب مهوناً عليه هذا الأمر:[٢]

لاَ يَسُوْء ظَنُّكَ مِنْ أَجْلِ سَهْمٍ عَادَ مَغْنَى السَّعْدِ مِنْ غَيْرِ عَـادَهْ
أَوَ لَسْتَ الشَّمْسَ دُونَ امْتِرَاءٍ حَلَّ فِي بُرْجِـكَ "سَهْـمُ السَّعَادَة"

وفي هذين البيتين تأكيد لنسبة بناء بعض أبراج الحمراء للسلطان "يوسف"، كما يعكس ثقافة علمية ومعرفة فلكية بالنجوم والأنواء والأبراج، وذلك يدل على تحضر فكري واضح.

كما تناول ابن الخطيب بشعره بعض **القباب**[٣] في قلعة الحمراء، ووصفها في أكثر من موضع، ومنها قوله:[٤]

أَأَبْصَرْتَ مِنِّي فِي المصَانِعِ[٥] قُبَّةً تَأَنَّقَ فِيَّ السَّعْدُ مِنْ كُلِّ جَـــانِبِ
فَقُلْ فِيَّ إِنِّي لِلْمُؤَمِّلِ كَـــعْبَةٌ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أُبْرِزْتُ فِي زِيِّ كَاعِبِ
أَنَا الغَادَةُ الحَسْنَاءُ يُغْنِي جَـمَالُهَا عَنِ الدُّرِّ مِنْ فَوْقِ الطُّلَـــى وَالتَّرائِبِ
وَمَا الحُسْنُ إِلاَّ مَا يَكُونُ طَبِيعَةً بِلاَ جُهْدِ مُحْتَالٍ وَلاَ كَسْبِ كَاسِبِ

ونلحظ من هذا الوصف الشكل البديع الذي استوت عليه هذه القبة التي تأنق كبار المبدعين في عمارتها كما نلحظ في هذه الأبيات التصوير الحضاري الذي أبرز هذه القبة العظيمة مثل الكعبة التي يتوجه إلها كل صاحب حاجة ثقة منه بقضاء حاجته من ربها، وإن بدت في زينتها وجمالها مثل الفتاة الجميلة المترفة، أو الغادة الحسناء التي غنيت بجمالها الطبيعي عن كل ما يمكن أن يزيدها حسناً وجمالاً فهي بذاتها فاتنة تخلب الأنظار. وهو ما أكده في البيت الأخير ولا شك أنها نظرة تدل على رقي الذوق والحضارة.

ومن مظاهر الحضارة العمرانية في شعر ابن الخطيب ذكر **طيقان الماء** التي أنشأها " أبو الحجاج " في قصره. والطيقان هي ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية

---

[١] ابن الخطيب، ديوانه، ص: ٣١٩.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣١٩.
[٣] القباب: جمع قبة، وهي غطاء من البناء يتخذ شكلاً كروياً، غالباً ما يغطي المساحات المربعة. انظر: د. السيد عبد العزيز سالم: بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية، ص: ٢٥٣.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ١١٥.
[٥] المصانع: ما يصنعه الناس من الأبنية، أو القصور.

كالقوس أو النافذة وما أشبه وتوضع فيه آنية الماء. وقد نظم ابن الخطيب قصيدتين نقشتا على بعض هذه الطيقان. كقوله:[١]

رَقَمَتْ[٢] أَنَامِلُ صَانِعِي دِيبَاجِـــي مِنْ بَعْدِمَا نَظَمَتْ جَوَاهِرَ تَاجِي
وَحَكَيْتُ كَرْسِـيَّ العَرُوسِ وَزِدْتُهُ أَنِّـــي ضَمِنْتُ سَـعَادَةَ الأَزْوَاجِ
مَنْ جَاءَنِي يَشْـكُو الظَّمَاءَ فَمَوْرِدِي صِرْفُ الزُّلاَلِ العَذْبِ دُونَ مِـزَاجِ
فَكَأَنَّنِي قَـــوْسُ السَّمَاءِ إِذَا بَدَتْ وَالشَّمْسُ مَوْلاَنَا " أَبُو الحَـــجَّاجِ"

فقد صور هذا الطاق الذي أبدعته يد الصناع فبدا في نقشه ودقة زخرفته كالثوب الموشى، كما زين أعلاه بحيث أصبح مثل التاج المرصع بالجواهر، وهذا يدل على مقدار الجمال والفخامة التي بدأ فيهما هذا الطاق. كما نلحظ في الأبيات توضيح ابن الخطيب لفائدته الجمالية واستخدمه في توفير المياه، كذلك صور شكله نصف الدائري. إلى جانب نسبته إلى بانية وهو السلطان " أبو الحجاج " وذلك يضفي على هذه الأبيات قيمة توثيقية هامة. إلا أن توفير المياه بواسطة هذه الطيقان تبدو أكثر وضوحاً في القطعة التالية:[٣]

فُقْتُ الحِسَانَ بِحُلَّتِي وَبِتَاجِـــي فَهَوتْ إِلَيَّ الشُّهْبُ فِي الأَبْرَاجِ
يَبْدُو إِنَاءُ المَاءِ فِـــيَّ كَـعَابِدٍ فِي قِبْلَةِ المِحْرَابِ قَامَ يُنَاجِي
ضَمِنَتْ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مَكَارِمِي رِيَّ الأُوَامِ، وَحَـاجَـةَ المحْتَاج[٤]
فَكَأَنَّنِي اسْتَقْرَيْتُ آثَارَ الـــنَّدَى مِنْ كَفِّ مَوْلاَنَا أَبِي الحَجَّاجِ

فقد ذكر أن هذه الطيقان تشتمل على أواني للمياه، ويلفت القارئ في هذه الأبيات هذا التصوير الجميل الذي جعل هذا الطاق من الجمال والإبداع بحيث فاق جمال الحسان المترفات بهذه الحلة الزخرفية التي ارتداها، وهذا الرقم في أعلاه كالتاج الذي يزين لابسه. ولاشك أن نظم هذه المقطوعات لنقشها على هذه المنشآت المعمارية يحمل بعداً حضارياً يدل على مدى التقدم العمراني. **واستخدام الخط العربي في الزخرفة** وتجميل المباني[٥].

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٩٧.
[٢] رقمت: الرقم هو النقش والوشي.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٩٨.
[٤] الأوام: شدة العطش.
[٥] لقد نقشت هاتان القطعتان الشعريتان في عقد باب " بهو السفراء ". وكانت الأولى في جانب العقد الأيمن، والثانية في جانب العقد الأيسر، ولا تزال باقية حتى هذا اليوم. انظر: د. محمد عنان: الآثار الأندلسية الباقية، ص: ١٩٦ – ١٩٧.

وقد كان هذا الولع بالبناء، وفرط الانشغال بالتشييد من قبل السلطان "يوسف " مدعاة لمعاتبة ابن الخطيب له بغرض النصح وكان ذلك في " رابطة العقاب "[١] ومما جاء فيها قوله:[٢]

وَأَنْتَ مَوْلاَيَ قَدْ أَعْرَضْتَ مُشْتَغِلاً عَنْهَا بِثُقْلَةِ أَجْـرَامٍ وَأَجْـبَالِ
أَحْمَالُ جِـصٍّ وَآجُـرٍّ تُعَـاقِبُهَا وَجَرٍّ أَلْوَاحِ صَخْرٍ فَوْقَ أَعْـجَالِ
فِي دارِ قَحْطٍ وَقفرٍ ثُمَ بَيْنَ عِـدَىً ذَوِي شُرُورٍ وَأَهْوَاءٍ وَأَهْـوَالِ
فَكَمْ تَنْضَدُ رَيْحَاناً وتَفْـرِشُهُ فِي مَسْقِطٍ خَرِبٍ أَوْ مَنْزِلٍ خَالِي

ونلحظ في هذه الأبيات لوم ابن الخطيب لسلطانه لانشغاله المفرط بهذه المنشآت والحرص على جلب أفضل مواد البناء لها من جص وآجر ورخام. كما نلحظ التقدم الحضاري في استخدام الآلات التي تسهل حمل مثل هذه المواد الثقيلة وهي العربات التي تسير على عجلات. ولكن كل ذلك الاهتمام بالدنيا لا طائل وراءه لأن مصيره للفناء. وبالرغم من أن هذه الأبيات كان طابعها النصح إلا أنها قد صورت مدى التقدم العمراني في مملكة غرناطة ومدى اهتمام الحكام بتطوير المباني والمنشآت في الدولة. وهذا في مجمله يدل على الحضارة العريقة التي نعموا بها.

وبذلك تكون بصمات السلطان " **أبوالحجاج يوسف** " واضحة في هذه المنجزات العمرانية المتحضرة في قصر الحمراء، فهو الذي شيد أجمل وأفخم أجنحته رغم ما تعرض له من أزمات مع النصارى كاد بعضها أن يزعزع أركان دولته.

وبعد مقتل أبي الحجاج تولى " **محمد الخامس** " **الغني بالله** " مقاليد الحكم. فكان طول الفترة التي حكم فيها، وتمتع البلاد أثناءها بالقوة والأمل كفيلاً بتوفير الوقت الكافي للبناء والتشييد.[٣]

وقد شاهد ابن الخطيب هذه المنجزات العمرانية، وأشرف على بعضها، ووصفها في شعره الذي نقش في عدة أماكن في قلعة الحمراء. ومن الشواهد على ذلك وصفه **للقصر** الذي شيده " الغني بالله " وأقام فيه إعذار أحد أولاده، حيث قال:[٤]

---

(١) الرباط أو الرابطة تطلق على المكان الديني، ثم شاعت اسماً على أماكن متعددة منها رابطة " العقاب " بغرناطة. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١٥٥/٢.
(٢) ديوان ابن الخطيب، ص: ٥١٤.
(٣) من أهم منجزات " الغني بالله " المعمارية، بناء المارستان الذي كان الأول من نوعه في الأندلس منذ الفتح. كما بنى مدرسة، وزاوية، وبنى وجدد اثنين وعشرين ثغراً. كما جدد حصن قلعة الحمراء، وقام بتشييد مجموعة قصر السباع الذي تتوسطه فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء هي: النافورة، والحوض الأعلى، ثم الحوض الأدنى، وقد استدار تحتها اثنا عشر أسداً تمج الماء من أفواهها. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة: ٥٠/٢، وما بعدها.
(٤) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٠.

وَلِلَّهِ مَبْنَاكَ الَّـذِي مُعْجِـــزَاتُهُ أَبَتْ أَنْ يُوَفِّيَها الشِّفَاهُ أَوِ الخَـــطُّ
وَأَنْسَتْ غَرِيبَ الدَّارِ مَسْقَطِ رَأْسِهِ وَمِنْ دُونِ فَرْخَيْهِ القَتَادَةُ وَالخَـــرْطُ[1]
تَنَاسَبَتِ الأَوْضَاعُ فِيهِ وَأَحْكِـمَتْ عَلَى قَدَرٍ حَتَّى الأَرَائِكُ وَالبُسْـــطُ
فَجَاءَ عَلَى وَفْقِ العُلَى رَائِقَ الحُلَـى كَمَا سُمِطَ المَنْظُومُ أَوْ نُظِمَ السِّمْطُ

ونلحظ في هذه الأبيات الروعة والفخامة التي بدا فيها هذا القصر الذي تناسبت أوضاعه في البناء والأثاث من أرائك وبسط، وغيرها مما يزين أرض هذا القصر وجدرانه. ولاشك أن ذلك مظهر من مظاهر الحضارة والترف الذي نعم به سلاطين غرناطة. كما أن الحديث عن النسبة والتناسب يدل على ثقافة علمية ومعرفة بالهندسة المعمارية الدقيقة، وذلك مظهر راقٍ من مظاهر التحضر الفكري.

ومن بدائع منشآت " الغني بالله " في هذا القصر – **قصر السباع** – ما أشار إليه ابن الخطيب بشعره وهما **القاعتان** الجانبيتان للصحن شمالاً وجنوباً فهما يعدان من أروع ما جاد به فن العمارة الإسلامية في الأندلس[2]. أما القاعة الشمالية فاسمها قاعة الأختين نسبة إلى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين في الشكل تكسوان الأرضية، تعلوها قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التي تشبه خلايا النحل وقد نقشت على هذه القبة قصيدة لابن الخطيب، ومنها:[3]

شَاهِدْ بِعَيْنَيْكَ مِنِّي قُـــرَّةَ العَيْنِ وَاعْجَبْ لِمَا حُزْتُ مِنْ شَكْلٍ وَمِنْ زَيْن
أَنَا الفَرِيدَةُ فِـــي دَهْـــرٍ دِيَانَتُهُ أَنْ لاَ يُرَى جَامِعاً مَـا بَيْنَ أُخْتَـــيْنِ
كَمْ جَمَّعَ الظَّرْفُ مِنِّي بَيْنَ مُفْتَرَقٍ كَمْ أَلَّفَ الحُسْنُ مِنِّي بَيْنَ لَوْنَـــيْنِ!
" مُحَمَّدُ بنُ أَبِي الحَجَّاج" أَنْشَأَنِي فَحُجَّةُ الحَـــمْدِ حَـــقٌّ دُونَ مَا مَيْنِ
لاَزَالَ شَمْلُ المعَانِـــي فِي مَجْتَمِعاً وَالنَّصْـــرُ والفَتْـحُ فِي مَغْنَايَ إِلْفَيْنِ

لقد اشتملت هذه الأبيات على بعض المظاهر الحضارية تجلت في وصف هذه القبة البديعة التي تدعو للتأمل لما اشتملت عليه من الإبداع في الصنع والتصميم. كما نلحظ الإشارة الحضارية في البيت الثاني التي تعلل تفرد هذه القبة بهذا الشكل الفخم البديع

---

(1) القتاد: جمع القتادة شجر صلب له شوك كالإبر. وفي المثل (ومن دونه خرط القتاد).
(2) انظر: د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م ، ص: ٢٠٧.
(3) ديوان ابن الخطيب، ص: ٦١٩ – ٦٢٠.

وعدم بناء مثيل لها من قباب هذا القصر، حيث استند إلى نص قرآني يحكم بتحريم الجمع بين الأختين في الزواج في وقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ –سورة النساء، آية ٢٣– وهو تعليل طريف مستمد من معين الحضارة الإسلامية، كما بين ابن الخطيب في البيت الثالث تعدد الألوان في هذه القبة مما يدل على التفنن والذوق الرفيع في الهندسة والتجميل. أيضاً ثمة إشارة حضارية لا يمكن إغفالها في هذه الأبيات وهي **الجانب التوثيقي** فيها حيث ذكر ابن الخطيب اسم القاعة، والسلطان الذي تم إنشاؤها في عهده. وقد نص ابن الخطيب في تقديمه لهذه القصيدة بأن هذه القبة تسمى **"قبة المشور"**[١] والمشور هو ساحة القصر.

ومن شعر ابن الخطيب – أيضاً – الذي نقش على قبة المشور كما نص على ذلك في تقديمه للقصيدة، قوله:[٢]

يَا حُسْنَهُ مَنْصِباً رَاقَتْ مَعَانِيهِ "مُحَمَّدُ بنُ أَبِي الحَجَّاجِ" بَانِيهِ
مُجَدِّدُ المُلْكِ سَيْفُ الحَقِّ نَاصِرُهُ وَحَافِظُ الدِّينِ قَاصِيهِ ودَانِيهِ
سَمِيُّهُ خَطَّ هَذَا القَصْرَ مُبْتَدِئاً وَكَانَ أَوَّلَ ثَاوٍ فِي مَغَانِيهِ
فَإِنْ يَكُنْ أَوّلاً فِي اسْمٍ وَفِي اسْمِ أَبٍ وَطُولِ عُمْرٍ وَسَعْدٍ فَهْوَ ثَانِيهِ

وفي هذه الأبيات إشارة حضارية مهمة تدل على أن " الغني بالله " لم ينشئ هذا القصر وإنما جدده فقط حيث يعود إنشاءه إلى عهد مؤسس هذه المملكة وهو" محمد بن يوسف " وهو المقصود " بسميه " حيث شابهه في الاسم بل وفي طول فترة الحكم، واستقرار الوضع الداخلي في الدولة لكليهما.

ومن مظاهر الحضارة العمرانية – أيضاً – في شعر ابن الخطيب **وصف مكملات القصر** من نافورات وبرك وحدائق وطيقان – وغيرها، كانت تضفي على جمال العمران الفخامة والترف. ومن شواهد ذلك، وصف ابن الخطيب لأحد هذه المكملات وهو **ساتر مرتفع** على أحد المباني حيث قال:[٣]

كَالغَادَةِ الحَسْنَاءِ صَانَتْ خَدَّهَا بِالكُمِّ عَنْ جَفْنٍ إِلَيْهَا نَاظِرِ
غَضَّ الجُفُونَ تُقَىً وَيَفْعَلُ مِثْلَهُ مَنْ خَافَ أَنْ يُدْعَى بِجَارٍ جَائِرِ

---

[١] انظر تقديم ابن الخطيب لهذه القصيدة، ص: ٦١٩.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٥٠.
[٣] ديوان ابن الخطيب: ص: ٤٠٩.

وهذا الساتر هو من الأشياء التي تميز البيوت الإسلامية للمحافظة على حرمات المنزل، وخصوصية أصحاب البيت، وذلك مظهر حضاري مستمد من القيم التي أسسها الدين الإسلامي العظيم. ويلفت النظر في هذين البيتين التصوير الحضاري الجميل الذي يوحي بجمال هذا الساتر حيث شبهه بالغادة المترفة المصونة التي سترت وجهها بكم ثوبها حتى لا يتمكن أحد من النظر إليها. كما يؤكد في البيت الثاني على قيمة حضارية نبيلة وهي غض البصر عن ما حرم الله، واحترام الجار والابتعاد عما يؤذيه. امتثالاً لأمر الله تعالى.

ومن مكملات القصور **الأثاث**، ومن أثاث القصر الذي وصفه ابن الخطيب ليكتب عليه **السرير**، وفيه يقول:[١]

أَنَا مَلْعَبُ الوَصْلِ الَّذِي يَشْرَحَ الصَّدْرَا ... وَبُرْجُ سَمَاءٍ يَجْمَعُ الشَّمْسَ وَالبَدْرَا
حَفِيظٌ عَلَى الأَسْرَارِ حَتَّى كَأَنَّنِي ... دُعِيتُ سَرِيراً أَنَّنِي أَحْفَظُ السِّرَا
إِذَا مَا أَجَلْتَ العَيْنَ بَيْنَ بَدَائِعِي ... وَشَاهَدْتَ حُسْناً يُذْهِلُ العَقْلَ وَالفِكْرَا
وَقَدْ مُدَّ سِتْرُ التِبْرِ فَوْقِي وَأَرْسَلَتْ ... يَدُ اليُمْنِ وَالتَّوْفِيقِ مِنْ تَحْتِهِ سِتْرَا
وَثَامِنُ أَمْلاكِ الجِهَادِ أَقَامَنِي ... فَأَلْبَسَنِي عِزاً وَرَفَّعَ لِي قَدْرَا

فهو سرير مطلي بالذهب أقيم للسلطان "محمد الخامس" (ثامن الأملاك)، وقد بلغ من الأناقة والإبداع حداً يذهل العين، والفكر أيضاً، ويلفت النظر في البيت الثاني حسن التعليل لتسمية " السرير " بهذا الاسم وهو لأنه يحفظ الأسرار ولا يفشيها. كما أنه شبه هذا السرير بالبرج العالي في السماء، وهذا السلطان بالبدر المنير في الأفق. ولاشك أن هذا الوصف ينم عن مقدار البذخ والترف الذي يحيط به السلاطين أنفسهم.

ولاشك أن نقش هذه المقطوعات الشعرية على هذه المنتجات الحضارية الراقية، يدل على طريقة الفن الغرناطي في **الزخرفة**، وفلسفته الجمالية المستمدة من الدين الإسلامي الذي يشكل خصوصيته، ويعود الفضل لهذا الدين في إعطائه أسلوباً مميزاً خاصاً به حيث كان الفنان المسلم في عمله يحاول تجنب ما نهى الله عنه من تجسيم الكائنات الحية،[٢] لذلك نراه يبتعد عن المحاكاة الحرفية ويتجه إلى التجريد والرمز،[٣] فيأخذ

---

[١] انظر: كاظم شمهود طاهر: الأندلس والفن الإسلامي، الطبعة الأولى، دار أزمنة – عمان، دار ألواح – مدريد ، ٢٠٠١م، ص: ٥٧.
[٢] انظر: كاظم شمهود طاهر: الأندلس والفن الإسلامي، الطبعة الأولى، دار أزمنة عمان،دار ألواح، مدريد، ٢٠٠١م ، ص: ٥٧.
[٣] انظر: د. محمد على أبو ريان: فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، الطبعة الخامسة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤م ، ص: ٢٥٥ – ٢٥٦.

عناصر من الطبيعة ويفككها ثم يعيد بناءها بتحوير وتبسيط للأشكال لإعطائها طابعاً زخرفياً جميلاً، وبهذا العمل تفقد هذه العناصر النباتية والحيوانية مظاهرها الطبيعية وتتحول إلى مصدر من الصور الزخرفية التي تبعث في النفس البهجة والراحة[١].

وإلى جانب الأشكال الهندسية والتوريقات التي كانت تعد من أهم سمات زخرفية البناء الأندلسي أيام "بني الأحمر" اعتمد الفنان الغرناطي على **الخط العربي** مدركاً أهميته فجعل منه عنصراً تشكيلياً طيعاً في الزخرفة فأبدع في تشكيلاته[٢] وهذا ما لاحظناه في جميع الشواهد الشعرية السابقة حيث كانت معلماً بارزاً من معالم الزخرفة على تلك المنشآت. حيث ذكر ابن الخطيب في تقديمه لبعضها أنه نظمها لتكتب على تلك المباني.[٣]

ومن مظاهر الحضارة العمرانية في شعر ابن الخطيب اهتمام كبار رجال الدولة **بتشييد القصور وفرشها بأفخر أنواع الأثاث**. فلم يقتصر الترف والبذخ على السلاطين بل تعداهم أيضاً إلى علية القوم وكبار رجال الدولة. ومنهم ابن الخطيب الذي كان يمتلك أكثر من قصر في غرناطة كان أحدها في بقعة الحدائق المسماه "عين الدمع" ونظم فيه أكثر من مقطوعة، إذ كان علاوة على فخامته، يقع في وسط الطبيعة الخلابة.

ومن شواهد ذلك قوله في وصف قبة مبنية على الماء في قصره:[٤]

مَا رِيَء مِثلِي فِي المَاضِي وَلاَ الآتِي فَـرِيدَةً جَـمَعَتْ مَا بَيْنَ أَشْتَاتِ

أَنَا العَـرُوسُ مِنَ الرَّيْحَانِ لِي حُلَلٌ وَالبَهْوُ تَاجِيَ وَالصِّهْرِيجُ مِرْآتِي

ونلحظ في هذين البيتين مدى الترف والفخامة التي أحاط بها صاحب هذا القصر نفسه. وهذه القبة كانت فريدة في مبناها وزخرفتها وألوانها، حتى أنه شبهها بالعروس الي ارتدت الحلل الفاخرة والتاج المزين بالجواهر وهو تشبيه حضاري مستمد من بيئة الترف والغنى لأن هذه الأشياء لا تتأتى إلا لأصحاب المقامات الرفيعة في المجتمع وما هذه الحلل إلا الرياحين التي تحيط بها وتغطيها وصهريج الماء من تحتها مرآة لها.

---

[١] انظر: د. كاظم شمهود: الأندلس والفن الإسلامي، ص: ٧٤.

[٢] انظر: د. كاظم شمهود: الأندلس والفن الإسلامي، ص: ٥٥.

[٣] من الملفت في فن العمران الغرناطي أن الفنان لم يترك شبراً واحداً من هذه المباني إلا وزخرفه، فقد كانت عبارة (لا غالب إلا الله) وهي شعار " بني نصر " تغطي جدران الحمراء متكررة بأسلوب جذاب مما يعكس ظاهرة في مباني المغرب والأندلس تسمى (كراهية الفراغ).. انظر: د. كاظم شمهود: الأندلس والفن الإسلامي، ص: ٥٥.

[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٧٤.

وقال – أيضاً في هذه القبة:[١]

وَدُونَكَ فَاسْتَغْرِبْ عَلَى المَاءِ مَوْقِفِي كَمَا وَقَفَ ابْنُ المَاءِ[٢] وَسْطَ غَدِيرِ
عَلَى نِصْبَةِ الأَفْرَاحِ أَحْكَمَ بِنْيَتِي حَكِيمٌ بِمَا يَأْتِيهِ جِدُّ بَصِيرِ

وفي هذين البيتين يوضح ابن الخطيب شكل هذه القبة التي علت حوض الماء ويبدو أنها كانت مستندة على عمود في وسط الحوض وكأنها ابن الماء الذي لا يفارقه، ولاشك أن هذا التصوير مستمد من بيئة ابن الخطيب الخلابة النضرة بيئة المياه والخضرة. كما يدل أيضاً على تفوق المهندس الغرناطي في عمله وإتقانه التام له. وهذا يدل على تقدم حضاري كبير في العلوم والعمارة.

نخلص مما سبق أن هذه النهضة العمرانية التي ازدهرت في القرن الثامن الهجري كان ورائها حكام "بني نصر" الذين آمنوا بالبناء الحضاري فخلدوا أثارهم التي بقيت شاهدة على فن بلغ ذروة الروعة والبهاء، مع المحافظة على فلسفته الجمالية ومنطقه الأساسي المستمد من الدين الإسلامي.

٢. الأحياء والمرافق العامة:

لا تختلف غرناطة في تنظيم أحيائها ومبانيها عن غيرها من المدن الأندلسية، والمغربية من حيث تنظيم شبكات الطرق والأرباض[٣] والأسواق والمساكن.

وقد كانت مدينة غرناطة في ذلك العصر مكتظة بالسكان[٤] وإذا بحثنا عن الشعر الذي يعكس هذه الحركة العمرانية المواكبة للكثافة السكانية، وجدناه قليلاً. إلا أن في شعر ابن الخطيب بعض الإشارات التي تعكس الوضع الحضاري والعمراني في مملكة غرناطة ومن الإشارات الحضارية إلى بعض المباني ذات النفع العام قول ابن الخطيب:[٥]

أَلاَ هَكَذا تُبْنَى المدَارِسُ لِلْعِلْمِ وَتَبْقَى عُهُودُ المجْدِ ثَابِتَهُ الرَّسْمِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤١٢.
[٢] ابن الماء هو كل طائر يألف الماء. انظر: أبا منصور عبد الملك "الثعالبي": ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: د. محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣م ، ص: ٢١٧.
[٣] (الأرباض) جمع (ربض) وهو في المفهوم الأندلسي يعني الحي أو جزء من المدينة، وفي المدن الكبيرة مثل غرناطة امتدت الأرباط حتى لاصق بعضها الآخر. انظر: د. محمد عبد الله الحماد: التخطيط العمراني لمدن الأندلس الإسلامية، ندوة الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث: الحضارة والعمارة والفنون، الطبعة الأولى، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٩٩٦م ، ص: ١٦١.
[٤] كانت غرناطة ملاذاً لمسلمي الأندلس الذين سقطت مدائنهم بأيدي الأسبان حتى قدر عدد سكانها بزهاء خمسمائة ألف نسمة. انظر: د. محمد الحماد: التخطيط العمراني لمدن الأندلس الإسلامية، ص: ١٥٦.
[٥] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٧٠.

تُفَاخِرُ مِنِّي حَضْرَةَ المُلْكِ كُلَّما تَقَدَّمَ خَصْمٌ فِي الفَخَارِ إِلَى خَصْمِ
جَزَى اللّهُ "يُوسُفاً" خَيْرَ مَاجَزَى مُلُوكَ "بَنِي نَصْرٍ" عَنِ الدِّينِ وَالعِلْمِ

وفي هذه الأبيات يشيد ابن الخطيب **بمدرسة** بناها السلطان "أبو الحجاج يوسف" فكانت من أعظم مفاخر هذه المملكة ومن أهم الشواهد الحضارية فيها، حيث أنها أول مدرسة أنشئت في غرناطة، وتم بنائها في سنة (٧٥٠هـ). ولاشك أن هذا البناء يدل على اهتمام السلطان يوسف البالغ بالعلم. كما نلحظ في الأبيات إشارة حضارية حيث أشار ابن الخطيب إلى باني هذه المنشأة وهو السلطان "يوسف" مما يعطي هذه القصيدة قيمة توثيقية هامة لاسيما وأن هذه القصيدة قد نقشت على جدران هذه المدرسة، وهذا الأمر ذاته هو دليل على تقدير الشعر الجيد واستخدامه كعنصر من عناصر الزخرفة والتجميل لهذا المبني.

ومن الإشارات الحضارية في شعر ابن الخطيب ذكر أحد **الأسواق** بغرناطة في قوله:[١]

لَعَنُوا بَرِياً مِنْ خَبَائِثِ ظَنِّهِمْ فَاللّهُ يَلْعَنُ أَهْلَ سُوقِ العَنْبَرِ

وفي هذا البيت إشارة حضارية تدل على أن **الأسواق** كانت مقسمة ومنظمة بحيث يجتمع أهل المهنة الواحدة في مكان معين ويشغلون شارعاً مخصصا. وقد أكد ذلك ابن الخطيب حيث ذكر **سوق العنبر** الذي يدل على أماكن بيع العطور. وقد كانت الأسواق في ذلك العصر ضيقة وكان بعضها مسقوفاً ويتكون من دكاكين متقابلة بينهما شارع أو فناء مغطى به حوض ماء أو حوض مشجر، وهي ما تسمى بالقيسارية[٢].

كما أشار ابن الخطيب إلى بعض **الأماكن** مثل بلدة شاط التي كانت من أعمال المنكب[٣]، فقا:[٤]

وَهَتْ مِنِّي القُوَى بِطَرِيقِ شَاطٍ وَدَارَ عَـــــلَى تَأَلُّمِيَ الإِزَارُ
فَلاَ سَنَّى الإِلاَهُ مَـــــزَارَ"شَاطٍ" إِذَا مَا "شَاطَ" شَطَّ بِهَا المَزَارُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٢٢.
[٢] انظر: د. محمد الحماد: التخطيط العمراني لمدن الأندلس الإسلامية، ص: ١٥٩. وعن قيسارية غرناطة، انظر: د. أحمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس، ص: ٢٧٨ – ٢٧٩.
[٣] المنكب: مرفأ ساحلي يقع جنوب شرق الأندلس يبعد عن غرناطة أربعين ميلاً. انظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: ١٨٦.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٠٦.

وفي البيتين ما يعطي تصوراً عن وضع هذه المنطقة البعيدة، ويوضح حالة الطرق المؤدية إليها. وهذا يدل على أنها منطقة جبلية وعرة كما يبدو من وصفه.

ومثلها أيضاً قوله في " عقاب الشعير " من جبال " المنكب ":[١]

"عَقِبَ الشَّعِيرِ" لَقَدْ هَوَتْ بِكَ عِيرِي كَالمجْرِمِينَ هَوَوْا لِلقَعْرِ سَعِيرِ
بَيْنَا نَرَى مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ مُحَـــدَّبٍ صَارَتْ مِنْ الأَشْكَالِ فِي تَقْعِيرِ
مِنْ كُلِّ وَاجِبَةٍ كَغَارِبِ نَاقَـــةٍ أَوْكُلِّ عَوْجَاءٍ كَـــعُنْقِ بَعِيرِ

ونلحظ في هذه الأبيات إشارة حضارية تدل على وضع هذه المنطقة الجبلية الوعرة، المليئة بالمرتفعات الشاهقة حتى أن الأشكال تبدو صغيرة جداً عند رؤيتها من أعلى هذه المرتفعات، ونلحظ التعبير الحضاري الذي يدل على ثقافة علمية حيث أشار إلى العدسات المحدبة والمقعرة[٢] لتوضيح أشكال الأشياء وتحولها من الوضوح إلى عدم تمييزها من صغرها. ولاشك أن في ذلك دلالة واضحة على التحضر الفكري.

كما أشار ابن الخطيب إلى قرية وحش الليل وهي تابعة لثغر "لوشه"[٣]. حيث قال:[٤]

بِغَيْضَةٍ "وَحْشِ اللَّيْلِ" خَوْفٌ وَوَحْشَةٌ كَأَنَّ فُؤَادِي وَحْشَةً قَـدْ أَعَارَهَا
وَلَكِنَّ هَذِي أَقْـفَرَتْ مِنْ أَنِيسِهَا وَغَيْضَةُ قَلْبِي يَسْكُنُ الهَمَّ دَارَهَا

ونلحظ في هذين البيتين إشارة حضارية تدل على الاهتمام بالمستوى الأمني حتى في القرى، حيث وضح أن هذه القرية ساكنة خاملة قليلة السكان إلى درجة تثير الوحشة والهم في نفس من يدخلها. كما يدل على قلة السكان والمنازل، ويبدو من البيتين أنها قليلة المرافق والخدمات التي يصاحبها النشاط السكاني.

ولاشك أن مثل هذه الإشارات في شعر ابن الخطيب تعكس الوضع الحضاري في كافة أرجاء المملكة، إذ لم يقتصر على وصف حاضرة المملكة – غرناطة – وإنما أشار حتى إلى بعض الثغور والقرى، وذلك يكسب شعره نوعاً من المصداقية، وذلك أثر واضح من آثار الحضارة والوعي الذي عم هذا المجتمع.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٠٦.
[٢] من خصائص العدسة المحدبة أنها تكبر الأشياء، أما العدسة المقعرة فهي تصغرها.
[٣] لوشة: تبعد عن غرناطة بنحو خمسين ميلاً من ناحية الجنوب الغربي، وهي مسقط رأس الشاعر لسان الدين بن الخطيب. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص: ١٧٣ – ١٧٤.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص:٤٠٧.

ومن المظاهر الحضارية المتعلقة بالعمران في شعر ابن الخطيب الإشارة إلى مرفق آخر وهو **المقابر**، حيث كان يطلق عليها في غرناطة اسم **الروضة**، مثل قوله:[١]

يُحَيِّيكَ بِالرَّيْحَانِ وَالرَّوْحِ مِنْ قَبْرٍ رِضَا اللّٰهِ عَمَّنْ حَلَّ فِيكَ مَدَى الدَّهْرِ
وَلَسْتَ بِقَبْرٍ إِنَّما أَنْتَ رَوْضَةٌ مُنَعَّمَةُ الرَّيْحَانِ عَاطِرَةُ النَّشْرِ
وَلَوْ أَنَّنِي أَنْصَفْتُكَ الحَقَّ لَمْ أَقُلْ سِوَى: يَا كِمَامَ الزَّهْرِ أَوْ صَدَفَ الدُّرِّ

فهذه الأبيات نص ابن الخطيب في تقديمه لها أنها كتبت على قبر السلطان يوسف، وهذا يدل على أن هذه القبور كان يوضع عليها شواهد جنائزية تبين اسم المتوفى وتاريخ وفاته[٢] كما كان يكتب على هذه الألواح أحياناً قصائد في رثاء المتوفى، ولاشك أن ذلك يكون للملوك والأمراء، كما هو الحال في هذه الأبيات. وكانت هذه القصيدة كاملة مكتوبة على شاهد القبر مما يدل على كبر مساحته.

نخلص مما سبق أن احتكاك ابن الخطيب بحضارة عصره المعمارية والفنية قد عكس صورة الحياة الثقافية والفكرية ومستويات الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، مما يدل على الرخاء الاقتصادي الذي جعل العاصمة غرناطة صورة حقيقية لمظاهر ازدهار وبذخ ذلك العصر، فقد كانت من أكبر وأجمل عواصم العالم آنذاك.

وقد كان شعر ابن الخطيب خير وثيقة لأبرز منجزات سلاطين "بني نصر" المعمارية ولاشك أن النصوص الشعرية (مصدر هام لابد للمؤرخ أن يعول عليه وهو يحاول استعادة صورة عصر ما من العصور التاريخية)[٣]

وأهم ما يلفت الانتباه في العمران الغرناطي هو **غلبة الطابع المدني على الديني** إذ لم نلحظ بروز قوي للمساجد والحصون في نصوصه الشعرية. كما هي الحال في العهود السابقة. كما نلحظ – أيضاً – أنه غالباً ما اقترن وصف المباني والقصور الجميلة بوصف الطبيعة، كما أن هذه الأوصاف المعمارية جاءت في إطار الاهتمام بأمجاد ممدوحيه ومناصرتهم، في ثنايا القصائد حيناً، وحيناً آخر في مقطعات خاصة بوصفها ليتم نقشها على تلك المباني، كما نص ابن الخطيب في تقديمه لكثير منها.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٩٨.

[٢] لقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن البناء على القبور أو الكتابة عليها لما في ذلك من الفتنة بأربابها وتعظيمها وهو من ذرائع الشرك ووسائله يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن جابر أن الرسول صلى الله عليه وسلم، (نهى أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه). كذلك ما رواه مسلم عن أبي الهياج، قال: (قال لي علي: ألا أبعثك على ما يعثني عليه رسول الله صلى عليه وسلم، ألا تدع صورة إلا طمثتها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) لمزيد من التوضيح انظر: محمد بن أبي بكر بن أيوب "ابن قيم الجوزية": إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، دار المعرفة بيروت، ١٩٧٥م: ١٠٢/١ – ١٠٣.

[٣] د. قاسم عبده قاسم: الشعر والتاريخ، المجلة التاريخية المصرية، المجلدان الثامن والعشرون – التاسع والعشرون، السنة ١٩٨١م – ١٩٨٢م ، ص: ٧٠.

لقد ذهب ابن الخطيب، وذهب أولئك السلاطين، وانتهى الملك الإسلامي الذي امتد ثمانية قرون في الأندلس، ومع ذلك بقى هذا الفن الإسلامي وهذا الشعر الذي خلدته تلك المنشآت شاهداً على تطور وازدهار علمي وفني وعمراني عظيم يعد – حتى هذا اليوم – من أروع الآثار الأندلسية الباقية التي تشهد على فن (يستحيل الوصول إلى فن أبلغ رقة، وأستاذية أمهر حرفة ودقة شكل أعظم امتيازاً، مما وصل إليه الفن الغرناطي)،[١] ويصدق هنا قول الخليفة "عبد الرحمن الناصر المرواني" باني مدينة **الزهراء**:[٢]

هِمَمُ المُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِهِـــمْ فَبِأَلْسُنِ البُنْيَانِ
إِنَّ البِنَاءَ إِذَا تَعَاظَـــمَ شَأْنُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّأنِ

---

[١] اميليو غرسيه غومس: مع شعراء الأندلس والمتنبي، ص: ١٦٢.
[٢] انظر: المقري: نفح الطيب: ٥٢١/١.

ثانياً: مظاهر الحضارة الطبيعية:

تناول شعر الطبيعة في العربية الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة وعلى أساس هذا التقسيم عرفه البعض (أنه الشعر الذي يمثل الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة، كما امتثلتها نفس الشاعر وجملها خياله).[١] **والطبيعة الحية** تعني كل حي مما عدا الإنسان، **والصامتة** كالحدائق والحقول والغابات والجبال وما إليها.[٢] والبعض يضيف إلى الطبيعة الصامتة الطبيعة الصناعية كالقصور والبرك والزخارف والتماثيل وما إلى ذلك.[٣]

وقد ظهر أثر الطبيعة واضحاً في الشعر العربي حيث اهتم الشعراء بعدد من الأمور التي تتعلق بوصف الطبيعة بمجاليها الصامت والمتحرك في المشرق والأندلس، إلا أن تأثيرها وظهورها كان أكثر وضوحاً وتألقاً في الشعر الأندلسي لأسباب هي نفسها الأمور التي جعلت الشاعر الأندلسي يعني عناية كبيرة بشعر الطبيعة[٤] ويتأثر بمشاهدها ومناظرها، مصوراً ذلك في لوحات شعرية فنية معبرة عن العديد من سماتها وملامحها التي فتنت ساكنيها، حتى فضلوها على سائر البلدان.

وقد أشار "الحجاري" في كتابه "المسهب" إلى براعة الأندلسيين، وتفوقهم في وصف الطبيعة فقال: (وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار، والأطيار، والكئوس، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن).[٥]

وفي هذا الجزء من الدراسة سيتم التركيز على توضيح مظاهر الحضارة الطبيعية الأندلسية في شعر ابن الخطيب. حيث دل استقراء ديوانه على وصف كثير من مظاهر الطبيعة الصامتة والمتحركة.

أولاً: وصف الطبيعة الصامتة:

وصف الأندلسيون من جماداتهم الصامتة القصور والتماثيل والبرك الصناعية والفوارات.... وغيرها. وفي هذا المجال نلحظ أنهم كانوا أكثر إقبالا على وصف الجمال المصنوع الذي يتكرر في مجالسهم، وتقع عليه أعينهم ويدل على حضارتهم، كالقصور وغيرها مما سبقت الإشارة إليه في الحديث عن العمران. حتى أن

---

(١) د. سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، (د. ت) ص: ٢٤.
(٢) انظر: د. سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، ص: ٢٣ – ٢٤.
(٣) انظر: د. جودت الركابي، وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي، مجلة بحوث ودراسات في التاريخ العربي، طبعة دار شمال، دمشق، ١٩٩٢م ، ص: ٣٠٣.
(٤) انظر: د. حازم عبد الله خضر: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، طبعة دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م ، ص: ٢٣
(٥) المقري: نفح الطيب: ١٥٥/٣.

بعضها كان يستقل بقصيدة خاصة بوصفه، في حين نجد أن الشعراء في مقابل ذلك أقل إقبالاً على وصف الجمال الطبيعي في الرمال والصخور والجبال، وإن كانت لا تخلو بعض القصائد من ذلك. ولكن دون أن يفردوا له قصيدة بعينها. "ربما كان لسكنى العرب أخصب أراضي الأندلس وأجمل رياضها ما يعلل عدم إكثارهم من هذه الأوصاف.

ومن شواهد أوصاف البيئة الصامتة في شعر ابن الخطيب، قوله:[1]

"شِلَيْرٌ" لعَمْرِي أَسَاءَ الجِوَارَا وَسَدَّ عَلَـىّ رَحِيبَ الفَضَا

هُوَ الشَّيْخُ أَبْرَدُ شَـــيءٍ يُرَى إِذَا لَبِسَ البُرْنُسَ الأَبْيَضَا

وفي هذين البيتين نلحظ وصف الشاعر لجبل شلير وهو أحد مشاهير جبال الأرض الذي ينزل به الثلج شتاءً وصيفاً[2]. وبسببه كان شتاء غرناطة قارساً، ويتجمد فيه كل شيء وتغطيها الثلوج في بعض السنين[3] لذلك وصفه بسوء الجوار وصوره بشيخ كبير قد طال عمره مرتدياً البرنس الأبيض. وتلك إشارة حضارية لنوع من أنواع الملابس التي كانت تستعمل في السفر لدى الغرناطيين، كما نلحظ أن في قوله ما يبين موقفه من هذا الجبل العظيم أكثر منه وصفاً له حيث يعكس تذمره من البرد الشديد الذي كان بسببه وذلك مظهر حضاري حيث نلحظ تفاعل الشاعر مع هذا العنصر الطبيعي وعدم الاقتصار على وصفه بل كان وسيلة لعرض رأيه في شيء معين، وموقفه منه.

ثانياً: وصف الطبيعة المتحركة:

أ -وصف الرياض والمنتزهات:

تجلت فتنة الشعراء بالطبيعة من خلال مظهر جديد من مظاهرها الحضارية يتمثل في الرياض والبساتين والمتنزهات، حيث نلحظ في وصفها الصور الحضارية والخيال المدني المترف.

وقد كانت الرياض منتشرة في غرناطة انتشاراً واسعاً. وقد نوه ابن الخطيب بذلك في تأريخه عنها حيث قال: (وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث.

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٤٣.
[2] انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص: ١١٢.
[3] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ٩٦/١ – ٩٧.

الكروم البديعة ... فتعم الربى والوهاد ، وتشمل الغور والنجد ... ففيها كثير من البساتين والرياض والحصون....).[١]

وقد حظيت هذه الرياض بنصيب وافر من عناية شعراء الطبيعة ولاسيما في هذا العصر الذي بلغ غاية الحضارة والترف المادي والفكري والأدبي، فتلألأت جذوة الشعر في ميادين عديدة أبرزها ميادين الطبيعة والخمر.[٢] وقد صور الشعراء هذه الرياض في إنتاجهم فتحدثوا عن الورود والرياحين، كما تحدثوا عن الجداول التي تشق هذه الرياض والأطيار التي تغني فيها.

ومن الشواهد على ذلك قول ابن الخطيب في وصف أحد الرياض:[٣]

كَأَنَّ سَقِيَط الطَّلِّ فِي الرَّوْض وَالصَّبَا تَهَادَاهُ طِفْلٌ والخُزَامَى لَهُ مَهْدُ
كَأَنَّ لِطَافَ القُضْبِ مِنْ فَوْقِ وَرْدِهَا مَرَاوِدُ تَسْتَشْفِي بِهَا أَعْيُنٌ رُمْدُ
كَأَنَّ نَضِيرَ الغُصْنِ جِيدٌ مُنَعَّمٌ يَرِفُّ مِنَ الزَّهْرِ الجَنِيِّ بِهِ عِقْدُ
كَأَنَّ انْسِيَابَ النَهْرِ بَيْنَ ظِلالَِهَا حُسَامٌ صَقِيلٌ، والظِّلاَلُ لَهُ غِمْدُ
كَأَنَّ الصَّبَا عِنْدَ الهُبُوبِ تَحِيَّةً بِطَيِّبِهَا تَخْتَصُّ "أَنْدَلُسَ" "الهِنْدُ"

فهذه الأبيات تعبق بنسيم الحضارة والرقي التي نلحظها في هذه الصور المتحضرة التي صور فيها الشاعر هذا الروض البهيج، الذي كانت الخزامى فيه مهداً لقطرات الماء الهاطلة ببطء وقد حركتها ريح الصبا بخفة فكأنها الصبي الذي يتهادى في مشيته، وفي ذلك ما يعكس الاهتمام بالأطفال واستلهام هذه الصورة الحضارية من عالمهم الجميل، الطاهر البريء. كما نلحظ في البيت الثاني صورة حضارية شبه فيها الأغصان من فوق الورود الحمراء، بالمراود التي تكحل بها العين الرمداء بالإثمد أو غيره من أنواع العلاج. وفي ذلك إشارة إلى أحد طرق التداوي والعلاج في ذلك العصر، وذلك يدل على تحضر علمي فكري. كما نلحظ في هذه الروضة تشبيه الأغصان المزهرة النضرة بجيد الفتاه الناعمة المترفة التي تزينت بالعقود وهي صورة حضارية تعكس المرأة في مجتمعه المتحضر. كما أن النهر في هذه الصورة. يبدو سيفاً وغمده الظلال. كما أن ريح الصّبا أصبحت تحمل أريج العطور الزكي من هذه الروضة فكأن الأندلس تهديها إلى الهند.

---

[١] ابن الخطيب: الإحاطة: ١٢٠/١.
[٢] انظر: د. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت، ص: ٢٥٥.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٨٠.

وهي بلد العود والعطور الجميلة، مما يدل على أن الأندلس قد تفوقت على جميع البلاد بالجمال والعطور الرائعة.

ولاشك أن هذه الأبيات تعكس لنا حالة السرور والمتعة التي عاشها الشاعر في أحضان الطبيعة، حيث شاركت هذه العناصر الطبيعية الشاعر في شعوره بالفرح، وكان وصفه لها خير دليل على ذلك.

وعندما مدح ابن الخطيب سلطانه الذي تحلى بأجمل الصفات من حلم وعطاء. كان الروض اليانع خير تشبيه لهذه الأخلاق، حيث قال:[١]

وَخَلائِقٌ كَالرَّوْضِ زَاوَلَهُ الحيَا غِباً وَدَبَّجَهُ الرَّبِيعُ وحَاكَا

فهذه الأخلاق كالروض الذي سقاه الغيث، في وقت الربيع حيث ازدان بأجمل الثمار والأزهار، حتى بدأ مثل الثوب الجميل الذي نسجه الربيع، ولاشك أن هذا التصوير الحضاري مستوحي من البيئة الطبيعية الخلابة، والبيئة الاجتماعية المتحضرة التي يرتدي الناس فيها بأجمل أنواع الثياب.

ولم تكن فتنة الشعراء **بالبساتين والحدائق** أقل من فتنهم بالرياض، وإذا كانت هذه الرياض من هبات مبدع الكون – سبحانه وتعالى – فإن حسن استغلال الأندلسيين لهذه الطبيعة قد حولها بأيديهم الماهرة إلى حدائق وبرك ماء، ونوافير، وأزهار داخل بيوتهم وقصورهم، وفي كل ما حولهم، ساعدهم في ذلك تفوقهم في أعمال الري وهندسته وتفوق في الجانب المعماري، مما جعلهم ينعمون بالجمال الطبيعي في بيوتهم البسيطة فضلاً عن القصور، كما سبق الإشارة لذلك.

وقد كانت البساتين والمتنزهات والحدائق منتشرة في نواحي غرناطة، بالإضافة إلى الحدائق الخاصة التي كانت تلحق بالقصور والمنازل وكان الغرناطيون يعتنون بها عناية كبيرة مثل " حور مؤمل " و " عين الدمع "[٢]. وقد عد ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة"، الكثير من الحدائق والبساتين – الجنان كما يسميها الغرناطيون[٣]. (كلها لا نظير لها في الحسن والدمانة[٤]، والربيع، وطيب التربة، وغدق السقيا، والتفاف

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٩.
[٢] انظر: ابن الخطيب: الإحاطة: ١١٧/١ – ١٢٢.
[٣] كان الغرناطيون يطلقون على البستان اسم الجنة. انظر: د. محمود علي مكي: مدخل لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية في أسبانيا. مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء الثمانون القسم الأول، نوفمبر، ١٩٩٦م، ص: ٨٧.
[٤] الدمانة: خصوبة التربة.

الأشجار..)[١]. كذلك كانت هذه الحدائق منتشرة على ضفاف نهر شنيل، أحد فروع الوادي الكبير[٢]. وقد أولع الشعراء بوصف هذا النهر ووواديه إلى درجة تفضيله على نهر النيل، كقول ابن الخطب ملغزا بهذا المعنى[٣]:

مَا اسْمٌ إِذَا زِدْتَهُ أَلفْاً مِنْ العَدَدِ أَفَادَ مَعْنَاهُ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَـزِدِ

وَإِنَّما اخْـتَلَفا مِنْ بَعْدِ مَا ائْتَلَفا مَعْنىً بِشَيْئَيْنِ مِنْ قَدْرٍ وَمِنْ بَلَدَ

فهو يفضل نهر شنيل على نهر النيل وذلك بزيادة حرف الشين فيه، إذ أن الشين من العدد في استعمال المغاربة تعني ألف[٤]. وهذا هو معنى اللغز أن النيل إذا أضفنا إليه الشين التي قيمتها ألف يصبح شنيل، وكلاهما واد، ولكن اختلفا فقط في البلد والقدر. فهو يرى أن شنيلاً هذا يعادل ألف نيل. ولاشك أن في ذلك إشارة حضارية إلى الأعداد والحساب، وذلك يدل على تحضر فكري، كما أن استخدام أسلوب الإلغاز في توضيح قدر هذا النهر يدل على مهارة فكرية عالية، تشحذ الذهن وتعمل التفكير، وذلك أيضاً مظهر من مظاهر الحضارة الفكرية في ذلك العصر.

كما كان الوادي الكبير ملهماً لابن الخطيب بصورة حضارية حيث قال[٥]:

وَمُنْتَقِشِ المتْنِ كَالمِـبْرَدِ إِذَا هَبَّ عَرْفُ النَّسِيمِ النَّدِي

تَدَافَع مُسْتَرْسِلاً مَائِجاً كَمَا انْدَفَع الدِّرْعُ مِنْ مِـزْوَدِ

ونلحظ في هذين البيتين جمال هذا النهر الخلاب الذي بدا التموج على سطحه بفعل النسيم الرقيق مثل النقش والتزيين. وهذا يدل على سمات التحضر وتلمس الجمال في كل ما يحيط بالإنسان.

ولاشك أن العناية **بالمياه والأنهار الجارية** ووصفها كان استجابة لداعي البيئة فقد كانت الأنهار في غرناطة – وفي الأندلس عامة – طويلة عديدة، والنزهات النهرية شائقة، وهو ما يعده البعض من مظاهر التحرر لشعر الطبيعة في الأندلس[٦]. فقد كان العرب بطبعهم وبحكم بيئتهم ينفرون من البحر ويخشون ركوبه. لكن فتوحاتهم في بلاد فارس ومصر والأندلس حررتهم من هذه الأفكار شيئاً فشيئاً. فاتجه الشعراء إلى

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ١١٧/١.

(٢) الوادي الكبير: من أكبر أنهار إسبانيا وهو في الجنوب يمر على قرطبة وأشبيلية ويصب في المحيط الأطلسي. أنظر: المقري: نفح الطيب: ٤٨٠/١.

(٣) ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٣٧.

(٤) انظر: ديوان أبن الخطيب، ص: ٣٣٧.

(٥) ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٢٣.

(٦) انظر: د. سيد نوفل: شعر الطبيعة في الأدب العربي، ص: ٢٦٢ – ٢٦٣.

البحر ووصفوا الأساطيل والسفن، وإذا كانت بيئة الشام قد ساعدت الشعراء على العناية بالمياه والأنهار فإن هذه العناية تأكدت في الأندلس لأنها غنية بالأنهار إلى جانب أنها شبه جزيرة محاطة بالبحار.

أما عن المتنزهات فقد كان الشعراء يقضون فيها أجمل الأوقات، التي تبقى في الذاكرة ولا تنسى، مثل تلك الأيام التي قضاها ابن الخطيب، في متنزه **"عين الدمع"** الذي ابتنى فيه قصراً امتزجت فيه فخامة البناء بجمال الطبيعة، مما ينم عن قدر كبير من الترف والحضارة، حيث قال[١]:

يَا عَهْدَ "عَيْنِ الدَّمْعِ" كَمْ مِنْ لُؤْلُؤٍ لِلدَّمْعِ جُدْتَ بِهِ عَسَاكَ تَعُودُ
تَسْرِي نَوَاسِمُكَ اللَّدَانُ بَلِيلَةً فَيهُزُّنِي شَوْقٌ إِلَيْكَ شَدِيدُ
كَمْ سَاعةٍ للأنسِ فِيكَ قَضَيْتُهَا مَنْ نَالَهَا مَا فَاتَهُ مَقْصُودُ

ونلحظ في هذه الأبيات بكاء الشاعر على الماضي حين تذكره، وقد يكون الوقت الذي نظمها فيه هو ما أذكى هذا الحنين وتلك الذكريات وهو – كما تدل القصيدة – بعد ما تجاوز مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيب. فترحم على تلك الأيام. ونلحظ في هذه الأبيات أن وصف الطبيعة قد ترجم عن مشاعره الحزينة، فهي لا تبدو ضاحكة طروباً، بقدر ما بدت أشبه بلحن حزين يثير في النفس كوامن الذكرى ويحرك فيها الأحزان.

ب. الأزهار والثمار:

تعرض الشعراء لها أثناء تصويرهم للبساتين والمتنزهات والحدائق، فلم يفوتهم ما كان ينمو على جنباتها من أزاهير ورياحين، وما كانت تعبق به أرجاؤها من شذى أنواع الورود. فذكروا كل ما احتوته الطبيعة من روائع النوار[٢]، إلا أنهم اختلفوا في طرق وصفها فمنهم من خصّ زهرة بعينها بالوصف بمقطوعة صغيرة، وهي ما تعرف "**بالنوريات**"[٣]، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الخطيب في **زهرة البنفسج**[٤]:

قَدِمَ البَنَفْسَجُ وَهْوَ نِعْمَ الوَارِدُ قَدْ نَمَّ مِنْهُ إِلَيَّ طِيبٌ زَائِدُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٨٨ – ٢٨٩.
[٢] النوار: جمع نور، وهو زهر الشجر.
[٣] انظر: أبا الوليد "إسماعيل الحميري": البديع في وصف الربيع، تحقيق: عبد الله عسيلان، الطبعة الأولى، دار المدني، جدة، ١٩٨٧م، ص: ٨٩ وما بعدها، حيث عقد فصلاً كاملاً للمقطوعات الخاصة بنور واحد فقط.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣٢١. والبنفسج من الزهور المعمرة المشهورة بدوامها وألوانها متعددة منها الأبيض، والأصفر، والأزرق واللازوردي، وما يميل إلى حمرة، انظر: د. مقداد رحيم: النوريات في الشعر الأندلسي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦م ، ص: ١٥٥.

فَسَأَلْتُهُ: مَا بَالُهُ؟ فَأَجَابَنِـــي وَالحَقُّ لاَ يُبْغَي عَلَيْهِ شَاهِدُ
أَقْبَلْتُ أَطْلُبُ مِنْ بَنَانِ "مُحَمَّدٍ" صِلَةً فَعَادَ إِلَـــيَّ مِنْهُ عَائِدُ

فقد رسم ابن الخطيب هذه الصورة الجميلة للبنفسج معللاً فيها الطيب الزائد الذي كانت تعبق به، تعليلاً نلحظ فيه الرقي الحضاري في التعامل، إذ من الطبيعي أن يتوجه أصحاب الحاجة إلى السلطان طامعين بنواله، مستدرين عطفه، لائذين بكرمه، وكان نور البنفسج سباقاً إلى هذا الغرض. وقد حقق مراده، ونال ما تمناه على أتم وجه وأكمل صورة، لذلك نمّ منه إلى الشاعر طيب زائد. كما أن الأبيات قد عكست مشاعر ابن الخطيب تجاه سلطانه الذي يكن له كل حب. وبذلك يكون قد نجح في تحميل عناصر الطبيعة لإحساسه وشعوره بحيث عبرت عن مكنونات نفسه ولم يقتصر الأمر على وصفها ظاهرياً فقط.

وقال – أيضاً – في وصف نواره بيضاء وسط **ريحان**[1]:

وَدُرَّةِ نُوْرٍ فِـــي غِلاَفِ زَبَرْجَدِ كَمَا لاَحَ فِـي الخَضْرَاءِ[2] لأَلاءُ فَرْقَدِ
كَأَنَّ فَتَاةً جَاءَهَا مِنْ خَلِيلِهَا كِتَابٌ بِشَكْوَى الحُبِّ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ
فَلَفَّتْ بِمُخْضَرِّ البُرُودِ بَنَانَها بُرُوراً وَإِجْـــلاَلاً عَـــنِ اللَّمْـــسِ بِالـــيَدِ

ونلحظ في تصوير هذه النورة سمة الحضارة، فتشبيه الزهرة بالدرة المغلفة بالزبرجد الأخضر، وتبادل الرسائل أو الكتب بين العشاق، والبرود وهو نوع فاخر من الأقمشة الذي اتخذ حائلاً عن لمس هذا الكتاب. كلها تشف عن حياة النعيم والترف والبذخ.

وقد تناول الشعراء وصف هذه النوريات بطريقة أخرى حيث تناولوا أكثر من نورة، ولم يفردوا لها مقطوعة بذاتها وإنما جاءت في أثناء وصف الرياض، أو البساتين ضمن قصائد المدح وغيرها من الأغراض. ومن هذا القبيل وصف ابن الخطيب لأحد الرياض حيث قال[3]:

كَأَنَّمَا الطَلُّ إِذْ طُلَّ الشَّقِيقُ بِهِ خَدٌّ بِصَفْحَتِهِ رَشْحٌ مِنْ العَـــــرَقِ
هَمَّتْ تُغُورُ الأَقَاحِـــي أَنْ تُقَبِّلَهُ فَلِلْبَنَفْسَجِ وَجْهُ الوَاجِمِ الحَـــــنِقِ

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٦٢.
[2] الخضراء: السماء.
[3] ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٩١.

كَأَنَّمَا الآسُ آذَانُ الجِيَادِ وَقَدْ شَعَرْنَ بِالرَّوْعِ فِي قَفْرٍ مِنَ الطُّرُقِ
كَأَنَّمَا النَّهْرُ فِـــي أَثْنَائِهِ أُفُقٌ وَالوَرْدُ فِي الشَّطِّ مِنْهُ حُمْرَةُ الشَّفَقِ

فهذه الأبيات أشبه بطاقة تضم ألواناً متنوعة من الزهور، ففيها الشقيق[١] والأقاح[٢]، والبنفسج، والآس والورد، وهي صورة تنبض بالحركة. فتعدد الألوان في هذه الصورة وسقوط المطر، وتفتح الأزهار، وجريان الماء، تنقل للقارئ شعور البهجة الذي بثه ابن الخطيب من خلال وصفه.

وتلي الأزهار **الثمار** فقد وصفها الشعراء، ووجدوا فيها مادة لتشبيهات جديدة. ويتقدم **التفاح** ألوان الثمار لمكانته عند ذوي الظرف والعشاق وذوي الاشتياق، فيه تهدأ أشجانهم وهو عندهم بمنزلة الحبيب الأنيس. ومن الشواهد على ذلك قول ابن الخطيب[٣]:

جَاءَتْكَ تَعرِفُ بِالشَّمِيمِ سُرَاهَا كَرُمَتْ عَنَاصِرُهَا وطَابَ ثَرَاهَا
لَمَّا بَعَثْتُ بِهَا تَوَرَّدَ خَدُّهَا وَاحْمَرَّ مِنْ خَجَلٍ لَدَيْكَ عَرَاهَا
فَأَقْرَأَ عَلَيْهَا عُوذَةً لِجَمَالِها وَاجْعَلْ لِقَاءَكَ بِالقَبُولِ قِرَاهَا

ونلحظ في هذه الأبيات مظهراً حضارياً تجلى في عادة تبادل **الهدايا**، ومنها التهادي ببواكير الفواكه، كما صور لونها الأحمر الجميل بلون الخدود المحمرة من شدة الخجل، وقد عكس البيت الأخير مظهراً حضارياً تجلى في الإشارة إلى الرقية الشرعية وقراءة المعوذات خوف الحسد والعين وذلك لاشك مستمد من الثقافة الإسلامية، كذلك نلحظ الإشارة إلى التلطف في قبول الهدية احتراماً لمهديها، وذلك ولاشك أثر من آثار الحضارة التي هذبت أسلوب التعامل، خاصة الحضارة الإسلامية.

وقال – أيضاً – في ثمرة **التوت الأبيض**[٤]:

وَبِيضٍ كَدُودِ القَزِّ زَادَ اشْتِبَاهُهَا وَأَفْرَطَ حَتَّى بِالتَّكَوِّنِ فِي التُّوتِ
تَعَجَّبْتُ مِنْهَا فِي بَنَادِقِ جَوْهَرٍ يُزَيِّنُهَا مَا احْمَرَّ مِنْهَا بِيَاقُوتِ

---

[١] الشقيق أو شقائق النعمان: نوع من الزهور له صنفان: بري، وبستاني. منه ما هو أبيض ومنه ما هو أحمر. انظر: الحميري: البديع في وصف الربيع، ص: ١٥٣.
[٢] الأقاح أو الأقحوان: نبت طيب الريح. حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر، وهو من أجمل أزهار الحدائق بألوانه وأشكاله المتعددة. يزهر في أواخر الخريف والشتاء. انظر: د. مقداد رحيم: النوريات في الشعر الأندلسي، ص: ١٥١.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤١٣.
[٤] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٧٦.

وهذه الشجرة يأكل ورقها دود القز، وله ثمر أبيض حلو، وتبرز هنا روح الحضارة والترف في هذا الوصف والتشبيه بالأحجار الكريمة من أصناف الياقوت والجوهر وفي هذين البيتين ما يدل على معرفتهم بالحرير، فهو من الأشجار التي تنبت في أرضهم، وهذا ما يعلل كثرة إنتاجهم من الأقمشة الحريرية. وتلك إشارة حضارية هامة. تعكس جانباً من جوانب الاقتصاد الغرناطي.

كما وصف ابن الخطيب أنواعاً أخرى من **الفواكه والثمار** كالكمثرى، والعنب، والعنب والرمان، وغيرها ..[1] والملاحظ أن أوصاف ابن الخطيب في الثمار جاءت في مقطوعات صغيرة خاصة بها.

نخلص مما سبق أن الأزهار والثمار كانت من الميادين الطبيعية التي وجد فيها الشعراء مجالاً خصباً للوصف، وربطوا بينها وبين الحب والمتعة والأنس لذا فقد جاءت ألفاظهم وصورهم تؤكد صدق مشاعرهم، وتؤكد في الوقت ذاته على قدر كبير من الحضارة والترف الذي نعموا فيه.

ج. الظواهر الطبيعية:

وظف الشعراء الأندلسيون كل ما حولهم من مشاهد الطبيعة بنوعيها الطبيعية والصناعية في رسم لوحاتهم وإضفاء روحهم عليها، وبث مشاعرهم من خلالها. وقد كانت مشاهد الربيع والبرق والرعد والليل والنهار والنسيم والعواصف قد أوحت لهم بالكثير من الصور التي تنم كثير منها عن بيئتهم الحضارية.

وقد صنع ابن الخطيب لوحات من عناصر الطبيعة من المطر والغيم وأدخل معها ممدوحيه، كما صور الرعد والسحاب المثقل بالمطر، وجمع بين المزن والرعد والمطر والسيل، والبرق. ومن الشواهد على ذلك الصورة التي رسمها لبعض عناصر الطبيعة في مدحه للسلطان أبي الحجاج ومنها:[2]

سُعُودُكَ لاَ مَا تَدَّعِيهِ الكَوَاكِبُ ... وَجُودُكَ فِينَا لاَ السَّحَابُ السَّوَاكِبُ
يَغَصُّ الغَمَامُ الجُونُ يَوْمَ انْسِكَابِهِ ... إِذَا صَدَرَتْ عَنْ رَاحَتَيْكَ المَوَاهِبُ
وَيَصْغُرُ عِنْدَ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى ... سَنَاهَا إِذَا دَارَتْ عَلَيْكَ المَوَاكِبُ
وَسَكَّنْتَ بَحْرَ الخَطْبِ واللُّجُّ مِزْبِدٌ ... وَمَوْجُ الرَّدَى آتِيُّهُ[3] مُتَرَاكِبُ

---

[1] انظر ديوان ابن الخطيب، ص: ١٧٥ – ٧٤٥ – ٧٥٢.
[2] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٠ – ١٢١.
[3] الآتي: الموج الشديد، وجمعها الأواتي.

وفي هذه الأبيات نلحظ تعظيم شأن ممدوحه وكانت وسيلته لذلك بعض عناصر الطبيعة فجوده وعطاءه قد أربى على السحاب السواكب، والشمس في سناها وإشراقها لا تبلغ روعته ومهابته إذا برز في مواكبه الفخمة، ولاشك أن الإشارة إلى هذه المواكب تعكس جانباً من فخامة الملك وأبهته، كما أن هذا الممدوح على قدر من الحنكة وسداد الرأي والشجاعة في مواجهة أصعب الخطوب التي بدت كالبحر الهائج بأمواجه العالية إلا أن ذلك لم يوهن من عزمه شيء.

لقد بلغ تأثير هذه الطبيعة الخلابة أنها ظهرت حتى في أشد المواقف قسوة وهي **الحروب**، كقول ابن الخطيب:[١]

وَلَكَ الكَتَائِبُ كَالخَمَائِلِ أَطْلَعَتْ زَهْرَ الأَسِنَّةِ فَوْقَ كُلِّ قَضِيبِ
فَمُرَنَّحُ العِطْفَيْنِ لاَ مِنْ نَشْوَةٍ وَمُوَرِّدُ الخَدَّيْنِ غَيْرُ مَرِيبِ

فالكتائب في الجيش مثل الخميلة التي تضم ألواناً شتى من الزهور، وما هذه الزهور إلا أسنة الرماح، التي اصطبغت باللون الأحمر وهو لون الدماء، وبدت في اهتزازها وتمايلها وكأنها النشوان الذي يتمايل من السُّكر.

كما ظهرت عناصر الطبيعة في غرض مثل **الرثاء**، كقول ابن الخطيب[٢]:

يَا ثَاوِياً بَطْنَ الضَرِيحِ وَذِكْرُهُ أَبَداً رَفِيقُ رَكَائِبٍ وَرِفَاقِ
مَا كُنْتَ إِلاَّ دِيمَةً مَنْشُورَةً مِنْ غَيْرِ إِرْعَادٍ وَلاَ إِبْرَاقِ
مَا كُنْتَ إِلاَّ رَوْضَةً مَمْطُورَةً مَا شِئْتَ مِنْ ثَمَرٍ وَمِنْ أَوْرَاقِ

فهذا الفقيد كان من نبل الأخلاق والجود بحيث لم يشبهه إلا الدمية الهاطلة، والروضة الممطورة، ولاشك أن هذا التصوير مستوحى من البيئة الطبيعية الساحرة التي ملكت على الشاعر قلبه، بيئة المياه الجارية والألوان الزاهية. حتى أنها دخلت في جزيئات بعض الصور والموضوعات التي لا يُتوقع دخولها في مثلها.

كما نلحظ اهتمام الشعراء بالكون العلوي، كالسماء وما فيها من نجوم وأنواء وشهب وكواكب، وليل ونهار .... وغير ذلك. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الخطيب:[٣]

بَانَتْ نُجُومُ الأُفْقِ دُونَ عُلاَكَا وَتَحَلَّتِ الدُّنْيَا بِبَعْضِ حُلاَكَا

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٣٢.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧١٠.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٦٩.

شَرَفٌ يَجُرُّ عَلَى المجَرَّةِ ذَيْلَهُ بَلَغَ السَّمَاءَ وَزَاحَمَ الأَفْلاَكَا

فالنجوم والمجرة والأفلاك عناصر تدل على رفعة الممدوح، وإن كان في ذلك مبالغة كبيرة. ويلفت النظر في البيت الثاني تصوير الشرف بالإنسان الذي يرتدي أفخر الثياب ويمشي في زهو وخيلاء ويسحب ذيله، وهو تصوير مستوحى من بيئة متحضرة باذخة.

وقال أيضاً – في **السُّهى** وهي من النجوم الجوفية:[1]

مَا لِلسُّهَى بَادِي النُّحولِ كَأَنَّهُ مُتَسَتِّرٌ تَبْدُو مَخَايِلُ خَوْفِهِ

أَتَراهُ يَشْكُو؟ قُلْتُ هَذَا مُمْكِنٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ دَاؤُهُ مِنْ جَوْفِهِ

ونلحظ في هذين البيتين سمة التفكير المنطقي، حيث علل سبب شحوب هذه النجمة، وهو داء كامن في الجوف. وهذا يدل على معرفة فلكية بالنجوم والمجرات وذلك تحضر فكري واضح. وهكذا تبدو السها بعينيه مريضة وداؤها من داخلها. ويبدو أنه ينظر إليها من داخله المرهق المسهّد.[2]

نلحظ مما سبق مدى إحساس ابن الخطيب بطبيعة بلاده ونظرته إليها، ثم تعبيره عنها بشكل تناسب مع البيئة التي عاش فيها، فقد كملت الحضارة في بيئته وبعد العهد بينها وبين البداوة وعاش في كنف سلاطين بني الأحمر مستمتعاً بالجاه والمال، والحياة المترفة الناعمة، وعاش في قصور من أبدع ما أنتجته العمارة الإسلامية، تزينها الحدائق والبساتين، وينضّرها الشجر والزهر، وتنساب فيها المياه. ونظر إلى الطبيعة كما أبدعها الخالق سبحانه وتعالى في الحقول والرياض، وينظر إليها، كما صورها الفن في القصور والبرك والأحواض، فأكتمل بذلك تذوقه لهذا الجمال الذي أحاط به وهو لا يقتصر على وصفها ظاهرياً، وإن غلب ذلك على كثير من الأوصاف بل أودعها كل ما تشعر به نفسه، فتارة كانت في عينيه مرحة طروباً، وتارة أخرى كئيبة حزينة. وساعدته أحياناً في نقل معانيه، وشاركت في العديد من الموضوعات الشعرية من مدح، وغيره فالحديث (عن الطبيعة أو بعض مظاهرها في قصيدة لم تنشد لوصف الطبيعة أصلاً دليل على مقدار أهمية الطبيعة ومنزلتها في نفس الشاعر).[3]

---

(١) ديوان ابن الخطيب، ص: ٦٨٠.

(٢) كان ابن الخطيب مصاباً بداء " الأرق " الذي لازمه إلى آخر حياته. رغم أنه كان طبيباً إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى العلاج. يدل على ذلك ما أورده في كتابه " الوصول لحفظ الصحة في الفصول حيث قال: (العجب مني مع تأليفي هذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب. وعملي ذلك لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي). انظر: المقري: نفح الطيب: ٨٠/٥. وقد ذكر في نهاية رسالته في أحوال النوم واليقظة التفسير العلمي لحالة الأرق التي يعاني منها. إلا أن هذا الداء لم يكن مانعاً له عن مواصلة عملية التأليف والإنتاج. وبقدر ما أشقاه هذا المرض فقد أسعدنا بالتعرف على الحضارة الخاصة بذلك العصر من خلال شعره.

(٣) د. سعد إسماعيل شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، ص: ٨٨.

كما صور ابن الخطيب في ديوانه الكثير من العناصر الطبيعية التي تدور حول الحيوان والطيور، وغيرها، إلا أن الدراسة في هذا الجزء ترتكز على كيفية التعامل مع البيئة والاستمتاع بها، وما تمثله في نفس الشاعر، وما تثيره من أحاسيس ومشاعر ومواقف وذكريات، وكيفية التعبير عنها بطريقة حضارية. وإن كان بعض موضوعاتها قد طرقت قبله، إلا أن تناولها كان من وحي البيئة الأندلسية الخلابة المتحضرة.

ومن الأمثلة على الموضوعات التي طرقها الشعراء قبله تصوير **الفرس** فهو لا يصوره على مثال تصوير امرئ القيس وغيره من القدماء. وإنما تناول تصوير الفرس في البيئة المتحضرة المترفة الخلابة، بيئة البرق والمطر، كقوله:[١]

وَكُلُّ شَهِيرِ العِتْقِ أَشْرَفَ جِيْدُهُ وَقَامَ عَلَى مَلْمُومَةٍ مِنْ زَبَرْجَدِ
تَأَلَّقَ عَنْ بَرْقِ الدُّجُنَّةِ كَلَّما تَبَسَّمَ فِي قِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أَرْبَدِ
إِذَا مَا تَغَنَّى بِالصَّهِيلِ مُرَجِّعاً سَمِعْتَ بِهِ صَوْتَ "الغَرِيضِ" و"مَعْبَدِ"[٢]

ونلحظ هذا التصوير الحضاري الذي صور هذا الجواد الأصيل بالتحف المنحوتة لجماله ولونه الأبيض الناصع، ولاشك أن التشبيه بهذه التحف أو التماثيل هو نتاج بيئة اجتماعية متحضرة وكذلك الإشارة إلى صهيله المطرب وتشبيهه بأنغام الموسيقى وصوت أشهر المغنيين من أمثال "الغريض ومعبد".

وقال – أيضاً – :[٣]

وِرَادٌ وَشُقْرٌ وَاضِحَاتٌ شَيَاتُها فَأَجْسَامُهَا تِبْرٌ وَأَرْجُلُهَا دُرُّ
وَشُهْبٌ إِذَا مَا ضُمِّرَتْ يَوْمَ غَارَةٍ مَطَهَّمَةٌ غَارَتْ بِهَا الشُّهُبُ الزُّهْرُ

فهو وصف يحمل ملامح بيئة باذخة مترفة، يوحي بها التشبيه بالزبرجد والتبر – الذهب – والدر و المغنين، وطبيعة تمثلت في البرق وظلمة الليل والشهب.

نخلص مما سبق أن البيئة الطبيعية الجميلة، بيئة الحدائق والأزهار ترقى – ولاشك – بسلوك الإنسان وتؤثر في طرق تعبيره وانتقائه للصور الجمالية، بل تتحكم حتى في حبه وهواه، وتجعل نفسية ساكنها تختلف عن نفسية الإنسان الذي يحيا وسط الجفاف والتصحر. لذلك قال عليه الصلاة والسلام (من بدا جفا).[٤] وهذا ما تجلى بوضوح في النماذج السابقة.

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣١٤.
[٢] الغريض توفي سنة (٩٥ هـ)، لقب بذلك لجماله. انظر: الزركلي: الأعلام: ٣٠٠/٤. معبد: ابن وهب المغني أبو عباد المدني " نابغة في الغناء في العصر الأموي، كان مولى لبني مخزوم. توفي سنة (١٢٦ هـ). انظر: الزركلي: الأعلام: ١٧٦/٨.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٠١.
[٤] انظر: أبا الحسن علي بن عبد العزيز " القاضي الجرجاني " الوساطة بين المتنبي وخصومه. طبعة مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ ، ص: ٢١.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

❖ المبحث الأول:

الأثر الحضاري في بناء القصيد.

❖ المبحث الثاني:

الأثر الحضاري في الألفاظ والتراكيب.

❖ المبحث الثالث:

الأثر الحضاري في الصورة.

❖ المبحث الرابع:

الأثر الحضاري والإيقاع.

المبحث الأول

الأثر الحضاري في بناء القصيدة

الأثر الحضاري في بناء القصيدة:

توجد عوامل قوية التأثير فيما يبدعه الأدباء والمفكرون، ومنها الحضارة، حيث تؤثر بطريقة ملحوظة في موضوعات العمل الأدبي شعراً ونثراً . وهذا أمر لا يستغرب لأن البيئة المحيطة بالأديب تؤثر في طبعه ومزاجه ومن ثم في انتاجه .

وقد تنبه الشعراء والنقاد قديما للبيئة وتأثيرها فعرفوا ما للمكان من طابع خاص يؤثر في نفسية ساكنه ، ويلون نتاجه بلونه . فإذا كان الشاعر يعيش في صحراء قاحلة فإن نتاجه الأدبي سيحمل ولا شك سماتها من خشونة وغلظة . وعلى العكس إذا كان يعيش في بيئة متحضرة وسط المياه والرياض والبساتين والقصور ، فإن أدبه سيحمل ملامح تلك البيئه الراقية، المشرقة، الناعمة .

وقد بلغت غرناطة في عصر ابن الخطيب ذروة مجدها الأدبي والفكري والمادي . وهذا بدوره ذو أثر بالغ في الشعر وفي حث القدرة على الإبداع فأصبح الشعر يحمل ملامح هذه الحياة المتحضرة. وقد أشار حازم القرطاجني إلى هذا العامل الحضاري بوضوح عندما قال :(لما كان الشعر لا يتأتى نظمه على أكمل مايمكن فيه إلا بحصول ثلاثة أشياء وهي : المهيئات ، والأدوات ، والبواعث ، وكانت هذه المهيئات تحصل من جهتين:

١ -النشىء في بقعة معتدلة الهواء ، حسنة الوضع ، طيبة المطاعم ، أنيقة المناظر ، ممتعةٍ من كل ما للأغراض الإنسانية به علقة .

٢ -والترعرع بين الفصحاء الألسنة المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان)[1]. وبحسب رأي حازم فإن ابن الخطيب قد تهيأت له كل بواعث ومهّيآت الشعر الجيد المتحضر. وفي هذا المعنى قال الأصمعي : (ما استدعي شارد بمثل الماء الجاري ، والشرف العالي، والمكان الحالي، يعني : الرياض)[2].

والمتأمل في مضامين شعر ابن الخطيب يلحظ بوضوح تأثر الشاعر بحضارة بلاده وجمالها الطبيعي الخلاب . كما ظهر أثر ذلك في طريقة تشكيل القصيدة وبنائها .

---

[1] أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تحقيق : د. محمد الحبيب بن الخوجة . الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص : ٤٠ .

[2] أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني : " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده " تحقيق : د. صلاح الدين الهواري و د.هدى عودة ، الطبعة الأولى ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٦ م : ١ / ٣٤٠ .

فبناء القصيدة يحدد ملامح الشاعر الفنية وطريقة توسله بأدوات التشكيل الفني والجمالي. وهو يدور في ثلاثة محاور هي : المقدمة (الافتتاح) ، والتخلص ، والخاتمة .

١ -مقدمة القصيدة :

سلك ابن الخطيب طريقتين في استهلال قصائده وهما :

١ - البدء بمقدمة يمهد بها لموضوعه.

٢ - التحرر من المقدمات والدخول في الموضوع مباشرة.

ففي الطريقة الأولى يحرص ابن الخطيب على التمهيد لموضوعه من بداية القصيدة. فقد كان ابن الخطيب هو الشاعر الرسمي للبلاط النصري فضلاً عن المركز السياسي الذي كان يشغله . ومن هنا ظهر اهتمامه بمقدمات قصائده ، وحرصه على حسن الاستهلال لجذب المتلقي للقصيدة وإثارة اهتمامه لأن المقدمة " هي الطليعة الدالة على مابعدها ، المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة . تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقي مابعدها إن كان بنسبةٍ من ذلك . وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها"[١].

والمتأمل في شعر ابن الخطيب يلحظ بوضوح أثر التمدن، وروح الحضارة في مقدمات قصائده ، فقد بنيت في أغلبها على عناصر حضارية . ولا يعني ذلك أنه خرج تماماً عن تقاليد القصيدة العربية القديمة التي تبدأ بذكر الأطلال ، وبكاء ديار المحبوبة[٢]، وإنما قدّم بها لبعض قصائده في أغراض متعدده [٣]. إلا أنه ذكر فيها عناصر حضارية أضفت عليها تجديداً، ومثال ذلك، قولة: [٤]

أَشَارتْ غَدَاةَ الْبَينِ منْ خَلَل السَّجْفِ بنَاظِـــرَتَيْ رِيمٍ وسَالِفَتَيْ خِشْفِ [٥]
وأَبْصَرَتِ التَّوديعَ حَقّاً فَلَمْ تُطِـــــقْ غَدَاتَئِذٍ كَتْماً لِبَعضِ الَّذِي تُخْفِي

وذكر في مقدمتها -أيضا -: [٦]

فَلاَ عَهْدَ إلاَّ بالخَيَالِ وبالْمُنَـــــى ولاَ وَصْلَ إلاَّ بالرَّسَائِلِ والصُّحْـفِ
أَيَا قَاتَلَ اللّهُ الغَوانِي فَإِنَّمَـــــا طِلاَبُ الرَّدَى وَقْفٌ عَلَى رَبَّةِ الوَقْفِ

---

[١] حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص : ٣٠٩ .
[٢] انظر : ابن رشيق : العمدة : ٣٦٤/١ ومابعدها .
[٣] انظر ديوان ابن الخطيب،ص: ١٠٨-٢٤١-٢٥٠-٢٦٧-٣٠٠-٣٠٦-٣١٠-٣٤٦-٣٥١-٣٥٤-٣٦٧-٣٧٤-٤١٤-٤٨٠-٤٨٣-٥٢٦-٥٧٥-٦٤٧-٦٥٠ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٦٧٣ .
[٥] السالفة : جانب العنق ، والخشف : ولد الظبيه أول مايولد .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٦٧٣ – ٦٧٤ .

ونلحظ من خلال الأبيات أن ابن الخطيب مزج في هذه المقدمة الغزلية بين العناصر التراثية والحضارية، حيث اتضحت الحضارة في التواصل بين الأحبة بالرسائل والصحف وزينة المحبوبة التي تمثلت في الوقف وهو سوار من العاج مع بقاء الأصول البدوية في رسم مشهد الرحيل والوداع والبكاء الذي لايرد المحبوبة التي طالما أخلفت معه وعود اللقاء.

وقال في مقدمة قصيدة أخرى [١]:

دَعَا عَزماتي والمطِيَّةَ والوَخْـــــــدَا وإلاَّ فَكُفَّا الشَّوْقَ عَنِّيَ والوَجْـــدَا
حَنَنْتُ إِلَى العَهْدِ القَدِيمِ الَّذِي قَضَى حَمِيداً فَمَا أَغْنَى الحَنِينُ ولاَ أَجْدَى!
ومَاهِيَ إلاَّ زَفْرةٌ هَاجَهَا الجَـــــوَى وأَبْدَى بِهَا تَذْكَارُ يَثْرِبَ مَـا أَبْدَى
وكَمْ قَدْ كَتَمْتُ الشَّوْقَ لَوْلاَ مَدَامِعٌ تُرَوِّي مَجَارِيهَا المحَاجرَ والخَـــدَّا
وتُخْرِجُ مِنْ بَحْرِ الجُفُونِ جَوَاهِـــــراً تُحَاجُّ بِهَا مَنْ أَنْكَرَ الجَوْهَرَ الفَرْدَا

وفي هذه المقدمة التقليدية التي ذكر فيها المطية والرحلة، نلحظ روح الحضارة وبيئة الثقافة والعلم ممتزجة مع النسيب حيث تبدو سمات التحضر في تشبيه الجفون بالبحر الذي يحتوى على الجواهر الثمينة ، التي عبر بها عن دموعه – على مكانته وعزيمته ورجولته -وفي ذلك إيحاء بغزارة هذه الدموع التى لم يكن ليخرجها إلا مقدار حبه لرسول الله -عليه الصلاة والسلام - وشوقه لزيارة الأماكن المقدسة. وكذلك قوله (تحاجُّ من أنكر الجوهر الفرد) تدل على الجدل والمناظرات العلمية حيث أن الجوهر الفرد من المصطلحات التي يتداولها الفلاسفة ويعنون بها كل ماقام بنفسه، ويقابله العرض وهو مايقوم بغيره[٢].

ومن الأمثلة كذلك قوله : [٣]

تَأَلَّقَ نَجْدِياً فَأَذْكَرنِي نَجْـداً وهَاجَ لِيَ الشَّوْقَ المبَرِّحَ والوَجْدَا
وَمِيضٌ رَأَى بُرْدَ الغَمَامةِ مُغْفَلاً فَمَدَّ يَدَاً بالتِّبْرِ أَعْلَمَتِ الْبُـــرْدَا

ومنها : [٤]

وقَدْ كُنْتُ جَلْدَاً قَبْل أَنْ تُذْهِبَ النَّوَى ذَمَايَ وأَنْ تَسْتَأْصِلِ العَظْمَ والْجِلْدَا

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٥٤ .
[٢] انظر : د.جيرار جهامي : موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب ، الطبعة الأولي ، مكتبة لبنان بيروت،١٩٩٨م،ص:٢١٦، ومابعدها.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٤٦ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٤٧

أَأَجْحَدُ حَقَّ الحُـــبِّ والدَّمْعُ شَاهِدٌ وَقَدّ وَقَعَ التَّسْجيلُ مِنْ بَعْدِ مَا أَدَّى
تَنَاثَر في إِثْرِ الحُمُـــولِ فَرِيـــــدُهُ فَلِلّه عَيْناً مَنْ رَأى الجَوْهَـرَ الفَرْدَا

وفي الأبيات السابقة تبدو السمة الحضارية في الغمامة التى بدت وكأنها برد -وهو نوع من الثياب الموشاة -ووصفه بأنه (غفل) وكأنه أمر عظيم فقد تعود أهل الأندلس على الزينة في كل شيء، فامتدت يد البرق وزينته بهذا الوميض الذي ظهر وكأنه الذهب الخالص . كذلك نلحظ الحضارة في استخدام ألفاظ الشهادة والتسجيل والأداء في البيت الرابع ، وهي من ألفاظ الموثقين – أو كتاب الشروط – [1] في الأندلس.

ولابن الخطيب في الوقوف على الأطلال رأي يقول فيه : [2]

أَمَا لَوْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يَنْطِقُ الرَّسْمُ وَلَم يَبْقَ يَوْمـاً مِنْ مُسَمَّـاهُ إِلاَّ اسْمُ
وَأَنَّ سُؤَالَ الرَّبْعَ يَنْقَعُ غُلَّـــةً فَيَحْصُلُ مِـــنْ أَنْبَاءِ مَنْ ظَعَـنَ الْعِلْمُ
لَطَالَ وُقُوفُ واسْتَهَلَّتْ مَدَامِعُ وَبُثَّ غَـــرَامٌ طَالَمَا صَانَهُ كَـتْـــمُ
وَلَكِنَّـــهُ جسْمٌ تَحَمَّلَ رُوحَهُ وَمَهْمَا تَولَّى الروُّحُ لا يُسْأَل الْجسْـمُ

فهو يقرر أن الطللَ دون سكان كالجسد بلا روح ولا سبيل إلى الاستفادة منه وهو بذلك يبتعد عن التقليد ويؤثر الصدق النفسي والفني مع نفسه وعصره . والحكم ذاته ينطبق على قوله: [3]

نُكَلِّفُ رَسْمَ الدَّارِ رَجْعَ جَوَابنَا وَذَلكَ شَيءٌ مَا إِلَيْه سَبيلُ

ولم ترتبط المقدمة التقليدية عند ابن الخطيب بموضوع معين ، حيث قدم بها لموضوعات شتى إلا أنه عندما ينظم قصائد المديح خاصة المدائح النبوية فإنه يعمد غالبا إلى التقديم بهذه الطريقة، فابن الخطيب بوصفه شاعرا للبلاط كان لسان الدولة المتغنى بمآثر سلاطينها ، ومفاخرهم ، لذلك فإنه ينتهج طريقا يعرفه الشعراء ويسيرون عليه عندما يكونون مكانه . كما أنه يعمد إلى الإطالة في هذا الغرض - المدح بكافة أنواعه - لأنه يلقيه في المحافل التي يقيمها السلاطين في المناسبات المختلفة

---

[1] التوثيق أو العدالة : من الخطط الدينية التابعة للقضاء ، يقوم صاحبها عن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عند الإشهاد، وأداءاً عند التنازع، وكتبا في السجلات، لتحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وسائر معاملاتهم . انظر : ابن خلدون: المقدمة،ص : ٢٢٤
[2] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٤٢.
[3] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٨٠.

ليناسب الدور الرسمي الذي يؤديه، وليكون ذلك أهيب له في النفوس[١] لهذا قال بعض النقاد (الطوال للمواقف المشهورات) [٢].

ولم يقتصر التجديد في مقدمات قصائد ابن الخطيب على المقدمة الطللية أو الغزلية – التقليدية – فحسب ، بل إنه عدل عنها في كثير من قصائده ، واتجه إلى التقديم بأسلوب يتناسب مع البيئة المتحضرة التي عاش بها . فظهر التجديد والتحضر في ابتداءاته فيما يلي :

أ – مقدمة البكاء على الشباب:

يظهر في هذه المقدمة تصوير الشيب ، والبكاء على الشباب الغض الناعم الذي تولى سريعا، كقول ابن الخطيب:[٣]

عَهْدَ الشَّبَابِ سَقَى أَيَّامَـــكَ الأُوَلاَ سَحٌّ مِنَ الدَّمْعِ إِنْ شَحَّ الحَيَا هَطَلا
فَكَمْ لَنَا فِيهِ إِذْ عَهْدُ الهَوَى كَثِبٌ وإِذْ خِضَابُ شَبَابِ الْفَوْدِ مَا نَصَـلاَ
مِنْ عَهْدِ أُنْسٍ تَفَيَّأْتُ السُّرُورَ لَدَى رَوْضَاتِهِ وَجَنَيْتُ اللَّهْوَ والَغْـــــزَلاَ

والشاعر في الأبيات السابقة عدل عن ذكر الطلل البالي إلى تذكر الشباب وعهوده التي عمرها باللهو والغزل ويدعو له بالسقيا بأسلوب جميل زاده جمالاً الجناس الناقص بين (سح) و (شحَّ) ويمضي في هذه المقدمة إلا أن هذه الذكرى تثير كوامن الأشجان في نفسه في مثل قوله:[٤]

تَذَكَّرْتُ عَهْدًا الشَّبَابِ الَّذِي وَلَّى فَصَابَ لَهُ تَسْكَابُ دَمْعِيَ وانْهَـــلاَّ
وَقُلْتُ وَقَدْ آنسْتُ بَارِقَةَ الْهَـــــوَى عُهُودُ الصِّبَا يَا مَا أَلَذُّ وَمَا أَحْلَـــــى
إِذِ العَيْشُ غَضٌّ وَالشَّبِيبَةُ رَوْضَـــةٌ أَزَاهِرُهَا تُجْنَى وأَنْوَارُهَا تُجْلَـــــى
وَمَا كَانَ إِلاَّ كَالْخَيَالِ لِنَـــــائِمٍ أَلَمَّ وَيَاسُرْعَانَ مَا قَوَّضَ الرَّحْـــــلا

---

[١] ابن رشيق : العمدة : ١ / ٣١٣.
[٢] ابن رشيق : العمدة : ١ /٣١١.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٦٣.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٦٦ – ٧٦٧ .

فهو لا يملك حين يتذكر ما مضى في وقت الشباب إلا الدموع . إلا أنه عندما يفكر فيما مضى، ويتأمل هذه المرحلة التي أقبل عليها نجده سرعان ما يغير نظرته للحياة ويؤكد أن الشباب الذي أغراه بالتمادي في اللهو والمسرات سرعان ما انقضى بغير طائل، لذلك فإن هذا الشيب يعرض بالإنسان عن الباطل ويحثه على التقوى والورع.وتأمل ما مضى من التفريط في حق الله سبحانه وتعالى والندم عليه، حيث يقول:[1]

وَالنَّفْسُ لاَ تَنْفَكُ تَكْلَفُ بالْهَوىَ ... والشَّيْبُ يَلْحَظُهَا بعَين رَقِيـــبِ
رَحَل الصِّبَا فَطَرَحْتُ في أَعْقَـابهِ ... مَا كَانَ مِنْ غَزْلٍ ومِنْ تَشْبيبِ
أَتَرَى التَّغَزُّلَ بَعْدَ أَنْ رَحَلَ الصِّبَا ... شَأْنِي الغَدَاةَ إِذِ الْمشِيبُ نَسِيبِي!
أَنَّى لِمِثْلِي بِالْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَـــا ... لِلوَخْطِ في الْفَوْدَيْنِ أَيُّ دَبِيـــبِ
لَبِسَ الْبَيَاضَ وَحَلَّ ذِرْوَةَ مِنْبَـــرٍ ... مِنِّي وَوَالَى الْوَعْظَ فِعْلَ خَطِيبِ
قَدْ كَانَ يَسْتُرُنِي ظَلاَمُ شَبِيبَتِي ... والْيَوْمَ يَفْضَحُنِي صَبَاحُ مَشِيبِي

ونلحظ في الأبيات نظرة المتأمل في الحياة . فالشباب الذي كانت النفس تنطلق فيه بمسراتها بلا قيود قد ذهب وولى، وجاء الشيب الذي أصبح رقيبا عليها ليعلن نهاية عهد الغزل واللهو والتشبيب . وأنى لمثله التشبيب وقد دب الشيب في سواد شعره ؟ ليذكره بما غفل عنه طويلا ، في صورة طريفة صوّر فيها الشيب إماما يعتلى المنبر ويخطب وينهى النفس عن غيها . ولا شك أن هذه الصورة مستمدة من معين العقيدة الإسلامية حيث صاغها حكما بث فيها خلاصة تجربته في الحياة. ولم ترتبط هذه المقدمة بموضوع معين من الموضوعات الشعرية، بل قدم بها لموضوعات مختلفة.[2]

(ب) مقدمة وصف الطبيعة والخمر :

اتجه ابن الخطيب في كثير من مقدمات قصائده إلى الطبيعة، ووصف مناظرها وصفاً حل محل المقدمة التقليدية. فقد كان مفتوناً بطبيعة بلاده الخلابة في مناظرها الحضارية كالرياض والبساتين -الحدائق - التي امتلأت بها غرناطة على ضفتي واديها الكبير.

ومن القصائد التي قدم لها بوصف الطبيعة، قصيدته التي قال فيها : [3]

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٨.
[2] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥٥ - ٣٠١ – ٣٥١.
[3] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٠٩.

زَارَتْ وَقَدْ صَرَفَ العِنَانَ الْغَيْهَبُ والصُّبْحُ يُنْشَرُ مِنهُ بَنْدٌ مُذْهَبُ
والزُّهْرُ فِي نَهْرِ المَجَرَّة بَعْضُهَـــا يَطْفُو بَصِفْحَتِهَا وَبَعْضٌ يَرْسُبُ
والدَّوْحُ صَلَّى بالتَّحِيَّاتِ الَّتِـــي أَلْقَى بِمَسْمَعِهِ النَّسِيمُ الطَّيِّـبُ
والطَّيْرُ قَدْ نَفَضَ الْجَنَاحَ مُـؤَذِّناً والُورْقُ تَتْلُو وَالبَلاَبِلُ تَخْطُـــبُ

وهذه الأبيات هي مقدمة قصيدة رد بها ابن الخطيب على قصيدة بعثها أستاذه "ابن الجيّاب"، فكانت الطبيعة وعناصرها وسيلةً لعرض مشاعر البهجة والامتنان التي بعثتها في نفسه. فالليل الطويل الذي كان يعيشه، والنجوم التي تراءت له في الأفق وكأنها تسبح في نهر المجرة، بعضها يطفو، وبعضها يرسب. مما يدل على إحساس عميق بطول الليل وكآبته، حتى إذا وردت هذه القصيدة، فإن هذا الليل الذي كابد طوله قد انجلى، ونشر الصباح من بعده في الأفق بند مذهّب، وعمت البهجة كل ما يحيط به . فالنسيم عليل هب بلطف محملاً بالتحيات، فتتمايل الدوح وتنحنى رداً لهذه التحية، فبدت وكأنها تصلي وتقرأ هذه التحيات، والطير ينفض جناحيه وكأنه يؤذن، والحمام تتلو ، والبلابل تخطب، وهي صورة تنبض بالحركة، صور فيها مشاهداً مستمدة من بيئة البساتين والأنهار والرياض الحضارية، كما أن أغلب ألفاظها مستمدة من الشريعة الإسلامية – وذلك لاشك تحضّر فكري – في قولة (صلى – التحيات – مؤذناً – تتلو – تخطب) إلى جانب أن مناسبتها في حد ذاتها تشكل مظهراً حضارياً. وكل هذه الأمور في المقدمة تميزها بالتجديد والحضارة، وتبعدها عن المقدمة التقليدية القديمة، كما أنها من المقدمات الجيدة التي تشد السامع من أول بيت إلى هذه الزائرة وتثير في نفسه الفضول إلى معرفتها، ومن تكون حتى تبعث في نفسه كل هذه البهجة ؟ ويزداد شوقاً بعد هذا المشهد الملىء بالصور الحية المستمدة من الطبيعة . ليكشف بعدها ابن الخطيب عن زائرته ويقول بأنها : [1]

بِكْرٌ مِنَ السِّحْرِ الحَلاَل بِبَابِلٍ تُنْمَى إِلَى هَارُوتِهِ إِذْ تُنْسَـــبُ
مَحْجُوبَةٌ فِي خِدْرِ طِرْسٍ دُونَهَا لِلْحُسْنِ مِنْ غُرَّ المعَانِيَ مَوْكِبُ

إنها القصيدة التي وصلت إليه من أستاذه، وأثارت إعجابه ببيانها الساحر، وكيف لا تكون ساحره ومهديها هو من أعلام عصره علماً وأدباً ، فنسبتها له كنسبة

(١) ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٠٩ – ١١٠.

السحر إلى هاروت وذلك يدل على تحضر فكري. وزاد من جمال الأبيات هذا التشبيه بالفتاة البكر المترفة التي تحميها مواكب الحراس كأنها أميرة، وهي صورة حضارية فالطرس الذي كتبت عليه هو كخدر الفتاه مما يوحى بأنها مصونة ولم ينظر إليها أحد قط . ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى إجادة الشاعر وتوفيقه في التخلص لموضوعه حيث قدم للموضوع ببعض عناصر الطبيعة ومضى يعددها في أربعة أبيات ثم انتقل إلى موضوعة ، والأبيات مترابطة ولم نحس بتغير المناخ الفكري فيها فقد استهل القصيدة بالفعل " زارت " ومضى في وصفه ثم جاء بالفاعل بعد ثلاثة أبيات وهو (بكر من السحر الحلال) .

وقد كانت هذه **الطبيعة** الفاتنة مغرية بالتنعم في أرجائها ، لذلك كانت تعد من أفضل الأماكن لعقد مجالس الأنس والشراب. يقول ابن الخطيب في أبيات صبوحية نظمها بإقتراح السلطان : [١]

خُذْهَا فَقَدْ وَضَحَ الصَّبَاحُ ولاَحَا والرَّوْضُ يُهْدِي عَرْفَهُ النَّفَّاحَا
مَازَالَ يَكْتُمُ مِنْ حَدِيثِ نَسِيمِهِ وَالآنَ أَمْكَنَهُ الحَدِيثُ فَبَاحَا
لَمَّا رَأَى جَيْشَ الصَّبَاحِ مُشَمِّرًا عَمَّتْ مَضَارِبُهُ رُبَىً وَبِطَاحاً

وفي هذه الأبيات يدعو الشاعر أصحابه إلى شرب الصبوح في روض يانع نشر النسيم العليل أريجه الرائع صباحاً بعد أن كانت ظلمة الليل تخفى محاسنه، ويمضي ابن الخطيب في هذه المقدمة بتصوير عناصر الطبيعة الخلابة، وتصوير أجواء هذا المجلس. ونلحظ عند ابن الخطيب ارتباط المقدمة الخمرية بالطبيعة لأنها كانت في الغالب مسرحاً لهذه المجالس.

وقال في مقدمة قصيدة مدح بها السلطان: [٢]

نَبِّهْ نَدِيمَكَ للصَّبُوحِ وَهَاتِهَا كَالشَّمْسِ تُشْرِقُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا
وَاصْرِفْ بِصِرْفِ الرَّاحِ هَمّاً كَامِناً وَاحْيِ السُّرُورَ تَنَعُّماً بِحَيَاتِهَا
وكَأَنَّمَا بَيْنَ النَدَامَى أَطْلَعَتْ بَدْراً بِجُنْحِ اللَّيْلِ مِنْ آياتِهَا
مِنْ كَفِّ سَاجِيَةِ الجُفُونِ كَأَنَّمَا هَبَّتْ وفي الأَجْفَانِ بَعْضُ سِنَاتِهَا
وَلِثَغْرِهَا عِنْدَ ابْتِسَامِ أَقَاحِهِ بَرْقٌ تَأَلَّقَ فِي سَنَا وَجَنَاتِهَا

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٢٢١ – ٢٢٢
[٢] ديوان ابن الخطيب ،ص: ١٦٩ – ١٧٠

ونلحظ في هذه الأبيات امتزاج الخمر بالطبيعة والغزل بالمرأة – الساقية – التي تسبي العقول بجمالها ورقتها التي كانت أثراً من أثار الحضارة والترف تجلت في الثنايا البراقة والخدود الناعمة المصقولة كما يتضح في البيت الأخير. حيث كان تحضّر المجتمع وانتشار الغناء ومجالس الشراب من أسباب كثرة هذه الجواري، ومن ثم ورد ذكرهن في هذه الموضوعات بكثرة .

ولم يكن ابن الخطيب الشاعر الحضري الوحيد الذي مزج في مقدمته الطبيعة بالغزل والخمر، بل كان ذلك ديدن جميع شعراء الأندلس[١] – وغيرهم من شعراء الحضارة في المشرق – يدفعهم الى ذلك بجانب الطبيعة الجميلة، الترف ورغد العيش الذي نعموا به.

والحق أن ابن الخطيب لم يكن شاعر خمرة ولا غزل، حتى أنه عندما يورد في ديوانه شيئاً منهما قاله وقت شبابه فإنه يقدم له ببعض العبارات التي يعبر فيها عن ندمة[٢]. ومعظم القصائد التي نظمها بهذه الطريقة كانت إما بأمر السلطان ، أو معارضة لأحد الشعراء .

ج – مقدمة معتمدة على المعاني الإسلامية :

إن دراسة مقدمة القصيدة عند ابن الخطيب في مختلف الأغراض الشعرية التي تناولها، تبين غلبة المعاني الإسلامية على أفكار المقدمة. حيث إن هذا الطابع الإسلامي في مقدمة القصيدة كان من أوضح المظاهر الحضارية فيها. ومن الشواهد على ذلك قول ابن الخطيب:[٣]

لَمَا دَعَى دَاعِي الهَوَى لَبَيَّتُـــــــهُ وَحَثَثْتُ رَحْلِي مُسْرِعاً وَأَتَيْتُهُ
وَحَجَجْتُ كَعْبَتُهُ فَمَا مِنْ مَنْسَكٍ إِلاَّ أَقَمْتُ شِعَارَهُ وَقَضَيْتُـــهُ

فلولا أن الشاعر قد ذكر الهوى في البيت الأول لذهب الفكر إلى أنه حج فعلاً حيث نلحظ الحضارة الإسلامية في ذكر فريضة الحج، والكعبة والمناسك التي يؤديها المسلمون امتثالاً لأمر الله عز وجل.

وقال أيضاً :[٤]

---

(١) انظر : د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبة في الشعر العربي، ص:٤١١ .
(٢) انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٩٥ – ٣٩٤ – ٥٨٢ .
(٣) ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٨٤ .
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٧ .

الصَّبْرُ إلاَّ فِي هَوَاكَ حَمِيـــــــــدُ الخَطْبُ صَعْبٌ والمرَامُ بَعِيـــدُ
وَحَّدْتُ شَخْصَكَ فِي الفُـؤَاد لَعَلَّــهُ يُنْجِيهِ مِنْ نَارِ الجوَى التَّوْحِيدُ
إِنْ كُنْتَ تُنْكرُ ماأُلاقِي فِي الْهَوى فَالْوَجْدُ قَاضٍ، والدُّمُوعُ شُهُودُ

- ونلحظ في هذه الأبيات –أيضاً -اعتماد الشاعر على المعاني الإسلامية في مقدمته الغزلية، فالصبر والتوحيد والقاضي والشهود، كلها ألفاظ ومعانٍ مستمدة من الشريعة الإسلامية وذلك أثر من آثار التحضر الفكري.

كما نلحظ هذا التأثر في إحدى مقدماته التي قال فيها:[1]

مَنْ لِي بِقَلْبٍ كُلَّما نَـــادَى بِـــهِ دَاعِي الصَّبَابَةِ طَارَ كُلُّ مَطَارِ
" مَطْلُ الغَنِي ظُلْمٌ " فَفِيمَ ظَلَمْتَنِــي؟ وَلَوَيْتَ دَيْنِي عَنْ وُجُودِ يَسَـــارِ
جَاوَرْتَ قَلْبِي وَاطَّرَحْتَ حُقُوقَـــــهُ واللّهُ قَدْ وَصَّى بِحِفْظِ الجَــارِ

فقد ضمن هذه الأبيات حديثاً يبين حرمة المماطلة بالدين من القادر على أدائه كذلك ذكر الجار وحقوقه وكلها ألفاظ ومعاني مستمدة من الدين الإسلامي. وذلك أثر من أثار التحضر الفكري.

د -مقدمة تحمل ملامح الترف الحضاري:

أيضاً ثمة ما نلحظه من تناول حضاري في مقدمة ابن الخطيب، عند استهلالها بالنسيب، في مثل قوله: [2]

ثَنَى الصَّعْدَةَ السَّمراءَ مِنْ لينِ قَدِّهِ وجَرَّد من أَجْفانِهِ سَيْفَ خَـــــدِّهِ
تَبَسَّمَ عَنْ دُرٍّ من السَّمْطِ رَائِـــقٍ تَأَنَّقَ صُنْعُ اللّهِ فِي نَظْمِ عِقْـــدِهِ
يَلُوحُ عَلى أَزْرَارِهِ قَمَرُ الدُّجَـــــى ويَمْرَحُ غُصْنُ البَانِ فِي طَيَّ بُرْدِهِ
لَئِنْ قَلِقَتْ أَعْطَافُهُ فِي وِشَاحِـــهِ فَكَمْ أَقْلَقَتْ قَلْبَ المشُوقِ بِوَجْدِهِ

فابن الخطيب يتغزل بامرأة منعمة مترفة رقيقة، بفضل الحضارة التي كانت تعيشها حيث جمع في هذه المقدمة أطرافاً من عناصر الحضارة التي اختصت بها المرأة، مثل: السمط، والعقد، وأزرار الرداء، والبرد، والوشاح. كما أن فيه إشارة حضارية تدل على بعض أنواع الملابس النسائية في العصر الذي عاش فيه .

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٦٨.
[2] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٤ – ٢٨٥.

وقال أيضاً: [١]

وَبِي من ظِبَاءِ الأِنْسِ رَائِقَةُ الحُلَى وَهَبْتُ لَهَـــا نَفْسِي ومَلَّكْتُها لُبِّـي
صَبوتُ وَمَا قَلْبِي بِأَوَّلِ مِنْ صَبَـا لِنَاطِقَـــةِ القُرْطَيْنِ صَامِتَةِ القَلْـبِ
إِذَا مَارَنَتْ غَارتْ بِأَلْحاظِها الظُّبا ومَهْما انْثَنتْ غَصَّت مُنَعَّمة القُضْبِ

ونلحظ في هذه الأبيات مزج الشاعر مشاعره بعناصر الحضارة، حيث جعل هذه المحبوبة ناطقة القرطين، دليل طولهما فهما يصدران صوتاً عند تحركهما، على عكس صاحبتهما التي هي صامتة القلب أي جامدته. وقال أيضاً:[٢]

أَطْلعنَ في سُدُفِ الفُرُوعِ[٣] شُمُوساً ضَحِك الظَّلامُ لَهَا وَكَانَ عَبُوسَا
وَعَطفْنَ قُضْباً لِلْقُدودِ نَوَاعِمَـــاً بُوِّئْنَ أَدْواحَ النَّعِيمِ غُرُوسَـــــا
وَعَدلْن عَنْ جَهْرِ السَّلام مَخَافَـــةَ الوَاشِي، فَجِئْنَ بِلَفْظِه مَهْـمُوسَا
وخَلسْنَ مِن خَلَل الحِجَال إِشَـــارَةً فَتَركْن كُلَّ حِجَى لَها مَخْلُوسا

في البيت الأول يذكر الشاعر المحبوبة الحضرية المترفة ذات الشعر الأسود الفاحم، والبشرة البيضاء، في صورة يزيدها جمالاً التضاد بين **ضحك** الظلام **وعبوسه**. وهي ذات قدّ ناعم وترفل في أثواب النعيم والحضارة. ثم يصور اللقاء الذي تم ولكن على حذر من الواشين والرقباء مما جعل الكلام همساً لا يرتفع حتى لا يلفت أحدا، ويتضح من البيت أن من عادة النساء الجهر بالسلام على الرجال في المجتمع الأندلسي.

وقد ذكر ابن رشيق الفرق بين أهل البادية، وأهل الحاضرة في افتتاح قصائدهم بالنسيب فقال: "وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب ... ومقاصد الناس تختلف ... وأهل الحاضرة يأتي أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران، والواشين، والرقباء، ومنعة الحرس والأبواب، وفي ذكر الشراب والندامى، والورد، والنسرين، وما شاكل ذلك ..."[٤]. وكل ما أشار إليه ابن رشيق كان ظاهراً في جميع النماذج الشعرية التي تقدمت.

هـ - مقدمة طيف الخيال:

كما يضيف ابن الخطيب عنصر **طيف الخيال** في بعض مقدماته الغزلية، حين تزور المحبوبة فراش الحبيب، ويعجب المحب لها، ولقدرتها غير الطبيعية، في اجتياز

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٢.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٢٢.
[٣] سدف جمع سدفة أي الظلمة. والفروع جمع فرع وهو الشعر.
[٤] ابن رشيق: العمدة: ١ / ٣٦٤ – ٣٦٥.

المسافات حين تهتدى لمكانه . وهو عنصر أضحى مدرسة فنية جديدة منذ العصر العباسي خاصةً في مطالع البحتري[١]. ومن الشواهد عليه قول ابن الخطيب : [٢]

أَهلاً بطَيفٍ زَارنِي غَسقَ الدُّجى فَأعَاد لَيْلَتنا صَبَاحاً أَبْلَجَا
فَتحتْ زَيارَتُهُ لِصَبٍّ هائِمٍ بَابَ القَبُولِ وكَان قِدْماً مُرْتَجا
للّه دَرُّكَ مِنْ خَيالٍ مُطْمِعٍ عَلِقَتْ لنَا بِحبالِهِ أَيْدِي الرَّجَا
كَيفَ اهْتَديتَ؟ وهَلْ بَدالَكَ مَضْجَعٌ خَطَّ النّحُول عَليهِ سَطْراً مُدْمَجا[٣]

إنه يتعجب لقدرة هذا الطيف على الاهتداء لمضجعه وهو من نحوله لا يكاد يُرى في مكانه. تماماً مثل، الخط المدمج الذي تصعب قراءته، وهذا التصوير ولاشك فيه سمة الحضارة، لأنه مستوحى من بيئة العلم والكتابة. وهذه المقدمة تناسبت وموضوع القصيدة وهو الغزل، وذلك مما يحسن من الشاعر، حيث يكون(مطلع الكلام من الشعر دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام)[٤]. لذلك كانت هذه المقدمة من المطالع الجيدة.

وقال أيضا:[٥]

لَعلَّ خَيالاً مِنكَ يَطْرُقُ مَضْجَعِي وإِنْ ظَلَّ يَهْدِيه الأَنِينُ لَمَوْضِعِي
تَصدَّق بهِ وابْعْثهُ في سِنَةِ الكَرَى ومَا شِئْتَهُ مِنْ بعدِ ذَلكَ فَاصْنَعِ
وإِنْ عَادَ فَاسْأَلهُ يُجِبْكَ بمَا يَرى لَعَّلكَ تَرْثِي أَوْ لَعلَّكَ تَقْنَعُ

وفي الأبيات يتمنى الشاعر وصل من يحب حتى ولو كان طيفه. وإن كان من نحوله لا يكاد يرى، ولكن أنينه حتما سيدل هذا الطيف الزائر على مكانه ليرى ما فعل البعد به. ولا شك أن هذا التقديم لقصيدته يبتعد بها عن المقدمات التقليدية.

أما **الطريقة الثانية** التي سلكها ابن الخطيب في افتتاح قصائده، فهي التحرر من المقدمات، والدخول المباشر في الموضوع الرئيس،ذاكراً في مقدمته عناصر حضارية كثيرة، كقوله: [٦]

---

[١] انظر : د . علي ابو زيد : الاثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع ، ص : ١٣٥
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٠٤ – ٢٠٥ .
[٣] دمج الشئ في الشئ : دخل واستحكم فيه . والخط المدمج : المتداخل .
[٤] أبو الفتح ضياء الدين " ابن الأثير " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : د. محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعة : المكتبة العصرية ، بيروت، ١٩٩٩م : ٢٢٣/٢ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٥٤ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٠٣ .

بُشْرَى يَقُومُ لَها الزَّمانُ خَطيباً وَتأَرَّجُ الآفـــاقُ مِنْها طِيباً

فابن الخطيب في هذا المطلع يتخلى عن وضع المقدمات مؤثراً الدخول في موضوعه حيث بدأ قصيدته بقوله " بشرى " وهي بداية موفقة وختم البيت الطيب الذي يتناسب مع البشرى، وهو عنصر حضاري وهذه البداية تبعث في نفس السامع التشوق لمعرفة هذا الخبر السار، فهي تشد انتباهه من ناحية، ومن ناحية أخرى تعبر بأسلوب مباشر عن عاطفة الشاعر المتهللة المبتهجة من أول بيت، والتي كان مبعثها كما يقول : [1]

هَذَا طُلوعُ فُتوحِكَ الغُـــرِّ التِي مَا كَانَ طَالِعُ سَعْدِهَا لِيَغيبَا

أَظْهَرتَ دِينَ اللّهِ في ثَغْرِ العِدَى وَقَهرْتَ تِمْثَالاً بهِ وَصَلِيبـــــاً

ونلحظ الحضارة في هذا الاستهلال في هذه المعاني الإسلامية التي صاغها ابن الخطيب، فسر السعادة هو انهزام النصارى أمام المسلمين، ورفع رايات التوحيد فوق أرض أهل الصليب والتماثيل، مما يوحي بأن هذه الحرب هي حرب من أجل الدين أولاً قبل السياسة. وقد بين ابن الخطيب في هذين البيتين سر تلك البشرى التي ذكرها، وهو فتح حصن (كركبول) أحد ثغور الأعداء، وبهذه الافتتاحية يوفق الشاعر في التمهيد لموضوعه وإزاحة الستار عن مشاعره السعيدة من أول بيت.

وقد أثر ابن الخطيب الأسلوب ذاته عندما هنأ السلطان "أبا الحجاج" بزواجه عندما قال: [2]

النَّصْرُ نَصُّكَ والحُسَامُ دَلِيلُـــــهُ والفَتْحُ وَعْدُكَ والإِلاَهُ كَفِيلُهُ

كَفَلَتْ رِيَاضُ المُلْكِ مِنْك بِدَوْحِهَا فَرْعاً نَضِيراً لاَ يُخَافُ ذُبُولُـهُ

واهْتَزَّ دَوْحُ الملكِ مِنْهُ مُنَعَّمـــــاً رَيَّان يَعْطِفُهُ النَّدَى ويَمُيلُـــهُ

والشاعر في هذا الاستهلال بدأ بمدحه مباشرة دون التمهيد لموضوعه بأية مقدمات وهو بذلك يبتعد عن الأسلوب التقليدي في الابتداء. كما أن سمات الحضارة ظهرت من أول بيت في القصيدة، في هذه الصور المستمدة من بيئة العلم والثقافة. فالله سبحانه قد أيّد هذا السلطان بالنصر على الأعداء، في استدلال منطقي فكما أن لكل نص أدلة تؤكده وتبرهن عليه، فكذلك هذا النصر الذي كان بمثابة النص، والسيف الذي كان دليلاً عليه، مما يؤكد بأنه السلطان الذي قام بأمر الجهاد في سبيل الله ضد

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٠٣ .
[2] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٧٧ .

النصارى . وهي فكرة يؤكدها ابن الخطيب دائماً في مدائحه "لأبي الحجاج" . وإذا كان هذا هو اهتمامه ، وتلك نواياه فإن الله تعالى ولا شك سيكفل له التوفيق والنصر في جهاده .

كما تبدوا أيضاً السمات الحضارية في تشبيه الملك بالرياض المُعتنى به وهذا السلطان بالفرع النضير الذي ازداد دوحه نضارة ونعيماً بتوليه السلطة. وكل هذه الأفكار في البداية متناسبة وموضوع القصيدة حيث يمضي في توضيح مكانته وفضله، وقوة عزمه في خمسة عشر بيتاً بخلص بعدها إلى ذكر زواجه والتهنئة به.

وقد يبدأ ابن الخطيب أحياناً بموضوعه بدون ذكر مقدمات، إلا أنه يمهد له أحياناً بتمهيد يلائم جو القصيدة ، مثل قوله : [١]

مَا لِلْيراعِ خَواضِعِ الأَعْنَـــــــاق طَرَقَ النَّعِيُّ فَهُنَّ فِي إِطــرَاقِ

وكَأَنَّما صَبَغ الشُّحُوبُ وُجُوهَهَا والسُّقْمُ من جَزَعٍ وَمِن إِشْفَاقِ

مَا لِلصَّحَائِفِ صَوَّحَتْ رَوْضَاتُهَا أَسَفاً وكُنَّ نَضِيــرَةَ الأَوْرَاقِ

إن هذا الاستفهام الاستنكاري الذي استهل به الشاعر قصيدته يوحي بأمر فاجع حدث!! ولا يلبث السامع أن يدرك أن شخصاً ذا شأن من أعلام الكتابة قد توفي، عندما قال :(طرق النعي) بدليل أن من تأثر برحيله هي " اليراع " التي فجعت به فبدت كالإنسان الحزين الذي جلس مطرقاً لا يملك سوى البكاء . كذلك "الصحف" التي سطر عليها أجمل البيان فبفقده غدت مثل الروض الذي جف وذبل بعد أن كان يانعاً نضراً.

ولا شك أن السامع حين يسمع هذه المعاني وتلك الألفاظ الشجية يتهيأ نفسياً لتلقي الموضوع الحزين الذي نظم فيه القصيدة ، لذلك لا يفجأ حين يقول ابن الخطيب بعد ذلك: [٢]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٨ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٩ .

خَطْبٌ أَصَابَ بَنِي البَلاغةِ والحِجَا شَبَّ الزَّفِيرُ بهِ عَنِ الأَطْـــوَاقِ
أَمَّا وَقَدْ أَوْدَى "أبو الحَسنِ" الرِّضَا فَالفَضْلُ قَد أَوْدَى عَلى الإِطْلاَقِ
كَنْزُ المعَارفِ لاَ تَبيدُ نُقُـــودُهُ يَوْماً ولاَ تَفْنَى عَلى الإِنْفَـــاقِ

فالقصيدة هي في رثاء "أبي الحسن بن الجياب" أستاذ عصره في الأدب والكتابة ورئيس ديوان الإنشاء، وأستاذ ابن الخطيب. فكان طبيعياً أن تحفل هذه المرثية بألفاظ الفنون الأدبية كقوله (بني البلاغة، كنز المعارف) وقوله (من للرقاع؟) (من الفنون ؟ من للحقائق؟) [١] وإن في هذا التفجع على الفقيد وتوضيح مدى خسارة أهل الفن والأدب لأحد أعلامه لهو من باب تقدير العلم، وتكريم العلماء، واستشعار مكانتهم المهمة في الدولة. وقد ظهر ذلك في أول أبيات القصيدة مما يجعلها برغم غرضها، مؤشراً على روح الحضارة في هذا المجتمع. كما أن في ذكر الكنز والنقود وتشبيه علم هذا الفقيد بها، مظهراً حضارياً واضحاً يدل على بيئة متحضرة تنعم بالغنى والترف.

نستنتج مما سبق أن الشاعر في القصائد التي تبعثها عاطفة قوية كالفرح بفتح أو غيره .[٢] أو الحزن على عزيز مات، يتخلى عن المقدمات ويبدأ الموضوع مباشرة.

وفي أغلب القصائد التي نظمها ابن الخطيب كان يعتمد في مطلعها على التصريع، وفي ذلك دلالة على البلاغة والاقتدار على الصنعة [٣]. ومن الأمثلة على ذلك قوله في إحدى المقدمات : [٤]

هَلُمَّ فَما بَيْنِي وبَينُكَ ثَالثُ وقَدْ غَفَلتْ في الحُبِّ عَنَّا الحَوادِثُ

فهو مما يحسن في مستهل القصائد للتمييز بين الابتداء وغيره . [٥]

هذا عن **مقدمة ابن الخطيب ذات العناصر الحضارية**، وكان من أهم سماتها كما بينها البحث أن ابن الخطيب جمع في هذه المقدمات بين العناصر الحضارية

---

[١] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٩ .
[٢] انظر القصيدة التي نظمها بمناسبة ميلاد ابن السلطان ، حيث استهلها بقوله : (الديوان ، ص : ٥٣٢)
بشرى تقوم لها الدنيا على قدمِ حتى بها الله حيّ النصر في القدمِ
حيث تشيع في استهلال القصيدة المعاني المستمدة من الدين الإسلامي .
[٣] انظر : أبا يعلي عبد الباقي التنوخي : كتاب القوافي تحقيق : د. عمر الأسعد – د. محي الدين رمضان ، الطبعة الأولى ، دار الإرشاد ، بيروت ، ١٩٧٠م ، ص: ٦٥ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص :١٨٩ .
[٥] انظر : أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ، تحقيق ، د. علي فوده ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص : ١٨٢.

والأصول التراثية القديمة (التقليدية). كما أنه عدل عن المقدمة التقليدية إلى وصف الطبيعة أحياناً. وتذكر الشباب وذكر الشيب أحياناً أخرى . إضافة إلى ظهور المعاني الإسلامية بشكل واضح، وكذلك ظهور آثار الحضارة والترف المادي في كثير من مقدماته. كما أشار في بعضها إلى محبوبة طيف الخيال. وفي بعض الأحيان يعدل ابن الخطيب في بعض المواقف عن إعداد المقدمة، ويؤثر الدخول في موضوعه مباشرة. وفي الطريقتين كلتيهما يعمد ابن الخطيب إلى التصريع، حيث يقل أن يبدأ قصيدته دون أن يصرع مطلعها .

٢ - الخواتيم :

إن دراسة الخواتيم في قصائد الشعراء لا تقل أهمية عن دراسة البدايات وفنيات الخواتيم لا تقل قيمة عن فنيات الاستهلال . فالانتهاء (هو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه. وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له ، وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه).[١]

وكما افتتح ابن الخطيب كثيراً من قصائده بالحضارة اختتم -أيضاً –قصائده بها. وقد ظهر أثر الحضارة في خواتيم بعض قصائده في التأكيد على تحلي ممدوحه بالمبادئ الخلقية الرفيعة. فهو شاعر الدولة الرسمي المتحدث بلسانها، المروج لسياسيتها من خلال شعره. لذلك فهو يركز على المعاني الإسلامية، ويعمل على نشر حب السلطان بين الرعية.

يقول ابن الخطيب في ختام قصيدة يمدح بها "أبا الحجاج"، بعد ذكر الهدنة مع النصارى: [٢]

وَعَفَفْتَ حتَّى عنْ خَيالٍ طَارقٍ ... ووَهبْتَ حتَّى أَعْذَر اسْتِجْدَاءُ
قَسَماً لأَنْتَ مَلاذُ كُلِّ رَغِيبةٍ ... ومَأَمُّ مَنْ ضَاقتْ بهِ الغَبْراءُ
ولأَنْتَ ظلُّ اللّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ... وَبِلاَدِهِ إنْ عُدِّدَ الأفْيَاءُ
أَمُؤمَّلَ الإسْلامِ إنَّ وسَائِلِي ... هُنَّ الشُّمُوسُ فَما بهنَّ خَفَاءُ
مَالِي سِوَى حُبِّي لِمُلْكِكَ مذْهبٌ ... ولَرُبَّما تَتَحالفُ الأَهْوَاءُ

---

[١] ابن رشيق العمدة : ٣٨١/١ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٩٦ .

ونلحظ في هذا الختام الثناء على السلطان بصفات توجب له المحبة من الجميع، وهي في مجملها من مكارم الأخلاق التي حث الإسلام على التحلي بها، ويؤكد في النهاية على صدق مشاعره، حتى لا يشك ممدوحه بصدق كلامه ومحبته له.

وقال أيضاً مؤكداً أن هدفه هو نشر حب السلطان: [١]

أَبْقَيتُ بالذِّكْرِ الجَمِيلِ مَدَائحاً ... لكَ في فَمِ الرَّاوِي وقَلْبِ الرَّاجي

واخْلُدْ ونَصْرُ اللّهِ - جَل جلاله - ... يَأْتِيكَ أفْواجاً عَلى أَفْـــواجِ

وفي البيت الأول يؤكد ابن الخطيب على دور الشعر في تلك العصور، كأهم وسائل الإعلام والتنويه بأعمال السلاطين، حيث أن كل شيء يذهب ما عدا الذكر الجميل فهو الباقي على مر الزمن. وفي الشطر الثاني منه دليل على ذيوع هذا الشعر. أما البيت الثاني فغير خفي ما ظهر فيه من تحضر فكري متأثر بالثقافة الإسلامية، فقد استمد معانيه من القرآن الكريم. من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴿٣﴾ سورة النصر آية ١-٣.

وقال -أيضاً -في ختام إحدى مدائحه: [٢]

بهِ نَظَم اللّهُ الشَّتاتَ فَأَصْبحَتْ ... نُفُوسُ البَرَايا وهْيَ آمِنَةُ السِّرْبِ

فَدَام قَرِيرَ العَيْن في ظِلِّ عِيشَةٍ ... تُنيفُ مَعَالِيه عَلَى رُتَبِ الشُّهْـبِ

وَلاَ بَرحَتْ أَيَّامُهُ وزَمَانُـــــــه ... مَآثُرهَا تُحْيَا بهَا دَوْلَةُ العُـــرْبِ

ونلحظ من خلال البيتين أن ابن الخطيب يلجأ -كثيراً -إلى **الاتجاه السياسي** ومناصرة سلاطين "بني نصر"، والدعاء للسلطان منهم بأن يجازيه الله بأفضل مما قدم لرعيته.[٣]

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٠٢.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ١٢٣
[٣] انظر ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٧١، حيث ختم قصيدته بتأييد السلطان والدعاء له، وهذه الخاتمة تكثر في قصائده المدحية.

وابن الخطيب **يفخر في ختام قصائده بشعره**، وهو أمر لم يتفرد به، وإنما هو تقليد اتبعه بعض الشعراء مثل المتنبي وغيره. إلا أنه يصل بهذا الفخر أحياناً إلى درجة المبالغة والغرور، ومن أمثلة ذلك قوله: [١]

خَلِيليّ إنَّ الشِّعْرَ سِحْرُ وإِنَّني إِذَا شِئْتُما تَحقِيقَهُ بَابِلُ السِّحرِ
ومَا الدُّرُّ إِلاَّ مَـا أَرانِي قَائِلاً فَسَاحِلُهُ نَظْمِي ولُجَّتُهُ فِكْرِي

فهو يرى أن ألفاظه مثل الدرر التي تحتويها البحار، التي تشبه فكره الزاخر بكل أنواع الثقافة والعلوم، التي تغذي هذا الشعر الساحر. ونلاحظ الحضارة العلمية في ذكره (بابل) ومما ارتبط بها من السحر، وكذلك الحضارة المادية في ذكر (الدرّ) وما يحتاجه من النظم.

وقال في ختام إحدى قصائده: [٢]

فَدُونَكها يَصْبُو الحَلِيمُ لِحُسْنِها وتُسْبي عُقُولُ السَّامِعِينَ لَها سَبْيَا
تُصيِّر حُرَّ الشِّعرِ عَبْداً وإنْ يَكُنْ يَحُلُّ مِن الإبْـدَاعِ غَايَتُهُ القُصْيَـا
تُجـرِّرُ ذَيْلَ الزَّهْوِ عِنْدَ "جَرِيـــره" "وَطَائِيِّهِ" تَطْوي، وتُكْنِدُ "كِنْدِيَّا"
وَيَهْتزُّ عِطْفُ الملكِ عِنْدَ سَمَـاعِهَا هِزَّةَ كَـفَيْكَ الحُسَـــامَ اليَمانِيَا
نَتِيجةُ قَلْبٍ مُمْحِـــضٍ لَكَ وُدَّهُ تَبِيدُ اللَّـيالِي وَهْـــيَ بَاقِيةٌ تَحَيا

وتظهر الحضارة في هذه الأبيات في ذكره أقطاب الشعر العربي قبله مثل جرير، وأبو تمام والمتنبي عندما قال (جريره، وطائيه، وكندياً) مما يدل على انتشار الثقافة الأدبية في البيئة الأندلسية. وحتى لو كان معاصراً لهم فإنه – على حد تعبيره – على ثقة من تقدمه عليهم إذ يقول: [٣]

لَوْ جِئْتُ في حَلْبةِ العُرْبِ الّتِي سَبَقتْ مَا كُنْتُ في القَوْمِ إلاَّ حَائزَ السَّبَقِ
وإنْ تَأخَّـــــرَ بِي عَنْ جِيلِهِمْ زَمَنِي فَرُبَّما جَاء مَعْنَى الصُّبْحِ في اللَّحَقِ

كما يظهر اثر التحضر في خواتيم قصائد ابن الخطيب في **الاعتراف بالجميل وتقديم الشكر** لمن أسدى له معروفاً. خاصة وقد تقدم ذكر ما مر به من حوادث وخطوب فكان يحفظ هذه الأيادي التي امتدت لمساعدته. وينوه بفضلها كلما سنحت

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص :٣٧٧ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٧٧ – ٧٧٨ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٩٣ .

فرصة لذلك . ومن الأمثلة على ذلك ذكره لفضل السلطان " أبي سالم المريني " وشكره على ما قدمه من مساعدات للسلطان " محمد الخامس " ولوزيره ابن الخطيب بعد حادثة الانقلاب في غرناطة سنة (٧٦٠هـ) . حيث قال في خاتمتها : [١]

أَمِوْلاَيَ غَاضَتْ فِكْـرَتِي وتَبلَّدتْ ... طِبَاعِي فَلاَ طَبْعٌ يُعينُ ولاَ فِكْـرُ
وَلَـوْلا حَـنانٌ مِنْكَ دَاركْتَنِي بهِ ... وأَحْيِيتَنِي لَمْ تَبْقَ عَيْنٌ ولاَ أَثَـرُ
بَدَأْتَ بِفَضْلٍ لَمْ أَكُـنْ لِعَظِيمِهِ ... بِأَهْلٍ فَحَلَّ اللُّطْفُ وانْفَرجَ الحَصْـرُ
وَطَوَّقْتَنِي النَّعْمَى المضَـاعَفَةَ الَّتِي ... يَقِلُّ عَلَيْها مِنِّي الحَمْدُ والشُّـكْرُ
جَزَاكَ الَّذِي سَنَّى مَقَامَكَ عِصْمَةً ... يُفَكُّ بِهَا عَانٍ ويُنْعَشُ مُضْطَـرُّ
إِذَا نَحْنُ أَثْنَينا عَلَيْكَ بِمدْحَـةٍ ... فَهَيْهَات يُحْصَى الرَّمْلُ أَوْ يُحْصَرُ القَطْرُ

ونلحظ في الأبيات مشاعر الامتنان، وتقدير فضل السلطان عليه، الذي لا يستطيع أن يوفيه حق شكره مهما نظم فيه المدائح، وإن كان قد بالغ حتى بلغ حد التجاوز عندما قال في البيت الثاني " أحييتني " فكيف لهذا السلطان أن يملك لنفسه حياة فضلاً عن أن يهبها لغيره ! وحتى لو كانت هذه اللفظة قُصد بها معنى مجازياً، فإنها غير مقبولة وفيها نبرة خضوع ومبالغة كبيرة . كما نلمح في الأبيات سمات **الأدب الجم في مخاطبة السلطان** وتقديم الشكر له ، وهو أثر من آثار الحضارة التي عاشها ابن الخطيب واكتسبها بفضل خدمته في القصر واتصاله بالأمراء وأهل السلطان. وربما كان ختام القصيدة بهذا الأمر أفضل من ذكره قبله، لأن الختام هو آخر ما يبقى في ذهن السامع من القصيدة فكان ذكره هذه المواقف الإنسانية التي قدمها السلطان أدعى وأبلغ في تقديره والإعجاب به، وهذه هي أعماله.

ولم يقتصر الثناء والشكر للسلطان على هذه القصيدة فقط، بل نوه بهذه الأيادي في مواضع أخرى، مثل قوله: [٢]

أَمَوْلاَيَ حُبِّي فِي عُلاَكَ وَسِيلَتِـي ... وَلُطْفُكَ بِي دَأْباً بِحَمْدِكَ أَغْرانِـي
أَيادِيكَ لاَ أَنْسَى عَلى بُعْدِ المـدَى ... نَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ نِسْيَـانِ
فَلاَ جَحْدَ مَا خَوَّلْتَنِي مِنْ سَـجِيَّتِي ... ولاَ كُفْرَ نُعْمَاكَ العَمِيمَة مِنْ شَانِي
وَمَهْمَا تَعجَّلْتُ الحُقُوقَ لأَهْلِهَـا ... فَإِنَّكَ مَوْلاَيَ الحَقِيقُ وَسُلْطَانِـي
وَرُكْنِي الَّذِي لمَّا نَبَا بي مَنْزِلِـي ... أَجَابَ نِدائِي بِالْقَبُولِ وَآوانِـي

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤١٧-٤١٨ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٩٢ = ٥٩٣ .

إنه الاعتراف بالجميل، والثناء عليه واجب يراه الشاعر لزاماً عليه. لأن كفر النعمة وجحودها ليس من عاداته.

وقد وضع النقاد القدامى شروطاً لحسن انتهاء القصيدة منها: أن يكون البيت الأخير في القصيدة أجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها.[١] والملاحظ على ابن الخطيب هو اهتمامه بختام القصيدة مثل مطلعها . وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع لأنه منقطع الكلام وخاتمته ، فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس (ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو ، وترميدٍ بعد إنضاج).[٢]

كما نلحظ في شعر ابن الخطيب لونا غير جديد وإن كان للتحضر أثر فيه، مثل قوله في ختام إحدى القصائد: [٣]

إِذَا اهْتزَّ فِي رَوْضِ المهَارِقِ غُصْنُهُ تَسَاقطَ مَنْظُومُ البَيانِ ومَنْثُورُ
تَخَالُ صَباحَ الطِّرْسِ يُرْقَمُ بالدُّجَى ويُرَقَشُ بالمِسْكِ المُفَتَّقِ كَافُورُ

لقد آثر ابن الخطيب أن يختم قصيدته في مدح أحد الأدباء بهذا التشبيه المستمد من بيئة **العلم والفكر** حيث صوره بالدَّوح المثمر بألوان البيان من الشعر والنثر، ويظهر في هذا القول التأثر بالمعاني القرآنية[٤]، كما صور الطِّرس الذي يكتب عليه بخطه الجميل أعذب الكلام وأجمله، ومما يزيد هذه الصورة حسناً جمعه بين المعاني المتضادة في قوله (صباح الطرس والدجى) مما يوحي بتمكّن هذا الممدوح من صنعته وإبداعه فيها. فهو لم يتمكن من الإجادة فقط وإنما وصل إلى مرتبة الإبداع ، كما يدل على ذلك قوله : " يرقش " وهذا البيت لا يوحي بأنه ختام للقصيدة، لذلك فإن السامع يتوقع أن يواصل الشاعر وصفه، إلا أنه لم يقم بذلك وإنما ترك نهاية القصيدة مفتوحة، ويبدو أنه ترك حرية الخيال للقارئ ليضع بفكره ما يمكن أن يكون ختاماً لهذا الأمر.

والحق أن هذا اللون من الخواتيم وهي **الخاتمة المبتورة أو الخاتمة المقطوعة** ليس لها قاعدة، وقد فضلها ابن رشيق في قوله: (ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها

---

[١] انظر: الحسن بن عبد الله "أبا هلال العسكري": كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص ٤٦٤، وما بعدها.
[٢] حازم القرطاجي : منهاج البلغاء ، ص : ٢٨٥ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٠٣ .
[٤] اقتبسه من قوله تعالى ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ سورة مريم ، آية: ٢٥ .

والنفس بها متعلقة، وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة. كل ذلك رغبة في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة).[١] ثم يستشهد ابن رشيق بختام معلقة أمرئ القيس المفتوحة وفضلها على باقي المعلقات. [٢]

إلا أن هذه الطريقة في الختام لم يستعملها ابن الخطيب إلا نادراً، وهي لا تزيد على بيت واحدٍ أو بيتين كما في المثال السابق.

والتحضر في الخاتمة يختلف عن دراسة الخاتمة كجزء من بناء القصيدة عند الشاعر، وقد ظهر التحضر في خواتيم ابن الخطيب في المظاهر التي رصدها البحث وهي: أن قصائده في مديح السلاطين فيها حضارة إسلامية وختم بعضها بالدعاء للمدوح والتفاخر بصدق قوله، وبنظمه الساحر الذي فاق به غيره من الشعراء، حتى المتقدمين منهم، كذلك الاعتراف بالجميل، وشكر ذوي الفضل، وأخيراً الخاتمة التي نبذت القاعدة وأضحت خاتمة مفتوحة.

وفي كل ما تقدم من نماذج نلحظ اهتمام ابن الخطيب بتنميق أسلوبه، بتجنب ما وعر من اللفظ، وما خشن من الكلم، وما نفر من المفردات. وما عقد من العبارات، فجاءت طيّعة لينة ، رقيقة متحضرة .

ولا يتوقف الأمر في بناء القصيدة عند ابن الخطيب على المقدمة، والخاتمة فقد رصد البحث بعض الظواهر الفنية الأخرى في قضية بناء القصيدة تميل بها إلى التحضر أو التجديد.

إن **شكل القصيدة** نفسها وميلها إلى المقطوعة أحياناً، والتزامه بالقصيدة الكاملة في أغراض بعينها، والمقطعات في أغراض أخرى أمر يدل على وعي الشاعر بأمور صنعته، ويدل أيضاً على تمكنه منها، وبراعته فيها.

ولقد وضع بعض النقاد حدا للقصيدة فهي تبنى من سبعة أبيات، وعند البعض من عشرة أبيات[٣]. وليس للقصيدة فضل على المقطوعة أو العكس إلا بحسب ما يستلزمه المقام . فعندما يقف ابن الخطيب في المناسبات الرسمية والمحافل ، فإنه يعمد إلى القصائد ويطيل فيها – كما سبقت الإشارة لذلك – فتمتد المدائح امتداداً يعود إلى

---

[١] ابن رشيق : العمدة : ١ /٣٨٢ .
[٢] انظر : ابن رشيق : العمدة : ١/٣٨٢ – ٣٨٣ .
[٣] انظر : ابن رشيق : العمدة : ١/ ٣١٤ – ٣١٥ .

استرسال الشاعر في مقدماته ، وتفريع – توليد – معاني المدح بعدها [١] أما في غير المدائح الرسمية فتميل القصيدة أحياناً إلى شكل المقطوعة ، ولا تأخذ قالب القصائد الكاملة كقوله يصف **طاق الماء** في القصر الملكي:[٢]

يَا صَانِعي للّه مَا أَحْكَمْتَهُ فَلأَنْتَ بَيْنَ الصَّانِعينَ رَئِيسُ
أَحْكَمْتَ تَاجِي يَوْمَ صُغْتَ رُقُوَشهُ فَصَبَتْ إِليْهِ مَفَارِقٌ وَرُؤوسُ
وأَقَمْتَ فِي مِحْرَابِهِ فَكَأَنَّهُ مُجْلىً إِنَاءُ الماءِ فِيهِ عَرُوسُ

فهذه المقطوعة مكونة من ثلاثة أبيات نظمها على لسان هذا الطاق، وهو يقدم الشكر لصانعه الذي أبدعه . ويشهد له برئاسة هذا الفن بحيث ظهر هذا الطاق المنقوش المزين بأجمل منظر، وكأن إناء الماء فيه عروس على منصتها . وهو وصف لا يخلو من الطرافة كونه جاء على لسان الطاق، إلى جانب أنه يدل بوضوح على الترف والحضارة في هذا المجتمع وازدهار العمران وزخرفته بحيث شملت جميع مرافق القصر حتى الأشياء الصغيرة فيه. لذلك فإن هذا المقام – خاصة وصف الأشياء الصغيرة - لا يحتمل الإطالة، فقد وفق الشاعر في وصفه، إلى جانب أنه نُظم أساساً لينقش على هذا الطاق، وذلك يجعل المقطوعة الشكل الأنسب لهذا الغرض .

وعندما نظر ابن الخطيب إلى رمانة راقه منظرها، نظم فيها قوله:[٣]

رُمَّانةٌ رَاقَ مِنْهَا مَنْظَرٌ عَجَبُ تُرِيكَ صُورَتُهَا إِبْدَاعَ بَارِيهَا
كَأَنَّما حَبَّها دُرٌّ، وظَاهِرُهَا حُقٌّ، وَمِن شَحْمِهَا قُطْنٌ يُوارِيها

لقد جاء الوصف في بيتين وهو لا يحتمل أكثر من ذلك حيث استوفى التشبيه جميع مكونات هذه الفاكهة، فحبها در رائع، وشحمها من الداخل مثل القطن الذي يحفظ هذه الدرة ويصونها من اللمس، والخدش، وقشرتها مثل الإناء "الحق" الذي اشتمل عليها ولا شك بأنها صورة تسري فيها روح الحضارة.

وكذلك عمد إلى شكل المقطوعة في وصف بلده غرناطة:[٤]

بَلَدٌ يَحُفُّ بِهِ الرِّياضُ كَأَنَّهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ والرِّياضُ عِذَارُهُ
وكَأَنَّما وَادِيهِ مِعْصَمُ غَادَةٍ وَمِن الجُسُورِ المحْكَمَات سِوَارُهُ

---

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر ، المدح التالية ص : ١٢٠ – ١٢٨ – ٢٢٤ – ٢٥٠ – ٣٠٠ – ٣٤٦ – ٤٩٥ – ٥٤٢ – ٥٨٨ – ٦٤٧ – ٦٩٠ - ٧٢٢
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧١٩ .
(٣) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٥٢ .
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٢٥ .

وفي هذا الوصف يوضح جمال الطبيعة، الطبيعية والصناعية التي حباها الله تعالى لهذه الأرض، وأحسن الإنسان استغلال جمالها. فبدت كوجه جميل والرياض عذار له. ثم يصور في البيت الثاني وادي شنيل فرع الوادي الكبير الذي يخترق غرناطة والجسور المحكمة التي بنيت عليه بمعصم الغادة المترفة الناعمة التي امتلأت نضارةً ورقة، وقد زينته بالأساور. وهي تشبيهات في مجملها حضارية.

واستقراء ديوان ابن الخطيب يبين أن المقطوعات قد تضمنت مختلف الموضوعات الشعرية من مدح، وهجاء، ورثاء، ووعظ، وغزل، ووصف، إلا أن أكثر الموضوعات ظهوراً فيها هو الوصف بشتى أنواعه. وهو في الغالب يَدور حول أوصاف حضارية تتعلق بالعمران، وبعض عناصر الطبيعة الصامتة والمتحركة، كما أن بعض هذه المقطوعات كلف بنظمها لتنقش أو تكتب على بعض الملابس الملكية[١] ، أو حمالة السيف [٢] أو بيضة السلاح[٣] أو بعض أثاث القصر، كالسرير[٤]، والبرادة[٥]، والمروحة[٦]، وسفرة الطعام [٧] ... وغير ذلك مما يدل على الغنى والترف، حيث أن النقش على هذه الأشياء وغيرها يؤكد الرقي الحضاري الذي نعموا به ويوضح مدى الترف والبذخ الذي عم المجتمع وقتذاك .

وسار ابن الخطيب في بعض شعره ناهجاً **المنهج العلمي** في ترتيب الأفكار، وهو أشبه بالأساليب العلمية التي توضح الحقائق والنظريات، وتفسرها، وتبررها، وتعالجها وتفندها، وتبحث لها عن الدليل ، وتؤكدها بالحجة والبرهان العقلي، والأمثلة على ذلك كثيرة في شعره، ومنها رد ابن الخطيب على السلطان عندما أرسل إليه رسالة يذكر فيها التشوق إلى قرب اللقاء، فقال : [٨]

تَخَالفَ جِنْسُ الشُّوقِ والحُكْمُ وَاحِدُ ... وكُلٌّ محبٌّ في الكَمَالِ وَمُشْتاقُ
فَمَعْنَى اشْتِيَاق الأَرْضِ لِلْغَيثِ حَاجَةً ... ومَعْنَى اشتياق الغيث للأرض إشفاقُ

---

[١] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢١٤ ، ٣٣١ .
[٢] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٣٠ – ٣٨٤ – ٥١٨ .
[٣] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٣٦ – ٧٤٩ – ٧٥٠ .
[٤] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٤٢ – ٤٠٩ – ٤١٠ .
[٥] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٢٠ – ٥٦٣ .
[٦] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٨٥ .
[٧] انظر ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٣٤ – ٥٥٤ .
[٨] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٧١٦ .

وفي هذه المقطوعة يؤكد ابن الخطيب على الود المتبادل بينه وبين سلطانه، ويقرر تشوق كل منها إلى لقاء الآخر. وبرغم هذه المكانة التي يحتلها الشاعر في نفس سلطانه إلا أنه يحسن الرد، ويعرف مقامه، فهو الأدنى والسلطان في المقام الأعلى ولا يمكن أن تتساوى المرتبة، فالأرض المجدبة تشتاق للمطر لأنها بحاجة إليه. أما المطر فلا حاجة له في الأرض إلا أنه يقدر مدى احتياجها له فيرق ويشفق عليها، إذ لا حياة لها بدونه! وهذا هو شأن ابن الخطيب مع سلطانه برغم اتفاقهما في الشوق إلا أن لكلٍ منهما وضعه الخاص الذي يحدد مدى حاجته للآخر.

فابن الخطيب يقرر أمراً وهو " التشوق " ثم يفصل ويوضح الأمر بعد ذلك باستخدام هذا التشبيه الذي يكشف عن العلاقة بينهما بأسلوب أقرب إلى الأساليب العلمية حيث يعرض أمراً ثم يبرهن عليه. ولا شك أن هذا الأسلوب في الرد هو نتيجة للرقي الحضاري الذي ميز هذا المجتمع.

وقال في مقدمة غزلية : [١]

وَشِيَمةُ النَّفْسِ إِنْ أَخَفْتَ سَرِيرَتَهـــا ... بَدَتْ شَوَاهِدُهَا يَوْماً عَلَى الجَسَدِ
قَالُوا الهَوى بَعْدَ بُعْدِ الدَّارِ مُنْتَكِثٌ ... فَقُلْتُ: هَـذَا قِيَاسٌ غَيْرُ مُطَّـــرِدِ
سَلُو عَنِ الحُبِّ مَنْ قَلْبِي مُجَرِّبَـــهُ ... فَمَا المقَلِّدُ يَوْماً مِثْل مُجْتَهِـــــدِ

ويظهر في الأبيات سمة التفكير المنطقي الذي يقرر عدم التسليم بأن بعد ديار الأحبة عن بعضهم سبب لنسيان الحب الذي يجمعهما. إذ من الممكن أن يكون سبباً في سلوان بعضهم إلا أنه حكم لا يعمم على جميع المحبين. ويبرهن على صدق ما يقول بحاله، فإنه برغم بعد ديار أحبته إلا أن الحب الصادق يؤجج لواعج الشوق بقلبه ولا يمكن أن ينساهم، واعتبر هذا الحكم من قبيل القياس الغير مطرد[٢] وهو تعليل مستقى من بيئة أهل الحديث.

ويؤكد ابن الخطيب أن المقاييس لا تطرد في كل الأمور عندما قال: [٣]

أَلاَ نَفَسٌ يَارِيُح مِنْ جَانِبِ الحِمَى ... يُنَفِّسُ مِنْ نَارِ الجَوَى بَعْضَ تَنْفِيسِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٧٥ .
[٢] القياس عند أهل الأصول هو ما اجتمعت فيه أربعة أركان هي : الأصل والفرع والعلة ، والجامع ، فإذا اختل ركن منها لا يصح القياس ومن ثم يكون غير مطرد ، انظر : الجرجاني : التعريفات ، ص : ١٤٧ – ١٤٨ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٠ .

ويَا قَلْبُ لاَ تُلْقِ السِّـــلاَحَ فَرُبَّمَا تَعذَّرَ فِي الدَّهْرِ اطِّرَادُ المقَاييِس

وقال في ختام القصيدة نفسها : [١]

لَئِنْ أَنْكَرتْ شَكْلِي فَفَضْلِيَ وَاضِحٌ وَهْل جَائزٌ في العَقْلِ إنْكَارُ مَحْسُوسِ؟

إن اشتهار أفعاله وفضله بين الناس إنما يؤكد على علو مكانته، وحتى من لا يعرف شكله فإنه لا يمكن أن ينكر فضله، كما أن الإنسان لا يمكن أن ينكر وجود شيء محسوس!! وذلك أيضا من الأساليب التي ظهرت في الشعر نتيجة التطور الفكري والحضاري في المجتمع.

ومن هذا القبيل أيضاً قوله في ختام مدحه للسلطان:[٢]

رَضِيتَ ومَنْ لَمْ يَرْضَ باللّهِ حَاكِماً ضَلاَلاً فللّه الرِّضَا ولَهُ السُّخْـــطُ

حَياتُكَ للإِسْلاَمِ شَرْطُ حَيَـــــاتِهِ ولاَ يُوجَدُ المشْرُوطُ إِنْ عُدِمَ الشَّرْطُ

فهذا السلطان سار في حكمه على هدى الشريعة الإسلامية، وارتباط هذا المنهج في الحكم بهذا السلطان، ومدحه به يدل على أنه كان مغفلاً ومتجاوزاً قبله. فإذن تطبيق الشريعة في الحكم قد ارتبط به. وقد استخدم لتوضيح هذا المعنى بعض مصطلحات الأصوليين، وهي انتفاء الشيء إذا انعدم وجود شرطه.[٣]

كما نلحظ الطريقة ذاتها في عرض الرأي والاستدلال عليه. بأسلوب منطقي في حديثه عن كتائب الجيش ووجوب عرضها، وإن ذلك من دواعي النصر بإذن الله حيث إن هذا العرض يكشف عن عدد الجيش ومدى تأهب أفراده، ومقدار عدد الحرب، وآلاتها معهم. وغير ذلك من متطلبات الحرب، فيقول:[٤]

حَتَّى إِذَا فَرضَ الجلاَدُ جِدَالَهـا وَرأَيْتَ رِيحَ النَّصْرِ ذَاتُ هُبُوبِ

قَدَّمْتَ سَالِبةَ العَدُوِّ وبَعْـــدَهـا أُخْرى لِعزِّ النَّصْرِ ذَاتُ وُجُوبِ

وإِذَا تَوسَّطَ فَصْلُ سَيْفِكَ عِنْدَهَا جُزْأَي قِياسِك فُزْتَ بِالمطْلُوبِ

ويبدو من الأبيات وصف الحرب التي قاد فيها السلطان جيشه ضد النصارى حتى إذا بدأت المعركة واستعر أوراها تقدمت إحدى الكتائب وبدأت تقاتل حتى توهن قوة الأعداء وهي التي سماها (سالبة العدو) ثم تنسحب لتتقدم كتيبة أخرى لتجني هذا النصر بالقضاء عليهم بعدما أنهكهم القتال، وهي التي عبر عنها بقوله: (أخرى لعز النصر ذات وجوب) وذلك

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣١ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٦٢ .
[٣] انظر : الجرجاني : التعريفات ، ص : ١٧٢ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٢ .

باختراق صفوفهم وشق الجيش إلى نصفين وذلك يعني تبدده وانهزامه وهذا هو المقصود بقوله (إذا توسط فصل سيفك فزت بالمطلوب) أي النصر المؤزر وهذه الأبيات تكشف عن طريقة الحرب وتدل على أنها كانت حرباً منظمة، وتسير وفق خطط مرسومة، وقد استعمل الشاعر في الأبيات الألفاظ الفلسفية – المنطقية – لتأدية هذا المعنى، وذلك في قوله (جدالها، سالبة العدو، وجوب، جزأي قياسك).

وفي هذا النموذج وما سبقه من أمثلة نلحظ أن استعمال ابن الخطيب لهذه الألفاظ والمصطلحات كان موفقاً، بحيث ساعد في توضيح المعنى المراد، كما جاء متناسباً مع سياق الكلام ولم يقحم فيه إقحاماً. ولعل ذلك يرجع إلى أن ابن الخطيب ذاته الذي كان عالماً وأديباً وعلى علمٍ تام بطرق إحكام صنعته كشاعر، كما أن استعمال مثل هذه الأساليب يدل على الرقي الحضاري والازدهار الفكري والعلمي في مملكة غرناطة.

نخلص مما سبق أن التحضر في بناء قصيدة ابن الخطيب قد ظهر في كل أجزاء القصيدة من مقدمة وخاتمة، كما أنه تجلى في وعي الشاعر الفكري واستعماله للقصائد والمقطوعات في أغراض بعينها. وكانت القصائد غالباً تطول في أغراض المدح أو المحافل الرسمية، وتقصر وتأتي على شكل المقطوعة في الأغراض التي تتطلب الوصف كما فُصّل سابقاً. إلى جانب أنه قد ظهر بوضوح إتباع ابن الخطيب أحياناً للأساليب العلمية والفكرية المنطقية في عرض بعض المواقف والآراء وتعليلها . وذلك أثر من آثار التحضر الفكري والتقدم العلمي الذي انتشر في المجتمع وظهر جلياً في معاني الشعر وألفاظه.

❖ ❖ ❖

المبحث الثاني

الأثر الحضاري في الألفاظ والتراكيب

الأثر الحضاري في الألفاظ والتراكيب

لا شك أن الارتباط بين الشعر واللغة وثيق الصّلة فاللغة هي مادة الشعر الأولية التي يؤدي بها الشعراء ما انطبع في نفوسهم وقلوبهم من إحساسات ومشاعر إزاء الكون والحياة الإنسانية من حولهم ، و (لعل الاستخدام الشعري للغة هو أقرب الاستخدامات من طبيعتها)[١]. على أن هذه المهمة لم تكن في يوم من الأيام يسيرة أو سهلة ، لذلك فإن الشاعر المبدع هو من يستطيع أن يستغل إمكانات تلك اللغة ، ويسخرها لبناء القصيدة لديه باستخدام المناسب من الكلمات المختلفة ، والتراكيب المتنوعة ، بوصفها تمثل تشكيلاً لغوياً للعمل الشعري . ومن هنا تأتي أهمية دراسة التشكيل اللغوي في شعر ابن الخطيب للتعرف على مدى تأثره بالحضارة والترف الذي عم المجتمع في القرن الثامن الهجري . وذلك من خلال القوالب الفنية التي أفرغ فيها مضامينه الحضارية . وهي قوالب الألفاظ ، وقوالب العبارات والتراكيب .

١ -الألفاظ :

إن لكل فن من الفنون طريقة يؤدى بها ، ومادة يتشكل منها ، والشعر بوصفه فرعاً كبيراً ينتمي إلى شجرة الفنون الجميلة[٢] فإن مادته هي الألفاظ، وهي أهم أدوات الشاعر، ووسيلته العظمى في ترجمة مشاعره وأفكاره إلى كلمات مقروءة .

ولقد تميزت الألفاظ عند ابن الخطيب بسمات فنية معينة منها **ملاءمتها للغرض** الذي ينظم فيه القصيدة ، فعندما يشيد ابن الخطيب بجهاد سلاطين بني نصر في سبيل الله - مثلاً – تحتل ألفاظ الفخامة مكانها المناسب في أبياته مثل قوله :[٣]

أزْمَعْتَ في اللّه الجهادَ وطالمَـــا ... أرْضَى الإلاهَ جَهادُكَ المقبُـــولُ
وأنفْتَ للدِّينِ الحَنيفِ وأهْلـــهِ ... منْ أنْ يطيحَ نجيعُـــه المطْلولُ [٤]
وقَدَحْتَ زنْدَ عزيمةٍ نصريّـــةٍ ... تَركتْ دِيارَ الكُفْر، وهيَ طُلُولُ
ورجَعْتَ والنَّصْرُ العَزيزُ مصُاحبُهُ ... لَكَ والملائِكة الكِرامُ قبيـــلُ
في عسْكرٍ لجبٍ كأنّ جمُوعهُ ... فَوْقَ الوِهَادِ ، إذا زحَفْنَ سُيولُ

---

[١] د. مصطفى مندور : اللغة والحضارة ، طبعة منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ، ١٩٧٤م ، ص : ٨٩.
[٢] انظر : د. شوقي ضيف: في النقد الأدبي ، الطبعة التاسعة ، دار المعارف ، القاهرة ، (د. ت) ، ص : ٨٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٨٧ .
[٤] يطيح : يفنى ويهلك. نجيعه : النجيع هو الدم ، وقيل هو دم الجوف خاصة .

إن ظروف الأندلس الصعبة، وإحاطة الأعداء النصارى بها دفعت ابن الخطيب إلى التأكيد على المعاني الإسلامية في مدح السلاطين مثل القيام بالجهاد في سبيل الله – وذلك بتأثير الحضارة الإسلامية –لذلك نلحظ أن ألفاظاً مثل (الجهاد ، أنفت ، يطيح ، نجيعه ، قدحت، زند، عزيمة، النصر، العزيز، عسكر، لجب، زحفن ، سيول) فيها من القوة والفخامة ما يتلاءم مع مقام الجهاد والحرب وبالرغم من أن مضمون الأبيات يدور في فلك الحضارة الإسلامية إلا أن الألفاظ جاءت قوية رصينة وفي الوقت ذاته بعيدةً عن الغريب فكانت مألوفة.

أما عندما يعبر ابن الخطيب عن مشاعره في الغزل مثلاً، أو عندما يرسم لوحة للطبيعة في بلاده الجميلة، فإن ألفاظه تختلف اختلافاً بيناً عنها في الموقف السابق، ولنتأمل قوله[1]:

يَابانةً تلْوي معاطفهـــا الصَّبَـا لِلحُسْن بِينَ حَدائـِقٍ وريَـِاضِ
غَمَزَاتُ طَرْفِكَ في القُلُوبِ تخالها مثلَ السِّهامِ مَضَتْ إلى الأغْراضِ
ولَّدْت أشْكَالَ الجَمـالِ بوجنـةٍ ألّفْتَ فِيهَا حُمْـــرةً بِبيـَاضِ

إن أكثر ما يشد في هذه الأبيات هي تلك العذوبة والرقة اللتان تفيضان منها، فقد جاءت الألفاظ رقيقة كقوله (بانةً ، الصَّبَا ، الحُسْن ، حدائق ، رياض ، غمزات ، الجمال ، وجنة ، حمرة ، بياض) مما يجعلها مناسبة لغرض الأبيات وهو الغزل الذي يستدعي الرقيق السهل من الألفاظ [2]، كما أن التعبير عن المظاهر الحضارية يستدعي أيضاً ألفاظاً رقيقة لينة تنم عن الحياة المترفة الناعمة، حيث صور محبوبته الحضرية الناعمة التي يكاد نسيم الصبا يلوي معاطفها، كأنها غصن بان وسط حديقة غناء، فقد اجتمع أمام ناظريه جمال المحبوبة وجمال المكان ، والنفس متى عشقت الجمال مالت إلى فهمه، وانغمست في إدراك أسرار الطبيعة وما فيها من روعة وإبداع مما يستلزم منه التعبير عن هذا الجمال بما يلائمه من ألفاظ.

ولقد وفق الشاعر في اختياره الدقيق لألفاظه الموحية المعبرة فمثلاً في قوله " تلوي معاطفها الصَّبَا " يوحي بمدى اللين والرقة التي تجلبها الحضارة حيث أن اللوي يوحي

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٣٩ .
[2] انظر : أبا هلال العسكري . كتاب الصناعتين ، ص : ١٣٥ و/ أحمد الشايب : الأسلوب . الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،١٩٩٥، ص:٧٣وما بعدها .

بقوة الشيء المراد لويه وصلابته ، فإذا رأينا ما الذي قام لذلك . نجدها رياح الصَّبا على رقتها مما يجعل السامع يتخيل مدى رقة ذلك الغصن فكان ذلك أبلغ في التعبير من قوله " تثني " مثلاً . ولإتمام هذا المعنى الرقيق يذكر مكان هذا الغصن اللّدِن الناعم وهو الحدائق والرياض وهي أماكن طالما شغفت الشعراء وغيرهم بجمالها .

وفي قوله " ولّدْت " في البيت الأخير يبدو الشاعر متأثراً بأساليب أهل الكلام ، فاستغل هذه المعرفة لخدمة معانيه والتعبير عنها بدقة ، حيث آثر هذه اللفظة على غيرها يمكن أن تحل محلها مثل "جمّعت " إلا أنها لا تعطي هذا المعنى الذي تنقله كلمت " ولّدت " بما احتوته من حرف اللام المضعف ، حيث تدل على تميز المحبوبة بكل أشكال الجمال ، الذي لا يشوبه نقص، بهذا الخد الذي اجتمع فيه البياض ، والحمرة ، فكان ذلك هو سر حسنه بل توحي كذلك باكتشاف المزيد من الحسن كلما تأمل الناظر فيها مع أنها جزء من الوجه فكيف إذا تأمل الوجه كله! ومما يدعم هذا الإيحاء قوله أشكال الجمال حيث جاء بالجمع ليدل على اكتشاف متعدد وليس شيئاً واحداً، ويؤكد على ذلك أيضاً بقوله " ألفت " إذا لا يتم التأليف أو المزج إلا بين أشياء متعددة، ليتخيل السامع مدى فتنة وجمال هذه المعشوقة.

ولا شك أن تلك الدقة في اختيار الألفاظ تعود إلى براعة الشاعر وقدرته الفنية على الاختيار، وذلك أمر ليس بالسّهل بل قد يكون أصعب من جمع الألفاظ وتأليف النظم[١]، فتخير الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام واستواءه.[٢]

وبذلك نلحظ أن اللفظ يختلف باختلاف المعنى حتى أن بعض النقاد يراهما بمثابة الروح والجسد ، فاللفظ جسد روحه المعنى، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته،[٣] مما يؤكد أن المضمون الفكري والقالب التعبيري والمحتوى يتحكم في انتقاء اللفظ واختياره، ولا نعني باللفظ أو اللغة في هذا البحث تلك الألفاظ المجردة، ذات الدلالة الفردية، أو السطحية، بل نعني باللغة هنا اللغة الشعرية الخاصة التي توحي بإيحاءات جمالية خاصة، وتنبثق منها معانٍ، ودلالات غير مألوفة .

---

[١] انظر . أبا هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ٢٩.
[٢] انظر . أبا هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ١٤٧.
[٣] انظر : ابن رشيق : العمدة : ٢١٧/١ .

ولقد كان تطور المجتمع الغرناطي ورقيه الحضاري ذا أثر واضح في لغة الشعر التي حققت تطوراً ملحوظاً لتساير هذا التقدم وذلك يبدو طبيعيا فاللغة لا تعيش في عزلةٍ عن الأمة بل تتأثر بحضارتها " ونظمها وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها .. فكلما اتسعت حضارة الأمة ورقى تفكيرها ، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها وتعددت فيها فنون القول ودقت معاني مفرداتها القديمة ودخلت فيها مفردات أخرى .. " [١] .

وقد لاحظ النقاد قديماً ما أصاب لغة الشعر من تطور بسبب الحضارة، يقول صاحب الوساطة : "فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيءٍ ذي أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعاً، وألطفها من القلب موقعاً .. وترققوا ما أمكن وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ، فصارت إذا فيست بذلك الكلام الأول تبين فيها اللين ... " [٢] كما ذهب "أبو الفرج الاصفهاني" إلى سبب آخر علل به الرقة التي أصابت لغة الشعر ، فعنده أن رقة المعاني سواء في الخمر أو الغزل أو الوصف ، هي السبب الذي من أجله ترق الألفاظ وتصفو، [٣] أي أنه يقسم الألفاظ على رتب المعاني .

ومن السمات الفنية المميزة الألفاظ ابن الخطيب أيضاً **رقة الألفاظ وسهولتها** كما ظهر في المثال السابق ولا تعني الرقة في الألفاظ الضعف أو الركاكة ، وإنما الرقيق ، كما وضحه ابن رشيق، [٤] وابن الأثير من بعده هو: " اللطيف الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس". [٥] ومن الشواهد الحضارية على هذه السمة الفنية قول ابن الخطيب متغزلاً: [٦]

يا مَنْ تَشَابهَ مِنهُ في ضُعفِ القُوَى خَصْرٌ وطَرْفٌ سَاحِرٌ، وعُهُودُ
جِسْمي ولحَظُكَ في السِّقَام تَشَارَكَا واللّهُ يَعْلَمُ أيُّنَا المفْؤُودُ؟
تَهفُو الصَّبَا سَحَراً، فاسْتَجفى الصَّبَا وأغص بالسلسالِ وهو بَرُودُ [٧]

---

[١] د. علي عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع ، الطبعة الرابعة ، شركة ومكتبات عكاظ ، جده ، ١٩٨٣م ، ص : ١٣ .
[٢] علي بن عبد العزيز " القاضي الجرجاني " : الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص : ٢١-٢٢ .
[٣] انظر : أبا فرج الأصفهاني : الأغاني ، ٢٧٤/١٠.
[٤] ابن رشيق . العمدة : ٢٢٠/١ وما بعدها .
[٥] ابن الأثير : المثل السائر : ١/ ١٧٢ – ١٧٣ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٨ .
[٧] السلسال : الماء العذب السلس السهل في الحلق .

نلحظ في الأبيات السابقة بوضوح رقة الألفاظ ورشاقتها ، فقد جاءت مناسبة لغرض القصيدة متسقة النظام في تركيبها حيث أجمل في البيت الأول مستخدماً التشبيه مفاتن هذه المعشوقة الذي تشارك في الضعف خصرها ، وطرفها وكليهما محسوس كذلك عهودها وهو شيء معنوي فكلها أشياء جمعها الضعف، كما أنه يدل على إخلافها المتكرر لعهودها مما يسبب معاناته بدليل أنه جاء بها بصيغة الجمع، ويمضي بعد ذلك في تأكيد هذه المحبة وتوضيح أثرها عليه وهو السقم الذي أصابه، وقد شبه حالة جسمه السقيم الواهن بطرف محبوبته السقيم – أي أنها ناعسة الطرف – وشتان ما بين السقمين إذ أن فتور عينيها كان سبب وهن جسمه حتى أنه أصبح لا يجد لذة في هذه الحياة ولا جمالاً إلا منسوباً إليها ، فأصبح يستجفي الصَّبَا على رقتها ويغص بالماء العذب الزلال.

وكان جرس الألفاظ وإيحاءاتها في هذه الأبيات سبباً في رقتها ورشاقتها ، حيث كان المد في قوله، (تشابه، القوى، ساحر، عهود، جسمي، السقام، تشاركاً، أيُّنا، المفؤود، الصبا، سحرا، برود) قد أعطى هذه الألفاظ إيحاءاً خاصاً مناسباً للأبيات حيث كان في البيتين الأول والثاني ملائماً لنغمة الشكوى والأمر نفسه في البيت الثالث إلا أنه يوحي بجانب ذلك بتأثير أشد لهذا الهوى حيث إنه أصبح لا يحتمل حتى أرق الأشياء وألذها. مما قوى الإحساس بالألم والمعاناة. كما أنه عمد إلى استعمال بعض الحروف مستغلاً جرسها وإيقاعها الموسيقي ليدفع بإيحاءات دقيقة في عروق الكلمات بحيث تنقل للسامع هذه الإيحاءات مثل استخدامه لأحرف الصفير [1] في (خصر، ساحر، جسمي، السقام، الصبا، سحراً، السلسال) الذي من شأنه أن يبث في الأبيات نغماً موسيقياً عذبا يوحي برقة الألفاظ وتأكيدها على معنى الجمال والمعاناة. وقد استعمل حرف السين أكثر من الصاد. كما أن تكرار السين في كلمة، " السلسال " يوحي أكثر بعذوبة الماء ورقته ، وقد قوي هذا المعنى بتوالى لامين مجهورتين [2] في الكلمة ذاتها.

---

[1] أحرف الصفير هي : السين والزاي والصاد ، وقد سميت بذلك لأن مجراها يضيق جداً عند مخرجها ، فتحدث عند النطق بها صفيراً عالياً لا تشاركها فيه غيرها من الحروف . انظر : د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، الطبعة الخامسة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص : ٧٤ .

[2] اللام صوت متوسط بين الرخاوة والشدة ، وهو صوت مجهور انظر : محمد بن الحسن "الرضي الاستراباذي" : شرح شافية ابن الحاجب ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٥ : ٣/ ٢٦٠.د. إبراهيم أنيس : الأصوات للغوية، ص : ٦٤

كما ظهرت رقة ألفاظ ابن الخطيب في بعض مدائحه كقوله [١]

مَقامُكَ مَرْفوعٌ علَى عَمَدِ السَّعْـــدِ وحَمْدُكَ مَسْطُورٌ علَى صُحُفِ المَجْـدِ
وحُبُّكَ أشْهَى في القُلُوبِ من المنُـــى وذكْرُك أحْلَى في الشِّفَاهِ منَ الشَّهـدِ
كَرُمْتَ إلى أَنْ كَادَ يَسأَلُكَ الحيَا وصُلْتَ إلى أَنْ هَابَكَ السَّيفُ في الغِمدِ
وَجمَّعَ فيك اللّهُ مُفْترِقَ العـــُـــلَـــى وشَتَّى المعَانِي الغُرِّ في عَلَمٍ فَـــــــرْدِ

ونلحظ في هذه الأبيات أن ألفاظه منسابة برفق مستوحاة من حياة متحضرة فحمد السلطان مسطور على صحف المجد ، كريماً بلا حد ، شجاعا لا يهاب، حتى كاد الغيث أن يسأله من كرمه ، وهابه السيف وهو في غمده ، ليس ذلك فحسب بل يخيل للشاعر أن اللّه تعالى قد جمع كل الصفات الرفيعة في شخص ممدوحه ، وهذه المعاني وإن كانت لا تخلو من مبالغة إلا أنه كساها ثوباً رقيقاً من الألفاظ التي ينساب منها رونق الحضارة كقوله (مسطور ، صحف ، شهد ، الحياة ، المعاني، علم فرد) وتزداد المعاني رونقاً في البيت الأخير بهذا التضاد بين (جمعّ ومفترق) بحيث أوحت الكلمة الأولى منها بسبب تضعيف الميم أن اللّه تعالى وهبه كل الصفات والمعاني العظيمة المتفرقة في هذا الكون، كما يدل على صعوبة اجتماعها في شخص واحد ورغم ذلك فقد حَبَا اللّه بعظيم فضله هذا الممدوح بها .

وإلى جانب الرقة التي أصابت لغة الشعر نجد **السهولة**، في الألفاظ بحيث كانت لغته الشعرية سهلة ، متدفقة ، واضحة (ولا يحتاج القارئ إلى الرجوع لمعاجم اللغة لفهمها) كما ظهر بوضوح في النماذج السابقة، ومثل قوله : [٢]

تَذكَّرْتُ عَهَداً طَالَ بَعْدَ انصرامِهِ عليهِ الأسَى وانْجَابَ وَهْوَ قَصِيرُ
وعهداً "بعَينِ الدَّمْعِ" للدَّمْعِ بَعــدَه مَوَارِدُ في آماقنا وبُحُـــــــورُ
فَها أَنا اسْتَقْرِي الرِّيَاحَ إذَا سَرَتْ لِيُخْبِرنِي بالظَّاعنين خَبِيـــــرُ
وإنْ خَطَّ وجَدْي من دُمُوعي رَسالةً عَلَى صَفْحِ خَدِّي فالنَّسِيمُ سَفِيرُ

لقد جاءت ألفاظه في هذه الأبيات سلسة لا غموض فيها معبرة عن مشاعر الشوق والحنين الذي يملأ قلب الشاعر لمعاهد أنسه في الحدائق والرياض "كعين الدمع" التي خصها بالذكر هنا ، ولمحبوبته التي رحلت وتركته يتتبع أخبارها مع كل قادم، مستمداً ألفاظه من بيئة العلم والكتابة فهو يستقري الرياح ، ووجده يخط بدموعه الفياضة رسالة الشوق . وبعد ذلك النسيم سفير ينقل خطابات المحبين. ولا شك أن ذلك التعبير كان نتيجة للرقي الفكري ونشاط الكتابة

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٦- ٢٩٧ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٩٥ .

والكتاب وقتذاك. كما كان الغناء وشيوعه بين أوساط المجتمع الغرناطي من أهم العوامل التي أثرت في تحضر ألفاظ ابن الخطيب وجنوحها – كثيراً - إلى الرقة والسهولة .

وبالرغم من سلاسة الألفاظ ووضوحها لدى ابن الخطيب، إلا أن ذلك لا ينفي وجود بعض الألفاظ التي يحتاج القارئ ، لفهمها الرجوع إلى المعاجم اللغوية. ولكنها قليلة جداً إذا قورنت بألفاظه الواضحة وذلك مثل : (الأوام، الكلل ، الوضم ، الرأل ، الألوة، الثأي، الشثن، السنخ، البَمّ، السجسج، مسحنفر) [١] وأغلب هذه الألفاظ وردت في قصائد المديح، التي يعمد فيها إلى الألفاظ القوية المتينة، وربما وقع في الأبيات مثل هذه الألفاظ، لكنها لا تسم أسلوبه بالتكلف لأنها كانت قليلة ومعدودة. بل أن شعره أغلبه رقيق الألفاظ لرقة معانيه كما قال: [٢]

رَقَّتْ مَعَانِيهِ لَديَّ فَلَوْ جَرَى سَحَراً نَسِيمُ الرَّوْضِ لاسْتَجْفيُتهُ

وإلى جانب الرقة والسهولة التي ميزت ألفاظ ابن الخطيب نلحظ سمة مهمة ولعلها من أوضح مظاهر التأثر بالحضارة وهي **كثرة دوران الألفاظ الحضارية في شعره** كألفاظ الثياب والبناء والطعام والكتابة والعلوم والعقيدة، وغير ذلك فقد وجدت هذه الألفاظ طريقها إلى لغة الشعر سهلاً مطواعاً، فأصبحنا نلاحظها بكثرة في الشعر، ويأتي في مقدمتها في الشيوع **ألفاظ الكتابة** فقد استخدم ابن الخطيب الألفاظ التي تدل على مواد الكتابة، كما استخدم ألفاظ الحروف الكتابية، واستخدم الفعل مثل خط و"كتب"، ومشتقاتها.

وإذا تتبعنا دوران هذه الألفاظ في شعر ابن الخطيب نجد منها ما يدل على مواد الكتابة **كالقرطاس** ويعني الورق في قوله:[٣]

وَيْبدُو لِعَيْنِي شَعْـــــرُهُ وجَبيُنهُ إذَا مَا سَفَحْتَ الحِبرَ في صَفْحِ قِرطَاسِ

وهذا يدل على لون القرطاس الأبيض الناصع. والحبر الأسود القاتم.

وفي قوله أيضاً : [٤]

إذَا هَزَّ عَسَّالَ اليَراعةِ فَاتِكاً أَسالَ نَجِيعَ الحِبْرِ فَوْقَ القَراطِيس

وقد وردت في هذا البيت بصيغة الجمع "القراطيس"، كما أن البيت اشتمل أيضاً على بعض مواد الكتابة وهي " اليراعة " " والحبر " الذي يبدو أن لونه كان (أحمر)، ولا شك أن استخدام ألوان متعددة من الحبر في الكتابة يدل على الحضارة التي وصل إليها المجتمع الغرناطي في ذلك العصر.

---

[١] انظر الصفحات التالية وذلك وفق ترتيبها أعلاه (١٩٨ – ٤٩١ – ٥٣٣- ٦٤٩ – ٤٦١ – ٤٩٦ – ٥٨٨ – ٥٤٤ – ٥٣١- ٤٩٧ – ٢٣١) .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٨٥
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص ٧٣٢ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣١ .

ومن الألفاظ التي تدل على مواد الكتابة **"الطِّرس"** وقد أشار إليها ابن الخطيب بقوله :[١]

وجَعَلْتُ النَّهار طرْسيَ ، كَيمْا أحْميَ الوُدَّ ، والظَّلامُ مِـــــدَادي
نَفدَ الطرسُ والــمدادُ ولـمَّــا أُحْصِ شُكْرِي ولا شَرَحْتُ وِدَادِي

لقد جاء اللفظ بصيغة الإفراد ، معرفاً بإضافته لياء المتكلم في البيت الأول، وبال العهدية[٢] في البيت الثاني، وقد كان تعريفه بالضمير يعكس معنى المبالغة ومدى العناية بتأدية حق الشكر للممدوح بشكل مبالغ فيه حيث زعم أنه لو جعل النهار طرساً له والظلام مداد يكتب به لما أوفاه حقه، وفي البيت الثاني عرفها بأل العهدية باعتبار أن الطرس الذي يعنيه – وهو صفحة النهار -معلوم لدى المخاطب . وورد مع الطرس ذكر المداد وهو من أدوات الكتابة. كما أن هذه اللفظة وردت بصيغة الجمع أحياناً كقوله:[٣]

تُبرُّ علي المُدَّاح غُرِّ خِلالِهِ وما رَسَموا فَوقَ الطُّروسِ ومَا خَطُّوا

وكانت الصحف أيضاً من المواد التي تستعمل في الكتابة، ومن ذلك قول ابن الخطيب يصف قصيدة وردت عليه من أحد الأصدقاء: [٤]

نُجومُ مَعَانٍ في سَماء صَحيفة ولكنَّها تسْري النُّجوم ولا تّسْري

وقد وردت أيضاً بصيغة الجمع مثل قوله [٥]

وكتيبةٍ جَعلوا الصِّفَاحَ صَحَائِفاً مِنْها وخَـــــــطِّي القَنَا أقْلاَماَ

وقد ذكر في البيت أيضاً الأقلام، التي يكتب بها على هذه الصحف، ووردت أيضاً بصيغة أخرى للجمع في قوله:[٦]

إذا كتَبتْ يَوماً فأقلاَمها القَـــــنَا وإنْ أَرْسَلتْ يوماً كانتْ صَفَائحُها الصُّحْفَا

ونلحظ في البيتين ذكر الصحف في معرض الحديث عن الحرب وأسلحتها ، فالرماح أقلام تخط وصفاح السيوف صحف يكتب عليها فجعل ابن الخطيب من أدوات

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٦ .
[٢] التعريف بأل يختص بالاسم ، وتكون لتعريف العهد إذا وردت للإشارة إلى معهود بينك وبين مخاطبك . انظر : أبا الحسن على بن عيسى الرماني : معاني الحروف ، تحقيق : د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، طبعة دار الهلال ، بيروت – دار الشروق : جدة ، ٢٠٠٨م . ص : ٧٥ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٥٨ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ص : ٤٣٣ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٣٥ . .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٧٩

الكتابة مادة تشبيهيه استوحاها من البيئة الحضارية بيئة الفكر والكتابة . وفي البيتين كليهما جانس ابن الخطيب بين لفظي (الصحف والصفائح) مما أضفى على البيت مسحة من الجمال الفني بفضل الجناس غير المتكلف .

وقد كانت هذه الألفاظ الثلاثة " **الطرس والصحيفة والقرطاس** " هي أكثر ألفاظ الكتابة وروداً في شعره حيث كانت الطروس أكثرها استعمالاً يليها **الصحف** ثم **القراطيس** وليس هذا فقط ما ورد من ألفاظ الكتابة وإنما كانت تلك الألفاظ الأكثر استعمالاً من بينها .

كما ذكر ابن الخطيب لفظ **"الرقاع"** كأحد الوسائل المستخدمة للكتابة عليها ولكنها وردت بقله، مثل قوله في قصيدة ميلادية:[١]

وقُلْتُ لقَلْبي طرْ إليه برُقعَتي فَكَانَ حَمَاماً في المسيرَ بها هدًّا

فقد وردت اللفظة في البيت بصيغة المفرد ، وجاءت مرة أخرى بصيغة الجمع في رثائه لشيخه "ابن الجياب" عندما قال : [٢]

من للرقاع الحُمرْ يَجمْعُ حُسْنَهَا خَجَل الخُدودِ وصبْغَةَ الأَحْداقِ

كما كانت **" الدفاتر " و " الكراريس"** من الأدوات المستخدمة في الكتابة وقد وردت في شعر ابن الخطيب مثل قوله:[٣]

وكأنمّا الكراسُ طِرْفُ أشهبُ شدوا على شفتيهِ عودَ الزِّيارَ

وقوله أيضاً : [٤]

فَحَدَّقَ من أجْفَانه نَرْجسَ الرُّبى وحَدَّدَ من آذانِهِ وَرَق كُرَّاسِ

وعندما أشاد بمكانة الرئيس "أبي الحسن بن الجياب" ذكر الدفاتر بقوله:[٥]

كَأنَّ محَامِيدَ الزَّمانِ دَفَاترُ وحمَدُك تصْحيحُ عليْها وتطْريرُ[٦]

فهو يؤكد استحقاقه رئاسة ديوان الإنشاء، لأنه قد تقدم على كل كاتب" يدل على ذلك قوله "محاميد الزمان" يقصد بها مقدمات الرسائل التي تبدأ بحمد الله والثناء وعليه، والكراس والدفتر كلاهما بنفس المعنى.

---

[١] ديون ابن الخطيب ، ص : ٣٤٧ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص ٧٠٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٣٦ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٢ .
[٥] ديوان ابن الخطيب : ص : ٤٠٣ .
[٦] التطرير: أي جعل الطرة ، أي الهامش بجانب الكتاب.

وفي كل ما تقدم كانت الإشارة إلى المواد المتخذة للكتابة ونلحظ في بعضها اقترانها بالأداة التي يكتب بها وهي الأقلام، والحبر، أو اليراع والمداد.

كذلك استخدم ابن الخطيب بعض الأفعال مثل الفعل **"خَطّ"** والفعل **" كَتَبَ "** مثل قوله:[١]

سَبقَ الحُكْمُ واسْتقَلَّ وهَلْ يُمْحَي قَضاءُ قَدْ خُطَّ في الأَلْواح!

وقوله أيضاً يمدح السلطان:[٢]

تقي حذا حذو الخلائف واقتدى بهم مثل ما خُطَّ الكَتابُ عَلَى الرَّسْمِ

واستعمل الفعل "كتب" في قوله:[٣]

كَتَبْتُ وقَدْ نَازَعْتُ فِيكَ مُلاَءةً كَستْنِي شُحُوباً في الملاَءِ المُوَرَّسِ

لِشَوقٍ ثوى بَيْن الحيازِمَ والحَشَى وبُعْدٍ رَمَى في القَلْبِ سَهْمُ مقُرَطَسِ

ولا شك أن الكتابة تستلزم **النقط والضبط والتشكيل** وكل هذه الألفاظ وجدت في شعر ابن الخطيب ومن ذلك قوله مثلاً يصور موقف الحرب:[٤]

والخيلُ خطٌّ، والمجَالُ صَحيفَةٌ والسَّمْرُ تَنْقطُ، والصَّوَارِمُ تَشْكُلُ

أما **حروف الكتابة وهيئاتها**، فقد ذكر منها النون، واللام ألف، إلا أن الأغلب في استعماله لها استخدام لفظ " الحرف " أو " الحروف " ومن الأمثلة على ذلك قوله:[٥]

شَأْنُ الزَّمانِ افْتِراقٌ بَعْدَ مُجْتَمعٍ وأَحْرُفٌ مُحِيَتْ منْ بَعْد مَا رُسمَتْ

ونلحظ في البيت استخدام الأحرف التي جاءت بصيغة الجمع. كما خص ابن الخطيب بعض الحروف بالذكر مثل اللام والألف في قوله: [٦]

وأَضِفْ إِلَى لاَمِ[٧] الوَغَى أَلِفَ القَنَا تَظْهَرْ لَدَيْكَ عَلاَمةُ التَّغْليبِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٥٤.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص " ٥٣١ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٧ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٠١ .
[٥] ديوان ابن الطيب ، ص : ٥٥٩ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٢ .
[٧] لام جمع لأمة وهي الدرع ، وألف القنا المقصود به الرمح .

يقصد ابن الخطيب من هذا البيت أن يجمع الخليفة بين الدروع وهي المقصودة بقوله " لام الوغى " والرماح فتلك الأسلحة هي من وسائل التغلب على العدو، كما يجتمع في الكتابة الألف واللام.

وقال أيضاً متغزلاً ويظهر فيه تشبيه الصدغ بحرف النون:[١]

قَلَمُ المَحَاسِنِ خُطَّ نُونَ عِذَارِهِ أوَ مِثْلَ حُلَّتِهِ يُحَاكُ بَلاَ عَلَمْ

لاَ تَتَّقُوا عَيْنَا تُصيبُ جَمَالَهُ فَاللّهُ عَوَدَّهُ "بِنُونٍ والْقَلَمْ"

ونلحظ في هذا البيت أن ابن الخطيب جعل من هذا الحرف ، والأدوات الكتابية التي ذكرها هنا وهو **القلم**، مادة جديدة لصوره الفنية، وقال أيضاً يمدح أحد الفضلاء عندما كان لاجئاً في المغرب مع سلطان الغنى باللّه: [٢]

أَبْقَاكُمُ اللّهُ فِي سَعْدٍ عقائلُهُ تُبْدِي لَكُم غُرَرَ الأبْكَارِ والعُونِ

وَردَّنِي لِبلاَدِي شاكِراً لَكُمُ بَأَمْرِ رَبِّي بينَ الكَافِ والنُّـــون

فهو يدعو له بالبقاء والسعادة ويتمنى أن يرده اللّه تعالى لبلاده وهو القادر على ذلك الذي يقول الشيء "كن فيكون" وهذا هو المقصود بالكاف والنون. وبالتأكيد لن ينسى شكر هذا الرجل صاحب الفضل عليه.

ولعل ازدهار فن الكتابة في القرن الثامن الهجري ، وكون ابن الخطيب أحد أفضل كتاب هذا القرن، كان وراء شيوع هذه الألفاظ في شعره بكثرة كما لاحظنا فيما سبق، حيث استخدمها أسماءً، وأفعالاً، مفردةً ومجموعةً. وجاء استعمالها غالبا في معرض التشبيه وكل ذلك يدل على مدى التحضر الفكري والارتقاء الثقافي.

ومما يلاحظ في شعر ابن الخطيب الحضاري أيضا استخدام **ألفاظ الثياب والزينة** من "حلي وعطور" بشكل ملحوظ، ولا شك أن لرقي المجتمع وترفه أكبر الأثر في ذلك. ومن هذه الألفاظ الخاصة **بالثياب** الوشي والتطريز والوشاح والديباج والسندس، والمسك والكافور، والعنبر، والرند والكباء. وغيرها من ألفاظ **العطور**، ومن **الزينة** مثلاً: الأقراط الدر ـ التاج، العقود، الكحل، الجمان، الوقف، ... وغيرها.[٣]

ومن الشواهد التي تدل على شيوع ألفاظ الثياب في شعر ابن الخطيب قوله:[٤]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٦٦ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦١٦ .
[٣] انظر الفصل الثاني ، المبحث الخاص بمظاهر الحضارة الاجتماعية ، حيث تم ذكر كثير من هذه الألفاظ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٤٣ .

وَيُعْلِمُ ثَوبَ المجْدِ بالخُلُقِ الرِّضَى كَمَا يُعْلِمُ التَّوْبَ الطِّرَازَ أَو الرَّقْمُ

فأخلاق هذا السلطان عظيمة حتى كان المجد ثوبا يلبسه وأخلاقه العظيمة زينة عليه، كما يزين الثوب الطراز أو الرقم.

وقال أيضاً في وصف الطبيعة:[1]

فَبُردُ الرَّوْضِ مَرْقُومُ الحَوَاشِـــي ودُرُّ الـــطَّلِ مَنْظُوُم العُقُودِ

وقَدْ مَاسَتْ غُصُونُ البَانِ سُكْراً مِنْ الأوْرَاقِ في خُضْرِ البُرُودِ

فالروض في البيت الأول مثل خضرة البرد اليماني الذي زينته النقوش البديعة، ومن الطريف أن يذكر الثوب، ومكملات الزينة معه مثل العقود، وقد كان هذا العقد منظوماً من أجمل وأنفس الجواهر وهي الدر، وما هذه الدرر سوى قطرات المطر الذي نشر إحساساً عميقاً بالبهجة والسرور في هذا الروض، فغصون البان تتمايل، والأوراق بدت باللون الأخضر الزاهي المشرق بإشراق الربيع كأنها ارتدت أجمل وأغلى الثياب وهو البرد.

ومن هذا القبيل أيضاً قوله:[2]

فَجَادَ حَيَّكَ مِنْهَا غَيْرَ مُفْسِدَهَـــا مُجَلْجَلٌ يَطُأ الأَوْهَـــادَ والقُلَلاَ

يُغَادِرُ الدَّوْحَ مِنْ بَعْدِ الدَّوَى خَضِلاً يَخْتَالُ في حُلِلٍ مَوْشِيَّةٍ وحُـــلاَ

فالدوح بعد نزول المطر، يزداد جمالاً وروعة، وكأنه يرتدي الحُلل الموشاة بأجمل وشي وزينه.

ونلحظ في الأبيات السابقة بأنه ذكر الرقم والطراز والبرود والحلل الموشية ، وجميعها مستوحاة من بيئة الترف والثراء ، لأنها من أفخر أنواع الأقمشة ، فهي ليست ثياباً عادية وإنما موشاة ومزينة بأجمل وأغلى زينة واستعماله لهذه الألفاظ واستخدامها في التشبيه يوحي بذوق مجتمع ينعم بالثراء والبذخ ويدرك مدى قيمة ورقُي هذه الأشياء ويقدرها .

ومن الأمثلة التي استعمل فيها بعض ألفاظ **الحلي والعطور**، قوله في ختام قصيدة مدح بها أحد الفضلاء:[3]

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٢ – ٢٨٣ .
[2] ديوان ابن الخطيب : ص : ٧٦٣ .
[3] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٧٣ .

وَيخُصُّ مَجْدَكَ مِنْ سَلاَمِي عَاطِرٌ كَالْمِسْكِ صَاكَ بِهِ الغَوَالِي صَائِكُ

فقد شبه سلامة العاطر بالمسك الذي عبق ريحه وانتشر. هذا ومن الملاحظ أن أكثر ألفاظ العطور دوراناً في شعر ابن الخطيب هو المسك.

ومن ذلك أيضاً قوله في وصف حديقة قصر السلطان التي عبقت بأنواع العطور:[١]

وَهَبَّتْ رِيَاحُ النَّصْرِ في جَنَباتِها فَأَنْشَأْنَ سُحْبَ العَنْبَرِ الوَرْدِ والنِّدِّ

ونلحظ في البيت ذكر نوعين من العطور وهما **العنبر والندّ**، الذي بلغ انتشاره لدرجة أنه أصبح كالسحب، مما يدل على أن هذا المكان يعج بالروائح الندية، العطرة .

كما ذكر ابن الخطيب أنواعاً أخرى من العطور مثل **الكباء، والمندل** في قوله:[٢]

وإِذَا ذُكِرْتَ كَأَنَّ هَبَّاتِ الصَّبَا رَكَدَ الكِبَاءُ بِجَوِّهَا والمِنْدَلُ

ومن أنواع الزينة التي وردت في شعر ابن الخطيب **القرط، والدر، والتاج** وغيرها مثل قوله:[٣]

تَسَاوَى عَلَى وِرْدِ الرَّدَى كُلُّ وَارِدٍ فَلَمْ يُغْنِ رَبُّ السَّيْفِ عَنْ رَبَّةِ القُرْطِ

وقوله أيضاً في ذكر خلال ممدوحه الكريمة :[٤]

تَرِفُّ جَنَاهَا عَنْ أُصُولٍ قَدِيمةٍ وَدُرَّةُ مَجْدٍ لاَ تُقَاسُ بِقيمَةٍ

فهذا المجد العظيم الذي حازه هذا الممدوح بفضل خلاله النبيلة ، كان مثل الدرة الثمينة التي لا تقدر بثمن .

كما ذكر أنواعاً أخرى من الزينة مثل التاج ، في قوله:[٥]

هَاكَهَا والحبَابُ يَعْلُو عَلَيْهَا غَادَةً تُوِّجَتْ بِأَبْدَعِ تَاجِ

كما ذكره في مقطوعة نظمها لتكتب على طاق للماء في قصر السلطان ، فقال:[٦]

رَقَمَتْ أَنَامِلُ صَانِعِي دِيبَاجِي مِنْ بَعْدِ مَا نَظَمَتْ جَوَاهِرَ تَاجِي

فقد أحكم الصانع هذا الطاق حتى ظهر أعلاه وكأنه تاج مزين بأنفس الجواهر، وهذا يدل ولاشك على قدر كبير من التقدم والإبداع الفني والدقة في العمارة

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٨
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩٦.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٦٣ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٦ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص :١٩٧ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص :١٩٧ .

والصناعات اليدوية. وكل ما تقدم من شواهد يدل على الحياة الاجتماعية المترفة التي نعم بها الغرناطيون في ذلك الوقت.

وقد دارت **ألفاظ البناء والعمران** بشكل ملحوظ في شعر ابن الخطيب وكان ذلك يرجع إلى أن الفن الغرناطي في العمارة تميز باستخدام الخط كعنصر مهم في الزخرفة فكان ابن الخطيب ينظم المقطعات لتكتب على الجدران في أماكن مختلفة من القصر الملكي. ومن هذه الألفاظ مثلاً، القصور، والقباب والطيقان والمدارس والمارستانات .. وغيرها.[١]

ومن الشواهد على ذلك قوله مهنئاً السلطان بزواجه الذي أقامه في قصره الجديد:[٢]

نِعْمَ الخُلُـــودُ بِهَا قُصُوُر مُقَامةٍ يَحْـبُوكَ سَعْدُكَ عِزَّهَا ويَنُيلَهُ

وقوله أيضاً يذكر القباب:[٣]

أَأَبْصَرْتَ مِنِّي فِي المصَانِعِ قُبَّةً تَأَنَّقَ فِيَّ السَّعْدُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقوله:[٤]

أَنَا طَـــاقٌ تَزْهُـــوبِي الأَيَّامُ تَعِبتْ فِي بَدَائِعِي الأَفْهَامُ

وقوله في إهداء كتابه " **عَملُ منْ طَبَّ لمن حبّ** " الذي أهداه للسطان أبي سالم المريني:[٥]

أَبْقَيتَنِي فَتَركْتُ ذِكْرَكَ بَاقِياً يُتْلَى بِمَدْرَسَةٍ ومَارِسْتَانِ

كما نلحظ في شعره بعض الألفاظ التي تدل على مواد البناء كالمرمر، والزليج، والآجر والصخور وما شابه. مثل قوله في قصر السلطان الذي شيده:[٦]

تَخَيَّرَ أَعْظَمُهُ مَرْمَـــــراً فَجَاءوُا بِكُلِّ قَوِيٍّ شَـدِيدْ

وَجَاءتْ تَجُرُّ إِليهِ الصُّخُورَ عَمَالِقَةٌ مِنْ كُفَاةِ الحُشُودْ

ويظهر في الأبيات ذكر المرمر، والصخور، كما ذكر الزليج وهو نوع من الآجر المدهون بألوان مختلفة في قوله:[٧]

---

[١] انظر الفصل الثاني ، المبحث الخاص بمظاهر الحضارة العمرانية.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٧٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص :١١٥ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٣٧ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٩٥ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٦٤ – ٢٦٥ .
[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص :٢٩٧ .

دَحَيْتَ مِنْ الزُّلَّيْجِ صَفْحَةَ أَرْضِهِ بِلَوْنِينِ مُبْيَضٍّ الأَدِيمِ ومُسْوَدِّ

وبذلك نلحظ كثرة وتنوع هذه الألفاظ المتعلقة بالعمران مما يدل على نهضة عمرانية في تلك المملكة. يؤكدها أثارها التي بقيت حتى يومنا هذا.

وقد وجد في شعر ابن الخطيب أيضاً بعض **الألفاظ الاصطلاحية** كالكل والبعض، والروح والجسد، والجوهر .. وغيرها. بحيث تلاءمت مع ما جاء به في شعره من معاني فلسفية، إلا أنه لم يكن يتعمق في ذلك ، لأن الفلسفة لم تكن في ذلك العهد من العلوم المستحبة.[١]

ومن أمثلة ذلك قول ابن الخطيب في حق السلطان "فارس المريني":[٢]

ولَقَدّ تَمَازَجَ حُبُّهُ بِجَوارِحِي كَتمازُجِ الأَجْسَام في الأَرْوَاحِ

وقوله مؤكداً أن السلطان هو من أحيا رسوم هذا الدين وحكم به:[٣]

ودِينُ الهُدَى جِسْمٌ وذَاتُكَ رُوحَهُ وكَمْ وَصْلَةٍ مَا بَيْنَ رُوحٍ وجُثْمانِ

ونلحظ استخدامه لمصطلح الروح والجسد لتأكيد فكرة الاندماج والتلازم في كلا البيتين.

ومن الأمثلة كذلك قوله في استنكار تعلق الإنسان بحب غير الخالق سبحانه وتعالى:[٤]

أَعُشَّاقُ غَيْرَ الوَاحِدِ الأَحَد البَاقِي جُنُونَكُمُ واللّهِ أَعْيَا عَلَى الرَّاقِي
جُنِنْتُمْ بِمَا يَفْنَى وتَبْقَى مَضَاضَةً تُعَذِّبُ بَعْدَ البَيْنِ مُهْجَةَ مُشْتَاقِ
وتَرْبِطُ بِالأَجْسَامِ نَفْساً حَيَاتُهَا مُبَايَعةُ الأَجْسَامِ بالْجَوْهَرِ الرَّاقِي

إن كل حب غير حب الله تعالى لا طائل من ورائه بل إنه يثقل صاحبه بالهموم، والأشواق ولكن إخلاص الحب لله تعالى هو سر حياة النفس وراحتها.

وقال أيضاً مشيداً بعراقة أصل السلطان "أبي عنان المريني":[٥]

مُتَجَسِّداً منْ جَوْهَرِ النُّورِ الَّذِي لَمْ تُرْمَ يَوْماً شَمْسُهُ بِغُرُوبِ

وقد ترد بعض **ألفاظ العلوم** كالكيمياء، والإكسير وما شابه. مثل قوله:[٦]

---

[١] انظر : ابن خلدون : المقدمة : ص :٥١٤ . حيث عقد فصلاً في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها، وقد كان معاصراً لابن الخطيب .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : : ٢٣٤ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٩ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٣ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٠.
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٥٥ .

كُلُّ مَلْكٍ يُرَى بِصُحْبَةِ أَهْـــلِ الْعِلْمِ قَدْ بَاءَ بِالمحَلِّ العَزِيزْ
فَإِذَا مَا ظَفِرْتَ مِنْهُمْ بِإِكْسِيرٍ مَلأْتَ البِـــــلاَدَ مِنْ إِبْرِيزْ[1]

لقد استخدم ابن الخطيب مصطلح الإكسير ليبين مدى تأثير أهل العلم والفكر في المجتمع وأنهم سبب رقي المجتمع وتطوره.

وتجدر الإشارة إلى أن شعر ابن الخطيب قد حفل بالكثير من **الألفاظ العلمية** في شتى فروع العلم والمعرفة والعقيدة . وهذا يدل على الثراء الفكري الموسوعي الذي تميز به ابن الخطيب كما كثر في شعره الألفاظ التي تدل على **الطبيعة** الخصبة التي عاش فيها الشاعر. وفي كل الشواهد السابقة نلحظ إجادة ابن الخطيب في انتقاء الألفاظ التي تلائم معانيه، فلم تأتِ متكلفة وإنما جاءت متسقة مع السياق.

إلا أنه ثمة ملاحظات يجدر الإشارة إليها من خلال دراسة لغة ابن الخطيب الشعرية وهي في جلها كانت بتأثير الحضارة التي عمت هذا المجتمع، ومنها استخدامه بعض الألفاظ التي لا تتناسب مع مستواه الثقافي والاجتماعي الذي يعكسه جل شعره، فهو أحياناً يكيل ألفاظ الشتم والسباب المقذع في شعر السخرية والهجاء الاجتماعي حيث ينحط عن المستوى الذي عُهد عليه، كقوله في السخرية:[2]

مَرَّ الذُّبابُ عَلَى فـــمِ "ابنِ كُـــماشةٍ"[3] فَانْفَضَّ عَسْكَرُهُ وَهِيضَ جَنَاحُهُ
فكَأَنَّهم صَرْعَى وَقَدْ عَصَـــفتْ بِهِمْ مَسْمُـــــومةً عِنْد الصَّباحِ رِيَاحُهُ
أ "عَلِيُّ" -جلَّ اللَّهُ -كم مِنْ حَائِنٍ[4] نَاجَيْتَهُ صُبْحاً، فَـسَـــاءَ صَبَاحُهُ

وقوله -أيضاً -في هجاء أحد الوزراء:[5]

يانَاقِـــــصَ الدِّينِ والمُرُوءَةِ والعَــ ـقْلِ ومُجْرِي اللِّســانِ بالَهذَرِ
يا بَغْـــــلَ طَاحُـــــونةٍ يَدُورُ بِهَا مُجْتَهِدَ السَّيْرِ مُغْمضَ البَصَرِ
ومَنْ "أَبو الفَتْحِ" في الكلاَب؟ وهَلْ لِجَـــاهلٍ في الأَنَامِ مِنْ خَطَرِ؟

ففي المثالين كليهما نلحظ الأسلوب الساخر والهجاء اللاذع الذي وجهه لهذين الرجلين، والذي يبدو أنه كان يناصبهما العداء، مما جعله يكيل لهم هذا الكم من - الشتائم خاصة في المثال الثاني - التي تم تجاهل بعضها تنزيهاً لهذا البحث.(٦)

---

(١) الإبريز: الذهب.
(٢) ديوان ابن الخطيب، ص:٢٤٦.
(٣) هو علي بن يوسف بن محمد بن كماشة، انظر ترجمته في: ابن الخطيب الإحاطة: ٧٤/٤ ومابعدها.
(٤) حان الرجل: هلك، وفي المثل: أتتك بحائن رجلاه.
(٥) ديوان ابن الخطيب: ص: ٤٢٩، وهذا الوزير هو: إبراهيم بن أبي الفتح الملقب بـ (الأصلع الغوي) انظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب: ١٠٦/٢.
(٦) إن أغلب شعره في السخرية كان موجهاً لعدوه القاضي النُباهي ، وبعض الشخصيات الأخرى . انظر ديوان ابن الخطيب للإطلاع على هذه الألفاظ مثلاً ص : ١٣٧- ٢٠٨ – ٢٤٦ – ٣٣٨ – ٤٢٨ – ٥٧٢ – ٦٤٠ – ٦٨٥ – ٧١٢ – ٧٣٧ – ٧٣٨ – ٧٤١ – ٧٥١ – ٧٥٣ – ٧٦١ .

وثمة ملاحظة أخرى وهي ميل ابن الخطيب أحياناً إلى **التخفيف** وطلب التسهيل فيلجأ إلى **القلب أو الإبدال في الحروف**، فيقلب الهمزة ياء أو يحذفها للتخفيف، ومن أمثله ذلك قوله في تصوير الأمن الذي نعم به الرعية في عهد السلطان أبي الحجاج:[١]

فكَادَتِ الشَّاءُ تَرْعَى والذِّيَابَ مَعَا وكَادَتِ النَّاسُ فيهِا تَأمَنُ الأَجَلا

ففي هذا البيت بالغ الشاعر الوصف حتى كادت الشاء ترعى مع الذئاب لا تخشى فتكها، وحتى الناس كادوا يأمنون الأجل، وتلك مبالغة كبيرة. وقد عمد ابن الخطيب إلى قلب الهمزة في "الذئاب" إلى ياء، وذلك طلباً للتخفيف. ومثل ذلك أيضاً قوله في قصيدة عارض بها "أبا نواس":[٢]

فَقَال : أَخَمْرٌ وَهْيَ شيءٌ مُحَرَّمٌ عَلَيكُمْ لبِئْسَ المُسْلِمونَ إذَنْ بيسَا!

فهنا قلب الهمزة في "بئس" إلى ياء. وقد تكون هنا لموافقة القافية في القصيدة ومثله قوله:[٣]

فَهَا أَنَا أسْتَقرِي الرِّياحَ إذا سَرَتْ ليُخْبِرنِي بالظَّاعِنِينَ خَبيرُ

وقد قلب الهمزة في الفعل " استقرئ " إلى ياء.

وقوله:[٤]

وكأَنَّنِي مُذْغَابَ وجْهُكَ ذَاهِبٌ في اللَّيلةِ الظَّلْمَا، بِلاَ مِصبَاحِ

فقد حذف الهمزة من كلمة الظلماء للتخفيف . ومثله قوله في روض جميل:[٥]

وَرَوْضٌ دَنَتْ لِلهَاصِرِينَ قِطَافُهَا فَكَانَ كَلامُ القَوْمِ بَعْضاً إلى بَعْضِ

أَهذِي الّتِي كُنَّا وُعِدْنَا بِنَيْلِهَا وَجَنَّةُ عَدْنٍ فِي السَّمَا أَمْ مِنْ الأَرْضِ؟

فقد حذف همزة " السماء " هنا أيضاً للتخفيف.

ويبدو أن هذا التخفيف سمة من سمات الرقة التي جلبت بتأثير الحضارة في اللغة.

وقد يضطر في أحيانٍ أخرى إلى **الخروج على قواعد النحو العربي** فيجمع على غير القياس وقد وقع ذلك في شعره مثل قوله في أحد مجالس الأنس:[٦]

عَرَائِسُ فِي حُلَى الكَاسَاتِ تُجْلَى مُوَرَّدَةَ التَّرَائِبِ والخُدُودِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص ، ٧٦٦.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٢١.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٩٥.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٣٥.
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٣٨ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٢.

فقد شبه الكؤوس التي امتلأت بالشراب بالعرائس المتزينة ، ونلحظ أن الكأس فيما ورد يجمع على أَكْؤس وكُؤوس وكئاس، ولم يرد جمعه على كاسات كما استخدمه ابن الخطيب في هذا البيت .

وقد يضطر ابن الخطيب أحياناً إلى استعمال **الكلمة الشائعة لدى العامة** ومن أمثلة ذلك قوله:[١]

ولَماّ اجْتَلَيْنَا مِنْ نُجُوم قِبَابِنَـــا سَنَا كُلِّ خَفَّــاقِ الرُّوَاق بِغُــورِ
زَرَيْنَا عَلَى شُهُبِ السَّماءِ بِشُهْبِهَا مَتَى شِئْتِ يا زُهْرَ الثَّواقِبِ غُورِي

ونلحظ في البيتين وصف منظر قبابهم والرايات تخفق في أعلاها في مدينة " غور " وكأنها شهب السماء ونجومها. وقد استخدم كلمة **غوري** في قافية البيت الثاني وهي من الألفاظ التي ابتذلتها العامة، وقد اضطر لذلك لأنه عمد إلى تجنيس القافية كما نص على ذلك قبل البيتين.

ومن الألفاظ المبتذلة أيضاً كلمة " **زكمة** " وهي الداء المعروف ، وقد أوردها في وصف طلوع الصبح بعد ليل طويل:[٢]

يَا لَيْلَةً سَاهَرْتُ طَالِعَ أُفْقِهِـــا حَتَّى تَمَايل غَارباً أَوْ غَاطِســـاً
والصُّبْحُ مِنْ رِيحِ الشَّمَالِ بِزَكْمَةٍ تَركَتْهُ مِنْ بَعْدِ اسْتِكَانٍ غَاطِساً

ونلحظ في قوله مدى الإحساس بثقل الليل وطوله وبرودته ، ومدى أرقه الذي أقلق راحته بدليل أنه ظل مراقباً الأفق بانتظار الصباح حتى خُيل إليه أنه لم يكد يخرج لأنه مريض بالزكام، فخرج وما كاد أن يفعل ذلك، لوهن قواه. ويلفت انتباه القارئ هذا التعليل لطول الليل، حيث تظهر سمة الحضارة في التفكير، ومحاولة توليد المعاني، وتعليل الظواهر والأشياء من حوله. ولاشك أن لفظ الزكمة وإن كان فصيحاً إلا أنّه مُبتذل بين العامة كثيراً.

كذلك قوله في "هجاء "أبي الحسن النباهي" بعمامته:[٣]

عِمَامَةٌ قَدْ ظَهَرتْ فِي الأَذَى كَأَنَّهَا الفُقَّاعُ فِي المِزْبَلَةِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٣٤ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٥ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٢٨ .

فهو يشبه عمامته بالفقع، وهو نوع من الكمأ أو الفطر– في المزبلة – وهي المكان الذي تلقى فيه المخلفات وفي هذا البيت نلحظ لفظين من ألفاظ العامة وهما " **الفُقّاع** " و"**المزْبَلة**" والفقاع من الألفاظ التي يلحن فيها العامة في الأندلس والصواب هو " **الفقع** ".[١] أما المزبلة فهي مبتذلة كثيراً من العامة. وربما كان استعمال – هذه الألفاظ في غرض مثل الهجاء، ممكناً. فقد كان "الجاحظ" يرى أن (سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني)،[٢] وذكر أن اللحن في عوام أهل المدن فاشٍ، وغالباً عند من لم ينظر منهم في النحو.[٣] إلا أن ابن الخطيب عالم، ومضطلع بالنحو ولكن استعماله للملحون والعامي في البيت السابق كما ذكرنا بسبب الهجاء، خاصة وأن القاضي "أبا الحسن" من أشد أعدائه وهو من سعى في نكبته.

ولا شك أن استعماله لمثل هذه الألفاظ يؤخذ عليه، لأن الشعر إنما يستحسن إذا (تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه، ولم يهجن .. ولم يستعمل فيه السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلاً دوناً).[٤] وتجدر الإشارة إلى أن استعمال بعض الألفاظ الشائعة بين الناس لا يكاد يخلو منه شعر شاعر،[٥] لكن منهم المقل ومنهم المكثر، وابن الخطيب لم يستعملها كثيراً، ولكنها تدل أيضاً على تعلقه ببيئته التي لا يسع الشاعر التخلص من تأثيرها عليه مهما حاول ذلك.

أيضاً ثمة ما يجب الإشارة إليه في شعر ابن الخطيب هو استعماله في شعره لبعض **الألفاظ الدخيلة** على اللغة، ومن الأمثلة على ذلك كلمة "**رستاق**" وهي في أصلها فارسية،[٦] وتعني السواد والقرى، في قوله يمدح السلطان "أبازيان":[٧]

لَهُ مِنْ جَنَاحِ الرُّوحِ ظِلٌّ مُسَجَّفٌ وَمِنْ رَفْرَفِ العِزِّ الإِلهيِّ رُسْتَاقُ

أي أن الله تعالى قد كلأ ه بحفظه ورعايته، ووهبه عزاً وملكاً عظيماً.

ومن الأمثلة كذلك كلمة "**الأسطول**" ويعني السفن التي يسافر فيها للقتال،[٨] **والملند** وهو القائد البحري، وقد ذكرهما في قوله:[٩]

---

(١) انظر: ابن شهيد الأندلسي : التهذيب بمحكم الترتيب ، تحقيق: د. علي حسين البواب، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٩م، ص:٢١٥.
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين : ١٤٥/١ – ١٤٦ .
(٣) انظر الجاحظ : البيان والتبيين : ١٤٦/١ - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص : ٣٣١ ، وما بعدها .
(٤) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص : ٦٦ .
(٥) انظر : ابن الأثير : المثل السائر : ١/ ١٨٦ .
(٦) انظر : شهاب الدين أحمد الخفاجي : معجم الألفاظ والتراكيب المولدة في شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، تحقيق د. قصي الحسين ، الطبعة الأولى ، دار الشمال ، لبنان ، ١٩٨٧م ، ص ، ١٦٥ .
(٧) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٩٨ .
(٨) انظر : الخفاجي : معجم الألفاظ والتراكيب المولدة ، ص : ١١١ – ١١٢ .
(٩) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٥٩ .

يَسْتَبْشِرُ الأُسْطُولُ مِنْهُ بِقَائِدٍ كَالْبَدْرِ تَحْتَ شِرَاعِهِ أَوْ بَنْدِهِ
والبَحْرُ يَفْخَرُ مِنْهُ يَوْمَ وِلاَدةٍ بَمَلَنْدِهِ ابْنُ مَلَنْدِه ابْنُ مَلَنْدِهِ

وإضافة إلى لفظي "الأسطول" "والملند" نلحظ أن لفظ " بنده " دخيل أيضاً وأصله فارسي[١].

كما أن اطلاع ابن الخطيب على كثير من المؤلفات في شتى أنواع المعرفة، جعله يستعمل بعض **ألفاظ العلوم، أو أسماء العلماء**، غير العربية مثل: الإكسير، والزئبق، أسطاليس، جالينوس .. وغيرها.

ومن الشواهد على ذلك قوله في وصف "الوادي الكبير[٢] "وهو نهر كبير في الأندلس:[٣]

فَكَأَنَّما هَوَ زِئْبَقٌ مُتَرَجْرِجٌ أَلْقَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ إِكْسِيرِهَا

وفي هذا البيت يصف ابن الخطيب لون مياه النهر وقت الأصيل، وقد حركه الهواء، قليلاً فكأن زرقة المياه قد انقلبت إلى لون الذهب عندما انعكست عليه أشعة الشمس الذهبية. ونلحظ في البيت لفظين دخيلين هما الزئبق والإكسير ، كما يدل البيت على معرفة ابن الخطيب بمواد الكيمياء وخواصها التي تميزها ، فالزئبق مادة كيميائية سائلة أوحت له بهذه الصورة الرائعة لحركة تموج المياه.

ومن الألفاظ التي أستخدمها أيضاً **المهندس والأبنوس** في قوله:[٤]

وَمَنْ جَهِلَ الحُقُوقَ أَطَاعَ نَفْساً بِبَحْرِ الجَهْلِ رَاسِبَةً غَرِيقَهْ
وَمَنْجَى نِيقَةٍ[٥] أَمْرٌ بَعِيدٌ إِذَا نَصَبَ المهَنْدِسُ مَنْجَنِيقَهْ

ونلحظ في البيت الثاني استعمال ابن الخطيب لفظ "المهندس" وهو من الألفاظ ذات الأصل الفارسي.

وقال أيضاً في هجاء "أبي الحسن النباهي":[٦]

تُقَهْقِهُ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ الثَّكَالَى وَيَضْحَكُ مِنْهُ مُعْتَادُ العُبُوسِ

---

(١) انظر : الخفاجي : معجم الألفاظ والتراكيب المولده ، ص : ١٦٤ .
(٢) أن طلاق اسم " الوادي " على النهر هو من لحن العامة في الأندلس ، لأن الوادي .كما ذكر أبو بكر الزبيدي – كل بطن من الأرض مطمئن ، وربما استقر فيه الماء . انظر ابن شهيد الأندلسي : التهذيب بمحكم الترتيب ، ص : ٣١٠ .
(٣) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٠٧ .
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٣ .
(٥) النيقة : المرتفع من الأرض .
(٦) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٨ .

فَقَرْنٌ مِنْ نُظَارِ العَاجِ سَلْمٌ وَوَجْـهٌ مِنْ لُبابِ الأَبَنُـــوسِ

ونلحظ في البيت الثاني لفظ دخيل وهو " الأبنوس " وهو شجر ثمين أسود يسمى "الأبنوس الحبشي".

كما عمد ابن الخطيب إلى استخدام **الأعلام الأعجمية** في شعره مثل قوله:[1]

أَمَّاسِيَاسَتُكَ الَّـتِي أَحْكَـمْتَهـا فَرَمَيْتَ بِالتَّقْصِـيرِ أَسْطَالِيسَـا

فَلَوْ أَنَّ "كِسْرَى" الفُرْسِ أَبْصَرَ بَعْضَهَا مَا كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يُعَدَّ سَؤُوسَـا

أَحْكَمْتَ حِيلَةَ بُرئِهِمْ بِلَطَـافَـةٍ قَدْ أَعْجَزَتْ فِي الطِّبِّ " جَالِينُوسَا"

فهنا استخدام ابن الخطيب ألفاظ أعجمية لأنها أسماء أعلام في الحكمة والفلسفة مثل، " أرسطو "، والسياسة والملك مثل، "كسرى"، والطب والعلوم مثل "جالينوس".

إن استعمال مثل هذه الألفاظ الدخيلة يبدو طبيعياً في مثل بيئة ابن الخطيب فالأندلس قد اجتمعت فيها الكثير من الأجناس ذات ثقافات مختلفة، وهي وإن كانت تتخذ العربية لساناً لها، إلا أنها لابد أن تستخدم بعض ألفاظها الخاصة بها. وفي ظل تعايش هذه الأجناس وتبادلها الثقافي والحضاري كان لابد من أن يضم إنتاج ابن الخطيب بعضاً من هذه الألفاظ.

لقد أدت الألفاظ وظيفتها في تصوير حياة المجتمع الغرناطي، وفي تعبيرها عن إحساس الشاعر وقد ظهر التأثير الحضاري في لغته وألفاظه في عدة أشياء منها: أن ألفاظه اتسمت في مجملها بالرقة والعذوبة والسلاسة والبساطة بحيث خلت من الوحشي والغريب، كما كثر في معجمه الشعري الألفاظ الحضارية المتعلقة بالمجتمع والترف الذي عم به، والعلم والكتابة، والطبيعة، والعمران، كما ظهر فيها التأثر بالفلسفة والمنطق إلا أنه لم يكن يتعمق في ذلك، ومما يؤخذ عليه استعماله لبعض ألفاظ العامة في شعره، ولجوئه أحياناً إلى المعرب أو الدخيل من الألفاظ إلا أن الغالب على لغته الشعرية هو جو الحضارة الذي سيطر على كثير من ألفاظه وصوره.

ونخلص مما سبق إلى أن تصوير الشاعر بعض المظاهر الحضارية في مجتمعه، ومظاهر التقدم في عصره أوجب لغة حضارية خاصة استطاع الشاعر من خلالها أن يعبر عن الموجودات والمرئيات والمحسوسات.

---

[1] ديوان ابن الخطيب، ص: ٧٢٥، ص٧٢٧.

ب - العبارات والتراكيب :

يرى "عبد القاهر الجرجاني" أن (الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التآلف، ويعمد بها إلى وجه من التركيب والترتيب)[١]. وهذا التركيب هو الذي يقع فيه التفاضل،[٢] وهو الذي يضفي على اللفظ المفرد الجمال أو يسمه بالرداءة، فاللغة (ليست مجموعة من الألفاظ بل هي مجموعة من العلاقات)[٣].

وقد كانت رشاقة ألفاظ ابن الخطيب وتحضرها أساساً في تكوين عباراته الرشيقة، حيث أدت رقة الألفاظ إلى رقي الأسلوب، الذي يأخذ من القديم، ولا ينسى حقوق عصره ولا ما بسط له من الفكر والخيال، والبعد عن الكلام الوحشي الغريب.

ونلحظ في التركيب اللغوي لشعر ابن الخطيب بروز بعض الظواهر الفنية نتيجة لتأثير الحضارة ومنها:

١ - سلاسة العبارات ورقتها:

امتازت التراكيب في نظم ابن الخطيب – غالباً – بالليونة والرقة والسهولة ، وذلك مثل قوله في شأن السلطان "أبي عنان المريني":[٤]

مَا شِئْتَ مِنْ هِمَمٍ وَمِنْ شِيَمٍ غَدَتْ كَالرَّوْضِ أَوْ كَالزَّهرْ فِي الأَدْوَاحِ
فَضْلُ الملوكِ فَليْسَ يُدْرَكُ شَأوَهْ أَنَّي يُقَاُس الغَمْرُ بِالضَّحْضَاحِ ؟![٥]
وَغَدتْ مَغَانِي المُلْكِ لَمَّا حَلَّهَا تُزْهَى بِبِدْرِ هُدَىً وبَحْرِ سَمَاحِ
مَازِلْتُ أَجْعَلُ ذِكْرَهُ وَثَنَاءَهُ رَوْحِي وَرَيْحَانِي الأَرِيجُ وَرَاحِي

ونلحظ أن البناء اللغوي في الأبيات متكامل، محكم، لا تنافر فيه ولا تعقيد، رقيق الألفاظ لينها في غرض المدح الذي يقتضي بطبيعته القوة والرصانة. وقد استوحى صفات ممدوحه من بيئته المتحضرة بيئة الحدائق والرياض، فأخلاقه وهمته كالروض والزهور الرائعة التي تزينه، وهو كالبدر الذي يهدي في الظلام، وكالبحر في السماح

---

[١] عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي . د. عبد العزيز شرف الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١م ، ص:٢٢ .
[٢] انظر : ابن الأثير: المثل السائر : ١/ ١٥١ . وما بعدها .
[٣] د. محمود مندور : في الميزان الجديد ، الطبعة الثالثة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، (د . ت) ص : ١٨٥ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٣٣ .
[٥] الضحضاح . الماء القليل يبقى في الغدير. انظر "أبا هلال العسكري": أسماء بقية الأشياء ، تحقيق : أحمد عبد التواب عوض ، طبعة دار الفضيلة ، القاهرة ، (د.ت) ، ص : ٩٥ .

والبذل، وذكره كعبير الريحان وأريجه، وقد أجاد في رسم هذه الصورة التي يسري نسيم الحضارة في كل جزء منها.

٢ - المحسنات البديعية: -

إن للمحسنات البديعية **لفظية** كانت أو **معنوية** مكانة لا يمكن تجاهلها داخل إطار التركيب الشعري، وقد كان ابن الخطيب حريصاً على إضافة المزيد من الجمال والإشراق الفني على شعره، فقد كان ينعم بالغنى والترف ، والحضارة التي أوجبت تنميق الأثاث وتجميل القصور، لذلك فإن الاهتمام بالشكل واستحسان البديع واستعماله في الشعر يبدو موائماً لهذه الحضارة، ولشاعر مثله ينتمي إلى البلاط الملكي ويحرص على الاهتمام بصناعة شعره ، واختيار ألفاظه في المواقف الرسمية، لا سيما وقد أصبح البديع هو سمة العصر الذي يعيش فيه.

وليس المهم أن يورد الشاعر اللون البديعي في شعره. لكن الأهم أن يخلو هذا النظم من التكلف وأن يكون (اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجئ عند ذلك كظاهرٍ مُموّه، على باطنٍ مشوّه، ويكون مثله كغمد من ذهب، على نصلٍ من خشب).[١]

ومن المحسنات البديعية المعنوية " **الطباق**، وقد ورد في شعر ابن الخطيب عندما يعبر عن معانٍ متضادة، فتتضاد – تبعاً لذلك – ألفاظه المستخدمة، ومن ذلك قوله في مدح سلطان غرناطة:[٢]

وأَتَاحَ أَنْدلُساً بِحَدِّ حُسَامِهِ قَسْراً فَأَحْيَا الأَرْضَ بَعْدَ مَمَاتِها

فإن الأثر الذي أراد ابن الخطيب أن يشيد به وهو " الإحياء " قد استدعى الكلمة المضادة لها وهي " الموت " وبذلك تصبح هذه الألفاظ المتضادة لبنة لازمة في صياغة التركيب وتوضيح المعنى، وليس لمجرد الزخرفة اللفظية.

ومن هذا القبيل أيضا قوله : [٣]

ولِمَ لا؟ وَلِي قَلْـــبٌ لِبعْدِكَ خَاقِقٌ وَجَفْنٌ عَلى حُكْمِ الدُّمُوعِ جَرِيحُ

تَنَازَعَنِي الضِّدَّان فِيكَ عَلَى النَّوَى فَجِسْمِي سَقِيمٌ، والوِدَادُ صَحِيحُ

---

[١] ابن الأثير ، المثل السائر : ١٩٨/١ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٧١ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٣٧.

فالطباق بين "سقيم" و "صحيح" في البيت الثاني يدل على حال الشاعر بعد فراق أحبابه الذي أسقمه، وبرغم هذا فإن وداده صحيح تماماً، بل هو سبب ما هو فيه. فقد كان لفظ "سقيم" مستدعياً لمضاده "صحيح" في سياق البيت ليوضح حالته ويؤكد إخلاصه.

ومثله الطباق بين "الدنو" و "النزوح" في قوله:[١]

أَثَرٌ يَنْـــــــــــــدُبُ المُؤَثِّر لَمَّا طَالَ بَعْدَ الدُّنُوِّ مِنهُ النُّزُوحُ

سَاكِنُ الدَّار رُوحُهَا، كَيْفَ يَبْقَى جَسَدٌ بَعْدَمَا تَولَّى الرُّوحُ؟

كما نلحظ في البيت الثاني التضاد بين "يبقى" و"تولّى" في سياق الاستفهام الاستنكاري الذي أورده ابن الخطيب ليبين استحالة بقاء الجسد بعد خروج الروح. ولا شك أن هذا التعبير ينم عن فكر الشاعر المتحضر.

وابن الخطيب يجنح كثيراً إلى استخدام **الطباق الموجب** – كما في الأمثلة السابقة - على حساب **طباق السلب** الذي كان ظهوره قليلاً في بنائه اللغوي . ومن أمثلة هذا النوع قوله في الإشادة بكتاب "شرح الشفا" "لابن مرزوق":[٢]

رَوْضٌ مِنَ العِلْمِ هَمَى فَوْقَهُ مِنْ صَيِّبِ الفِكْرِ الغَمامُ السَّفُوحْ

فَعُمرُهُ المَكْتُوبْ لا يَنْقَضِي وإِنْ تَقضَّى عُمْرُ "ســـامٍ" و "نُوحْ"

فقد طابق في البيت الثاني بين الفعل السالب المنفي "لا ينقضي" وبين الفعل الموجب "تقضّى"، ليدل بذلك على أن العلم أثر خالد لا تبيده الأيام والليالي، وهو خير ما يمكن أن يخلد ذكر المرء بعد وفاته.

ومثله قوله:[٣]

وَأَيُّ فُؤَادٍ مِنْهُمُ غَيْرَ خَافِقٍ إِذَا خَفَقَتْ فِي الْحَرْبِ أَعْلاَمُكَ الحُمْرُ

فهو يصف حالة الذعر الذي تنتاب الأعداء عند وصوله أرض القتال، فقلوبهم تخفق من شدة الخوف، إذا خفقت الأعلام النصرية في المعركة. وجاء الاستفهام في صدر البيت لتأكيد وتقرير شدة الخوف، فطابق سلباً بين " غير خافق " و " خفقت ".

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص٢٣٦.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٣٨-٢٣٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٠١ .

وفي جميع الأمثلة السابقة قد وفق ابن الخطيب في الإتيان بالمعاني المتضادة بحيث كانت جزءاً أساسياً من التركيب الشعري ومتمماً للمعنى، إلا أنه في بعض المواضع التي استعمل فيها الطباق لم يتمكن من الإجادة كما في قوله:[١]

واللَّحْنُ قَدْ وَشَجَتْ غُصُونُ ضُرُوبِهِ فَسَبَى العُقُولَ خَفِيفَهُ وثَقِيلَهُ

إن التطابق قائم بين لفظتي " خفيفه " " وثقيلة " إلا أننا إذا أمعنا النظر نجد أن المعنى يتم بدونه، فقد أتى به متمماً لهيئة التركيب وليس فيه ما يفيد جديداً في المعنى. والحكم نفسه يطلق على التطابق بين لفظي " الحل والعقد " في قوله:[٢]

أَفِضْ فِي الرَّعَايَا العَدْلَ تَحْظَ بِحُبِّهَا وحَكِّمْ عَلَيْهَا الحَقَّ فِي الحَلِّ والعَقْدِ

وفي جميع الشواهد السابقة جمع ابن الخطيب في نظمه بين معنيين متضادين وهذا الطباق[٣] وأحياناً أخرى يعمد إلى الجمع بين معنيين متوافقين فأكثر ثم يذكر المعاني التي تضادها على الترتيب، وهذه هي **المقابلة**.[٤] ومن الشواهد على ذلك قوله:[٥]

قَدْ كَانَ يَسْتَرُني ظَلاَمُ شَبِيبَتِي والْيَوْمَ يَفْضَحُنِي صَبَاحُ مَشِيبِي

إن إشراق الصباح يجلو كل ظلمة ويظهر كل مستتر بالظلام، وهذا ما عناه ابن الخطيب من هذه المعاني المتضادة المتتالية في قوله يسترني وظلام وشبيبتي وأتى بعدها بمضادها على الترتيب وهي يفضحني، وصباح، ومشيبي وقد أسهمت هذه المقابلة في الكشف عن الأسى العميق والندم على ما فات من تفريط في حق الله، وقت شبابه، يستشفه القارئ بوضوح بفضل هذه المقابلة التي كانت جزءاً من منظومة التركيب في هذا البيت.

ومن المحسنات المعنوية التي ظهرت في شعر ابن الخطيب " **المبالغة** "[٦] حيث لجأ إليها في بعض الأغراض، ولكنها كثرت بشكل ملحوظ في قصائده المدحية إذ غالباً ما يحتاج فيها إلى لهجة المبالغة والإدّعاء. ومن الأمثلة على هذا المحسن البديعي قوله في المدح:[٧]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٧٩
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٠٨ .
[٣] انظر أبا هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص : ٣١٦ ، وما بعدها .
[٤] انظر : علي بن معصوم المدني : أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق . شاكر هادي شكر ، الطبعة الأولى ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٦٨م : ٢٩٨/١ وما بعدها .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٨ .
[٦] انظر أبا هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص : ٣٧٨ . وابن رشيق : العمدة : ٢/ ٨٥ وما بعدها .
[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٧٦ – ٢٧٧ .

فِي كَفِّهِ لِبَنِي الآمَالِ بَحْرُ نَدَى عَـــذْبُ المذَاقَةِ هَيْنٌ غَيْرَ ذِي زَبَدِ
لَوْ أَنَّ رَاحَـتَهُ فَاضَتْ أَنَامِلُهَـــا فِي الغَيْث لَمْ يَقْتَصرْ يَوْماً عَلَى بَلَد

إن وصف الكريم وراحته بالبحر موجود في الشعر العربي إلا أن الشاعر بالغ هنا فجعله بحر عذب بدون ملوحة، هين لا يضطرب بالأمواج، يحوي ما يفيد البشرية فهو بدون زبد، وزاد في البيت الثاني أن جعله غيثاً وهو تعبير -أيضاً -ورد كثيراً في الشعر العربي في وصف الكريم، إلا أنه بالغ فجعله غيث يعم جميع البلاد في وقت واحد.

إن تلك مبالغة في تصوير معنى البذل والسخاء من قبل هذا السلطان، ولكنها جاءت مقبولة، لأنه أورد ما يفيد المقاربة وهو الحرف " لو " الذي وصفه النحاة بأنه حرف امتناع لا متناع[١] فقد أحاط البيت بما يفيد عدم وقوعه ومثل هذا كاف لجعل هذه المبالغة مقبولة .

والحكم نفسه يطلق على البيت التالي الذي يصف فيه الخيل في المعركة:[٢]

ويَكَادُ يَنْتَعِلُ الهلاَلَ إِذَا سَرَى وَيُقَلِّدُ الشَّمْسَ المِنيرَةَ جِيدَهُ

فالخيل التي يحارب بها من أجود الأنواع إذ تكاد عند انطلاقها أن تعلو الهلال، وتبلغ ارتفاع الشمس وذلك أمر يستحيل قبوله لولا أنه قدم الفعل " يكاد " في بداية الصورة ، فبدت مقبولة مستساغة.

إلا أنه ثمة ما ينبغي الإشارة إليه وهو أن ابن الخطيب في بعض الأحيان جنح إلى الغلو في المبالغة إلى حد التجاوز مثل قوله:[٣]

وإِنَّ وِدَادِي فِي الخَلِيفَةِ يُوسُفٍ يُكَفِّرُ عِنْد اللّهِ مَا كَانَ مِنْ ذَنْبِي

وقوله أيضاً:[٤]

" أَيُوسُفُ " إِنَّ الدَّهْرَ أَصْبَحَ وَاقِفاً عَلَى بَابِكَ المأْمُولِ مَوْقِفَ تَائِبِ

إن المبالغة في إظهار حب ابن الخطيب للسلطان في البيت الأول ، وتوضيح مهابته وقوته في البيت الثاني قد تجاوزت حد المبالغة المقبولة إلى درجة الغلو الغير مقبول.

ومثله قوله:[٥]

---

[١] انظر : الرماني النحوي : معاني الحروف ، ص : ١١٣ – ١١٤ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٢ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص :١٢٣ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١١٣
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩٦ .

تَابَ الزَّمَانُ لَدَيْك مِمَّا قَدْ جَنَى واللّهُ يَأْمُرُ بِالْمتَابِ ويَقْبَلُ

إن تغير الحال بالسلطان "الغني باللّه " واستعادة ملكه بعد ما سلب منه، كان - على حد تعبير ابن الخطيب –جناية من الزمان الذي رجع تائباً يطلب الصفح مما قد جناه، وكأن ما حدث لم يكن بقضاء اللّه جل شأنه، وقد ذهب في هذه المبالغة إلى حد الغلو المرفوض.

ومن المحسنات المعنوية في شعر ابن الخطيب " **المذهب الكلامي** " وهو أن يورد المتكلم حجةً لما يدعيه على طريقة أهل الكلام . [١] ويظهر هذا المحسن أكثر ما يظهر في مقام الإقناع عندما يعمد ابن الخطيب إلى مخاطبة العقل وإيراد الحجج القاطعة على صحة كلامه . ونلحظ فيه أثر ثقافته المتنوعة الروافد التي اكتسبها ابن الخطيب، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله رداً على من عاتبه على جفاء بعض الأصحاب:[٢]

كِلْنِي لِعِلْمِي فِي صِحَابِي إِنَّنِـــي بِهُمُ خَبِيرٌ مَاهِـــرٌ وَمُجَـــــرِّبُ
مَهْمَا جَفَانِي صَاحِبٌ فِي النَّاسِ لِي سَعَةٌ، وفِي عَرْضِ البَسِيطَةِ مَذْهَبُ
لاَ تَسْـــتَقِرُّ عَلَى التَّنَافُسِ صُحْبَةً وَمَودَّةُ الأَكْـــفَاءِ أَمْرٌ يَصْـــعُبُ
والمَاءُ إِنْ أَلِفَ الـــتُّواءَ تَغَيَّـــرَتْ أَوْصَـــافُه وعَـــلا عَلَيْهِ الطُّحْلُبُ

إن التنافس في بعض أمور الدنيا كان هو سبب هذا الجفاء بين الأصحاب، وإذا كان هؤلاء الأصحاب ممن يقدمون المصالح الشخصية على حساب الصداقة كما ألمح لذلك فهو ينأي بنفسه عن صداقة مثلهم، ولا يأسف عليهم، ثم يعرض بنفس الأسلوب رأيه في الصداقة قائلاً:[٣]

إِنَّ الصَّدَاقَةَ لَفْظَةٌ مَدْلُولُهَـــــــا فِي الدَّهْرِ كَالعَنْقَاءِ[٤] بَلْ هُوَ أَغْـــرَبُ
كَمْ مِنْ فِضَّةٍ فُضَّتْ، وكَـــمْ مِـنْ ضَيْعَةٍ ضَاعَتْ وَكَمْ ذَهَبٍ رَأَيْنَا يَذْهَـبُ
إِلاَّ الصَّدَاقَةَ فَهْي ذُخْرٌ خَالِـــــدٌ أَسْمَى وأَسْنَى مَا اكْتَسَبْتَ وتَكْسِـبُ

إن رأيه في الأبيات يبدو متأثراً بالتجربة التي مر بها مع أصدقائه، وعليها يرى أن الصديق الوفي في هذا الزمن نادر جداً ،وفي قوله "كالعنقاء" إشارة إلى المثل العربي (الغول والعنقاء والخل الوفي).[٥]

---

[١] انظر : جلال الدين محمد " الخطيب القزويني" : الإيضاح في علوم البلاغة ، طبعة دار الجيل ، بيروت (د. ت) ص : ٢٠٨ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص :١١١ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص :١١١ .
[٤] العنقاء طائر متوهم لا وجود له .
[٥] انظر: أبا منصور عبد الملك "الثعالبي": ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: د. محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص: ٢٠٥.

ومن الأمثلة أيضا على هذا المحسن المعنوي قوله:[١]

يَبْدُو سَدَادُ الرَّأْيِ فِي رَايَاتِهـــا وأُمُورُهَا تَجْرِي عَلَى تَجْـــرِيبِ
وتَرَى الطُّيُورَ عَصَائِباً مِنْ فَوْقِهَا لِحُلُول يَوْمٍ فِي الضَّلاَلِ عَصِيبِ

فهذه الكتائب قد تمرست في الحروب كثيراً ، لذلك فإنها تمتاز بالترتيب والدقة في القتال بسبب كثرة التجارب، وهذا ما يعلل تحليق جماعات الطيور فوق ساحة المعركة، وذلك لكثرة القتلى الذين سقطوا فيها من أعدائهم أهل الضلال. والملاحظ أن البيت الثاني مأخوذ من بيت "النابغة الذبياني" الذي قال فيه:[٢]

إذَا مَاغَزَوْ بِالجَيشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائبُ طيْر تَهْتَدي بَعَصَائبُ

وقال متغزلاً:[٣]

فَيَا قَلْبُ صَبْراً فِي الغَرَامِ وَحِسْبَةً لِمنْ تَشْتَكِي بِالدَّاءِ والمُمْرِضُ الآَسِي

ومنها:[٤]

لَعَمْرُكَ مَـا أَدْرِي وَقَدْ تَقِفُ النُّهَى إِذَا الْتَبَسَ الحَـقُّ المُبِينُ بِإِلبَـــاسِ
أَتِلْكَ شِمَـــالُ أَمْ شَمُولٌ مُـــدَارَةٌ عَلَى كُل غُصْنٍ فِي الحَدِيقَةِ مَيَّاسِ
لَقَدْ ضَعْضَعَتْ حِلْمِي وَلَمْ أَرَنَسْمَةً تَضَعْضَعَ مِنْ هَبَّاتِهَا جَـــبَلٌ رَاسِي

ففي البيت الأول يقرر أمرا وهو أن علته ودوائها في يد الشخص نفسه، وفي الأبيات التي تليها يعلن التباس الأمر عليه وهو -ذو النهى -في سبب تمايل أغصان الحديقة هل هو من هبة شمالٍ أو من رشفة شمول، ولكن الأمر الأكيد أنه ذلك الجو ولا شك أن هذا الأسلوب نقل للقارئ شعور ابن الخطيب الذي لم يتمالك نفسه ومضى منسجماً مع تلك النسمات الرقيقة المنعشة متمايلاً معها ، فقد تمكنت منه برغم رقتها وضعفها وهزت حلمه ورزانته التي عرف بها . وشبه نفسه بالجبل الراسي ليشعر القارئ بمدى تأثير الطبيعة الساحرة التي لا يملك في هذا الوقت إلا تأملها والاستمتاع بها.

ولا شك أن هذا الأسلوب قد أضفى على الأبيات رشاقة وجمالاً، حيث يقنع القارئ برأيه بفضل ما يورده من أراء تدعمه .

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٢ .
[٢] انظر: ديوان النابغة الذبياني، تقديم: د.علي أبو ملحم، الطبعة الأولى، دار مكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٥٣.
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٢ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٢ .

كما عمد ابن الخطيب إلى لون بديعي آخر يستقصي فيه أقسام ما ابتدأ به، وهو ما يسمى **"حسن التقسيم"** [١] والشعراء في استعمال هذا المحسن بالخيار ، إما أن يذكروا أحوال الشيء بحيث يقرنون إلى كل حالٍ ما يليق بها وإما أن يستوفوا أقسام الشيء بالذكر وقد استخدم ابن الخطيب كلا النوعين . ومن أمثلة القسم الأول قوله:[٢]

فَالرُّمْحُ يُنَضْنِضُ مِنْ شَرَهٍ لَهُمُ والصَّارِمُ قَدْ دَلَقَا[٣]

فهذا البيت يدل على استخدام الألفاظ الصعبة غير المألوفة عند ابن الخطيب. قوله "ينضنض" و "دلقا".

ومنها في وصف الخيل:[٤]

شُهْبٌ كَالشُّهْبِ إِذَا قَذَفَتْ دهمٌ كَاللَّيْلِ إِذَا غَسَقَا
صُفْرٌ كَالشَّمْسِ إِذَا جَنَحَتْ حُمْرٌ قَدْ أُلْبِسَتِ الشَّفَقَا

لقد ذكر ابن الخطيب مع كل لفظ المعنى الذي يلائمه، فالرمح قلق مضطرب متأهب للقتال وكذلك السيف الذي دلق سريعاً للغاية نفسها، وقد أجاد ابن الخطيب في هذا البيت الذي امتاز بالتقسيم الجيد، والتعبير الموحي بهذه الصورة التي تنبض بالحركة حتى تكاد تكون مشاهدة.

وكذلك في البيتين الذين يصف فيهما الخيل وألوانها حيث يجعل لكل لون منها صورة تشابهه، فالخيل الشهب كالشهاب التي تقذف، والدهم كسواد الليل الحالك، والصفر كالشمس في أول النهار والحمر كلون الشفق. والملاحظ أن اختياراته كلها من السماء.

وقال أيضاً:[٥]

فَإِذا انْتَضَيْتَ، فَكُلُّ كَفٍّ مُرْهَفٌ وإِذَا ضَرَبْتَ فَكُلُّ عُضْوٍ مِفْصَلُ
والأَرْضُ رَاجِفَةٌ تَمُورُ وأَهْلُهَا عَصَفَتْ بِهِمْ رِيحُ العَذَاب فَزُلْزِلُوا
مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ مَاتَ مِيتَةَ فِتْنَةٍ أَوْ عَاشَ فَهْوَ مُفسَّقٌ ومُضَلَّلُ
لاَ بَيْعَةٌ تُنْجِي ولا عَهْدٌ يَقِي الدِّينُ والدُّنْيَا نَسِيجٌ هَلْهَلُ

---

[١] انظر : الخطيب القزويني : الإيضاح ، ص : ٢٠٥.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٨٩
[٣] يتضنض الشيء : أقلقه وحركه . دلق ، دلوقاً : خرج سريعاً .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٨٩ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩٦ – ٤٩٧ .

نلحظ أن التقسيم في البيت الأول جاء في أسلوب الشرط حيث اشتمل كل شطر على جملة شرطية متكاملة[١] فالكف كالسيف، والعضو كالمفصل، والأرض راجفة، وأهلها دارت عليهم رحى الحرب، فمن مات مات مفتوناً ومن عاش فهو فاسِقٌ ضال، والبيعة لا تنجي، والعهد لا يحميهم، والدين والدنيا أحوالهما سيئة . فقد قرن مع كل حالة ما يناسبها من معنى .

كما نلحظ في الأبيات لهجة المبالغة التي بدت مناسبة لهذا الموقف المهول . وبذلك يكون قد جمع الحسن من جهتين وهما **التقسيم والمبالغة**، وكلاهما من المحسنات البديعية المعنوية .

ومن أمثلة النوع الثاني من التقسيم قول ابن الخطيب الذي كتب على ثوب السلطان: [٢]

بُشْرَاكَ لِلمُلكِ فِي عُلْياكَ تَمْهيدُ وَفِي زَمَانِكَ لِلأَفْـــراحِ تَجْدِيدُ

وصَاحَـــبتْكَ عَلى الأَيَّامِ أَرْبَعَةٌ: عِزٌّ، وَنَصْرٌ، وتمْكينٌ، وتَمْهيدُ

ففي البيت الثاني دعا الشاعر للسلطان بأربعة أشياء وهي: العز، والنصر والتمكين، والتمهيد. حيث عددها في الشطر الثاني. ولا شك أن كتابة هذه الأبيات على الثياب يعكس مظهراً من مظاهر الترف الذي كان نتيجة لازدهار الحضارة في المجتمع الغرناطي.

ومن التقسيم الجيد قوله:[٣]

يَا مَنْ تَشَابَه مِنْهُ فِي ضَعْفِ القُوى خَصْرٌ وطَرْفٌ سَاحِرٌ وعُهُودُ

لقد ذكر في الشطر الأول أن ثمة أمور في محبوبته يجمعها ضعف القوى، ثم عدد هذه الأمور في الشطر الثاني من البيت، فكانت هي الخصر، والطرف الساحر، والعهود.

---

[١] (إذا) في البيت شرطية و(انتضيت) فعل الشرط وجملة (كل كف مرهف) جواب الشرط ، وكذلك في الشطر الثاني (إذ)ا شرطية و(ضربت) فعل الشرط و(كل عضو مفصل) جملة الجواب ، انظر : د. إبراهيم الشمسان : الجملة الشرطية عند النحاة العرب ، الطبعة الأولى ، مطابع الدجوي ، ١٩٨١م ص : ١٤٤- ص:٢٤٧ .

[٢] ديوان ابن الخطيب : ٣٣١ .

[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٨ .

وبجانب المحسنات البديعية المعنوية السابقة احتلت المحسنات البديعية اللفظية مكانها في شعر ابن الخطيب بشكل ملحوظ، ومن هذه المحسنات على سبيل المثال – **الجناس**[١] ومن الأمثلة عليه قوله:[٢]

فِي مَوْقِفٍ يا هَوْلَهُ مِنْ مَوْقِفٍ يَذْوِي لَهُ رَضْوَى ويَذْبُلُ يَذْبُلُ[٣]

إن الجناس المستوفي بين الفعل "يذبل" والاسم "يذبل" لم يكن مجرد حلية لفظية، فسيرورة المعنى استدعت وجود مثل هذا التجنيس ويبدو أن بنية الاسم "يذبلْ" قد أيقظت في ذهن ابن الخطيب ما يقابلها من الألفاظ على نفس البنية. وبذلك أوجد بهذا التجنيس روابط منطقية بين اللفظين ضمن إطار التركيب الشعري.

وابن الخطيب ينوع في استخدام الجناس في تركيبه الشعري، مثل استخدامه **لجناس التركيب** [٤] وذلك مثل قوله:[٥]

مَا ضَرَّ لَوْ سَلَّمَ أَوْ وَدَّعَا مَنْ أَوْدَعَ القَلْبَ الَّذِي أَوْدَعَا

فقد جانس بين ثلاث كلمات وهي: " أودعا " المركبة من " أو " العاطفة، والفعل " ودع " وبين الفعل "أودع" أول الشطر الثاني وفي قافيته وهي كلمة مفردة غير مركبة.

والملاحظ أن ابن الخطيب يكثر من استخدام الجناس الناقص، حتى لا تكاد تخلو منه قصيدة، ولنتأمل قوله:[٦]

بِنَفْسِيَ مَنْ حَيَّيْتُهُ فَاسْتَخَفَّ بِي وَلَوْ أَنَّهُ رَدَّ التَّحِيَّةَ أَحْيَانِي

فقد جانس بين الكلمتين " حييته وأحياني .

وقوله:[٧]

هَفَّافَةٌ يَقْضِي لَطِيفُ هُبُوبِهَا بِتَذَكُّرِ الأَوْطَانِ والأَوْطَارِ

وقوله كذلك:[٨]

إِمَامُ عَدْلٍ يُحِبُّ اللّهَ سِيرَتَهُ عَفُّ العُيُونِ كَرِيمُ الخَلْقِ والخُلُقِ

---

[١] هو إيراد كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها ، واشتقاق المعنى ، أو في تأليف الحروف دون المعنى ، انظر : أبا هلال العسكري : كتاب الصناعتين: ٣٣٠ ، ابن معصوم المدني : أنوار الربيع ١: ٣٠٩ وما بعدها .

[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩٩ .

[٣] رضوى ويذبل جبلان معروفان بالمدينة .

[٤] ويسمى أيضاً المفروق ، وفيه تكون الكلمة الأولى مفردة والأخرى مركبة وجرسهما في الأذن واحد لكن صورة كتابتها مختلفة . انظر : د. بكري شيخ أمين / البلاغة العربية في ثوبها الجديد، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م، ص: ١٣٧.

[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٥٠ .

[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٢٤ .

[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٦٧ .

[٨] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٩١ .

فقد جانس بين " الأوطان " والأوطار "والخلق" "والخُلق" جناسا ناقصاً، كما نلحظ في هذه الأمثلة من الجناس الناقص أن الضرب هو موقع أحد طرفي الجناس.

وقد أجاد ابن الخطيب في كل الأمثلة السابقة حيث أتى بالجناس -إلى جانب غرض التنميق - جزءاً من منظومة التركيب في البيت، ولكن أحياناً لم يوفق لهذا الغرض وذلك عندما يبتعد عن السجية ويعمد إلى التكلف لأن الجناس بأنواعه – شأنه شأن المحسنات البديعية جميعاً - لا يحسن حتى (يساعد اللفظ المعنى، ويساوي مطلعها مقطعها، ولا تملح حتى يوازي مصنوعها مطبوعها، وإلا فما قلق في أماكنه، ونبا عن مواقعه فبمنعزلٍ عن الرضا عند علماء البيان).[١]

ومن الأمثلة على الجناس المتكلف في نظم ابن الخطيب قوله:[٢]

وَصَلْتُ حَثِيثَ السَّيْرِ فِيمَنْ فَلاَ الفَلاَ فَلاَ خَاطِرِي لمَّا نَأَى وانْجَلَى انْجَلَى
ولاَ نَسَخَتْ كَرْبِي بِقَلْبِيَ سَلْـــــوَةً فَلَمَّا سَرَى فِيهِ نَسِيمُ "سَلا " سَلا

وقوله كذلك:[٣]

مَالِي أُعَذِّبُ نَفْسِي فِي مَطَامِعِهَا والنَّفْسُ تُزْرِي بِتَهْذِيبِي وتَهْذِي بِي
وإِذَا اسْتَعَنْتُ عَلَى دَهْرٍ بِتَجْرِبَةٍ تَأْبَى المَقَادِيرُ تَجْرِيبِي وتَجْرِي بِي

ويبدو التكلف واضحا في كلا البيتين فلا نجد في هذا الجناس طلاوة أو جمالاً بل على العكس نجده مثقلاً بهذا التجنيس الذي صنعت الأبيات من أجله ولم يأتِ عفو الخاطر. وإذا تأملنا قوله في ختام أحد القصائد:[٤]

خُذْهَا إِلَيْكَ عَلَى النَّوى سِينِيةً تُرْضِي الطِّبَاقَ وتَشْكُرُ التَّجْنِيسَا

نلحظ أن استخدام ابن الخطيب لأنواع البديع كثيراً كان متعمداً. وقد يكون بذلك مجارياً لعصره ومتقيداً بأسلوبه الذي كان يغلب عليه البديع. لكنه إذا أرسل نفسه على سجيتها فإنه يأتي بالجميل والرائق من هذه المحسنات البديعية.

أما أكثر المحسنات البديعية اللفظية استعمالا في نظم ابن الخطيب هي "**التورية**"[٥] التي يظهر أنها كانت فناً شائعاً في هذا العصر لدى الأندلسيين.[٦] وكثيرا

---

[١] ابن معصوم المدني ، أنوار الربيع : ٢٢٢/١.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٧١ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٧ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٢٨.
[٥] هي أن يذكر لفظ له معنيان أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفيه ، فيقصد المتكلم المعنى البعيد ، ويورى عنه بالقريب فيتوهم السامع أنه يريد القريب من أول وهلة ، وقد كان لها مسميات كثيرة في كتب بلاغة منها : التخييل وقد وذكره ابن معصوم، ووردت عند ابن الأثير باسم المغالطة المعنوية وغيرها ، انظر : ابن معصوم المدني : أنوار الربيع : ٥/٥ وما بعدها . ابن الأثير : المثل السائر : ٢٠٣/٢ وما بعدها .
[٦] انظر : د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص : ٢٨٦ – ٢٨٧ .

ما كان ينظمها في مقطعات خاصة بها غالباً لا تتجاوز البيتين.[١] وقد وَرَّى بكثير من الأشياء مثل **أسماء الكتب** ومنها قوله:[٢]

ولَمَّا رَأَتْ عَزْمِي حَثِيثاً عَلى السُّرَى وَقَدْ رَابَها صَبْرِي عَلَى مَوْقِفِ البَيْنِ
أَتَت" بِصِحَاحِ الجَوْهَرِي" دُمُوعُهَا فَعَارَضْتُ مِنْ دَمْعِي "بِمُخْتَصِرِ العَيْنِ"

لقد وقعت التورية في البيت الثاني في صحاح الجوهري وهو معجم لغوي معروف، وهذا هو المعنى الظاهر في البيت ، لكنه قصد بها دموع محبوبته التي تساقطت كالجواهر، كما ورى بكتاب مختصر كتاب العين "لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي"،[٣] وكان يقصد دموعه التي حاول قدر استطاعته أن يخفيها ويُظهر الصبر والتجلد في موقف الفراق.

ومن جيد التورية قوله :[٤]

وَظبْيِ لأَوْضَاعِ المجَالِ مُدَرِّسٍ عَلِيمٍ بأَسْرَارِ المحَاسِنِ مَاهِرِ
أَرَى جِيدَهُ نَصَّ "المُحَلَّى" وَقَرَّرَتْ ثَنايَاهُ ما ضَمَّتْ " صِحَاحُ الجَوَاهِرِ

إن هذه المحبوبة فاتنة الجمال ويزيدها فتنة الحُلي التي تتجمل بها، فكانت التورية مما زاد هذا المعنى جمالاً بعد تأملها، فالمحلى هو مؤلَّف "لابن حزم الأندلسي"، وهذا هو الظاهر، والمقصود به الجيد المحلى بالزينة ، أما " صحاح الجواهر " فهو كتاب "الصحاح" للجوهري ويقصد به ثناياها التي بدت كالجواهر في جمالها ولمعانها. ولاشك أن هذه التورية تنم عن ترف عقلي، ورقي فكري.

وقال أيضاً:[٥]

فُؤَادِيَ مَأْمُورٌ ولَحْظُكَ آمِرٌ وطَاعَةُ رَبِّ الأَمْرِ في النَّاسِ وَاجِبُ
وَأَيَّدَ ذَاكَ اللَّحْظُ مِنْكَ بِحَاجِبٍ وَيَقْبُحُ أَنْ يُعْصَى أَمِيرٌ وَحَاجِبُ

فقد ورى في البيت الثاني بالأمير والحاجب الذي يقف على بابه، وهذا هو المعنى القريب لهذين اللفظين، ولكن المقصود هما لحظ – عيون – وحاجب المحبوبة، التي يمتثل لكل ما تريده، وحجته في ذلك استوحاها من تعاليم الشريعة – وذلك تحضر فكري – التي تقرر وجوب طاعة ولي الأمر.

---

[١] بلغ عدد المقطوعات التي نص على أنه نظمها في غرض التورية فقط تسعاً وثلاثون مقطوعة .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٥ .
[٣] انظر : عمر كحالة : معجم المؤلفين: ٩: ١٩٨ – ١٩٩.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٢٦ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥٢ .

ومن التورية **بأسماء العلماء** قوله:[١]

قَالَ لِي والدُّمُوعُ تَنْهـلُّ سُحْبـــــــاً فِي عِراصٍ مِنَ الخُدودِ مُحُولِ

أَنَا جَفْنِي القَرِيحُ يَرْوِي عَنِ "الأَعْمَشِ"[٢] والجَفْنُ مِنْكَ عَنْ "مَكْحُولُ" [٣]

ففي قوله "الأعمش" اشترك اللفظ بين "سليمان الأعمش" التابعي المشهور، وهذا هو المعنى الظاهر وبين ضعيف البصر من سيلان دموعه وهذا هو المعنى المقصود، وكذلك لفظ "مكحول" اسم مفعول مشترك بين اسم فقيه الشام، وهذا هو الظاهر وبين كحل العين وهو المراد، وقد قوى هذه التورية ذكر لازم المورّى عنه وهو الفعل " يروي" وهذا نوع من التورية يسمى " التورية المبيّنة " .[٤]

لكن ابن الخطيب في بعض الأحيان يجنح إلى التكلف غير المقبول في التورية مثل الأبيات التي نظمها مداعباً لشيخه "ابن الجياب" ويقصد فيه الإكثار من التورية في شأن اللحم المعروف "بالمبرد" [٥] قائلاً:[٦]

يَا وَاحِدَ العُلْيَا بِلاَ إِلْبَـــــاسِ ابْعَثْ بِسَهْمٍ مِنْ " أَبِي العَبَّاسِ "

واعْلَمْ بِأَنِّي لاَ أُقَلِّدُ مَذْهَبِـــي " سُفْيَانَ " يَوْماً خِيفَةَ الوَسْوَاسِ

ولِجَدِّ مَنْ شَرحَ الكِتَابَ تَحَيُّزِي هَذَا إِذَا اخْتَلفَ انْتِمَاءُ النَّـاسِ

لقد أكثر من استخدام التورية بحيث لم يخلُ بيت منها. ففي البيت الأول ذكر "أبا العباس" والظاهر من الأبيات أنه العالم النحوي "أبو العباس المبرد"[٧] ولكن المقصود هو اللحم المبرد فاللفظ مشترك بينهما . وفي البيت الثاني ورّى " بسفيان " وهو الفقيه سفيان الثوري"[٨] ولكنه قصد لحم الثور، أما في البيت الثالث فقد ورى بلفظ من " شرح الكتاب " عن لحم الخروف ، فقد كان " لابن خروف " شرح لكتاب سيبويه ،وهذه التورية لم تكن قريبة المأخذ ، بل كان يلفها الغموض لأنها متكلفة، ومع ذلك فإنها وإن كانت تدل على التقدم الفكري والثقافة المتنوعة المشارب إلا أنها أبعدت الأبيات عن

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٠٨ .

[٢] [٢] سليمان الأعمش (٦١ – ١٤٨هـ) أبو محمد تابعي مشهور ، أصله من بلاد الري ، نشأته ووفاته بالكوفه كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ، انظر : الزركلي : الأعلام : ١٩٨/٣ .

[٣] مكحول الشامي (ت – ١١٢هـ) أبو عبد الله الهذلي بالولاء أصله من بلاد فارس . من حفاظ الحديث وكان فقيه الشام في عصره ، انظر : الزركلي : الأعلام : ٢١٢/٨ .

[٤] انظر : ابن حِجّة الحموي : خزانة الأدب ونهاية الأرب ، طبعة مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٧٣هـ ، ص: ١٣٣.

[٥] اللحم المبرد هو لحم وماء وملح ليس غير .

[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٢١ .

[٧] محمد بن يزيد " المبرد " (٢١٠ – ٢٨٦هـ)، من مؤلفاته كتاب (الكامل) و(المقتضب). انظر ترجمته في: الزركلي: الأعلام: ٥٢/١٧.

[٨] سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله. كان أعلم أهل زمانه بعلوم الدين، انظر: الزركلي: الأعلام: ٢٢٥/٦، وما بعدها.

روح الشعر التي تعنى بالعاطفة والشعور أولاً وأصبحت ميداناً لعرض المعلومات التي يمتلكها الشاعر .

والملاحظ أن التكلف كان سمة في بعض المقطوعات التي خصصها ابن الخطيب للتورية لأنه كان ينشئ الأبيات لهذا الغرض ، ولكن إذا تأملنا ما وقع منها في بعض قصائده نجده يتسم بالرقة والجمال الفني ، ومن الأمثلة عليها قوله في مدح السلطان:[1]

فَتُلْحَظُ مِنْ أَنْوارِهِ سُوَرَةُ الضُّحَى وتُحْفَظُ مِنْ آثارِهِ سُوَرَةُ الحَمْدِ

فقد ورى بسور القرآن الكريم وهما سورة "الضحى" وسورة "الفاتحة"، والمقصود من الأولى وضاءة الوجه والسماحة والراحة التي يستشعرها كل ناظر إليه ، أما المقصود من لفظ الثانية فهو الحمد والشكر الذي تستوجبهما أفعاله ومآثره التي ليس لها جزاءاً إلا الشكر ونلحظ في هذه التورية التأثر بالحضارة الإسلامية .

وفي إطار الاهتمام بالشكل والتصنع في ذلك أحياناً نجد ابن الخطيب يعمد في بعض المواقف إلى إثبات مهارته وقدراته الفنية مثل قوله في مدح أحد الحكام:[2]

سَقَتْ سَارِيَاتُ السُّحْبِ سَاحَةَ فَاسِ سَوَاكِبَ تَكْسُو السَّرْحَ حُسْنَ لِبَاسِ
وسَارَ بِتَسْلِيمي لِسُدَّة "فَارِسٍ" نَسِيمٌ سَرَى لِلسَّلْسَبِيل بِكَاس
سَرَاجُ السُّرَى شَمْسٌ سَمَا ، قَبَسُ السَّنَا كَسَا سَاطِيَاتَ الأُسْدِ لِبْسَةً باسِ

ونلحظ في الأبيات التزام ابن الخطيب حرف السين في كل كلمة ، وهذا ضرب من عرض المواهب والمقدرة على الإتيان بغير المألوف . إذ لا طائل من التزام حرف معين، فهذا الأمر لم يكسب القصيدة أي جمال بل على العكس تبدو مثقلة بالقيود ، وفيها دلالة على الاهتمام بالشكليات التي لا طائل من ورائها. وكل ذلك بسبب تعقيد الحضارة التي عاشها الناس في ذلك الوقت فأصبحوا يبحثون عما يخالف المألوف في كل شيء.

نستنتج أن استخدام ابن الخطيب لألوان البديع بنوعية المعنوي واللفظي يمثل لونا ثقافياً طريفاً ، يتراءى فيه الترف الذهني والتأنق اللفظي الممتع بحيث لم تخل منه قصيدة أو مقطوعة في شعره، والملاحظ على عمومها أنها كانت مما يستدعيه المقام، ويتطلبه

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٩ .
[2] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٧٣٥ .

المعنى فكانت مطلوبة من أجله، وهذا هو سبب مجيئها بعفوية، ولكنه أحياناً جنح إلى تكلف هذه المحسنات وقصدها قصداً دون أن يتطلب المقام ذلك. مما يفقده الطلاوة ويضفي عليه تعقيدا لا داعي له.

٣ - التناص:[١]

لقد استطاع ابن الخطيب أن يوظف مقروءة الثقافي في شتى فروع المعرفة العقلية والنقلية لخدمة نصه الشعري، فالمبدع لا يمكن أن يكتب نصاً أدبياً دون سابق تعامل معمق، ومكثف مع النصوص الأدبية في مجال معين أو مجالات متعددة.[٢]

وقد كان لهذا التناص[٣] حضور مكثف في شعر ابن الخطيب، كما كان متنوع المصادر التي كان أبرزها القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربي، الأمثال العربية، والأحداث التاريخية.

فالقرآن الكريم على رأس المصادر الإسلامية التي ظهرت بشكل واضح في شعره وذلك بتأثير الحضارة الإسلامية مما أصفى على نظمه مسحة من الجمال الفني زادها إشراقاً التنوع في طريقة الأخذ فتارة يأخذ آية بنصها وتارة . يشير إليها إلى جانب أنه كان عامل أثراء وتعميق للرؤية الشعرية ومن الأمثلة على ذلك قوله في الغزل:[٤]

لَوْ بَدَا لِلْحُورِ يَوْماً وَجْهَـهُ قُلْنَ جَلَّ اللّهُ "مَا هَذا بَشَرْ"

ونلحظ أن تركيب الشطر الثاني من البيت مستمد من التركيب القرآني في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ سورة يوسف آية (٣١) .

وقال[٥] في وصف "مكناسة الزيتون":[٦]

جَبَلٌ تَضَاحكَتْ البُرُوقُ بِجَوِّهِ فَبكَتْ عِذَابُ عُيُونِهِ بعيُون

وكَـــــأنَّما هُو بَرْبَريٌّ وَافِدٌ فِي لَوْحِـــهِ (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

---

[١] هو تضمين النص لنص آخر ، أو استدعاؤه ، أو هو تفاعل خلاق بين النص المستحضِر والنص المستحضَر ، فالنص ليس إلا توالد لنصوص سبقته ، انظر : د. توفيق الزيدي : قضايا قراءة النص الشعري الحديث من ظلال ممارسته عند النقاد العرب ، مجلة الموقف الأدبي، العدد ١٨٩ – كانون الثاني ، ١٩٧٨م ، ص ١٧ .

[٢] انظر د. أحمد محمد قدور : الظواهر التناصية في الشعر العربي الحديث ، مجلة بحوث جامعة حلب ، العدد الحادي والعشرون ، ١٩٩١م ص . ٢٤٩ .

[٣] سوف استخدم بعض المصطلحات التي تدور في فلك هذا المصطلح وهي : التضمين ، الاقتباس وتداخل النصوص وذلك بحسب انسجامها مع السياق .

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٩٣ .

[٥] ديوان ابن الخطيب، ص٥٧٩.

[٦] هي مدينة مكناس الحالية، وتقع في جنوب غرب فاس بالقرب من جبل زرهون الذي تحيط به أشجار الزيتون والكروم. انظر: أبا عبد الله محمد بن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، طبعة: المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤، ص:٣، وما بعدها.

ونلحظ من خلال البيتين أن هذا الجبل -جبل زرهون –تغطيه أشجار الزيتون والكروم وتحيط به من كل الجهات. وفي البيت الثاني شبهه بالبربري الذي يحرص على لوحة لا تفارقه، كما لا يفارق التين والزيتون "جبل زرهون". والملاحظ أن تركيب الشطر الثاني من هذا البيت قد تضمن قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ سورة التين آية(١).

وفي كلا البيتين نجد أن هذا التضمين للآيتين القرآنيتين قد جاء منسجماً مع السياق ومتمماً للمعنى. أما التضمين غير المباشر لتراكيب القرآن فهو الغالب في شعر ابن الخطيب، فالآية تكون حاضرة في ذهنه، لكن الهيئة التركيبية لها تكون مختلفة حسب السياق الذي تدخل فيه، كقول ابن الخطيب:[١]

عَـاطيتُهُ رَاحاً مِنَ الأَدَبِ الَّذِي مُزِجَتْ سُلاَفَتُهُ بِصِرْفِ بيَانِ
وهَزَزْتُ دَوْحَ بَدائِهِي فَتَساقَطَتْ رُطَبُ المَعَانِي تَسْتَفِزُّ الجَانِي

ففي هذين البيتين يفخر ابن الخطيب بعلو كعبه في مجال الأدب، وحضوبه فكره وخياله في تشبيه بديع اقتبسه نت التركيب القرآني في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ سورة مريم آية (٢٥).

أما تضمين تراكيب **الحديث النبوي الشريف** فلم يعتمد عليها ابن الخطيب كثيراً، وقد كان يعمد إلى استحضار هيئتها التركيبية بشكل مباشر فيدخلها ضمن بنائه اللغوي للبيت كقوله:[٢]

"مطل الغنى ظلم" ففيم ظلمتني؟ ولويت ديني عن وجود يسار

فقد ضمن مطلع البيت جزءاً من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (مطل الغني ظلم، وإذا أُتبعَ أحدكم على مليءٍ فَلْيَتْبَعْ).[٣]

أما تناص **الشعر العربي** فهو كثير نسبياً بحيث وازن ابن الخطيب في تضمينه ما بين المباشرة والإشارة فأحياناً نجد شطراً بأكمله يدخل ضمن تركيبه اللغوي في البيت، مثل قوله في ختام قصيدة رد بها على شيخه "ابن الجياب":[٤]

فَأمْدُدْ لَها كَفّاً بُنَيَّةَ سَاعِةً لَكِن أَبُوهَا دُونَ فَخْرٍ مُنْجِبُ
وَإِذَا أَتَتْكَ عَشية فَأَنْشُدْ لَهَا "عَارَضْنَنَا أُصُلاً فقُلْنَا الربرب"

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص:٥٧٦.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٦٨ .
[٣] انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٢٩م: ٢٢٨/١٠.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١١٢ .

فالشطر الثاني مقتبس من مطلع بيت للبحتري، وعجزه: (حتى أضاء الأقحوان الأشنب)[١] وقد جاء الشطر حسن الموضع منسجماً مع سياق البيت خاصة وأن القصيدة كانت معارضة لقصيدة "ابن الجياب" التي بعث بها إليه.

وقال أيضاً في الإشادة بالصفات الإنسانية النبيلة:[٢]

وَمِنْ شَأْنِهِ، واللّهُ يَرْفَعُ شَأَنَهُ (عَفَافٌ وإِقْدَامٌ وحَزْمٌ ونَائِلُ)

وقد اقتبس في الشطر الثاني من بيت "أبي العلاء"، وصدره : (ألا في سبيل الله ما أنا فاعل).[٣]

وكما ضمن ابن الخطيب نظمه من الشعر العربي، كما في الأمثلة السابقة، فإنه عمد كثيراً إلى الإشارة إليه مثل قوله:[٤]

الطَّاعِمُ الكَاسِي ورِفْدُكَ كَافِلٌ والعَالَةُ المعْفَاةُ مِمَّا يَثْقُلُ

فهذا البيت فيه إشارة إلى قول "الحُطيئة":[٥]

دَعِ المكَارِمَ لاَ تَرْحَلُ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

وقوله:[٦]

هَيْهَاتَ يَجْحَدُ فَضْلَ مَجْدِكَ جَاحِدٌ إِنَّ العُلاَ عَلَمٌ وفَخْرُكَ نَارُهُ

إن هذا الممدوح في المعالي مثل العلم البارز الذي لا يخفى على أحد، ومع ذلك وإمعاناً في إشهاره وعدم تجاهل فضله جعل في هذا العلم نار، وهذا يذكرنا ببيت "الخنساء" في أخيها "صخر" حين قالت:[٧]

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارِ

وتشكل **الأمثال** مظهراً آخر من مظاهر التناص في شعر ابن الخطيب، ومن الأمثلة على ذلك، قوله في التنويه على مكانة الشعر:[٨]

---

(١) انظر : الوليد بن عبادة الطائي " البحتري " : ديوانه ، تحقيق : حسن كامل الصيوفي ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ٣١٧/٢ .
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥١٦ .
(٣) انظر : أبا العلاء المعري : سقط الزند ، شرح : د. أحمد شمس الدين ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص : ١٠٦ .
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩٧ .
(٥) انظر : ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ، تحقيق : محمد أمين طه ، الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص : ١٠٨ .
(٦) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٧٣ .
(٧) تماضر بنت عمر بن الحارث"الخنساء": ديوانها، تحقيق: أنور أبوسويلم، طبعة دار عمار، الأردن ١٩٨٨م، ص:٥٤.
(٨) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٠ .

وَإِنْ قِيلَ: "قَدْرُ المرْءِ مَاهُوَ مُحْسِنٌ" [١] فَصَنْعَهُ نَظْمِ القَوْلِ أَرْفَعُهُ شَانَا

فقد ضمن بيته هذا المثل وأصله: (قيمة كل امرئٍ ما يحسنه) وهو منسوب "لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه"، ليؤكد على أن الشعر من الفنون الرفيعة في كل زمان، وبقدر إجادة الشاعر يكون مكانه ورقيه. وبذلك يكون قد أيد هذا الرأي الذي جاء به بواسطة مثل يعرفه الجميع.

وقال أيضاً في الرَّد على أحد كتاب الوثائق:[٢]

وَقَدْ عَارَضْتَ عُذْرَكَ باعْتِرافٍ فَزِدْتَ مَذَمَّةً تَسِمُ الطَّرِيقَةْ

ويبدو هذا البيت مقتبساً من قولهم (العذر أقبح من الزلة) أو (عذر أقبح من ذنب)[٣]

ونلحظ من المثالين السابقين أنه ضمن المثل في الأول، وأشار إلى معناه في البيت الثاني، إلا أن الفائدة كانت نفسها حيث عمل المثل على دعم الفكرة وإمتاع القارئ بها.

إلا أنه ثمة ما يجب الإشارة إليه وهو أن ابن الخطيب لم يأنف من استخدام بعض **الأمثال العامية** في تركيبه الشعري، كما استخدم من قبل بعض الألفاظ، مثل قوله:[٤]

قُلْتُ لِلسَّاخِرِ الَّذِي رَفَعَ الأَنْفَ واعْتَلَى

أَنْتَ لَمْ تَأْمَنِ الهَوَى "لاَ تُعَيِّر فَتُبْتَلَى"[٥]

فقد ضمن البيت الثاني مثلا يستعمله العامة ينهى فيه الإنسان عن السخرية، حتى لا يبتليه الله بما سخر منه.

وقال أيضاً في طول الليل:[٦]

سَاوَرْتُ أَسْوَدَ مِنْ ظَلاَم دُجَىً مَنْ نَابهُ فَإِلَى الهُمُوم دُفِعْ

أَنَا لاَ أَقُولُ سَطَا الصَّبَاحُ بِهِ لَكِن "طَغَى ثُعْبَانُهُ فَرُفِعْ"

فقد ضمن ابن الخطيب في البيت الثاني أحد الأمثال التي تتداولها العامة، وأصله قولهم:(إذا طغى الثعبان يرفع)[٧]. فهذا الليل قد جلب له الهموم، ولم يشرق بعده الصباح لأنه تغلب عليه وسطا به ولكن لأن الله تعالى قد عاقب هذا الليل لطغيانه وإفراطه في الطول، فكان هذا المثل موحياً له بذلك المعنى وضمنه الأبيات ليعلل انتهاء الليل حسب رأيه.

---

[١] انظر : الميداني : مجمع الأمثال: ٥٣/٤.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٣ .
[٣] انظر: الميداني: مجمع الأمثال: ٨٨/٣.
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٧١ .
[٥] انظر : أبا يحيى عبيد الله الزجالي القرطبي : أمثال العوام في الأندلس ، مستخرجه من كتابه : ري الأوام ، ومرعي السوام ، في نكت الخواص والعوام : حققها وشرحها : د. محمد بن شريفة ، الطبعة الأولى ، منشورات وزارة الثقافة ، فاس ، المغرب ، ١٩٧١م : ٤٦٣/٢ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٦٣ .
[٧] انظر: أبا يحيى الزجالي: أمثال العوام في الأندلس: ١٣/٢.

وقال مقرراً بأن كل شيء ثمين يحتاج إلى الرعاية والمحافظة عليه، أما من أهمل وقصر في الرعاية فلا شك أنه سيخسر:[١]

لَضَيَّعْتُ قَلْبِي ثُمَّ أَصْبَحْتُ نَاشِداً وَقَدْ قِيلَ "أَوْلَى بِالخَسَارِ المضَيِّعُ"

وقد أستشهد بهذا المثل العامي وأصله: (المضيّع أولى بالخسارة)[٢] ليؤيد الفكرة التي عبر عنها .

أما التناص **التاريخي** في شعر ابن الخطيب فقد كان واضحاً جلياً، ولا غرابة في ذلك لأن ابن الخطيب إلى جانب كونه أديباً فهو مؤرخ كبير وجل مؤلفاته كانت تاريخية، وقد استطاع أن يجعل ثقافته التاريخية رافداً من روافد الإبداع في شعره، فنلحظ فيه استحضار أحداث التاريخ الماضية، سواء بذكر الأمم السابقة، أو المعارك، أو استدعاء الشخصيات التاريخية وهي الأكثر في شعره.

ومن الأمثلة قوله وفيه إشارة إلى أحد أيام العرب المشهورة قبل الإسلام:[٣]

للّهِ، يَا اللّهُ ! سِيرَةَ يُوسُـــــفٍ مُحْيِي العُفَاة وقَاتِلِ الإِقْتَـــــارِ

لَوْ كَانَ فِي "جَفْرِ الهَبَاءَةِ" مَاثِلاً[٤] لَعَدا عَلَى النَّقْدِ الهزَبْرِ الضَّارِي

لقد كان تاريخ العرب يجسد في الواقع شجاعتهم وعزتهم، ومقدار ما يحملونه من كرامةٍ وإباء. ولذلك استعان بهذه الموقعة لتوضيح شجاعة وبأس ممدوحه.

ومن **التاريخ الإسلامي** ذكر ابن الخطيب موقعتي بدر وأحد في قوله:[٥]

إِنَّ الحُرُوبَ سِجَالٌ طَالَمَا وَهَبتْ فِي اليَوْمِ فُرْصَتَها واسْتَرْجِعَتْ لِغَدِ

لاَ يَغْرُرِ الرُّومَ مَا نَالُوا وَمَا فَعَلُوا فَإِنَّ ذَلِكَ إِمْـــلاَءٌ إِلى أَمَـــــــدِ

فَلْلقُلُوبِ مِنَ الغَمَّاء مُنْصَـــرَفٌ بِمَا تَقَـــــدَّمَ فِي بَدْرٍ وَفِي " أُحُدِ"

فقد استلهم من هاتين الموقعتين انتصار الحق على الباطل، ليؤكد أن حرب ممدوحه وجنوده مع الروم سجال حتى لو انتصر هؤلاء عليهم فهذا مجرد إملاءٍ لهم.

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٦٥ .
[٢] انظر : أبا يحيى الزجالي : أمثال العوام في الأندلس : ٧٣/٢ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٦٩ .
[٤] وقعة في أيام العرب المشهورة ، قتل فيها عدد كبير ، انظر " ابن الأثير " الكامل في التاريخ: ٣٥٢/١ -٣٥٣.
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٧٧ – ٢٧٨ .

ومن الأمثلة على استدعاء الشخصيات، قوله:[١]

وَنَادَى لِسَانُ الفَتْحِ فِي عَرَصَاتِهِم "كَذِلَك مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ"

لقد كان لاسم ممدوحه " أبي الحجاج يوسف " دور في استدعاء القصص القرآني وخاصة قصة النبي يوسف عليه السلام، ليدل على تمكن ممدوحه في ملكة واستتباب الأمن في عهده. كما مكن الله تعالى "ليوسف" عليه السلام في الأرض .

وقوله في مدح أحد الأدباء:[٢]

يُرِيكَ حِجَى "لُقْمَانَ" فِي حُلْمِ أَحْنَفٍ "ومَنْطِقِ "قُسٍّ "تَحْتَ حِكْمَةِ "هُرْمُسِ"

ونلحظ أنه حشد في البيت أربع شخصيات شهيرة مشبها بها ممدوحه بعقل "لقمان"، وحلم "الأحنف"، ومنطق "قس"، وحكمة هرمس.

وكذلك قوله:[٣]

أَنْسَيْتَنَا بِحُسَامِكَ المَاضِي الظَّبَى ولِوَائِكَ " المَنْصُورَ " و" السَّفَّاحاَ "

فهذا الخليفة قد فاق من سبقه من حكام في القوة وشدة البأس حتى أنه أنسى "المنصور" و"السفاح" من ملوك بني العباس.

نستنتج مما سبق أن التناص بكافة أنواعه كان له حضور مكثف في شعر ابن الخطيب، ولا نعني بوجوده كأثر من أثار التحضر في التركيب الشعري أنه لم يكن موجوداً عند القدماء وإنما نعني أنه بفعل الحضارة والتقدم العلمي أصبحنا نلحظه بشكل مكثف. ونلمس أثر الدين الإسلامي بوضوح من خلال التناص الديني مع نصوص القرآن والحديث، كما ورد كثيرا التناص مع الشعر العربي، والأمثال، إلا أن التناص الأكثر حضوراً في شعر ابن الخطيب هو التناص التاريخي للأسباب التي ذكرناها آنفاً، كما كان التساهل في اللغة والتجاوز في استخدام التراكيب العامية هو من التأثير الذي لعبته الحضارة في لغة الشعر.

❖ ❖ ❖

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٣٨ ، وانظر ص : ٣٧٤ – ٤٠٥ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٦ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٢٣ .

٤ - الألغاز أو الأحاجي:

الألغاز جمع لغز، وهو الطريق الذي يلتوي ويشكل على سالكه، ويسمى أيضاً المعمّى. واللغز والأحجية كلاهما شيء واحد، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر.[١]

ولا شك أن الإلغاز فن يراد به قتل الفراغ، وإظهار البراعة، واختبار الذكاء. ومن الأمثلة عليه، قول ابن الخطيب ملغزاً:[٢]

وأَبْيَضَ مِنْ ذَوِي الأَشْجَارِ يَبْدُو ... لَهُ خَدٌّ كَمِرآةِ الغَرِيبَهْ.[٣]
وَرُبَّتَمَا تَلَوَّنَ بِأحْمِرَارٍ ... لَهُ قَانٍ كَمُلَتبِسٍ بِرِيبَهْ
وَرُبتَمَا يَكُونُ بِهِ مُصَلًّى ... تَرَى الصُّفْرَ الوُجُوهَ بِهِ مُنِيبَهْ
يَبُثُّ لَكَ المسَائِلَ والمعَانِي ... وإِنْ يَسأَلْهُ شَخْصٌ لَنْ يُجِيبَهْ
وَكَمْ ضَرْبٍ يُقَاسِي كُلَّ يَوْم ... إِذَا ضُرِبَتْ عَلَى قَوْمٍ ضُرِيبَهْ
ويَحْوِي النَّحْوَ، لأبلْ كُلَّ عِلْمٍ ... وَيْروِي الشِّعْرَ مِنْ مَدْحٍ وَغِيبَهْ

فهذه الأبيات تضمنت وصف اللوح المصقول المتخذ للكتابة، فهو مصنوع من الخشب، الذي شبهه بمرآة الغريبة ليدل على أنه مصقول بعناية، وله وجه متلون بالاحمرار وهو لون الحبر الذي يكتب به عليه، كما أنه يدون عليه شتى أنواع العلوم والمعارف، والشعر، والمعاملات، وبذلك أصبح الوصول إلى حل هذا اللغز سهلاً على القارئ .

ومثله قوله ملغزاً في نهر "شنيل" ونهر "النيل":[٤]

مَا اسْمٌ إِذَا زِدْتَهُ أَلْفاً مِنَ العَدَدِ ... أَفَادَ مَعْنَاهُ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدِ
وَإِنَّما اخْتَلَفَا مِنْ بَعْدِ مَا ائْتَلَفَا ... مَعْنىً بِشَيْئَيْنِ مِنْ قَدْرٍ وَمِنْ بَلَدِ

ومعنى اللغز أن اسم النيل إذا أضفنا إليه " الشين " التي قيمتها ألف – من العدد – يصبح شنيل ، فالمعنى واحد فكلاهما نهر ، ولكن اختلفا بالقدر فنهر شنيل الأندلسي يعادل ألف نيل ، كما اختلفا بالبلد فالنيل في مصر وشنيل في غرناطة.

---

(١) انظر : ابن الأثير : المثل السائر : ٢١٢/٢ .
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٩ .
(٣) أصله من المثل " أنقى من مرآة الغريبة " لأن المرأة الغريبة تتعهد مرآتها من الجلاء بما لا يتعهد غيرها . انظر الثعالبي: ثمار القلوب، ص: ٢٦١.
(٤) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٣٧.

ومن خلال هذه الأبيات، فإنه يمكن أن تعد هذه الألغاز من ألوان الرياضة العقلية، والترف الثقافي، فهو (يشحذ القريحة، ويحد الخاطر، لأنه يشتمل على معانٍ دقيقة يحتاج في استخراجها إلى توقد الذهن، والسلوك في معاريج خفية من الفكر)[١]، وبرغم أنها تحفل بالفكر، إلا أنها تبتعد عن روح الشعر لأن حظ العاطفة فيها قليل، والشعر لغة العواطف يفصح عنها، وهي التي توجه صوره وتعبيراته [٢] وبدونها لا يسمى شعراً، بل مجرد نظم وقد استعمل العرب هذا الأسلوب – الإلغاز – في أشعارهم قليلاً، إلا أنه في عصر ابن الخطيب قد كثر، وصار يقصد إليه قصداً، ولكن ابن الخطيب لم يكثر منه، وما جاء منه في شعره سار فيه على منوال أستاذه "ابن الجياب".

وباب الإلغاز والتعمية يتنوع ومنه **التصحيف والعكس**[٣] حيث يعتمد فيه الشاعر على خصوبة خياله وعقله المدني الترف فيقصد بنية الكلمة متلاعباً بحروفها، إما بحذف بعضها أو الإضافة إليها، أو بتفكيكها والتصرف فيها بالقلب أو الإبدال.

وقد استغل ابن الخطيب أسلوب التصحيف للتعبير عن بعض الأغراض ومن الأمثلة على هذا النوع قوله في ذكر جمال أحد الرياض واسمه "رياض الكدية":[٤]

حَدِّثْ عَنِ الكُدْيَةِ مِنْ شِئْتَهُ يَظُنُّ أَخْبَارَكَ تَصْحِيفاً

أي أن هذا الروض بلغ من الجمال الخلاب، ما ليس يدركه الوصف، حتى يظن من يسمعه أنه كذب ومبالغة، وهذا هو قصده بمصحف " الكدية " إنه "الكذبة" فقد أبدل الدال ذالاً وأبدل الياء باء .

ومثله قوله : [٥]

---

[١] ابن الأثير : المثل السائر : ٢ / ٢١٣ .
[٢] انظر . د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص : ٦٩ – ٧٠ .
[٣] انظر ابن الأثير : المثل السائر : ٢ / ٢١٣ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٨٤ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٨٤ .

مُزْنٌ مُذْحلَّ "بِبَسْكَرةٍ"[١] يَوْماً نَطَقْتُ بِمُصَحَّفِهَا

فكلما نزل الغيث بهذه البلد فإنه يحمد الله ويشكره على عظيم فضله، فمصحف "بسكره" هو كما يظهر من معنى البيت "تشكره" حيث أبدل الباء بالتاء، والسين بالشين.

وهذا المسلك في التعبير وإن كان يدل على خصوبة الخيال ، إلا أننا لا نلمح في كل الأمثلة السابقة روح الجمال الفني التي تميز الشعر .

كما لجأ ابن الخطيب لهذا الأسلوب في المداعبة أحياناً كقوله في منطقة "عقب الشعير" من جبال "لمنكب":[٢]

"عَقِبَ الشَّعِيرِ" لَقَدْ هَوَتْ بِكَ عِيرِي كَالمجْرمِينَ هَوَوْا لِقَعْرِ سَعِيرِ

مَا الشِّينُ فِي اسْمِكِ غَيْرُ نُقْطَةِ أَلْثَغٍ بَدَلَ السَّعِيرِ أَتَى بِلَفْظِ شَعِيرِ

إنه يبدي تذمره من هذه المنطقة الجبلية الوعرة، ويرى أن أفضل اسم لها هو السعير، وعلل لاسمها بتعليل طريف وهو أن الشين ما هو "إلا نطق الثغٍ لا يحسن النطق فقال شعير بدل سعير.

كما كان التندر والفكاهة ومعارضة المشارقة في أسلوبهم هو غرضه من التصحيف في الأبيات التالية:[٣]

قَالَ لِي عِنْدَمَا أَتَى بِجِدَالٍ وَشُكُوكٍ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ

وَلِسَانِي يُبَذّل الدَّالَ تَاءً عَاجِزاً فِي الأُمُورِ عَنْ تَبْيِينِ

التمس مخرجاً يوافق قولي قُلْتُ: أَحْسَنْتَ يَا جَلاَل التِّينِ

فقد صحف " جلال الدين " في البيت الأخير حيث أبدل الدال تاء " لأنه كان ألثغاً.

وبذلك كانت أوقات الفراغ وحب التسلية والمداعبات وإظهار البراعة قد دفعت بابن الخطيب لمثل هذه الأساليب.

---

[١] بسكرة هي بلد بالجزائر ، أنظر / ياقوت الحموي ، معجم البلدان : ٢/ ١٨٢ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٠٦ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٠٣ .

نستنتج مما سبق أن التركيب اللغوي في شعر ابن الخطيب قد تميز بفعل الحضارة بعدة مظاهر من أبرزها: اعتماد الأساليب الرقيقة السهلة حتى في الأغراض التي تستدعي الفخامة والقوة في الأسلوب وهو ما عرف بالأسلوب "المولَّد" الذي يتميز بالمرونة والسلاسة والوضوح، مع أناقة التعبير ودقة الحس والذوق.[1] كذلك الاهتمام الظاهر بالجانب الشكلي وذلك باستعمال البديع بكافة أشكاله المعنوية واللفظية، كما شكل التناص بكافة مصادره رافداً قوياً للأفكار والمعاني عند ابن الخطيب حيث برزت فيه سمة المجتمع المتعلم المثقف. كما ظهرت في شعره بعض أنواع المسليات مثل الألغاز والأحاجي، ولجأ أحياناً إلى أسلوب التصحيف، وجميعها أشياء تتسم بالرياضة العقلية وشحذ الذهن وإعمال التفكير إلا أنها تبتعد عن روح الشعر الأصيل. كما أن ابن الخطيب قد استخدم بعض التراكيب العامية.

❖ ❖ ❖

[1] انظر: د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص:١٢٩.

المبحث الثالث

الأثر الحضاري في الصورة

الأثر الحضاري في الصورة

الصورة الشعرية هي أسمى مراتب الإبداع الفني . وإحدى المكونات الأساسية لبناء القصيدة ، يقول الجاحظ : (فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج وجنس من التصوير)[١]. لذلك فإنها نسج متكامل، وعمل مشترك، تتعاون فيها عناصر الصنعة الفنية، لتحول الواقع إلى خيالٍ جميل، وتقرب الوهم إلى الحقيقة، فيبدو وكأنه محسوس. وهي وسيلة الشاعر التي يحرك بها العواطف ، ويسمو بالأحاسيس ليوقظ النفوس حتى تتجاوب مع أصداء الحياة، وأسرار الجمال في الطبيعة والكون.

والخيال هو أساس الصورة الأدبية،[٢] والشعراء لا يستخدمون الخيال لمجرد الزينة أو الزخرفة وإنما يستخدمونه ليتموا به تعبيرهم إزاء عالم النفس وأسرار الوجود، لأنهم مهما عبروا عن هذا العالم أحسوا قصوراً في تعبيرهم، ومن ثم يستكملون بخيالهم نقص لغتهم.[٣]

والتعبير بالصورة مظهر فني قديم، فمنذ كان الشعر كانت الصورة أبرز وسائله الفنية الجوهرية لنقل التجربة. لذلك فإن هذا المبحث يعني بدراسة الصورة الشعرية في إبداع ابن الخطيب في جانب واحد من جوانبها وهو الجانب الحضري. وذلك للتعرف على أثر الحضارة في تشكيل صور ابن الخطيب الفنية.

ولا تعني الصورة المتحضرة في هذا البحث تلك الصورة التي تعبر عن مظاهر، الحضارة والترف أو العمران وحسب، وإنما حتى الموضوعات القديمة التي صاغها ابن الخطيب في قوالب جميله استجابة لدواعي الحياة الاجتماعية والثقافية بعناصرها الحضارية.

إذ لم يكن في وسعه أن يخالف طبيعة التحضر في عصره، الذي اكتسحت فيه أفانين الحضارة كل بيوتات غرناطة وساكنيها .

ومن أمثلة الصورة التي نرى فيها **خيالات الماضي، وروائع التراث** قد امتزجت بروح الحضارة، قوله:[٤]

---

[١] أبو عثمان ، عمرو بن بحر "الجاحظ" : الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، طبعة : دار الجيل ، بيروت، ١٩٩٦ : ١٣٢/٣ .
[٢] انظر : أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، ص : ٢٤٣ .
[٣] انظر : د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص : ١٥٠ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٠٦ .

قِفَا فَاسْأَلاَ فِي سَاحَةِ الأَجْرَعِ الفَرْدِ مَعَـالِمَ مَحَّتْهَا الغَمَائِمُ مِنْ بَعْدِي
وَجَـرَّتْ عَلَيْهَا الرَّامِسَاتُ ذُيُولَهَـا عَلَى أَنَّهَا تَزْدَادُ طِيباً عَلَى البُعْـدِ
وَعُـوجَا عَلَيْهَا فَاسْأَلاَ عَنْ أَنِيسِهَـا وإِنْ كَانَ تَسْآلُ المعَالِمَ لاَ يُجْدِي!
ولَكِنَّهَا نَفْسٌ تَجِيشُ ونَفْثَـةٌ تُرَوِّحُ مِنْ بَثٍّ وَتُطْفِئُ مِنْ وَجْـدِ

بالرغم من أن هذه الصورة تبدو تقليدية، تشبه فيها ابن الخطيب بالقدامى، فذكر الديار وصورها مثلما كانوا يصورونها، إلا أن الاختلاف في هذه الصورة ظهر في اقتناع الشاعر أن حوار الأطلال وسؤالها لا يجدي، وهذا هو البعد الحضاري والنفسي لهذه الصورة. وبذلك يكون ابن الخطيب قد آثر الصدق النفسي والفني مع نفسه وعصره، وإن كان الإطار تقليدياً.

وابن الخطيب عندما يستعمل مثل هذه الصور التقليدية في الوقوف على الأطلال، -وإن لم يقف عليها كثيراً - فإنه يؤكد عدم جدوى سؤال البالي كما في النموذج السابق، وكما في قوله:[1]

رُسُومُ جُسُوم فِي رُسُـــومٍ تَشَابَهَا كِلاَنا عَلَى حُكْمِ البِعَادِ نَحِيلُ
نُكَلِّفُ رَسْـــمَ الدَّارِ رَجْعَ جَوابِنَا وَذلِكَ شَيءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيـــــلُ
أَلاَ فَافْلِيَا فَـــوْدَ الفَلا بِنَجَائِـــبٍ لَها خَبَبٌ لا يَنْقَضِي وذَمِيـــــلُ[2]
قِلاصٌ بَراها السَّيْرُ حَتّى كَأَنَّها خَواطِرُ فِي فِكْرِ الفَلاةِ تَجُولُ

ثمة ما يجمع بين الشاعر وبين رسوم الديار الدارسة، وهو النحول والضعف بسبب الشوق والحنين لمن كان مقيماً بهذا المكان، ومما يزيد الأسى هو اقتناع الشاعر أن وقوفه لا جدوى منه، وفي آخر الصورة نلحظ تشبيه ابن الخطيب الإبل التي تسير في الصحراء، وقد أعياها التعب، وأنهكها حتى هزلت بالخواطر والأفكار في ذهن تلك الصحارى. ولا يخفى أن هذا التشبيه مستوحى من بيئة العلم والفكر، والطرف الأول منه هو من التراث، والطرف الثاني من الجديد المتحضر، ويبدو فيه نوع من الطرافة والجمال حيث التقط بمهارة وجه الشبه بين الإبل الهزلى والخواطر بحيث ساعدت الصورة في كشف المعنى المراد، كما نلحظ الحيوية في هذه الصورة عندما وظف ابن

(١) ديوان ابن الخطيب، ص: ٤٨٠ – ٤٨١.
(٢) ذمل البعير ذميلا: سار سيراً سريعاً ليناً.

الخطيب عنصر الحركة فيها ، فالنجائب تسير، والخواطر تجول. وقد استعان على إبراز هذا المعنى بالصور البيانية وهي التشبيه في قوله " قلاص كأنها خواطر" والاستعارة في قوله " فكر الفلاة " مما زاد المعنى وضوحاً وتأكيداً.[١]

ومن القديم الذي **أعاد ابن الخطيب صياغته متأثراً بروح الحضارة**، تصوير مشاعر المحب الذي أحرق قلبه الشوق في أسلوب طريف قال فيه : [٢]

عَيْنِي جَنَتْ فَعَلامَ تُحْرَقُ أَضْلُعِي ؟ أَبِما جَنَى جارٌ يُعذَّبُ جَارُ؟!
يَا قَلْبُ لاَ تُدْهِشْكَ نِيرَانُ الهَوَى فَكَنارِ " إِبْرَاهِيمَ " تِلْكَ النّارُ[٣]
فَاصْبِرْ عَلى مَا حمِّلُوا تَنَلْ المنَى بِالسَّبْكِ أَدْرَكَ نَقْشَهُ الدِّينَارُ

لقد أضفى التساؤل في أعلى الصورة شيئاً من الطرافة، ونوعاً من الاحتجاج على ما حل به من عذاب فعلام يحترق الفؤاد ، والعين هي التي جنت ؟ ونلحظ في هذا البيت التجسيم والتشخيص عنصراً بارزاً أدى المعنى بوضوح فقد صور العين في هيئة إنسان يعذب ويجنى، ثم يلتفت من أسلوب التكلم في البيت الأول إلى الخطاب في البيت الثاني حيث يشخص القلب في هيئة إنسان يخاطبه ويهون عليه هذا الأمر فنار الهوى على قلب المحب برد وسلام مهما ازداد اشتعالها لا تؤذيه، مما يدل على أنه محبب إليه، ويشبهها في عدم الإيذاء بنار "إبراهيم عليه السلام"، ويحثه على الصبر الذي لابد منه حتى يفوز بما تمناه، ويضرب له المثل بالدينار الذي صار إلى هذه الهيئة بعد سبكه.

ونلحظ في الأبيات التشبيه بعناصر حضارية مثل " نار إبراهيم" فهذا التشبيه مستوحى من قصص الأنبياء عليهم السلام التي استمدها ابن الخطيب من معين الثقافة الإسلامية ، وذلك لا شك تحضر فكري ، وكذلك التشبيه بالدينار وسبكه وهو مستمد من بيئة الحضارة والترف .

ومما سبق نلحظ أن ابن الخطيب قد استخدم بعض الصور التقليدية المستوحاة من التراث في شعره ، وقد جاءت غالباً في مقدمات بعض قصائده المدحية، ومع ذلك فإنها لم تظهر كما استعملها القدماء ، وإنما كما صورها ابن الخطيب الشاعر الحضري،

---

[١] انظر : أبا هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص : ٢٤٥ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٣٩ .
[٣] فيه إشارة إلى قوله تعالى : {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ } الأنبياء آية ٦٩ .

الذي ربطها بالبيئة الحضارية في عصره، والتفكير المنطقي لزمانه، مما يدل على تمكنه من أصول صنعته وأسرار حرفته.

أما الصور الحضارية التي عبرت بصدق عن **البيئة المتحضرة** فمن الأمثلة عليها قوله متغزلاً : [١]

وَسْوَاسُ حَلْيكِ أَمْ هُمُ الرُّقَبَاءُ؟ لِلْقَلْبِ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ إِصْغَاءُ
وَوَمِيضُ ثَغْرِكِ أَمْ تَأَلُّقُ بَارِقٍ وَشِهَابُ شُنْفِكِ ذَا أَمِ الجَوْزَاءُ؟
يابَانَةً، وَرَقُ الشَّبَابِ ظِلاَلُها وَكَأَنَّ قَلْبِي بَيْنَها وَرْقَاءُ
يَا بَدْرَ تِمٍّ يَهْتَدِي بِضِيَائِهِ سَارِي الفَلاَةَ، ولَيْلَتِي لَيْلاءُ

لقد صور في الأبيات محبوبته الفاتنة، التي تزينت بالحلي، عند اللقاء، وقد اختلجت في نفسه مشاعر متناقضة تجمع بين الشوق والبهجة والخوف، ظهرت من خلال هذه التساؤلات المتتابعة، فمصدر الصوت الذي يسمعه أهو الحلي الذي ترتديه أم الرقباء الذين يترصدونهم، وهذا الضياء واللمعان الذي يظهر هل هو بياض أسنانها ولمعانها أم هو البرق؟ والذي ارتدته في أذينها هل هي أقراط براقة أم ذلك هو بريق الجوزاء؟ ليعبر عن مدى افتتانه بهذه المرأة المنعمة افتتاناً خلط عليه الأمور لأن هذه المرأة فوق المألوف. ثم يتابع تصويره لها فيشبهها بالبان الذي أورق، ونشرالظلال الناعم حوله حتى كان قلبه بين أغصانها ورقاء. كما شبهها ببدر التمام الذي ينير دياجي الظلماء، وهذه الأوصاف في مجملها تنم عن الحضارة.

ومن الصور الحضارية أيضاً قوله.[٢]

تُؤَجِّجُ نَارُ الخَدِّ نَارَ جَوَانِحِي وَيَعْبَثُ وَسْواسُ الحُلِّي بِوَسْوَاسِ

وفي البيت صورة لامرأة جميلة تتزين بالحلي الذي يؤثر صوته في قلب الشاعر فيتراءى له في كل حين. وهي صورة سمعية، كان الصوت أبرز وسائلها.

ومنه قوله:[٣]

فَإِنْ غَابَ عَنِّي وَجْهُهُ ودَلاَلُهُ أُعَلِّلُ قَلْبِي بِالدُّجُنَّةِ والبَدْرِ
وَإِنْ غَابَ قُرْطٌ عِنْدَهُ وَمُقَلَّدٌ رَجَعْتُ إِلى الجَوْزَاءِ والأَنْجُمِ الزُّهْرِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٩٣ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٢
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٩٢ .

وهذه لوحة أخرى يصور فيها ابن الخطيب المرأة الجميلة المزينة بالحلي، فإن افتقد شخصها وغابت عن عينيه، فإن في البدر والظلام سلوة لقلبه، وإن افتقد أقراطها أو قلائدها يتأمل الجوزاء والأنجم في السماء.

وفي الصور السابقة نلحظ امرأة متحضرة ناعمة، تتزين بالحلي، إلا أنها في مجملها اعتمدت على التشبيه القريب المأخذ البسيط، كما أن فيها ما يدل على الاستعلاء فصوره مرتفعة عن الأرض سابحة في السماء حيث الجوزاء والبدر والنجوم.

ومن الصور الحضارية أيضاً قوله في **وصف ناعورة**[1] وهي من مظاهر البناء والعمران:[2]

وقَوْرَاءَ مِنْ قَوْسِ الغَمَامِ ابْتَغَوا لَـها ... مِثَالاً أَدَارُوهَا عَلَيْهِ بلاَ شَـــــكِّ
فَبيْنَ الثُّرَيَّا والثَّرَى سُدَّ جُرْمُـــها ... وَلِلْفَلَكِ الدَّوَّارِ قَدْ أَصْبَحَتْ تَحْكِي
تَصُوغُ لُجَيْنَ الماءِ فِي النَّهْـرِ دَائِماً ... دَرَاهِمَ نَوْرٍ قَدْ خَلَصْنَ مِنَ السَّبْـــكِ
تَذَكَّرَتِ العَهْدَ الذَّي اخْتُرِعَتْ بِهِ ... وَحَنَّت فَمَا تَنْفَكُّ سَاجِعَةً تَبْكِـــي

يصف ابن الخطيب في هذه الأبيات الناعورة، ويجعل شكلها مثل قوس الغمام وهو "قوس قزح"، وهي كبيرة الحجم حتى أنها قد وصلت للثريا في السماء، كما أن دورانها المستمر يحاكي دوران الأفلاك في هذا الكون مما يدل على دوامه وانتظامه، أما الماء فهو فيها فضة منسابة وتتساقط قطراته كالدراهم المسبوكة، ثم يختم الصورة بتعليل طريف لبكائها الدائم، وهو أنها دائمة التذكر لعهدها الأول الذي صنعت به. ولا شك أن الصورة في مجملها نتاج بيئة الحضارة فهي وصف لأثر من آثار البناء، كما أن العناصر التشبيهيه فيها كانت حضارية لتشبيهها باللجين، والدراهم.

هذه بعض النماذج لصور ابن الخطيب الفنية ظهر في بعضها المزج بين عناصر تراثية وأخرى حضارية، في المقدمات وغيرها. وظهر بعضها الآخر لوحات فنية متكاملة متأثرة بروح الحضارة. أما عن مصادر الصورة الفنية المتأثرة بالحضارة في شعر ابن الخطيب فهي:

---

(1) قام بتصميم هذه الناعورة – الدولاب – المهندس الإشبيلي : محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج ، بمدينة "فاس". فكانت من الدقة والجمال أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الركاب . انظر : ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة : ١٤٠/٢.

(2) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٧٦ .

(١) العلم والثقافة والفكر: -

كان العلم والثقافة والكتابة والفكر من أبرز المصادر التي صاغ ابن الخطيب منها صوره المتحضرة، حيث كانت الكتابة معلماً من معالم تحضر المجتمع وابن الخطيب أحد أقطاب العصر فيها، كما كان العلم والفكر سمة من سمات التقدم والرقي ، في المجتمع الغرناطي المتحضر.

ومن نماذج الصور التي اعتمد فيها ابن الخطيب على مصدر **العلم والثقافة** وأدواتهما قوله في مدح أحد الوزراء:[١]

لُطْفٌ يَدُلُّ عَلَى العِنَايَةِ والرِّضَى فَكَأَنَّهُ العُنْوَانُ فَوْقَ كِتَابِ

لقد كتب الله تعالى لهذا الوزير التوفيق والسداد في عمله، فكأن ذلك التوفيق هو نتيجة لكل ما أنجزه من أعمال عظيمة، وفي هذه الصورة يشبه الشاعر أعمال الممدوح وانجازاته بالكتاب الذي عنوانه النجاح والتوفيق. ولا شك أنه تشبيه مستمد من بيئة العلم الذي يشكل الكتاب أهم وسائلة.

ومن الصور التي تعكس الاهتمام **بالكتب والكُتّاب** وتدل على رقي مكانتهم قوله:[٢]

بَيْنَ السِّهَامِ وبَيْنَ كُتْبِكَ نِسْبَةً فَبِهَا يُصَابُ مِنَ العَدُوِّ المقْتَلُ

وإِذَا أَرَدْتَ لَهَا زِيَادة نِسْبَةٍ هَذِي وهَذِي فِي الكِنَانَةِ تُجْعَلُ

إن الخطاب في هذين البيتين موجه لشيخه "ابن الجياب" وفيه يشيد بالمكانة العلمية التي احتلها هذا العالم، ويشبه كتبه بالسهام فكلاهما يصيب الهدف المراد، ويؤكد على صواب هذا الشبه بدليل آخر وهو أن كلاً من الكتب والسهام يحفظ في الكنانة. فلا سبيل بعد أن أورد هذه الحجة لإنكار الشبه بينهما وقد استعان **بالمذهب الكلامي** على تأكيد الشبه في هذه الصورة حيث أورد الفكرة ثم أيدها بالحجة والدليل. ولا شك أن هذا التشبيه والأسلوب الذي صاغه به يدل على بيئة تتميز بالرقي العلمي والفكري.

كما أن **المعلم** قد أوحى لابن الخطيب ببعض الصور مثل قوله في شأن الدهر:[٣]

والدَّهْرُ فِي دَسْتِ القَضَاءِ مُدَرِّسٌ فإِذَا قَضَى يَسْتَأنِفُ التَّدْرِيسَا

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٦٤ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥١٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٢٣ .

تَفْتَنُّ فِي جُمَلِ الوَرَى أَبْحَاثُـــهُ لاَ سِيَّمَا فِي بَابِ نِعْمَ وَبِيسَـــا

لا شك أن الدهر هو الزمن الذي يعيشه الإنسان وشأنه دائم التقلب من حالٍ إلى حال، مما يمحص حقيقة كل إنسان، وابن الخطيب في هذين البيتين قدم تصويراً جميلاً لهذا الدهر فشبهه بالمعلم الذي يستفيد المتعلم من تجاربه. وهو في تقلب أحواله وكشف معادن الناس مثل الأستاذ الباحث المجرب، لا سيما في باب نعم وبئس ليدل على نتيجة هؤلاء الناس بعد الاختبار. إذ منهم من يحسن التعامل مع ما يعترضه من شئون دهره، ومنهم من يكون عكس ذلك، وهو تشبيه طريف يوحي بذوق مجتمع مثقف .

كما أن **أستاذ الحلقة** أوحى بصورة أخرى لابن الخطيب حيث قال في أبيات نظمها لتكتب على سفرة طعام:[١]

تَرَى فَوْقَهَا الطَّيْفُورَ[٢] أُسْتَاذَ حَلْقةٍ مَعَانِي حُرُوفِ الحَلْقِ[٣] مِنْ بَعْضِ مَا يُبْدِي

إن هذه الصورة نتيجة تحضر ذلك المجتمع فالأبيات نظمت لتزين بها سفرة طعام وذلك يدل على الرقي الاجتماعي والترف الذي وصلوا إليه، ثم إن التشبيه فيها مستوحى من بيئة العلم، فصورة الطيفور وشكله البارز على المائدة بين جميع الأواني تشبه صورة الأستاذ الذي يتصدر حلقة التدريس، ويضيف ابن الخطيب لمحة من الجمال على هذه الصورة بإضافة عنصر الصوت لها، حيث يبرز بعض ما يسمع من هذا الأستاذ في حلقته، وهي حروف الحلق التي يقصد بها ما يحدثه الأكل من صوت وحركة في حلوق الناس.

ومثلها قوله في وصف **الإبريق**:[٤]

تَخَالُ بِهَا الإِبْرِيقَ عِنْدَ سُجُـــودِهِ إِمَاماً يُطِيلُ المكْثَ فِي أَحْرُفِ الحَلْقِ

يُرَدِّدُهَا كَيْ يُكْسِبَ الطَّبْعَ دُرْبَةً بِهِنَّ وَلَكِنْ لَيْسَ يُفْصِحُ فِي النُّطْـقِ

وفي البيتين، يصور ابن الخطيب الإبريق عند إمالته لسكب ما فيه في الكؤوس بالإمام في وضع السجود وقد أطال في سجوده مكرراً حروف الحلق، كيما يتمكن من إتقانها، ولكنه لا يرفع صوته ليفصح عنها، لأن هذه الحروف حكمها الإظهار والوضوح. وتكراره لهذه الحروف يدل على الصب المتكرر من هذا الإبريق ، مما يزيد

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٣٣٤ .
[٢] الطيفور : إناء مجوف عميق .
[٣] حروف الحلق هي : الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والقاف .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٦٩٤ .

هذه الصورة حيوية بفضل الصوت والحركة فيها. وتبدو في هذه الصورة حضوبة الخيال والمهارة في التقاط وجه الشبه متأثراً بالثقافة الإسلامية في التشبيه بالإمام والسجود وأحرف الحلق التي هي مهمة في علم التجويد.

ومن الصور التي تدل على نشاط علمي وفكري التشبيه المستمد من أدوات العلم والكتابة مثل قوله في تصوير مشهد ساحة المعركة بعد انتهائها:[١]

أَعْضَاؤُهُمْ فِيهَا حُرُوفٌ قُطِّعَتْ أَثَرُ المِدَادُ بِهَا نَجِيعٌ قَانِي

بعد انتهاء المعركة كان متوقعاً ما تخلفه من جثث القتلى وأشلائهم المتناثرة هنا وهناك، ولكن الطريف في هذه الصورة هو تشبيه هذه الأشلاء بالحروف المقطعة، التي دونت باللون الأحمر، وقد لون ابن الخطيب لوحته بهذا اللون، لأنه لون الدماء التي سكبت بغزارة في أرض المعركة لكثرة القتلى من أعداء المسلمين، وبرغم ما يمكن أن يبعثه مشهد الأشلاء المتناثرة والدماء في النفس من مشاعر وانفعالات، إلا أن هذا التشبيه يدل على خيال الشاعر الكاتب، الذي تأثر بمهنته وثقافته، كما توحي كذلك بثقافة المجتمع وذوقه ورقيه الفكري.

وقال -أيضاً -في وصف كتائب المسلمين في ساحة المعركة:[٢]

كَتَائِبُ أَمْثَالِ الكِتَابِ تَتَالِياً فَمِنْ بِيضِهَا شَكْلٌ وَمِنْ سُمْرِهَا نَقْطُ

لقد شبه ابن الخطيب الكتائب المتعددة في الجيش بصفحات الكتاب المتتالية والسيوف هي الشكل الذي يضبط الكلمات في سطورها، أما الرماح فهي النقاط التي تعلو الحروف.

ويصور ابن الخطيب ساحة القتال في موضع آخر ، ولكنها لم تظهر كالكتاب، وإنما كالصحيفة في قوله :[٣]

والخَيْلُ خَطٌّ، والمجَالُ صَحِيفَةٌ والسُّمْرُ تَنْقُطُ والصَّوَارِمُ تَشْكُلُ

والبِيضُ قَدْ كَسَرَتْ حُرُوفَ جُفُونِها وعَوَامِلُ[٤] الأسَلِ المثَقَّفِ تَعْمَلُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٥٧٨ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٤٦١ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٥٠١ .
[٤] الحروف جمع حرف وهو الحد والطرف ، وجفونها جمع جفن وهو غمد السيف ، العوامل جمع عامله ، والعامل من الرمح أعلاه مما يلي السنان .

فالخيل هي الخط في هذه الصحيفة، والرماح تنقط الحروف، والسيوف تضبط الكلمات بالشكل وتبدو هذه الصورة – السمر والصوارم – تكرار للفكرة السابقة ولكن باختلاف الصياغة. ويضيف مزيداً من الحيوية والحياة في هذا المشهد بتصوير حركة السيوف والرمّاح ، وقد صاغ هذه الصورة متأثراً بثقافته النحوية، مستغلاً اشتراك بعض المعاني في لفظ واحد مثل " كسرت "، " حروف " و " عوامل " فالسيوف قد كسرت جفونها وهي أغطيتها ليدل على مدى مضائها ومهارة المقاتلين، والرماح تعمل وعملها هو إصابة العدو في المقتل، وهو يشبه هذين السلاحين في عملهما ببعض العوامل النحوية التي تعمل وتؤثر في الجملة. بأسلوب جميل لم نلحظ فيه إقحام تلك المصطلحات وإنما جاءت متناسبة مع سياق التركيب اللغوي للبيت.

إلى جانب الكتابة وأدواتها كمواد تشبيهيه كان لها حضورها الواضح في شعر ابن الخطيب كانت **الثقافة الإسلامية** مصدراً أثرى شعر ابن الخطيب في جانبه التصويري، ومن الأمثلة التي تدل على ذلك قوله في وصف الأرق الذي عاناه وأطال ليله:[١]

وَكَذَا النَّوْمُ شَاعِرٌ فِيكَ أَمْسَى مِنْ دُمُوعِي يَهِيمُ فِي كُلِّ وَادِي

لقد ضل النوم طريقة إلى عيني الشاعر، فألهمه خياله المدني صورة استوحاها من القرآن الكريم يشخص فيها النوم شاعراً يهيم على وجهه لا يستدل طريقاً،[٢] وبذلك يعطي سبباً مختلفاً للأرق وهو أنه لم ينم لأن النوم لم يهتدي إليه. ولا شك أن تصوير النوم في هيئة إنسان يسير ويهتدي ويضل قد أبرز المعاناة التي تختلج في نفس الشاعر من هذا السهر، فبالرغم من أنه إنسان يمكن أن يهتدي لمراده إلا أنه لم يصل إليه. فكان موفقاً في هذه الاستعارة لأن (أنس النفس بالمدركات الحسية أعظم من أنسها بالمدركات المعنوية، وذلك لأن الحس هو الطريق الأول لإدراك النفس ومعرفتها) [٣]

وقال مخاطباً السلطان موسى "أبا حمّو" في شأن الجزيرة الخضراء[٤]:[٥]

لَقَدْ زَارَ الجَزِيرَةَ مِنْكَ بَحْـــرٌ يُمَدُّ فَلَيْسَ نَعْرِفُ مِنْهُ جَزْراً

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص: ٣٦٢

[٢] مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ سورة الشعراء الآيتان: ٢٢٤ – ٢٢٥.

[٣] د. مجيد عبد الحميد ناجي : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٤م، ص: ١٧٨ .

[٤] تقع على ربوة مشرفة على البحر ، وهي أقرب مدن الأندلس مجازاً إلى العدوة المغربية ، وأهل الجزيرة هذه هم الذين أبو أن يضيفوا موسى والخضر عليهما السلام – وبها أقام الخضر الجدار ، وخرق السفينة ، انظر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص : ٧٣ – ٧٤ .

[٥] ديوان ابن الخطيب ،ص : ٤٠٥ .

أَعَدْتَ لَها بِعَهْدِكَ عَهْدَ مُوَسى سَمِيَّكَ فَهْيَ تَتْلُو مِنْهُ ذِكْرَا
أَقَمْتَ جِدَارَها وأَفَدْتَ كَنْزاً وَلَوْ شِئْتَ اتّخَذْتَ عَلَيهِ أَجْرا

وفي هذه الأبيات يصور ابن الخطيب مدى الأريحية في البذل والإنفاق لدى السلطان "موسى أبي حمو" فهو لا ينتظر من أحدٍ مديحاً ولا أجراً، ويشبهه بالبحر على سبيل الاستعارة وذلك قد أفاد تأكيد الشبه وقوة إثبات المساواة بينهما،[1] وإذا كان الأمر كذلك فواجب أن يكون له ذلك العطاء والبذل العظيم، ومن المستحيل أن يعرى عنه. وفي البيتين الثاني والثالث صور الخير الذي عم هذه المدينة بفضل هذا السلطان. مستوحياً قصة الرسول موسى عليه السلام مع الرجل الصالح في سورة الكهف. في قوله: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ سورة الكهف، آية (٧٧) . ولاشك أن ذكر البحر هنا يكمل جمال الصورة لأن موسى -عليه السلام -قد التقى مع الرجل الصالح في البحر. ولا شك أن هذا التصوير كان بتأثر الشاعر بالثقافة الإسلامية وذلك تحضر فكري .

وفي صورة أخرى استوحاها ابن الخطيب من **الفقه الإسلامي** جعل الأرض إرث من حق ممدوحه عندما قال:[2]

الأَرْضُ إِرْثٌ والمطَامِعْ جَمَّةٌ كُلُّ يَهُشُّ إِلَى الْتِمَاسِ نَصِيبِ
وخَلائفُ التَّقْوَى هُمُ وَرّاثُهَا فَإِلَيْكَها بِالحَظِّ والتَّعْصِيبِ

فقد جعل الأرض إرثاً يطمع فيه الجميع ولكنه شرعاً من حق هذا السلطان بالحظ وهو النصيب ، والتعصيب وهو "ما تبقى بعد ميراث أولى الفروض" [3]، ولاشك أن تدعيم هذه الفكرة بمصدر من مصادر التشريع الإسلامي كان أدعى لقبولها والتسليم بها .

نستنتج من كل النماذج السابقة أن الصورة قد أدت فكرة في الأبيات فلم تكن للزينة أو تحسين القول، بل أدى بها ابن الخطيب دور التقريب والتوضيح والتفسير. وكان التشبيه هو اللون الشائع فيها، والأداة الطيّعة التي اعتمد عليها في تشكيل صوره

---

(١) انظر أبا بكر عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، قراه وعلق عليه : محمود شاكر : الطبعة الخامسة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ٢٠٠٤م ، ص:٧١-٧٢.
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٢ .
(٣) انظر: ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٣٢. الحاشية

الحضارية في مصدر العلم والثقافة والفكر، وقد بدا في التشبيه بالكتاب، والمدرس، والحروف، والصحف، ... وغيرها ولا شك أن رواج التشبيه بمثل هذه الأدوات يدل على ازدهار علمي وفكري في هذا العصر، ومن جانب آخر يعكس شخصية ابن الخطيب فهو رئيس ديوان الإنشاء في الدولة .

كما اعتمد في إخراج صورة غالباً على حاسة البصر فقد كانت أغلبها بصرية امتزجت بالصوت والحركة أحياناً، مما عمل على بث جو من الحيوية فيها. وقد تعددت أدوات التشبيه في هذه الصورة بين كأن، وتخال وأمثال. وإلى جانب التشبيه استعان كذلك باللون الاستعاري في بعض صوره. كما نلحظ التأثر بالحضارة الإسلامية واضحاً حيث استوحى بعض صوره من القرآن الكريم، وبعضها من فقه الشريعة، ولكن يغلب عليها أنها جزئية لا يفصل فيها كثيراً. وصوره السابقة كلها حضارية لأنه استقاها من منهل العلم والفكر الذي يعد أبرز مظاهر الحضارة لأي مجتمع.

(٢) الطبيعة :

لعل أهم ما يميز الأندلس هو طبيعتها الخلابة ، وجمالها الأخاذ ، الأمر الذي جعل شخصية الشاعر الأندلسي تقترن بالبيئة والطبيعة[1]. لذلك لا جرم في أن تكون الطبيعة بكافة أشكالها من أهم العناصر التي ارتكز عليها ابن الخطيب في تشكيل صوره الحضارية فقد عاش في بيئة الأندلس التي اجتمع فيها الطبيعة الفطرية ، وما أنجزه الإنسان من استغلال لجمال البيئة أو التقدم في العمران والبناء والقصور والحدائق .. وغيرها . وهذا المصدر يعد من مصادر التصوير الحضاري في شعر ابن الخطيب.

وعندما رصد البحث أهم مظاهر الحضارة في الأندلس في شعر لسان الدين بن الخطيب ، كانت الطبيعة تحتل مكانها المهم بين هذه المظاهر وذلك لأن البيئة لها أثر كبير في تشكيل مضامينه وكذلك صوره ، لأن الشاعر الذي نشأ في المدينة ، وعاش في النعيم ، ورأى الروض والزهر والسحب والمطر لا شك أن صوره تختلف عن صور شاعر الصحراء والبادية.

---

[1] انظر : د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص : ٤١١ .

إن لوحة الطبيعة لوحة أساسية في شعر ابن الخطيب، فنادراً ما نجد قصيده له بعيدة عن وصف الطبيعة الأندلسية والمطر والروض والزهر. مما يؤكد حقيقة تأثره بطبيعة بلاده.

ومن أمثلة هذه الصور، قول ابن الخطيب مشيراً إلى الزهور ورائحتها الزكية:[١]

لَئِنْ زَيَّنُوا الدُّنْيَا بِزُهْرِ وُجُوهِهِمْ لَقَدْ زَيَّنُوا بِالذِّكْرِ كُلَّ مُجَلَّدِ
وأَبْقَوا ثَنَاءً عَاطِراً فَكَأَنَّمَا نَسِيمُ الصِّبَا هَبَّتْ عَلَى الزَّهْرِ النَّدِي

فهؤلاء الممدوحون فقد جمعوا جمال الأشكال، وجمال الأخلاق، فوجوههم زينت الدنيا، وشكرهم زين الكتب، وقد تركوا خلفهم ثناءً عاطراً اجتمع له نسيم صبا (نجد) مع زهور (الأندلس) الندية ليتخيل السامع مدى طيب ذكرهم من خلال هذه الصورة التي اعتمد فيها على التشبيه المستمد من الطبيعة الخصبة المليئة بالزهور.

وقال في أخرى واصفاً النهر :[٢]

وَطَمُوحُ العُبَابِ ضَافِي المقِيلِ حَسِرِ الدَّوْحِ عَنْ حُسَامٍ صَقِيلٍ
كَسَبِيكِ اللُّجَيْنِ ذَهَّبَهُ الصَّا نِعُ سُبْحَانَهُ بِشَمْسِ الأَصِيلِ

ففي هذه الصورة يرسم ابن الخطيب لوحة للنهر في وقت الأصيل، ويشبهه بالحسام الماضي الذي أخاف الدوح من حوله، ثم يوضح لونه الأخاذ الذي بدا مثل سبيك الفضة الذي حوله الصانع إلى ذهب. ولا شك أن هذا التشبيه باللجين والذهب مستمد من بيئة غنية مترفة، وقد بين حاله الموصوف في الزمان والمكان.

أمام الغمام فقد ظهر في لوحة حضارية لابن الخطيب كاتباً يرقم الصبا ويزينها، في وصفه لأحد **القصور والحديقة** التي اشتمل عليها:[٣]

وَأَرْسَلْتَ فِيهَا جَدْوَلَ الماءِ سَائِلاً كَمَا سُلَّ مَصْقُولُ الغِرَارينِ مِنْ غِمْدِ
وَمِنْ سُرُرٍ مَرْفُوعَةٍ وأَرَائِكِ كَمَا رَقَمَتْ أَيْدِي الغَمامَ صَبا نَجْدِ
يُذَكِّرُ مَرْآهَا قُلُوبَ أُولِي النُّهَى بِمَا وَعِدُ الأَبْرَارُ فِي جَنَّةِ الخُلْدِ
حَدَائِقُ دِيبَاجٍ سَقَتْهَا مِنَ الحَيَا سَحَائِبُ أَفْكارٍ مُهَنَّأَةِ الوِرْدِ
فَمَا شِئْتَهُ مِنْ نَرْجِسٍ وَبَنفْسَجٍ وآسٍ وَسُوسَانٍ نَضِيرٍ وَمِن وَرْدِ
وُهَبْتْ رِيَاحُ النَّصْرِ فِي جَنَباتِهَا فَأَنْشَأْنَ سُحْبَ العَنْبَرِ الوَرْدِ والنَّدِّ

---

[١] ديوان ابن الخطيب، ص: ٣١٣.
[٢] ديوان ابن الخطيب، ص: ٥٢٢.
[٣] ديوان ابن الخطيب، ص: ٢٩٧ – ٢٩٨.

والصورة كما نلحظ قائمة على التشبيه والاستعارة ، وتعددت فيها المشاهد فهناك مشهد الجدول السائل المنساب يماثل السيف الصقيل في لمعانه وبريقه عندما يُسل من غمده، وهناك مشهد داخلي للقصر تبدو فيه الأبهة والفخامة في السرر المرفوعة، والأرائك التي تنتشر في جنباته تزينها النقوش والوشي، مثلما تزين الغمام صبا نجد، لأن الغيث الذي تحمله هو الذي يزين وجه الأرض، فقد كانت الطبيعة الجميلة ماثلة أمام عينيه عندما وصف هذا المجلس الذي يبدو في رياشه الألوان المتعددة، فلم يجد له مماثلاً إلا تلك الطبيعة. وقد اعتمد في هذه الصورة على التجسيم حيث جعل للغمام يد لا تكتب وحسب وإنما يد فنان يزين وينقش على سبيل الاستعارة، وقد استوحى هذا التشبيه من بيئته المتحضرة المتقدمة فكرياً. ثم تنتقل عدسة التصوير إلى خارج القصر حيث الحديقة الرائعة التي أبدعت يد الفنان الغرناطي في تنسيقها فبدت وكأنها ديباج موشى سقاها الغيث أفكاراً ألهمتها هذا الإبداع في تزيين تلك الحديقة بأنواع معينة من النبات، ظهرت في البيت التالي وهي النرجس والبنفسج والآس والسوسان والورد، مما أكسب هذه الحديقة ألواناً متعددة جذابة، وجعلها تعبق بالروائح الزكية، كلما هبت عليها الرياح، إلى جانب روائح العنبر والند التي أنشأت منها الرياح سحباً تغطي المكان. والصورة في مجملها مستوحاة من بيئة الترف والنعيم، والفكر، وقامت على أساس من الحسية والتجسيم، فبدت أكثر وضوحاً وجمالاً، لأنه كان مدركاً أن (التصوير الحسي طريقة في التوضيح الذي هو الأصل في الصورة).[1]

وصورة أخرى للطبيعة صاغها ابن الخطيب من بيئته الحضارية، قال فيها:[2]

وَيَوْمٍ كَأَخْلاَقِ الصَّبِيّ إِذَا بَكَى حَبَتْهُ مِنْ الصَّحْوِ السَّمَاءُ بِمَا يُرْضِي

فَيَضْحَكُ أَحْيَاناً وَيَعْبِسُ تَـــارَةً فَمِنْ ضَحِكٍ يَأْتِي وَمِنْ عَبْرَةٍ تَمْضِي

نلحظ في أعلى الصورة وصفاً لطقس متقلب ممطر حيناً وحينا صحو، وهي بيئة الأندلس الممطرة الخصبة، وصفه بتشبيه طريف جعله كأخلاق الطفل الصغير الذي يبكي، ثم سرعان ما يضحك، فهو متقلب الأحوال، وصوره – أي اليوم - كإنسان

---

[1] د. جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، طبعة دار المعارف ، القاهرة (د.ت) ، ص : ٣٧٦ .

[2] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٣٨ .

يمتلك ذلك الإحساس، كما أن السماء ترق لبكاءه فتمنحه الصحو ليرضى، وهي صورة نابضة بالحركة. ثم يرسم بعد ذلك لوحة للروض في ذلك اليوم الممطر:[1]

كَأَنَّ الصَّبَا جَاءَتْ تُخْبِرُ قُضْبَهَا سُحَيْراً بِأَنَّ الوَقْتَ ضَاقَ عَنِ الفَرْضِ
فَأَسْرَعَتِ الأَغْصَانُ تَبْتَدِرُ الثَّرَى وَتَعْمُرُ بَاقِي الوَقْتِ مِنْها بِمَا تَقْضِي
وَسَالَتْ دُمُوعُ الطَّلِّ عِنْد سُجُودِهَا كَمَا بَكَتْ العُبَّادُ مِنْ خَشْيَةِ العَرْضِ
وَنَامَتْ جُفُونُ النَّرْجِسِ الغَضِّ بَيْنَها كَأَنَّ خَطِيبَ الطَّيْرِ قَالَ لَها غُضِّي
فَمِنْ أَبْيَضٍ كَالدُّرِّ حُفَّ بِأَصْفَرٍ هُنَاكَ وَمُصْفَرٍّ يَحُفُّ بِمُبْيَضِّ
تَرَى النَّحل فِي أَثْنَائِهِنَّ كَأَنَّهَا صَيَارِفَ عَائَتْ فِي الدَّرَاهِمِ بِالقَرْضِ

وفي تصويره لهذه الروضة ، وتعبيره عن إعجابه بها ، يرسم ابن الخطيب لوحاته، ويكثر فيها من صوره ، التي تعتمد على الاستعارة والتشبيه، وتفوح رائحة الحضارة منها، حيث سيطر على الصورة جو الحضارة الإسلامية، فالصبا جاءت تنبه الأشجار بأن وقت الصلاة قد كاد ينتهي مما انعكس على الأوضاع داخل هذه الروضة وأشاع جواً من الحركة، فالأغصان تقضي ما فاتها من الفرض، وهي ساجدة بخشوع ففاضت عيونها دمعاً، وتلك الدموع هي قطرات الندى والمطر على أوراقها انسكبت عند تمايلها بفعل نسيم الصبا الرقيق، أما النرجس فقد أغمض عينيه ونام، كأن خطيب الطير أمره بغض بصره، ثم يصور ألوان الزهور الجميلة من أبيض حف بأصفر وأصفر حف بأبيض والنحل تتنقل في هذه الخميلة وبين تلك الزهور كأنها صيارف عاثت بالدراهم. فكما أن الدراهم تكثر بالقروض التي تكون فيها نسبة من الربح، فكذلك يساعد النحل في تكاثر الأزهار.

ونلحظ أن المشاهد الجزئية داخل هذه الصورة، كثيرة الألوان والأصباغ، فتعاقب الاستعارات في البناء العام للصورة جعلها تطل على عالم ليس بالمألوف، عالم تتحدث فيه الصبا، وتسجد الأغصان ، ويخطب الطير ...الخ عالم ملئ بالحركة. والتشبيه فيه مستوحى من العقيدة الإسلامية كالصلاة، والسجود، والخطابة ، وغض البصر، كما أن تشبيه النحل بالصيارف مستوحى من البيئة الاجتماعية المترفة. وتبدو قدرة ابن الخطيب الفائقة واضحة في استخدامه للألوان وتنسيقه بينها . ففي رؤيتها متعة، وفي تأملها لذة وراحة، وهو

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٣٨

يدرك تأثيرها في السامع ومشاعره، لأن الشعر (ينبت ويترعرع في أحضان الأشكال والألوان، سواء أكانت منظورة أم مستحضرة في الذهن، وهو بالنسبة للقارئ وسيلة لاستحضار هذه الأشكال والألوان في نسقٍ خاص. إنه تصورات تستمتع الحواس باستحضارها، وإلا كان شيئاً مملاً).[١]

ومن صور الطبيعة الأندلسية الخصبة قوله في مقدمة إحدى القصائد:[٢]

حَنَّتْ لِخُضرِ رُبىً وزُرْقِ مَـياهِ وَجَـآذِرٌ مِنْ قَوْمِهَا أَشْبَـاهِ

فَتَجَاذَبتْ جُدُلَ الأَزِمَّةِ وانْبَرتْ تحكي البوارق سرعة وتضاهي

ونلحظ في صورته عناية واضحة بإبراز الألوان التي هي مصدر جمال هذا المنظر، فالروابي خضراء، والمياه زرقاء، وجواده يظهر في اللوحة مثل سرعة البرق، وهي صورة جميلة، يبدو فيها سمة الحضارة في ألوانها التي تميزها بالخصوبة والمطر والمياه، كما أنها كانت مقدمة لقصيدة وهذا يبعدها عن المقدمات التقليدية، كما أضفى الإيقاع في البيت الأول بسبب التصريع مزيداً من الحسن على هذه الصورة.

وقال يصف أحد الرياض "المنتزهات":[٣]

مَعَـاهِدُ لَـذَّاتٍ ، رُبُوعُ مَـآرِبٍ هَصَرْنَا بِهَا غُصْنَ الشَّبِيبَةِ فَيْنَانَا

فَكَمْ لَيْلَةً لِي لِلْمُـنَى فِي رِيَاضِـها أُجَرِّرُ مِنْ عَصْبِ الفُكَاهَةِ أَرْدَاناً

وَقَدْ رَفَّ جِيدُ الغُصْنِ فِي حَلْيِ زَهْرِهِ وَنَافَحَ رَاحُ الطَّلِّ ، فَارْتَاحَ نَشْوَانَا

وهَزَّتْ وَقُـورُ الرَّوْضِ نَغْمَةُ قَيْنَـةٍ مِـن الوُرْقِ إِذْ بَاتَتْ تُرَجِّعُ أَلْحَاناً

إن الصورة في بدايتها تقوم على خيال ينطلق في غير فواصل، تخيل فيها ابن الخطيب الشباب بالغصن الغض اللدن، الذي نعم فيه بأجمل الأوقات وأمتعها لا سيما تلك التي قضاها في رياض غرناطة، ثم جعل الفكاهة والتظرف ثوباً من عصب اليمن طويل الأكمام، واستعار للأغصان المزهرة صورة المرأة المترفة التي تتزين بالحلي، ثم يشبهه في تمايله بالنشوان، ثم صور الروض في سكونه برجل وقور مهيب، أصبح يهتز طرباً من أنغام الحمام، وهي صورة حفلت بالصوت والحركة، ولم تقتصر على سرد المشاهد فقط ، ولا شك أن اللون الاستعاري هو الغالب على الصورة، كما أن التشبيهات

---

[١] د. عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة غريب ، القاهرة ، (د . ت) ص : ٥٩ – ٦٠ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٤٦
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٠.

فيها أغلبها حضارية تمثلت في التشبيه بالعصب، والجيد المحلى، والنشوان والقيان والألحان.

ولم ينس ابن الخطيب صور **الثمار والفواكه**، فقد استخدم بعضها مثل قوله في وصف ساقية في أحد المجالس:[١]

هِيَ رَوْضَةٌ تَجْنِيكَ بَيْنَ لِثَاتِها خَمْراً ، وَمِنْ وَجَنَاتِها تُفَّاحاً

لقد وجد الشاعر في التفاح لون خدود هذه المرأة الجميلة ومعلوم أن الخمر مصدره التفاح، وقد شبهها بالروضة فكل ما فيها جميل، ولا شك أن وصف المرأة الساقية هو نتاج بيئة اجتماعية باذخة.

وقال في وصف شجر الجوز:[٢]

انْظُرْ إِلَى يَنْعِي وَحُسْنَ بُسُوقِـــي يَهْفُو النَّسِيمُ بِقَدِّيَ المْشُـــوقِ

يَجْلُو اللَّواحِظَ مَنْظَرِي حُسْناً كَمَا يَجْلُو ثُغُورَ الغَانِياتِ عُرُوقِـــي

نلحظ في البيتين صورة شجرة الجوز اليانعة الباسقة وكأنها قد ممشوق معتدل يجلو حسنها وجمالها عن العين كل ما يؤذيها تماماً كما تجلو عروق الجوز ثغور الغانيات، ونلحظ في هذه الصورة لمحة حضارية تدل على اهتمام المرأة بكل ما يزينها من حلي وأصباغ وثياب، ويبدو أن عروق الجوز هذه كانت تستخدم لتبييض الأسنان . وتبدو في الصورة الطرافة حيث جعل الوصف على لسان الشجرة نفسها.

وقال في وصف فاكهة "حب الملوك" التي تسمى اليوم الكرز:[٣]

انْظُرْ إِلَيْها تَجِدْحَبَّ المُلُوكِ بِهَـــا وَقَدْ حَكَى نُوْرُهَا المْبيَضِّ حِينَ فُتِحْ

قُطْناً تَراكَمَ فِي الأَغْصَانِ إِذْ قَذَفَتْ لَفَائِفُ الثَّلْجِ فِي أَعْلاَهُ قَـوْسَ قُزَحْ[٤]

لقد شبه نور هذه الثمرة الأبيض بالقطن على تلك الأغصان، والثمرة تبدو مع هذا اللون الأبيض ولون ورق الشجر قد شكلت قوس قزح بألوانه الزاهية، والصورة بصرية حافلة بالألوان والحركة. وقد مزج فيها بين تشبيهين بطريقة جميلة فورد هذه الشجرة الأبيض يشبه القطن، وتراكم الألوان هنا بين لون الثمرة الأحمر، والشجر الأخضر يشبه قوس قزح الذي علاه لفافات من الثلج.

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٢٢ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧١٣ .
[٣] انظر : الزجالي : أمثال العوام في الأندلس ٤٥٦/٢ ، الحاشية .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٤٧ .

وقال - أيضاً - مصوراً الثناء العاطر على ممدوحه:[١]

مَا زَهْرُ رَوْضِ الغَوْرِ رَوَّضَهُ الحَيَا وَحَنَتْ عَلَيْهِ بُرُوقُهُ وَرعُـودُهُ
وسَرَى سَقِيطُ الطَّلِّ فِي أَوْرَاقِـه بَدَداً كَدُرٍّ أَسْلَمَتْهُ عُقُـودُهُ
وَكَأَنَّهُ فِي ضِفَّةِ النَّهْرِ انْتَشَـى وَغَدا يَبُوحُ بِسِرِّهِ عِرْبِيـــدُهُ
بِجَنِيِّ وَرْدٍ شَجَّ وَجْنَتَهُ النَّـــدَى وَبِسَوْسَنٍ شُقَّتْ عَلَيه بُرُودُهُ
وتَخَالُ غُصْنَ البَانِ فِيهِ عَـابِداً مَا إِنْ يَرِيمُ رُكُوعُهُ وَسُجُودُهُ
بِأَنَمَّ مِنْ مَسْرَى امتِدَاحٍ عَـاطِرٍ يُهْدَى إِلَى نَادِي عُلاكَ فَرِيدُهُ

إن الصـورة الشـعرية في هـذه الأبيـات كمـا تبـدو كـثيرة الظـلال والإيحـاءات استغرقت عدة أبيات في وصف زهور هذا الروض الأنيق بعد أن سقاه الغيث، فالطل المتساقط تبدد على الأوراق كحبات الدر المتناثرة، وبعد أن ارتوى هذا الزهر بدا على ضفة النهر متمايلاً من النشوة، وهذه صورة حركية، بث الحركة فيها عن طريق الاستعارة ، ثم يصور في صورة بصرية جميلة منظر تفتح الورد والسوسن، فالأول قد شج الندى وجنته، والسوسن قد مُزقت برودة التي كان يرتديها، أما غصن البان فيبدو متمايلاً بفعل النسيم، وكأنه عابد متبتل دائم الركوع والسجود، ولا شك أن هذه الاستعارات كانت مصدر الحياة والحركة وجمال التصوير في هذه اللوحة ليبين بعد كل هذه التفاصيل بأن ذلك الروض وكل ما يحويه من جمال وعبق زكي لا يماثل ثناء الشاعر على ممدوحه.

ونلحظ في هذه الصورة روح الترف والتحضر في بيئة الغيث والزهور، والندى، وفي التشبيه بالدر والبرود، وفي التأثر بروح الحضارة الإسلامية، في جمل شعرية طويلة بعض الشيء والطول هنا اقتضته طبيعة الوصف، الذي يدل على تأمل عميق وهادئ شمل جميع جزئيات هذه اللوحة وهو ما يسمى **بأسلوب التفريع** حيث بدأ ابن الخطيب هذه الصورة باسم منفي (بما) وهو (ما زهر روض) ثم وصف هذا الاسم المنفي بمعظم أوصافه، ثم جعله أصلاً فرع منه معنى صاغه في جملة من جار ومجرور متعلق به وهو (بأنم من مسرى امتداح عاطر).[٢]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٢ – ٢٩٣ .
[٢] انظر ابن أبي الأصبع المصري : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تحقيق د. حنفي محمد شرف ، طبعة : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص : ٣٧٣ .

كما عمد إلى الأسلوب ذاته في قوله:[١]

فَمَا رَوْضَةٌ بِالغَوْرِ عَاهَدَهَا الحَيَـــا ... وَحَلّتْ حُبَا الأَنْواءِ فِي ذَلِكَ العِقْدِ
وَحَجَّبَهَا عَنْ نَاظِرِ الشَّمْسِ فَانْثَنَتْ ... تَسَتَّرُ فِي ظِلٍّ مِنَ الغَيْمِ مُمْتَـــدِّ
وَبَثَّ نَسِيمُ الرَّوْضِ فِيهَا تَحِيَّـــــةً ... قَرِيبَةَ عَهْدٍ بِاجْتِيازٍ عَلَى الهِنْـــدِ
بَأَعْطَرَ عَرْفاً مِنْ أَرِيجِ ثَنَائِـــــهِ ... إِذَا نَشَرَتْ آثَارَهُ صُحُفُ الحَمْـدِ

يقدم ابن الخطيب في صورته نموذجاً مترفاً لروضة بديعة في يومٍ ماطر، وهي صورة حركية تفيض حساسية ونبضاً، حيث صور الروضة إنسانة تخجل من الشمس الناظرة إليها فتستتر منها بالغيوم، ثم ذهب يتأمل الجمال في روضته فلم يلبث أن ظفر بصوره شميه، تصور فيها النسيم يبث تحية مضمخة بعطور الهند، ونشر المسك في جنباتها، فأرعف أناف الورد والشقائق، بهذه الرائحة الزكية التي فاقت عبير تلك الزهور. ولا شك أنها صورة حضارية مترفة، يستشعر من خلالها القارئ مدى جمال هذا الروض وعبيره الذي اختلطت فيه روائح أفضل العطور مع أريج الزهور. ومع ذلك تبقى هذه الروضة أقل من طيب ثناء ممدوحه إذا تذاكره الذاكرون.

فالتصوير في الأبيات يجعل من "المشبه به " وهو (الروضة) بكافة صفاتها ولوازمها شيئاً ضئيلاً لا يقوى الوقوف أمام تفوق " المشبه " وهو (الثناء على مآثر الممدوح) وهذا التشبيه -ومثله النموذج السابق – وإن كانت المبالغة فيه واضحة إلا أن ابن الخطيب استخدم فيه هذه **الصورة الإستدارية** وهي نمط تشبيهي بنا الصورة فيه قائم على (حركة دائرية تبدأ من نقطة (ما) النافية العاملة عمل (ليس) فالمشبه به بكافة تفريعاته التابعة، مسبوقاً بـ (أفعل) التفضيل المناسب المرتبط بالباء الزائدة الواقعة في خبر (ما) لتعود المقارنة الأخيرة تلتقي بالمشبه به مختتمة الدورة أو الدائرة).[٢] ليؤكد على تفوق المشبه وغلبته على المشبه به، وهذا أقرب ما يكون إلى **التشبيه المقلوب** مع اختلاف في الأسلوب.[٣]

نستنتج مما سبق أن لوحة الطبيعة في شعر ابن الخطيب هي الأكثر وجوداً إذ لا تكاد تخلو أية قصيدة منها. حيث جعل الروض ولوحة الطبيعة مدخلاً للتغني بالممدوح في أغلب قصائده المدحية ، وذلك لا شك بتأثير الحضارة، حيث ترك غالباً الأطلال ووصف الإبل إلى ما وقعت عليه عينيه من جمال طبيعي امتزج بالبناء والعمران في بلاده المتحضرة، أدى إلى تأثر الإنسان وتحضره .

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٠٣ .
[٢] انظر: خليل إبراهيم أبو ذياب : الصورة الإستدارية في الشعر العربي ، الطبعة الأولى ، دار عمار ، الأردن ، ١٩٩٩م ، ص : ٢٧٢ – ٢٧٣ .
[٣] انظر : د. خليل أبو ذياب : الصورة الاستدارية في الشعر العربي ، ص : ٣٤ .

والصورة الحضارية للطبيعة عند ابن الخطيب تختلف في بنائها الفني عن لوحة العلم والفكر في استعمال الاستعارة أكثر من التشبيه، ولعل مرد ذلك هو أنه رأى في عناصرها الحياة ورآها من حوله حية متحركة، تتدفق حيوية وجمالاً. وقد أحسن ابن الخطيب في الاستعارات التي ضمنها لوحاته المستمدة من الطبيعة، حيث كانت في موضعها أبين للغرض، وأقوى تأثيراً في النفس من غيرها وبذلك تصبح (أقوى إيحاءً من التشبيه، مما تتضمنه من سعة الدلالة، وقوة التصوير).[1]

إن الصورة الفنية في هذا المصدر ظهرت في أغلبها لوحات فنية متكاملة تكونت من عدد من الصور الجزئية صاغها من معين واحد حتى يرسم لوحته الفنية المتكاملة التي تميزت بأنها غير مجدبة ، بل زاهية الألوان ، خصبة معطاءه ، فالسحاب محمل بالمطر ، والغيث يحمل الخير ، والروض يكسوه الزهر ، المتعدد الألوان ، وبذلك كانت صور الطبيعة لديه حافلة بالبهجة والانشراح والعطاء والخصوبة.

كانت لوحة الطبيعة عند ابن الخطيب من أغنى لوحات القصيدة كثرة في صورها الفنية الجمالية وذلك لأنها تعود إلى **فن الوصف** الذي يعتمد على جمال الرؤية والخيال الحالم، والتحسين ومحاولة اختراع الملابسات بين الجزيئات المتفرقة، وشد عناصرها برباط وثيق ، وإحكام دقيق مما جعل لوحة الطبيعة غنية في صورها، تغلب صورها أفكارها ، ويظهر فيها الخيال في التعبير أكثر من السرد.

كذلك اعتمد الشاعر في رسم لوحة الطبيعة على عنصري **الصوت والحركة** فلم تكن صوراً جامدة وقد صاغها ابن الخطيب في ألفاظ غاية في الوضوح والرقة، وفي جمل طويلة في بعض الأحيان عندما يعمد إلى وصف جميع المشاهد في الصورة، كما ظهرت فيها ملامح الحضارة المادية الفكرية، عندما استمد صوره من البيئة الخصبة المشرقة،والقصور الفخمة الباذخة ، والدين الإسلامي وشعائره، والكتابة.

٣ - مظاهر الحضارة المادية والترف:

إن اتصال ابن الخطيب بمن حوله من الملوك، ومجالسته لهم، وعمله في البلاط النصري، جعله يتقلب في أعطاف النعمة زماناً، متأثراً بما كان منتشراً بينهم من مظاهر الحضارة والنعيم. وقد كان لهذا النعيم أثره في صور ابن الخطيب، حيث كان من

[1] د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، طبعة دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة (د.ت) ، ص : ٤٣٣ .

أوضح مصادر الصورة الحضرية في شعره، وقد ظهر هذا الأثر في التشبيهات الحضرية، ووصف مظاهر الغنى والترف، كقوله:[١]

بِنَفْسِي غَزَالٌ قَدْ غَـــزَتْنِي لِحَاظُــهُ وَتَيَّمَ قَــلْبِي حُسْنُهُ وَجَمالُــهُ
هُوَ البَدْرُ والجَـــوْزَاءُ قُرْطٌ مُعَسْجَدُ وَجُنْحُ اللَّـيَالِي فَــرْعه ودلالُــهُ
وبِالجَانِبِ الشَّرْقِيِّ[٢] سِرْبٌ مِنَ الدُّمَى بِغَيرِ الكَرَى مَا إِنْ يُصَادُ غَزَالُهُ

يتجلى في هذه الصورة، روح الحضارة والترف، فالمحبوبة مثل البدر وترتدي الأقراط المصنوعة من الذهب، وهي زينة لا تتأتى إلا لنساء ينعمن بالغنى والترف، كما أنه شبه نساء غرناطة الحسناوات بالدمى المصنوعة من المرمر الأبيض الناعم، وليست هذه الدمى مما يعرف أهل البادية أو يستطيعون له صنعاً، وإنما هي صناعة من بلغوا شأواً غير قليلٍ في الحضارة.

لقد وقف أمام معالم تلك الحضارة، أمام الدمى والتماثيل وغيرها من تلك المعالم، وقد اقترنت في ذهنه روعة الجمال وروعة التماثيل، التي تمثل الجمال الصامت الساكن الذي لا تشوبه حركة فتفسده.

وقال :[٣]

صَبَوْتُ وَمَا قَلْبِي بِأَوَّل مَنْ صَبَـــا لِنَاطِقَةِ القُرْطَيْنِ صَـامِتَةِ القَــلْـبِ
إِذَا مَا رَنَتْ غَارَتْ بِألْحَاظِهَا الظُّبَا وَمَهْمَا انْثَنَتْ غَصَّتْ مُنَعَّمَةُ القُضْبِ

إنها الصورة الحضارية للمرأة، التي تتزين بالحلي، وترفل في أثواب النعيم في صورة صوتية تمنح الإحساس والكلام للأقراط والصمت للقلب ثم يصور طرفها الساحر الذي يشبه حد السيف، وقوامها الناعم الرقيق، فهي مترفة مخدومة، لم يجهدها عمل أو خدمة أحد.

ومن الصور المستمدة من واقع المجتمع الحضاري قوله في وصف لقائه من أحب في ليلة ظلماء:[٤]

فَكَأَنَّمَا الظَّلْمَاءُ طِرْفٌ أَدْهَمٌ أَخَذَ العِنَانَ فَما يُفِيقُ جِمَاحاً
لاَ تُوقِدِ المِصْبَاحَ واعْلَمْ أَنَّ لِي مِنْ وَجْهِ مَنْ أَحْبِبْتُهُ مِصْبَاحاً

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩٤ .
[٢] الجانب الشرقي ، غرناطة .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٢ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٢٢ .

إن هذا الليل الحالك الظلام لم يمنعه من مشاهدة محبوبته، كيف لا، ووجهها هو المصباح في ذلك الليل الداجي، ولا شك أن تشبيه الوجوه بالمصابيح يدل على تأثره بالمدنية والحضارة.

وقال:[١]

وَأَنْضَرُ الرَّوْضِ أَضْحَى وَهْوَ مُصْطَبِحُ ... والغُصْنُ قَدْ مَالَ مَيْلَ الشَّارِبِ الثَّمِلِ

حَتَى إِذَا الشَّمْسُ مَالَتْ نَحْوَ مَغْرِبِهَا ... كَأَنَّهَا عَاشِقٌ يَبْكِي عَلَى طَلَلِ

لاَحَتْ إِلَيْنَا شُمُوسُ الحُسْنِ سَاطِعَةً ... وَلاَ سَمَاءَ سِوَى الأَسْتَارِ والكِلَلِ[٢]

في هذه الصورة يقدم ابن الخطيب لوحة جميلة لروض خلاب سقاه الغيث، فأضحى مشرقاً نضراً، تتمايل فيه الأغصان كتمايل الثمالى، ثم يصور غروب الشمس وضيائها الذي هم بالزوال، ويشبهها بوجه العاشق الذابل الذي شحب لونه، من بكاءه على أطلال محبوبته. وبعد أن أسدل الظلام رداءه على هذا الكون ظهرت وجوه الحسان كالشموس التي بددت هذا الظلام، تغطيها الأستار والكلل الشفافة. وتبدو سمة الحضارة والترف ظاهرة في هذه الصورة، فالروض الزاهي، والغصن الثمل، والأستار والكلل التي تستعمل للحماية من الحشرات ولا تستخدم إلا عند المترفين الذين رقت جلودهم، جميعها تشبيهات مستمدة من بيئة الغنى والترف.

كما ذكر هذه "**الكلل**" في قوله:[٣]

تَهُشُّ لَنَا البُدُورُ بِكُلِّ خِدْرٍ ... وَتَهْوَانَا الشُّمُوسُ بِكُلِّ كِلّهْ

وقوله :[٤]

وَمِنَ شُمُوسٍ وَأَقْمَارٍ إِذَا طَلَعَتْ ... كَانَتْ مَشَارِقُهَا الأَسْتَارُ وَالكِلَلاَ

ولا شك أن تكرار التشبيه بها يدل على رواج استعمالها عند أهل الغنى والترف كما أنه يدل على البيئة الطبيعية الخصبة لأن مثل هذه الحشرات لا تتواجد إلا في بيئة تكثر فيها المياه والزروع . التي تنعم بها بلادهم، وتحيط بقصورهم من حدائق وفوارات، ومتنزّهات بديعة تحف بالمدينة .

وقال في وصف **فاكهة "كمثرى "**، أهداها إلى أحد الأصدقاء:[٥]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩١

[٢] الكلل جمع كلة ، وهي الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البق ، أو البعوض .

[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٢٣ .

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٦٣ .

[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٧٥ .

صُفْرُ الملاَبِسِ فِي شَكْلٍ وفِي أَرَجٍ كَأَنَّهَا مُذْهَبَاتُ العَنْبَرِيَّاتِ

يلفت القارئ في هذا البيت إحدى العادات الاجتماعية المحببة وهي التهادي بين الأصحاب والأحباب. والهدية هنا هي كمثرى من مدينة مالقة، وهي من أفضل الأنواع، وقد بيّن في هذه الصورة لونها الأصفر الجذاب، بحيث بدت في شكلها ورائحتها العطرة مثل آنية عطر مذهبة مليئة بالعنبر، وهو تشبيه مستمد من بيئة الملوك وعلية القوم حيث الترف والنعيم، إنها صورة جميلة تمازجت فيها الألوان وَهي صورة بصرية، مع الروائح الندية وهي صورة شمية.

ومن الصور المستوحاة من بيئة متحضرة قوله في ختام إحدى القصائد:[1]

"أَبَا قَاسِمٍ" خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّها حُسَامٌ يَرُوعُ النَّاقِدِينَ صَقِيلُ

أَتَتْ كَأَنَابِيبِ القَنَاةِ بُيُوتُهَا لَهَا مِنْ قَوَافِيهَا الحِسَانِ نُصُولُ

في هذه الأبيات يصور ابن الخطيب قصيدته بالحسام الصقيل الماضي، الذي لا يكلّ عن إصابة الهدف، كما يشبه أبياتها في انتظامها بأنابيب القناة، ويبدو أنها قنوات الري التي أحكمت هندستها ووضعها بطريقة دقيقة. وذلك يوحي بصفاء قريحته وشاعريته وتدفق ألفاظه ومعانيه فجاءت القصيدة مناسبة متدفقة، لأن صاحبها يتملك الموهبة الشعرية الصافية ، فجاءت قوافيها في ختام أبياتها كنصول لهذا الحسام.

ولا شك أن تشبيه أبيات القصيدة بأنابيب القناة مستمد من بيئته الخصبة المتقدمة علمياً وفنياً وصناعياً.

وإلى جانب التشبيه المستمد من البيئة الحضارية، نلمح في شعر ابن الخطيب الكثير من المقطوعات فضلا عما ورد في ثنايا القصائد لوصف بعض ما يحيط به من مظاهر الترف والرقي، من أثاث ورياش، وملابس، وقصور، وعمران و ... غيرها ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في **وصف "برادة "** في قصر السلطان، وقد نقش عليها:[2]

إِنْ كَانَ يَسْقِي الأَرْضَ جُودُ غَمَامَةٍ فَأَنَا الَّذِي أَسْقِي غَمَامَ الجُودِ

قَابَلْتُ مِنْ وَجْهِ ابنِ نَصْرٍ قِبْلَةً فَلَها رُكُوعِيَ دَائِماً وَسُجُودِي

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٨٢ .
[2] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٢٠

إذا كان الغيث يسقي الأرض فإن سلطانه الذي يشبه الغمام في بذله وجوده، تسقيه هذه البرادة التي كما يبدو من الأبيات قد وضعت في مكانٍ مقابل له. فهو قبلتها التي تتجه إليه في ركوعها وسجودها. ونلحظ في هذه الصورة أن ابن الخطيب بث فيها الروح عن طريق نظمها على لسان هذه البرادة، التي بدت من خلال هذا التجسيم كإنسان يتحدث ويقف ويركع ويسجد، مما يميزها بطابع الدين، وذلك لا شك بعد حضاري فيها. كما أن الغرض من هذين البيتين هو كتابتهما عليها وذلك إنما يدل على مدى التقدم في الصناعة والعمران والزخرفة في هذه المملكة.

كما استخدم الأسلوب ذاته في وصف "سفرة طعام" ليكتب عليها:[١]

نَشَدْتُكَ هَلْ أَبْصَرْتَ قَبْلِيَ أَوْ بَعْدِي مُقَوَّرَةً قَوْرَاءَ كَالْقَمَرِ السَّعْـــــدِ!!
رَحِيبَةُ أَكْـــنَافٍ، ضَمِينَةُ أَنْعُـــمٍ تَدُلُّ عَلَى الفَخْرِ المؤَثَّلِ والمجْـــــدِ
يُبَشِّرُ بِالشَّـمْلِ الجَمِيعِ قُدُومَهَـــا وَتَأْتِي مَعَ العَيْشِ الخَصِيبِ عَلَى وَعْدِ

ونلحظ في هذه الصورة وصفاً لسفرة عظيمة ، فهي مائدة سلطانية ، كبيرة ممتدة تشتمل على كل أصناف الأنعام. وقدومها يقتضي اجتماع الشمل، ليكني بذلك عن جلوس المدعوين حولها، ويكني بالعيش الخصيب عن تنوع أصناف الطعام.

كما نظم ابن الخطيب أبياتاً جميلة لتكتب على **مروحة**[٢] قال فيها:[٣]

كَأَنِّي قُرْصُ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَقَدْ قَدِمَتْ مِنْ قَلْبِهَا نَسْمَةُ الفَجْرِ
كَأَنَّ نَسِيمِي، والهَجِيرُ مُطَنِّـــبٌ حَدِيثُ وِصَالٍ جَاءَ فِي زَمَنِ الهَجْرِ
وإِلاَّ كَمَا هَبَّتْ بِمُحْتَدِمِ الوَغَـــى صَبَا النَّصْرِ لَكِنْ مِنْ بُنُودِ " بَنِي نَصْرِ"

لقد اعتمد ابن الخطيب في إخراج هذه الصورة على فن التشبيه، فهذه المروحة - كما يبدو من الأبيات - كانت بشكل نصف دائري مثل قرص الشمس أول طلوعها، ثم يصور أثر النسمات العليلة الباردة التي تبعث بها في وقت الهجير الذي تشتد فيه حرارة الجو، وهو الراحة، ويشبه شعوره في مثل هذا الوقت بشعور المحب بعد وصل حبيبه الذي هجره زمناً، ومما زاد الصورة جمالاً في هذا البيت هو تركيبه اللغوي حيث التضاد بين (الوصل والهجر)، والتجانس بين (الهجير والهجر)، كما صور هذا الشعور الذي تبعثه

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٣٤
[٢] المروحة أداة يدوية يجلب بها الهواء في الحر .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٨٥ .

المروحة في نفسه بمثال آخر وهو شعور الجندي في ساحة المعركة التي حمي وطيسها وقد هبت عليه رياح النصر، من بنود ممدوحيه " بني نصر " وقد جانس في هذا البيت بين (النصر، ونصر) جناساً تاماً، ولا شك أن نظم الأبيات من أجل تزيين هذه المروحة بها يدل على مدى الترف والتحضر عندهم.

وللغرض ذاته، وهو **التزيين والنقش** نظم ابن الخطيب أبياتاً في **وصف سرير** للسلطان، قال فيها:[1]

أَنَا مَلْعَبُ الوَصْلِ الَّذِي يَشْرَحُ الصَّدْرَا وَبُرْجُ سَمَاءٍ يَجْمَعُ الشَّمْسَ والبَدْرَا
حَفِيظٌ عَلَى الأَسْرَارِ حَتَّى كَأَنَّنِي دُعِيتُ سَرِيراً أَنَّنِي أَحْفَظ السِّرَا
إِذَا مَا أَجَلْتَ العَيْنَ بَيْنَ بَدَائِعِي وَشَاهَدْتَ حُسْناً يُذْهِلُ العَقْلَ والفِكْرَا
وَقَدْ مُدَّ سِتْرُ التِّبْرِ فَوْقِي وأَرْسَلَتْ يَدُ اليُمْنِ والتَّوْفِيق مِنْ تَحْتِهِ سِتْرَا
كَأَنِّي رِيَاضٌ زَارَهَا وَاكِفُ الحَيَا فَأَلْبَسَهَا وَشْياً ، وَطَيَّبَها نَشْرَا
وثَامِنُ أَمْلاكِ الجِهَادِ أَقَامَنِي[2] فَأَلْبَسنِي عِزّاً وَرَفَّعَ لِي قَدْرَا

وفي هذه الصورة أيضاً كان التشبيه وسيلته الطيّعة التي عبر بها عما يريد، فهذا السرير مثل برج السماء الذي يجمع الشمس والقمر -هو وزوجته - وهو تشبيه مستمد من الطبيعة ويوحي كذلك بعلو قدر هذا المشبه ، ويعلل تعليلاً طريفا لتسميته بالسرير وهو لأنه كاتم للأسرار لا يبدي منها شيئاً. ثم يصور جمال وحسن هذا السرير المطلي بالذهب، والذي مدت عليه أجمل وأعلى الفرش الموشاة بأجمل النقوش - وهي صورة بصرية - ثم يذكر الروائح العطرة التي تنبعث منه - وهي صورة شمّيه - وهو وصف أخاذ يطلع القارئ على مدى فخامة وأبهة هذا السرير، وإذا كان السرير بهذا الوصف فما هو شأن باقي الأثاث ! لا شك أنه لا يوجد إلا في القصور الباذخة ، وهو فعلاً كذلك إذا عرفنا أنه صُمم من أجل السلطان.

وإلى جانب التشبيه في هذه الصورة نلحظ استخدام الشاعر للون الاستعاري، فالسرير يحفظ الأسرار، واليمن له يد تمد الستر على هذا السرير، والغيث يزور الروضة ويلبسها الوشي ويطيبها بأروع العطور. مما أضفى على هذه الصورة الحياة، وبث فيها الحركة.[3]

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٠٩ .
[2] يقصد السلطان محمد الخامس " الغني بالله ".
[3] انظر : ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٤٢ . ٤١٠ . حيث نظم مقطوعتين في وصف السرير أيضاً .

وقال في وصف **مرآةٍ** اتخذت للسلطان:[١]

لِمُجَدِّدِ المُلْكِ الرَّفِيعِ "مُحَمّـدٍ" أُنْشِيتُ فَأعْجَبْ مِنْ غَرَابَةِ شَانِي
تَبْدُو بِظَاهِرِيَ الأُمُورُ كَأَنَّنِي مِنْ بَاطِنِ المَوْلَى الَّذِي أَنْشَانِـــي

يصور ابن الخطيب هذه المرآة المصقولة النقية، التي تشبه سريرة هذا السلطان النقية، فظاهرها يعكس باطن منشئها، في تضاد زاد المعنى جمالاً بين قوله " ظاهري" و" باطن ". أيضاً ثمة ما نلحظه في هذه الصورة الحضارية يتعلق بتركيبها اللغوي وهو ميل ابن الخطيب إلى التخفيف حيث أبدل الهمزة ياء في قوله " أنشيت " بدلاً من أنشئت وحذف الهمزة للغرض نفسه من كلمتي " شاني " و " أنشاني " وذلك أثر من آثار الحضارة في اللغة الشعرية، كما سبق توضيحه.[٢]

وقال مما كتب في ثوب السلطان أبي الحجاج يوسف:[٣]

قَدْ صَحَّ فِي سُنَنِ النَّبِيِّ "مُحَمدٍ" فَضْلِي عَلَى المَوْشِيِّ والدِّيبَـــــاجِ
ولأَجْلِ هَذَا اخْتَصَّنِي بِلَـــباسِهِ مَلِكُ العُلى الأَرْضَى "أَبُو الحَجَّاجِ"

يستشهد ابن الخطيب بما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام من أحكام اللباس ليوضح فضل هذا الثوب غير الحريري على ثياب الوشي والديباج. وعندما يقرر أن السلطان اختصه باللباس لهذا السبب فإنه يلمح إلى عظيم أخلاق هذا السلطان وتقواه من الله تعالى، فبرغم ما ينعم به من ثراء وغنى فإنه لم يلبس الحرير. ومع ذلك تظل الكتابة على هذا الثوب تدل على قدر كبير من الترف والنعيم.

وتمتد الحضارة لتشمل كافة مناحي الحياة وتطبعها بطابعها حتى في مواقف الحروب، التي كانت متوقعه في كل وقت آنذاك، لنجد حب **التجمل والتأنق** يشمل حتى الزي الحربي، وقد نظم ابن الخطيب عدد من المقطوعات لهذا الغرض مثل قوله في **بيضه سلاح** اتخذت للسلطان:[٤]

خُصِصْتُ بِالحُسْنِ وانْفَرَدْتُ بِهِ فَجَلَّ وَزْنِي وَقَـلَّ أَشْبَاهِي
كَأَنَّنِي كَوْكَـبُ الصَّبَاحِ بَدَا عَلَى جَبِينِ "الغَنِـــى بِاللّهِ"

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٢٧ .
[٢] انظر : المبحث الخاص بالأثر الحضاري في الألفاظ والتراكيب .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢١٤ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٥٠ .

إن هذه البيضة فريدة في صنعها وليس لها مثيل، وشبهها على رأس السلطان عندما ارتداها بكوكب الصباح، وهو تشبيه يوحي بجمال مرأى السلطان حين وضعها على رأسه، كما تدل على وضاءة وجهه وحسنه.

ولكن يظل دائماً العمران والبناء من أوضح مظاهر الحضارة المادية، لذلك فقد حظي بعناية من ابن الخطيب، فقد كان عصره عصر بناء وإنشاء وتقدم عمراني، وساهم بشعره في تجميل هذه المنشآت حيث كان ينقش في أماكن متعددة منه. ومن جهة أخرى فإن هذه المنشآت قد خلدت هذه الأشعار حتى هذا اليوم. ومن الأمثلة على الصور المستمدة من هذه النهضة العمرانية قوله الذي كتب على أحد طيقان الماء:[1]

فُقْت الحِسَانَ بِحُلَّتِي وَبِتَاجِي فَهَوتْ إِلَيَّ الشُّهْبُ فِي الأَبْرَاجِ

يَبْدُو إِنَاءُ الماءِ فِيَّ كَعَابِـدٍ فِي قِبْلَةِ المِحْرَابِ قَامَ يُنَاجِـي

إن هذا الطاق قد فاق جميع الحسان بحلته والزخارف التي تغطيه ، والتاج الذي يعلوه. فهوى إليه الجميع وتوجهوا إليه لأنه يضمن لهم السقيا والري من العطش. كما صور إناء الماء فيه بتصوير جميل حيث شبهه بالعابد الذي يتعبد في محرابه دائماً.

ونخلص مما سبق أن المظاهر المادية التي استدعتها الحضارة كانت من أهم مصادر الصورة الحضارية في شعر ابن الخطيب، وقد استخدمها تارة كمادة تشبيهيه، وتارة صاغ بعض الصور في وصفها، ومما يلاحظ على هذه الصور هو استعمال المجاز فيها من تشبيه واستعارة، في حين قلّ استعماله للكناية، كما أن أغلب الصور التي نظمها في الوصف صاغها على لسان الموصوف ذا ته مما يميز هذه الصور بالحيوية والحركة، فلم تكن صوراً جامدة. كما أنها كشفت عن مدى الغنى والثروة التي تمتع بها أهل غرناطة – لا سيما الطبقة العليا في المجتمع – والترف والبذخ الذي عاشوا فيه، ومدى حبهم للجمال ورغبتهم بالتمتع فيه ، في كل ما يحيط بهم، من أبينة، وملابس، وأثاث، ..... وغيره .

لقد كانت هذه الصور المتحضرة التي نبعت من مصادر مختلفة، في شعر ابن الخطيب لوحات أساسية لم يأت بها تأكيداً أو حشواً، ولكنها كانت تؤدي فكرة، وتقرب المعنى وتفسره وقد عمل ابن الخطيب من خلال الصور الفنية المتحضرة في شعره

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٩٨ .

على نشر حب الجمال، أو الدعوة إلى تأمل كل ما هو جميل والتمتع به ، وهي **دعوة حضارية راقية** ، تمس شغاف القلب . لقد صور ألواناً عديدة من الطبيعة فتارة كانت مشبهة ، وأخرى مشبهاً بها ، صورة الطيور والزهور والرياض والحدائق والغيث، وكلها جزئيات لصور ترسم في النهاية لوحة كلية ينبعث الجمال من كل أرجائها ، ويفوح العطر من خلالها ، صور تموج بالحركة وتمتلئ بالألوان. تمتع البصر وتبهج النفس وتريح الفكر، فكان لا ينسى الطبيعة الجميلة حتى في مواقف الحروب حيث شبه بها بعض أدواتها ، لذلك فإن من يقرأ هذه اللوحات يزداد حباً وتعلقاً بجمال طبيعة الأندلس المزهرة، اليانعة. وقد كان موفقاً في رسم هذه الصور.

وقد أجاد ابن الخطيب في صياغة هذه الصور الفنية التي جاءت متكاملة يغلب عليها الانسجام التام بين جزئياتها ، في رقة ووجدانية عذبة.

لقد كان لتحضر ابن الخطيب أثر في تشكيل صوره، ظهر ذلك جلياً في مقدمات قصائده التي ترك فيها الأطلال، ووصف رحلات الإبل إلى مقدمات حضارية، صور فيها طبيعة بلاده الساحرة، وحتى عندما يلجأ إلى الأساليب التراثية في التصوير فإنه يصوغها بشكل يتناسب حضارياً مع حياته المترفة. حيث مزج في بعضها بين عناصر تراثية وأخرى حضارية، كما أنه صاغ بعض صوره من وحي حياته المترفة. ليس في المقدمة وحسب وإنما في ثنايا القصائد، وبعض المقطوعات .

وقد كانت هذه الصور الحضارية نابعة من بعض المصادر التي بثت روح الحضارة في ثناياها. حددها البحث في ثلاثة مصادر هي العلم والفكر والثقافة والدين، والطبيعة اليانعة التي امتزجت بالعمران من قصور وحدائق ورياض صناعية أبدعها الغرناطيون. وأخير مظاهر الحضارة المادية والترف الذي عم المجتمع.

كانت صور ابن الخطيب في مجملها بصرية تقوم على وصف المشاهد الحسية، كذلك ضمت لوحاته الفنية صوراً سمعية، وحركية، وأخرى شمية، مما يجعلها تنبض بالحياة والحركة وتعبق بالروائح العطرة.

كان التشبيه أكثر ألوان المجاز استخداماً في لوحاته ، ولا عجب في ذلك فالتشبيه (جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد)[١]. كما أنه عول كثيراً على الاستعارة في لوحاته لا سيما في وصف الطبيعة، وذلك لبث الحياة والحركة فيها. في حين قل استعماله للكناية.

صور ابن الخطيب كشفت عن جوانب كثيرة في المجتمع الغرناطي وما نعم به من بذخ وثراء . وقد كان لعمل ابن الخطيب في البلاط الملكي أثر كبير في كشف جوانب هذا الترف، حيث الحضارة والرقي في أزهى صورها. لأنه خالط الملوك، وعاش في النعيم. لذلك كانت صوره في مجملها تعبق برائحة الحضارة، وتسري فيها رقتها وعذوبتها.

❖ ❖ ❖

[١] ابو العباس محمد بن يزيد " المبرد" : الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق : تغاريد بيضون و د. نعيم زرزور ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٩م : ١١٩/٢ .

المبحث الرابع
الأثر الحضاري والإيقاع

الأثر الحضاري والإيقاع :

الإيقاع ركن من أركان الشعر لا يقل أهمية عن التشكيل اللغوي أو التصوير في شعر الشاعر، بل إن أهم ما يميز الصيغة الشعرية أنها صوتية، فالشاعر لا ينطق شعره فحسب وإنما يُحاول أن ينغّمه، ينغم ألفاظه وعباراته حتى ينقل سامعيه من اللغة العادية التي يتحدثون بها في حياتهم اليومية إلى لغة موسيقية ترفعهم من عالمهم الحسي إلى عالمه الشعري[١].

إن جمال الشعر مرتبط في الغالب بجمال إيقاعه وروعة موسيقاه وإذا كان للشعر نواحٍ جمالية عديدة فإن أسرعها نفوذاً إلى قلوبنا ما فيه من موسيقى وإيقاع، وقد تنبه النقاد القدامى إلى أهمية الإيقاع الموسيقي في البناء الشعري، فكان تعريف الشعر يدور حول هذا المحور. يقول "قدامة بن جعفر" أن الشعر: (قول موزون مقفى يدل على معنى)، [٢] كما نبه " ابن رشيق " على أهمية الوزن وعده أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية.[٣]

والإيقاع هو (أساس الفنون كافةً ، لكنه يبدو في الشعر والموسيقى أكثر تقارباً)[٤] وهو عبارة عن (حركة تمتد عبر مساحة زمنية ذات نسب متباينة، تطول، وتقصر، وفق منظور العناصر الصوتية ، وتشكلها في هيئاتها المقطعية).[٥] فهو يقوم على مجموعة من المعايير الثابتة ترتكز على عنصري الوزن والقافية، إضافة إلى تلك التقنيات المتغيرة التي تتشكل وفق منظومة من الهندسات الصوتية لبنى الإيقاع الداخلي في القصيدة والتي تتمثل في ترتيب الكلمات وتنسيقها أو تكرارها أو تماثلها.. وغير ذلك.

وطبيعي أن ينسب كل تغير، لا سيما في الأدب إلى التطور الحضاري بأبعاده المختلفة، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فحدث نتيجة لذلك تغيير في مضامين الشعر وأنماطه، بما يلائم عمق التطور واتساعه من جيل إلى جيل، ومن بيئةٍ إلى أخرى. ولم تكن موسيقى الشعر بمنأىً عن هذا التطور الحضاري بل ظهر أثره واضحاً فيها.

---

(١) انظر : د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص : ١١٣ .
(٢) أبو الفرج قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص : ٦٤.
(٣) انظر : ابن رشيق : العمدة : ٢٣٧/١ .
(٤) د. ابتسام حمدان : الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، حلب ، ١٩٩٧م ، ص : ٢٣ .
(٥) د . عبد القادر عبد الجليل : هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي ، الطبعة الأولى ، دار صفاء ، الأردن ، ١٩٩٨م ، ص : ٦٣ .

وكما ظهر تأثير الحضارة في بناء القصيدة، وتركيبها اللغّوي وصورها الفنية، فكذلك ظهر في إيقاعها الموسيقي. وهذا **الأثر الحضاري في الإيقاع** هو محور الدراسة في هذا المبحث.

إن الموسيقى في الشعر العربي لها حدّان يضبطان الصورة الإيقاعية فيها. وهما **الوزن والقافية**. فهما أهم عناصر التشكيل الإيقاعي في القصيدة فالشعر لا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية.[1] ولإيضاح أكثر حول أهمية هذين العنصرين، ومدى تأثرهما بالحضارة والتجديد، فإنه سيتم تناولهما بشيء من التفصيل:

أ/ الوزن :

يعد الوزن العروضي في النص الشعري الذي يعتمد على الوحدة الإيقاعية في داخل البيت وهي التفعيلة ، من أهم عناصر الإيقاع الصوتي. فلا يمكن للنص الشعري أن يقوم بدونه .

والمتأمل شعر الشعراء في هذا العصر – خاصة ابن الخطيب – يلحظ مدى التزامهم – إلى حد كبير – بالأوزان العروضية حيث ساروا على نظام الوزن الواحد الذي تتوالى فيه الأبيات متشبثاً بعضها ببعض، فكل بيت يمسك بأخيه في توازن نغمي دقيق يطرد إلى نهاية يستقر فيها النغم، وهي القافية التي يصل عندها اهتزاز اللحن إلى غايته فيتم بذلك إيقاعه. فكل بيت له لحظة زمنية لا تقل عن لحظة البيت الذي يسبقه أو يقفوه في نظام محكم، فتموجات النغم متسلسلة ثابتة، حتى كأن إيقاعاته تعد عداً، فهي دائماً عدد منتظم من الاهتزازات الصوتية، والموجات الموسيقية، تعبر في استيفاء بالغ عن انفعال الشاعر.[2]

لقد استخدم ابن الخطيب الأوزان العروضية المختلفة في مختلف الأغراض الشعرية من مدح وهجاء وغزل ورثاء.... وغيرها. مما عمل على تلوين الإيقاع ، وتنوع الموسيقى في شعره . وتبرز الإحصائية التالية الأبحر التي ركب متنها ابن الخطيب في قصائده ومقطوعاته:

البحر	الطويل	الكامل	البسيط	الخفيف	السريع	الوافر	المتقارب
عدد وروده	٢١٦	١٦٤	٧٦	٥٩	٥٣	٤٩	٢٩
البحر	الرمل	المنسرح	المجتث	الرجز	المديد	المتدارك	**المجموع**
عدد وروده	١٤	١٢	٩	٤	٣	٣	**٦٩١**

[1] انظر . ابن رشيق : العمدة : ٢٣٧/١ .
[2] انظر : شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص : ١٠١ .

ويتضح من خلال هذه الإحصائية تصدر بحر (**الطويل**) لقائمة البحور المستخدمة، حيث أكثر ابن الخطيب من استخدامه، وصب معانيه في تفعيلاته، وليس هذا بمستغرب على بحر الطويل، الذي ليس بين بحور الشعر القديم ما يضارعه في نسبة شيوعه[١] لا سيما أن ما يقرب من ثلثي ديوان ابن الخطيب تقريباً كان في جله عبارة عن قصائد مدح أنشدها على فترات مختلفة، ولأشخاص عدة. فكان بحر الطويل بإيقاعه الفخم وجزالته المعروفة مما يناسب هذا الغرض الشعري، الذي يتطلب الفخامة والرصانة [٢] ولهذا استطاع أن يعبر بمرونة عن أفكاره ومشاعره. وفي قصائد المدح تلك كانت الوقفات الحضارية التي سجلها ابن الخطيب، وتولى هذا البحث دراستها.

كما يتضح من خلال الإحصائية أن الأبحر التي تمتاز بوفرة موسيقاها ، ورشاقة تفعيلاتها، وسرعة إيقاعاتها تحتل المراتب المتقدمة بعد بحر الطويل وذلك كالكامل، والبسيط والخفيف والسريع والوافر والمتقارب والرمل، وهذه الأبحر بما تمتاز به من خصائص إيقاعية يمكن أن تستوعب بمرونة معظم الأغراض الشعرية التي تعبر عن حياة الترف والنعمة وبعض شئون الحياة العادية التي تخلو من مواقف الجد والجلال، كما أنها تصلح للتلحين والغناء، الذي شاع في هذا العصر . ولا شك أن شيوع مثل هذه الأوزان الخفيفة ذات الإيقاع الرشيق -خاصة الرمل والوافر والخفيف والمتقارب والمنسرح –هو من أثر الحضارة التي عمت المجتمع، لأنها تتلاءم مع الذوق العام للعصر.

ويبقى أن يسجل من خلال تلك الإحصائية قلة نظم ابن الخطيب من بحر المجتث والرجز والمتدارك والمديد وندرة اتخاذه إياها أوزاناً لمعانيه وعواطفه.

وقد استطاع ابن الخطيب أن يصنع تشكيلات إيقاعيةً وأنماطاً موسيقية متعددة في استعماله لهذه البحور. ومن ذلك أنه عمد إلى البحور الطوال فاستخدمها بصورها المختلفة التام منها والقصير، كالطويل والكامل، والسريع والبسيط ومجزؤاتها، ومنها مجزوء الكامل ومخلّع البسيط.[٣]

---

[١] انظر : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨م، ص : ٥٩ .

[٢] انظر : حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص : ٢٦٩ .

[٣] التخليع هو اجتماع القطع والخبن في تفعيله واحده ، وبذلك تصبح (مستفعلن) (مُتَفعلْ) وتحول إلى (فعولن) بحيث يصبح وزن الشطر منه : مستفعلن فاعلن فعولن ، انظر القرطاجني : منهاج البلغاء : ٢٣٨ ، ٢٣٩ . د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ١١٧ ، وما بعدها .

ومن الأمثلة على استخدام بحر **الطويل** في نظم بعض الموضوعات التي تتعلق بالحضارة ، قول ابن الخطيب في وصف مجلس أنس:[١]

ولَيلةُ أُنْس بَاحَ منَّابهَا الـــْـــهَوىَ فَهُزَّتْ لتَرْجيع التَّقيل المُناكـــــبُ
بعُودٍ تَرَى وَقْعَ الأَنَامِلِ فَوْقَـــــهُ كَمَا اجْتَهدَتْ فِي نَسْجِهِنَّ العَنَاكِبُ
حَشَدْنَا جُمُوعَ اللَّحْنِ مِنْهُ فَأَقْبَلَتْ كَتَائِبُ تَقْفُو إِثْرَهُنَّ كَتَائِـــــبُ
يُظلِّلنا بالغْيم ندٌ وعَنْبَـــــرٌ وَتْنضَحُنَا بالطِّيبِ سُحْبٌ سَوَاكِبُ

فهذه الأبيات تعرض جانباً لحياة بعض الطبقات المترفة في المجتمع الغرناطي حيث اجتمع الأصدقاء في هذا المجلس الذي تظلله سحب من الند والعنبر وترش فيه أغلى أنواع العطور، ويستمعون إلى أجمل الأغاني والألحان على أوتار العود، وتمضي الليلة بين الغناء والرقص.

ولا شك أن تصوير ابن الخطيب كان من الدقة بحيث صور هذا المجلس بكل ما فيه من أصناف الترف والنعيم وما حصل فيه من أحداث . فكان اختياره لبحر الطويل مناسباً لغرض الوصف ، لأنه يتميز بالإيقاع المتأني والنبرة الهادئة ، حيث مكنه من وصف كل ما وقعت عليه عيناه في هذا المكان . ومما أضفى جمالاً على هذا الإيقاع الزحاف [٢] الذي لحق كلا من العروض والضرب في جميع الأبيات السابقة وهو " **القبض**" حيث تصير (مفاعيلن) في عروض الطويل (مفاعلن)،[٣] محدثاً بذلك إيقاعاً جميلاً يتناغم بخفةٍ ورشاقة مع سائر التفعيلات . فالزحافات الموسيقية لا تسبب الاضطراب للوزن والنغمة الموسيقية للبيت وإنما هي في الذوق (أخف من التمام وأحسن).[٤]

وقد نظم ابن الخطيب العديد من المقطعات التي اختصت بوصف بعض منتجات الحضارة المادية. ومما يلاحظ على ابن الخطيب هو اعتماده على **بحر الطويل التام** في كثير منها. وقد يكون ذلك لإحساسه بأنه – وغيره من الأوزان التامة – أكثر قدرة

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص ١٠٨ .
[٢] الزحاف هو ما يلحق التفاعيل من نقص أو زيادة أو تقديم حرف أو تأخيره أو تسكينه ، ولا يكاد يسلم منه شعر . انظر : ابن رشيق : العمدة :٢٤٣/١ .
[٣] القبض هو : إسقاط الخامس الساكن . انظر : يحيى بن علي الشيباني " ابن الخطيب التبريزي " : كتاب الكافي في العروض والقوافي، ص: ١٠٩.
[٤] ابن رشيق : العمدة : ٢٤٣/١ . وانظر ابن الخطيب البتريزي : الكافي في العروض والقوافي ، ص : ١٥ .

واحتواءً لتفاصيل ودقائق الأشياء التي عني بوصفها والتعبير عنها ومن الأمثلة على ذلك قوله في **وصف ناعوره**:[١]

وَقَوْرَاءَ مِنْ قَوْسِ الغَمَامِ ابْتَغَوا لَهَا مِثَالاً أَدَارُوَها عَلَيْه بِلاَ شَـــــــكِّ
فَبَينَ الثُّرَيَّا والثَّرى سُدَّ جُرْمُهَـــا وِلِلْفَلَكِ الدَّوّارِ قَدْ أَصْبَحَتْ تَحْكِي

لقد استطاع الشاعر من خلال هذا الوزن التعبير عن شكل هذه الناعورة، والمصدر الذي استوحى منه بانيها هذا التصميم في بيت واحد. وعبر في الآخر عن حجمها الكبير، ودورانها الدائم الذي يشبه دوران الكواكب مما يوحي بالدقة والاستمرار في عملها ليلاً ونهاراً. ولا شك أن بحر الطويل بتمام أجزائه وطول تفعيلاته[٢] قد مكّنه من التعبير عما أراد.

وللسبب ذاته آثر ابن الخطيب هذا البحر للتعبير عن مدى افتتانه بجمال متنزهات غرناطة ومنها **(عين الدمع)** التي قال فيها:[٣]

إِذَا كَانَ "عَيْنُ الدَّمْعِ" عَيْناً حَقِيقَةً فَإِنْسَانُهَا مَانَحْنُ فِيهِ ولاَ دَعْوَى
فَدَامَ لِخَيْرِ الأُنْسِ واللَّهْوِ مَلْعَبـــاً ولاَ زَالَ مَثْوَاه المنَعَّمُ لِي مَثْـوَى

فالعروض في البيتين السابقين جاءت على وزن (مفاعلن)، مما أضفى على الإيقاع نغماً موسيقياً طروباً استطاع أن ينقل مشاعر ابن الخطيب المبتهجة إلى سامعيه.

ومثله قوله:[٤]

خُذْهَا مُجَاجَة مَاءَ زَهْرٍ بَاسِـمٍ مِنْ فَوْقِ غُصْنٍ لِلرِّياضِ رَطِيبِ
أَهْدَيْتُها طِيباً إِلَيْكَ وَإِنْ يَكُنْ عِلْمِي بِأَنَّكَ طَيِّبُ الطِّيـــــبِ

فقد بيّن ابن الخطيب في هذين البيتين أنه قدّم هدية لأحد أصدقائه كانت عبارة عن زجاجه ماء ورد. ولعله قد لحظ من جانب صديقه اهتماماً بالعطور فأهدى له ما يحب، وبجانب ذلك كله تنتقل إلى السامع مشاعر المحبة التي يحملها الشاعر تجاه صديقه عبر بحر **(الكامل)** الذي فيه من الحركات ما لم يجتمع لبحر من قبله،[٥] مما يدل على طواعيته التامة لتحمل كل ما يمكن تحميله.

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٧٦ .
[٢] ابن رشيق : العمدة :٢٤٠/١ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٦١
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٥ .
[٥] انظر : ابن رشيق : العمدة : ٢٤٠/١ .

وقد استطاع ابن الخطيب أن يصل إلى تنويع الإيقاع في بحر الكامل عن طريق عدد من التحولات في الوحدات الإيقاعية لهذا البحر . مثل قوله الذي كتب على ثوب غير حريري للسلطان:[١]

قَدْ صَحَّ فِي سُنَنِ النَّبِيِّ "مُحَمَّدٍ" فَضْلِي عَلَى المَوْشِيِّ والدِّيبَاجِ

ونلحظ في هذا البيت أن الضرب لحقته علة القطع[٢] فجاء على وزن (مثْفاعلْ)، كما لحقه زحاف الإضمار[٣]، مما أكسب البيت إيقاعاً يتميز بالخفة والرشاقة. ومما زاد هذه الخاصية في الإيقاع هو وقوع الإضمار في حشو البيت أيضاً.

والحق أن التزام ابن الخطيب بتفعيلات بحر الكامل – ومثله الطويل – تامة قد يوقعه في الرتابة[٤]، لذلك فإن استغلاله للزحافات والعلل المتاحة في هذا البحر قد مكنه من تنويع الإيقاع الصوتي في الأبيات . كذلك كانت المجانسة بين وزني العروض والضرب في مقدمات – أغلب - قصائده بفعل **التصريع** واختلافهما عن بقية أعاريض القصيدة وأضربها هي إحدى الطرق التي استخدمها ابن الخطيب في تنويع الإيقاع وتلوينه في بحر الكامل كما في قوله الذي كتب على أحد طيقان الماء في قصر السلطان:[٥]

رَقَمَتْ أَنَامِلُ صَانِعِي دِيبَاجِي مِنْ بَعْدِ مَا نَظَمَتْ جَوَاهِرَ تَاجِي

وَحَكَيْتُ كُرْسِيَّ العَرُوسِ وَزِدْتَهُ أَنِّي ضَمِنْتُ سَعَادَةَ الأَزْوَاجِ

ونلحظ في البيت الأول مجيء العروض والضرب على وزن (متفاعلْ) مختلفاً عن باقي أعاريض المقطوعة وأضربها . ففي البيت الثاني كان العروض على وزن (متفاعلن) فيما جاء الضرب على وزن (متفاعلْ).

كما أن ابن الخطيب عمد – أحياناً – إلى ظاهرة " **التدوير** " في بعض الأبيات مثل قوله في مقدمة غزلية:[٦]

وعَدَ لْنَ عَنْ جَهْرِ السَّلاَمِ مَخَافَةَ الوَاشِي فَجِئْنَ بِلَفْظِهِ مَهْمُوساً

وَسَفَرْنَ مِنْ دَهَشِ الوَدَاعِ وَقَوْمُهُنَّ إِلَى التَرَحُّلِ قَدْ أَنَاخُوا العِيسَا

---

(١) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢١٤ .
(٢) القطع هو حذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله . انظر : الخطيب البتريزي الكافي في العروض والقوافي ، ص : ١١١ .
(٣) الإضمار هو إسكان الثاني المتحرك . ويدخل في بحر واحد هو الكامل . انظر : الخطيب التبريزي : الكافي في العروض والقوافي ، ص : ١١١ .
(٤) انظر : د. عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الطبعة الثانية ، الدار السودانية ، الخرطوم ، ١٩٧٠م : ٢٦٠/١ .
(٥) ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٩٧ .
(٦) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٢٢ .

وبالرغم من قلة استعمال الشاعر لهذه الظاهرة في بحر الكامل إلا أنها أضفت نوعاً من التغيير على القالب الإيقاعي العام للبيت (ليصبح حلقة موسيقية واحدة لا تنفصل إلى قسمين).[١]

إضافة لما سبق نلحظ أن ابن الخطيب استعمل بحر الكامل في عدد من المقطعات **مجزوءاً**[٢] حيث يتكون شطره من المقياس (متفاعلن) مكرراً مرتين فقط في حين أن شطر الكامل يتكون من (متفاعلن) مكرراً ثلاث مرات ومن الأمثلة على ذلك قوله في التورية بصحيح مسلم:[٣]

أَفَلَ الأُلِي كَانُوا نُجُـــو ماً للْوَرَى فالْكوْنُ مُظْلِـــمْ
وتَنَاكر النَّاسُ الحديث الحَقَّ وافْتُقِدَ المُعلِّـــمْ
أَنَاَ كاتبُ السُّلطـان مَا طَالَعْتُ قطُّ " كِتَاب مُسلمْ "

حيث جاءت العروض في جميع الأبيات السابقة على وزن (متفاعلن)، في حين أن الضرب جاء على وزن (متفاعلاتن)، ذلك لأنه قد لحقته إحدى علل الزيادة وهي (الترفيل)[٤] مما أضفى على إيقاع البيت رشاقة وخفة.

ومجزوء الكامل هو أكثر البحور القصيرة شيوعاً في الشعر العربي[٥] والملاحظ على ابن الخطيب هو استخدام هذا البحر في أغراض بعيدة عن مواقف الجد، حيث نظمه – غالباً – في الإخوانيات، والهجاء أحياناً مثل قوله في هجاء "أبي الحسن النباهي" المقلب بـ " البني ":[٦]

مَا عِـــمَّةُ " البُنِّيِّ " إلاَّ ذَاتُ أَشْكَالٍ طَرِيفَهْ
فَكَـــأنَّهَا مِنْ حَوْلِـــهِ مَلْفُوفَةٌ وبهِ مُطِيفَـــهْ
عَصْبَانَةُ مُذْكُوِّرَتْ أَمْعاؤُهَا بِعِظَام جِيفَهْ

---

[١] د. محمد عبد العظيم : في ماهية النص الشعري ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدرسات ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص : ٦٦ .
[٢] المجزوء هو البيت الذي سقط منه جزآن هما عروضه وضربه ، انظر : الخطيب البتريزي : الكافي في العروض والقوافي ، ص : ١١٠ ، حازم القرطاجني: منهاج البلغاء ، ص : ٢٣٧ ، وما بعدها .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٥٣ – ٥٥٤ .
[٤] الترفيل هو زيادة سبب خفيف على ما في آخره وتد مجموع . (فمتفاعلن) تصبح (متفاعلاتن) . انظر : الخطيب التبريزي : الكافي في العروض والقوافي، ص :١١٢ .
[٥] انظر : د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ١٠٧ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٨٥ .

وبعد الكامل يأتي (**البسيط**) في كثرة الاستعمال، والملاحظ أن ابن الخطيب قد نظم في هذا البحر بعض القصائد والمقطعات التي وصف بها أشياء حضارية مثل قوله في وصف **(قبة المشور)** في القصر الملكي، وقد كتب عليها:[١]

شَاهِدْ بِعَيْنيكَ مِنِّى قُرَّةَ العَـــيْنِ واعْجَبْ لِما حُزْتُ مِنْ شَكْلٍ وَمِنْ زيْنِ
أَنَا الفَرِيدَةُ فِي دَهْرٍ دِيَانَتُـــــهُ أَنْ لاَ يُرى جَامِعاً مَا بَيْنَ أُخْتَـــــيْنِ
أَشْبَهْتُ فِي شُهْرَةِ اسْمٍ واشْتِهَارٍعَلَى إِيوَانِ كِسْرَى وَكَمْ بَيْنَ الإِيوَانَـــيْنِ؟

ونلحظ في البيت الأول مجيء كلاً من العروض والضرب على وزن (فعْلن) لأن البيت جاء مصرّعاً، وقد لحق هذه التفعيلة (فاعلن) زحاف الخبن [٢] فصارت (فعْلن)، وقد ذكر بعض النقاد أن الخبن في (فاعلن) في العروض أحسن من تمامها.[٣] أما في باقي الأبيات نلحظ اختلاف وزن العروض حيث جاءت على وزن (فاعلن). والأبيات بعامة تعبق بالإيقاع الموسيقي الجميل، الهادئ، فقد تمكن ابن الخطيب من خلال هذا البحر بحركاته ،وسكناته المتعاقبة وتفاعيله المتعددة أن يبسط القول في هذا الموصوف.

كما آثر ابن الخطيب هذا البحر في وصف الكتب السلطانية ذات اللون الأحمر حين قال:[٤]

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي فُصُولِ العَامِ حَاضِرَةٌ بِهِنَّ تُتحَفُ أَبْصَارٌ وأَسْمَاعُ
لقُلْتُ وَرْدُ مِن الأَيْدِي لَهَا شَجَـــرٌ وَمِنْ أَنَامِلِهِنَّ الخَمْسُ أَقْمَاعُ

ولا شك أن هذا الوصف مفعم بنسيم الحضارة والرقي، حيث شبه الكتب – الرسائل السلطانية – بالورود. التي تعد من أوضح ملامح الطبيعة الأندلسية الخلابة. وهذا التشبيه في هذين البيتين يبدو أكثر جمالاً وإشراقاً، وذلك لاختيار الشاعر الوزن المناسب ، لتصوير هذا المنظر، فالتخييل الشعري حركة متعددة الأبعاد يشكل الوزن أهم عناصرها.[٥]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦١٩ – ٦٢٠ .
[٢] الخبن : هو حذف الثاني الساكن . انظر : ابن رشيق : العمدة : ٢٤٣/١ .
[٣] انظر : حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص : ٢٤٢ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٦٦ .
[٥] انظر حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص : ٢٤٩ ، ص : ٢٦٦ وما بعدها . د. جابر عصفور : مفهوم الشعر – دراسة في التراث النقدي – الطبعة الثالثة ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص : ٢٤٤ ، وما بعدها .

كما نظم ابن الخطيب بعض القصائد والمقطوعات على وزن **(مخلّع البسيط)** الذي عده العروضيون من الأوزان المستحدثة التي اخترعها المولدون[١]، فهو لم يكن معروفاً قبل عهود العباسيين. ومن الأمثلة قول ابن الخطيب في الاعتذار لأحد أصدقائه لعدم تمكنه من حضور زواجه بأسلوب يغلب عليه الفكاهة:[٢]

إنْ كُنتْ في العُرسِ ذا قُصورٍ فلا حُضُورَ ولا دِخَالَهْ
يَنُوبُ نَظْمِي مَنَابَ كَبْشٍ والنَّثْرُ عَنْ قُفَّةِ النُّخَالَهْ

ويبدو في هذه الأبيات بوضوح رشاقة الإيقاع، وخفته، في الانتقال من متحرك إلى ساكن حتى نهاية البيت حيث الروي الساكن. إلى جانب دخول زحاف الخبن في حشو البيتين مما يزيد الخاصية الموسيقية فيهما.

والحكم نفسه ينطبق على قول ابن الخطيب في تورية طبية:[٣]

إنِّي وإنْ كُنْتُ ذَا اعْتِلالٍ رَثَّ القُوَى بَيِّنَ الهُزالِ
فِي "عَارِضِ التَّيْسِ" لِي شِفَاءٌ فَكَيْفَ فِي عَارِضِ الغَزَالِ؟

فالإيقاع الصوتي في البيتين يتسم بالخفة، والموسيقية العذبة زادها جمالاً التصريع في البيت الأول. والمد في قوله (ذا، اعتلال، القوى، عارض، الغزال).

والشيء الجدير بالذكر أن ابن الخطيب عمد إلى البحور الخفيفة نفسها يخففها. فقد نظم بعض القصائد والمقطوعات في **مجزوءات البحور** الخفيفة كمجزوء الرّمل، ومجزوء الخفيف، ومجزوء الوافر، ومجزوء المديد، ومجزوء الرجز.

وقد كان **مجزوء الرّمل** هو الأكثر استعمالاً بين تلك المجزوءات، ومن الأمثلة عليه، قوله في الأقلام والدواة:[٤]

مَا رَأتْ عَيْني عَجِيباً كَيَرَاعِي فِي الدَّوَاةِ
غَائِصاً يَسْتَخْرِجُ الدُّرَّ بِبَحْرِ الظُلُمَاتِ

فالشاعر يستخدم بحر (الرمل) المعروف برشاقته وخفة إيقاعه، وهو يستخدمه مجزوءاً، مما يزيد خاصيته الموسيقية. وربما أحس ابن الخطيب بفرط سهولته وخفته،

---

[١] انظر : د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ١١٨ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٠٧ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٠٩ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٧٩ .

فأكثر من المد ليطول النفس في قراءة البيت والاستماع إليه في قوله: (ما ، عيني ، عجيباً ، يراعي ، الدواة ، غائصاً ، الظلمات).

ومثله قوله في تقريض شرح شفاء القاضي "عياض" لابن مرزوق ":[1]

أَأَزاهِيرُ رِيَـــــاضٍ أَمْ شِفَاءٌ لِعـــيَاضٍ؟
وجَلاَ الأَنْوَارَ بُرْهَـــا نـاً بِخُلْفٍ وافْـتِراضٍ
زُبْدَةُ العِرْفَانِ مَعْنَى كُلُّ نُسْكٍ وارْتِياضِ

ونلحظ الخفة في الإيقاع سمة مميزة لهذه الأبيات أكثر من سابقتها ، والسبب في ذلك هو دخول زحاف الخبن في البيتين الأول والثاني. بحيث تصبح (فاعلاتن) (فعلاتن) ، ولا شك أن هذا الزحاف قد غير في جوهرها وحركتها من البطء إلى السرعة ، إذ أن الأولى بطيئة ، والثانية سريعة.

ومنه أيضاً في التندر على "ابن كماشة" ، قوله:[3]

قِيلَ لِي مَاتَتْ فَرَاشه مِنْ بخارِ "ابن كماشهْ"
أَحْرَزَتْ أَجْرَ شَهِـيدٍ نَالَهُ الطَّعْنُ وَنَاشَـــــه
رَحْمَةُ اللّهِ وَرِضْـــوا نٌ عَلَى تِلْكَ الفَرَاشَـهْ

ونلحظ أن هذا الوزن جاء ملائماً لغرض الأبيات ، ولعاطفة الشاعر الساحرة لأنه يتميز بالإيقاع الخفيف الرشيق ، فاستطاع أن يخلع ظلاله على موسيقى الأبيات التي بدت النغمات فيها سريعة متلاحقة .

والملاحظ على ابن الخطيب هو استعماله مجزوء **(الرمل)** في أغراضٍ متعددة كان جاداً في بعضها وهازلاً في الأخرى .

ومن أمثلة **(مجزوء الخفيف)** قوله:[3]

قُلْتُ للسَّاخر الذَّي رَفَعَ الأَنْفَ وَاعْتَلَى
أَنْتَ لَمْ تَأْمَنِ الهَوَى " لاَ تُعِيِّر فتُبتلـــى "

إن تسمية هذا البحر بـ (الخفيف) تدل على أبرز صفاته وهي الخفة في الذوق والتقطيع ، والشاعر هنا يستخدمه مجزوءاً مما يزيد هذه الخاصية لا سيما وقد لحق بعض

---

[1] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٤٣-٦٤٤ .
[3] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٤١ .
[3] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٧١

التفعيلات زحاف الخبن بحيث أصبحت (فاعلاتن) (فَعِلاتن) و (مستفع لن) (متفع لن). الأمر الذي جعل البيتين غاية في خفة الإيقاع موسيقيته.

ومثله أيضاً قوله : [١]

قَسَماً بالْكَوَاكِبِ الزُّهْـ ـرِ والزُّهْرِ عَاتِمَـــهْ [٢]

إِنَّمَا الفَضْلُ مِلّـــــــةٌ خُتمتْ "بِابنِ خَاتِمهْ"

ونلحظ ظاهرة التدوير في البيت الأول مما يجعله أشبه بحلقة موسيقية متصلة، كما أن كلاً من العروض والضرب في البيتين جاءا على وزن (متفْع لن) مما يضفي على إيقاع البيت رتماً موسيقياً سريعاً متوازناً.

ومن البحور الخفيفة التي استخدمها ابن الخطيب مجزوءة، ولكن بقله، بحر **(الوافر)**، مثل قوله في الرد على قصيدة بعث بها أحد الأصدقاء[٣].

لَكَ الحَقُّ الَّذِي يَجِـــبُ وَفَضْلُكَ لَيْسَ يَحْتَجِبُ

أَتَتْنِي مِنْكَ زَائِـــــرةٌ يَقُودُ هَدِيَّهَـــا الأَدَبُ

زَرَتْ "بِابْنِ الحُسَينِ"[٤] فَمَا لَهُ فِي الحُسْنِ مُنْتَسَبُ

تُغَازِلِـنِي مَعَانِيهَـــــا فَتُسْفِرُ ثُمَّ تَنْتَقِـــبُ

إن أول ما يلحظ القارئ في هذه الأبيات هو مشاعر الود والإجلال التي يحملها الشاعر لصديقه، فاختار بحر الوافر ليفصح عن هذه المشاعر وقد ساعده هذا البحر بوفرة أجزائه وكثرة حركاته وإيقاعه الرنان على التعبير عنها. وكان استعماله مجزوءاً قد ضاعف هذه الخاصية الموسيقية، لا سيما أن بعض التفاعيل قد طرأ عليها زحاف (العصب)[٥] مما يجعل الإيقاع أكثر خفة وسرعة.

كما استخدم ابن الخطيب بحر **(المديد)** مجزوءاً، في قوله:[٦]

قَالَ مِنْ يُعْنَي بِأَمْرِي لَيْتَ رَبِّي قَدْ أَرَاحَكْ

وَطَناً تَسْمَعُ فِيـــــهِ أَنْعَمَ اللّهُ صَبَاحَـكْ

وكذلك مجزوء **(الرجز)** في قوله عند ذكر العدو الذي هاجم غرناطة:[٧]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٤٨ .

[٢] عتم يعتم عتماً : أبطأ وتأخر ، وهي هنا بمعنى مظلمة .

[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٣- ١٢٤ .

[٤] يقصد أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبي . ويشير ابن الخطيب بالزائرة إلى قصيدة المتنبي في الحمى .

[٥] العصب هو تسكين الخامس المتحرك ، وهو خاص بالوافر . انظر : الخطيب التبريزي الكافي في العروض والقوافي ، ص : ١١١ .

[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٤٩ .

[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٦٧ .

وَأَظْهَــرَ السِّلْمَ وَقَدْ أَسَرَّ حَسْواً فِي ارْتِغَا[١]

فَبَلَّغَ الرَّحْمنُ سَيْفَ النَّصْرِ فِيهِ مَا ابْتَغَى

فبحر (الرجز) يتميز بإيقاعه السريع، وكان ارتجاله في هذا الموقف، ونظمه مجزوءاً قد ضاعف هذه الخاصية الموسيقية فيه. كما أن بعض الزحافات قد طرأت على البيتين مثل زحاف الخبن، وزحاف الطي[٢]. بحيث أصبحت (مستفعلن) (متفعلن) بالخبن و (مستعلن) بالطي. مما غير إيقاع التفعيلة السباعية من البطء إلى السرعة.

كما نلحظ الحضارة في **التجديد في الأوزان** فقد نظم ابن الخطيب مقطوعتين من وزن مخترع لا عهد للعروضيين به، إحداهما نظمها في بيان مزية "مصر" على غيرها من البلدان فقال:[٣]

سَلَّمْتُ لِمصْرَ فِي الهوى مِنْ بَلدٍ يَهْدِيهِ هَوَاؤُهُ لَدَى اسْتِنْشَاقَــهْ

مِنْ يُنْكِرُ دَعْوَايَ فَقُلْ عَنِّي لَهُ تَكْفِي امْرَأَةَ العَزِيزِ مِنْ عُشَّاقِهِ

والأخرى نظمها في مدح أحد الفضلاء، قائلاً:[٤]

رَأَيْتُ بِكَفِّكَ اعْتِبَــارَا بَأْساً وَنَدىً مَا إِنْ يُبَارَى

فَقُلْتُ وَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهَا يَا بَحْرُ مَتَى تَعُودُ نَــاراً

ومما سبق نلحظ قدرة ابن الخطيب على التنويع والتشكيل الإيقاعي من خلال عنصر الوزن الذي يمثل أحد أهم عناصر الإيقاع، كما أن تلك التشكيلات الإيقاعية التي رسمها لم تخرج عن نمط العروض الخليلي.

والحق أن هذا التنويع الإيقاعي الذي لمسناه من خلال البحور التامة والقصيرة التي استعملها يعود الفضل فيه إلى استغلال ابن الخطيب للإمكانات الموسيقية التي توفرها **الزحافات والعلل** المتاحة في كل بحر، الأمر الذي أدى إلى تفجر البحر بطاقاته الموسيقية بحيث يصبح عدد القوالب الإيقاعية غير محدود. وهو يسعى من

---

[١] مثل مؤداه التعريض بالشيء يبديه الشخص وهو يريد غيره . انظر : البكري فصل المقال ، ص : ٨٤ .

[٢] الطي : هو حذف الرابع الساكن . انظر : الخطيب البتريزي : الكافي في العروض والقوافي ، ص : ١١١ .

[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٠٣ .وقد أطلق محقق الديوان اسم (العميد) على هذا البحر ولم أعثر على مثل هذا المسمى في البحور المهملة التي جاء بها المحدثون . فيما توفر لدي من مصادر .

[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٢٤ . وقد أطلق المحقق اسم (مجزوء العميد) على هذا البحر .

خلال هذه الزحافات إلى أن (يتيح للعمل الشعري ضرباً من التلون والانحراف في نمط إيقاعي قد يؤدي التطابق التام بين وحداته إلى الإملال ، أو إلى ما هو شر من الإملال ، نعني بذلك القضاء على خاصية المفاجأة والإدهاش)[١]. وإلى جانب ذلك تعمل كثيراً من هذه الزحافات على تحويل الوزن عن صورته القديمة ، وتغيير نمطه الإيقاعي من البطء إلى السرعة كما لاحظنا من خلال الأمثلة السابقة حيث كان الخبن هو أكثر الزحافات ظهوراً إلى جانب القبض والطي، والقطع، والإضما، ولم نلحظ الزيادة على التفاعيل سوى في واحده وهي علة " الترفيل " التي دخلت في مجزوء الكامل. ومع ذلك لم تُخلِّ بإيقاع البيت.

وغاية ما في الأمر أننا ألفنا أن نقول إن البحر حدث فيه زحاف ونحوه، فهذا الأمر ليس جديداً، وإنما نلحظ في هذا الزمن كثرته في البحور المستخدمة، كما يظهر من خلال الأمثلة السابقة بحيث لم يخلُ منه بيت، وليس ذلك إلا نتاجاً للحضارة.

كما لاحظنا شيوع الأوزان القصار السهلة الخفيفة ومجزؤاتها، ومجزوءات البحور الطوال، ومرد ذلك إلى التأثير الحضاري الذي جلب معه فنوناً مختلفة كالغناء والرقص والعزف مما ترتب عليه توطيد الصلة بين الغناء والشعر.[٢]

أيضاً نلحظ أن التعبير عن موضوعات حضارية لا يعني النظم في أوزان خفيفة أو مجزوءة فقط، فمن خلال ما سبق من أمثلة وجدنا أن بحر الطويل والكامل كانا من أكثر البحور التي نظم فيها ابن الخطيب أوصافاً لمظاهر التطور الحضاري بكافة أشكاله.

ومما يسجل على ابن الخطيب هو خروجه على البحور الخليلية، وإن كان لم يكثر من ذلك. وربما يكون ذلك نوعاً من التأثر بالحضارة حيث يحاول الشاعر التجديد والتنويع في سبيل الخروج عن قيود الوزن الصارمة. وقد يكون أحد البحور الشعرية وقد حرف في تفاعيلها عن طريق الزحافات المتاحة. وإن كان أكبر خروج على نظام القصيدة التقليدية في نظامها الموسيقي هو نظم الموشحات التي تعد فناً أندلسياً خالصاً.[٣] ولكننا نؤثر الحديث عنها في دراسة التجديد في القوافي.

---

[١] د. محمد فتوح أحمد / الروافد المستطرفة بين جدليات الإبداع والتلقي ، الطبعة الأولى ، مطبوعات جامعة الكويت ، الكويت، ١٩٩٨م ، ص : ١١٧.
[٢] انظر : د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص : ٧٠-٧١ .
[٣] انظر د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص : ٧٦ .

(ب) القافية :

لم يقف أمر التأثير الحضاري في إيقاع الشعر عند حد الأوزان بل امتد إلى القافية أيضاً باعتبارها فاصلة صوتية تتردد عبر أبيات القصيدة، وعندها تتوقف موجة النغم في البيت ثم تبدأ في الذي يليه وهكذا وهي (من أهم أجزاء الإيقاع التي تتحكم في ضبطه واتزانه). [١]

والواقع أن ابن الخطيب قد أظهر اهتماماً ملحوظاً بهذا العنصر الإيقاعي فعمل من خلاله على تشكيل الإيقاع العام لشعره والتنويع فيه.

وأول ما يلفت النظر في القافية **أصوات الروي** فهو يشكل جزءاً هاماً في المنظومة الإيقاعية للقصيدة بوصفه أبرز عناصر القافية وقد التزم ابن الخطيب بروي واحد يتكرر في القصيدة أو المقطوعة الواحدة وهذا مما (يساعد على توازن الجمل الشعرية واختتامها بصوت محدد يثبتها في ذهن السامع ويريحه من عناء البحث عن خاتمة البيت)[٢]. وفيما يلي إحصائية تبين القوافي التي استعملها ابن الخطيب ونسبة ورود كل منها في شعره:

القافية	الراء	الدال	الباء	النون	اللام	الميم	القاف	الهاء	التاء
عدد ورودها	١٠٣	٩٦	٨٠	٦٣	٥١	٤٧	٣٣	٣٠	٢٩
القافية	الحاء	الجيم	السين	العين	الضاد	الفاء	اللام ألف	الهمزة	الواو
عدد ورودها	٢٧	٢٢	١٩	١٨	١٥	١٣	١١	١٠	١٠
القافية	الطاء	الياء	الكاف	الثاء	الزاي	الشين	الذال	الظاء	الغين
عدد ورودها	٩	٩	٨	٥	٥	٥	١	١	١
المجموع الكلي	**٧٢١**								

ويتضح من خلال الإحصائية السابقة التنوع في استخدام الروي حيث أتى ابن الخطيب على معظم الحروف الهجائية ، وجاء في الصدارة حرف الراء فقد أكثر الشاعر

---

[١] د. عثمان موافي : في نظرية الأدب : من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم . طبعة مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٥ م ، ص : ٧٨.
[٢] د. عبد الله الغذامي : الصوت القديم الجديد : دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م ص : ١٤٩ .

من استخدامه روياً يفرغ فيه انفعالاته ومعانيه. ويليه حرف الدال والباء والنون واللام والميم. حيث سجلت - هي الأخرى - نسباً عالية بين قوافي ابن الخطيب.

ويلحظ من خلال الإحصائية السابقة – أيضاً – أن القوافي التي احتلت المراتب السبعة الأولى بنسب عالية جميعها **أحرف مجهورة**.[١] هذا بالإضافة إلى حروف الجيم والعين والضاد والياء المجهورة أيضاً [٢] وهذه الظاهرة الصوتية تلفت النظر في شعر ابن الخطيب . ولا ندري إن كان الشاعر يضع في اعتباره هذه الصفة لأصوات الروي عند نظمه أم لا - ومهما يكن الأمر – فإن هذا يعني غلبة الإيقاع القوي الرنان على قوافيه، لأن الأصوات المجهورة – كما هو معروف – هي التي تكسب اللغة عنصرها الموسيقي المكثف ورنينها الخاص.[٣]

وإذا نظرنا من جانب آخر إلى نفس الأصوات التي تحتل المراتب الأولى من حيث حالة ممر الهواء عند مواضع النطق نجد الآتي:[٤]

- إن الراء يعد صوتاً مميزاً على مستوى الأصوات العربية وهو أنه صوت مكرر.
- الباء صوت انفجاري شفوي مجهور يصدر من انطباق الشفتين وانفراجهما فيندفع الهواء فجأة من الفم محدثاً هذا الصوت.
- الدال من الأصوات الانفجارية أيضاً إلا أنه صوت أسناني لثوي.
- النون صوت أنفي .
- اللام صوت لثوي لخروجه من اللثة.

فجميع هذه الأصوات تصدر من المواضع الأمامية المختلفة للجهاز الصوتي ولكلٍ منها خاصية مميزة مما يجعل لها جرساً خاصاً. وقد ذهب صاحبا نظرية الأدب إلى أن هناك ثمة علاقة بين الحروف الأمامية والموضوعات الرقيقة، المشرقة الجلية[٥]. وقد تكون لهذه الأصوات علاقة بالموضوعات الحضارية المترفة الرقيقة التي تناولها ابن الخطيب . ولنتأمل قوله في إهداء أحد **كتبه**:[٦]

---

[١] الصوت المجهور هو ذلك الصوت الذي تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به . انظر : د. كمال بشر : علم اللغة العام " الأصوات " الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٩ م ، ص : ٨٨ .

[٢] انظر : د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، ص : ٢١ .

[٣] انظر : د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، ص : ٢١ .

[٤] انظر : د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، ص : ٢٣ – ٤٥ .

[٥] انظر : رينيه ويليك وأوستين وارن : نظرية الأدب ، ترجمة : محي الدين صبحي ، طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٩٧٢م ، ص : ١١ .

[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٨٨ .

رَأَيْتُ هَدَايَا الأَرْضِ دُونَكَ قَدْرُهَا فَأَهْدَيتُكَ العِلْمَ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ
عُيُوناً مِنْ الأَخْبَارِ والأَدَبِ الَّذِي تَضَوَّعَ مَسْراهُ وأَيْنَعَ زَهْـــرُهُ

وقوله في **تفاحة** أهداها أحد الأصحاب : [١]

لَـمَّا بَعَثْتُ بِهَا تَوَرَّدَ خَدُّهَـا واحْمَرَّ مِنْ خَجَلٍ لَدَيْكَ عَرَاهَا
فَاقْرَأْ عَلَيْهَا عُوذَةً لِجَمَالِها واجْعَلْ لِقَاءِكَ بِالْقَبُولِ قِرَاهَـا

إن حرف الراء حرف تكراري ملئ بالحركة، لذلك فهو روي مناسب لهذه الأبيات، حيث جاء مؤكداً جلال قدر هذه الهدية وهي الكتاب في الأولى، وداعماً لعنصر الحركة في الصورة التي تضمنها البيتين التاليين. وبالرغم من أن القافية الرائية جاءت **موصولة**[٢] بالهاء في كلا المثالين، إلا أن إيقاع القافية في المثال الأول يبدو أقوى من إيقاعها في المثال الثاني وذلك لأن ابن الخطيب جاء بها مضموم، مما يؤكد المعنى ويعمقه أكثر، لما هو معروف من أن الضمة أقوى من الفتحة.[٣]

وانظر إلى داليته التي وصف فيها **القصر الملكي**:[٤]

دَحَيْتَ مِنَ الزُّلَّيْجِ صَفْحَةَ أَرْضِهِ بِلَوْنَيْنِ مُبْيَضِّ الأَدِيمِ ومُسْـــــــودِّ
وأَرْسَلْتَ فِيهَا جَدْوَلَ الماءِ سَائِلاً كَمَا سُلّ مَصْقُولُ الغِرَارَيْنِ مِنْ غِمْدِ

والأخرى التي وصف فيها إحدى **مجالس الأنس**:[٥]

وَفَاتِنَةِ اللَّحَاظِ إِذَا تَثَنَّـــتْ رَأَيْتَ الغُصْنَ يَمْرَحُ فِي البُرُودِ
إِذَا مَا اسْتَنْطَقَتْ نَغَمَ المَثَانِي ثَنَيْنَا هَزَّةً قُضْبَ القُـــدُودِ

ونلحظ في كلا البيتين الإيقاع القوي والنغم الموسيقي الطروب. وعلى الرغم من أن القافية الدالية موصولة بحرف مد يائي مكسور، فيهما، إلا أن المثال الثاني يُشعر معه بجرس موسيقي أكبر فلقد جاءت القافية فيه **مردوفة**[٦] موصولة بلين، في حين جاءت في المثال الأول موصولة بلين فقط، حيث جردت من الردف الذي يعمل على زيادة الإيقاع، وتكثيف العنصر الموسيقي لتتابع المتحرك والساكن فيه. ولا شك أن هذه القافية

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤١٣ .
[٢] الوصل : هو حرف مدّ ناشئ عن إشباع حركة الروي ، أو هاء تلي الروي ، فالوصل لا يوجد إلا بعد الروي المطلق. انظر: ابن رشيق: العمدة : ٢٦٧/١-٢٦٨.
[٣] انظر: د. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص : ٣٦٥ – ٣٦٦ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٩٧ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٢ – ٢٨٣ .
[٦] الردف هو حرف مد (ألف أو واو أو ياء) قبل الروي ، انظر : ابن رشيق : العمدة : ٢٧٢/١ – ٢٧٣ .

المردوفة قد سمحت للشاعر بامتداد الصوت، والاستماع بغناء القيان، وأصوات الآلات الموسيقية، والانسجام معها والتمايل على إيقاعاتها المطربة محاكية بذلك الحقيقة والواقع .

وبعد الدال يأتي " الباء " في كثرة النظم به روياً في شعر ابن الخطيب ، مثل قوله في وصف **كئوس الزجاج**:[١]

وَكَأَنَّمَا صُوَرُ الزُّجَاجِ وَقَدْ رَمَتْ أَيْدِي المِزَاجِ عَلَى الكُؤوسِ حَبَاباً
مَلِكَان قَدْ قَعَدا قُعُودَ تَشَـــاوُرٍ عَمَّتْ جُيُوشُهُمَا الجِهَاتِ قِـــبَاباً

إن هذا الحرف الانفجاري الموصول بلين مفتوح يعكس بوضوح صورة هذه الكئوس الشفافة المصقولة ، ويتناسب مع جو الترف والبذخ الذي يبدو واضحاً من خلال هذه الصورة مما أضفى فخامة ملحوظة على الإيقاع ، ونغمة موسيقية مفعمة بالجزالة تنسجم انسجاماً جميلاً مع ذلك المعنى الذي شدا به ابن الخطيب .

وقال في " نونيته " التي وصف فيها **أحد الرياض النضرة**:[٢]

وانْظُرْ إِلَى الرَّوْضِ إِذْ هَبَّتْ مُحَدِّدَةً طَلاَئِع الرِّيحِ كَيْفَ اهْتَزَّ وازْدَانَا
وَأَوْتَرَ القَوْسُ فِي آفاقِهِ قُـــــزَحُ يَرْمِي فَدَرَّعَ أَنْهَاراً وَغُـــــدْرَانَا
وأَرْسَلَ الغَيْمُ نَبْلاً مِنْ سَحَائِبِـــــهِ أَدْمَى بِصَائِبِهَا وَرْدَاً وَنُعْمَـــــانَا

يا لها من حرب سجال !! فالريح غاضبة والقوس يرمي الأنهار والغدران، لتزف ألوان الطيف في الأفق، والغيم يصيب بنباله الورد والشقائق في المقتل، وقد ساعد حرف النون الموصول بالألف الشاعر على إطلاق الصوت ونقل هذا المشهد الذي يعج بالحركة، مما أكسب الأبيات إيقاعاً رناناً منسجماً مع الموقف.

كما كان لروي " اللام " نصيب في التعبير عن تلك الموضوعات الحضارية، كقوله:[٣]

كَتَبْتُ بِدَمْعِ عَيْنِيَ صَفْحَ خَدِّي وَقَدْ مَنَعَ الكَرَى هَجْرُ الخَلِيلِ
ورَابَ الحَاضِرِينَ فَقُلْتُ: هَـــذَا كِتَابُ "العَيْنِ" يُنْسَبُ "لِلْخَلِيل"[٤]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٥ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٢ – ٥٨٣ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٨٦ .
[٤] وقعت في لفظة " الخليل " تورية ، إذا يقصد بالأولى الحبيب ، والثانية العالم " الخليل : ابن أحمد الفراهيدي ، صاحب كتاب " العين ".

وكذلك روى "الميم" مثل قوله:[١]

أَلاَ هَكَذا تُبْنَى المدَارِسُ لِلْعِلْمِ وَتَبْقَى عُهُودُ الْمجِدِ ثَابِتَةُ الرَّسْـــمِ
فَيَا ظَاعِناً لِلْعِلْمِ يَطْلُبُ رِحْلَـةً كُفِيتَ اعْتِرَاضَ البِيدِ أو لُجَجَ اليَمِّ

كما استعمل ابن الخطيب بعض الحروف المجهورة رويا لأشعاره ولكن بنسبة قليلة لا تعادل الحروف السابقة ، مثل جيميته التي نقشت على أحد **طيقان الماء** ومنها:[٢]

يَبْدُو إِناءُ الماءِ فِيَّ كَعَابِدٍ فِي قِبْلَةِ المِحْرَابِ قَامَ يُنَاجِي

كما اختار روي " الضاد " لقصيدته التي استدعى بها أصدقاءه لمجلس أنس:[٣]

هَلُمَّ فَجَفْنُ الدَّهْرِ قَدْ لاَذَ بِالْغَمْضِ وأَمْكَنَ مَيْدَانُ التَّصَابِي مِنَ الرَّكْضِ
إِلىَ مَجْلِسٍ حَيَّا مَقَاصِيرُهُ الحَيَـا وراَحَ بِهِ الرَّيْحَانُ فِي الطُّولِ والعَـرضِ

لقد انطبعت القوافي الحضارية في الأمثلة السابقة – جميعها – بالطابع الإيقاعي السلس والنغم الموسيقي المنساب الذي يتوقف بعد علو وانخفاض على ضفاف هذه القافية الموصولة بحرف اللين المكسور. الذي زاد المعاني حدة وقوة فبدا حزن العاشق أقوى، وبناء صروح العلم أسمى ما يمكن أن يُنجز ويشيد ، كما ظهر طاق الماء كأجمل بناء وملتقى الأصدقاء أفخم وأبهى. إلا أن الإيقاع يبدو أقوى في القافيتين اللامية والجيمية، حيث جاءت الأولى مردوفة بالياء، والثانية بالألف مما عمل على تكثيف العنصر الموسيقي فيها.

وبذلك نستطيع القول إن هذه الأصوات – السابقة – بما تتميز به من خواص صوتية قد استهوت ابن الخطيب فمال إلى استخدامها في تصويره لمظاهر الحضارة المتباينة، **كروي للشعر بصورة شائعة** أكثر من بقية الحروف الأخرى. وبذلك يكون قد عمد إلى تفريغ موسيقاه في قوافٍ رشيقةٍ مرنة ذات موسيقى خفيفة عذبة الوقع على النفس والسمع كما هو واضح من خلال الإحصائية السابقة.

إلا أن ما يسجل على ابن الخطيب من خلال تلك الإحصائية هو نظمه في بعض القوافي التي عدّها النقاد **مستكرهة** كالطاء والثاء والشين والذال، والظاء، والغين.[٤] والملاحظ أن الشاعر لم يكثر النظم فيها ، وكل ما نظمه فيها جاء مطلق القافية.

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٧٠ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٩٨ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٣٨ .
[٤] انظر : ابن الأثير : المثل السائر : ١٨١/١ – ١٨٢ .

وقد كان ابن الخطيب حريصاً على تنوع الإيقاع في قوافيه، ويظهر ذلك في حركة الروي من حيث الإطلاق، والتقييد، والملاحظ أن القافية المطلقة هي الأكثر استعمالاً في شعره من الأخرى المقيدة.

ولا شك أن الإيقاع في القافية يزيد أو ينقص حسب ما في القافية من موسيقى وعلى قدر الأصوات المكررة في أواخر الأبيات،[١] لذلك وجدنا أن هناك عناصر أخرى التزم ابن الخطيب بتكرارها في بعض قوافيه ، كان لها أكبر الأثر في زيادة الطاقة الإيقاعية للقافية ومن أبرز تلك العناصر: **التأسيس والردف**. اللذان اتخذا لهما موقعاً في المنظومة الإيقاعية للبيت قبل حرف الروي .

أمّا **التأسيس** فالمراد به (ألف تكون قبل الروي بينهما حرف واحد) [٢] وقد استعان به ابن الخطيب بغية تكثيف النغم الإيقاعي في شعره ، ومن الأمثلة على تلك القوافي المؤسسة قوله في **وصف السماء**:[٣]

تَتَعاوَرُ القُطْبَانِ مِنْهَا رُقْعَةً وَكِلاَهُما فِيهَا لَعُوبٌ حَاذِقُ
الزَّهْرَةُ الزَّهْرَاءُ فِرْزَانٌ بِهَا [٤] والنَّجْمُ شَاهٌ والنُّجُومُ بَيَادِقُ

وقوله في وصف **قبة العرض**:[٥]

فَتُتْلَى سُطُورُ الكَتْبِ فَوْقِيَ دَائِماً وتُعْرَضُ مِنْ تَحْتِي سُطُورُ الكَتَائِبِ
أَنَا الغَادَةُ الحَسْنَاءُ يُغْنِي جَمَالُهَا عَنِ الدُّرِّ مِنْ فَوْقِ الطُّلَى والتَّرَائِبِ

ونلحظ في الأبيات السابقة الإيقاع الجميل والنغم الموسيقي الرشيق فكلا القافيتين مؤسسة موصولة بمد إلا أننا نحس بجرس موسيقي أكثر في القافية " البائية " وذلك لأنها مكسورة، والكسرة ولا شك هي أقوى الحركات.

أما **الردف** الذي يكون ألفاً أو واواً أو ياءً قبل الروى مباشرة ، فقد استخدمه ابن الخطيب كثيراً في قوافيه ، ومن أمثلة القوافي **المردوفة بالألف** قوله في التحسر على الشباب:[٦]

طَالَ حُزْنِي لِنَشَاطٍ ذَاهِبٍ كُنْتُ أُسْقَى دَائِماً فِي حَانِهِ

---

[١] انظر : د. إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص : ٢٧٤ .
[٢] بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني: العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، تحقيق : الحساني حسن عبد الله ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص:٢٥٦ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧١٣ .
[٤] الفرزان : الملكة .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١١٥ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦٠٦ .

وشَبَابٍ كَانَ يُنْدَى نَظْرَةً نَزَلَ الثَّلْجُ عَلَى رَيْحَانِهِ

وقوله في وصف **ساعة " المنكان "** بعد انقضاء الساعة السادسة:[١]

مَوْلاَيَ لاَ زِلْتَ فِي أَمَانٍ سِتٌّ تَقَضَّتْ مِنَ الزَّمَـانِ

كَأَنَّهَا العَقْدُ رَابَ مِنْهُ سُقُوطُ سِتٍ مِنَ الجُمَانِ

ويلفت القارئ في هذه الأبيات خفة الإيقاع وانسيابية النغم ، حيث يعبر حرف النون بوجدانيته المتدفقة عن حسرة الشاعر وحزنه على ما سلبه الزمان من قوته وشبابه ، كما يعمق هذا الأثر في نفسه تأمل الساعة وانقضاء الوقت سريعاً الذي هو في حقيقته عمر الإنسان، وقد تمكن الشاعر من خلال الألف التي أردفت النون من مد الصوت وإطلاقاً العنان لحسراته وأشجانه ليهبط بعد ذلك عند الروي المكسور الذي يشعر السامع بانكسار نفسه وعميق حزنه . خاصة في المثال الأول فإن جعل الشاعر الهاء وصلا بعد الروي يكشف عن إحساس عميق بما تتركه الحروف من آثار، وما تحركه من شعور في نفس المتلقي، إذ أن الهاء حرف هامس فيه مسحة حزن لا تخفى، وقد ألقى بظلاله على هذين البيتين .

كما نلحظ أن الوزن في هذين المثالين قد تظافر مع القافية في تحقيق هذه الرشاقة والخفة في الإيقاع . إذ أن المثال الأول جاء على وزن **(الرمل)** والثاني على وزن **(مخلع البسيط)**.

ومن أمثلة القافية **المردوفة بالواو** قوله:[٢]

تَهْفُو الصِّبَا سَحَراً فَاسْتَجْفِي الصَّبَا وَأَغُصُّ بِالسَّلْسَالِ وَهْوَ بَرُودُ

يَا عَهْدَ " عَيْنِ الدَّمْعِ " كَمْ مِنْ لُؤْلُؤٍ لِلدَّمعِ جُدْتَ بِهِ عَسَاكَ تَعُودُ

وقوله الذي كتب على أحد المباني السلطانية :[٣]

السَّعْدُ هَذَا بَابُهُ المفْتُـوحُ والعِزُّ هَذَا سِرُّهُ المشْـــــــرُوحُ

آثارُ مَوْلاَنا الإمَامِ " مُحَمَّدٍ " مِثْلُ الكَواكِبِ فِي السَّمَاءِ تَلُوحُ

أما القافية **المردوفة بالياء** فكقوله في وصف النهر:[٤]

وَطَمُوحُ العُبابِ ضَافِي المقِيلِ حَسِرِ الدَّوْحِ عَنْ حُسَامٍ صَقِيلُ

كَسَبِيكِ اللُّجَيْنِ ذَهَّبَهُ الصَّا نِعُ سُبْحَانَهُ بِشَمْسِ الأَصِـــيلِ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦١٨ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٨ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٣٥ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٢٢ .

ونظراً لما بين الواو والياء من التشابه الصوتي[١] فقد أجاز النقاد تعاقبهما في القصيدة الواحدة [٢] كقول ابن الخطيب : [٣]

كَمْ لُؤْلُؤٍ نَثَرَ الحَدِيثُ عُقُودَهُ نُظِمَتْ لِشَمْلِ الوُدِّ مِنهُ عُقُودُ
وَلَئِنْ تَحَامَانَا الرَّقِيبُ فَلَمْ يَرُمْ عَنَّا رَقِيبٌ لِلْعَفَافِ عَتِيـــــدُ

ولكن من الأفضل أن يكون الردف مقتصراً على حركة واحدةٍ من الحركات الطوال الثلاث، من أول القصيدة إلى آخرها[٤] لكي لا يكون ذلك على حساب النغم الإيقاعي للقصيدة الذي قد يعروه بعض الاضطراب من جراء تناوب الردف بين الواو والياء.

ولا شك أن استعمال **القافية المطلقة** يزيد في حركة الإيقاع داخل القصيدة، إذ أن تقييد القافية يقلل من كمية الإيقاع الموسيقي الذي يرتفع بالمد والحركات.[٥]

وقد حاول ابن الخطيب عند استخدامه **القوافي المقيدة** أن يعوض ذلك النقص في الإيقاع، وذلك بأن يسبقها بحرف مد[٦] كقوله في شرح "ابن مرزوق" لكتاب "الشفاء":[٧]

يَا نَاقِلَ الآثَارِ يُعْنَى بِهَـــا وَوَاصِلاً فِي العِلْمِ سَيْرَ الجَمُـــوحْ
رَوْضٌ مِنَ العِلْمِ هَمَى فَوْقَهُ مِنْ صَيِّبِ الفِكْرِ الغَمَامُ السَّفُوحْ

فقد سبق حرف "الواو" القافية المقيدة، كما سبقها أحياناً حرف المد اليائي مثل قوله في هجاء "أبي الحسن النباهي": [٨]

"جُعْسوسُ"[٩] ثَعْلَبُ مَكْرٍ وَذُو خِلَالٍ ذَمِيمَهْ
زَادَتْهُ فِي السُّوءِ بِنْـــتٌ مِنْ المسُوخِ القَدِيمهْ
قُلْنَا وَلِلْيُتمِ فِيـــــــها مَخِيلَةٌ مُسْتَقِيمـهْ
ثَعَـالبيَّ انْتِمَـــــــاءٍ مُخَلِّـفٌ لِيَتِيمَـــهُ

ولكنه لم يلتزم بهذا المد دائماً حيث خلت بعض قوافيه منه كقوله: [١٠]

---

[١] انظر د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ٢٦٦ .
[٢] انظر : ابن رشيق : العمدة : ٢٧٢/١ – ٢٧٣ . الدماميني : العيون الغامزة ، ص : ٢٥٣ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٨٩ .
[٤] انظر : د. حازم علي كمال الدين : القافية دراسة صوتية جديدة ، طبعة مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٩٨م ، ص : ٩٧ .
[٥] انظر : د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ، طبعة دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٤ ، ص : ٢٧١ .
[٦] إن استعمال القافية المقيدة بعد المد كثير جداً . انظر : د. عبد الله الطيب ، المرشد : ٤٣/١ .
[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٣٨
[٨] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٧٢ .
[٩] الجعسوس : اللئيم القصير الدميم ، وقدر ورّى في هذه الأبيات بالثعالبي، وكتابه "يتيمة الدهر".
[١٠] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٤٧

اُنْظُرْ إِلَيْها تَجِدْ حَـبَّ الملوكِ بِهَـا وَقَدْ حَكَى نَوْرُهَا المبْيَضُّ حِينَ فُتحْ
قُطْناً تَرَاكَمَ فِي الأَغْصَانِ إِذْ قَذَفَتْ لَفَائِفُ الثَّلجِ فِي أَعْلاهُ قَوْسَ قُـزَحْ

وقوله أيضاً : [١]

قَالَ جَوادِي عِنْدَمَا هَمَزْتُ هَمْزاً أَعْجَزَهْ
إِلَى مَتَى تَهْمِزُنِـي "وَيْلٌ لِكُـلِّ هُمُزَهْ"

ولا شك أن وجود المد قبل الروي المقيد يزيد الإيقاع الموسيقي في البيت كما نلحظ من الأمثلة السابقة.

كما أن ابن الخطيب قد نظم – بشكل ملحوظ – بعض قصائده بروي مقيد ، ولعل مرد شيوع هذا النوع من القوافي التئامه مع الغناء الذي شاع في هذا القرن، لأن مثل هذه القافية أطوع وأيسر في تلحين أبياتها.[٢]

وقد **أخذت القافية أشكالاً جديدة** على الأدب العربي منذ القرن الثالث الهجري،[٣] ومن هذه الأشكال المزدوج والمخمسات والمسمطات وما شابه.[٤]

وأول هذه القوالب الجديدة التي نظم فيها ابن الخطيب نوع سماه أهل العروض بـ **(المشطر)** وهو نوع من الشعر ينظر فيه إلى الأشطر لا الأبيات ويتخذ فيه من كل شطر وحدة مستقلة ، حيث قسم الشعراء قصائدهم إلى عدد من الأشطر أقلها أربعة ويراعون قافية خاصة مع كل قسم ، فجاء منه ما يسمى بالمربع والمخمس والمسدس.[٥]

وقد نظم ابن الخطيب من هذا النوع قصيدة **"خمس"** فيها أبياتاً "للمستعين سليمان"[٦] ومنها:[٧]

مَالِي عَلَى شَرَفِي ورِفْعَةِ شَانِي وَعَظِيمِ أَمْصَارِي. وَعِزِّ مَكَانِي
لَعِبَ الغَرَامُ بِمُهْجَتِي وَجَنَانِي عَجَباً يَهابُ اللَّيثُ حَدَّ سِنَـانِي
وأَهابُ لَحْظَ فَواتِرِ الأَجْفَانِ
أَصْبَحْتُ فِي أَمْرِ الهَوى مُتَعجِّباً أُهْدِي إِلَى الأَعْداءِ بَأْساً صَيِّبـاً

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٥٤ وفيه تضمين للآية الأولى من سورة " الهمزة "
[٢] انظر : د. إبراهيم أنيس ، : موسيقى الشعر ، ص : ٢٦٠
[٣] انظر : د. محمد هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص : ٥٤٢ وما بعدها .
[٤] انظر ابن رشيق : العمدة : ٢٩٨/١ ، وما بعدها .
[٥] انظر : د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ٣٠٢ – ٣٠٣ .
[٦] المستعين بالله (٣٥٤ – ٤٠٧ هـ) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي ، من ملوك الدولة الأموية في الأندلس ، انظر : الحميدي: جذوة المقتبس ، ص : ٣١ وما بعدها . وللإطلاع على قصيدة المستعين انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء: ٩/٢ .
[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٣ .

وَأَرَى الرَّدَى فِي الحَرْبِ عَذْباً طَيِّباً وأُقَارِعُ الأَهْوَالَ لاَ متهيّباً
مِنْها سِوَى الإِعْرَاضِ والهِجْرَانِ

ونلحظ في الأشطر الخمسة الأولى مجيئها على قافية النون، ثم جاءت الأشطر الأربعة التالية بقافية أخرى وهي الباء، ثم أتى بالشطر الخامس على قافية النون.

وهكذا يمضي ابن الخطيب في قصيدته ملتزماً قافية الشطر الخامس في كل قسم من أقسامها حتى النهاية. وهذا النوع من المخمسات هو الأكثر استعمالاً بين الشعراء لأن إيقاعه الموسيقي عذب وجميل لتكرار قافية واحدة في كل قسم. ولهذه الخاصية التي تميز بها – وهي تكرار عنصر معين – عده النقاد النواة التي أسس عليها نظام الموشح.[١]

ومن الأنواع التي تندرج تحت نظام المشطر، قصيدة **(مثمنة)** ثمّن بها ابن الخطيب قصيدة للسلطان "أبي عنان المريني" ومنها:[٢]

حَدِيثٌ عَلَى رَغْمِ العُلاَ غَيْرُ كَاذِبِ يَغُصُّ النَّوَادِي عِنْدَهُ بالنَّـــــوادِبِ
وَللّه مِنْ سَهْمٍ عَلَى البُعْدِ صَـائِبٍ رَمَى ثُغْرَةَ المجْدِ الصَّرِيحِ المنَاسِـبِ
أَيَا صَاحِبِيْ نَجْوَايَ دَعْوَةُ صَاحِـبٍ أَطَافَتْ بِهِ الأَشْجَانُ مِنْ كُلِّ جَانبٍ
أَلِمَّا بَأَحْدَاثِ العُلَى والمـنَاقِـــبِ تُحَيِّيَّ ثَرَاهَا وَاكِفَاتُ السَّحَـــائِبِ

فهذه ثمانية أشطر جاءت على قافية الباء استهل بها قصيدته ثم جاء بعدها:[٣]

أَلاَ فَابْكِيَا رَوْضَ الجَلاَلِ الذَّي ذَوَى عَلَى حِينِ هَزَّتْهُ السَّمَاحَةُ واسْـتَوى
وَجَادتْهُ أَخْلاَفُ الخِلاَفةِ فَارْتَـــوَى وَنُوحَا عَلَى نَجْمِ العَـلاءِ الّذِي هَـوَى
فَأَبْرزَ شَمْسَ الجَوِّ فِي خلْعَةِ الجَـوَى فَللّهِ مِنْ دِيوَانِ فَضْلٍ قَدْ انْطَـوَى
وعُوجَا بَأَكْنَافِ الضَّرِيحِ الّذِي حَوَى مِنَ الجُودِ والإِفْضَالِ أَسْنَى المرَاتِبِ

وفي هذا القسم جاءت سبعة أشطر مقصورة القافية، في حين جاء الشطر الثامن على قافية الباء كسابقه، وهكذا يمضي ابن الخطيب في قصيدته على هذا النظام حيث تختلف القوافي في كل قسم في حين تتفق في الشطر الثامن فقط.

---

[١] انظر : د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ٣٠٧ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٥ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٢٥ .

وفي كلا القصيدتين " **المخمسة** " و " **المثمنة** " حرص ابن الخطيب على تكرار قافية معينة في كل قسم مما أضفى على القصيدة رتماً إيقاعياً متوازناً ، يتميز بالنغم الموسيقي الجميل الذي خرج عما هو معتاد في نظام القوافي في القصيدة التقليدية. وهو تجديد يلائم هذا العصر الذي بلغت فيه الحضارة أوجها ، ومال الناس إلى التغيير في كل مألوف حتى في فنون الأدب وذلك جرياً مع تجدد الحياة في شتى ألوانها.[١] ولكن ينبغي التنويه في هذا المقام إلى أن ابن الخطيب لم ينظم كثيراً في هذه الأشكال الفنية ، إذ لم نجد في ديوانه سوى هاتين القصيدتين فقط.

ولكن الفن الذي استهوى ابن الخطيب وأجاد النظم فيه هو **الموشح**، الذي يشكل نتاج تأثير الحضارة في فن الشعر، وهو يخرج في نظامه عن نظام القصيدة التقليدية من وجهين: الوجه الأول أنه يتألف من صوتين أو لحنين، والوجه الثاني أن كل صوت تجري فيه شطور متتابعة.[٢] والقوافي فيه تختلف من دور إلى دور.[٣]

والموشح فن أندلسي المنشأ كما تشير المصادر الأندلسية.[٤] وهو مرتبط بغير شك بالحياة الاجتماعية الأندلسية التي شاع فيها الغزل والشراب والغناء، حيث يعمد الوشاح فيها إلى ضرب من التنويع العروضي هو أقرب إلى التوزيع الموسيقي. لأنها أعدت لكي تنشد ويوقع عليها المغنون ألحانهم . فهي ألحان وأنغام خالصة . وقد جعل الشعراء كل موضوعات الشعر المألوفة ميادين لتواشيحهم فإذا بها تقال في مناسبات المديح والتهاني والتغني بجمال الطبيعة والغزل والخمريات ..... وغيرها.

ومن أشهر موشحات ابن الخطيب تلك التي عارض بها موشحة " إبراهيم بن سهل"[٥] ومطلعها :[٦]

جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمَى يَا زَمَـانَ الوَصْلِ بالأَنْـــدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلاَّ حُـــلَمـا فِي الكَرَى أَوْ خِلْسَةَ المخْتَلِسِ

ومنها :[٧]

---

(١) انظر : د. عز الدين الأمين : نظرية الفن المتجدد ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص : ٨١ .
(٢) انظر : د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص : ١٠٤ .
(٣) الدور في الموشحة هو مجموعة الأبيات التي تلي المطلع ويتكون من مجموعة من الأقسمة لا تقل عن ثلاثة ، ويلتزم بنفس العدد في بقية أدوار الموشحة . انظر : د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص : ٣٧٦ – ٣٧٧ .
(٤) انظر على سبيل المثال : ابن بسام : الذخيرة : ق١ /ج١/ ٤٦٩ – ٤٧٠ . ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٥٨٣ .
(٥) هو إبراهيم بن سهل الإشبيلي (٦٠٩ – ٦٥٢) انظر ترجمته في : ابن الأبار : تحفة القا دم : ٢٤٣ ، وللإطلاع على الموشحة انظر : ديوان ابن سهل ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص : ٢٨٣ . ومطلع الموشحة هو قوله :
هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صبٍّ حله عن مكنس
فهو في حرٍ وخفقٍ مثلمـــــا لعبت ريح الصَّبا بالقبسِ
(٦) ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٩٢ .
(٧) ديوان ابن الخطيب ، ص :٧٩٢

أَيُّ شَيْءٍ لأمْرِئٍ قَدْ خَلَصَا فَيكُونُ الرَّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهْ
تَنْهَبُ الأَزْهَارُ فِيهِ الفُرَصَا أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهْ
فَإِذَا الماءُ تَنَاجَى والحَصَى وَخَلا كُلُّ خَلِيلٍ بأخِيهْ
تُبْصِرُ الوَرْدَ غَيُوراً بَرِما يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
وتَرَى الآسَ لَبِياً فَهِمَا يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأُذْنَي فَرَسِ

ولا شك أن أكثر ما يلفت في هذه الموشحة هو الإيقاع الموسيقي السلس الذي تسير عليه حتى نهايتها وهذا التنوع في القوافي ، فابن الخطيب يلزم نفسه إلزاماً لطيفاً بثلاث قواف في الدور ثم جاء بنفس قافية المطلع السينية وهكذا حتى نهاية الموشحة .

والحق أن جمال هذه الموشحة نابع من تظافر العديد من العناصر منها تعدد القوافي وتنوعها والصور البيانية البديعة التي استوحاها من الطبيعة الفاتنة، حيث قام بتشخيص عناصرها ومنحها عواطف الإنسان وإحساسه، فالماء والحصى يتناجيان والورد يغار والآس لبيب يستمع، كما أنه انتقى ألفاظه بدقة حيث اتسمت بالرقة والعذوبة إلى جانب استغلال السمات الصوتية لبعض الحروف وتوظيفها مثل حرف السين المهموس الذي بث في الأبيات نغماً موسيقياً رقيقاً .

ومن الأمثلة كذلك قوله:[١]

بأَبِي مَنْ صِرْتُ مِنْ حُبِّهِ وَهْوَ هَاءٌ وَمِيمْ
أَنَا مِنْ حُبِّهِ كَشَطْرِ اسْمِهِ[٢] وَهْوَ بَاقٍ سَلِيمْ
كَوْكَبٌ يَسْتَمِدُّ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ قَلْبٍ سَلِيمْ
يَا طِرَازَ الجَمَالِ مَا السِّرُّ هَكَذا يُنْسَبْ
نَحْنُ أَهْلُ الهَوَى لَنَا سِتْرٌ هَتْكُهُ يَصْعُبْ

ونلحظ اختلاف هذه الموشحة في نظامها عن سابقتها حيث تفاوت طول الغصنين[٣] في أدوارها ، في حين اتفقت معها في تكون كل دور من قسمين، والملاحظ في هذه الموشحة استعمال القافية مقيدة وهي أكثر ملاءمة للتلحين والغناء.

وعدّ البعض الموشحات من الشعر المسمط الذي يصنع الشاعر فيه للأوزان والقوافي نظاماً خاصا يراعيه في كل أقسام المقطوعة[٤] وهو ما ينطبق على نظام الموشحة.

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٩٦ .
[٢] يعني " همّ " .
[٣] الغصن في الموشحة هو كل شطر من أشطر المطلع أو القفل أو الخرجة وتتساوى الأغصان عدداً وترتيباً وقافية في كل الموشحة وأقل عدد للأغصان هو اثنان . انظر : مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص : ٣٧٧ .
[٤] انظر : د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ٣٠٧ – ٣٠٨ .

ونجد في موشحات ابن الخطيب جميع الوسائل البيانية والبديعية التي ستعملها في شعره إلا أنها تظهر في الموشحات بصفة أجلى. ومع ذلك فإن ابن الخطيب لم يكثر من نظم الموشحات. وبقي ينظم شعره بالطريقة التقليدية.

نخلص مما سبق أن القافية قد تنوعت وأخذت أشكالاً عديدة بفضل ما أضافته الحضارة على الموسيقى الشعرية . وإن كانت الموشحات تعد أكثر هذه الأشكال خروجاً على نظام القصيدة التقليدية في الوزن والقافية.

نستنتج مما سبق تأثر إيقاع الشعر وموسيقاه بروح الحضارة التي عمت المجتمع الأندلسي في القرن الثامن الهجري -كما بينا سابقاً – إلا أنه في الحقيقة لم يختلف عن الشعر العربي القديم في صميم تكوينه الموسيقى ، فقد ظلت القصيدة – غالباً – تتحد في أوزانها وقوافيها – باستثناء الموشحات – برغم اختلاف الحياة واختلاف الثقافة والمستوى الحضاري . وحقاً استنار هذا النظام الإيقاعي في هذا العصر بأضواء حضارية وثقافية ولكنها لم تغير مه بل إنها أضفت عليه لمسة من الإشراق والبهجة والجمال.

وإذا تركنا جانب التجديد الذي طرأ على القافية وأشكالها، وذهبنا نرصد بعض الظواهر الموسيقية الأخرى التي حفل بها شعر القرن الثامن الهجري نتيجة للأثر الحضاري في موسيقى الشعر والتي تمثل أنماطاً إيقاعية متباينة، نجد أن هناك إيقاعاً يكمن في (طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم'' وموسيقى .... فهو مهارة في نظم الكلمات، وبراعة في ترتيبها وتنسيقها ومهما اختلفت أصنافه وتعددت طرقه يجمعها جميعاً أمر'' واحد، وهو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ والأسماع).[1]

والواقع أن طرق هذا الإيقاع تندرج تحت **"علم البديع"** الذي يقوم بفاعلية إيقاعية ليست بسيطة أو عرضية بل هي ركن هام في بناء العمل الفني بوصفة كلا متكاملاً والدور الإيقاعي هو أبرز خصائص البديع الفنية. إلا أن هذا الإيقاع النغمي لا يكون إيقاعاً ثابتاً يلتزم به الشاعر فلا يتخلى عنه كما هو الحال في عنصري الوزن والقافية بل هو **إيقاع متغير** بحيث قد يستخدم في بيت دون الآخر.

وبالنظر إلى شعر ابن الخطيب نلحظ أن **الإيقاع المتغير** فيه قام على أنماط كثيرةٍ من تلك الظواهر البديعية والتأثيرات النغمية . كان من أبرزها ما يلي:

---

[1] د. إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص : ٤٤ – ٤٥ .

١ - التكرير :

يعد التكرير بمفهومه العام أبرز علاقة تقوم عليها أغلب ظواهر علم البديع[١] ولا شك أن تكرير حرف معين أو كلمة مفردة يعمل على تقوية النغم.

فكان الشعراء يختارون بعض الأحرف ويعمدون تكرارها في البيت الواحد مستغلين إمكاناتها الصوتية وخصائصها الإيقاعية، ومن الشواهد على ذلك قول ابن الخطيب:[٢]

يَا أَدِيباً أَزْرَى بِكُلِّ أَدِيبِ ضَرَبُ الشُّهدِ أَنْتَ دُونَ ضَرِيبِ

ففي هذا البيت يتراقص بوضوح حرف الباء الانفجاري[٣] حيث كرره ابن الخطيب خمس مرات، وهو بذلك يسبغ أثواب الفخامة والجلال على هذا الأديب، كما أن وقوع "التجانس" بين " أديب وضريب " و " ضرب وضريب " قد عمل على تكثيف الإيقاع الموسيقى في البيت .

وقوله : [٤]

يَا صَاح لاَ تَبْكِ عَهْداً لِلْوصَالِ مَضَى عَنّا حَمِيداً وَأَوْطَاراً وَأَوْطَانَا

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَمَا الشَّكْوَى بِنَافِعَةٍ وَكُلُّ صَعْبٍ إِذَا هَوَّنْتَه هَانَا

ونلحظ في البيتين نغماً موسيقياً وافراً والحق أن هذا الإيقاع الرخيم نتج من استغلال الخصائص الصوتية للحروف التي بثها ابن الخطيب فيهما حيث كان المد بالألف من أوضح الخصائص مما عمل على امتداد الصوت حتى أنه جعل القافية ممدودة وبذلك تتناسب الحروف مع المعنى وتسمح للشاعر بتفريغ شحنات العاطفة الحزينة التي تختلج في صدره، ويدعمها أيضاً حرف النون الأنفي بوجدانيته المتدفقة، وحرف الهاء الهامس الذي تكرر أربع مرات فأضفى على البيتين مسحة من الحزن بسبب ما يعانيه الشاعر من آلام، مما جعل القافية متمكنة في موضعها[٥]. ولا يمكن نسيان الجناس بين (أوطاراً وأوطاناً) وبين (هونته وهانا) التنوين الذي هو في الأصل نون ساكنة، حيث تكرر تنوين الفتح ثلاث مرات وتنوين الكسر مرتين، مما دعم المعنى، ومعروف أن هذا الحرف (النون الساكنة) له نغمة موسيقية رنّانة ينتج عن تكرارها إيقاع قوي . وبذلك

---

[١] انظر : د. عز الدين علي السيد: التكرير بين المثير والتأثير ، الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٦ م ، ص : ١٩٨ ، وما بعدها .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٤٢ .
[٣] انظر : إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، ص : ٤٥ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٢ .
[٥] انظر : حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص : ٢٧١ .

يمكن القول أن تكرار الحرف والكلمة (هون ، هونته ، هانا) والتنوين قد عمل على تكثيف الإيقاع الموسيقي في هذين البيتين .

ومن الأمثلة – أيضاً – قول ابن الخطيب : [١]

يَرُوُم بِسَكْبِ الجُودِ كَسْبَ ثَنائِهِمْ فَلِلّه مِنْ سَكْبٍ كَرِيمٍ وَمِنْ كَسْبِ

لقد عمد ابن الخطيب في هذا البيت تكرار حرف السين أربع مرات مما أكسب الإيقاع جمالاً وبهاءً، ولعل مرد ذلك إلى أن صوت السين صوت رخو مهموس[٢] فتكرار صوته (يكون مقبولاً سهل النطق به لا يحتاج إلى جهد عضلي كبير)،[٣] وقد جاء به متحركاً بالفتح مرة ثم ساكناً في الأخرى مما حقق تناغماً جميلاً في الإيقاع زاده جمالاً هذا الجناس الناقص بين (سكب وكسب) لا سيما وأنه تكرر مرتين في البيت.

ومثله قوله:[٤]

ومَدَّ بُرودُ النَّبْتِ فِي قُنَـــنِ الرُّبَي وَحَلّى عَرُوسَ الدَّوْح دُرَّاً وعِقْيَاناً

وَقَدْرَفَّ جَيدُ الغُصْنُ فِي حَلْي زَهْرِهِ وَنَافَحَ رَاحُ الطَّلِّ فَارْتَاحَ نَشْوَانـــا

حيث تكرر حرف الحاء الحلقي ست مرات، مما أضفى إيقاعاً عذباً على البيتين يوحي بجمال هذا الروض الساحر الذي تزين بأغلى المنتجات الحضارية الراقية من أقمشة وزينة.

وقد يعمد الشاعر إلى بث حرفين في بيته فيحدث توازناً صوتياً بتكرارهما مستغلاً الإيقاع المزدوج والنغمة المركبة الناتجة من تتابعها ، ومن ذلك قول ابن الخطيب:[٥]

مِنْكَانَةُ الرَّمْلِ فِيهَا عِبْرَةٌ ونُهَى وشَاهِدٌ أَنَّ كُلاًّ مُنْقَضٍ كَمَدى

لُبابُ عُمْرُ الفَتَى يَجْرِي بِجَرْيَتِها كَأَنَّما العُمْرُ لَمّا أُطْلِقَتْ قُصِـــدا

فمن يقرأ هذا البيت بتأن يلحظ بوضوح أن الشاعر قد عمد إلى تكرار حرفي الميم والنون في ألفاظ متقاربة، مما يحدث إيقاعاً مركباً عذب الوقع على الأذن، هذا فضلاً عن نثره المتعمد لحرف الميم المجهور الذي يجهر الشاعر من خلاله بتأمله وموعظته ، مما

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١١٧ .
[٢] انظر : د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ، ص : ٧٥ .
[٣] د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص : ٣٨ .
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٨٠ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٤٥ .

يمكن القول معه: إن تجانس الحروف هنا وتداخلها وتناغم إيقاعاتها لا يشكل مجرد ألفاظٍ فحسب، بل هو أشبه بمقطوعة موسيقية ينتظم فيها الإيقاع على أقصى حدٍ ممكن.[١]

ومن ذلك أيضاً قوله:[٢]

شَرِقْتُ بِعَبْرتِي لَمَّا تَغَنَّـــــتْ عَلَى الأَوْتَارِ رَائِقَـةُ الشَّبَـابِ
ومَا اسْتَعْبَرْتُ مِنْ طَرَبٍ ولَكِنْ يُذَكِّرُنِي الرَّبَابُ هَوَى الرَّبابِ

حيث نلحظ بوضوح تكرار حرفي الراء والتاء، والراء كما هو معروف حرف تكراري، أما التاء فهو حرف انفجاري مما يضفي على الإيقاع سمة القوة والوضوح والجمال حيث تناسبت الحروف مع المعاني، حيث أن تكرار الراء يناسب الضرب على أوتار العود.

وكما أن اختيار أحرف بعينها وتكرارها يحدث إيقاعاً موسيقياً لا يمكن إغفاله، فكذلك اختيار ألفاظ بعينها ، فقد أظهر الشعراء اهتماماً بهذا الجانب الإيقاعي الذي يقوم على (تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً يتقصده الناظم) [٣] . ونلحظ ذلك في قول ابن الخطيب:[٤]

تَلَقَّيْتَ شَهْرَ الصَّوْمِ بِالبِرِّ والتُّقَى تَوَدُّ بِأَنْ لاَ يَنْقَضِي ذَلِكَ الشَّهْـــرُ
وَوَدَّعَ يَثْنِي بالَّذِي أَنْتَ أَهْلُـــــهُ وَقَدْ جَلَّتْ الزُّلْفَى وَقَدْ عَظُمَ الأَجْرُ
وَوَافَاكَ شَهْرُ الصَّوْمِ يزْهَى بِغُرَّةٍ تَرِفُّ بِهَا البُشْرَى وَيَبْدُو بِهَا البِشْرُ

فتكرار كلمة " شهر " ثلاث " مرات في الأبيات السابقة عمل على تقوية الإيقاع الموسيقي فيها. وقد جاء هذا التكرار عذباً خالياً من الكراهة والثقل فلا تنفر منه النفس، بل تشعر معه بالارتياح.

نلحظ مما سبق أن هذه التماثلات الصوتية بين الحروف أو الكلمات إذا أحسن الشاعر استغلالها وتوزيعها داخل النص الشعري فإن ذلك ينعكس بالإيجاب على إيقاع النص وموسيقاه .

---

[١] انظر : شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ص : ١٠١ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ١٥١ .
[٣] د. ماهر جلال : جرس الألفاظ ودلالتها ، طبعة دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص : ٩
[٤] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٠٢ .

٢ - الجناس:

تحدثنا عن الجناس – سابقاً – بوصفه وحدة لغوية تدخل ضمن إطار التركيب اللغوي في القصيدة. أما في هذا الموضع فإن الدراسة تسعى لبيان أثر الجناس في الإيقاع الموسيقي للقصيدة. لا سيما وأن الجناس يأتي من فنون الوفاء بالمعنى والإيقاع .

والملاحظ على شعراء هذا العصر هو اهتمامهم بالمحسنات البديعية بكافة أنواعها[١] لا سيما الجناس، فقد استغلوا جميع الطاقات الإيقاعية التي يقدمها هذا العنصر من خلال تشكيلاته المتعددة ، ومن الشواهد على ذلك قول ابن الخطيب : [٢]

وآملُ أَنْ لاَ أسْتَفِيقَ مِنَ الكَرَى إِذَا الحُلْمُ أَوْطَانِي بِهَا تُرْبَ أَوْطَانِي

فابن الخطيب يسعى لزيادة الطاقة الإيقاعية في هذا البيت وذلك باعتماده على **الجناس التام** وما يتولد عنه من تكرار صوتي ونغمي بين كلمتين متجانستين هما "أوطاني" الأولى وهي من الفعل وطأ ، و "أوطاني" الثانية وتعني جمع وطن، فلا شك أن مثل هذه الترددات التنغيمية التي نشأت من جراء استخدام كلمتين متفقتين في بنائهما الإيقاعي يزيد من كثافة الإيقاع الموسيقي للعمل الشعري.

أما **الجناس الناقص** فهو صاحب الحضور الأكبر بين أنواع الجناس الأخرى ومن الأمثلة عليه قول ابن الخطيب:[٣]

مَازلتُ أجْعلُ ذِكْرَهُ وثَنَاءَه رَوْحي وَرَيْحَاني الأَريجُ ورَاحي

فقد جانس في هذا البيت بين ثلاث كلمات وهي "روحي" و "ريحاني" و "راحي" جناساً ناقصاً لاختلاف هيئة الحروف مما ينتج عنه الاختلاف في درجة الإيقاع بين الكلمتين .

---

[١] انظر : ابن خلدون : المقدمة ، ص : ٥٦٨.
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٩٣ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٣٣.

وقد يختلف ترتيب الحروف بين الكلمتين أو عددها فيختلف تبعاً لذلك الإيقاع فيهما . كما نلحظ في قول ابن الخطيب:[١]

وكَتِيبةٍ جَعَلُوا الصِّفَاحَ صَحَائِفاً مِنْهَا وَخَطِّي القَنَا أَقْلاَماً

وقوله : [٢]

لَوْ كَانَ يُجْدِي الحُزْنُ أَوْ يَنْفَعُ الأَسَى لَما وَجَدَتْ أَنْفَاسُنَا مُتَنَفَّسَـــــا

فَكَـــــمْ بَيْنَ مَنْ هَدَّ البِنَاءَ وأَسَّسَا وَلَيْسَ سَوَاءً أَحْسَنَ الدَّهْرُ أَمْ أَسَا

والملاحظ أن تغير إيقاع الكلمتين في الجناس الناقص بسبب الأحوال التي طرأت على درجته أو موقعه إنما يدل على تنوع الإيقاع من هذا الجانب، حيث يصبح الشاعر أمام خيارات كثيرة متعددة الجرس ومختلفة النغم مما يثري الإيقاع، ويكثف الموسيقي في النص الشعري بعامة.

ونخلص مما سبق أن **الجناس** – بأنواعه – من أكثر المظاهر البديعية موسيقية وذلك لما يمتاز به من (خاصية التكرار والترجيع يسمحان بتكرار جرس الأصوات وإبرازها)[٣]. وانتشار العناية بالبديع والجناس منه خاصة يبدو ملائماً لحضارة العصر التي أضفت لمسات من التأنق والجمال على كل مظاهر الحياة، حتى الأدبية منها .

٣ - التصريع :

لا شك أن القافية تشكل دوراً كبيراً في اكتمال البنية الإيقاعية الثابتة في القصيدة. إلا أن الشعراء يعمدون أحياناً إلى نوع من التقطيعات الصوتية الداخلية، بحيث يصنعون قوافٍ داخلية قبل القافية الخارجية. وهذه التقفية الداخلية تتمثل فيما يسمى بـ (**التصريع**) و (**الترصيع**) حيث تتمكن من خلال ما تحمله من آفاق إيقاعية أن تلون إيقاع النص الشعري وموسيقاه بأصباغ عدة من النغم المتعادل والرنين المتوسط [٤].

أما (**التصريع**) فهو عبارة عن (استواء آخر جزء في صدر البيت وعجزه في الوزن والروي والإعراب)[٥]. وإنما يحسن التصريع إذا لم يكثر استعماله في القصيدة الواحدة، وإلا فإنه يدل على التكلف فلا يكون عندها مقبولاً.[٦]

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٣٥ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص :
[٣] انظر : د. ابتسام حمدان : الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، ص : ٣٠٢ .
[٤] انظر شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص : ٨٨ ، وما بعدها .
[٥] ابن معصوم : أنوار الربيع : ٢٧١/٥ .
[٦] انظر : ابن الأثير : المثل السائر : ٢٣٧/١ .

وقد اعتمد الشعراء عليه كثيراً في انتاج إيقاع يتسم بالتوازن الصوتي والنغم الموسيقي، ويأتي غالباً في مقدمة القصائد، ومن أمثلته قول ابن الخطيب وقد كتب على أحد المباني السلطانية :[١]

لِي اللّهُ مِنْ عُنْوَانِ مُلكٍ مُجَدَّدِ تَرُوحُ هِبَاتُ اللّهِ نَحْوِى وَتَغْتَدِي

وقوله في ساعة المنكان :[٢]

هَذِي ثَمَانٌ قَدْ قَطَعْنَ الدُّجَى فِي سَيْرِهَا مُعْتَبرٌ لِلْحِجَا

فالتماثل الحاصل بين عروض البيتين (مجدد) و (الدجى) وبين (تغتدي) و (الحجا) في ضربهما من حيث الوزن والتقفية زاد من الإيقاع الصوتي في البيت الذي يقوم على مبدأ التوازن والترجيع .

وإذا تركنا مطلع القصيدة واتجهنا إلى أجزائها الداخلية فإننا نلحظ في بعضها ظهور " **الترصيع** " ولكن بصورة أقل كثافة من التصريع .

والترصيع من نعوت الوزن[٣] وهو أن تكون الأجزاء في البيت (متناسبة الوضع، متقاسمة النظم، معتدلة الوزن، متوخى في كل جزئين منهما أن يكون مقطعاهما واحداً)[٤]. وذلك كقول ابن الخطيب:[٥]

النَّارُ فِي كَبِدِي والشَّوْقُ يُقْلِقُنِي والقُرْبُ يَنْشُرُنِي والبُعْدُ يَطْوِيني

فقد لجأ ابن الخطيب إلى الترصيع الرباعي، حيث قسم البيت إلى أربع وحدات نغمية متوازنة ومتعادلة تنتهي بصوتٍ واحد.

والحكم نفسه ينطبق على قوله:[٦]

الخَيْلُ جُرْداً والرِّمَاحُ ذَوَابِلاً والبِيضُ ذُلْقاً، والخَمِيسُ لُهَامَا

وكذلك قوله:[٧]

واحْرُسْ حِمَى العُلَيَا فَمَجْدُكَ مُنْجِدٌ وَاطْلُبْ مَدَى الدُّنْيَا فَسَعْدُكَ مُقْبِلُ

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٣٦٣ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٢٠٣ .
[٣] انظر : ابن أبي الإصبع : تحرير التحبير : ٣٠٣/٢ ، ٣٠٤ .
[٤] أبو محمد القاسم " السجلماسي " : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، تحقيق : د. علال الغازي ، الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ١٩٨٠، ص ٥٠٩ .
[٥] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٦١١ .
[٦] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٣٦ .
[٧] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٤٩٦ .

وكذلك قوله : [١]

كَمَالٌ ولاَ نَقْص ورشد ولا هوى ومنحٌ ولا منع وحمدٌ ولا ذمٌّ

ويغلب استخدام الترصيع في الأجزاء الداخلية من القصيدة ، ولم يرد استخدامه في المطالع إلا في النذر اليسير منها ، كقول ابن الخطيب : [٢]

يَا هِلاَلاً ، يَا قَضِيباً يَا رَشَا إِنْ تبدى أو تثنّى أو مشى

وقوله:[٣]

وُجُودُكَ حَيَّ المُلْكَ والدِّينَ والدُّنْيَا وجُودُكَ أَحْيَا المْجَد والسِّيـــــرَةَ العُلْيَا

وَجَدُّكِ أَوْلَى الأَمْنَ واليُمْنَ والهُدَى وَجَدُّكَ جَلَّى الخَطْبَ والمُوئِدَ الدَّهْيَـــا

لقد سعى ابن الخطيب في استعمال هذه الظاهرة البديعية " **الترصيع** " إلى أن يضيف نغماً موسيقياً آخر يحقق به لتشكيله الإيقاعي الثراء والتنوع .

نخلص مما سبق أن تأثير الحضارة لم يقتصر على عناصر الإيقاع الثابتة في القصيدة والذي تمثل في الوزن والقافية بل امتد إلى داخل القصيدة حيث قام على أنماط متعددة من الظواهر البديعية والتأثيرات النغمية كان من أبرزها التكرير والجناس والتصريع والترصيع، حيث شكلت أنماطاً إيقاعيةً مختلفة عملت على تكثيف العنصر الموسيقي في النص الشعري . إلا أنها لا تلتزم في القصيدة كاملة مما يجعلها عناصر إيقاعية متغيرة، ترد في بعض الأبيات دون الأخرى ولا يختل التركيب الإيقاعي للنص بعدم التزامها.

نستنتج مما سبق ظهور الأثر الحضاري في إيقاع الشعر وموسيقاه واضحاً في مظاهره المختلفة. ولعل مرد ذلك إلى ترصيع الحضارة وترفها بصفة عامة حيث تسربت ألوان الترف والزينة التي جلبت بالحضارة إلى فن الشعر فإذا بها تتحول إلى زخارف يلجأ إليها الشاعر لتكثيف الموسيقى في القصيدة . يؤكد ذلك أسماء بعض ألوان البديع المشتقة من صناعة الثياب كالتطريز والوشي والترصيع وغير ذلك فأصبحت هذه الزخارف الموسيقية الدقيقة تزيد الأسلوب قوة وتضفي عليه رونقاً وبهاءً وجمالاً.

❖ ❖ ❖

---

[١] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٥٤٦ .
[٢] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٣٩ .
[٣] ديوان ابن الخطيب ، ص : ٧٧٥ .

الخـــاتمة

الخـــاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وأصلى وأسلم وأبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ما دامت الأرض والسماوات، وبعد:

لقد منّ علي المولى – عز وجل – بالانتهاء من هذا البحث الذي تناولت فيه مظاهر الحضارة الأندلسية في شعر لسان الدين الخطيب بالدراسة الموضوعية والفنية بعد أن عرّفت بهذا الشاعر، وبينت مفهوم الحضارة، وأهم العوامل التي ساهمت في ازدهار الأندلس الحضاري في القرن الثامن الهجري. وقد خرجت من هذه الدراسة بعدة نتائج أوجزها فيما يلي:

-كان الاستقرار والأمن الذي شهدته غرناطة حتى منتصف القرن الثامن الهجري، والازدهار الاقتصادي، إلى جانب تجمع الكثير من السكان الذين هاجروا من مختلف القواعد الأندلسية، بما فيهم أهل المهارات العالية من الرجال والنساء – أيضاً – من أهم المقومات التي أسهمت في الرقي الحضاري لمملكة غرناطة.

-كان للبيئة الاجتماعية الرفيعة التي عاش فيها ابن الخطيب تأثير في تفكيره وانتاجه الأدبي والعلمي، وقد ساعد ذلك على ظهور الحضارة بأفخم مظاهرها في شعره.

-عكس شعر ابن الخطيب صورة النموذج الأمثل للقرن الثامن الهجري، ولأجوائه السياسية والاجتماعية والفكرية مجتمعة بزخمها وتراكماتها حيث كان المثقف الموسوعي الذي تشرب أمواه العلوم والفنون والآداب. فضلاً عما عرف به في مجريات السياسة ليس في الأندلس وحسب بل في العدوة المغربية أيضاً.

-كان النشاط العلمي في هذا العصر، والطبيعة الخلابة، والعمران الباذخ والرخاء الاقتصادي، وطبيعة المجتمع الغرناطي المتحضر، والحكام الذين كانوا العامل الأهم في رقي غرناطة. كلها عوامل حضارية أثرت بوضوح في شعر ابن الخطيب الذي عكس جميع مظاهر الحضارة في ذلك الوقت.

-إن حقيقة الحضارة هي ما ينتج عنها من الخير أو الشر. والسعادة أو الشقاء لبني الإنسان. لذلك كان أهم ما تتصف به الحضارة هو الإنسانية. وهي تنطلق من مبادئ

الإسلام التي كفلت للإنسان التمتع بالحرية والإخاء والعدالة، كما أنها تفتح له آفاق المعرفة والتفكير ليرتقي بواسطة علمه.

-كان في إشادة ابن الخطيب بالجانب الخلقي الرفيع للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، دعوة لجميع الناس للاقتداء به والتحلي بهذه الأخلاق النبيلة. لأن الارتقاء بالجانب الخلقي هو جوهر الحضارة بكافة أشكالها، فإصلاح المجتمع بكل ما فيه مرتهن بصلاح الإنسان أولا.

-يلاحظ أن حديث ابن الخطيب عن القيم والآداب الخلقية الحضارية غالباً ما كان مقترناً بشخصية ممدوحه، ولم يتضمن أي تفصيل لهذه القيم.

-رصد البحث في مدائح ابن الخطيب الكثير من صور التعامل الإنساني المتحضر بين الحاكم الغرناطي وشعبه المسلم وحتى رعاياه من أهل الذمة، مما يعكس سياسة التسامح، ويدل على انتفاء الطبقية في ذلك المجتمع.

-إن ارتقاء الفكر يؤدي إلى ازدهار كافة نواحي الحضارة المادية الأخرى، لذلك كان العلم مرادفاً للحضارة الإسلامية، ونشاطه يعني رقيها الفكري والإنساني. وهو ما تحقق في مملكة غرناطة ووجدنا أصداءه في شعر ابن الخطيب.

-أصبح التفوق العلمي والتأخر فيه محوراً للمدح والذم في هذا العصر.

-نلحظ ثمار الحضارة في تهذيب سلوك الطالب مع أستاذه، الذي مهما علا شأنه فإنه يبقى لمعلمه حق عليه.

-تطرق ابن الخطيب لموضوع حضاري هام جداً وهو موضوع السرقة الأدبية وحقوق المؤلف.

-كان إهداء الكتب من أفضل الهدايا التي يمكن إهداءها لمقام العظماء. وفي ذلك ما يؤكد قيمة العلم العظيمة وتقديره في هذا المجتمع.

-بلغ المجتمع الغرناطي في هذا العصر مبلغاً عظيماً من التحضر والثراء والبذخ مما انعكس على أسلوب الحياة والعادات والتقاليد في مختلف المناسبات حيث لاحظنا في شعر ابن الخطيب الكثير من الإشارات الحضارية لأنواع الملابس الرجالية. والنسائية، وأنواع الأقمشة، والعطور، وأدوات الزينة، كذلك أنواع الموائد والأغذية وكيفية تقديمها كما أشار إلى كثير من العادات الحضارية الحسنة مثل تبادل الهدايا...وغيرها،

وقد أشار أيضاً إلى بعض أنواع التسلية والترفيه كالموسيقى والغناء وفي هذا المجال لاحظنا ميل الأندلسيين إلى الآلات الموسيقية الوترية فكان العود هو أكثرها وروداً في الشعر، كذلك مجالس الأنس، والحدائق والمتنزهات. وألعاب الفروسية، ... وغيرها.

-عبر ابن الخطيب بشعره عن التحضر السياسي في مملكة غرناطة ومن مظاهر ذلك الالتزام بلون معين وهو اللون الأحمر في جميع الشارات السلطانية مثل الأعلام، والرايات، والقباب وحتى الورق الذين يكتبون عليه في ديوان الإنشاء.

-كانت سياسة الحكام في غرناطة من أهم عوامل التقدم الحضاري حيث لاحظنا الاهتمام بالعلم والعلماء ورعايتهم، وتقليد المناصب العليا في الدولة لأهل العلم والأدب، وإرسالهم في مهام السفارة إلى الدول الأخرى. حيث كان ذلك من أهم أسباب نجاح تلك السفارات.

-كانت خطة الكتابة من أهم الوظائف المرموقة في مملكة غرناطة. ونظراً لتلك الأهمية فقد تعددت أنواعها، وفئات كتابها حسب المهام التي تولوا الكتابة فيها وقد أشار ابن الخطيب إلى بعض هؤلاء الكتاب في ذلك الوقت. وذلك يعكس الازدهار العلمي في مملكة غرناطة.

-ظهرت في شعر ابن الخطيب صورة الجيوش المنظمة والأساطيل البحرية الضخمة والحرب المعدة المدروسة خططها، فلم تكن حروباً في شكل غزوات وإنما امتازت بالتريث والإعداد، والهدف النبيل الذي يرمي إلى الدفاع عن حرمة الأرض والدين وليس سفك الدماء.

-كان الاهتمام بالنظرة الواقعية وتسجيل التاريخ الحي وتصوير أحداثه من أبرز المضامين الحضارية في شعر ابن الخطيب.

-كان من تأثير الحضارة أن الاهتمام بالنقش والتزيين ظهر حتى على الأسلحة والملابس الحربية.

-إن الإحسان واللباقة في مخاطبة الملوك والقدرة على إقناعهم وجذب اهتمامهم، هو من أوضح مظاهر التحضر السياسي في شعر ابن الخطيب.

-كان شعر ابن الخطيب خير وثيقة لأبرز منجزات سلاطين "بني نصر" المعمارية والملاحظ في هذه المنشآت غلبة الطابع المدني على الديني حيث برزت القصور بكل ما تحتويه من فخامة وأبهة، في حين لم نلحظ أي وصفٍ للمساجد أو الحصون أو غيرها.

-اقترن وصف المباني والقصور الجميلة غالباً بوصف الطبيعة، كما أن أغلب هذه الأوصاف جاءت في إطار الاهتمام بأمجاد الممدوح ومناصرته في ثنايا القصائد حيناً، وفي مقطعات مستقلة حيناً آخر.

-كان الخط العربي من أبرز وسائل الزخرفة في العمران الغرناطي، يدل على ذلك نقش الكثير من القصائد الشعرية الجميلة على هذه المنشآت وهذا في حد ذاته تقدير لشأن هذا الفن الرفيع وتخليد له.

-تجلت الفتنة بالطبيعة الأندلسية الخلابة التي امتزجت بالعمران الفخم الجميل في أفكار الشاعر ومعانيه وصوره حتى أنها ظهرت في بعض الموضوعات التي لا يتوقع دخولها في مثلها كالحروب والرثاء.

-شاركت الطبيعة الشاعر في كل ما يختلج في نفسه من مشاعر فتارة كانت مرحة طروباً وتارة أخرى كئيبة حزينة.

-ظهرت آثار الحضارة بوضوح في مقدمات قصائد ابن الخطيب حتى في المقدمات التقليدية – الطللية – التي كثيراً ما عدل عنها واتجه إلى التقديم بأسلوب يتناسب مع البيئة المتحضرة التي عاش بها، كمقدمة البكاء على الشباب، ووصف الطبيعة والخمر، أو الاعتماد على المعاني الإسلامية في كثير من هذه المقدمات.

-ظهر التحضر في خواتيم قصائد ابن الخطيب في عدة مظاهر منها: الدعاء للممدوح والتفاخر بصدق قول الشاعر، وبنظمه الذي تفوق به على سائر الشعراء وغيرها.

-كان غرض الوصف بشتى أنواعه من أكثر الموضوعات التي اتخذت المقطوعة قالباً لها، وهي في مجملها أوصاف حضارية تتصل بالعمران، وبعض عناصر الطبيعة الصامتة والمتحركة، وأشياء مادية أخرى كُلف ابن الخطيب بوصفها لتنقش هذه الأوصاف عليها.

-كانت الرقة في الألفاظ وسهولتها من أوضح مظاهر التأثير الحضاري في ألفاظ الشعر.

-نلحظ بكثرة دوران الألفاظ الحضارية في شعر ابن الخطيب المتعلقة بالمجتمع والترف الذي عمّ به، والطبيعة، والعمران، والمنطق والفلسفة، والكتابة التي تتقدم هذه الألفاظ في كثرة استعمالها.

-كان من تأثير الحضارة التجاوز في استعمال بعض ألفاظ العامة في شعر ابن الخطيب، واللجوء إلى المعرّب والدخيل من الألفاظ.

-ظهر تأثير الحضارة في تراكيب ابن الخطيب الشعرية، حيث اتسمت بالرقة والسهولة حتى في الأغراض التي تستدعي الفخامة والقوة في الأسلوب. كذلك الاهتمام الظاهر بالجانب الشكلي وذلك باستعمال البديع بكافة أشكاله المعنوية واللفظية.

-شكل التناص ولاسيما التاريخي منه رافداً قوياً للأفكار والمعاني عند ابن الخطيب.

-ظهر في الشعر بعض أنواع المسليات مثل الألغاز والأحاجي، أو التصحيف، وهي موضوعات تتسم بالرياضة العقلية، وشحذ الذهن وإعمال التفكير إلا أنها تبتعد عن روح الشعر الأصيل.

-يلاحظ استخدام بعض التراكيب العامية، وذلك نوع من التساهل والتجاوز في اللغة كان نتيجة للتأثر بالحضارة.

-شكّل العلم والثقافة والفكر مصدراً من أبرز المصادر التي صاغ منها ابن الخطيب صوره إلى جانب الطبيعة الخلابة، ومظاهر الترف والحضارة المادية. التي كانت مصدراً لكثير من الصور المتحضرة.

-كان التشبيه هو اللون البياني الغالب على صور ابن الخطيب المستمدة من مصدر العلم والثقافة في حين غلبت الاستعارة على الصور المستمدة من مصدر الطبيعة التي كانت من أغنى لوحات القصيدة بالصور الفنية الجمالية.

-كانت الصور المتحضرة في شعر ابن الخطيب على اختلاف مصادرها، لوحات أساسية لم يأت بها تأكيداً أو حشواً بل كانت تؤدي فكره، وتقرب المعنى وتفسره.

-كشفت صور ابن الخطيب عن جوانب كثيرة في المجتمع الغرناطي وما نعم به من بذخ وثراء.

-ظهر أثر التحضر واضحاً في إيقاع الشعر حيث لاحظنا شيوع الأوزان القصار السهلة الخفيفة ومجزوءاتها، إلى جانب مجزوءات البحور الطوال بسبب ازدهار الغناء في ذلك العصر.

-إن التعبير عن موضوعات حضارية لا يقتضي بالضرورة النظم في أوزان خفيفة أو مجزوءة فقط، فقد لاحظنا أن بحر الطويل والكامل كانا من أكثر البحور التي نظم فيها ابن الخطيب أوصافاً حضارية لأنها بكثرة تفاعيلها تمكن الشاعر من استيفاء جزئيات الموصوف.

-لاحظنا خروج ابن الخطيب عن الأوزان الخليلية المعروفة، وقد يكون ذلك نوع من التأثر بالحضارة حيث يحاول الشاعر التجديد والتنويع في سبيل الخروج عن المألوف.

-ان القوافي التي أكثر ابن الخطيب من استعمالها جميعها أحرف مجهوره، وتصدر من المواضع الأمامية للجهاز الصوتي، حيث مال ابن الخطيب إلى استعمالها في تصوير مظاهر الحضارة المتبانيه، فكانت قوافيه رشيقة مرنه ذات موسيقى خفيفة عذبة الوقع على النفس والسمع.

-الملاحظ غلبة الروي المطلق على المقيد، وإن كان من الملاحظ شيوع النظم بالروي المقيد وذلك لالتئامه مع الغناء الذي شاع في ذلك العصر لأنه أيسر في التلحين.

-من مظاهر التجديد في القافية نظم الشعر(المشطر) ومنه المخمسات والمثمنات كذلك الموشحات التي تعد نتاجاً للحضارة بتعدد أوزانها وقوافيها وخروجها عن تقاليد القصيدة العربية التقليدية.

-نلحظ الاهتمام بالإيقاع المتغير الذي قام على أنماط كثيرة من الظواهر البديعية والتأثيرات النغمية كان أبرزها التكرير والجناس. والتصريع والترصيع، وكل ذلك يبدو بتأثير الحضارة التي أضفت لمسات من التأنق والجمال على كل مظاهر الحياة حتى الأدبية منها.

هذا وأرجو أن تكون دراسة مظاهر الحضارة في شعر ابن الخطيب دافعة إلى تناول بعض هذه المظاهر الحضارية وإفرادها بدراسة تحليلة مفصلة وتقسيمها أبواباً مختلفة، ثم توضيح مدى تأثر الشعر من ناحيتي المضمون والشكل بمثل هذه المظاهر. في محاولة للتعرف الدقيق على معالم الحياة وتأثيرها بالشعر بعيداً عن المسلمات الأدبية.

كما أرجو أن أكون قد وفقت في خدمة اللغة العربية وفي إثراء المكتبة العربية وإضافة ما هو قيم إليها ولو كان يسيراً.

وآخر دعوانا آن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس

المصـــادر والمـــراجع

فهرس المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

❖ ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (٦٥٨هـ).

١ - تحفة القادم.

تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢ - الحُلّة السِّيراء.

تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

٣ - المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي.

الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

❖ ابن الأثير: عز الدين علي بن أحمد بن أبي الكرم (٦٣٠هـ).

٤ - الكامل في التاريخ.

طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

❖ ابن الأثير: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد (٦٣٧هـ).

٥ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.

تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

❖ أحمد: محمد فتوح.

٦ - الروافد المستطرفة بين جدليات الإبداع والتلقي.

الطبعة الأولى، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، ١٩٩٨م.

❖ ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (٨٠٧هـ).

٧ - نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان.

تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٦٧م.

٨ - النفحة النسرينية واللمحة المرينية.

تحقيق: عدنان محمد آل طعمة، دار سعد الدين، دمشق ١٩٩٢م.

❖ أرسلان: شكيب.

٩ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية.

دار المعارف، القاهرة، (د . ت).

❖ **إسماعيل: عز الدين.**

١٠ - الأدب وفنونه.

الطبعة السابعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦م.

١١ - الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة.

دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٢ - التفسير النفسي للأدب.

الطبعة الرابعة، مكتبة غريب، القاهرة، (د. ت).

❖ **ابن أبي الإصبع المصري.**

١٣ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن.

تحقيق: حنفي محمد شرف، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث القاهرة، ١٩٦٣م.

❖ **الأصفهاني: أبو الفرج.**

١٤ - الأغاني.

تقديم: علي مهنا، الطبعة الرابعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

❖ **أمين: بكري شيخ.**

١٥ - البلاغة العربية في ثوبها الجديد. (علم البديع).

الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.

❖ **الأمين: عز الدين.**

١٦ - نظرية الفن المتجدد.

الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٤م.

❖ **أنيس إبراهيم.**

١٧ - الأصوات اللغوية.

الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م.

١٨ - دلالة الألفاظ.

طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م.

١٩ - موسيقى الشعر.

الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ١٩٨٨م.

❖ **أ . ي . وينيسنك.**

٢٠ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي.

مكتبة بريل، ليدن، ١٩٣٦م.

❖ **بالنثيا: جنثالث:**

٢١ - تاريخ الفكر الأندلسي.

ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د ، ت).

❖ **البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي (٢٨٤هـ).**

٢٢ - ديوانه.

تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.

❖ **البرقوقي: عبد الرحمن.**

٢٣ - حضارة العرب في الأندلس.

الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

❖ **ابن بسام الشنتريني: أبو الحسن علي (٥٤٢هـ):**

٢٤ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا -تونس، ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م.

❖ **بشر: كمال.**

٢٥ - علم اللغة العام (الأصوات).

الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩م.

❖ **البغدادي: إسماعيل باشا.**

٢٦ - هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين.

منشورات مكتبة المثني، بغداد، ١٩٥٥م.

❖ **البكري: أبو عبيده عبد الله بن عبد العزيز (٤٧٨هـ).**

٢٧ - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال.

تحقيق: قصي الحسين، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال بيروت، ٢٠٠٣م.

❖ **الأمير ابن بلكّين: عبد الله بن بلكين بن باديس.**

٢٨ - التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة.

تحقيق: علي عمر، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.

❖ **الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة.**

٢٩ - سنن الترمذي.

تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

❖ **التطاوي: عبد الله.**

٣٠ - الشاعر مؤرخاً.

دار غريب، القاهرة، (د . ت).

❖ **تقي الدين: السيد.**

٣١ - الأدب والحضارة.

طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، (د . ت).

❖ **التنبكتي: أحمد بابا (٩٦٣هـ).**

٣٢ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج.

إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، الطبعة الأولى، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، ليبيا، ١٣٩٨هـ -١٩٨٩م.

❖ **التوخي: أبو يعلى عبد الباقي.**

٣٣ - كتاب القوافي.

تحقيق: عمر الأسعد ومحي الدين رمضان، الطبعة الأولى، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠م.

❖ **ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨هـ).**

٣٤ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم.

تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، (د . ت).

❖ **الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (٤٢٩هـ)**

٣٥ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

❖ **الجاحظ/ أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ).**

٣٦ - البيان والتبيين.

تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٣٧ - الحيوان.

تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

❖ **جبران: محمد مسعود.**

٣٨ - فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب.

الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

❖ **الجبوري: جميل عائد علي.**

٣٩ - دراسات في الحضارة الإسلامية.

الطبعة الأولى، جامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ -١٩٩١م.

❖ **ابن جبير: أبو الحسن محمد.**

٤٠ - الرحلة.

طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م..

❖ **الجرجاني: القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز (٣٦٦هـ).**

٤١ - الوساطة بين المتنبي وخصومه.

تحقيق: أحمد عارف الزين، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣١هـ.

❖ **الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (٤٧٤هـ).**

٤٢ - أسرار البلاغة.

تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٣ - دلائل الإعجاز.

قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

❖ **الجرجاني: علي بن محمد بن علي (٨١٦هـ).**

٤٤ - كتاب التعريفات.

تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

❖ **جلال: ماهر.**

٤٥ - جرس الألفاظ ودلالتها.

دار الحرية، بغداد، ١٩٨٠م.

❖**جهامي: جيرار.**

٤٦ - موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب.

الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت/ ١٩٩٨م.

❖ **الجواليقي: أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد (٥٤٠هـ).**

٤٧ - المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم.

تحقيق: ف. عبد الرحيم، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

❖ **الحجي: عبد الرحمن علي.**

٤٨ - التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة.

الطبعة الخامسة، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م.

❖ **حسان: تمام.**

٤٩ - اللغة العربية معناها ومبناها.

دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٤م.

❖ **حسن: حسن علي ومحمد: التوم طالب.**

٥٠ - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

الطبعة الأولى، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

❖ **الحطيئة: جرول بن أوس (نحو سنة ٤٥هـ).**

٥١ - ديوانه.

برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق: محمد أمين طه، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٧م.

❖ **حمدان: ابتسام.**

٥٢ - الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي.

الطبعة الأولى، دار القلم، حلب، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

❖ **الحموي: ابن حجة.**

٥٣ - خزانة الأدب ونهاية الأرب.

مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٣هـ.

❖ **الحميدي: محمد بن أبي نصر فتوح (٤٨٨هـ).**

٥٤ -جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس.

قدم له وشرحه: صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

❖ **الحميري: أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر (٤٤٠هـ).**

٥٥ - البديع في وصف الربيع.

تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الطبعة الأولى، دار المدني، جدة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

❖ **الحميري: محمد بن عبد الله بن عبد المنعم.**

٥٦ - صفة جزيرة الأندلس منتخبه من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار.

صححه وعلق عليه: ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

❖ **ابن خاقان: الفتح بن محمد القيسي الإشبيلي (٥٢٩هـ).**

٥٧ - قلائد العقيان ومحاسن الأعيان.

تحقيق: حسين يوسف خريوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٩ – ١٩٨٩م.

❖ **خضر: حازم عبد الله.**

٥٨ - وصف الحيوان في الشعر الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين.

دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.

❖ **الخطابي: محمد العربي.**

٥٩ - الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية.

الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.

❖ **الخطيب التبريزي: يحيى بن علي بن محمد بن الحسن (٥٠٢هـ).**

٦٠ - الكافي في العروض والقوافي.

شرح وتعليق: محمد أحمد قاسم، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

❖ **ابن الخطيب السلماني: لسان الدين محمد بن عبد الله (٧٧٦هـ).**

٦١ - الإحاطة في أخبار غرناطة.

تحقيق محمد عبد الله عنان، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م.

٦٢ - أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام.

تحقيق: سيد حسن، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.

٦٣ - أوصاف الناس في التواريخ والصلات.

تحقيق: محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لطبع التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، الرباط (د. ت).

٦٤ - ديوانه.

تحقيق: محمد مفتاح، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.

٦٥ - ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب.

تحقيق محمد عبد الله عنان، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١م.

٦٦ - الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه في الأندلس من شعراء المائة الثامنة.

تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.

٦٧ - كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

تحقيق: محمد كمال شبانة، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦٨ - اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

تحقيق محمد زينهم، الطبعة الأولى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٦٩ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار.

تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٧٠ - نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

-السفر الثاني:

تحقيق: أحمد مختار العبادي، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، طبعة دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

-السفر الثالث:

تقديم وتحقيق: السعدية فاغية، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

❖ **الخطيب القزويني: جلال الدين محمد.**

٧١ - الإيضاح في علوم البلاغة.

دار الجيل، بيروت، (د . ت).

❖ **ابن خفاجة: أبو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح (٥٣٣هـ).**

٧٢ - ديوانه.

تحقيق: السيد مصطفى غازي، الطبعة الثانية، دار المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٩.

❖ **الخفاجي: شهاب الدين أحمد المصري (١٠٦٩هـ).**

٧٣ - معجم الألفاظ والتراكيب المولدة في شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل.

تحقيق: قصي الحسين، الطبعة الأولى، دار الشمال، لبنان، ١٩٨٧م

❖ **ابن خلدون: عبد الرحمن (٨٠٨هـ).**

٧٤ - التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً.

تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م.

٧٥ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٧٦ - المقدمة.

دار الفكر، بيروت، (د. ت)

❖ **الخنساء: تماضر بنت عمرو بن الحارث.**

٧٧ - ديوانها.

تحقيق: أنور عليان أبو سويلم، طبعة دار عمار، عمّان، ١٩٨٨م.

❖ **الخوارزمي: محمد بن يوسف.**

٧٨ - مفاتيح العلوم.

الطبعة الثانية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

❖ **الداية: محمد رضوان.**

٧٩ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس.

الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.

❖ **الدماميني: بدر الدين محمد بن أبي بكر.**

٨٠ - العيون الغامزة على خبايا الرامزة.

تحقيق : الحساني حسن عبد الله ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

❖ **أبو ذياب: خليل إبراهيم.**

٨١ - الصورة الاستدارية في الشعر العربي.

الطبعة الأولى، دار عمار، عمان، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.

❖ **الراغب الأصفهاني: أبو القاسم حسين بن محمد.**

٨٢ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء.

دار ومكتبة الحياة، بيروت، (د . ت).

❖ **الرافعي: مصطفى صادق.**

٨٣ - تاريخ آداب العرب.

الطبعة الثانية، دار العربي، بيروت، ١٩٧٤م.

❖ **رحيم: مقداد.**

٨٤ - النوريات في الشعر الأندلسي.

الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

❖ **ابن رشيق: أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني.**

٨٥ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.

شرح وتقديم: صلاح الدين الهواري، هدى عودة، الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

❖ **الرضي الاستراباذي: محمد بن الحسن.**

٨٦ - شرح شافية ابن الحاجب.

دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.

❖ **الركابي: جودت.**

٨٧ - الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.

الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٨٨ - في الأدب الأندلسي.

دار المعارف، القاهرة، (د . ت).

❖ **الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ).**

٨٩ - معاني الحروف.

تحقيق: عبد الفتاح اسماعيل شلبي، دار ومكتبة الهلال – بيروت، دار الشروق - جدة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

❖ **أبو ريان: محمد علي.**

٩٠ - فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة.

الطبعة الخامسة، دار المعرفة الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٤م.

❖ **الزجالي القرطبي أبا يحيى عبيد الله.**

٩١ - أمثال العوام في الأندلس ، مستخرجه من كتابه : ري الأوام ، ومرعي السوام ، في نكت الخواص والعوام .

حققها وشرحها : د. محمد بن شريفة ، الطبعة الأولى ، منشورات وزارة الثقافة ، فاس ، المغرب ، ١٩٧١م .

❖ **الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد.**

٩٢ - الأعلام.

الطبعة الثانية عشرة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧م.

❖ **زكي: عبد الرحمن.**

٩٣ - غرناطة وآثارها الفاتنة.

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١م.

❖ **زيدان: جرجي.**

٩٤ - تاريخ التمدن الإسلامي.

طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، (د . ت).

❖ **أبو زيد: علي إبراهيم.**

٩٥ - الأثر الحضاري في شعر عدي بن الرقاع العاملي.

الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، (د . ت).

❖ **السائح: الحسن.**

٩٦ - الحضارة الإسلامية في المغرب.

الطبعة الثانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.

❖ **سالم: السيد عبد العزيز.**

٩٧ - تاريخ مدينة المرية الإسلامية.

الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

٩٨ - في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس.

مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٥م.

٩٩ - المساجد والقصور في الأندلس.

مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٨م.

❖ **السجلماسي: أبو محمد القاسم.**

١٠٠ - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع.

تحقيق: علال الغازي، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرباط، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

❖ **السخاوي: محمد بن عبد الرحمن.**

١٠١ - الانتهاض في ختم الشفا لعياض.

تحقيق: عبد اللطيف محمد الجيلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠١م.

❖ **ابن سعيد الأندلسي: أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك (٦٨٥هـ).**

١٠٢ - المغرب في خلى المغرب.

تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.

❖ **ابن سنان الخفاجي: أبو محمد عبد الله بن محمد (٤٦٦هـ).**

١٠٣ - سر الفصاحة.

تحقيق: علي فودة، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م.

❖ **ابن سهل الأندلسي: إبراهيم بن سهل (٦٥٩هـ).**

١٠٤ - ديوانه.

قدم له: إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

❖ **السيد: عز الدين علي.**

١٠٥ - التكرير بين المثير والتأثير.

الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

❖ **ابن سيده الأندلسي: علي بن اسماعيل ت (٤٥٨هـ).**

١٠٦ - المخصص.

طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (د . ت).

❖ **السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر.**

١٠٧ - مناهل الصّفافي تخريج أحاديث الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض.

تحقيق: سمير القاضي، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨م.

❖ **الشايب: أحمد.**

١٠٨ - الأسلوب.

الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٠٩ - أصول النقد الأدبي.

الطبعة العاشرة – مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

❖ **شقور: عبد السلام المختار.**

١١٠ - الشعر المغربي في العصر المريني. قضاياه وظواهره.

الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٦م.

❖ **الشكعة: مصطفى.**

١١١ - الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه.

الطبعة الثامنة، دار العلم للملايين، بيروت، (د . ت).

❖ **شلبي: أحمد.**

١١٢ - موسوعة النظم والحضارة الإسلامية.

مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م.

❖ **شلبي: سعد اسماعيل.**

١١٣ - البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف.

دار نهضة مصر، القاهرة، (د . ت).

❖ **الشمسان: إبراهيم.**

١١٤ - الجملة الشرطية عند النحاة العرب.

الطبعة الأولى، مطابع الدجوي، القاهرة، ١٩٨١م.

❖ **ابن شهيد الأندلسي: أحمد بن عبد الملك بن مروان (٣٩٩هـ).**

١١٥ - التهذيب بمحكم الترتيب.

تحقيق: علي حسين البواب، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

❖ **الشوكاني: محمد بن علي (١٢٥٠هـ).**

١١٦ - البدر الطالع بمحاسن مَنْ بَعْد القرن السابع.

دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د . ت).

❖ **ابن صاحب الصلاة: عبد الملك: (توفى في نهاية القرن السادس الهجري).**

١١٧ - تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.

- السفر الثاني.

تحقيق: عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.

❖ **الضَّبي: أحمد بن يحيى بن أحمد (٥٩٩هـ).**

١١٨ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس.

تحقيق: روحية السويفي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

❖ **ضيف: شوقي.**

١١٩ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي.

الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة.

١٢٠ - في النقد الأدبي.

الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهر، (د . ت).

❖ **طاهر: كاظم شمهود.**

١٢١ - الأندلس والفن الإسلامي.

الطبعة الأولى، دار أزمنة – عمان، درا ألواح – مدريد، ٢٠٠١م.

❖ **ابن طباطبا: أبو الحسن محمد بن أحمد.**

١٢٢ - عيار الشعر.

تحقيق: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د . ت).

❖ **ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا.**

١٢٣ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية.

تحقيق: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د . ت).

❖ **الطوخي: أحمد محمد.**

١٢٤ - مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر.

مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٧م.

❖ **الطيب: عبد الله.**

١٢٥ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها.

الطبعة الثانية، الدار السودانية، الخرطوم، ١٩٧٠م.

❖ **عارف: نصر محمد.**

١٢٦ - الحضارة. الثقافة. المدينة. دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم.

الطبعة الثانية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرياض ١٤٢٥هـ -١٩٩٥م.

❖ **عبد الجليل: عبد القادر.**

١٢٧ - هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي.

الطبعة الأولى، دار صفاء، الأردن، ١٩٩٨م.

❖ **عبد الرازق: أحمد.**

١٢٨ - الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (العلوم العقلية).

الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت).

❖ **عبد العظيم: محمد.**

١٢٩ - في ماهية النص الشعري.

الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٤م.

❖ **عبود: عبد الغني.**

١٣٠ - الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة.

الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م.

❖ **العربي: إسماعيل.**

١٣١ - عواصم بني زيري ملوك (أشير -القلعة -بجاية -غرناطة).

دار الرائد العربي، بيروت، (د . ت).

❖ **العسقلاني: ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢هـ).**

١٣٢ - الإصابة في تمييز الصحابة.

تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.

١٣٣ - إنباء الغمر بأبناء العمر.

الطبعة الأولى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

١٣٤ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، (د . ت).

١٣٥ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

تعليق: عبد الرحمن ناصر البراك، الطبعة الأولى، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

❖ **العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (٣٩٥هـ).**

١٣٦ - أسماء بقية الأشياء.

تحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، القاهرة، (د . ت).

١٣٧ - كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر.

تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ت).

❖ **عصفور: جابر.**

١٣٨ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي.

دار المعارف، القاهرة، (د . ت).

١٣٩ - مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي.

الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣م.

❖ **علي: محمد كرد.**

١٤٠ - الإسلام والحضارة العربية.

دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٣٤م.

❖ **ابن العماد الحنبلي: شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد (١٠٨٩هـ).**

١٤١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

❖ **عنان محمد عبد الله.**

١٤٢ - الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال.

الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦١م.

١٤٣ - لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري.

الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩١هـ -١٩٧١م.

❖ **عيسى: جمال.**

١٤٤ - صورة الحضارة العباسية في شعر القرن الثالث الهجري.

دار الأرقم، الزقازيق، مصر، (د . ت).

❖ **ابن غازي: أبو عبد الله محمد.**

١٤٥ - الروض الهتون في أخبار مكناسةالزيتون.

المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م.

❖ **الغذامي: عبد الله.**

١٤٦ - الصوت القديم الجديد. دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

❖ **غومس: أميلو غرسيه.**

١٤٧ - مع شعراء الأندلس والمتنبي - سير ودراسات.

ترجمة: الطاهر أحمد مكي، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦م.

❖ **ابن فارس: أحمد.**

١٤٨ - رسالة النيروز.

تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

❖ **فرحات: يوسف شكري.**

١٤٩ - غرناطة في ظل بني الأحمر.

الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢م.

❖ **أبو الفضل: محمد أحمد.**

١٥٠ - دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس.

دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٦م.

❖ **الفوال: صلاح.**

١٥١ - دراسة علم الاجتماع البدوي.

مكتبة غريب، القاهرة، (د . ت).

❖ **الفيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)**

١٥٢ - القاموس المحيط.

إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

❖ **ابن القاضي: أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (٩٦٠هـ).**

١٥٣ - درة الحجال في أسماء الرجال.

تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، الطبعة الأولى، المكتبة العتيقة –تونس، دار التراث -القاهرة، ١٣٩١هـ -١٩٧١م.

❖ **قدامة بن جعفر: أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد (٣٣٧هـ).**

١٥٤ - نقد الشعر.

تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٠م.

❖ **القرطاجني: أبو الحسن حازم (٦٨٤هـ).**

١٥٥ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م.

❖ **القرطبي: أبو مروان حيان بن خلف بن حيان (٤٦٩هـ).**

١٥٦ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس.

تقديم وتحقيق: محمود علي مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

❖ **قصبجي: عصام.**

١٥٧ - لسان الدين بن الخطيب.

طبعة مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية في جامعة حلب، ١٩٩٤م.

❖ **قطب: محمد.**

١٥٨ - دراسات قرآنية.

الطبعة السادسة، دار الشروق، القاهرة –بيروت، ١٩٩١م.

❖ **القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ).**

١٥٩ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة (د . ت).

❖ **قميحة: مفيد.**

١٦٠ - الاتجاه الإنساني في الشعر المعاصر.

الطبعة الأولى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.

❖ **ابن القوطية: أبو بكر محمد بن عمر (٣٦٧هـ).**

١٦١ - تاريخ افتتاح الأندلس.

تحقيق: إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري -القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.

❖ **ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب.**

١٦٢ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

تحقيق: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥م.

❖ **الكتبي: محمد بن شاكر.**

١٦٣ - فوات الوفيات والذيل عليها.

دار صادر، بيروت، (د. ت).

❖ **كحالة: عمر رضا.**

١٦٤ - معجم المؤلفين.

الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

❖ **كمال الدين: حازم علي.**

١٦٥ - القافية، دراسة صوتية جديدة.

مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

❖ **ماجد: عبد المنعم.**

١٦٦ - تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

الطبعة السابعة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.

❖ **مؤنس: حسين.**

١٦٧ - الحضارة

طبعة المجلس الوطني للثقافةوالفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٦م.

❖ **المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ).**

١٦٨ -الكامل في اللغة والأدب.

تحقيق: تغاريد بيضون ونعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

❖ **مجموعة من العلماء:**

١٦٩ - دائرة المعارف الإسلامية.

ترجمة: أحمد الشنتاوي وآخرون، طبعة دار المعرفة، بيروت، (د . ت).

❖ **مجموعة من العلماء.**

١٧٠ - رسائل في حكم الاحتفال بالمولد النبوي.

الطبعة الأولى، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

❖ **مجهول: مجاهد من المقاومة الإسلامية في غرناطة.**

١٧١ - نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر.

تحقيق: محمد رضوان الداية، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م.

تحقيق: الفريد البستاني، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

❖ **ابن مخلوف: محمد بن محمد.**

١٧٢ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.

المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.

❖ **المراكشي: العباس بن إبراهيم.**

١٧٣ - الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام.

المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٦م.

❖ **المراكشي: عبد الواحد.**

١٧٤ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية.

الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

❖ **المراكشي: ابن عذاري (توفى في أواخر القرن السابع الهجري).**

١٧٥ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

-قسم الموحدين.

تحقيق. محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، ومحمد زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت – دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

❖ **الإمام مسلم.**

١٧٦ - صحيح مسلم بشرح النووي.

طبعة دار الفكر، بيروت، (د ت).

❖ **مصطفى: إبراهيم، أحمد الزيات، وآخرون.**

١٧٧ - المعجم الوسيط.

الطبعة الثانية، دار الدعوة، استانبول، (د . ت)

❖ **مظهر: جلال.**

١٧٨ - حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي.

طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، (د . ت).

❖ **المعرّي: أبو العلاء.**

١٧٩ - سقط الزند.

شرح: أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

❖ **ابن معصوم المدني: علي (١١٢هـ).**

١٨٠ - أنوار الربيع في أنواع البديع.

تحقيق: شاكر هادي شاكر، الطبعة الأولى، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨هـ.

❖ **المقّري: أحمد بن محمد (١٠٤١هـ).**

١٨١ - أزهار الرياض في أخبار عياض.

تحقيق: عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، طبعة صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط، ٢٠٠٤م.

١٨٢ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م..

❖ **مندور: محمد.**

١٨٣ - في الميزان الجديد.

الطبعة الثالثة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د . ت)

❖ **مندور: مصطفى.**

١٨٤ - اللغة والحضارة.

طبعة منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٤م

❖ **ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (٧١١هـ).**

١٨٥ - لسان العرب.

الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

❖ **موافي: عثمان.**

١٨٦ -في نظرية الأدب. من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم.

طبعة مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٥م.

❖ **الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد.**

١٨٧ - مجمع الأمثال.

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

❖ **النابغة الذبياني.**

١٨٨ - ديوانه.

تقديم: د.علي أبو ملحم، الطبعة الأولى، دار مكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠١م.

❖ **ناجي: مجيد عبد الحميد.**

١٨٩ - الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية.

الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤م.

❖ **الناصري: أحمد بن خالد.**

١٩٠ - الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى.

دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م.

❖ **النوش: حسن أحمد.**

١٩١ - التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي.

الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

❖ **نوفل: سيد.**

١٩٢ - شعر الطبيعة في الأدب العربي.

الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، (د . ت).

❖ **الهاشمي: محمد عادل.**

١٩٣ - الإنسان في الأدب الإسلامي.

طبعة مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، (د . ت)

❖ **هدارة: محمد مصطفى.**

١٩٤ - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري.

الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

❖ **ابن هذيل الأندلسي: علي بن عبد الرحمن (٨٤٥هـ).**

١٩٥ - تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس.

تحقيق: عبد الإله نبهان ومحمد فاتح زغل، الطبعة الأولى، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

❖ **الهرامة: عبد الحميد عبد الله.**

١٩٦ - القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، الظواهر والقضايا والأبنية.

الطبعة الأولى، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٦.

❖ **هلال: محمد غنيمي.**

١٩٧ - النقد الأدبي الحديث.

دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د . ت).

❖ **هيكل: أحمد.**

١٩٨ - الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة.

طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، (د . ت).

❖ **وافي: علي عبد الواحد.**

١٩٩ - اللغة والمجتمع.

الطبعة الرابعة، شركة مكتبات عكاظ، جدة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

❖ **ويليك" رينيه. وأوستين وارن.**

٢٠٠ - نظرية الأدب.

ترجمة: محي الدين صبحي، طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٩٧٢م.

❖ ❖ ❖

الدوريات والمجلات:

١ -حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية.

الكويت، الرسالة: ١٤٠، الحولية العشرون، ١٩٩٩ -٢٠٠٠م.

٢ -مجلة الاجتهاد.

العدد: ٧ -السنة الثانية، ١٩٩٠م.

٣ -مجلة بحوث جامعة حلب.

العدد ٢١ ، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

٤ -مجلة بحوث ودراسات في التاريخ العربي.

طبعة دار شمال، دمشق، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٥ -مجلة البيّنة.

العدد الأول -السنة الأولى، مايو ١٩٦٢م.

٦ -مجلة تاريخ العرب والعالم.

العددان ١١٣ -١١٤ -السنة العاشرة، مارس -أبريل ١٩٨٨م.

٧ -المجلة التاريخية المصرية.

المجلدان: ٢٨ -٢٩ ، السنة ١٩٨١ – ١٩٨٢م.

٨ -مجلة الثقافة.

العدد١٠٠، السنة الثامنة عشر، الجزائر، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

٩ -مجلة الدّارة.

العدد: ٢، السنة العاشرة، سبتمبر ١٩٨٤م.

١٠ -مجلة دراسات أندلسية.

العدد: ١٤، يناير ١٩٩٥م.

١١ -مجلة دعوة الحق.

العدد ٢٧٧ -ديسمبر ١٩٨٨م.

١٢ -مجلة عالم الفكر.

العدد: ٢، المجلد السادس عشر، ١٩٨٥م.

١٣ -مجلة الفيصل.

العدد ٢٧٩ -ديسمبر، يناير، ١٩٩٩ -٢٠٠٠م

العدد ٣٢٢ - يونيو، ٢٠٠٣م.

١٤ -مجلة الكتاب المصرية.

الجزء: ٧، المجلد: الحادي عشر، ١٩٥٢م

١٥ -مجلة مجمع اللغة العربية.

القاهرة، الجزء: ٨٠، القسم الأول، ١٤١٦ -نوفمبر ١٩٩٦م.

١٦ -مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد.

-العددان: ١ -٢، ١٩٥٧م.

-المجلدان ٩ -١٠ ـ ١٩٦١ – ١٩٦٢م.

-المجلد ١٥ -١٩٧٠م.

١٧ - مجلة معهد المخطوطات العربية.

جامعة الدول العربية، المجلد: ٣ ، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧م.

١٨ -مجلة الموقف الأدبي.

العدد١٨٩ -كانون الثاني، ١٩٧٨.

١٩ -ندوة الأدب والبناء الحضاري.

منشورات كلية الآداب، وجده، المغرب، ٢٠٠٠م.

٢٠ - ندوة الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات.

الطبعة الأولى، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٩٩٦. القسم الأول: التاريخ وفلسفته، القسم الثالث: الحضارة والعمارة والفنون، القسم الرابع: اللغة والأدب.

٢١ -ندوة البحث في التراث الغرناطي، حصيلة وآفاق.

منشورات كلية الآداب وجده، المغرب، ١٩٩٨م.

٢٢ -ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط.

المجلد الثاني، ١٩٨٣م.

٢٣ -ندوة الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ.

دمشق، ديسمبر، ١٩٩٠م.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- المقدمة.	١
- التمهيد.	٥
أولاً : ترجمة الشاعر.	٦
ثانيا : الحضارة " المفهوم والمصطلح ".	١٨
ثالثا : الحضارة الأندلسية وعوامل نهضتها في القرن الثامن الهجري	٢٧
الفصل الأول **"العوامل المؤثرة في شعر لسان الدين بن الخطيب"**	٤٠ -٧٢
❖ المبحث الأول: العوامل البيئية:	٤١
أ - البيئة السياسية.	٤٢
ب - البيئة الاجتماعية.	٥٠
جـ - البيئة الثقافية "الفكرية".	٥١
❖ المبحث الثاني: العوامل الذاتية.	٥٥
❖ المبحث الثالث: العوامل الحضارية.	٦٣
الفصل الثاني **الدراسة الموضوعية**	٧٣ -٢٣٤
المبحث الأول: مظاهر الحضارة الإنسانية.	٧٥
المبحث الثاني: مظاهر الحضارة الفكرية.	٩٦
المبحث الثالث: مظاهر الحضارة الاجتماعية.	١٢٥
المبحث الرابع: مظاهر الحضارة السياسية.	١٦٥
المبحث الخامس: مظاهر الحضارة العمرانية والطبيعية	٢٠٤
الفصل الثالث **الدراسة الفنية**	٢٣٥ -٣٧١

المبحث الأول: الأثر الحضاري في بناء القصيدة:	٢٣٧
١ -مقدمة القصيدة.	٢٣٨
٢ -الخواتيم	٢٥٢
المبحث الثاني: الأثر الحضاري في الألفاظ والتراكيب:	٢٦٣
١ -الألفاظ.	٢٦٤
٢ -العبارات والتراكيب.	٢٨٥
المبحث الثالث: الأثر الحضاري في الصورة.	٣٠٩
- مصادر الصورة المتأثرة بالحضارة:	٣١٥
١ -العلم والثقافة والفكر.	٣١٥
٢ -الطبيعة.	٣٢٠
٣ -مظاهر الحضارة المادية والترف.	٣٢٨
المبحث الرابع: الأثر الحضاري والإيقاع.	٣٣٨
أ -الوزن.	٣٤٠
ب -القافية.	٣٥٢
-الخاتمة.	٣٧٣
-فهرس المصادر والمراجع.	٣٧٩
-فهرس الموضوعات.	٤٠٧
-ملخص الرسالة باللغة العربية.	أ
-ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية.	A